سعيد حوّى

الأساس في التفسير

المجلد الثاني

ويشتمل على:

تفسير سورة آل عمران.

تفسير سورة النساء.

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

نحن نعتقد أن هذا التفسير انفرد بنظرية جديدة في فهم الوحدة القرآنية - في علمنا - فلقد كان المفسرون على اتجاهات متعددة في هذا الموضوع ، بعضهم أهمله كلية ، وبعضهم تكلم فيه ولكن في حدود وحدة السورة ، وبعضهم تكلم فيه ولكن في حدود الوحدة الموضوعية الكلية للقرآن ، بمعنى أن المعاني القرآنية تتكامل ولا تتعارض ، وبعضهم تكلم فيه من حيث إن نهاية السورة السابقة لها صلة ببداية السورة اللاحقة ، **ونحن مع ملاحظتنا لهذا كله نرى أن هناك شيئاً آخر قد غفل عنه المفسرون** وحاولناه في هذا التفسير ، ونعتقد أن هذه هي الميزة لهذا التفسير ، إذ ما من شيء فيه إلا ويمكن أن يشاركنا فيه غيرنا ، فإذا زاد في جانب فلربما نقص في جانب آخر ، ولقد تحدثنا في مقدمة المجلد الأول عمّا استهدفناه في هذا التفسير بل في السلسلة كلها فلا نعيده .

وفي سورة البقرة حاولنا قدر الإمكان أن نبرز وحدة السورة ، ولكنا من سورة آل عمران سنحاول أن نبرز وحدة السورة مع إبرازنا لصلة هذه السورة في السياق القرآني العام ، فلقد مر معنا من قبل أنه من خلال السنَّة ، ومن خلال المعاني يتضح لنا أن هذا القرآن أربعة أقسام : قسم السبع الطوال ، وقسم المئين ، وقسم المثاني ، وقسم المفصَّل ، وأن قسم السبع الطوال ينتهي بنهاية سورة براءة ، فهذا القسم في الحقيقة ثمانية سور : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، وبراءة .

ومر معنا أن الأنفال وبراءة تشبهان أن تكونا سورة واحدة ؛ ولذلك فإنه لم يفصل بينهما بالبسملة .

وكنا ذكرنا كذلك من قبل ، أن السّوَر اللاحقة لسورة البقرة من قسم الطوال ، تُفصِّل في المعاني التي وردت في سورة البقرة . فمما ذكرناه هناك أن آل عمران . تقابل الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة ، وكما أن هذه الآيات مبدوءة بـ ﴿ **الٓمٓ** ﴾ ، فإن « آل عمران » مبدوءة بـ ﴿ **الٓمٓ** ﴾ ، وكما أن هذه الآيات مختومة بكلمة الفلاح : ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ ، فإن سورة آل عمران مختومة بكلمة الفلاح : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ .

وعلى هذا ، فسورة آل عمران تلقي أضواء التفصيل على الآيات الأولى من سورة البقرة . وسورة النساء تقابل بعد ذلك في سورة البقرة ﴿ **ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ ونلاحظ أن سورة النساء مبدوءة بـ

﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالًا كثيراً ونساءً** ﴾ . وليلاحظ الشبه بين آية البقرة وبداية سورة النساء . والمائدة بعد ذلك تقابل في سورة البقرة : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ... ﴾ . ونلاحظ أن سورة المائدة مبدوءة بـ ﴿ **يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾ . والأنعام بعد ذلك تقابل في سورة البقرة : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ... ﴾ . ويلاحظ أن سورة الأنعام مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **الحمد لله الذي خلق السمٰوٰتِ والأرض وجعل الظلماتِ والنورَ ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلون * هو الذي خلقكم من طين** ...﴾ . والأعراف بعد ذلك تقابل في سورة البقرة : ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ . ويلاحظ أن سورة الأعراف مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **آلمٓصٓ * كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرجٌ منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتَّبِعوا ما أنزل إليكم من ربكم** ... ﴾ . والأنفال وبراءة – وهما في موضوع واحد – يقابلان في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه** ... ﴾ . بعد آية فرضية القتال ، ويلاحظ أن سورة الأنفال مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ... ﴾ . ثم يكون مضمون سورتي الأنفال وبراءة في معاني القتال .

فأنت تلاحظ ملاحظة أولية – ستتضح لك فيما بعد – أن هذه المجموعة تلقي أضواء على آيات في سورة البقرة بنفس الترتيب الموجود في سورة البقرة ، ومن ثم ندرك بعضاً من حديث رسول الله ﷺ عن سورة البقرة : « إن كادت **لتستحصي** الدين كله » وندرك سرّاً من أسرار الإعجاز في هذا القرآن العظيم . وسيتضح لنا من خلال تفسير بقية السبع الطوال هذا المعنى بشكل أعمق .

على أن هذا التفسير وإن كان يركز على موضوع الوحدة القرآنية ، والسياق القرآني العام ، فهو كذلك يركز على وحدة السورة ، وعلى إبراز سياقها الخاص ، بل إن هذه النظرية التي اعتمدناها في موضوع الوحدة القرآنية ، أعطت السياق الخاص لكل سورة آفاقاً جديدة .

إن لهذا القرآن ملامح عامة مشتركة ، وله وحدته وترتيبه ، ثم إن لكل سورة من سُوَرِه ملامحها الخاصة بها ، وسياقها الخاص بها ، وقد عبّر صاحب الظلال عن

الشخصية الخاصة لكل سورة آنق تعبير - وهو يتحدث عن إحدى السور - بقوله :

« إلا أن لكل سورةٍ من سور القرآن شخصيتها الخاصة ، وملامحها المميزة ، ومحورها الذي تشد إليه موضوعاتها جميعاً .. ومن مقتضيات الشخصيةِ الخاصة ، أن تتجمع الموضوعات في كل سورةٍ ، وتتناسق حول محورها في نظام خاص بها ، تبرز فيه ملامحها ، وتتميز به شخصيتها كالكائن الحي المميز السمات والملامح ، وهو - مع هذا - واحد من جنسه على العموم .

ونحن نرى في هذه السورة - ونكاد نحس - أنها كائنٌ حيٌّ، يستهدف غرضاً معيناً ، ويتوخى تحقيقه بشتى الوسائل .. والفقراتُ والكلماتُ في السورة ، هي الوسائل التي تبلغ بها ماتريد ! ومن ثَم نستشعر تجاهها - كما نستشعر تجاه كل سورة من سور هذا القرآن - إحساس التعاطف والتجاوب مع الكائن الحي ، المعروف السمات ، المميز الملامح ، صاحب القصد والوجهة ، وصاحب الحياة والحركة ، وصاحب الحس والشعور ! » اهـ .

وسنحاول في هذا التفسير ، أن نبذل جهداً متوازناً ، لإبراز الوحدة القرآنية والسياق العام ، مع إبراز وحدة السورة وسياقها الخاص ، مع محاولتنا تفهيم القرآن بالقدر المستطاع لنا ، مع التركيز على قضايا بعينها ، وعلى ضوء ذلك ، نسير على بركة **الله - عز وجل - وهذا أوان الشروع في السورة الثانية من قسم الطوال .**

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

وَهِيَ السُّورَةُ الثَّالِثَةُ بِحَسَبِ الرَّسْمِ القُرْآنِيِّ

وَهِيَ السُّورَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ قِسْمِ الطِّوَالِ

وَآيَاتُهَا مِائَتَانِ آيَةً

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

كلمة في سورة آل عمران :

كنا لاحظنا ملاحظة مبدئية ، أن الآيات الأولى في سورة البقرة ، بدأت بقوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ** ﴾ . وأن تلك الآيات التي وصفت المتقين في سورة البقرة ، انتهت بقوله تعالى : ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ . وأن سورة آل عمران مبدوءة بـ ﴿**الٓمٓ**﴾ ومنتهية بقوله تعالى : ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ . فآخر آية فيها هي قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ .

وقلنا كذلك مبدئيا : إن سورة آل عمران تفصِّل في الآيات الأولى من سورة البقرة . فإذا كان الكلام عن المتقين في سورة البقرة ، قد استتبع الكلام عن الكافرين والمنافقين ، حتى جاء قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الناس** ﴾ . فإننا كذلك نفترض أن سورة آل عمران يستتبع الكلام فيها عن صفات المتقين أن يكون فيها تفصيل لما ورد في مقدمة سورة البقرة، أي لما ورد في العشرين آية الأولى . هذا كله ندّعيه وعلينا أن نأتي بالبرهان .

لنلاحظ الآن بعض الأمور : أول آيتين في البقرة هما : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ . فهنا حديث عن الكتاب مباشرة وليس فيهما حديث عن مُنزّل الكتاب ، والملاحظ أنَ سورة آل عمران تبدأ بالحديث عن مُنزّل الكتاب سبحانه : ﴿ **الٓمٓ * الله لا إله إلا هو الحيُّ القيومُ * نزَّلَ عليك الكتاب بالحق مُصدِّقاً لما بين يديه** ﴾ . كما نلاحظ أنه بعد آيات يأتي قوله تعالى : ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ...** ﴾ .

وبعد الآيتين الأوليين من سورة البقرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ . والملاحظ أن القسم المبدوء بقوله تعالى : ﴿ **إن الله اصطفى آدم ...**﴾ . من آل عمران يرد فيه قوله تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب** ﴾ . فكأنه فصل من فصول الإيمان بالغيب تفصِّل فيه سورة آل عمران ، وبعد الآية الثالثة من البقرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ . والملاحظ أن الآية قبل الأخيرة في سورة آل عمران هي : ﴿ **وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لايشترون بآيات الله ثمناً قليلًا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إنّ الله سريع الحساب** ﴾ . ألا ترى أن هذه النّقاط العَلام الواضحة تدلّ على صحة ما ذهبنا إليه ؟! ولكن الأمر سنرى براهينه

بشكل أوضح .

☆ ☆ ☆

والآن نريد أن نذكر لك شيئاً جديداً حول الوحدة القرآنية لم نذكره من قبل : **إن** مقدمة سورة البقرة هي محور سورة آل عمران كما ذكرنا ، ولكن مقدمة سورة البقرة لها امتداداتها في سورة البقرة نفسها ، فمثلًا في مقدمة السورة ورد قوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ . ومن امتدادات هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ ... **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين** ﴾ . ومن امتداداته أيضاً قوله تعالى : ﴿ . **والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** ... ﴾ .

وفي مقدمة السورة ورد قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ... ﴾ . ومن امتدادات هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ **وآمِنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم** ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم** ...﴾ . وإذن ففي سورة البقرة نفسها آياتٌ تفصّل آيات . فإذا اتضح ذلك فلننقل كلمة أخرى سيأتي دليلها : إن سورة آل عمران محورها مقدمة سورة البقرة ، ولكنها تفصِّل وتبني على المحور وامتداداته . ومن ثم فإن الحوار الذي جرى في سورة البقرة مع أهل الكتاب – في دعوتهم إلى الإيمان – نجد في موضوعه – قسما برأسه في آل عمران ، ومبنياً على الحوار الذي تمّ في سورة البقرة . فمثلًا : في سورة البقرة كلام عن النسخ . وفي سورة آل عمران ضرب مثل على نوع من النسخ حدث في حياة يهود : ﴿ **إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنزَّل التوراة** ﴾ . وقال تعالى في سورة البقرة : ﴿ **وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملةَ إبراهيم حنيفا** ﴾ . ﴿ **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سَفِه نفسَهُ** ﴾ . وفي سورة آل عمران : ﴿ **لِمَ تحآجّون في إبراهيم وما أُنْزِلَتِ التوارةُ والإنجيل إلا من بعده** ﴾ . ﴿ **إن أولى الناس بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهذا النبي والذين آمنوا** ﴾ . وهكذا نجد أن سورة آل عمران تفصيل لمقدمة سورة البقرة ، وامتداد معاني المقدمة في السورة كلها . فالأمر بالنسبة للوحدة القرآنية أوسع مما صورناه مبسطين في أول هذا التفسير ، وهو شيء لاينقضي منه العجب كما سنرى .

وحتى الآن نعتبر أن كل ما قلناه دعوى وعلينا أن نقيم عليها البرهان ، ونكملُ دعوانا فنقول : إن سورة آل عمران تنقسم إلى خمسة أقسام ، واضحة المعالم ، وقد دلّنا على ذلك : المعاني ، وبعض المعالم . فالقسمان الأولان نهايتهما متشابهة ، والقسم الثالث نهايته

مشابهة لبدايته ، والقسمان الأخيران بدايتهما متشابهة :

القسم الأول : يمتد من الآية الأولى إلى نهاية الآية (٣٢) وخاتمته : ﴿ **فإن تولوا فإن الله لايحب الكافرين** ﴾ .

القسم الثاني : ويمتد من الآية (٣٣) : ﴿ **إن الله اصطفى آدم ..** ﴾ . وينتهي بنهاية الآية (٦٣) التي خاتمتها : ﴿ **فإن تولَّوْا فإن الله عليم بالمفسدين** ﴾ . لاحظ التشابه بين نهايتي القسمين !.

القسم الثالث : ويمتد من الآية (٦٤) إلى نهاية الآية (٩٩) . بدايته قوله تعالى : ﴿ **قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ...** ﴾ . ونهايته قوله تعالى : ﴿ **قل ياأهل الكتاب لِمَ تصدُّون عن سبيل الله** ﴾ . لاحظ أن البداية والنهاية فيها : ﴿ **قل ياأهل الكتاب** ﴾ .

القسم الرابع : ويمتد من الآية (١٠٠) إلى نهاية الآية (١٤٨) وبدايته .

﴿ **ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتواالكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين** ﴾ .

القسم الخامس :

وبدايته من الآية (١٤٩) : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين** ﴾ . وينتهي بنهاية السورة ، لاحظ التشابه بين بدايتي القسمين !!

وسيأتي البرهان والتفصيل فيما بعد .

فلنبدأ – على بركة الله – تفسير السورة ، وقد رأينا من قبل الأحاديث الواردة في فضلها مع سورة البقرة . ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران ؛ فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو – غيايتان – أو كأنهما فرقان من طير صوافّ ، يحاجان عن أهلهما يوم القيامة » . وكان سعيد بن جبير يروي عن عمر قوله : « من قرأ البقرة وآل عمران في ليلة كان – أو كتب – من القانتين » . وكان يزيد بن الأسود الجرشي يحدّث : أنه من قرأ البقرة وآل عمران في يوم برىء من النفاق حتى يمسي ، ومن قرأهما في ليلة برىء من النفاق حتى يصبح . قال فكان يقرؤهما كل يوم وليلة سوى جزئه .

القسم الأول من سورة آل عمران

يمتد هذا القسم من الآية (الأولى) حتى نهاية الآية (٣٢) ، وهو يتألف من مقطعين : **المقطع الأول** : وهو ثمان عشرة آية بدايته : ﴿ **الٓمٓ . الله لا إله إلا هو الحيُّ القيومُ** ﴾ . ونهايته : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط** ﴾ . لاحظ أن بداية المقطع حديث عن قيّوميّته - جل جلاله - وأن خاتمته حديث عن قيوميته كذلك .

والمقطع الثاني : بدايته : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام ...** ﴾ . ونهايته : ﴿ **قل أطيعوا الله والرسول فإنْ تولّوْا فإنَّ الله لايحب الكافرين** ﴾ .

وبين المقطع الأول والثاني تلاحم عجيب سنراه ، ومن ثم فإنهما يشكلان قسماً واحداً . والقسم كله يفصّل في مقدمة سورة البقرة - كما سنرى - فلنعرض مقطعيه :

* * * *

المقطع الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ

ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾

☆ ☆ ☆

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ

بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

☆ ☆ ☆

كلمة في المقطع :

(١) يتألف المقطع من ثلاث فقرات ، فقرة تتحدث عن القرآن وإنزاله ومنزّله ونوعي آياته ، والموقف الصحيح منهما ، وفقرة تتحدث عن الكافرين ، وفقرة تتحدث عن تزيين الحياة الدنيا للناس ، وتبيان أن الآخرة خير لمن كان تقياً . والمقطع يبدأ بالكلام عن وحدانية الله وقيوميته ، وينتهي بهذا المعنى ، وهذا الذي دلنا على البداية والنهاية ، وكما تحدثت البدايةُ والنهاية عن الوحدانية والقيومية ، فقد تحدثت البداية والنهاية عن عزته - جل جلاله - وحكمته .

ومن مظاهر وحدانيته وقيوميته وعزته وحكمته : إنزال الكتب ، وامتحان الخلق بمعانيها ومحاسبتهم عليها ، ومعاقبة الكافرين وإثابة المؤمنين .

ومن مظاهر وحدانيته وقيوميته وعزته وحكمته : أن ينصر المؤمنين على الكافرين في الدنيا والآخرة ، ويعذّب الكافرين في الدنيا والآخرة .

ومن مظاهر وحدانيته وقيوميته وعزته وحكمته : تزيين الحياة الدنيا للناس لتقوم هذه الحياة ! وليبتلي بذلك خلقه وليمحص أهل التقوى من غيرهم ! .

(٢) الفقرة الأولى ذكرتْ موقفَ أهل الإيمان من هَدْيِهِ المنزل ، وتوعدت الكافرين ، والفقرة الثانية ذكرتْ موقِفَ الكافرين من هديه وما يستحقونه بسبب ذلك ، وذكرتْ الفقرةُ الثالثة تزيين الحياة الدنيا ، فكأن الفقرة الثالثة فيها تعليل لسبب كفر الكافرين ، ومن ثم جاءت الآياتُ - بعد ذلك - لتنهض بهمة المؤمنين إلى الله .

(٣) قلنا : إن محور سورة آل عمران هو مقدمة سورة البقرة ، فلنلاحظ الآن مايلي : في مقدمة سورة البقرة جاء قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتابُ لاريبَ فيه**

هدىً للمتقين ﴾ . وفي الفقرة الأولى من المقطع الأول جاء كلام عن منزل القرآن ، وأدب الاهتداء بالقرآن في اتباع المحكم ، والتسليم للمتشابه ، والدعاء لله - عزوجل - بالهداية . وفي مقدمة سورة البقرة جاء كلام عن الكافرين : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ...** ﴾ ﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ . وفي الفقرة الثانية - من المقطع الأول من سورة آل عمران - كلام عن الكافرين وما أعدَّ الله لهم من العذاب ، واستحقاقهم عذاب الدنيا ؛ وأَمْرٌ للمؤمنين في أنواع من الخطاب يخاطبون بها الكافرين .

وفي مقدمة سورة البقرة تأتي فقرة عن المنافقين بدايتها : ﴿ **ومن الناس** ﴾ . والفقرة الثالثة من هذا المقطع هي : ﴿ **زُيِّنَ للناس ...** ﴾ . وقد وُصِفَ المتَّقون في مقدمة سورة البقرة بالاهتداء بالقرآن ، وبالإيمان بالغيب ، وبإقام الصلاة ، وبالإنفاق ، وقد جاء في أواخر المقطع ما هو تفصيل لهذه الصفات : ﴿ **الذين يقولون ربَّنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار * الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار** ﴾ . فالمقطع إذن فصَّل في مقدمة سورة البقرة نوع تفصيل .

(٤) قلنا : إن معاني مقدمة سورة البقرة لها امتداداتٌ في سورة البقرة نفسها وههنا لنفصّل قليلا : بعد المقدمة في سورة البقرة يأتي قوله تعالى في وصف النار : ﴿ **وَقُودُهاالناسُ والحجارةأُعدتْ للكافرين** ﴾ . وكأن هذا المعنى امتدادٌ للحديث عن الكافرين في المقدمة . وههنا يقول الله - عزوجل - عن الكافرين في آل عمران : ﴿ **وأولئك هم وقود النار** ﴾ . وبعد المقدمة من سورة البقرة يأتي قوله تعالى : ﴿**وبَشِّر الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ أنَّ لهم جنَّات تجري من تحتها الأنهارُ كلما رزقوا منها مِنْ ثمرةٍ رِزْقاً قالوا هذا الذي رُزِقنا من قَبْلُ وأُتُوا به متشابهاً ولهم فيها أزواجٌ مُطهَّرةٌ وهم فيها خالدون** ﴾ .

وذلك امتداد للكلام عن المتقين في أول السورة . وههنا يأتي تفصيل للإيمان والعمل الصالح والجزاء ﴿ **قلْ أَؤُنبِّئكم بخير من ذلِكمْ للذين اتقوا عند ربهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وأزواجٌ مطهَّرةٌ ورِضوانٌ من الله** ﴾ . وفي سورة البقرة آية البر التي فصّلت في وصف المتقين فكأنها امتداد لمقدمتها ، فذكرت الصبرَوالصدقَ من صفات المتقين ، وههنا يأتي تفصيل لذلك كله :

﴿**قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار**

خالدين فيها وأزواج مطهَّرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد * الذين يقولون ربَّنا إننا آمنَّا فاغْفِرْ لنا ذنوبنَا وَقِنَا عذاب النَّارِ * الصابرين والصادقين والقانتين والمنفِقِينَ والمستغفرين بالأسحار ﴾ .

ومن السياق نفهم أن من لم تجتمع له مجموعة هذه الخصال لايستطيع أن يتخلص من أسْرِ شهوات الحياة الدنيا فيضبطها على أمر الله .

☆ ☆ ☆

ونحب قبل أن نبدأ عرض المعاني العامة للمقطع أن نعقد فصلاً نتحدث فيه عن بعض أقوال المفسرين في الحروف التي بدئت بها بعض السُّوَر استكمالًا لما كنا قد ذكرناه من قبل .

فصل في الحروف التي بدئت بها بعض السور القرآنية :

قلنا من قبل : إن مجموع ماذكره المفسرون في شأن الحروف ، لا يعدو أن يكون من باب تسجيل الملاحظات حولها دون أن يكون تفسيراً لها ، ولم يزل المفسرون ولايزالوا يسجلون ملاحظات . ومن أهم الملاحظات التي سجلت حول هذه البدايات ثلاث ملاحظات :

الأولى : أن فيها إشارة إلى الإعجاز .

والثانية : وهي امتداد لقضية الإعجاز أنها تشير إلى نسبة ورود الأحرف المبدوءة بها السورة بالنسبة لسور أخرى لم ترد في أوائلها هذه الأحرف .

والثالثة : أن هذه الأحرف جزء من فواتح السور التي ندرك من خلالها ، ومن خلال معان أخرى مفاتيحَ الوحدة القرآنية ، مما سنراه في هذا التفسير . ونزيد ههنا فنقول :

إن بعضهم اعتبر كل حرف من هذه الأحرف ، فيه إشارة إلى كلمات . فالألف مثلًا تشير إلى آلاء الله ، واللام تشير إلى لفظ الجلالة « الله » وهكذا .

وذهب بعضهم إلى أنها أسماء للسور التي وردت فيها ، وذهب بعضهم إلى أنها تشير إلى مُدَد أقوام وآجالٍ بحساب الجُمَلْ ، وأوّل من حاول أن يبني على هذا الفهم ، اليهود في زمن النبوة ، إذ ظنوا أن في ذلك إشارة إلى مدة أجل الإسلام ، كما سنرى الرواية في

ذلك ، وقد بنى بعضهم على هذا الاتجاه واستخرج أموراً ، ومن كلام الألوسي :

« ومما يستأنس به لذلك ماروواه العز بن عبدالسلام : أن علياً رضي الله عنه استخرج وقعة معاوية من (حمٓ عٓسٓقٓ) واستخرج أبوالحكم عبدالسلام بن برجان في تفسيره (فتح بيت المقدس) سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة من قوله تعالى ﴿ **الٓمٓ غُلبت الروم** ﴾ .«وهناك أقوال كثيرة أخرى يذكرها المفسرون : من أنها لإيقاظ السامع أو التالي ، أو للإشارة إلى مافي هذا القرآن من جديد غير معتاد . ولبعض الكفرة رأيٌ في هذا الشأن ، نسجله ليعرف ويتأمل ، وهو أن هذه الأحرف تحدد جرس السورة ، فهي بمثابة المفتاح لطريقة الأداء . وما من أحد يدعي أنه أصاب في شأنها مراد الله فيها ، ولكن في كل ما قيل ويمكن أن يقال – مما يستطيع أصحابه أن يدللوا عليه – تظهر بعض أسرار هذه الحروف ، ويظهر بذلك بعض أسرار الإعجاز .

ومن كلام الألوسي فيها :

« ومن عجائب هذه المفاتح أنها نصف حروف المعجم على قول ، وهي موجودة في تسع وعشرين سورة ، عدد الحروف كلها على قول ، واشتملت على أنصاف أصنافها من المهموسة والمجهورة والشديدة والمستعلية والمنخفضة وحروف القلقلة » . ا هـ .

وبعد أن عرض ابن كثير للأقوال الكثيرة في هذه الفواتح ، رجّح أن يكون المراد منها الإشارة إلى الإعجاز والتحدي ، ثم ختم كلامه عنها برد كلام من زعم أنها دالة على معرفة المدد ، فلننقل كلامه لأن فيه سرداً لما نُقل عن اليهود في هذا الشأن :

قال ابن كثير : « وأما من زعم أنها دالّة على معرفة المدد وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم ، فقد ادعى ماليس له ، وطار في غير مطاره ، وقد ورد في ذلك حديث ضعيف وهو مع ذلك أدلّ على بطلان هذا المسلك به على صحته ، وهو مارواه محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي : حدثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبدالله بن زياد قال : مرّ أبوياسر بن أخطب في رجال من اليهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿**الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه** ﴾ فأتى أخاه حييّ بن أخطب في رجال من اليهود فقال : تعلمون والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله تعالى عليه ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه** ﴾ فقال : أنت سمعته . قال : نعم فمشىٰ حييّ بن أخطب في أولئك النفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ

فقالوا : يامحمد ألم يذكر أنك تتلو فيما أنزل الله عليك ﴿ **الٓمٓ** * **ذلك الكتاب** ﴾ ؟فقال رسول الله ﷺ : « بلى » فقالوا : جاءك بهذا جبريل من عند الله ؟ فقال : « نعم » . قالوا : لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بيَّن لنبي منهم مامدة ملكه وما أجَل أمته غيرك . فقام حييّ بن أخطب وأقبل على من كان معه فقال لهم : الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، فهذه إحدى وسبعون سنة ، أفتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه ، وأجَل أمته إحدى وسبعون سنة ؟ . ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال يامحمد هل مع هذا غيره ؟ فقال نعم ، قال ماذاك قال ﴿ **الٓمٓصٓ** ﴾ قال هذا أثقل وأطول . الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والصاد سبعون(١) فهذه إحدى وثلاثون ومائة سنة : هل مع هذا يامحمد غيره ؟ قال : نعم ، قال : ماذاك ؟ قال : الٓر . قال : هذا أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والراء مائتان ، فهذه إحدى وثلاثون ومائتان سنة . فهل مع هذا يامحمد غيره ؟ قال : « نعم » قال ماذا ؟ قال : « الٓمٓر » قال : هذا أثقل وأطول : الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والراء مائتان ، فهذه إحدى وسبعون ومائتان . لقد لُبِّس علينا أمرك يامحمد حتى ماندري أقليلًا أعطيت أم كثيراً . ثم قال : قوموا عنه ، ثم قال أبوياسر لأخيه حيي بن أخطب ولمن معه من الأحبار : ما يدريكم لعله قد جمع هذا كله لمحمد إحدى وسبعون ، وإحدى وثلاثون ومائة ، وإحدى وثلاثون ومائتان ، وإحدى وسبعون ومائتان ، فذلك سبعمائة وأربع سنين ؟ فقالوا : لقد تشابه علينا أمره فيزعمون أن هؤلاء الآيات أُنزلت فيهم ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات** ﴾ فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي وهو لايحتجّ بما انفرد به ، ثم كان مقتضى هذا المسلك - إن كان صحيحاً - أن يحسب مالكل حرف من الحروف الأربعة عشر التي ذكرناها ، وذلك يبلغ منه جملة كثيرة ، وإن حسبت مع التكرر فَأَطَمُّ وأعظم والله أعلم !!! .

أقول : إن حسبنا مجموع هذه الأحرف بحساب الجُمَل - على بعض اتجاهات أهله - فإنّ مجموعها يكون (٢٩٨٠) ألفان وتسعمائة وثمانين عاماً . وعلى فرض صحة الحديث ، فالحديث لا دليل فيه كما قال البيضاوي - **معلقاً على رواية أبي العالية** -: **والحديث لا دليل فيه لجواز أنه عليه الصلاة والسلام تبسَّم تعجباً من جهلهم ..**

(١) هكذا في ابن كثير ولعلها ستون ؛ لأن مجموع ماذكره إحدى وأربعون ومائة .

أقول : وسنرى كيف أن ابن كثير سينقل نقلًا غريباً أيده الواقع عند تفسير (حمٓ عٓسٓقٓ) في سورة الشورى مما يجعلنا لانغلق البحث في هذا الباب .

ولننتقل إلى ذكر المعنى العام للمقطع الأول من القسم الأول من سورة آل عمران :

المعنى العام للمقطع :

ـــ **في الآية الثانية** بعد ﴿ الٓمٓ ﴾ يخبر الله - عزوجل - عن وحدانيته واتصافه بالحياة ، والقيوميّة ، فهو قائم بذاته ، وغيره لايقوم إلا به - تعالى - هو لايفتقر لغيره ، وغيره مفتقر إليه ، فهو وحده الإله ، ومن مقتضى ألوهيته وقيوميته ما ذكره في الآية الثالثة .

ـــ يخبر تعالى في **الآيتين الثالثة والرابعة** أنه أنزل القرآن على محمد ﷺ بالحق الذي لاشك فيه ولا ريب، وأن هذا الكتاب يُصدِّق الكتب المنزّلة قبله من السماء، وكما أنزل هذا القرآن على محمد ﷺ ، أنزل التوراة على موسى ، وأنزل الإنجيل على عيسى عليهما السلام ، من قبل أن ينزّل هذا القرآن ، من أجل هداية الناس ؛ وهذا من مقتضى قيوميته أن يهدي عباده ويبين لهم الطريق ، وكما أنزل التوراة والإنجيل هدى للناس من قبل ، فقد أنزل هذا القرآن هادياً ، فارقاً بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والغي والرشاد ، بما ذكر الله فيه من الحجج والبينات ، والدلائل الواضحات ، القاطعة ، وبيَّنه ووضَّحه وفسَّره ليهدي ويرشد وينبِّه ، وإذا كان هذا مقتضى ألوهيته ووحدانيته وقيوميته ؛ فقد وجب على الخلق أن يهتدوا ويؤمنوا ويعلموا ؛ فمن لم يفعل فقد استحق العذاب . ومن ثَم ذُيِّلت الآية بتقرير استحقاق العذاب الشديد يوم القيامة للذين جحدوا بآيات الله ، وأنكروها ، وردوها - وما ردوها إلا بالباطل - ثم وصف الله - عزوجل - ذاته بالعزة ، فهو منيع الجناب ، عظيم السلطان ، ووصف ذاته بالانتقام لمن كذَّب بآياته ، وخالف رسله الكرام ، وأنبياءه العظام .

ـــ **وفي الآية الخامسة** يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماء والأرض ، لايخفى عليه شيء من ذلك ، وهذا مرتبط بموضوع الألوهية والقيوميّة ، فالإله الحق لابد أن يكون عليما بكل شيء ، وبدون علم لاتكون القيومية .

ـــ ويدلل تعالى - في **الآية السادسة** - على إحاطة علمه ، بتصويرنا في أرحام أمهاتنا كما يشاء ، من حسن وقبح وصفات وخصائص تُحيِّر عقل المتأمل !! **فأي علم عظيم**

عِلْمُه جل جلاله ؟!! وكما دلّ على إحاطة علمه في الآية الخامسة بتصويرنا في الأرحام دلّل في الآية السادسة على إحاطة علمه بإنزاله هذا القرآن على ماهو عليه ؛ إذ أخبر في الآية **السابعة** أنه أنزل هذا القرآن وجعل آياته نوعين . النوع الأول : الآيات المحكمات ، أي : البيّنات الواضحات الدّلالة التي لاتلتبس على أحد . والنوع الآخر : الآيات التي فيها اشتباه في الدّلالة على كثير من الناس - أو بعضهم - وذلك امتحان لعباده من أجل أن يردوا ما اشتبه إلى الواضح منه ، ويحكِّموا محكمه في مُتَشَابِهِهِ . وذلك لأنه أودع في هذا الكتاب من الكمالات ، والعلوم ما لا يحيط به إلا هو، فكانت عباراته على ما ذكر . وإذن ففي الآية تدليل على إحاطة علمه .

وكما قلنا : فإن إحاطة العلم هي مقتضى الألوهية والقيومية فلنَر كيف كان موقف الناس من كتابه ؟:

أما المنحرفون ، الضالون ، الزائغون ، فهؤلاء يتركون المحكم ، ويتّبعون المتشابه ، تعمّداً منهم ، لأنهم يستطيعون أن يحرِّفوا المتشابه إلى مقاصدهم الفاسدة ، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه إليه ، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه ، لأنه دافع لهم ، وحجة عليهم ، وإنما يفعلون ذلك من أجل تضليل الناس ، ومن أجل حمل القرآن على أهوائهم ، فيفسرونه بالهوى لا بالعلم . وأما المهتدون فهم الراسخون في العلم ، الذين يردّون المتشابه إلى المحكم ، ويقرّون بأن المحكم والمتشابه من عند الله ، والجميع حق وصدق ، وكل واحد منهما يصدّق الآخر ويشهد له ؛ لأن الجميع من عند الله ، وليس وحي الله بمختلف ولا بمتناقض ، ثم ذيّلَ الله - عز وجل - الآية بتبيان أن أصحاب العقول السليمة والفهوم المستقيمة هم الذين يفهمون ، ويعقلون المعاني على وجهها ، ويتدبّرون ويقفون عند الحدود ، فهؤلاء هم الذين أُعطوا الألوهيّة حقها ، وهؤلاء كما أقروا للقرآن - بما فيه من حق - فإنهم كذلك يقولون داعين الله - عز وجل - بدعوتين ذكرتهما **الآيتان الثامنة والتاسعة** في الدعوة الأولى يطلبون من الله أن لايميل قلوبهم عن الهدى بعد إذ أقامها عليه ، فيكونوا كالذين في قلوبهم زيغ يتبعون بسببه المتشابه ، كما يطلبون من الله أن يهبهم رحمة تسعهم في دنياهم وأخراهم ، مُثْنين على الله باسمه الوهاب . وإذ طلبوا من الله - عزوجل - رحمة في أحوج مايكون الخلق إلى رحمة الله يوم القيامة ، فإنهم في دعوتهم الثانية لم يقولوا سوى : ياربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم ، وتَفْصِلُ بينهم ، وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه ، وتجزي كلاً بعمله ، وما كان

عليه في الدنيا من خير وشر ، أي ياربنا نحن نعلم هذا ونِقِرُّ به ، لذلك استجب ما دعوناك به في دعوتنا الأولى : أن لا تُزغْ قلوبنا وأن ترحمنا . فهذا حال الراسخين في العلم أصحاب العقول والأفهام ، الذين يعرفون لله ألوهيَّته ووحدانيَّته وقيوميّته وعزَّته وانتقامه وإحاطة علمه ، هكذا يكون موقفهم من كتابه وهذا حالهم في الخوف منه .

إن معرفة الله مرتبطة بمعرفة هديه - المتمثل بكتابه - مع الإيمان به والتسليم له ، ومن لم تجتمع له هذه المعاني لايكون عارفاً بالله ، إذ كيف يؤمن بالله وألوهيّته وقيوميّته وعلمه ، وهو يتصور أن الله لايتدخل في شئون خلقه ولايهديهم ، وهو ينكر ماأنزل الله ويكذِّبه ؟!! ولذلك نلاحظ أنه بعدما ذكر الموقف الصحيح لأهل الإيمان منه - جل جلاله - ومن كتابه، هدّد الكافرين في الآيتين **العاشرة والحادية عشرة**، فأخبر عن الكفار بأنهم وقود النار ، وأن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم عند الله ، فتمنع عنهم عذاب الله في الدنيا والآخرة ، بل يهلكون ويعذّبون في الدنيا ، ويعذّبون يوم القيامة ، كما جرى لآل فرعون ، ومن قبلهم من المكذِّبين للرّسل فيما جاءوا به ؛ إذ إن من صفات الله أنه شديد العقاب ، أي : شديد الأخذ ، أليم العذاب ، لايمنع منه أحد ، ولايفوته شيء ؛ بل هو الفعال لما يريد ، الذي غلب كل شيء ؛ لا إله غيره ، ولا رب سواه ، وإذ بيَّن الله - عزوجل - أن الكافرين يستحقون عقوبته في الدنيا والآخرة ، أمر رسوله ﷺ - وهو أمر لنا - أن يقول للكافرين : أن عليهم الغلبة في الدنيا - وهذا بما استحقوا من عقوبة الله لهم في الدنيا - ولهم في الآخرة عذاب جهنم . وفي **الآية الثالثة عشرة** ذكر الله - عزوجل - دليلًا على أن الكافرين مغلوبون بما حدث يوم بدر من آيات ، كان من آثارها أن غلب المؤمنون - على قلتهم - الكافرين . وفي **الآية الرابعة عشرة** يخبر تعالى عمَّا زُيّن للناس من الملاذّ من النساء والبنين ، وبدأ بالنّساء ؛ لأن الفتنة بهن أشد ، ثم ذكر ما زُيّن للنّاس من الذهب والفضة والإبل والبقر والغنم ، والأراضي المتخذة للغراس والزراعة ، ثم بيّن أن هذا إنما هو زهرة الحياة الدنيا ، وزينتها الفانية الزائلة ، وأن الله عنده حسن المرجع والثواب .

هذا مضمون الآية الرابعة عشرة ؛ فما الصلة بينها وبين المقطع عامة ؟ . رأينا أنّ المقطع يدور حول موضوع معّين هو وحدانية الله وقيوميَّته ، وأن من آثار ألوهيـة الله وقيوميته أنه أنزل الكتب . وهذه الآية مرتبطة بهذا المعني : فمن آثار قيوّميّة الله أن زين للناس حبَّ الشهوات ؛ حتى تقوم هذه الحياة الدنيا ؛ فلولا حبُّ النساء ما كان زواج ، ولو لم يكن زواج ما كانت الحياة الدنيا ، ولولا حبّ البنين ماربّى أحد أولاده ؛ وبالتالي

تضيع الذرّية ، ولولا حبّ الذهب والفضة ، والأنعام والحرث ، ما كان عمل ، ولولا العمل ما قامت الحياة ، ولكنّ هذه الشهوات تحتاج إلى أن توضع لها حدود حتى لا تطغى عن الحدّ الذي تحتاجه عمارة الدنيا ؛ لأنّها إذا طغت فلم تخضع لقيود أدّت إلى عكس ما خُلقتْ من أجله ، ومن ثَمّ أنزل الله كتبه لتقوم هذه الشئون ضمن الحدود السليمة الصحيحة .

وللآية صلة أخرى في السياق سنراها .

وفي الآيات الخامسة عشرة ، والسادسة عشرة ، والسابعة عشرة يرفع الله هِمتنا إلى أن نكون طلاب آخرة ، بتبيان ما أعدّه لأهل طاعته في جناته ، كما بين متى نكون أهلًا لذلك . يقول تعالى في هذه الآيات : قل يامحمد للناس أؤخبركم بخير مما زُيّن للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها ؟ جنات تخترق بين جوانبها وأرجائها الأنهار ، من أنواع الأشربة من العسل ، واللبن ، والخمر ، والماء ، وغير ذلك ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر ، أعدها للمتقين ، وجعلها لهم ماكثين فيها أبد الآباد ، لايبغون عنها حولًا ، ولهم فيها أزواج مطهَّرة من الدنس ، والخبث ، والأذى ، والحيض ، والنّفاس ، وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا ، ومع هذا فإن لهم أن يحل الله عليهم رضوانه ، فلا يسخط عليهم بعده أبداً . ومن شأن الله - سبحانه - أنه بصير بعباده ، يعطي كلّاً بحسب ما يستحق من العطاء ، وقد بيّن أن هؤلاء إنما استحقوا(١) هذا كله بسبب كونهم من المتقين ، ثم وصف هؤلاء المتقين ، بأنهم يدعون الله طالبين غفرانه ، والعتق من النار ، وأنهم متصفون بالصبر ، والصدق ، والطاعة ، والخضوع ، والإنفاق في سبيل الله ، والاستغفار بالأسحار .

وهذه الآيات الثلاث مرتبطة كذلك بموضوع المقطع ، فكما أن عمارة الحياة الدنيا تحتاج إلى وحي من الله ، فإن دخول الجنة والوصول إلى الآخرة يحتاج إلى وحي يبيّن للإنسان الطريق ، فإذا اتّضحت هذه المعاني ، عرفنا الصِّلة بين هذا المقطع والآيات الأولى من سورة البقرة التي تصف المتقين ، بأن القرآن هداهم ، وأنهم يؤمنون بكل ماأنزل الله ، ثم يختم الله - عزوجل - هذا المقطع بما بدأه به من إعلان وحدانيّته وقيّوميته ، فيخبر الله - تعالى - في الآية الأخيرة أنه شهد ، وكفى به شهيداً ، وهو

(١) يلاحظ أن ابن كثير يستعمل كلمة (استحق) ولا يستعملها من باب أن لكل أحد حقا على الله وواجبا ، وإنما من باب أن الله - عز وجل - أوجب على نفسه لخلقه ، وهو موضوع مرتبط ببعض المصطلحات الكلامية ؛ لذلك أشرنا إليه .

أصدق الشاهدين وأعْدَلُهم ، وهو أصدق القائلين ، بأنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق ، وأن الجميع عبيده وخلقه ، وأنهم فقراء إليه ، وهو الغنيُّ عما سواه ، ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته - سبحانه - وهذه خصوصية عظيمة لأولي العلم في هذا المقام ، أنهم يشهدون قيامه - تعالى - بالعدل في جميع الأحوال ، ثم يؤكِّد - مرة أخرى - وحدانيته ، واصفاً ذاته بأنه العزيز الذي لايرام جنابه ، عظمةً وكبرياءً ، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعِهِ وقدرِهِ . ويلاحظ تكرار صفة العزة والحكمة في هذا المقطع أكثر من مرة ، فإذا ربطنا هذا بموضوع المقطع علمنا أنه لم يُنْزِل ما أنزل - سبحانه - عن ذلّة بل عن عزة وحكمة .

المعنى الحرفي

﴿ **الٓمٓ * الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ : القيوم : هو القائم بذاته فلا يحتاج إلى موجد ، ولا إلى محل ، ولا إلى ذات أخرى ، والقيوم هو الذي يفتقر إليه غيره حتى يقوم . والمعنى : أنه لا معبود بحق في الوجود إلا هو ، المتصف بالحياة التي ليس كمثلها شيء ، المتصف بالقيومية ، فهو قائم بنفسه ، وغيرُه قائمٌ به مفتقرٌ إليه .

فائدة : ورد - في الحديث - أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ و ﴿ **الٓمٓ * الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ . أقول : سنرى نصوصاً أخرى وآثاراً تتحدث عن اسم الله الأعظم فتذكر غير ما ذكر هنا ، وتكلم العلماء في ذلك محاولين الجمع بين النصوص ، أو التحقيق ، أو الرّبط بين حال الداعي وهو يدعو باسم بعينه ، والذي ينشرح له صدري أن اسم الله الأعظم مركب من مجموع الأسماء التي وردت فيها نصوص ﴿ **نزّل عليك الكتاب بالحق** ﴾ أي هو نزّل القرآن على رسوله محمد ﷺ حقاً ثابتاً لا شك فيه ، ولا ريب ولا شبهة ، ﴿ **مصدّقاً لمابين يديه** ﴾ : أي مصدِّقاً لما قبله من الكتب المنزَّلة . ﴿ **وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للنّاس** ﴾ : أي وأنزل التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى من قبل القرآن هدايةً للناس - والناس هنا إما قوم موسى وقوم عيسى عليهما السلام ، وإما كل الناس من حيث إنّ ما يقوّي الحق ، ويؤيده ، ويصدّقه ، ويدلّ عليه ، ليس خاصاً بالمكلفين به ، بل هو لكل مستفيد منه - ﴿ **وأنزل الفرقان** ﴾ : الفرقان هو الفارق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، وهل المراد به كل وحي أنزله الله ؟ أو

المراد الزبور لأنه الوحيد من الكتب الذي لم يذكر في الآية ؟ ، أو المراد به القرآن ؟ وكرر ذكره بصفة خاصة تفخيماً لشأنه ، لأنه الفارق بين الحق والباطل بما لا مزيد عليه - أقوال أقواها الأخير - ﴿ **إن الذين كفروا بآيات الله** ﴾ : المراد بآيات الله هنا كتبه المنزلة وغيرها . والمعنى : إن الذين جحدوا بها وأنكروها وردّوها ﴿ **لهم عذاب شديد** ﴾ يوم القيامة ﴿ **والله عزيز** ﴾ أي منيع الجناب ، عظيم السلطان ، ﴿ **ذو انتقام** ﴾ أي ذو عقوبة شديدة لا يقدر على مثلها أحد ، ينتقم ممّن كذّب بآياته ، وخالف رسله ، وعصى أمره .

فائدة : قال بعض العلماء : استعملت ﴿ **نزّل** ﴾ في الكلام عن القرآن ، و﴿ **أنزل** ﴾ في الكلام عن التوراة والإنجيل ، لأن القرآن نزل مُنجّما ، ونزل الكتابان جملة واحدة أقول :الأمر بالنسبة للتوراة يحتاج إلى تحقيق أوسع ، فإذا كانت التوراة هي ما جاء في الألواح ، فإنها تكون قد أنزلت جملة واحدة ، وإلا فالأمر يحتمل مزيداً من البحث ، ولنا عودة على هذا الموضوع في (سورة الأعراف) إن شاء الله .

﴿ **إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء** ﴾ أي لا يخفى عليه شيء في هذا العالم كله والدّليل على هذا ﴿ **هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء** ﴾ من الصور المختلفة : ذكورة أو أنوثة ، حُسناً أو قُبحاً ، لوناً أو آخر ...!! . ﴿ **لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ العزيز في سلطانه ، الحكيم في تدبيره .

فائدة : لما كان قطاع كبير من هذه السورة - فيما بعد - له علاقة في مناقشة النصارى ، الذين يزعمون أن المسيح ابن الله ، فإن بعض العلماء فهم : أن هذه الآية تخدم هذا المراد فيما بعد ، إذ فيها تعريض بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق كما خلق الله سائر البشر ، لأن الله صوّره في الرّحم ، وخلقه كما يشاء ، فكيف يكون إلهاً ، وقد تقلّب في الأحشاء وتنقّل من حال إلى حال ؟!.

﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات** ﴾ أي هو الذي أنزل على رسوله ﷺ القرآن ، من هذا القرآن آيات أُحكمت عباراتها ، بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه ، فهن واضحات الدلالة على المراد لا التباس فيهن ﴿ **هُنَّ أُمُّ الكتاب** ﴾ أي أصله ، أي هذه الآيات المحكمات هُنَّ أصل الكتاب ، تُحمَل المتشابهات عليها ، وتُردّ إليها ويرجع إليها عند الاشتباه ﴿ **وأُخَرُ متشابهات** ﴾ أي متشابهات ، محتملات ، تحتمل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ

والتركيب ، لا من حيث المراد ﴿ **فأما الذين في قلوبهم زيغ** ﴾ أي فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق - وهم أهل البدع والأهواء - ﴿ **فيتّبعون ما تشابه منه** ﴾ أي فيتعلقون بالمتشابه ، الذي يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق المحكم ، فهم يأخذونه لأنهم يمكنهم أن يحرّفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ، وينزلوه عليها ؛ لاحتمال لفظه لما يصرفونه ، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه ، لأنه دافع لهم وحجة عليهم ، ولماذا يفعلون ذلك ؟! بين الله - عز وجل - غرضهم الفاسد فقال : ﴿ **ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله** ﴾ الفتنة هنا المراد بها : فتنة الناس عن دينهم ، وإضلالهم وصدهم عن سبيل الله ، والمراد بالتأويل : التفسير المنحرف الموافق للهوى ، فهم إنما يتّبعون المتشابه من أجل أن يُضِلّوا المسلمين ، ومن أجل أن يستشهدوا به على أهوائهم ، فيفسروه بما يخالف المحكم ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم** ﴾ هناك كلام كثير للعلماء حول الوقف في هذا النص هل هو على لفظ الجلالة ، أو هو على كلمة العلم ؟

فعلى القول الأول يكون المعنى أن التفسير الحق للمتشابه لا يعلمه إلا الله ، وعلى القول الثاني يكون الراسخون في العلم كذلك يعلمون تأويله الحق ، والراسخون في العلم هم الثابتون فيه المتمكنون منه ، وجمهور المفسرين على القول الأول ، وجمهور الأصوليين على القول الثاني ، وما اختلفوا في الترجيح إلا لاختلافهم في فهم المحكم والمتشابه - كما سنرى في الفوائد - ﴿ **يقولون** ﴾ أي : الراسخون في العلم ، ويختلف الإعراب والمعنى والتقدير فيما إذا كان الوقف على لفظ الجلالة أو العلم ، فعلى الوقف على لفظ الجلالة : الراسخون لا يعلمون ولكنهم يسلّمون فيقولون . وعلى الاتجاه الثاني : الراسخون يعلمون ويقولون ﴿ **آمنا به كل من عند ربنا** ﴾ أي : آمنا بالمتشابه - أو الضمير يعود على الكتاب كله - أي : آمنا بالكتاب كله ، إذ كله - من المتشابه والمحكم - من عند الله الحكيم ، الذي لا يتناقض كلامه ﴿ **وما يذّكّر إلا أولوا الألباب** ﴾ أي : وما يتّعظ ويتذكر ويقف عند ما ينبغي الوقوف عنده - من إيمان وعمل - إلا أصحاب العقول ، وفي هذا إشارة إلى أن الراسخين في العلم ، هم أصحاب العقول ، وهو مدح لهم باتقاد الذهن ، وحسن التأمّل ، والقيام بالمقتضى ﴿ **ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا** ﴾ أي : إن الراسخين في العلم - أولي العقول - يقولون : ربنا لا تُمِلْ قلوبَنا عن الحق المنزل بعد إذ هديتنا إليه ، بأن جعلتنا نعمل بالمحكم ونسلّم للمتشابه ﴿ **وَهَبْ لنا من لدنك رحمة** ﴾ أي : وهب لنا من عندك نعمة

بالتوفيق ، والتثبيت ، والرِّعاية ، ثم النجاة ، والجنّة ﴿ **إنك أنت الوهّاب** ﴾ أي : إنك الكثير الهبات ، وهذا دعاء ثان لأن الثناء على الله دعاء له ﴿ **ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه** ﴾ أي ياربنا إنك ستجمع بين خلقك يوم معادهم ، وتفصل بينهم ، وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه ، وتجزي كلّاً بعمله في يوم لا شك فيه ﴿ **إن الله لا يخلف الميعاد** ﴾ أي لا تخلف الموعد – وفي قولهم إنك لا تخلف الميعاد ثناء على الله ، واعتراف له بالإلهية لأن الإلهية تنافي خلف الوعد .

فوائد :

١ – فائدة إنزال المتشابه الابتلاء به ، والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ، ولقصور الكثير من الخلق عن كثير من المعاني ، ولقصور كثير من العصور عن علوم لم يصلوا فيها إلى يقين ؛ كان في هذا القرآن متشابه ، ثم لِيُتعب العلماء قرائحهم في استخراج معانيه ، وردِّه إلي المحكم ، وليُعلَم فضل أهل الفضل ، ولترتفع درجات من أراد الله أن يرفع درجاته بالعلم ، وليعرف الخلق قصور أفهامهم عن الإحاطة بكتاب الله ، وليبقى – دائماً – في هذا القرآن ما ترتفع إليه الهمم .

٢ – قال عليه السلام – بعد أن تلا آية ﴿ **هو الذي أنزل** ... ﴾ : « إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم » رواه أحمد وفي رواية البخاري ومسلم وأبي داود : « فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم » . ويدخل في هؤلاء كل الفرق الضالة – وما أكثرها – قال عليه الصلاة والسلام « وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة . قالوا : وما هم يارسول الله ؟ قال : من كان على ما أنا عليه وأصحابي » رواه الحاكم . ولذلك فإن علينا أن نعرف عقائد أهل السنَّة والجماعة . وأن نتمسك بالكتاب والسنَّة فهماً صحيحاً ، وعملاً مستقيماً .

٣ – قال نافع بن يزيد واصفاً سمت الراسخين في العلم قال : يقال : الراسخون في العلم المتواضعون لله المتذللون في مرضاته ، لا يتعاظمون على من فوقهم ، ولا يحقرون من دونهم . وقد ورد عن رسول الله ﷺ وصف للراسخين في العلم هو : « من برت يمينه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ، ومن عف بطنه وفرجه ، فذلك من الراسخين في العلم » . ولنا عودة على هذا الموضوع .

٤ - هناك خلاف كثير ، وكلام كثير حول تفسير المتشابه وأمثلته ، وحول كون الراسخين في العلم يعلمونه أو لا يعلمونه ، وننقل مجموعة نقول تفيد في عمق الفهم :

أ - روى ابن مردويه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه منه فآمنوا به » . وروى أبو يعلى الموصلي عن أبي سلمة قال : لا أعلمه إلا عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نزل القرآن على سبعة أحرف ، والمراء في القرآن كفر - قالها ثلاثاً - ما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه- جل جلاله-». قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح ، ولكن فيه علة بسبب قول الراوي لا أعلمه إلا عن أبي هريرة .

في هذين النصّين تعريف بالموقف السليم من كتاب الله ، فما اتضح لك وضوح الشمس فاعمل به ، وما اشتبه عليك فسلّم لله فيه . روى الإمام أحمد : « سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارءون، فقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما نزل كتاب الله ليصدِّق بعضه بعضاً ، فلا تكذبوا بعضه ببعض ، فما علمتم منه فقولوا به ، وما جهلتم فكِلُوه إلى عالمه » .

ب - روى مجاهد عن ابن عباس وعائشة وعروة وغيرهم : « التفسير على أربعة أنحاء ، فتفسير لا يعذر أحد في فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله » ومن العلماء من قال : التأويل يطلق ويراد في القرآن على معنيين ، أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه ، ومنه قوله تعالى ﴿ **وقال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل** ﴾ . (سورة يوسف) وقوله ﴿ **هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله** ﴾(سورة الأعراف) أي : حقيقة ما أُخبروا به من أمر المعاد ، فإن أريد بالتأويل هذا فهذا لا يعلمه إلا الله ، وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر : وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله ﴿ **نبئنا بتأويله** ﴾(سورة يوسف) أي : بتفسيره ، فهذا يعرفه الراسخون في العلم ، لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار ، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه ، ويدل على ذلك أنه مامن شيء في كتاب الله إلا وفسّره المفسرون أو قالوا فيه ، كل على حسب ما أعطاه الله - عز وجل - من دقة الفهم وسعة العلم .

جـ- من أمثلة المتشابه في القرآن : الحروف المقطعة في أوائل السور - قاله مقاتل ابن حيان- ومن أمثلة ذلك بعض آيات الصفات - قاله بعض علماء التوحيد - وللمفسرين اتجاهات كثيرة في تفسير المحكم والمتشابه ، وما ذكرناه فيه كافٍ لإدراك الموقف الحق في هذا الموضوع .

٥ – رأينا أن من حال الراسخين في العلم ، أنهم يدعون الله ألا يزيغ قلوبهم ، وقد كان رسولنا عليه السلام يكثر في دعائه من مثل ذلك . روت أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « يامقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك » . وفي رواية عنها : كان يكثر من دعائه : « اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » . قالت : قلت : يارسول الله وإن القلب ليتقلب ! قال : نعم : ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا أنّ قلبه بين أصبعين من أصابع الله – عز وجل – فإن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه » . ورُوي نفس المعنى عن عائشة . وأصل الحديث في الصحيحين . وروى النسائي وابن حبان عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ في الليل قال : « لا إله إلا أنت ، سبحانك ، أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علماً ، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة ؛ إنك أنت الوهاب » . هذا لفظ ابن مردويه .

٦ – روى عبدالرزاق عن أبي عبدالله الصنابحي أنه صلى وراء أبي بكر الصديق رضي الله عنه المغرب ؛ فقرأ أبوبكر في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورتين من قصار المفصل وقرأ في الركعة الثالثة : قال : فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الآية ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهّاب** ﴾ .

٧ ــ ولا نجد أبلغ من الناحية العملية في معرفة الآيات المحكمات والآيات المتشابهات من الواقع الذي حدث خلال التاريخ ، فما من فرقة ضالة من فرق الأمة الإسلامية إلا وتمسكت بنصوص فهمتها فهماً خاطئاً ، وأوّلتها تأويلًا فاسداً ، ومن ثَم فإننا نستطيع أن نقول : إن ما تمسكت به هذه الفرق كله من هذا الباب – باب الآيات المتشابهات – ثم إن هناك كثيراً من الدوائر الكافرة أرادت من خلال بعض النصوص أن تثبت اتجاهها الفاسد ، في الوقت الذي تحارب الإسلام وتريد تكفير أهله ، ولكنها تستر أمرها باعتماد نصوص وإخراجها عن معناها الصحيح وإهمال المحكَم !!. فكذلك أمثال هذه النصوص يمكن اعتبارها من المتشابه .

٨ ــ نستطيع الآن من خلال الآيات الثلاث التي بدأت بالكلام عن المتشابه أن نحدد صفات الفرقة الناجية والفرق الضالة :

أما الفرقة الناجية فهي تتبع المحكم وتعمل به ، وتؤمن بالمتشابه وتسلم لله فيه مع حملها له على المحكم ، وفهمها له بما لا يتعارض مع المحكم ، مع وجود مواصفات الربانية

فيها ، من إقبال على الله وإخبات له ، وعبادة وافتقار له - وهم أهل السنة والجماعة - أما الفرق الضالة فأول مواصفاتها إهمال المحكَم واتباع المتشابه .

ولننتقل إلى المعنى الحرفي للفقرة الثانية في المقطع الأول من القسم الأول من السورة .

المعنى الحرفي للفقرة الثانية :

﴿ **إنّ الذين كفروا** ﴾ أي جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله ، ولم ينتفعوا بوحيه المنزل على أنبيائه ﴿ **لن تغنيَ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً** ﴾ أي لن تدفع عنهم الأولاد والأموال شيئاً ، إن أراد الله أن يعذبهم في الدنيا أو في الآخرة ﴿ **وأولئك هم وقود النار** ﴾ أي حطبها الذي تسجر به وتوقد ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا** ﴾ الدأب هو الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة ، والأصل أنه آتٍ من الدأب أي الكدح في العمل ثم نقل إلى الشأن والحال ، والمعنى : دأب هؤلاء الكافرين في تكذيب الحق كدأب آل فرعون ومن قبلهم ، فكما أن آل فرعون لم تغن عنهم أولادهم وأموالهم ، فأُخذوا في الدنيا وعذبوا في الآخرة فكذلك هؤلاء ﴿ **فأخذهم الله بذنوبهم** ﴾ أي فجازاهم الله بسبب ذنوبهم فأهلكهم ﴿ **والله شديد العقاب** ﴾ أي شديدٌ عقابه أليمٌ عذابه .

﴿ **قل للذين كفروا** ﴾ أي قل لكل الكافرين ، وسبب النزول وإن كان خاصاً - كما سنرى - لكن اللفظ عام ﴿ **ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنم** ﴾ أي ستغلبون في الدنيا وتحشرون يوم القيامة إلى جهنم ﴿ **وبئس المهاد** ﴾ أي وبئس المستقر جهنم ﴿ **قد كان لكم آية في فئتين التقتا** ﴾ أي قد كان للكافرين دلالة على أن الله مقر دينه ، وناصر رسوله ومظهر كلمته ومعل أمره ، ومغلوب أعداؤه ، في طائفتين التقتا للقتال يوم بدر ﴿ **فئة تقاتل في سبيل الله** ﴾ وهم المؤمنون ﴿ **وأخرى كافرة** ﴾ وهم المشركون ﴿ **يرونهم مثلَيْهم رَأْيَ العين** ﴾ أي يرى المسلمون المشركين ضعفي عدد المسلمين ، رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها ، ومع ذلك فقد غلب أولياؤه أعداءه ﴿ **والله يؤيِّد بنصره من يشاء** ﴾ كما أيَّد أهل بدر ﴿ **إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار** ﴾ أي إن في ذلك لعظة لمن له بصيرة ، وفهم ليهتدي به إلى حكم الله وأفعاله وقدره الجاري ، بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد .

فوائـد :

١ ـ المشهور أن المشركين كانوا يوم بدر ما بين التسعمائة إلى الألف ، وأن المسلمين كانوا ثلاث مائة وثلاثة عشر ، فهم ثلاثة أمثال ، بينما الآية تقول : ﴿ **يرونهم مثليهم** ﴾ فما التوفيق بين هذا وهذا ؟ وَجّه ابن جرير ذلك بقوله : « هذا ... كما تقول : عندي ألف وأنا محتاج إلى مثليهما ، وتكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف ، ويمكن أن يكون التوفيق بما ذكره الله - عز وجل - : ﴿ **وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلًا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولًا وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ (سورة الأنفال) فقلل الله المشركين في أعين المسلمين من ثلاثة أضعاف إلى ضعفين !. ويؤيد هذا ما قاله ابن مسعود : « وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلًا واحداً » .

٢ ـ ذكر محمد بن إسحق مما له علاقة بسبب نزول هذه الآية مايلي : أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ، ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال : « يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً . فقالوا : يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش ، كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا . فأنزل الله في ذلك من قولهم : ﴿ **قل للذين كفروا ستُغلبون** ... ﴾ . » .

ولننتقل إلى ذكر المعنى الحرفي للفقرة الثالثة في المقطع :

المعنى الحرفي للفقرة الثالثة :

﴿ **زُيّن للناس حب الشهوات** ﴾ أي زَيّن الله للناس حبَّ الأشياء المشتهاة مما سيذكره ، وسمى الأشياء المشتهاة بأنها شهوات إشعاراً بشدة اشتهائها ، وأشعر بتسميتها شهوات بأن المفروض أن يكون للإنسان منها موقف - والشهوة : توقان النفس إلى الشيء -، ثم بيَّن هذه الأشياء المشتهاة فقال : ﴿ **من النساء** ﴾ بدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد ، كما ثبت في الصحيح أنه عليه السلام قال : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » . ﴿ **والبنين** ﴾ جمع ابن وهم الأولاد ذكوراً وإناثاً ، وذكر البنين يشعر بأن الذكور هم المشتهون بالطباع أولًا : ﴿ **والقناطير المقنطرة من الذهب**

والفضة ﴾ القنطار هو المال الكثير ، والمقنطرة المنضدة أو المدفونة ، وسمي الذهب ذهباً – في أصل اللغة – لسرعة ذهابه بالإنفاق ، وسميت الفضة فضة لأنها تتفرق ، والفض : التفريق . ﴿ **والخيل المسوَّمة** ﴾ سميت الخيل خيلًا لأنها تختال في مشيتها ، والمسوَّمة : المعلَّمة المطهمة ، الحسان أو المرعِيَّة . ﴿ **والأنعام** ﴾ أي الأزواج الثمانية : الإبل والبقر والغنم والماعز . ﴿ **والحرث** ﴾ أي الأرض المتخذة للغراس والزراعة . ﴿ **ذلك متاع الحياة الدنيا** ﴾ أي هذا المذكور هو ما يتمتع به في الحياة الدنيا ﴿ **والله عنده حسن المآب** ﴾ أي حسن المرجع والثواب .

فائــدة :

ـــ زينت هذه الأشياء للإنسان من أجل أن تعمر الحياة الدنيا ، فإذا استعملها الإنسان ضمن ما حدّده الله – عز وجل – يكون قد حقق الحكمة من التزيين ، وأرضى الله ، وعمرت الحياة ، ولم تفسد الأرض ، وإذا تجاوز فيها ما حدّده الله ، فسدت الأرض ، وأسخط الله . قال عليه السلام : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة ، إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله » . وقال عليه السلام : « حُبِّبَ إليَّ من دنياكم : النساء والطيب وجعلت قرَّة عيني في الصلاة » .

دل ذلك على أن حب النساء – ضمن ما شرع الله ، وبقصد الإعفاف بهن ، وكثرة الأولاد منهنَّ مطلوب مرغوب فيه ، مندوب إليه .

وحب البنين إذا كان للتفاخر فهو مذموم ، أما إذا كان لتكثير النسل وتكثير المسلمين فهذا محمود ممدوح ، كما ثبت في الحديث : « تزوجوا الولود الودود ، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » .

وحب المال إن كان للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء فهو مذموم ، وإذا كان للإنفاق في القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه الخير والطاعات فهذا محمود ممدوح شرعاً .

والخيل إن أعدها الإنسان في سبيل الله فهو مأجور ، أو أعدها للولادة والاستفادة فهو مستور ، وإن أعدها لمحاربة الإسلام فهو مأزور . وروى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال : « خير مال امرىء له مهرة مأمورة ، أوسكة مأبورة » . السكة : النخل

المصفف ، والمأبورة : الملقحة . ذكرنا هذا ليعلم مما قدمناه : أن الحياة الدنيا لم تحرم علينا ، إذا ما أخذناها ضمن ما حدده الله ، واستعملناها فيما حدده الله ، ولم ننس حق الله فيها ، ولم ننس آخرته ، ولم نطغ .

ثم رفع الله – عز وجل – همتنا إلى الآخرة بعد أن بين لنا ما زينه لنا من مفردات الحياة الدنيا :

﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم** ﴾ أي قل يا محمد أؤخبركم بخير من الذي تقدم للذين اتقوا عند ربهم ﴿ **جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ أي تنخرق بين جوانبها وأرجائها أنهار العسل واللبن والخمر والماء . ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أي ماكثين فيها أبد الآبدين ، لا يبغون عنها حولا . ﴿ **وأزواج مُطهَّرة** ﴾ أي من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا . ﴿ **ورضوان من الله** ﴾ أي يعطيهم رضوانه ، فلا يسخط عليهم أبداً ﴿ **والله بصير بالعباد** ﴾ أي عالم بأعمالهم يجازيهم عليها .

ثم وصف عباده المتقين ، الذين أعدّ لهم ذلك ﴿ **الذين يقولون ربنا إننا آمنا** ﴾ بك وبكتابك وبرسولك ، ﴿ **فاغفر لنا ذنوبنا** ﴾ . أي : بإيماننا بك ، وبما أنزلته . فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا في أمرنا بفضلك ورحمتك ﴿ **وقنا عذاب النار** ﴾ . أي : احمنا منه ﴿ **الصابرين** ﴾ على الطاعات وترك المحرمات وعلى المصائب . ﴿ **والصادقين** ﴾ قولًا بإخبار الحق ، وفعلًا بإحكام العمل ، ونية بإمضاء العزم . ﴿ **والقانتين** ﴾ . أي الطائعين الخاضعين . ﴿ **والمنفقين** ﴾ . أي : المتصدقين من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات ، وصلة الأرحام والقرابات وسد الخَلَّات ومواساة ذوي الحاجات . ﴿ **والمستغفرين بالأسحار** ﴾ أي طالبي المغفرة في وقت السحر ، إما بصلاتهم لله فيه ، أو بقولهم : أستغفر الله فيه . والسحر : الوقت قبيل الفجر .

فائـــدة :

ـــ ثبت في الصحيحين وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال : « ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟. هل من مستغفر فأغفر له ؟ » وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ ، من أوله ، وأوسطه ، وآخره ، فانتهى

وتره إلى السحر » . وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ، ثم يقول : « يا نافع هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم ، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح » .

وروى ابن جرير عن إبراهيم بن حاطب عن أبيه قال : « سمعت رجلًا في السحر في ناحية المسجد وهو يقول : يارب أمرتني فأطعتك ، وهذا السحر فاغفر لي ، فنظرت ، فإذا هو ابن مسعود رضي الله عنه » .

وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : « كنا نؤمر إذا صلينا في الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة ». وقال لقمان لابنه يابني : « لا يكن الديك أكْيَسَ منك ، ينادي بالأسحار وأنت نائم » . دلت الآية ودل هذا كله على فضيلة الاستغفار بالأسحار .

﴿ **شهد الله أنه لا إلٰه إلا هو** ﴾ ، أي : قال – وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم . وأصدقُ القائلين – : إنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق ، وأن الجميع عبيده وخلقه ، وفقراء إليه ، وهو الغني عمن سواه . ﴿ **والملائكة** ﴾ شهدوا بوحدانيته بما عاينوا من عظيم قدرته . ﴿ **وأولوا العلم** ﴾ من الأنبياء والعلماء ، شهدوا بما شهد الله به ، بما عاينوا من آياته وآثاره . ﴿ **قائماً بالقسط** ﴾ أي مقيماً للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال ، ويثيب ويعاقب ، وما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض ، والعمل على السوية فيما بينهم فيما شرعه لهم . وهذا يؤكد ما ذكرناه أن من آثار قيوميته تعالى أن لا يترك عباده دون هداية ، ودون وحي ، ودون كتب . ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ هذا تأكيد لوحدانيته . ﴿ **العزيز** ﴾ الذي لا يغالب ولا يرام جنابه . ﴿ **الحكيم** ﴾ الذي لا يعدل عن الحق في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

فوائـد :

١ ـــ روى الإمام أحمد عن الزبير بن العوام قال : سمعت النبي ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو ...** ﴾ وأنا على ذلك من الشاهدين يارب . » أي ويقول بعد ذكره الآية ذلك .

٢ ـــ روى الطبراني ، عن غالب القطان قال : أتيت الكوفة في تجارة ، فنزلت قريباً من الأعمش ، فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر ، قام فتهجّد من الليل ، فمر بهذه الآية : ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو ... إن الدين عند الله الإسلام**﴾ .

ثم قال الأعمش : وأنا أشهد بما شهد الله به ، وأستودع الله هذه الشهادة ، وهي لي عند الله وديعة ، ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ قالها مراراً . قلت : لقد سمع فيها شيئاً ! فغدوت إليه ، فودعته ، ثم قلت : يا أبا محمد : إني سمعتك تردد هذه الآية ! قال : أو ما بلغك ما فيها ؟ قلت : أنا عندك منذ شهر لم تحدثني !! قال : والله لا أحدثك بها إلى سنة ! فأقمت سنة ، فأقمت على بابه ؛ قلت يا أبا محمد : قد مضت السنة ! قال : حدثني أبو وائل عن عبد الله قال : « قال رسول الله ﷺ يُجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله - عزّ وجلّ -: عبدي عهد إليَّ ، وأنا أحق مَن وفى بالعهد ، أدخلوا عبدي الجنة » .

ولننتقل إلى المقطع الثاني من القسم الأول في السورة :

كلمة وسيطة بين المقطع الأول والمقطع الثاني وفوائد :

١ ــ ختم المقطع الأول بقوله تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إلٰه إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ وجاء بعدها قوله تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ .

والهمزة في قراءة حفص من (شهد الله أنه) مفتوحة ، والهمزة في (إن) من ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ مكسورة وقد ذكر البيضاوي : أن هناك قراءة تكسر همزة (إنه) ، وهناك قراءة تفتح همزة (أن) .

فعلى قراءة ﴿ **إنه لا إله إلا هو** ﴾ وعلى قراءة ﴿ **أن الدّين عند الله الإسلام** ﴾ ، فإن الفعل (شهد) يعمل في آية : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ فيكون التقدير : ﴿ **شهد الله .. إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ ، ﴿ **شهد الله .. أن الدين عند الله الإسلام** ﴾ .

فعلى هاتين القراءتين ، فإن الله وملائكته ، وأولي العلم ، كما يشهدون ، أن الله واحد وقائم بالقسط فإنهم يشهدون أن الدين عند الله الإسلام ، وهذا يدلنا على استمرارية الكلام في المقطع الثاني .

فإذا دلنا على نهاية المقطع الأول ، ذكر القيام بالقسط ، فإن مما يدلنا على أن المقطع الأول والثاني يشكلان قسماً واحداً هو هذه الاستمرارية التي نراها بين أول آية في

المقطع الثاني ، وآخر آية في المقطع الأول .

واستطراداً نقول :

على قراءة فتح الهمزة في ﴿ **أن الدين عند الله الإسلام** ﴾ ، **فإن هذه الجملة تعرب** بدلًا من جملة ﴿**أنه لا إله إلا هو**﴾، وهي إما بدل كل من كل ، إذا فسر التوحيد بالإسلام ، أو بدل اشتمال إذا فسر الإسلام بالشريعة . وأما على قراءة (إنه) وكسر همزة (إن) بآن واحد . فإما أن نجعل الفعل (شهد) ينصَبُّ على ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ ويكون ما قبل ذلك جملة اعتراضية ، أو نعتبر (شهد) بمعنى قال في الآية الأولى ، وعلم في الآية الثانية ، وكل ذلك له تأثيراته في المعني . فلو أننا تابعنا إعراب الآيتين بناء على هذه الأوجه الصحيحة ، لرأينا معاني متعددة كلها صحيح .

ولم نستطرد هذا الاستطراد لنتعب القارىء ، ولكن ليفهم أن علوم اللغة العربية بحيثياتها الدقيقة لابد منها لفهم القرآن ، وأن الذين ينفرون من دقائق قواعد هذه اللغة ضائعون ، ويريدون أن يضيِّعوا هذه الأمة ، وأنه من مجموع القراءات تتولد معاني كثيرة ، ولولا أننا نريد الاختصار في هذا التفسير ما اقتصرنا على تفسير قراءة حفص كأصل .

كل ذلك أردنا أن نقوله من خلال هذا الاستطراد ، ومن أجله استطردنا ، ولننتقل إلى المقطع الثاني في القسم الأول من سورة آل عمران .

المقطع الثاني من القسم الأول

يمتد هذا المقطع من الآية (١٩) إلى نهاية الآية (٣٢) وهذا هو :

إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ

بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾

☆ ☆ ☆

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾

☆ ☆ ☆

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ

مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

☆ ☆ ☆

كلمة في المقطع :

يتألف المقطع من ثلاث فقرات :

فقرة حول كون الدين الوحيد المقبول عند الله هو الإسلام ، وأنه دين الله في كل العصور ، وأن هذا الإسلام أنزله الله واضحاً ، وأنه لااختلاف فيه إلا بسبب البغي ، وأن هذا الإسلام الذي أنزله الله على محمد ﷺ هذا شأنه ، بل هو معجزاتٌ واضحات ، وأن من يكفر به فإنه باغٍ ظالمٌ غير مقبول ، وأن الله سيحاسبه .

فإذا كان هذا هو الشأن فكل مناقشة في الإسلام ظالمة ، ومن ثَم فإن على رسول الله ﷺ والمسلمين أن يعلنوا إسلامهم لله أمام أي حِجاج وأن يدعوا غيرهم إلى الإسلام ؛ ثم يقرّر الله – عز وجل – أنّ الكافرين إنْ أسلموا فقد اهتدوا ، وإن أعرضوا فليس على الرسول من إثمهم شيء . إذا أدّى الرسالة ، والله مطّلع عليهم ، وعلى أعمالهم وأعمال عباده كلهم وسيجازيهم .

هذه معاني الفقرة الأولى بإجمال .

ولنتذكر ما ورد في الفقرة الأولى من مقدمة سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ .

وههنا يقول عز وجل : ﴿ **فإن أسلموا فقد اهتدوا** ﴾ ﴿ **وما اختلف الذين أوتوا**

الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ ﴿ **فقل أسلمت وجهي لله ومن اتّبعنِ** ﴾ .

فالفقرة هنا تعلمنا كيف نهتدي بالقرآن ، بالتسليم له والإيمان بآياته، وبعدم الاختلاف فيه ، وتعلمنا كيف ندعو إلى هذا الإسلام ، وكيف نقابل المحاجَّة فيه .

والفقرة الثانية في هذا المقطع هي :

﴿ **إن الذين يكفرون بآيات الله ...** ﴾ .

فالفقرة الثانية في هذا المقطع تحدّثنا عن أخلاقية الكافرين الذين يكفرون بالآيات ، ويقتلون الأنبياء والعلماء ، وتحدّثنا عن العذاب المُعدِّ لهم ، وتحدّثنا عن نموذج من الناس ، وموقفهم الرافض من الإنذار وسبب هذا الموقف .

﴿ **ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدْعَون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم .. ذلك بأنهم قالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ...** ﴾ .

وتنتهي الفقرة بآية واعظة لهؤلاء :

﴿ **فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه** ﴾ .

وهكذا نرى أنه في الفقرة الأولى والثانية في هذا المقطع نوع تفصيل لما ورد في مقدمة سورة البقرة وعلى نفس الترتيب . فالفقرة الأولى لها صلة بالمتقين ، والفقرة الثانية في الكافرين ، ولا نلاحظ كلاماً عن المنافقين هنا ، كما ورد في مقدمة سورة البقرة ، لأن النفاق كفر ، ولكنا نرى في الفقرة الثالثة قوله تعالى :

﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين** ﴾ . فههنا نهي عن السير في طريق النّفاق .

إنّ الفقرة الثالثة يتوجه فيها الخطاب لرسول الله ﷺ بكلمة (**قل**) أربع مرات .

﴿ **قل اللّهم مالك الملك ...** ﴾ .

﴿ **قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه ...** ﴾ .

﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ...** ﴾ .

﴿ **قل : أطيعوا الله والرسول** ﴾ .

فبعد التفصيل في أن الدين عند الله الإسلام ، وبعد التفصيل في مواقف الكافرين ، تأتي هذه الإعلانات الأربعة لتحدد لأهل الإيمان مواقفهم ، ولتعلمهم صفحة من هداية الله لهم ، في كتابه ، يقابلون بها مواقف الكافرين ، ويرتقون بها إلى مقامات المتقين .

☆ ☆ ☆

انتهى المقطع الأول بإعلان شهادة الله على أنه قائم بالقسط ؛ ليأتي هذا المقطع معلناً أن الله القائم بالقسط لا يقبل ديناً إلا الإسلام. فذلك هو العدل الخالص ثم يسير المقطع ليحدثنا عن الكافرين الذين يقتلون الذين يأمرون الناس بالقسط ، ثم يسير المقطع ليأمر الرسول ﷺ أن يعلن ، وأن يعرِّف على أمور بدونها لا يكون إسلام . فالمقطع يرتبط مع المقطع السابق الذي يحدّثنا عن وحدانية الله ، وقيوميّته ، وعزته ، وحكمته ، بوشائج كثيرة ، فهو استمرار له وتفصيل لما تقتضيه الوحدانية والقيومية والعزة والحكمة ، من مظاهر العبودية له - جل جلاله - معرفة وتسليماً ومحبة وطاعة ، وكما أن المقطع الأول تحدث عن الكتاب ، والاهتداء به في فقرته الأولى ، ثم تحدث عن الكافرين في فقرته الثانية ، ثم ذكر تزيين الحياة الدنيا وشهواتها ، وهي القاطعة عن الطريق .

فإنّ هذا المقطع تحدث عن الاهتداء بالقرآن ، وذلك بالإسلام لله في فقرته الأولى ، وتحدث عن الكافرين في فقرته الثانية ، وتحدث في فقرته الثالثة عن معان تزيل الغشاوات عن الأعين ، فترفع الهمّة نحو السير في الإسلام ، فلا شيء يحول دون السير في طريق الله ، كحب الجاه ، والحرص على الرزق :

فتأتي الفقرة الثالثة وفيها :

﴿ **قل اللهم مالك الملك .. وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾ .

﴿ **قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ...** ﴾ .

كما أن في الفقرة تحطيماً للدعاوى ، وتحديداً للطريق :

﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ...** ﴾ .

﴿ **قل : أطيعوا الله والرسول . ...** ﴾ .

ولقد رأينا في مقدمة سورة البقرة قوله تعالى :

﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ .

وواضح أنه بنهاية هذا المقطع ، ينتهي القسم الأول من السورة ، لأنّه يأتي بعد ذلك كلام عن زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ، فنحن بذلك الكلام أمام قسم جديد ، وكأنّ القسم الأول ؛ مقدّمة له بل هو مقدمة للسورة كلها ، بدليل ما سنراه من ارتباط أقسام السورة كلها ، بهذا القسم وختم السورة بمعان مرتبطة به ..

وفيما بين قوله تعالى ﴿ **قل اللهم مالك الملك** ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **قل : إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله**﴾ . يأتي قوله تعالى :

﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين** ﴾ وذلك لأن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين أثر عن الحرص على الحياة والرزق ، فأعلن الله أن الحياة والرزق بيده ، ولأن النفاق شيء قلبي ، حذّر الله أنه يعلم خفايا الأنفس ، وهكذا جاء النهي بين تذكيرين ، ومن هنا نعلم الحكمة في وجود هذا النهي في محله .

إنه لم يأت مباشرة بعد الفقرة الأولى والثانية اللتين تحدّثتا عن الإسلام والكفر ، إنه لم يأت بعد ذلك مباشرة ، بل جاء متأخراً بعد درس من التعريف على الله ، ليأخذ محله في مشاعر المسلمين وقلوبهم وضمائرهم .

☆ ☆ ☆

قلنا من قبل : إن سورة آل عمران تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، وامتدادات معاني هذه المقدمة .

فلنلاحظ الآن مايلي : في مقدمة سورة البقرة ورد قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ .

ومن امتدادات هذا النص في سورة البقرة ما رأيناه من دعوة لبني إسرائيل فيها : ﴿ **وآمنوا بما أنزلتُ مصدِّقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به** ﴾ . وقد رفض بنو إسرائيل الدعوة إلا من رحم الله وجاء في سورة البقرة ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا** ﴾ وفي ذلك السياق جاء قوله تعالى ﴿**فويل للذين يكتبون الكتابَ بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلًا** ... ﴾ . ثم جاءت الآية اللاحقة : ﴿ **وقالوا لن تمسنا النارُ إلا أياماً معدودةً** ... ﴾ كل ذلك جاء في سورة البقرة وهو امتداد لبعض ما جاء

في مقدمتها :

وفي هذا المقطع من سورة آل عمران ، يُعجَبُ الله من هؤلاء الذين يرفضون هذه الدعوة ﴿ **ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدْعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون** ﴾ . وههنا يعلل بأن سرَّ هذا الموقف ﴿ **ذلك بأنهم قالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات** ﴾ . فههنا تعليل مباشر لسرِّ موقفهم من الدعوة وهو هذا الاعتقاد فبينما فهمنا في سورة البقرة من السياق بشكل غير مباشر أن سرّ مواقفهم هو اعتقادهم الباطل هذا فإننا هنا نفهمه بشكل مباشر .

ولقد رأينا في سورة البقرة أن من أسباب تحريف أهل الكتاب لكلام الله حبهم الدنيا ، وأخذهم إياها ، ومن ثَم نلاحظ في هذا المقطع أنه قد جاء قوله تعالى : ﴿ **قل اللهم مالك الملك** .. ﴾ تطهيراً للنفس البشرية ، أن تطلب رزق الله في معصية الله ، والكفر به .

ولعل في هذا القدر كله كفاية في التعريف بـالمقطـع ومحله في سياق السورة ، ومحله في السياق القرآني العام ، ثم في التعريف على تسلسل معانيه ، فلنعرض فقراته :

الفقرة الأولى :

﴿ **إنّ الدِّين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجُّوك فقل أسلمت وجهيَ لله ومن اتّبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأمّيين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنّما عليك البلاغ والله بصير بالعباد** ﴾ .

المعنى العام : في هذا النّص إخبار من الله تعالى ، بأنْ لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام . وهو اتّباع الرُّسل فيما بعثهم الله به ، والاستسلام لله فيه قولًا وعملًا واعتقاداً . ثمّ أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول ، إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجّة بإرسال الرّسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم : سواء فيما بين أهل الكتاب الواحد منهم ، أو بين أهل كتاب وكتاب بسبب بغي بعضهم على بعض . فاختلفوا في الحقِّ بتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم ، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقاً . ثم بين الله عز جل أنّ من جحد ما أنزل الله في كتابه فإنّ الله سيجازيه ويحاسبه على تكذيبه ويعاقبه على مخالفة كتابه ، وإذ تتقرّر حقيقة

الإسلام وحقيقة الاختلاف فيه من قبل ، فإنّ الله – عز وجل – يوجّه رسوله أنّه في حالة محاجّة أهل الكتاب له في الإسلام المنزل عليه ، وهو خاتم رسل الله المرسل إلى العالمين الذي ألزم الله كلَّ الخلق باتِّباعه ، فإن عليه أن يعلن أنّه هو وأتباعه مسلمون وجوهَهم لله ، مخلصون لله عبادتهم . هذا هو الردُّ الوحيد عليهم ، إعلان الإسلام لله ثمّ دعوتهم إليه فقد أَمَر الله رسوله عليه السلام أن يدعو إلى طريقه ودينه والدخول في شرعه وما بعثه الله به الكتابيين والأمِّيين من المشركين ، ثمّ بيَّن تعالى أنهم إن أسلموا وتابعوا اهتدوا ، وإن أصرُّوا على ما هم عليه فليس على رسول الله ﷺ إثم في ذلك ، إذ عليه البلاغ وقد قام به ، وعلى الله حسابهم ، وإليه مرجعهم ومآلهم ، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، وهو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضّلالة . وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دّل عليه الكتاب والسُّنَّة في غير ما آية :

وفي هذا النّص بيان أنّ الإسلام هو الاستسلام لله فيما أنزل ، وأنّ الاختلاف فيما ينزل سببه البغي . فكأن النّص يأمر المسلمين أن يستسلموا لله في كتابه – ولرسوله في هديه – وألّا يحملهم البغي فيما بينهم على الاختلاف فيه ، كما يبين الموقف الأكمل من غير المسلمين إذا أصروا على الرفض واللجاج . وهكذا يكمّل هذا النص أدب المسلم مع الكتاب : عمل بالمحكم ، واستسلام لله في المتشابه ، وعدم الاختلاف فيه بغياً .

المعنى الحرفي :

﴿ **إنّ الدِّين عند الله الإسلام** ﴾ : إنّ الدِّين المقبول عند الله هو الإسلام في كلِّ زمان ، وفي كل مكان . وهو الاستسلام لله فيما بعث به رسله من دين هوالإسلام الذي آخر نسخة منه هو الإسلام الذي أنزله الله على محمد ﷺ وجعله ناسخاً وخاتماً وكلّف به العالمين . ﴿ **وما اختلف الذين أوتوا الكتاب** ﴾ من اليهود والنّصارى فيما بينهم ، وفيما بين بعضهم بعضاً ﴿ **إلا من بعد ما جاءهم العلم** ﴾ الواضح المتّضح الذي لا شبهة فيه ولا غموض . ﴿ **بغياً بينهم** ﴾ أي حسدا بينهم ، وطلباً منهم للرئاسة ، وحظوظ الدنيا ، واستتباع كل فريق ناساً . أي ما كان اختلافهم إلا أثراً عن ظلمهم بسبب هذه الأشياء ، وإلّا فالحقُّ أوضح من أن يُختلف فيه . ﴿ **ومن يكفر بآيات الله** ﴾ أي بحججه ودلائله ، ﴿ **فإنّ الله سريع الحساب** ﴾ أي سريع المجازاة . ﴿ **فإن**

حاجّوك ﴾ أي فإن جادلوك في أنَّ دين الله الإسلام ، أو جادلوك في صحة ما هم عليه ، أو جادلوك ليحرفوك عما أنت عليه . ﴿ **فقل أسلمت وجْهيَ لله ومن اتَّبعن** ﴾ فقل : أنا وأتباعي أخلصنا أنفسنا وجملتنا لله لم نجعل فيها لغيره شريكا . وهذا يفيد أن ما هو عليه ، ومن معه من المؤمنين هو اليقين الذي لاشك فيه . فما معنى المحاجّة فيه ؟! كما يفيد أن الإسلام هو هذا .

﴿ **وقل للذين أوتوا الكتاب** ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ **والأُمِّيين** ﴾ الذين لا كتاب لهم . ﴿ **أأسلمتم** ﴾ هذا استفهام يراد به الأمر ، أي أسلموا ، فقد جاءكم من البينات ما يقتضي حصول الإسلام منكم . ﴿ **فإن أسلموا فقد اهتدوا** ﴾ أي فإن دخلوا في الإسلام فقد أصابوا الرّشد ، حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى . ﴿ **وإن تولوا** ﴾ أي وإن رفضوا وأعرضوا ﴿ **فإنّما عليك البلاغ** ﴾ فما عليك إلا أن تبلِّغ الرسالة ، وتنبِّه على طريق الهدى . ﴿ **والله بصير بالعباد** ﴾ فيجازيهم على إسلامهم وكفرهم .

فائـــدة :

ـــ من الأحاديث الدالّة على عموم بعثته عليه السلام لجميع الخلق ، ما رواه الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة – أي أمته أمة الدعوة ، وهم جميع الخلق – يهودي ولانصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار » . وقال عليه السلام : « بعثت إلى الأحمر والأسود » وقال : « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى النّاس عامّة » .

الفقرة الثانية ونعرضها على مراحل :

﴿ إنّ الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النّبيين بغير حقٍّ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ٭ أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ .

المعنى العام :

بعد أن بيّن الله – عزّ وجل – في المجموعة الأولى أنّ الدّين عنده الإسلام وأنّ على

جميع الخلق الدخول فيه ، وأنّ على أهله أن يثبتوا عليه . بيّن هنا ما أعدّه للرافضين الدخول في هذا الإسلام . الذين يقتلون الأنبياء ، ويقتلون دعاة الحق . وأمر رسوله عليه السلام أن يبشّر هؤلاء بالعذاب الأليم ، وبحبوط العمل في الدنيا والآخرة ، وأنّهم لا ناصر لهم . وأول ما ينطبق عليهم هذا ، اليهود ، فهم الذين اجتمعت لهم هذه الخصال على أقبح ما يكون ، ويدخل في التهديد كل من كان كذلك . ويفهم من هذه الآيات أنّ الكفر بآيات الله يرافقه الجرأة على الأنبياء والعلماء ودعاة الحق .

المعنى الحرفي

﴿ **إنّ الذين يكفرون بآيات الله** ﴾ أي بحججه ودلائله ، وما خلق ، وما أنزل من البينات ﴿ **ويقتلون النّبيين بغير حقٍ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس** ﴾ القسط : العدل ، والعدل هو حكم الله لا غير ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ أي مؤلم : ﴿ **أولئك الذين حبطت أعمالهم** ﴾ أي ضاعت ﴿ **في الدنيا والآخرة** ﴾ . فاستحقوا اللعنة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة . ﴿ **وما لهم من ناصرين** ﴾ . ينصرونهم في الدنيا والآخرة من عذاب الله .

فوائـد :

١ ــ قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس أثر من آثار الكبر فقد عرّف رسول الله ﷺ الكبر في الحديث الصحيح فقال : « الكبر بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس » . وهؤلاء رفضوا الحق وقتلوا أهله ، وهذا منتهى الكبر و « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » .

٢ ــ أخرج ابن أبي حاتم عن أبي عبيدة بن الجراح قال : « قلت يا رسول الله : أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال : رجل قتل نبياً ، أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **إنّ الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النّبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم** ... ﴾ الآية ثم قال رسول الله ﷺ يا أبا عبيدة قتلتْ بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة ، فقام مائة وسبعون رجلًا من بني إسرائيل فأمروا مَنْ قتلهم بالمعروف ، ونهوهم عن المنكر ، فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم فهم الذين ذكر الله عز وجل » .

﴿ ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعَون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولىٰ فريق منهم وهم معرضون * ذلك بأنهم قالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون * فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفِّيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ .

المعنى العام :

في هذا النص إنكار على اليهود والنصارى المتمسكين - فيما يزعمون - بكتابيهم اللذين بأيديهم وهما التوراة والإنجيل ، وإذا دُعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ ، تولوا وهم معرضون عنهما ، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم وفضحهم بذكرهم بالمخالفة والعناد .

ثم بيّن الله تعالى أنّه إنما حَملهم وجرّأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادّعوه لأنفسهم أنّهم إنّما يُعذّبون في النار أياماً قليلة ، فهذا الذي يثبتهم على دينهم الباطل ، وإنما هو افتراء افتروه ، واختلاق لم ينزل الله به سلطاناً ، خدعوا به أنفسهم . ثم هددهم الله عز وجل ، وتوعدهم بعد أن افتروا على الله ، وكذّبوا رسله ، وقتلوا أنبياءه ، وقتلوا العلماء من قومهم الآمرين بالمعروف ، والنّاهين عن المنكر . بأنّه سائلهم عن ذلك كله ، وحاكم عليهم ، ومجازيهم به إذا جمعهم ليوم لا شكّ في وقوعه ، فيه تُوفّى كلّ نفس كسبها دون أن تُظْلم شيئاً .

المعنى الحرفي :

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾أي حظا من التوراة .**﴿ يُدْعَون إلى كتاب الله ﴾** أي التوراة .**﴿ ليحكم بينهم ثم يتولىّ فريق منهم وهم معرضون ﴾** . وهذا التولي والإعراض عجيب منهم إذ علموا أن الرجوع إلى كتاب الله واجب ، ولكنهم قوم الإعراض حالهم وديدنهم .**﴿ ذلك بأنهم قالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾** أي ذلك التولي والإعراض بسبب تسهيلهم على أنفسهم أمر العقاب ، وطمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل من دخولها ، أربعين يوماً ، أو سبعة أيام**﴿ وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾**أي غرهم افتراؤهم على الله . يكذبون على الله ، ثم يصدقون كذبهم .**﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ﴾** أي فكيف يكون حالهم في ذلك الوقت يوم يجمعهم الله يوم القيامة وهو اليوم الذي لاشك فيه . **﴿ وَوُفّيَت**

كل نفس ما كسبت ﴾ أي وجوزيت كل نفس جزاء ما عملت ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ بزيادة في سيئاتهم أو نقصان في حسناتهم .

فائــدة :

أنكر الله - عز وجل - على من إذا دُعِيَ إلى كتاب الله تولى ورفض فههنا إذن تأديب من الله لنا ، أن إذا دعينا إلى كتاب الله أن نَقْبل ونُقْبِل ثم بين الله ــ عز وجل ــ علة الرفض ، وهي التصور الخاطىء لموضوع العقاب ، لموضوع اليوم الآخر . إذا أدركنا هذا ، أدركنا الصلة بين هذه المجموعة من الآيات ، وما قبلها ، إذ الجميع مرتبط بالموقف الصحيح من كتاب الله . فإذا أنكر الله عز وجل على من يرفض الاحتكام إلى التوراة فكيف بمن يرفض الاحتكام إلى القرآن أعظم كتب الله .

الفقرة الثالثة ونعرضها على مراحل :

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير * تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب . لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير ﴾

المعنى العام :

يقول تبارك وتعالى آمراً رسوله ﷺ أن يكون معظِّماً لربه وشاكرا ومفوّضاً أمره إليه ومتوكلًا عليه ، ومعترفاً له بأن الملك كله له يؤتيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، فهو المعطي وهو المانع والمتصرف في خلقه بما يشاء ، والفعال لما يريد ، بيده الخير كله ، وهو القادر على كل شيء . ومن مظاهر قدرته إدخال الليل في النهار والنهار في الليل . فترى هذا يزيد ، وهذا ينقص على منتهى الدقة والكمال . ومن مظاهر قدرتة ، رزق من شاء، كما شاء . ثم نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين ، وأن يتخذوهم أولياء يسرُّون إليهم بالمودة ، وبين جل جلاله أن من يرتكب نهي الله هذا فقد بريء من الله إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم ، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه وقلبه . ثم حذرنا الله نقمته في

مخالفته ،وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه . ثم أن إليه المرجع والمنقلب ليجازي كل عامل بعمله .

المعنى الحرفي :

﴿ **قل اللهم مالك الملك** ﴾ . أي : قل يا الله ، يا مالك الملك . ﴿ **تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء** ﴾ . أي : تعطي من تشاء ما قسمت له من الملك وتنزعه ممن تشاء ﴿ **وتعز من تشاء** ﴾ بإعطائه الملك والجاه ﴿ **وتذل من تشاء** ﴾ بنزع الملك والجاه منه . ﴿ **بيدك الخير** ﴾ تؤتيه من تشاء ، وتمنعه عمن تشاء ﴿ **إنك على كل شيء قدير** ﴾ . ولا يقدر على شيء أحد غيرك إلا بإقدارك . ﴿ **تولج الليل في النهار ، وتولج النّهار في الليل** ﴾ الإيلاج : إدخال الشيء بالشيء ، أي تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان ، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان ، ثم يعتدلان ، وهكذا في فصول السَنة ربيعاً وصيفاً ، وخريفاً وشتاءً . ﴿ **وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي** ﴾ . أي : تخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والحياة من الأرض ، وتميت الأحياء . ﴿ **وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾ . أي : تعطي من شئت من المال مالا يعده ولا يقدر على إحصائه حتى لا يعرف عدده ومقداره . وإن كان معلوماً عند الله تعالى .

﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين** ﴾ هذا نهي للمؤمنين ، أن يوالوا الكافرين لقرابة أو صداقة ، أو منفعة ، أو رغبة ، أو رهبة .

وأفاد قوله : ﴿ **من دون المؤمنين** ﴾ بأن للمؤمنين في موالاة بعضهم مندوحة عن موالاة الكافرين ، فلا يُؤثرون عليهم . ﴿ **ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء** ﴾ أي ومن يوال الكفرة فليس من ولاية الله في شيء ، لأن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان . ﴿ **إلا أن تتقوا منهم تقاة** ﴾ قال ابن كثير : أي إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم ، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيّته كما قال البخاري عن أبي الدرداء أنه قال : « إنا لنبشّ في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم » وقال البخاري ، قال الحسن : التّقية إلى يوم القيامة . وقال النسفي في معنى الاستثناء : « إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه ، أي إلا أن يكون للكافر عليك سلطان فتخافه على نفسك ومالك فحينئذ يجوز لك إظهار الموالاة وإبطان العداوة » ﴿ **ويحذركم الله نفسه** ﴾ أي يحذركم نقمته في مخالفته ، وسطوته وعذابه لمن والىٰ أعداءه ، وعادىٰ أولياءه . ﴿ **وإلى**

الله المصير ﴾ . أي وإلى الله مصيركم ومرجعكم والعذاب معدٌّ لديه .

فوائــد :

١ ــ روى الطبراني عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب في هذه الآية من آل عمران : ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزُّ من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير** ﴾ .

٢ ــ ما الصِّلة بين هذه الآيات وما قبلها وما بعدها ؟

أ ــ بيَّن الله - عز وجل - في الآيات السابقة على هذه الآيات كيف أن أهل الكتاب إذا دعوا إلى كتاب الله تولوا ، وأعرضوا ، وسبب التولي والإعراض عدم اعترافهم وتسليمهم لله بأنه المعِزُّ ، المذل ، المالك ، القادر ، المغني ، فلو رأوا بقلوبهم لله هذا ، وسلّموا ، لم يمنعهم حسد عن قبول الحق أنىّ كان . ومن ثمّ أمرنا نحن أن نقرّ لله بهذا . وكما أمرنا أن نقرّ لله بهذا ، أمرنا ألا نوالي الكافرين الذين يستكبرون عن اتّباع الحق وقبوله .

ب ــ في الآيات السابقة على هذه الآيات ، وضَعَنا الله - عز وجل - على طريق الاتّباع الكامل ، والتّسليم الكامل لآيات الله ، والمفاصلة الكاملة لأعداء الله ، والإخبات لله ، وهـذا كله يقتضي معرفة كاملة بالله ، بأنّه مالك الملك ، المعطي المانع ، المعزّ المذلّ ، حتى لا يحرفنا ملك ، أو رزق ، أو عز ، أو ذل لنا أو لغيرنا عن الاستقامة على أمر الله ، وقد نهينا عن موالاة الكافرين بعد ذلك في هذا السياق ، طلباً لجاه ، أو ملك ، أو عز ، أو خوفاً من ذل أو فقر . لأن الله عز وجل هو الذي يعطي هذا كله . فعلينا أن نستقيم على أمره ونترك له - جل جلاله - أمر تدبير أمورنا .

﴿ **قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموٰات وما في الأرض والله على كل شيء قدير * يوم تجد كل نفسٍ ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذّركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد** ﴾ .

المعنى العام :

يخبر تبارك وتعالى عباده أنّه يعلم السرائر والضمائر والظواهر ، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية ، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان والأيام واللحظات ، وجميع الأوقات ، وجميع ما في الأرض والسموٰات ، لا يغيب عنه مثقال ذرة ، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال ، وقدرته نافذة في جميع ذلك . وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته ، لئلا يرتكبوا ما نهى عنه ، وما يبغضه منهم ، فإنه عالم بجميع أمورهم وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإن أنظر من أنظر منهم ، فإنّه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر .

ثم ذكرنا الله عز وجل بيوم القيامة ، يوم يُحضر للعبد جميع أعماله من خير أو شر فما رأى المكلَّف من أعماله حسناً سرّه ذلك ، وأفرحه ، وما رأى من قبيح ساءه وغصّه ، وودّ لو أنّه تبرّأ منه ، وأن يكون بينه وبينه أمد بعيد . ثمَّ أخبرنا تعالى مؤكداً ومهدّداً ، ومتوعداً أنه يخوفنا عقابة وانتقامه فلنحذر . ولئلا ييأس عباده ، ويقنطوا من لطفه ، فإنّه ذكّرهم برأفته بعباده ورحمته بخلقه قال الحسن البصري : من رأفته بهم حذرهم نفسه . وقال غيره رحيم يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ، ودينه القويم ، وأن يتَّبعوا رسوله الكريم .

المعنى الحرفي :

﴿ **قل إن تخفوا ما في صدوركم ..** ﴾ من ولاية الكفار أو غيرها ، مما لا يرضي الله ﴿ **أو تبدوه** ﴾ أي أو تظهروه ﴿ **يعلمه الله** ﴾ أي لم يخفَ عليه ، وهو وعيد بليغ . ﴿ **ويعلم ما في السموٰات وما في الأرض** ﴾ لا يغيب عنه مثقال ذرة فيهما . ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ . ومن ذلك عقوبتكم . ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً** ﴾ . أي : يوم القيامة تجد كل نفس خيرها وشرها حاضرين ، تتمنى لو أن بينها وبين ذلك اليوم ، وأهواله ، مسافة بعيدة . ﴿ **ويحذّركم الله نفسه** ﴾ كرّر الإنذار والتحذير ، ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه ﴿ **والله رؤوف بالعباد** ﴾ فهو مع كونه محذوراً لكمال قدرته ، فإنه مرجو لسعة رحمته ، ومن رأفته أن حذّرهم نفسه حتى لا يتعرضوا لسخطه .

فائـــدة :

هاتان الآيتان فيهما تطهير للنّفس أن يكون فيها في الظاهر أو الباطن ، ما يخالف أمر

الله فإذا نظرنا إلى هذا المعنى على ضوء الآية الأولى في المقطع ، وهي قوله تعالى ﴿ **إنّ الدين عند الله الإسلام** ﴾ عرفنا أن هاتين الآيتين تطلبان منّا أن تكون ظواهرنا وبواطننا مسلمة لله ، ثمّ هما قد جاءتا بعد النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء ، ففيهما تطهير للنفس من أي ولاء قلبي .

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ .

المعنى العام :

هذه الآية الكريمة حاكمة على من ادعى محبّة الله – وليس هو على الطريقة المحمدية – فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر ، حتى يتبع الشرع المحمدي ، والدين الإسلامي في جميع أقواله ، وأفعاله . ولذلك بيّن الله – عز وجل – في هذه الآية أن علامة محبة الله اتباع رسول الله ﷺ ، فمن فعل ذلك كافأه الله عز وجل عليه بمحبته له ، ومغفرته ذنوبه ، ومن شأن الله – عز وجل – أن يغفر لمن يستحق المغفرة ، ويرحم من يستحق الرحمة .

المعنى الحرفي :

قال الحسن البصري وغيره من السلف : زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ اهـ . ومحبة العبد لله إيثار طاعته على أي شيء آخر ، ومحبة الله لعبد أن يرضى عنه ، ويحمد فعله . وقد جعل الله عز وجل في هذه الآية علامة محبته اتباع رسوله في دينه ، وأقواله ، وأفعاله ، وأحواله ، إلا ما خص منها . فمن ادّعى محبة الله ولم يكن مسلماً ، ومتابعاً فهو كذاب ، يكذبه كتاب الله . ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني** ﴾ فهذه علامة محبة الله ، ومغفرته .. ﴿ **يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾ . غفور لمن تابع ، رحيم بمن تابع .

فائـــدة :

ـــ قال عليه السلام : « من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد » .

﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ .

المعنى العــام :

هذا أمر لكل أحد من خاص وعام أن يطيع الله في كتابه ، وأن يطيع رسول الله بمتابعته فمن خالف وأعرض ، ورفض ولم يذعن ، فإنه كافر ، والله لا يحبه ، وإن ادّعى وزعم في نفسه أنه محب لله ، ويتقرب إليه ، دلّ هذا على أن مخالفة رسول الله ﷺ في الطريقة كفر ، وأن متابعته عليه السلام هي الطريق ، وأنه لو كان الأنبياء ، والمرسلون في زمانه ما وسعهم إلا اتباعه ، والدخول في طاعته ، واتّباع شريعته .

المعنى الحرفـي :

﴿ **قل أطيعوا الله** ﴾ بطاعة كتابه ، ﴿ **والرسول** ﴾ بطاعته في حياته وطاعة سنته بعد وفاته وبمتابعته في الأقوال والأفعال والأحوال . ﴿ **فإن تولوا** ﴾ أي أعرضوا عن قبول الطاعة ﴿ **فإن الله لا يحب الكافرين** ﴾ أي فمن أعرض عن قبول الطاعة فإنّه كافر والله لا يحبه .

فوائد حول السياق :

١ ــ إن الصلة ما بين هاتين الآيتين الأخيرتين ، والمقطع كله ، واضحة . فالله عز وجل في بداية المقطع أعلن أن الدين المقبول عنده هو الإسلام ، وههنا بيّن أن هذا الإسلام المقبول عنده هو المتابعة لرسوله ، وطاعة كتابه ، وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وما سوى ذلك كفر ، وليس بإسلام ، وما سوى ذلك غير مقبول عنده .

٢ ــ وما الصِّلة ما بين هذا المقطع والذي قبله ؟ .

رأينا أن المقطع الأول يدور حول أن من آثار ألوهية الله تعالى وقيوميته ، إنزال الكتب ليقوم العدل ، ويقف الناس عند الحدود ، ويهتدوا . وفي هذا المقطع يطالب الخلق بالإسلام له فيما أنزل ، ومتابعة رسوله الذي أرسل ، فهذا المقطع استمرار للمقطع الأول . ومما يشهد على الصلة بين المقطعين ، ما ذكرناه من قبل . قراءة ابن عباس لبداية المقطع الثاني بفتح همزة ﴿**أن الدين عند الله الإسلام**﴾ فيكون الربط على هذه القراءة ما بين هذا المقطع والذي قبله على أشده إذ يكون التقدير : (شهد الله أنه لا إله إلا هو.. شهد الله أن الدين عند الله الإسلام).

٣ ــ كنا ذكرنا أن سورة آل عمران إنما هي تفصيل لما أجمل في مقدمة سورة البقرة ، وكنا سجّلنا ملاحظة ، هي : كما أنه في مقدمة سورة البقرة عقبت صفات الكافرين صفات المتقين ، فإن في سورة آل عمران في كل من المقطعين اللذين يشكلان القسم الأول من السورة قد عقب الكلام عن الكافرين الكلام عن المتقين .

٤ ـــ لقد قلنا : إن هذين المقطعين من آل عمران يفصّلان في مقدمة سورة البقرة ، ففي هذين المقطعين أوضح الله - عز وجل - أن إنزال الكتب أثر عن ألوهيته وقيوميّته ، وأوضح بعض خصائص هذا القرآن ، وكيف ينبغي أن يكون الموقف الصحيح منه ، وأوضح أن على الإنسان أن يستسلم لله فيه ، وأن يطيع ، وأن يتابع ، وعرض ما يقابل ذلك ، وما يلازمه ، وما يترتب عليه ، والمواقف المقابلة ، والمشاعر المساعدة ، والأقوال التي ينبغي أن يقولها أهل الإيمان لغيرهم مما مر معنا .

وإذا كان المقطعان السابقان اللذان يشكلان القسم الأول قد فصّلا على الأخص في قوله تعالى : ﴿**الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين**﴾ وما يقابل ذلك من الكفر ، فإن القسم الثاني الذي سيأتي معنا يقدم لنا صفحة من صفحات الإيمان بالغيب المذكور في مقدمة سورة البقرة ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ وما يقابل ذلك من كفر الكافرين ، أو ضلال الضالين ، ومناقشة هؤلاء في ضلالهم . وكنا ذكرنا في تفسير مقدمة سورة البقرة أن قوله تعالى ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ إنما هو تفصيل لبعض ما أجمل في قوله تعالى ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ وههنا نجد مصداق ذلك .

كلمة في السياق :

صحّح القسم الأول مفاهيم كثيرة ، وأعطى تعليمات كثيرة ، ووضع الأمور في نصابها في أمور كثيرة : وعرَّفنا على الله - جل جلاله ، وصحّح في هذا أخطاء وقع فيها العقل البشري ، ومن أخطر ما وقع به العقل البشري من أخطاء ، تصوّره أن الله - عز وجل - لا يتدخل في شؤون خلقه سلباً أو إيجاباً ، وهي الفكرة التي استقرت على الصيغة التي تعبر عن نفسها بمبدأ فصل الدين عن الدولة .

إن معرفتنا بوحدانية الله وقيوميته تنسف هذه الفكرة وأمثالها من الأساس . لقد عرّفنا الله أنه أنزل كتباً ، وأنه هو الذي أنزل القرآن على محمد ﷺ وأنه امتحن خلقه بأن جعل القرآن محكماً ومتشابهاً ، وذلك من مظاهر عزته وحكمته ، وأن النجاح في هذا الامتحان يظهر باتباع المحكم ، وبالتسليم لله بالمتشابه .

وعرفنا القسم أن الله لا يقبل ديناً إلا الإسلام ، وأن من عقيدة المسلم أن يعرف الله أنه مالك الملك ، وأنه الرزاق ، وأنه العليم ، وأن محبته طريقها متابعة محمد ﷺ وأن على

كل إنسان طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ .

وخلال ذلك كان كلام عن الكفر والكافرين ، ومواقفهم وأسبابها . وتمّ القسم بعد أن وضّح أموراً كثيرة رأيناها .

والآن يأتي قسم جديد ، يضع الأمور في مواضعها في قضية المسيح ابن مريم وأمه ، ليكون القسم الأول والثاني مقدمتين لفتح حوار شامل مع أهل الكتاب ، وذلك مضمون القسم الثالث في السورة لتكون الأقسام الثلاثة في السورة بعد ذلك بمثابة مقدمة كبيرة لتوجيهاتٍ مباشرةٍ لأهل الإيمان .

إن القسم الأول فى السورة ، وهو ما مر معنا كان بمثابة مقدمة للقسم الثاني كما سنرى ، والقسم الأول والثاني هما بمثابة المقدمتين للقسم الثالث . والأقسام الثلاثة هي بمثابة التوطئة للقسمين الأخيرين في السورة وكل ذلك سنراه .

وقد رأينا كيف أن القسم الأول فصَّل في مقدمة سورة البقرة وسنرى أن القسم الثاني سيفصل كذلك في مقدمة سورة البقرة . وكل الأقسام في السورة هذا شأنها .

فمحور سورة آل عمران هو مقدمة سورة البقرة ، وسورة آل عمران تفصِّل في هذه المقدمة وامتداداتها ، وكما أنها تفصّل في ذلك فإن لها سياقهاالخاص ووحدتها الكاملة .

ولنختم الكلام عن القسم الأول من سورة آل عمران بفصول ونقول نكمل بها تفسير القسم .

فصول ونقول :

نقول :

١ ـــ قال الألوسي عن وجه مناسبة سورة آل عمران لسورة البقرة : « ووجه مناسبتها لتلك السورة ،أن كثيراً من مجملاتها تشرح بما في هذه السورة ، وأن سورة البقرة ، بمنزلة إقامة الحجة ، وهذه بمنزلة إزالة الشبهة ، ولهذا تكرّر فيها ما يتعلق بالمقصود الذي هو بيان حقيقة الكتاب ، من إنزال الكتاب وتصديقه للكتب قبله ، والهدى إلى الصراط المستقيم،وتكررت آية ﴿**قولوا آمنا بالله وما أنزل** ...﴾ بكمالها ولذلك ذكر في هذه ما هو تالٍ لما ذكر في تلك أو لازمٌ له ، فذكر هناك خلق الناس ، وذكر هنا تصويرهم في الأرحام ، وذكر هناك مبدأ خلق آدم ، وذكر هنا مبدأ خلق

أولاده ؛ وألطف من ذلك أنه افتتح البقرة بقصة آدم وخلقه من تراب ولا أُمّ ، وذكر في هذه نظيره في الخلق من غير أب وهو عيسى ، ولذلك ضرب له المثل بآدم ، واختصت البقرة بآدم لأنها أول السور وهو أول في الوجود وسابق ، ولأنها الأصل وهذه كالفرع والتتمة لها فاختصت بالأغرب ، ولأنها خطاب لليهود الذين قالوا في مريم ما قالوا ، وأنكروا وجود ولد بلا أب ، ففوتحوا بقصة آدم لتثبت في أذهانهم فلا تأتي قصة عيسى إلا وقد ذكر عندهم ما يشهد لها من جنسها ، ولأن قصة عيسى قيست على قصة آدم والمقيس عليه لابد وأن يكون معلوماً لتتم الحجة بالقياس ، فكانت قصة آدم – والسورة التي هي فيها – جديرة بالتقديم .

وقد ذكر بعض المحققين من وجوه التلازم بين السورتين ، أنه قال في البقرة في صفة النار : ﴿ **أعدت للكافرين** ﴾ مع افتتاحها بذكر المتقين والكافرين معاً ، وقال في آخر هذه : ﴿ **وجنة عرضها السموٰات والأرض أعدت للمتقين** ﴾ . فكأن السورتين بمنزلة سورة واحدة ، ومما يقوي التناسب والتلازم بينهما أن خاتمة هذه مناسبة لفاتحة تلك ، لأن الأولى افتتحت بذكر المتقين وأنهم المفلحون ، وختمت هذه بقوله تعالى : ﴿ **واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ وافتتحت الأولى بقوله سبحانه ﴿ **الذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ وختمت آل عمران بقوله تعالى : ﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم** ﴾ وقد ورد أن اليهود قالوا لما نزل ﴿ **من ذا الذي يقرض الله** ﴾ الآية : يا محمد افتقر ربك ، يسأل عباده القرض فنزل : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ وهذا مما يقوي التلازم أيضاً ، ومثله أنه وقع في البقرة حكاية قول إبراهيم : ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولًا منهم** ﴾ الآية وهنا ﴿ **لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم** ﴾ الآية إلى غير ذلك . اهـ كلام الألوسي .

٢ ــ وفي أسماء سورة آل عمران : قال الألوسي :

« ... وفي صحيح مسلم تسميتها والبقرة – الزهراوين – وتسمى الأمان والكنز والمغنية والمجادلة وسورة الاستغفار » .

٣ ــ من تقديم صاحب الظلال لتفسير سورة آل عمران :

« ولا يتم التعريف المجمل بهذه السورة حتى نلّم بثلاثة خطوط عريضة فيها ، تتناثر

نقطها في السورة كلها ، وتتجمع وتتركز في مجموعها حتى ترسم هذه الخطوط العريضة بوضوح وتوكيد ... » .

« أول هذه الخطوط بيان معنى « الدين » ومعنى « الإسلام » .. فليس الدين - كما يحدّده الله - سبحانه - ويريده ويرضاه - هو اعتقاد في الله فحسب.. إنما هو صورة واحدة من صور الاعتقاد فيه - سبحانه - صورة التوحيد المطلق الناصع القاطع : توحيد الألوهية التي يتوجه إليها البشر كما تتوجه إليها سائر الخلائق في الكون بالعبودية . وتوحيد القوامة على البشر وعلى الكون كله ، فلا يقوم شيء إلا بالله تعالى ، ولا يقوم على الخلائق إلا الله تعالى . ومن ثَم يكون الدين الذي يقبله الله من عباده هو « الإسلام » وهو في هذه الحالة : الاستسلام المطلق للقوامة الإلهية ، والتلقي من هذا المصدر وحده في كل شأن من شؤون الحياة ، والتحاكم إلى كتاب الله المنزل من هذا المصدر ، واتباع الرسل الذين نزل عليهم الكتاب . وهو في صميمه كتاب واحد ، وهو في صميمه دين واحد .. الإسلام .. بهذا المعنى الواقعي في ضمائر الناس وواقعهم العملي على السواء . والذي يلتقي عليه كل المؤمنين أتباع الرسل .. كلٌّ في زمانه .. متى كان معنى إسلامه هو الاعتقاد بوحدة الألوهية والقوامة ، والطاعة والاتباع في منهج الحياة كله بلا استثناء ...

فأما الخط الثاني الذي يركز عليه سياق السورة فهو تصوير حال المسلمين مع ربهم واستسلامهم له ، وتلقيهم لكل ما يأتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع الدقيق ..

والخط الثالث العريض في سياق السورة هو التحذير من ولاية غير المؤمنين ، والتهوين من شأن الكافرين مع هذا التحذير ، وتقرير أنه لا إيمان ولا صلة بالله مع تولي الكفار الذين لا يحتكمون لكتاب الله ، ولا يتبعون منهجه في الحياة ... » . اهـ .

٤ ـ عند قوله تعالى ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء** ﴾ يقول صاحب الظلال :

« هكذا .. ليس من الله في شيء . لا في صلة ولا نسبة ، ولا دين ولا عقيدة ، ولا رابطة ولا ولاية .. فهو بعيد عن الله ، منقطع الصلة تماماً في كل شيء تكون فيه الصلات .

ويرخّص فقط بالتّقيّة لمن خاف في بعض البلدان والأوقات .. ولكنها تقية اللسان لا

ولاء القلب ولا ولاء العمل . قال ابن عباس رضي الله عنهما « ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان » .. فليس من التقية المرخّص فيها أن تقوم المودة بين المؤمن والكافر – والكافر هو الذي لا يرضى بتحكيم كتاب الله في الحياة على الإطلاق ، كما يدل السياق هنا ضمناً وفي موضع آخر من السورة تصريحاً – كما أنه ليس من التقية المرخّص بها أن يعاون المؤمن الكافر بالعمل الكفري أو الآثم في صورة باسم التقية . فما يجوز هذا الخداع على الله » ؟ . وفي الآية نفسها يقول الألوسي :

« والمراد أن لا يراعوا أموراً كانت بينهم في الجاهلية ، بل ينبغي أن يراعوا ما هم عليه الآن مما يقتضيه الإسلام من بغض وحب شرعيين يصح التكليف بهما ، وإنما قيدنا بذلك لما قالوا : إن المحبّة لقرابة أوصداقة قديمة أو جديدة خارجة عن الاختيار معفوّة ساقطة عن درجة الاعتبار ، وحمل الموالاة على ما يعم الاستعانة بهم في الغزو مما ذهب إليه البعض .ومذهبنا – وعليه الجمهور ـــ أنه يجوز ويرضخ لهم لكن إنما يستعان بهم على قتال المشركين لا البغاة على ما صرحوا به ، وما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : خرج رسول الله ﷺ لبدر فتبعه رجل مشرك كان ذا جراءة ونجدة . ففرح أصحاب النبي ﷺ حين رأوه ، فقال له النبي ﷺ : « ارجع فلن أستعين بمشرك » فمنسوخ بأن النبي ﷺ استعان بيهود بني قينقاع ورضخ لهم واستعان بصفوان بن أمية في هوازن ، وذكر بعضهم جواز الاستعانة بشرط الحاجة والوثوق ، أما بدونهما فلا تجوز . وعلى ذلك يحمل خبر عائشة ، وكذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس في سبب النزول – وبه يحصل الجمع بين أدلة المنع وأدلة الجواز – على أن بعض المحققين ذكر أن الاستعانة المنهي عنها إنما هي استعانةُ الذليل بالعزيز ، وأما إذا كانت من باب استعانة العزيز بالذليل فقد أذن لنا بها ، ومن ذلك اتخاذ الكفار عبيداً وخدماً ، ونكاح الكتابيات منهم وهو كلام حسن كما لا يخفى .

ومن الناس من استدل بالآية على أنه لا يجوز جعلهم عمالًا ولا استخدامهم في أمور الديوان وغيره ، وكذا أدخلوا في الموالاة المنهي عنها السلام والتعظيم والدعاء بالكنية والتوقير بالمجالس ، وفي فتاوى العلامة ابن حجر جواز القيام في المجلس لأهل الذمة وعدّ ذلك من باب البر والإحسان المأذون به في قوله تعالى : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين** ﴾ . ولعل الصحيح أن كلّ ما عدّه العرف تعظيماً وحسبه المسلمون موالاة

فهو منهي عنه ولو مع أهل الذمة ، لاسيما إذا أوقع شيئاً في قلوب ضعفاء المؤمنين ، ولا أرى القيام لأهل الذمة في المجلس إلا من الأمور المحظورة لأن دلالته على التعظيم قوية وجعله من الإحسان لا أراه من الإحسان كما لا يخفى » ا هـ كلام الألوسي .

أقول : هذه الأمور فيها خلاف كثير ، ولابدَّ من التفريق بين الفتوى والورع ، ولا بدَّ من التفريق بين حال قوّة المسلمين وضعفهم ، ولابدّ من معرفة أن هناك حداً أعلى طمح إليه الفقهاء ، وأن هناك حداً أدنى من أقوال الفقهاء المعتمدين . هو الذي لا يصح الخروج عليه أو النزول عنه ، وعلى ضوء ذلك ينبغي أن ننظر إلى ما نقرؤه في كتب الفقه أو في كتب التفسير أو كتب شروح السنّة .

والذي أراه في أحوالنا المعاصرة : أن الحركة الإسلامية في عصرنا ينبغي أن تكون دقيقة في تربيتها لعناصرها ، وواسعة الأفق في موضوع الطروح السياسية ، فتربي عناصرها على الوضع الأكمل والأورع وعلى ما هو الأصل في الأحكام ، وتتبنى في مواقفها السياسية ما هو الأصلح والأنسب لعصرنا من مجموع أقوال العلماء أهل الفتوى البصيرة ، بما يسع أوضاع عصرنا .

لقد نصّ كثيرون ممن تكلموا في الأحكام السلطانية على أنه يجوز أن يتولّى أهل الذمة وزارة التنفيذ لا التفويض .

ولقد نصّ فقهاء الحنفية على أنه يجوز بدأ الذمي بالسلام إذا كانت لك إليه حاجة ، كما نصوا على جواز القيام للذمي إذا ترتب على ترك القيام له ضرر ، وأجازوا مخاطبة الناس بألقابهم الرسمية مالم يترتب على ذلك إثم إذا كان ترك الخطاب باللقب يترتب عليه ضرر .

وهكذا نجد مثل هذه التفريعات التي ألجأت إليها مسيرة التاريخ الإسلامي وأوضاع المسلمين .

والذي أقوله : إن حق التربية يقتضي منا أن نربي على العزائم والورع ، وحق المعركة يقتضي منا أن نختار من أقوال الأئمة ما تقتضيه ظروف معركتنا المعاصرة .

والأمر دقيق وسيأتي في هذا التفسير ما يوضح مثل هذه الشؤون وغيرها وأدلة ذلك .

٥ ـ عند قوله تعالى ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ قال الألوسي :

وروى علي بن إبراهيم عن أمير المؤمنين عليٍّ كرّم الله تعالى وجهه أنه قال في خطبة له : « لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي ، الإسلام هو التسليم ، والتسليم هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الإقرار ، والإقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل ، ثم قال : إن المؤمن أخذ دينه عن ربه ولم يأخذه عن رأيه . إن المؤمن من يُعرف إيمانه في عمله وإن الكافر يعرف كفره بإنكاره ، أيها الناس دينكم دينكم فإن السيئة فيه خير من الحسنة في غيره إن السيئة فيه تغفر وإن الحسنة في غيره لا تُقبل ... »

٦ ــ عند قوله تعالى ﴿ **قل اللهم مالك الملك** ... ﴾ قال الألوسي :

« وقد أخرج ابن أبي الدنيا عن معاذ بن جبل قال « شكوت إلى النبي ﷺ ديْنا كان عليَّ فقال : يامعاذ أتحب أن يقضى دينك ؟قلت : نعم قال : قل ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير** ﴾ رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي منهما من تشاء اقض عني ديني فلو كان عليك ملء الأرض ذهبا أدى عنك » وفي رواية للطبراني ذكر الآيتين بتمامهما .

فصل في المتشابه :

لعل القارىء لاحظ أنني مررت على موضوع الآيات المتشابهات مروراً سريعاً لا يتفق مع جلالة هذا الموضوع الذي كتب فيه العلماء ولا زالوا يكتبون ، فكان حصيلة ما كتبوا فيه عشرات الألوف من الصحائف ، حتى لو قلنا إنّه لم يحتدم النقاش في موضوع كما احتدم في هذا الموضوع لكنا صادقين فلماذا مررنا عليه مروراً سريعاً ؟!

السرُّ في ذلك هو اعتقادنا أن هذا موضوع لا تصلح فيه الكتابة المختصرة ، ولذلك فعلى مريد تتبعه أن يرجع إلى الكتب المطوّلة التي ألفت فيه ليستطيع أن يستخلص لنفسه ما تطمئن به نفسه ، على أننا أشرنا إلى نقطة نتمنى أن يتابعها بعض أهل العلم ، هذه النقطة هي أن الواقع التاريخي للمسلمين أصبح بإمكانه أن يُقدم لنا ترجيحاً للكثير من الأمور التي احتدم فيها النقاش حول المحكم والمتشابه . فهناك فِرق دلت النصوص على انحرافها ، فمن خلال ما اعتمدَتْهُ وما أوّلَتْه يمكن أن يترجح لدينا بعض الأمور في شأن المتشابه والمحكم .

وهناك قضايا أخذت طابع البديهية عند جماهير المسلمين بحيث أصبح بالإمكان من

خلالها أن نرجِّح بعض ما اختلف فيه في موضوع المتشابه والمحكم .

على أنه إذا اعتبرنا أن واقع المسلمين الحالي يفرض علينا ألا نتوسع في موضوع الكلام عن المتشابه والمحكم ، فإن واقع المسلمين الحالي والمستقبلي ، يفرض علينا أن نقول كلمة حول الحدود التي يسع الدولة الإسلامية أن تتدخل فيها في أمور الاختلافات فترجح أو تعاقب .

الذي يبدو لي من خلال دروس التاريخ ، وبسبب من المآسي التي حدثت لعلماء أجلاء ، أن على الحكومة الإسلامية في المستقبل أن تعطي حرية التحقيق العلمي لجميع المسلمين ، وأن تعتمد التقنين في القضايا الفقهية وتفرض ما تراه مناسباً من مجموع آراء الأئمة على ضوء الشورى ، وألا تعاقب على رأي إسلامي إلا إذا أجمع المعتمدون من أهل المذاهب الأربعة والمعتمدون من أهل الحديث على استحقاق صاحبه للعقوبة .

وإنما اشترطت للعقوبة إجماع المعتمدين من أهل الفتوى من المذاهب الأربعة وأهل الحديث بآن واحد ، لأنني وجدت أن أهل الحديث يتسرّعون لو كان بيدهم سلطة في عقوبة المخالف ، وكذلك أهل المذاهب ، فمثلًا لو أن إنساناً أوَّل حديث النزول الذي ذكرناه أثناء التفسير ، لكان مستحقاً للعقوبة عند بعض أهل الحديث ، مع أن رواية النسائي التي يقول عنها القرطبي بأنه قد صححها أبو محمد عبد الحق تقول « إن الله — عز وجل — يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول ثم يأمر منادياً فيقول : هل من داع يستجاب له ، هل من مستغفر يغفر له ، هل من سائل يعطى » .

إن هذه الرواية تصلح مستنداً لأهل التأويل لحديث النزول فلا أقل من أن يرفع عنهم استحقاق العقوبة ، وما جرى لابن تيمية لا يخفى . مما لا يصلح أن يتكرّر مرة ثانية إنني أعتبر أن الوصول إلى قاعدة يتفق عليها الجميع ، في شأن موقف الحكم الإسلامي من موضوع التحقيق العلمي ، هو الأهم الآن بالنسبة لسير الحركة الإسلامية .

وأن على القائمين على الحركة الإسلامية ، أن يحتفظوا لأنفسهم بكثير من قناعاتهم العلمية لصالح معركة المسلمين مع خصومهم ، وأن على جميع المسلمين أن يوفِّقوا بين حق المعركة ، وحق الدعوة ، وحق العلم ، وحق التربية ، وهو موضوع دقيق فصّلنا فيه في غير هذا المكان .

وما ذكرته في هذا الفصل لا يخرج عن كونه اقتراحاً ، وعلينا أن نصل في شأنه إلى

قاعدة يرضاها الجميع .

لقد رأيت ناساً مذهبيين يستحلون دم ابن تيمية ، ورأيت ناساً من أهل الحديث يستحلون دم النووي ، وسيبقى أمثال هؤلاء موجودين في الأمة وسواء وجدوا أو لم يوجدوا فإنني لا أرى للحكم الإسلامي أن يتورط في دم النووي ، أو في دم ابن تيمية ، ولا أرى له أن يتورط في عقوبة هذا أو هذا ، وليبق باب التحقيق العلمي مفتوحاً ، وليبق النووي يناقش ابن تيمية والعكس . وضمير الأمة الإسلامية لن يعجزه التمييز مع وجود العلم الشامل الذي يجب أن يكون جزءاً من سياسة الدولة .

وأكرر أن ما قلته ، اقتراح له صلة بقضايا الحكم والسياسة الإسلاميين ، وليس له صلة برأيي شخصي حول فهم موضوع المحكم والمتشابه .

فصل في الرسوخ في العلم :

مما مرَّ معنا في سورة آل عمران ، عرفنا بعض خصائص الراسخين في العلم من كونهم يعملون بالمحكم ، ويحملون عليه المتشابه ، أو يسلمون لله تعالى فيه ،ولا يعارضون النصوص ببعضها ، ومن أنهم أهل لب ، ومن أنهم خاشعون لله كثيرو الدعاء له . وسيأتي في آخر سورة آل عمران تعريف لأولي الألباب ، الذين اجتمع لهم الذكر والتفكر ، والدعاء والعمل ، والهجرة حال وجوبها وتحمّل ترك البلاد في سبيل الله ، وتحمّل الإيذاء في سبيل الله ، والمشاركة في القتال إذا كان واجباً ، والاستعداد للاستشهاد . كل ذلك علامات نتعرف بها على الرّاسخين في العلم ، الذين لكلامهم وزن في موضوع المتشابه والمحكم ، ولكن هذه كلها علامات ، هي أثر العلم الحقيقي ، فإذا اجتمعت مع العلم الحقيقي الكامل الشامل ، وجد الراسخ في العلم ، وإذا أردنا أن نأخذ تصوراً عن العلوم التي يحتاجها الفهم لكتاب الله ، فلنقرأ تصور السيوطي للعلوم التي يحتاجها المفسر لنأخذ تصوراً مبدئياً عن الرسوخ في العلم ، فلننقل كلامه ثم نعلق عليه قال السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن :

« ومنهم من قال ، يجوز تفسيره لمن كان جامِعاً للعلوم التي يحتاج إليها المفسر ، وهي خمسة عشر علماً . **أحدها** اللغة : لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع .

الثاني : النحو : لأن المعنى يختلف باختلاف الإعراب .

الثالث : الصرف : لأن به تعرف الأبنية والصيغ .

الرابع : الاشتقاق : لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين ، اختلف باختلافهما ، كالمسيح هل هو من السياحة أو المسح .

الخامس والسادس والسابع : المعاني ، والبيان ، والبديع : لأنه يعرف بالأول خواص تراكيب الكلام من جهة إفادة المعنى ، وبالثاني : خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها ، وبالثالث : وجوه تحسين الكلام .

الثامن : علم القراءات ، لأنه يعرِّف كيفية النطق بالقرآن ، وبالقراءات يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض .

التاسع : أصول الدين : بما في القرآن من الآيات الدالة بظاهرها على ما يجوز على الله تعالى ، فالأصولي يؤول ذلك ويستدل على ما يستحيل ، وما يجوز وما يجب .

العاشر : أصول الفقه ، إذ به يعرف وجه الاستدلال على الأحكام والاستنباط .

الحادى عشر : أسباب النزول والقصص ، إذ بسبب النزول يعرف معنى الآية المنزلة فيه بحسب ما أنزلت فيه .

الثاني عشر : الناسخ والمنسوخ ، ليعلم الحكم الملزم من غيره .

الثالث عشر : الفقه .

الرابع عشر : الأحاديث المبينة لتفسير المبهم والمجمل .

الخامس عشر : علم الموهبة ، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم » .

أقول : ما ذكره السيوطي من علوم هي بعض من كل ليصلح إنسان لتفسير كتاب الله فمثلًا الثقافة الكونية ، والثقافة التاريخية ، هما بعض لوازم المفسر المفترض فيه أن يكون راسخاً .

إن الرسوخ في العلم صفة لا تعطى لأحد إلا بشروط كثيرة جداً ، وخاصة في عصرنا الذي حدث خلاله هذا الانفجار العلمي . ومع أن ما ذكره السيوطي هو بعض من كل إلا أننا من خلاله نستطيع أن نستأنس لمعرفة قيمة كلام الرجال الذين تكلموا خلال العصور في الشرح والتفسير لكتاب الله .

فإذا اجتمع هذا مع ما ذكرته النصوص فعندئذ يوجد الراسخ في العلم .

ولعلنا بذلك نكون قد حدّدنا سمات من نستطيع أن نقبل كلامه في موضوع المحكم والمتشابه ، فإذا ما اجتمع لنا مع ذلك معرفة تاريخية في أنواع من المتشابه ، ضلت به الفرق المنشقة عن جسم الأمة الإسلامية ، أو يستعمله المنحرفون المعاصرون ، فإنّ ذلك كله يساعد على توضيح قضية المحكم والمتشابه .

فصل في التَّقيّة :

بمناسبة قوله تعالى ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة** ﴾ يُتحدث عادة عن موضوع « التقية » الذي اشتهر عن الشيعة ، والذي يشاركهم في بعض مضامينه أهل السنَّة ، ويخالفونهم في مضامين أخرى كثيرة . وقد ذكرنا أثناء التفسير ما يوضح بعض النقاط . ولزيادة الإيضاح فإننا ننقل بعض كلام الألوسي في هذا المقام :

يقول الألوسي :

« وفي الآية دليلٌ » على مشروعية التَّقيّة ، وعرّفوها بحفظ النفس . أو العرض . أو المال من شر الأعداء ، والعدو قسمان : الأول من كانت عداوته مبنيّة على اختلاف الدِّين كالكافر والمسلم [المبتدع] ، والثاني من كانت عداوته مبنيّة على أغراض دنيوية كالمال والمتاع والملك والإمارة ، ومن هنا صارت التقية قسمين : أما **القسم الأول** : فالحكم الشرعي فيه أن كل مؤمن وقع في محل لا يمكن له أن يظهر دينه لتعرض المخالفين ، وجب عليه الهجرة إلى محل يقدر فيه على إظهار دينه ، ولا يجوز له أصلًا أن يبقى هناك ويخفي دينه ويتشبث بعذر الاستضعاف ، فإنّ أرض الله تعالى واسعة ، ثم إن كان ممّن لهم عذر شرعي في ترك الهجرة كالصبيان والنساء والعميان والمحبوسين والذين يخوّفهم المخالفون بالقتل . أو قتل الأولاد . أو الآباء . أو الأمهات تخويفاً يظن معه إيقاع ما خوّفوا به غالباً سواء كان هذا القتل بضرب العنق . أو بحبس القوت . أو بنحو ذلك فإنه يجوز له المكث مع المخالف ، والموافقة بقدر الضرورة ويجب عليه أن يسعى في الحيلة للخروج والفرار بدينه . ولو كان التخويف بفوات المنفعة ، أو بلحوق المشقة التي يمكنه تحملها كالحبس مع القوت ، والضرب القليل غير المهلك لا يجوز له موافقتهم ، وفي صورة الجواز أيضاً موافقتهم رخصة وإظهار مذهبه عزيمة فلو تلفت نفسه لذلك فإنه شهيد

قطعاً ؛ ومما يدل على أنها رخصة – ما روي عن الحسن أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم فقال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : نعم ثم دعا بالآخر فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم فقال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : إني أصمّ قالها ثلاثاً ، وفي كلٍ يجيبه بأني أصمّ فضرب عنقه فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « أما هذا المقتول فقد مضى على صدقه ويقينه وأخذ بفضله فهنيئاً له . وأما الآخر فقد رخّصه الله تعالى فلا تبعة عليه » **وأما القسم الثاني** : فقد اختلف العلماء في وجوب الهجرة وعدمه فيه فقال بعضهم : تجب ، لقوله تعالى : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ (سورة البقرة) وبدليل النهي عن إضاعة المال ، وقال قوم لا تجب إذ الهجرة عن ذلك المقام مصلحة من المصالح الدنيوية ، ولا يعود على من تركها نقصان في الدين لاتحاد الملة ، وعدوُّه المؤمن لا يتعرض له بالسوء من حيث هو مؤمن ، وقال بعضهم : الحق إن الهجرة هنا قد تجب أيضاً إذا خاف هلاك نفسه أو أقاربه ، أو هتك حرمته بالإفراط ، ولكن ليست عبادة وقربى حتى يترتب عليها الثواب ، فإن وجوبها لمحض مصلحة دنيوية . لا كذلك المهاجر لإصلاح الدين ليترتب عليه الثواب ، وليس كل واجب يثاب عليه ، لأن التحقيق أن كل واجب لا يكون عبادة . بل كثير من الواجبات لا يترتب عليه ثواب كالأكل عند شدة المجاعة ، والاحتراز عن المضرات المعلومة أو المظنونة في المرض ، وعن تناول السموم في حالة الصحة وغير ذلك ، وهذه الهجرة أيضاً من هذا القبيل وليست هي كالهجرة إلى الله تعالى ورسوله ﷺ ، لتكون مستوجبة بفضل الله تعالى لثواب الآخرة ، وعدّ قوم من باب التّقيّة مداراة الكفار والفسقة والظلمة ، وإلانة الكلام لهم ، والتبسم في وجوههم ، والانبساط معهم ، وإعطاؤهم لكفّ أذاهم ، وقطع لسانهم ، وصيانة العرض منهم ، ولا يعد ذلك من باب الموالاة المنهي عنها بل هي سنّة وأمر مشروع .

فقد روى الديلمي عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى أمرني بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض » وفي رواية « بعثت بالمداراة » وفي الجامع « سيأتيكم ركب مبغضون فإذا جاءوكم فرحبوا بهم » وروى ابن أبي الدنيا « رأس العقل بعد الإيمان بالله تعالى مداراة الناس » وفي رواية البيهقي « رأس العقل المداراة » وأخرج الطبراني « مداراة الناس صدقة » وفي رواية له « ما وقى به المؤمن عرضه فهو صدقة » *

وأخرج ابن عدي . وابن عساكر « من عاش مدارياً مات شهيداً . قوا بأموالكم

أعراضكم ، وليصانع أحدكم بلسانه عن دينه » وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده فقال رسول الله ﷺ : « بئس ابن العشيرة – أو أخو العشيرة – ثمّ أذن فألان له القول ، فلما خرج قلت : يا رسول الله قلت ما قلت ثم ألنت له القول ؟ فقال يا عائشة إن من أشر الناس من يتركه الناس أو يدعه الناس اتقاء فحشه » وفي البخاري عن أبي الدرداء« إنا لنبش في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم » وفي رواية الكشميهني « وإن قلوبنا لتقليهم » وفي رواية ابن أبي الدنيا . وإبراهيم الحرمي بزيادة « ونضحك إليهم » إلى غير ذلك من الأحاديث لكن لا تنبغي المداراة إلى حيث يُخدشُ الدين ويرتكب المنكر .

ووراء هذا التحقيق قولان لفئتين متباينتين من الناس . وهم الخوارج والشيعة : أما الخوارج فذهبوا إلى أنه لا تجوز التقية بحال ولا يراعى المال وحفظ النفس والعرض في مقابلة الدين أصلًا ، ولهم تشديدات في هذا الباب عجيبة . منها أن أحداً لو كان يصلي وجاء سارق أو غاصب ليسرق أو يغصب ماله لا يقطع الصلاة بل يحرم عليه قطعها وطعنوا على بريدة الأسلمي من صحابة رسول الله ﷺ بسبب أنه كان يحافظ على فرسه في صلاته كي لا يهرب ، ولا يخفى أن هذا المذهب من التفريط بمكان ، وأما الشيعة فكلامهم مضطرب في هذا المقام فقال بعضهم : إنها جائزة في الأقوال كلها عند الضرورة ، وربما وجبت فيها لضرب من اللطف والاستصلاح ولا تجوز في الأفعال كقتل المؤمن ولا فيما يعلم أو يغلب على الظن أنه إفساد في الدين ؛ وقال المفيد : إنها قد تجب أحياناً وقد يكون فعلها في وقت أفضل من تركها وقد يكون تركها أفضل من فعلها ، وقال أبو جعفر الطوسي : إن ظاهر الروايات يدل على أنها واجبة عند الخوف على النفس ، وقال غيره : إنها واجبة عند الخوف على المال أيضاً ومستحبة لصيانة العرض ، حتى يسنّ لمن اجتمع مع أهل السنّة ، أن يوافقهم في صلاتهم وصيامهم وسائر ما يدينون به ، ورووا عن بعض أئمة أهل البيت من صلى وراء سنيّ تقية فكأنما صلى وراء نبي . وفي وجوب قضاء تلك الصلاة عندهم خلاف ، وكذا في وجوب قضاء الصوم على من أفطر تقية حيث لا يحل الإفطار قولان أيضاً ، وفي أفضلية التقية من سنيّ واحد صيانة لمذهب الشيعة عن الطعن خلاف أيضاً ، وأفتى كثير منهم بالأفضلية . ومنهم من ذهب إلى جواز – بل وجوب – إظهار الكفر لأدنى مخافة أو طمع ، ولا يخفى أنه من الإفراط بمكان ، وحملوا أكثر أفعال الأئمة مما يوافق مذهب أهل السنّة ويقوم به الدليل على رد مذهب الشيعة على التقية وجعلوا هذا أصلًا عندهم وأسسوا عليه دينهم – وهو الشائع

الآن فيما بينهم - حتى نسبوا ذلك للأنبياء عليهم السلام ؛ وجل غرضهم من ذلك إبطال خلافة الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم ويأبى الله تعالى ذلك » ا هـ . ما أردنا نقله من كلام الألوسي :

أقول : إن الألوسي لا يعتبر السجن مع القوت ومع الضرب القليل مجيزاً للتقية كما رأينا .

والذي نص عليه فقهاء الحنفية أن سجن الظلمة كالإكراه الملجىء أي كالقتل وإتلاف العضو وعلى هذا فكلام الألوسي - فيما يبدو - في سجن تحتمله النفس زمناً ومكاناً وآلاماً ، أما إذا كان السجن أو الاعتقال آلامه كثيرة أو الزمن فيه مديد فإن الرّخصة للمبتلى بذلك قائمة .

فصل في أسباب النزول :

في كلام المفسرين وأصحاب السّيَر ، اضطراب كثير في أسباب النزول لأجزاء كثيرة من أوائل سورة آل عمران فبينما نجد في كلام بعضهم ما يشير إلى أن بضعاً وثمانين آية من صدر سورة آل عمران نزل بعد مناقشةٍ مع وفد نجران ، الذي جاء في السّنة التاسعة للهجرة ، نجد في كلام بعضهم أن آية :

﴿ **قل للذين كفروا ستُغلبون** ﴾ قد نزلت بعد غزوة بدر كما نجد أن آيات كثيرة يذكر لها سبب نزول خاص كما سنرى . كما نجد أن آية ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم** ﴾ .. قد ذكرها رسول الله ﷺ في رسالته إلى هرقل والتي كانت سنة سبع للهجرة . كل ذلك يجعلنا نرجح أن رواية ابن إسحٰق والزهري من أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية نزل في وفد نجران غير راجح وهو أحد الاتجاهات التي ذكرها ابن كثير .

نعم هناك بضع آيات نزلت بمناسبة مجيء وفد نجران منها آية المباهلة كما سنرى ولكن ليست كل هذه الآيات .

إلا إذا قلنا : إن بعض هذه الآيات نزلت من قبل ثم نزلت مع بقية الآيات مرة ثانية لأن معانيها متكاملة وهو اتجاه يحتمل مثله ابن كثير .

وهناك رواية يذكرها البيهقي تذكر أن من قوله تعالى : ﴿ **إن مثل عيسى عند**

الله ... ﴾ إلى نهاية آية المباهلة . نزلت بسبب الحوار مع وفد نجران .

وهو اتجاه أميل إليه فيكون بعض صدر سورة آل عمران نزل بسبب وفد نجران وليس كلها . وعلى هذا فإننا نرجح أنه إن كان سبب نزول قوله تعالى ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات** ﴾ حواراً قد جرى بين بعض أهل الكتاب ورسولنا عليه الصلاة والسلام ، كما يذكر بعضهم ، فإن هذا الحوار كان متقدماً على الحوار مع وفد نجران بل كان متقدماً جداً . فإذا اتضح هذا فإننا سننقل بعض ما ذكره العلماء من أسباب نزول لبعض الآيات الواردة في القسم الذي مضى معنا من السورة وكما سنرى فإن هذه النقول تدل على أسباب نزول متفرقه غير ما ذكره ابن إسحاق والزهري ، إلا أن يقال - كما ذكرنا - إن بعض الآيات نزلت مرتين .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن هناك اتجاهاً يقول : إن وفد نجران جاء قبل صلح الحديبية ، لكن يعكِّر على هذا الاتجاه أشياء كثيرة فلم يبق إلا اتجاهان :

القول بتعدد النّزول ، أو القول بأن حديث ابن إسحٰق غير محفوظ . وهذه بعض الروايات في أسباب النزول لبعض الآيات التي مرت معنا في القسم الأول :

أ ــ يذكر الطبري رواية عن محمد بن جعفر بن الزبير تقول : إن آية المتشابه نزلت بسبب الحوار مع وفد نجران ، إذ احتجوا بقوله تعالى ﴿ **وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه** ﴾ على ما يزعمون من أن عيسى ابن الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، وهي جزء من الرواية التي فهمها بعضهم على أنها نزلت في عام الوفود سنة تسع للهجرة ، وقد رأينا بعض ما يمكن أن يقال فيها .

ب ــ رأينا أثناء التفسير ما ذكره ابن كثير عن ابن إسحق عن عاصم من أن قوله تعالى ﴿ **قل للذين كفروا ستغلبون** ﴾ أنها نزلت بعد بدر إذ جمع رسول الله ﷺ اليهود في سوق بني قينقاع وقال لهم ما قال وردُّوا عليه ما ردُّوا فأنزل الله الآيتين .

وبهذه المناسبة نقول :

إن النص مع أنه عام ، لكن سبب النزول يذكرنا بخصوص معيّن ، هو أن النصّ موجّه لليهود الذين كانوا في المدينة بشكل مباشر وفي ذلك معجزة قرآنية إذ إن الله عز وجل صدق وعده فغلبت يهود في الدنيا ، فقهرت قينقاع وبنو النضير ويهود خيبر ،

وقتلت قُريظة فيما بعد ، وسيحشرون إلى جهنم وبئس المهاد .

جـ ـــ في سبب نزول قوله تعالى ﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم** ... ﴾ ينقل ابن كثير عن ابن جرير بسنده إلى أبي بكر بن حفص بن عمر بن سعد قال : قال عمر بن الخطاب لما نزلت ﴿ **زُيّن للناس حب الشهوات** ﴾ قلت : الآن يارب حين زينتها لنا فنزلت ﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا**... ﴾ الآية .

د ـــ في سبب نزول قوله تعالى ﴿ **ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدْعَون** ... ﴾ قال الألوسي :

« وقد أخرج ابن إسحق وجماعة .. قال : « دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله تعالى فقال النعمان بن عمرو . والحرث بن زيد : على أي دين أنت يا محمد ؟ قال : على ملة إبراهيم ودينه . قالا : فإن إبراهيم كان يهودياً فقال لهما رسول الله ﷺ : فهلما إلى التوراة فهي بيننا وبينكم فأبيا عليه فأنزل الله تعالى الآية . (وفي البحر) زنى رجل من اليهود بامرأة ، ولم يكن بعد في ديننا الرجم ، فتحاكموا إلى رسول الله ﷺ تخفيفاً على الزانيين لشرفهما ، فقال رسول الله ﷺ : إنما أحكم بكتابكم ، فأنكروا الرجم ، فجيء بالتوراة ، فوضع حبرهم ابن صوريا يده على آية الرجم ، فقال عبد الله بن سلام : جاوزها يا رسول الله ، فأظهرها ، فرجما ، فغضبت اليهود فنزلت » ..

هـ ـــ وفي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قل اللهم مالك الملك** ... ﴾ .

قال الألوسي :

روى الواحدي عن ابن عباس ، وأنس بن مالك ، أنه لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ، وَعَد أُمّته ملك فارس والروم . قال المنافقون واليهود : هيهات هيهات ، من أين لمحمد ملك فارس والروم ، هم أعز وأمنع من ذلك ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى يطمع في ملك فارس والروم ؟!! فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وروى أبو الحسن الثعالبي عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف قال : حدثني أبي عن أبيه قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب ، ثم قطع لكل عشرة أربعين ذراعاً ، قال عمرو بن عوف : كنت أنا وسلمان الفارسي وحذيفة والنعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً ، فحفرنا فأخرج الله تعالى من بطن الخندق

صخرة مدوّرة كسرت حديدنا وشقّت علينا ، فقلنا : يا سلمان ارق إلى رسول الله ﷺ وأخبره خبر هذه الصخرة فإما أن نعدل عنها ، أو يأمرنا فيها بأمره ، فإنّا لا نحب أن نجاوز خطه قال : فرقى سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية ، فقال : يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء مدوّرة من بطن الخندق ، وكسرت حديدنا وشقّت علينا حتى ما يحتك فيها قليل ولا كثير ، فمرنا فيها بأمر فإنا لا نحب أن نجاوز خطك . فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان الخندق ، والتسعة على شفير الخندق فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان ، فضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم . وكبّر رسول الله ﷺ تكبير فتح ، فكبّر المسلمون ، ثم ضربها ﷺ الثانية فبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم ، وكبّر ﷺ تكبير فتح وكبّر المسلمون ، ثم ضربها عليه الصلاة والسلام الثالثة فكسرها وبرق منها برق كذلك ، فكبّر ﷺ تكبير فتح ، وكبّر المسلمون وأخذ بيد سلمان ورقى فقال سلمان : بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيت مثله قط . فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال : رأيتم ما يقول سلمان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : ضربت ضربتي الأولى فبرق لي الذي رأيتم ، أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها . ثم ضربت الثانية فبرق لي الذي رأيتم أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها . ثم ضربت ضربتي الثالثة فبرق لي الذي رأيتم أضاءت منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا . فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر بعد الحفر ، فقال المنافقون : ألا تعجبون ! يعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا للقتال ! فأنزل الله تعالى ﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً** ﴾ (سورة الأحزاب) وأنزل هذه الآية ﴿ **قل اللهم** ﴾ الخ .

و ــ وفي سبب نزول قوله تعالى ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين** ﴾ قال الألوسي :

قال ابن عباس : كان الحجاج بن عمرو . وكهمس بن أبي الحقيق . وقيس بن زيد – والكل من اليهود – يباطنون نفراً من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة

ابن المنذر، وعبد الله بن جبير، وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا لزومهم ومباطنتهم ، لا يفتنوكم عن دينكم ، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم ، فأنزل الله هذه الآية ، وقال الكلبي : نزلت في المنافقين عبد الله بن أُبي وأصحابه كانوا يتولون اليهود والمشركين ، ويأتونهم بالأخبار ، ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى الآية ونهى المؤمنين عن فعلهم .

وروى الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت في عبادة بن الصامت الأنصاري ، وكان بدرياً نقيباً ، وكان له حلفاء من اليهود ، فلما خرج رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ، قال عبادة : يا نبي الله إن معي خمسمائة من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معي فاستظهر بهم على العدو ، فأنزل الله تعالى ﴿ **لا يتخذ** ﴾ الخ .

ز — وفي سبب نزول قوله تعالى ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ... ﴾ قال الألوسي :

واختلف في سبب نزولها . فقال الحسن وابن جريج : « زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ ، أنهم يحبون الله تعالى . فقالوا يا محمد : إنا نحب ربنا . فأنزل الله تعالى هذه الآية » وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال : « وقف النبي ﷺ على قريش في المسجد الحرام ، وقد نصبوا أصنامهم ، وعلّقوا عليه بيض النعام ، وجعلوا في آذانها الشنوف وهم يسجدون لها ، فقال : يا معشر قريش لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل ، ولقد كانا على الإسلام فقالت قريش : يا محمد إنما نعبد هذه حباً لله تعالى لتقربنا إلى الله سبحانه زلفى فأنزل الله تعالى ﴿ **قل إن كنتم تحبون** ﴾ الخ » وفي رواية أبي صالح « إن اليهود لما قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه . أنزل هذه الآية ، فلما نزلت عرضها رسول الله ﷺ على اليهود فأبوا أن يقبلوها » . وروى محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير قال : « نزلت في نصارى نجران ؛ وذلك أنهم قالوا : إنما نعظم المسيح ونعبده حباً لله تعالى ، وتعظيماً له ، فأنزل الله هذه الآية رداً عليهم » ويروى أنها لما نزلت قال عبد الله بن أبيّ : إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله تعالى ، ويأمرنا أن نحبه كما أحبَّ النّصارى عيسى فنزل قوله تعالى : ﴿ **قل أطيعوا الله والرسول** ﴾ .

ح — ونختم هذه النقول في أسباب النزول بالرواية التي تذكر أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية نزلت في وفد نجران . ورأينا كيف يكون التوفيق بينها وبين الروايات الأخرى في حال صحتها .

قال الألوسي :

« أخرج ابن إسحاق . وابن جرير . وابن عبد المنذر عن محمد بن جعفر بن الزبير قال : « قدم على النبي ﷺ وفد نجران ، وكانوا ستين راكباً ، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم ، فكلّم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة ، والعاقب . عبد المسيح . والسيد الأيهم وهم من النصرانية على دين الملك ، مع اختلاف أمرهم ، يقولون : هو الله تعالى ، ويقولون : هو ولد الله تعالى ، ويقولون : هو ثالث ثلاثة – تعالى الله – كذلك قول النصرانية ، فهم يحتجون في قولهم : هو الله تعالى بأنه كان يحيي الموتى ، ويبرىء الأسقام ، ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً ، ويحتجون في قولهم بأنه ولد الله تعالى : يقولون : لم يكن له أب يُعلم ، وقد تكلم في المهد ، وصنع مالم يصنعه أحد غيره من ولد آدم قبله ، ويحتجون في قولهم بأنه ثالث ثلاثة : إن الله تعالى يقول فعلنا ، وأمرنا ، وخلقنا ، وقضينا يقولون : فلو كان واحداً ما قال إلا فعلت ، وأمرت ، وخلقت ، وقضيت ، ولكنه هو ، وعيسى ، ومريم ففي كل ذلك من قولهم نزل القرآن وذكر الله تعالى لنبيه ﷺ فيه قولهم فلما كلمه الحبران وهما – العاقب ، والسيد – كما في رواية الكلبي والربيع عن أنس قال لهما رسول الله ﷺ : أسلما قالا : قد أسلمنا قبلك . قال : كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله تعالى ولداً ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير ، قالا : فمن أبوه يا محمد ؟ وصمت فلم يجب شيئاً ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم ، واختلاف أمرهم كله ، صدرَ سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها . فافتتح السورة بتنزيه نفسه عما قالوا ، وتوحيده إياه بالخلق والأمر لا شريك له فيه ، وردّ عليهم ما ابتدعوا من الكفر ، وجعلوا معه الأنداد ، واحتج عليهم بقولهم في صاحبهم ليعرفهم بذلك ضلالتهم فقال : ﴿ **الٓمٓ الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ أي : ليس معه غيره شريك في أمره الحي الذي لا يموت ، وقد مات عيسى عليه السلام في قولهم ؛ (القيوم) القائم على سلطانه لا يزول وقد زال عيسى ، وفي رواية جرير عن الربيع قال : « إن النصارى أتوا رسول الله ﷺ فخاصموه في عيسى ابن مريم وقالوا له : من أبوه ؟ وقالوا على الله تعالى الكذب والبهتان ، فقال لهم النبي ﷺ : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه ؟ قالوا بلى . قال : ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء ؟ قالوا : بلى . قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيِّم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا : بلى . قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : ألستم تعلمون أن

الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟ قالوا : بلى . قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما عُلِّم ؟ قالوا : لا . قال ألستم تعلمون أن ربنا صوّر عيسى في الرحم كيف شاء ، وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا : بلى . قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذي كما يغذى الصبي ، ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا : بلى . قال فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟ فعرفوا ثم أبوا إلا جحوداً فأنزل ﴿ **الٓمٓ الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ .

كلمة أخيرة في القسم الأول :

نلاحظ بشكل واضح ، أن موضوعاً جديداً سيأتي معنا في القسم الثاني من السورة ، يتحدث عن زكريا ، ومريم وعيسى ، عليهم السلام ، وكنا قلنا من قبل : إن القسم الأول في سورة آل عمران ، هو بمثابة المقدمة للقسم الثاني ، والقسم الأول والثاني بمثابة المقدمة للقسم الثالث ، والأقسام الأولى بمثابة المقدمات للقسمين الأخيرين من السورة :

إنّ القسم الأول من السورة تحدث عن وحدانية الله ، وقيوميّته ، وعزّته ، وحكمته ، ومظاهر ذلك من إنزال الكتب ، وإلزام الناس بها ، وعدم قبوله - جل جلاله - إلا الإسلام ديناً ، وكيف أن الإسلام يتمثل بالمتابعة والطاعة .

ويأتي الآن القسم الثاني وفيه تصحيح لمفاهيم أهل الكتاب عن عيسى عليه السلام ، إذ هتك النصارى بمفاهيمهم المنحرفة عن عيسى عليه السلام ، كل مقامات الألوهية ومقتضياتها ، فجاء القسم الثاني ليصحح ذلك كله ، وليعطينا تصوراً عن هذا الموضوع ، ينسجم مع المعاني التي قدمها لنا القسم الأول ، ليكون القسمان بمثابة مقدمتين لفتح حوار شامل مع أهل الكتاب ، ثم ليكون ذلك بمثابة الأساس الذي يبنى عليه القسمان الأخيران فى التوجيهات المباشرة للأمة الإسلامية . فلننتقل إذن إلى القسم الثاني في السورة بعد أن عرفنا محله في سياقها .

القسم الثاني من سورة آل عمران

يمتدُّ هذا القسم من الآية (**٣٣**) إلى نهاية الآية (**٦٣**) وهذا هو :

إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ
مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ
مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ
يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ
ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ
أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا
فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ
وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ
أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ
ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ
فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ
ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾
فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ
أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ
فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ

يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

☆ ☆ ☆

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

☆ ☆ ☆

كلمة في هذا القسم :

نلاحظ أن بداية هذا القسم قوله تعالى ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين** ﴾ ونهايته :

﴿ **إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم . فإن**

تولوا فإن الله عليم بالمفسدين ﴾ .

والذي دلّنا على أنّه قسم كامل : المعاني من جهة ، والخاتمة التي تشبه خاتمة القسم الأول من جهة أخرى .

فخاتمة القسم الأول كما ذكرنا هي : ﴿ **فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين** ﴾ وههنا : ﴿ **فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين** ﴾ والقسم هذا يقص علينا قصة زكريا ، وقصة مريم ، وقصة المسيح عليهم السلام . فيعرض الله علينا في قصة زكريا كيف رزقه الله على الكبر يحيى ، وكانت زوجته عاقراً ، وذلك كمقدمة للكلام عن خَلْق عيسى بلا أب . فالقدرة الصالحة لذلك صالحة لهذا ، ومن ثم تأتي قصة مريم وحملها بعيسى عليهم السلام جميعاً ، ثم ما كان من شأن عيسى ، ثم إقامة الحجة على أن ما قصّه الله – عز وجل – علينا في شأنه هو الحق الخالص .

وكما قلنا من قبل ، فإن القسم الأول ، والقسم الثاني يوطّئان للقسم الثالث الذي يفتح الحوار الشامل مع أهل الكتاب .

تحدث القسم الأول عن مظاهر وحدانية الله ، وقيوميّته ، وعزته وحكمته بإنزاله الكتب ، ومنها القرآن ، وأنه لا يقبل إلا الإسلام ديناً ، وإيجابه متابعة رسوله ﷺ محمدا وإيجابه طاعته ، وطاعة رسوله ﷺ ، ويأتي بعد ذلك هذا القسم ، فيتحدث في البداية ، عن اصطفاء الله آدم ونوحاً وآل إبراهيم – ومحمد ﷺ من آل إبراهيم – كما يتحدث عن اصطفائه آل عمران ، ثم يحدثنا عما تظهر به حكمة الاصطفاء . والاصطفاء أصلًا من مظاهر عزته وحكمته – جلّ جلاله – ومن ثم جاءَ في أواخر القسم قوله تعالى : ﴿ **إن هذا هو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله هو العزيز الحكيم** ﴾ فالكلام في القسم الثاني استمرار للكلام عن الوحدانية والقيومية والعزة والحكمة ، خاصّة وقد حدث خلل في شأن التوحيد من خلال نظرة الكثيرين إلى عيسى عليه السلام .

كان في القسم الأول حديث مع أهل الكتاب وعنهم .

﴿ وما اختلف الذين أتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتّبعن ﴾ .

﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم** ﴾ فمن أهم ما وقع فيه الخلاف بين أهل الكتاب موضوع عيسى عليه الصلاة والسلام ، فاليهود كذبوه ، والنصارى اختلفوا في شأنه ثم استقر الأمر عندهم على تأليهه .

وجاء هذا القسم ليبين هذه الأمور .

قلنا إن سورة آل عمران تفصيل لمحورها من سورة البقرة ، ومحورها هو مقدمة سورة البقرة .

وفي مقدمة سورة البقرة جاء قوله تعالى :

﴿ **الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ وفي هذا القسم نرى قوله تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك** ﴾ . فالقسم يقص علينا صفحة من صفحات الغيب الذي يجب أن نؤمن به .

فصلة هذا القسم في تفصيل مقدمة سورة البقرة واضحة ، ففي مقدمة سورة البقرة كلام عن الكافرين ، وما أعد الله لهم من عذاب عظيم . وفي هذا القسم نرى : ﴿ **فلما أحسَّ عيسى منهم الكفر ...** ﴾ . ﴿ **ومطهّرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا ...** ﴾ ﴿ **فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً** ﴾ فالقسم يفصل في قضية الإيمان بالغيب ، ويفصل في قضية الكفر ، وفي كلٍّ تفصيلٌ لمقدمة سورة البقرة .

قد يقول قائل : إن القرآن كله تفصيل لهاتين القضيتين فلماذا نربط ما ورد فيه من ألفاظ بعينها بمكان بعينه كربطنا هذا القسم بمقدمة سورة البقرة ؟ ونقول : نحن الآن نسجل ملاحظات ، فإذا اجتمع لنا من الملاحظات ما هو كافٍ لتأكيد وجهة نظرنا من أول القرآن إلى آخره ، فلا لوم علينا . وحيثما رأى أحد أننا تكلفنا في هذه الملاحظات فعليه واجب الرد ، وعلينا واجب التراجع .

قلنا من قبل : إن سورة آل عمران تفصِّل في مقدمة سورة البقرة ، وفيما هو امتداد لمعاني مقدمة سورة البقرة في سورة البقرة نفسها ، ومما جاء في سورة البقرة . وهو امتداد لمعاني مقدمتها — قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين * تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كَلَّم الله ورفع بعضهم**

درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ .

لاحظ أنه في هذا القسم جاءت هذه الآية : ﴿ **ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم * إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم .. الحق من ربك** ... ﴾ لاحظ التشابه بين آيتي سورة البقرة ، وهذه الآيات فالقسم كله تفصيل لبعض ذلك المقام في سورة البقرة .

يتألف القسم من آيتين هما بمثابة المدخل للكلام عن القسم ، ثم ثلاث فقرات :

الفقرة الأولى تبدأ بقوله تعالى ﴿ **إذ قالت امرأة عمران** ... ﴾ .

الفقرة الثانية تبدأ بقوله تعالى ﴿ **وإذ قالت الملائكة يا مريم** ﴾ .

الفقرة الثالثة تبدأ بقوله تعالى ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم** ﴾ .

والفقرات الثلاث تقص الحق وهي تصحح . ولنبدأ عرض القسم .

الآيتان اللتان هما بمثابة « المدخل » إلى القسم الثاني

﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذرّيّة بعضها من بعض والله سميع عليم** ﴾ .

المعنى العام :

يخبر الله تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض . فاصطفى آدم عليه السلام : خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلّمه أسماء كل شيء . وأسكنه الجنة ، ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة . واصطفى نوحاً عليه السلام ، وأرسله إلى قومه لما عبدوا الأوثان ، وأشركوا بالله ، وانتقم له لما طالت مدته بين ظهراني قومه يدعوهم إلى الله ليلًا ونهاراً ، سراً وجهاراً ، فلم يزدهم ذلك إلا فراراً ، فدعا عليهم ، فأغرقهم الله عن آخرهم ، ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله ليدعو إليه . واصطفى آل إبراهيم : إسماعيل وإسحق وذرياتهما ، ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ ، واصطفى آل عمران ، والمراد بعمران هنا والد مريم بنت عمران أم عيسى ، اصطفاهم على الناس أجمعين .

وآل عمران وآل إبراهيم ذرية واحدة ، متسلسل بعضها من بعض ، ولم يصطفها الله عبثاً بل اصطفاها بعلمه فيها ، وسمعه لأقوالها ، وما في أنفسها .

المعنى الحرفي :

﴿ إن الله اصطفىٰ ﴾ : أي اختار ﴿ آدم ﴾ أبا البشر ﴿ ونوحاً ﴾ شيخ المرسلين ﴿ وآل إبراهيم ﴾ إسماعيل وإسحٰق والصالحين من ذريتهما ﴿ وآل عمران ﴾ أم يحيى ، وأم عيسىٰ ، ويحيى وعيسى وزكريا ﴿ على العالمين ﴾ على عالمي زمانهم . ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ أي إن الآلين آل إبراهيم ، وآل عمران ذرية واحدة متسلسلة ، بعضها متشعب من بعض نسباً وديناً . ﴿ والله سميع عليم ﴾ يسمع افتقار الحال والمقال فيصطفي ؛ ويعلم من يصلح للاصطفاء .

فائدة حول السياق :

بعد إذ قرر الله بهاتين الآيتين اصطفاءه لمن ذكر ، وأن هذا الاصطفاء قائم على علم ، تأتي الآن فقرتان معطوفتان على بعضهما ، الأولى مبدوءة بـ (إذ) والثانية بـ (وإذ) ، وفي كل منهما يبين الله - عزّ وجلّ - ما يشعر بحكمة الاصطفاء ، فإذا اصطفى اصطفى بعلم .

تفسير الفقرة الأولى :

﴿ إذ قالت امرأة عمران ﴾ هي أم مريم ، وجدة عيسىٰ ، وجدة يحيى ﴿ رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً ﴾ ، المحرر : هو المعتق المفرّغ الخالص للعبادة ، وخدمة الله بخدمة بيت المقدس هنا ، نذرت ألا يكون لأحد يد عليه ، ولا يستخدم لغرض خاص ، وهذا النّوع من النذر كان مشروعاً عندهم . والمعنى : إني أوجبت لك أن يكون ما في بطني خالصاً لعبادتك ، وخدمة بيتك ﴿ فتقبّل مني ﴾ التقبّل : أخذ الشيء على الرضا به ، أي فتقبل مني نذري . ﴿ إنك أنت السميع العليم ﴾ أي : السميع لدعائي ، العليم بنيتي ﴿ فلمّا وضعتها ﴾ أي : فلمّا وضعت النسمة التي في بطنها فتبيّن لها أنها أنثى ﴿ قالت رب إني وضعتها أنثى ﴾ قالت : هذا على وجه التحزُّن والتحسُّر ، قال الله : ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ أي : والله أعلم بالشيء الذي وضعت ، وما علّق به من عزائم الأمور ، وأتمت أمّ مريم قولها بالاعتذار والتحزن ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ في القوة والجلَد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى . ﴿ وإنّي سميتها مريم ﴾ قال النسفي : وإنما ذكرت حنة - أي أم مريم - تسميتها مريم لربها لأن مريم في لغتهم العابدة ، فأرادت بذلك التقرب والطلب إليه أن يعصمها حتى

يكون فعلها مطابقاً لاسمها ، وأن يُصدِّق فيها ظنها بها ﴿ **وإني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** ﴾ الرجيم : الملعون . أي وإنني أجيرها بك وأولادها من الشيطان الملعون .

فوائـد :

١ ــ من هذا السياق نعلم لماذا استحق آل عمران الاصطفاء من الله : حرصهم على الخير ، وعلى العبادة ، وعلى الخدمة لله فيهم ، وفي ذريتهم ، وخوفهم من الله والتجائهم إليه أن لا يسيروا في طريق الشيطان ، وغير ذلك مما تراه خلال السياق .

٢ ــ في قوله تعالى على لسان أم مريم ﴿**وليس الذكر كالأنثى**﴾ قاعدة عظيمة : فالأنثى ليست كالذكر في تركيبها الجسمي ، ولا في تركيبها النفسي ، ومن ثَم فلا بد أن تكون وظيفتها الحياتية تختلف عن وظيفة الذكر ، ولابد أن يترتب على ذلك اختلاف في المسؤوليات ، واختلاف في الحقوق والواجبات ، ومن أراد المساواة المطلقة بين الرجال والنساء ، فليسوِّ بينهما في التركيب الجسمي والنفسيِّ أولًا ثمّ فليطالب .

٣ ــ لقد أعاذت أمُّ مريمَ بنتها وذريتها من الشيطان الرجيم ، وقد استجاب الله لها ذلك وقد قال عليه السلام في الحديث الصحيح : « ما من مولود إلا مسّه الشيطان حين يولد ، فيستهلُّ صارخاً من مسِّه إياه ، إلا مريم وابنها » .

٤ ــ عند قوله تعالى ﴿ **وإني سمّيتها مريم** ﴾ قال ابن كثير : فيه دليل على جواز التسمية بعد الولادة كما هو الظاهر من السياق ، لأنه شرع من قبلنا . وقد حكي مقرَّرا وبذلك ثبتت السنَّة عن رسول الله ﷺ حيث قال : « ولد لي الليلة ولد سمّيته باسم أبي إبراهيم » أخرجاه . وكذلك فيها أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله ﷺ فحنّكه ، وسمّاه عبد الله . وفي صحيح البخاري « أن رجلًا قال : يا رسول الله ، ولد لي الليلة ولد فما أسميه ؟ قال : سمّ ابنك عبد الرحمن » . وثبت في الصحيح أيضاً أنه لما جاءه أبو أسيد بابنه ليحنّكه ، فذهل عنه ، فأمر به أبوه ، فردّ إلى منزلهم ، فلما ذكر رسول الله ﷺ في المجلس سمّاه المنذر .

فأما حديث قتادة عن الحسن البصري عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال : « كل غلام مرتهن بعقيقته، يذبح عنه يوم السابع ويسمّى ، ويحلق رأسه » . فقد رواه أحمد ، وأهل السنن ، وصححه الترمذي ، ورروي (ويُدمى) وهو أثبت وأحفظ ،

والله أعلم » أقول : لكن نص الإمام مالك في موطئه على أنه لا يسن أن يُدمى الطفل من دم العقيقة وعلى هذا فالسنة في يوم التسمية أوسع من أن تقيَّد باليوم الأول ﴿ **فتقبّلها ربها بقبول حسن** ﴾ أي : فتقبل الله مريم من أمها ، ورضي بها في النذر مكان الذَّكر ، وهذا هو القبول الحسن : ﴿ **وأنبتها نباتاً حسناً** ﴾ . أي : جعلها شكلًا مليحاً ، ومنظراً بهيجاً ، ويسّر لها أسباب القبول ،وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين . ﴿ **وكفّلها زكريا** ﴾ أي : جعله كافلًا لها ، وضامناً لمصالحها . وإنّما قدر الله كون زكريا كافلًا لها لتقتبس منه علماً جماً نافعاً ، وعملًا صالحاً . وإنما كان زوج أختها كما ورد في الصحيح « فإذا بيحيى وعيسىٰ وهما ابنا الخالة » ، وقيل زوج خالتها . ﴿ **كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا** ﴾ . المحراب هو أشرف المجالس لكونه مخصصاً للعبادة ، فيه يحارب الشيطان . أي كلما دخل عليها زكريا مكان عبادتها ، وكان لا يدخل عليها إلا هو وحده ﴿ **وجد عندها رزقا** ﴾ طعاماً . كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف . قال ابن كثير : وفيه دلالة على كرامات الأولياء وفي السنَّة لهذا نظائر ﴿ **قال يا مريم أنّى لك هذا** ﴾ أي : من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا وهو آت في غير حينه ﴿ **قالت هو من عند الله** ﴾ وفى ذلك دليل على أنه خارق للعادة ، فهو من باب الكرامات ﴿ **إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ أي لا يحصيه العباد لكثرته ، أو تفضلًا منه بغير محاسبة ومجازاة على عمل ، ويحتمل أن يكون هذا جزءاً من كلامها ، أو هو كلام مستأنف . فلما رأى زكريا حال مريم ، وكرامتها على الله ، ورأى فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، طمع في الولد الصالح ، وإن كان في غير أوانه لكبر سنّه ، ولكون زوجه عاقراً ، ولذلك دعا الله تعالى ﴿ **هنالك دعا زكريا ربه** ﴾ أي : في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب ، أو في ذلك الوقت دعا ربه ﴿ **قال ربِّ هب لي من لدنك ذرية طيبة** ﴾ أي : ولدا صالحاً ، والذرية تطلق على المفرد والجمع ﴿ **إنك سميع الدعاء** ﴾ أي مجيبه . ﴿ **فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب** ﴾ . أي : خاطبته الملائكة شفاها خطابا أسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته ، ومحل خلوته ، ومجلس مناجاته ﴿ **أن الله يبشرك بيحيٰى** ﴾ وفيه دليل على أن المرادات تطلب بالصلوات — وفيها إجابة الدعوات — وقضاء الحاجات ، قال ابن عطاء : ما فتح الله على عبد حالةً سنية إلا باتباع الأوامر ، وإخلاص الطاعات ، ولزوم المحاريب ﴿ **مصدِّقا بكلمة من الله** ﴾ كلمة الله تحتمل هنا عيسىٰ ، لأن تكوّنه كان بكلمة : « كن » بلا أب . وتحتمل

كتاب الله . فالنّص هنا يفيد إما أن يحيى يكون مؤمناً بعيسىٰ ، أو أنه مؤمن بكتاب ربه وكلماته . ﴿ **وسيّداً** ﴾ السيادة : هي التفوُّق في الشرف ، وسببها في الإسلام الحلم والعبادة ، والعلم والتقوى ، والخلق والدين . وقد اجتمع ليحيى هذا كله . ﴿ **وحصوراً** ﴾ الحصور : هو الذي لا يقرب النساء ، إما بحصره نفسه ، أي بمنعه لها من الشهوات ، أو بخلق الله إياه بلا شهوة . قال القاضي عياض في كتابه الشفاء : اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان حصوراً ليس كما قاله بعضهم : أنه كان هيوباً ، أولا ذَكَر له ، بل قد أنكر هذا حذّاق المفسرين ، ونقّاد العلماء ، وقالوا : هذه نقيصة وعيب ، ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب ، أي لا يأتيها ، كأنه حصور عنها ، وقيل مانعاً نفسه من الشهوات . وقيل ليست له شهوة في النساء . وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها ، إما بمجاهدة كعيسىٰ ، وإما بكفاية من الله - عز وجل - كيحيى . ثم هي في حق من قدر عليها ، وقام بالواجب فيها ، ولم تشغله عن ربه ، درجة عليا وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه ، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن ، وقيامه عليهن ، وإكسابه لهن ، وهدايته إياهن ... ﴿ **ونبياً من الصالحين** ﴾ هذه بشارة بالنبوة ، بعد البشارة بالولادة ، وهي أعلىٰ من الأولى ، والمعنى : ونبياً ناشئاً من الصالحين ، لأنه من أصلاب الأنبياء ، أو كائناً من جملة الصالحين . فلمّا تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر ، وهو تعجب من حيث العادة ، واستعظام للقدرة . ﴿ **قال ربِّ أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر** ﴾ أي : أدركتني السن العالية وأضعفتني ﴿ **وامرأتي عاقر** ﴾ لم تلد . ﴿ **قال** ﴾ أي المَلَك ﴿ **كذلك الله يفعل ما يشاء** ﴾ من الأفعال العجيبة . أي هكذا أمرُ الله ، عظيم لا يعجزه شيء ، ولا يتعاظمه أمر . ﴿ **قال رب اجعل لي آية** ﴾ أي علامة أعرف بها الحبَل ؛ لأتلقى النعمة بالشكر إذا جاءت . ﴿ **قال آيتك ألا تكلِّم الناس ثلاثة أيامٍ إلا رمزاً** ﴾ أي : علامة ذلك ألا تقدر على تكليم الناس إلا إشارة بيد ، أو رأس ، أو عين ، أو حاجب ، مع أنك سويّ صحيح . وإنما خص تكليم الناس ليعلم أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصّة . مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله ، ولهذا قال ﴿ **واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار** ﴾ . العشي في اللغة : من حين الزوال إلى الغروب ، والمراد بها هنا أوسع من ذلك والله أعلم ، والإبكار : من طلوع الفجر إلى وقت الضحى . أمره بالذكر والتسبيح في أيام عجزه عن تكليم الناس ، ليخلص المدة

لذكر الله . فلا يشغل لسانه بغيره .

تفسير الفقرة الثانية :

﴿ **وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاكِ** ﴾ هذا معطوف على بداية الفقرة الأولى ﴿ **إذ قالت امرأة عمران** ... ﴾ وهذا يؤكد أن الفقرة هذه قد جاءت في سياق التبيان لحكمة الله في الاصطفاء ؛ بدليل العطف هنا ، وذكر الاصطفاء صراحة . وفي الآية إخبار عما خاطبت به الملائكة مريمَ عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك ، أن الله قد اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها ﴿ **وطهّرك** ﴾ مما يستقذر من الأفعال والأحوال والأقوال ، والأكدار ، والهواجس ، والوساوس ﴿ **واصطفاكِ على نساء العالمين** ﴾ بما سيكرمها الله - عز وجل - به من رزقها عيسىٰ من غير أب ، ولم يكن ذلك لأحد من النساء . ثم إن الملائكة أمروها بكثرة العبادة ، والخشوع والركوع والسجود ، والدأب في العمل ؛ لما يريد الله بها من الأمر الذي قدّره لها وقضاه ، ممّا فيه محنة لها ، ورفعة في الدارين ؛ بما أظهره الله فيها من قدرته العظيمة حيث خلق منها ولداً من غير أب ﴿ **يا مريم اقنتي لربك** ﴾ القنوت : هو الطاعة في خشوع ﴿ **واسجدي واركعي مع الراكعين** ﴾ أي : كوني منهم بفعل فعلهم . ﴿ **ذلك** ﴾ إشارة إلى ما سبق من قصة أم مريم ، ومريم ، وزكريا وزوجته ﴿ **من أنباء الغيب نوحيه إليك** ﴾ أي : من أخبار الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي ، وذلك دليل على ما ذكرنا أن هذه الفقرات إنما هي صفحات من الغيوب التي يجب الإيمان بها ، فهي تفصيل لما أجمل في مقدمة سورة البقرة ، في قوله تعالى ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ . ﴿ **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم** ﴾ . نفهم من ذلك ما أجمل من قبل ، فنعلم أن مريم لم تدخل في كفالة زكريا إلا بعد قرعة ﴿ **وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾ . نفهم من ذلك أنه كان هناك نزاع حول كفالة مريم ، والأقلام : هي الأقداح التي تمّت فيها القرعة .

فوائـد :

١ ــ نلاحظ أن هذه الفقرة مترابطة مع ما قبلها بأكثر من رباط ، ومن جملة ما نلاحظه ، أن الفقرة الأولى أسست لهذه الفقرة ، إذ إن هذه الفقرة ستقص علينا قصة الحمل بعيسىٰ من غير أب ، فمهّدت الفقرة السابقة لذلك بقصّها علينا قصة حمل أم

يحيى بيحيى ، وهي عاقر ، مع ذكرها قصة ولادة مريم ، وابتهال أمها ، ثم قصة صلاحها وطهارتها ، وما أكرمها الله به . وكل ذلك يجعل الاستعداد كاملًا لتلقي نبأ الحمل بعيسىٰ من غير أب .

فالأولى من الفقرات تقص علينا قصة حمل عاقر ، والثانية تقص علينا قصة حمل من غير أب ، والفقرة الثالثة تذكرنا بخلق بلا أب ولا أم ، وتأتي قصة عيسىٰ في الوسط .

٢ ــ لاحظنا في هذه الفقرة خطاب الملائكة لمريم ، ومريم - بنص القرآن - صدِّيقة ، فهي ليست نبية ، ولا تكون النبوة إلا في الرجال كما سنرى ، فدّل ذلك على أنه يمكن لغير الأنبياء أن يُخاطَبوا من قِبَل الملائكة ، أو يكشف لهم شيء من عالم الغيب من باب الكرامات ، ويشهد لهذا كثير من النصوص الصحيحة ، مما نتعرض له إذا جاءت مناسبته . وفي هذا النص دليل أيما دليل على صحة هذا . ومن أقبل على الله بالسنَّة ، فتح الله عليه إن شاء . وقد قال عليه الصلاة والسلام لأبي بكر وحنظلة في الحديث الذى رواه مسلم : « لوتدومون على ما أنتم عليه عندي وفي الذكر ؛ لصافحتكم الملائكة » .

٣ ــ في الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد » المعنى : خير نساء بني إسرائيل مريم ، وخير نساء هذه الأمة خديجة . وروى الترمذي وصحّحه عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال : « حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون » وأخرج الجماعة إلا أبا داود ، عن أبي موسىٰ الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون » . أي : من الأمم السابقة والله أعلم . ولفظ البخاري : « ويكمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

٤ ــ في قوله تعالى ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك** ﴾ أي نقصه عليك ﴿ **وما كنت لديهم** ﴾ أي : ما كنت عندهم يا محمد ، فتخبرهم عن معايَنة عما جرىٰ ، بل أطلعك الله على ذلك ؛ كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا

في شأن مريم ، أيهم يكفلها ، وذلك لرغبتهم في الأجر .

في هذا الموضوع مظهر من مظاهر الإعجاز في القرآن ، إذ حدّثنا القرآن عن كثير من الأمور الماضية ، مما لا يعرفها العرب إطلاقاً ، وعلى غاية من الدّقة ، بما لا يمكن أن يكون لو لم يكن هذا القرآن من عند الله المحيط علماً بكل شيء .



﴿ **إذ قالت الملائكة** ﴾ مبشرة مريم ﴿ **يا مريم إن الله يبشّرك بكلمة منه** ﴾ أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله ، أي يقول له : كن فيكون ﴿ **اسمه المسيح عيسىٰ ابن مريم** ﴾ هذا اسمه الذي يعرفه به المؤمنون . وفي قوله ابن مريم إعلام لها بإنه يولد من غير أب ، فلا ينسب إلا إلى أمه ، وفي ذلك شرف لها وبشارة . واختلفوا لماذا سمي المسيح ؟ فقيل : لأنه إذا مسح ذا عاهة برأ ، وقيل : لكثرة سياحته فلا يستوطن مكاناً ، وقيل : معناه في العبرانية المبارك ﴿ **وجيهاً في الدنيا والآخرة** ﴾ أي : ذا جاه وقدر في الدنيا بالنبّوة والطاعة ، وفي الآخرة بعلوّ الدرجة والشّفاعة . ﴿ **ومن المقربين** ﴾ عند الله . ﴿ **ويكلّم الناس في المهد وكهلًا** ﴾ أي : يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له . في حال صغره معجزة وآية ، وفي حال كهولته حين يوحي الله إليه ، فهو يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يكمل فيها العقل ، وينبأ فيها الأنبياء ﴿ **ومن الصالحين** ﴾ أي : في قوله وعمله ، له علم صحيح ، وعمل صحيح .فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله ﴿**قالت**﴾ مناجية ربّها : ﴿ **ربِّ أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر** ﴾ تقول متعجبة متهيبة : كيف يوجد هذا الولد منيّ وأنا لست بذات زوج ، ولا من عزمي أن أتزوج ، ولست بغيّاً ؟؟ فقال لها الملك عن الله - عزّ وجلّ - في جواب ذلك السؤال ﴿ **قالَ كذلك الله يخلق ما يشاء** ﴾ أي : هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء ، وصرح ههنا بقوله ﴿ **يخلق ما يشاء** ﴾ وفي قصة زكريا ﴿ **يفعل ما يشاء** ﴾ صرّح بلفظ الخلق لئلا يبقى لمبطل شبهة ، وأكد ذلك بقوله ﴿ **إذا قضىٰ أمراً** ﴾ أي إذا قدّره ﴿ **فإنما يقول له كن فيكون**﴾ أي: فلا يتأخر شيء أراد خلقه. والتعبير بلفظة كن، إخبار عن سرعة تكوّن الأشياء بتكوينه ، ثم أخبر عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسىٰ عليهما السلام ﴿**ويعلّمه الكتاب**﴾ يحتمل هنا الكتابة، أو كتب الله أو ما افترضه الله من المكتوبات على الخلق ﴿**والحكمة**﴾ أي: وضع الأمور في مواضعها على ضوء الحلال والحرام ﴿**والتوراة**﴾ التي

أنزلت على موسىٰ عليه السلام ﴿ **والإنجيل** ﴾ الذي سينزله الله عليه ﴿ **ورسولاً إلى بني إسرائيل** ﴾ أي: ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل فهو مرسل إليهم خاصّة قائلاً لهم: ﴿ **أني قد جئتكم بآية من ربكم** ﴾ أي : بعلامة خارقة ، ودلالة تدل على صدقي فيما أدّعيه من النّبوة وهي : ﴿ **أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله** ﴾ وكذلك يفعل ، يصوِّر من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله – عز وجل – الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنّه أرسله . ﴿ **وأبرىء الأكْمَهَ** ﴾ أي : الذي ولد أعمىٰ ، يجعله بصيراً ﴿ **والأبرص** ﴾ أي : ويبرىء الأبرص ﴿ **وأحيي الموتى بإذن الله** ﴾ كرّرت الكلمة بإذن الله على لسان عيسىٰ لتعلم عبوديته ، ولدفع أيّ توهُّم بربوبيته ﴿ **وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم** ﴾ أي : وأخبركم بما أكل أحدكم الآن وما ادَّخر في بيته لغده . ﴿ **إن في ذلك لآية لكم** ﴾ أي : على صدقي فيما جئتكم به ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ بالله وأفعاله وآياته ﴿ **ومصدّقاً لما بين يديَّ من التوراة** ﴾ أي مقرراً لها ومثبتاً . أي قد جئتكم بآية ، وجئتكم مصدِّقاً للتوراة ﴿ **ولأُحل لكم بعض الذي حُرِّم عليكم** ﴾ في شريعة موسىٰ ، وفيه دلالة على أنّ عيسىٰ عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة . ﴿ **وجئتكم بآية من ربكم** ﴾ أي : بحجة ودلالة على صدقي فيما أقوله لكم ، وكرّر للتأكيد . ﴿ **فاتقوا الله** ﴾ في تكذيبي وخلافي ﴿ **وأطيعونِ** ﴾ في أمري . ﴿ **إن الله ربي وربكم فاعبدوه** ﴾ أي : أنا وأنتم سواء في العبودية لله ، والخضوع والاستكانة إليه . وهذا إعلان للعبودية ، ونفي للربوبية عن نفسه ، بخلاف ما يزعم النصارىٰ . ﴿ **هذا صراط مستقيم** ﴾ أي : إعلان العبودية لله ، وإعطاؤه الربوبية ، وحسن عبادته ، هذا هو الصراط المستقيم الذي يؤدي بصاحبه إلى النعيم المقيم . جاء هذا كله في معرض البشارة لمريم بعيسىٰ ، ثمّ نقلَنا الله – عز وجل – إلى موقف قوم عيسىٰ منه ، وموقفه بسبب ذلك . فكأنه قال : هذا الذي بُشِّرت به مريم ، في شأن ابنها كان ، فماذا حدث إذ كان ؟ حدث أنْ قابل اليهود هذا كله بالكفر . ﴿ **فلما أحسَّ عيسىٰ منهم الكفر** ﴾ فلما علم من اليهود كفراً ، علماً لا شبهة فيه ، كعلم ما يدرك بالحواس ، أو فلما استشعر منهم التصميم على الكفر ، والاستمرار على الضلال ، ﴿ **قال من أنصاري إلى الله** ﴾ الأنصار جمع نصير وناصر ، أي من ينصرني في الدّعوة إلى الله ؟ ﴿ **قال الحواريون : نحن أنصار الله** ﴾ الحواري هو صفوة الرّجل وخاصتّه ، أي قال له صفوة أصحابه : نحن أعوان دين الله ﴿ **آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون** ﴾ أي : صدّقنا بالله ونطلب شهادتك على إسلامنا ، وإنما طلبوا

شهادته بإسلامهم تأكيداً لإيمانهم ؛ لأن الرسل يشهدون يوم القيامة لقومهم ، وعليهم . والملاحظ أنهم أعلنوا الإيمان ، وطلبوا الشهادة على الإسلام ، فدلّ على أن الإيمان الكامل ، والإسلام الكامل شيء واحد . وبعد أن قالوا هذا لعيسىٰ ، قالوا لله مقرين وداعين ﴿ **ربنا آمنا بما أنزلت** ﴾ أي بالإنجيل وما قبله ﴿ **واتّبعنا الرسول** ﴾ أي عيسى ﴿ **فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ أي : مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم ، أو مع الذين يشهدون لك بالوحدانية ، أو مع أمة محمد ﷺ الذي بشّر به عيسىٰ فعرفوا منه أنهم (أي أمة محمد) شهداء الله على الناس ، فطلبوا أن يشاركوهم في هذا الشرف . والتفسير الأخير مروي بسند جيد عن ابن عباس .

﴿ **ومكروا** ﴾ أي : كفار بني إسرائيل الذين أحس عيسىٰ منهم الكفر حتى أرادوا قتله وصلبه ﴿ **ومكر الله** ﴾ أي : جازاهم على مكرهم ؛ بأن رفع عيسىٰ إلى السماء ، وألقىٰ شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل . ولا يجوز إضافة المكر إلى الله تعالى إلا على معنى الجزاء ، لأنه مذموم عند الخلق ، وعلى هذا الخداع والاستهزاء ﴿ **والله خير الماكرين** ﴾ أي : أقوىٰ المجازين ، وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقَب .

فوائـد :

١ ــ قال كثير من العلماء : بعث الله كل نبي بمعجزة تناسب أهل زمانه ، وتقوم عليهم الحجة بها من خلال اهتماماتهم ، وما يبرعون فيه . ومن ثَم كانت معجزة عيسىٰ إبراء الأكمه والأبرص ... وإحياء الموتى ، لأن علم الطب ، والطبيعة كانا مثار اهتمام في البلاد التي تسيطر عليها الدولة الرومانية ، فجاءهم بما يُسَلِّم به الجميع من أن هذا رسول الله .

٢ ــ في قوله تعالى : ﴿ **ولأحلّ لكم بعض الذي حرّم عليكم** ﴾ دليل على أن النسخ قد وقع في شريعة عيسىٰ لشيء من شريعة موسىٰ . والنّصارى في عصورنا المتأخرة أنكروا النسخ سواء كان نسخ شريعة نبي لنبي آخر ، أو النسخ ضمن شريعة النبي الواحد من أجل أن يبطلوا شريعتنا ، وقد رد عليهم أبلغ رد من كتبهم ، وأقوال علمائهم : رحمة الله بن خليل الهندي في كتابه (إظهار الحق) إذ أثبت من خلال كتبهم : أن نسخ شريعة نبي لشريعة نبي آخر ، قائم ، والنسخ ضمن الشريعة الواحدة قائم . فليراجع الكتاب . وبعد ما مر يبين الله – عز وجل – كيف فوَّت على الماكرين بعيسىٰ مكرهم :

﴿ **إذ قال الله يا عيسىٰ إنّي متوفيك** ﴾ الأكثرون من المفسرين على أن المراد بالوفاة هنا النوم ، أي منيمك ، ومنهم من قال : إني قابضك إليَّ . ومنهم من قال : المعنى : إني متوفيك وفاة وعاصمك من أن يقتلك الكفار ، وهذه بشارة له بعدم القتل ، وسيكون موته بعد نزوله من السماء ﴿ **ورافعك إليَّ** ﴾ ، أي : إلى سمائي ، ومقر ملائكتي ؛ بدليل رؤيته من رسولنا عليه الصلاة والسلام يوم المعراج في السماء . ﴿ **ومطهِّرك من الذين كفروا** ﴾ أي : من سوء جوارهم ، وخبث صحبتهم ؛ برفعي إياك إلى السماء ﴿ **وجاعل الذين اتبعوك** ﴾ أي : المسلمين لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع دون الذين كذّبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى . ﴿ **فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة** ﴾ فوقهم بالحجة والبيان ، وبالسيف في كثير من الأحوال . ﴿ **ثمّ إليّ مرجعكم** ﴾ في الآخرة ﴿ **فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون** ﴾ ثمّ بين الله – عز وجل – ما هو الحكم الذي سيحكمه فقال : ﴿ **فأما الذين كفروا فأعذّبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وماهم من ناصرين** ﴾ في الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال ، وإزالة الأيدي عن الممالك ، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق . ﴿ **وأمّا**

الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ﴾ أي في الدنيا والآخرة . في الدنيا بالنّصر والظفر ، وفي الآخرة بالجنات العاليات . ﴿ **والله لا يحب الظالمين** ﴾ ولذلك يعاقبهم في الدنيا والآخرة . وتختم هذه الفقرة بقوله تعالى ﴿ **ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم** ﴾ أي هذا الذي قصصنا عليك يا محمد في أمر عيسىٰ ، ومبدأ ميلاده ، وكيفية أمره ، واصطفائه وأهله ، وما أكرمه الله به من المعجزات التي لاشك فيها ولا شبهة ولا ريب ، وذلك كله من الذكر الناطق بالحكمة وهو القرآن .

فائـدة :

في قوله تعالى ﴿ **وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة** ﴾ بشارة للمؤمنين إذ نحن المتبعون الحقيقيون لعيسىٰ ولغيره من الأنبياء ﴿ **إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتّبعوه وهذا النبي والذين آمنوا** ﴾ فإن أحسنا فنحن فوق العالمين جميعاً . وهل في النّص إشارة إلى أن الأتباع الصوريين لعيسىٰ سيعلون على الكافرين من غير اتباعه ؟ يحتمل بعضهم ذلك . وقد أكرمنا الله خلال العصور بغلبة الكافرين من كل جنس ولون . ولقد أصابنا ما أصابنا في الفترة المتأخرة لإهمالنا ديننا ، فإن عدنا عاد الله علينا بالنصر ، ونحن موعودون بفتح روما ، والمستقبل لهذا الدين ، وهذا موضوع سيأتي .

الفقرة الثالثة

﴿ إن مثل عيسىٰ عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم * فإن تولوا فإنَّ الله عليم بالمفسدين ﴾ .

المعنى العام : يبيِّن الله – عز وجل – أن خلق عيسىٰ من غير أب في قدرة الله ، كخلق آدم من غير أم ولا أب ، بل من تراب . فالذي خلق آدم من غير أب ولا أم قادر على أن يخلق عيسىٰ من غير أب بالطريق الأوْلى أو الأحْرىٰ . وإن جاز ادعاء البنوّة في عيسىٰ لكونه مخلوقاً من غير أب ، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى ، ومعلوم بالاتفاق

أن ذلك باطل ، فدعواه في عيسى أشد بطلاناً ، وأظهر فساداً . ولكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسىٰ من أنثى بلا ذكر ، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى . ثم بيَّن الله – عز وجل – أن هذا هو القول الحق في عيسىٰ الذي لا محيد عنه ، ولا صحيح سواه وماذا بعد الحق إلا الضلال .

ثم أمر الله رسوله ﷺ . أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان . أي أن يتلاعن مع من يدعي غير هذا في شأن عيسىٰ ، فيدعو كلٌّ على الكاذب في شأن عيسىٰ أن تنزل به لعنة الله .

ثم أكد الله – عز وجل – أن ما قصه علينا في شأن عيسىٰ هو الحق الذي لا معدل عنه ، ولا محيد ، وأن الله متصف بالوحدانية وأنه العزيز الحكيم .

ثم بيّن أن الذي يتولى عن هذا إلى غيره . هو المفسد ، والله عليم به ، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء وهو القادر الذي لا يفوته شيء .

المعنى الحرفي :

﴿ **إن مثل عيسىٰ عند الله كمثل آدم** ﴾ أي : إن شأن عيسىٰ وحاله الغريبة في قدرة الله ، كشأن آدم عليه السلام ﴿ **خلقه من تراب** ﴾ أي : قدّره جسداً من طين ﴿ **ثم قال له كن فيكون** ﴾ ، أي : ثم أراده بشراً فكان . شبّه عيسىٰ بآدم مع أن وجود آدم بلا أب وأم أغرب وأكثر خرقاً للعادة فشبه الغريب بالأغرب ؛ ليكون أقطع للخصم ، وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب ممّا استغربه .

﴿ **الحق من ربك** ﴾ أي : هذا هو القول الحق من الله أيها السامع ، أو أيها الرسول ، ﴿ **فلا تكن من الممترين** ﴾ أي : من الشاكّين . والنهي هنا من باب التهييج لزيادة الثبات ، لأن الخطاب إن كان لرسول الله ، فإنّه معصوم عليه السلام من الامتراء ، أو أن الخطاب هنا للأمة من خلال شخصه عليه السلام . ﴿ **فمن حاجّك فيه** ﴾ ، أي : فمن جادلك من النصارى في شأن عيسىٰ ، ﴿ **من بعد ما جاءك من العلم** ﴾ أي : من بعد ما جاءك من البينات الموجبة للعلم ، ﴿ **فقل تعالوا** ﴾ أي

احزموا أمركم وهلموا . ﴿ **نَدْعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمَّ نبتهل** ﴾ أي نتباهل بأن نقول : بهلة الله على الكاذب منا ومنكم . والبهلة : اللعنة ، وأصل الابتهال هذا ، ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه ، وقد فُسِّرت المباهلة في الآية : ﴿**فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾ . أي : في شأن عيسىٰ منا ومنكم .

قال النسفي : وإنما ضم الأبناء والنساء وإن كانت المباهلة مختصة به وبمن يكاذبه ، لأن ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه ، حيث استجرأ على تعريض أعزته ، وأفلاذ كبده لذلك ، ولم يقتصر على تعريض نفسه له ، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته إن تَمّت المباهلة . وخصّ الأبناء والنساء . لأنهم أعز الأهل ، وألصقهم بالقلوب . وقدمهم في الذكر على الأنفس ، لينبه على قرب مكانهم ، ومنزلتهم . وفيه دليل واضح على صحة نبوة النبي ﷺ ، لأنه لم يُروَ عن أحدٍ من موافقٍ أو مخالفٍ ، أنهم أجابوا لذلك . ﴿ **إنّ هذا** ﴾ أي الذي قُصّ عليك من نبأ عيسىٰ ﴿ **لهو القصص الحق** ﴾ الذي لا مِرْية فيه . ﴿ **وما من إله إلا الله** ﴾ هذا التعبير يفيد الاستغراق في نفي الإلهية عمن سوى الله ، وهو ردٌّ على النصارى في تثليثهم . ﴿ **وإن الله لهو العزيز** ﴾ في الانتقام ، ﴿ **الحكيم** ﴾ في تدبير شؤون الأنام ، وإنزال الأحكام . ﴿ **فإن تولوا** ﴾ أي : فإن أعرضوا عن هذا ، إلى غيره ولم يقبلوه . ﴿ **فإن الله عليم بالمفسدين**﴾ . هذا وصف لهم بالإفساد في الأرض ، وتهديد لهم ، ووعيد . وأي إفساد أعظم من نسبة الولد إلى الله !! والدعوة إلى ذلك ؟! وأي ذنب أفظع ؟ إلا ذنب إنكار وجود الله أصلًا .

فائــدة :

ذكر ابن إسحق أن سورة آل عمران إلى بضع وثمانين منها ، نزل بمناسبة مجيء وفد نجران إلى رسول الله ﷺ ، ومناقشته في شأن عيسىٰ . وذكر القصة كلها ، وفيها عرض المباهلة عليهم ، ورفضهم لها ، وقبولهم بالجزية ، وإرسال أبي عبيدة بن الجراح معهم ليحكم بينهم بناء على طلبهم رجلًا أميناً من هذه الأمة . وننقل هنا مجموعة روايات لها علاقة في بعض جوانب هذا الموضوع وقد مرّ معنا من قبل شيء له صلة بذلك :

أ ــ روى البخاري عن حذيفة رضي الله عنه قال : جاء العاقب والسيد صاحبا

نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعنّاه ، لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، قالا : إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلًا أميناً ، ولا تبعث معنا إلا أميناً فقال : لأبعثن معكم رجلًا أميناً حق أمين . فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قام قال رسول الله ﷺ : « هذا أمين هذه الأمة » .

ب ــ وروى الحاكم قال : قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب ، فدعاهما إلى الملاعنة ، فواعداه على أن يلاعناه الغداة . قال : فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد علي ، وفاطمة ، والحسن والحسين ، ثم أرسل إليهما ، فأبيا أن يُجيبا ، وأقرّا له بالخراج ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « والذي بعثني بالحق لو قالا : لا لأمطر عليهم الوادي ناراً . قال جابر : وفيهم نزلت ﴿ **ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم** ﴾ . قال جابر : ﴿ **أنفسنا وأنفسكم** ﴾ رسول الله ﷺ ، وعلي بن أبي طالب و﴿ **أبناءنا** ﴾ الحسن والحسين ، ﴿ **ونساءنا** ﴾ فاطمة » .

ج ــ روى الإمام أحمد والبخاري وغيرهما عن ابن عباس قال : قال أبو جهل – قبّحه الله –: إن رأيتُ محمداً يصلي عند الكعبة لآتينّه حتى أطأ عنقه قال : « فقال لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمنّوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا » .

كلمة في السياق :

مرّ معنا القسم الثاني بمدخله ، وفقراته الثلاث ، ومن قبل مرّ معنا القسم الأول من سورة آل عمران بمقطعيه ، وقلنا إن القسم الأول والثاني هما مدخل لفتح حوار شامل مع أهل الكتاب ، وذلك مضمون القسم الثالث ، وقلنا : إن سورة آل عمران تفصل في مقدمة سورة البقرة ، وامتدادات معانيها . والآن نسجّل ملاحظة :

جاءت آية الكرسي في سورة البقرة بعد آية الإنفاق ، وجاءت الآيتان بعد قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين * تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس** ﴾ وكان للتّسلسل على هذه الشاكلة في سورة البقرة حكمته .

وههنا نلاحظ أن سورة آل عمران بدأت بقوله تعالى ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ وهي بداية آية الكرسي ، وبنت على ما يترتب على أن الله كذلك في قسمها الأول ، ثم فصّلت في المعاني التي سبقت آيتي الإنفاق والكرسي . فههنا تعرض المعاني عرضاً جديداً على غير ترتيب عرضها في سورة البقرة لمقتضيات الحكمة والسياق .

وإنما أشرنا هذه الإشارة لنؤكد أن لكل سورة سياقها ، وأن لكل سورة محورها في سورة البقرة ، وأن السورة كما تفصّل في محورها من سورة البقرة ، تفصِّل في امتدادات معاني هذا المحور في تلك السورة . والموضوع سيتكشف لنا شيئاً فشيئاً من خلال العرض الشامل للقرآن الكريم . وقبل أن ننتقل إلى عرض القسم الثالث من السورة نحب أن نعقد فصولًا ، وننقل نقولًا لها صلة بالقسم الثاني

فصول ونُقول :

فصل مؤجل : كيف حدثت هذه العملية الفظيعة : أن ينتقل أتباع المسيح عليه السلام من التوحيد إلى التثليث ؟ موضوع سنفصل فيه إن شاء الله عند قوله تعالى في سورة براءة :﴿ **يضاهئون قول الذين كفروا من قبل** ﴾فلنؤجل الكلام فيه .

فصل : في رفع عيسىٰ عليه السلام وهو حي :

الذي عليه أهل التحقيق ، أن عيسى عليه السلام رفعه الله إليه وهو حي . والوفاة المذكورة في قوله تعالى﴿ **إني متوفيك ورافعك إليَّ** ﴾المراد بها النوم ، أو أنه من باب المقدم والمؤخر والتقدير : إني رافعك إلى ومميتك بعد ذلك أي عند نزولك الأرض مرة ثانية ، ففي ذلك بشارة له أنه سيموت موتاً ولا يقتل قتلًا ، لا حالًا ولا استقبالًا .

قال ابن كثير بعد مجموعة نُقول : « قال مطر الوراق : إني متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت ،وكذا قال ابن جرير توفيه : هو رفعه ، وقال الأكثرون : المراد بالوفاة ههنا النوم كما قال تعالى﴿ **وهو الذي يتوفاكم بالليل** ﴾الآية (سورة الأنعام) وقال تعالى﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها** ﴾ الآية: (سورة الزمر) وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم : « الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا » الحديث ، وقال تعالى : ﴿ **وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً * وقولهم**

إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم ﴾ إلى قوله : ﴿ **وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمِنَنَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً** ﴾ والضمير في قوله قبل موته عائد على عيسى عليه السلام أي : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ بعيسى ، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة على ما سيأتي بيانه فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم ؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه حدثنا الربيع بن أنس عن الحسن أنه قال في قوله تعالى : ﴿ **إني متوفيك** ﴾ يعني وفاة المنام رفعه الله في منامه . قال الحسن : قال رسول الله ﷺ لليهود « إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة » .

أقول : والذي دعا أهل التحقيق للجزم بهذا ، هو النصوص المتواترة في نزول المسيح عليه الصلاة والسلام إلى الأرض قبيل قيام الساعة كما سنرى ، وقد جرت سنة الله — عز وجل — أنه إذا أمات عبداً لا يرجعه إلى الدنيا إلا خرقاً لعادة ، وقد رد أبو بكر على عمر رضي الله عنهما عندما ذهب عمر إلى أن رسول الله ﷺ سيعود إلى الحياة بعد وفاته ، بأن الله — عز وجل — لا يجمع على رسول الله ﷺ ميتتين ، وقد يستأنس بعضهم لذلك بما ذكره إنجيل برنابا — والله أعلم بصحته — على لسان المسيح عليه الصلاة والسلام لأمه : « صدقيني يا أماه لأني أقول لك بالحق ، إني لم أمت قط لأن الله قد حفظني إلى قرب انقضاء العالم » .

فصل في نبوة النساء :

لاخلاف في أن الله — عز وجل — لم يرسل رسولا من النساء لقوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالًا** ﴾ (سورة يوسف) ولكن هناك خلافاً كبيراً في جواز استنباء النساء ، فمنهم من ذهب إلى جوازه ووقوعه ، واستدل على ذلك بتكليم الملائكة لمريم عليها السلام ، وأعطاها صفة النّبوة لذلك ، ومنهم من منعه ولم يعتبر أن تكليم الملائكة دليل على النّبوة ، لأن هناك نصوصاً مجمعاً على أنها في حق غير الأنبياء جرى فيها تكليم من الملائكة للبشر ، وقد وصف الله — عز وجل — مريم بأنها صديقة ﴿ **وأمه صديقة** ﴾ (سورة المائدة) والصديقية مقام والنبوة مقام آخر ، وهذا الذي رجحناه أثناء عرضنا لتفسير القسم الثاني .

فصل في فُضْلىٰ النساء بإطلاق :

لا خلاف في أن مريم أفضل نساء زمانها لقوله تعالى ﴿ **واصطفاكِ على نساء العالمين** ﴾ ولكن الخلاف ، هل هي فضلىٰ نساء العالمين في سائر العصور ؟ بعضهم ذهب إلى ذلك ، وبعضهم قال : بل أفضل منها : فاطمة الزهراء رضي الله عنها .

ويقول الألوسي بعد كلام طويل : « وبعد هذا كله الذي يدور في خلدي أن أفضل النساء فاطمة ، ثم أمها ، ثم عائشة بل لو قال قائل : إن سائر بنات النبي ﷺ أفضل من عائشة لا أرى عليه بأساً ، وعندي بين مريم وفاطمة توقف ، نظراً للأفضلية المطلقة ، وأما بالنظر إلى الحيثية فقد علمت ما أميل إليه ، وقد سئل الإمام السبكي عن هذه المسألة فقال : الذي نختاره وندين الله تعالى به أن فاطمة بنت محمد ﷺ أفضل ، ثم أمّها ، ثم عائشة – ووافقه في ذلك البلقيني – .

فصل في ردود على أفكار خاطئة :

ــ ذهب بعضهم إلى أن قول أم مريم ﴿ **وليس الذكر كالأنثى** ﴾ بأن مقصودها : إن الأنثى التي أعطيتني إياها خير لي من الذكر الذي رغبت فيه ، وقد رد الألوسي على هؤلاء رداً طويلًا فليراجع .

ــ كما رد الألوسي رداً مطولًا على من استدل من الشيعة بالنصوص الواردة بشأن المباهلة ، على أن ذلك نصٌّ في قضية الإمامة والخلافة ، أما أنها تدلل على فضل آل بيت رسول الله ﷺ فذلك لاشك فيه .

نقول :

ــ « بمناسبة قوله تعالى ﴿ **يا مريم إن الله اصطفاكِ وطهركِ** ﴾ يقول صاحب الظلال : « وهنا تظهر عظمة هذا الدين ، ويتبين مصدره عن يقين . فهاهوذا محمد ﷺ رسول الإسلام الذي يلقىٰ من أهل الكتاب – ومنهم النصارى – ما يلقى من التكذيب ، والعنت والجدل ، والشبهات .. ها هوذا يحدِّث عن ربه بحقيقة مريم العظيمة وتفضيلها على « نساء العالمين » بهذا الإطلاق الذي يرفعها إلى أعلى الآفاق . وهو في مناظرة مع القوم الذين يعتزون بمريم ، ويتخذون من تعظيمها مبرراً لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ وبالدين الجديد ! .

أي صدق ؟ وأية عظمة ؟ وأية دلالة على مصدر هذا الدين ، وصدق صاحبه الأمين ! » .

ـــ من كلام في تفسير الكهل نقله القرطبي : « وإنما الكهل عند أهل اللغة : من جاوز الأربعين وقال بعضهم : يقال له حدث إلى ست ، ثم شاب إلى اثنتين وثلاثين ، ثم يكتهل في ثلاث وثلاثين » .

فصل : في مناقشة التطوريين :

من قوله تعالى ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ يتضح لنا أن آدم عليه الصلاة والسلام قد خلقه الله خلقاً مباشراً ، فهذه الآية تنفي أيَّ احتمال يمكن أن يتمسك به أيُّ متمسك في مسايرة أوهام وظنون الداروينيين وأمثالهم .

لقد مرت فترات كانت فيها نظريةداروين وكأنها حقيقة علمية ، ولقد انتهى هذا الزمن ؛ لأن النظرية قد نقضتها علوم متعددة ودراسات كثيرة ، ولعل كتاب أخينا الدكتور حسن زينو المختص في الجيولوجيا والتنقيب ، والذي يعتبر من أجود المتتبعين وأقوى المختصين في دراسته ، لعل كتابه « التطور والإنسان » قد وضع المسألة في إطارها النهائي ، خاصة وقد ذكر في هذا الكتاب كل ما وصل إليه الإنسان في حفرياته وأبحاثه ، وكل ما قدمته المستحسات وبرهن على أن ذلك كله لا يقوم به دليل على صحة أمثال هذه النظريات ، ومن كلامه في هذا الكتاب : « أما التخيلات والأوهام التي يقول بها بعض من يدرسون الحيوانات والنباتات الحالية ، ويقارنون أعضاءها ببعضها ليقولوا إنها نشأت من بعضها البعض فهي ظنون يرفضها العلم » .

« وبالاختصار فكل من يدَّعي أن شكلًا من الأحياء ، نشأ من شكل آخر ، ينبغي أن يثبت ذلك بالأدلة المستحسة طبقة فطبقة وشكلًا فشكلًا ، أو في بعض الأحيان النادرة كما في مثال الذباب ، بطريقة علم الوراثة بإجراء تجارب موضوعية يقينية . ومن ثم يرفض العلم كل تخرصات الملحدين الذين تدور مقالاتهم كلها حول إثبات أصل الإنسان من أحياء منحطة صغيرة ، وهدفهم من ذلك نفي وجود آدم عليه السلام ، ومن ثم إنكار الديانات السماوية ، وإنكار الخالق عز وجل . فالمسألة التي يدور حولها الحوار والنزاع هي في النهاية وفي البداية أيضاً مسألة العقيدة والإيمان بالله ، بخالق الكون والأحياء فيه . ولهذا لاقت قضية التطور والنشوء مجالًا رحباً واسعاً تخطى آفاق العلم اليقيني التجريبي إلى متاهات الشكوك والترهات والخرافات التي تزعّمها الملحدون من جهة ، والكهنوت من جهة أخرى » .

يقول الدكتور هذا الكلام ويثبته بدقائق وحقائق كثيرة فلا يُبقي تكأة يتكىء عليها

الماديون إلا وبرهن أنها تخيلات وظنون . ولنا عودة على هذا الموضوع .

فصل : في مسائل فقهية وعملية :

١ ـ عند قوله تعالى ﴿ **هنالك دعا زكريا ربه قال ربِّ هب لي من لدنك ذرية طيبة ...** ﴾ يذكر القرطبي مجموعة مسائل ننقل منها الثالثة والرابعة قال :

الثالثة – دلت هذه الآية على طلب الولد ، وهي سنة المرسلين والصديقين قال الله تعالى ﴿ **ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ..** ﴾ (سورة الرعد) وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : أراد عثمان أن يتبتَّل فنهاه رسول الله ﷺ ، ولو أجاز له ذلك لاختصينا . وأخرج ابن ماجه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « النّكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني ، وتزوَّجوا فإني مكاثر بكم الأمم ، ومن كان ذا طول فلينكح ، ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وجاء » وفي هذا ردٌّ على بعض جُهّال المتصوفة حيث قال : الذي يطلب الولد أحمق ، وما عرف أنه هو الغبي الأخرق ، قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم الخليل : ﴿ **واجعل لي لسان صدق في الآخرين** ﴾ . وقال : ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين** ﴾ (سورة الفرقان) .

وقد ترجم البخاري على هذا « باب طلب الولد » . وقال ﷺ لأبي طلحة حين مات ابنه : « وأعرستم الليلة » ؟ قال نعم . قال : « بارك الله لكما في غابر ليلتكما » . قال : فحملت . وفي البخاري : قال سفيان : فقال رجل من الأنصار : فرأيت تسعة أولادٍ كلهم قد قرأوا القرآن . وترجم أيضاً « باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة » وساق حديث أنس بن مالك قال قالت أمّ سُليم : يا رسول الله ، خادمك أنس أدع الله له فقال : « اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته » . وقال ﷺ : «اللهم اغفر لأبي سلمة ، وارفع درجته في المهديين ، واخلفه في عقبه في الغابرين » . أخرجه البخاري ومسلم . وقال ﷺ : « تزوجوا الولود الودود ؛ فإني مكاثر بكم الأمم » . أخرجه أبو داود . والأخبار في هذا المعنى كثيرة تحث على طلب الولد وتندب إليه ، لما يرجوه الإنسان من نفعه في حياته وبعد موته . قال ﷺ : « إذا مات أحدكم انقطع عمله إلا من ثلاث » فذكر « أو ولد صالح يدعو له » . ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية .

الرابعة : – فإذا ثبت هذا فالواجب على الإنسان أن يتضرّع إلى خالقه في هداية ولده وزوجه ويدعو بالتوفيق لهما والهداية والصلاح والعفاف والرعاية ، وأن يكونا معينين له على دينه ودنياه حتى تعظم منفعته بهما في أولاه وأخراه ، ألا ترى قول زكريا ﴿ **واجعله ربِّ رضيا** ﴾ (سورة مريم) وقال : ﴿ **ذرية طيبة** ﴾ وقال : ﴿ **هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين** ﴾ . ودعا رسول الله ﷺ لأنس فقال : « اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته » أخرجه البخاري ومسلم وحسبك .

٢ – عند قوله تعالى ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴾ .

قال القرطبي :

« استدلّ بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القُرعة ، وهي أصل في شرعنا لكل من أراد العدل في القسمة ، وهي سنّة عند جمهور الفقهاء في المستويين في الحجة ، ليعدل بينهم ، وتطمئن قلوبهم ، وترتفع الظِّنة عمن يتولىٰ قسمتهم ، ولا يفضل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد اتباعاً للكتاب والسنّة . وردَّ العمل بالقرعة أبو حنيفة وأصحابه ، وردوا الأحاديث الواردة فيها ، وزعموا أنها لا معنىٰ لها وأنها تشبه الأزلام التي نهىٰ الله عنها . وحكىٰ ابن المنذر عن أبي حنيفة أنه جوّزها وقال : القرعة في القياس لا تستقيم ، ولكنا تَرَكنا القياس في ذلك وأخذنا بالآثار والسنّة . وقال أبو عبيد : وقد عمِل بالقرعة ثلاثة من الأنبياء : يونس وزكريا ونبيّنا محمد ﷺ . قال ابن المنذر : واستعمال القرعة كالإجماع من أهل العلم فيما يُقسَم بين الشركاء ، فلا معنى لقول من ردّها . و قد ترجم البخاري فى آخر كتاب « الشهادات » (باب القرعة في المشكلات وقول الله – عز وجل – « إذ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ») وساق حديث النّعمان بن بشير : « مثل القائم على حدود الله والمُدْهِن فيها مثل قوم استهموا علىٰ سفينة » ... الحديث . وسيأتي في « الأنفال » إن شاء الله تعالى ، وفي سورة « الزخرف » أيضاً بحول الله سبحانه وتعالىٰ ، حديث أم العلاء ، وأن عثمان بن مَظْعُون طار لهم سَهمه في السُّكنىٰ حين اقترعت الأنصار سكنىٰ المهاجرين ، الحديث . وحديث عائشة قالت :

كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها ، وذكر الحديث . وقد اختلفت الرواية عن مالك في ذلك ؛ فقال مرة : يُقرع للحديث . وقال مرة : يسافر بأوفقهن له في السفر . وحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه

لاستهموا » . والأحاديث في هذا المعنىٰ كثيرة . وكيفية القرعة مذكورة في كتب الفقه والخلاف . واحتج أبو حنيفة بأن قال : إن القرعة في شأن زكريا وأزواج النبي ﷺ كانت مما لو تراضوا عليه دون قرعة لجاز . قال ابن العربي : « وهذا ضعيف ، لأن القرعة إنما فائدتها استخراج الحكم الخفي عند التشاح ؛ فأما ما يخرجه التراضي [فيه] فباب آخر ، ولا يصح لأحد أن يقول : إن القرعة تجري مع موضع التراضي ، فإنها لاتكون أبداً مع التراضي وإنما تكون فيما يَتَشاح الناس فيه ويُضَنُّ به . وصفة القرعة عند الشافعي ومن قال بها : أن تُقطع رقاع صغار مستوية ، فيكتب في كل رقعة اسم ذي السهم ، ثم تجعل في بنادق طين مستوية لا تفاوت فيها ، ثم تجفف قليلًا ، ثم تلقىٰ في ثوب رجل لم يحضر ذلك ، ويغطى عليها ثوبه ، ثم يدخل يده ويخرج ، فإذا أخرج اسم رجل أُعطي الجزء الذي أقرع عليه .

٣ ـ هناك اتجاهان في موضوع المباهلة ، هل هي جائزة لإظهار الحق أبداً ، أو أنها خاصة برسول الله ﷺ ؟ والثاني هو الأقوى . قال الألوسي : « ومن ذهب إلى جواز المباهلة اليوم على طرز ما صنع رسول الله ﷺ استدل بما أخرجه عبد بن حميد عن قيس ابن سعد أن ابن عباس رضي الله عنه كان بينه وبين آخر شيء فدعاه إلى المباهلة » .

فصل في ذكر بعض ما حدث عقيب نزول آية المباهلة :

يقول الألوسي : أخرج البخاري ومسلم « أن العاقب والسيد أتيا رسول الله ﷺ فأراد أن يلاعنهما فقال أحدهما لصاحبه : لا تلاعنه فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا فقالا له : نعطيك ما سألت فابعث معنا رجلًا أميناً فقال : قم يا أبا عبيدة فلما قام قال هذا أمين هذه الأمة » . وأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء ، والضحاك عن ابن عباس « أن ثمانية من أساقفة أهل نجران قدموا على رسول الله ﷺ منهم العاقب والسيد فأنزل الله تعالى ﴿ **قل تعالوا** ﴾ الآية فقالوا : أخِّرنا ثلاثة أيام ، فذهبوا إلى بني قريظة والنضير وبني قينقاع ؛ فاستشاروهم فأشاروا عليهم أن يصالحوه ولا يلاعنوه ، وقالوا : هو النبي الذي نجده في التوراة فصالحوا النبي ﷺ على ألف حلة في صفر ، وألف في رجب ودراهم » . وروى أنهم صالحوه على أن يعطوه في كل عام ألفي حلة ، وثلاثاً وثلاثين درعاً ، وثلاثة وثلاثين بعيراً ، وأربعاً وثلاثين فرساً » .

وأخرج في الدلائل أيضاً من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس « أن وفد نجران من النصارى قدموا على رسول الله ﷺ وهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم منهم السيد - وهو الكبير - والعاقب - وهو الذي يكون بعده وصاحب رأيهم - فقال رسول الله ﷺ : أسلما ، قالا : أسلمنا قال : ما أسلمتما . قالا : بلى قد أسلمنا قبلك . قال : كذبتما يمنعكما من الإسلام ثلاث فيكما : عبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير ، وزعمكما أن لله ولداً ، ونزل ﴿ **إن مثل عيسى** ﴾ الآية . فلما قرأها عليهم قالوا : ما نعرف ما تقول : ونزل ﴿ **فمن حاجك** ﴾ الآية فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى قد أمرني إن لم تقبلوا هذا أن أباهلكم » . فقالوا : يا أبا القاسم بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك ، فخلا بعضهم ببعض وتصادقوا فيما بينهم . قال السيد للعاقب : قد والله علمتم أن الرجل نبي مرسل ولئن لاعنتموه إنه لاستئصالكم ، وما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، فإن أنتم لن تتبعوه وأبيتم إلا إلْفَ دينكم فوادعوه وارجعوا إلى بلادكم ، وقد كان رسول الله ﷺ خرج ومعه علي والحسن والحسين وفاطمة ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أنا دعوت فأمِّنوا أنتم ، فأبوا أن يلاعنوه وصالحوه على الجزية » .

وعن الشعبي فقال رسول الله ﷺ: « لقد أتاني البشير بهلكة أهل نجران حتى الطير على الشجر لو أتموا الملاعنة » وعن جابر أنه ﷺ قال: «والذي بعثني بالحق لو فعلا لأمطر الوادي عليهما ناراً » . وروي أن أسقف نجران « لما رأى رسول الله ﷺ مقبلًا ومعه علي وفاطمة والحسنان رضي الله عنهم قال : يا معشر النصارى ! إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلًا من مكانه لأزاله فلا تباهلوا تهلكوا » .

هذا وإنما ضمّ رسول الله ﷺ إلى النفس ، الأبناء والنساء مع أن القصد من المباهلة تبين الصادق من الكاذب ،وهو يختص به وبمن يباهله ، لأن ذلك أتم في الدلالة على ثقته بحاله ، واستيقانه بصدقه ، وأكمل نكاية بالعدو ،وأوفر إضراراً به لو تمت المباهلة ، وفي هذه القصة أوضح دليل على نبوته ﷺ وإلا لما امتنعوا عن مباهلته ، ودلالتها على فضل آل رسول الله ورسوله ﷺ مما لا يمتري فيها مؤمن » اهـ .

أقول : نقلنا هذا النقل عن الألوسي مع أننا كنا نقلنا بعض رواياته من قبل لما في ذلك من استيعاب مفيد .

فصل في ذكر بعض أسباب النزول

رأينا أن بعضهم يعتبر أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية نزل بمناسبة الحوار مع وفد نجران ، إلا أنه رأينا من يذكر أسباب نزول خاصة لبعض آيات صدر سورة آل عمران ، وقلنا في تعليل ذلك : إما أن الرواية التي تذكر سبب نزولٍ واحد لكل هذه الآيات ليست محفوظة ، أو أن بعض الآيات نزلت مرتين ، نزلت متفرقة ثم نزلت مجتمعة مع أخواتها في صدر سورة آل عمران . ومما ذكره الألوسي في أسباب نزول قوله تعالى ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين** ﴾ ما يلي : « روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن اليهود قالوا : نحن أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام ، ونحن على دينهم فنزلت ، وقيل : إن نصارىٰ نجران لما غلوا في عيسىٰ عليه الصلاة والسلام وجعلوه ابن الله – سبحانه – واتخذوه إلهاً ، نزلت رداً عليهم ، وإعلاماً لهم بأنه من ذرية البشر ، المنتقلين في الأطوار المستحيلة على الإله ، وهذا وجه مناسبة الآية لما قبلها » .

كلمة أخيرة في الصلة بين أقسام السورة :

سنرى أن القسم الثالث من أقسام سورة آل عمران فيه حوار شامل مع أهل الكتاب ، وقد كان ذلك بعد هذا القسم الذي وضع الأمور في مواضعها في شأن عيسىٰ عليه السلام ، وبعد القسم الأول الذي وضع الأمور في مواضعها بالنسبة للقرآن والإسلام ورسالة محمد ﷺ ووجوب طاعته ، فالأقسام الثلاثة تكمِّل بعضها لتكون كلها مدخلًا للقسمين الأخيرين اللذين يوجهان الأمة المسلمة بشكل مباشر في شأن العلاقة مع أهل الكتاب ومع أهل الكفر .

وفي وجه المناسبة بين القسم الأول والقسم الثاني والقسم الثالث وهو القسم الذي سيأتي معنا من سورة آل عمران – يقول الألوسي :

« وقال شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى – في وجه المناسبة : إنه سبحانه لما بين ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ وأنّ اختلاف أهل الكتابين فيه ؛ إنما هو للبغي والحسد ، وأن الفوز برضوانه ومغفرته ورحمته منوط باتباع الرسول ﷺ ، شرع في تحقيق رسالته ، وأنه من أهل بيت النبوة القديمة ، فبدأ ببيان جلالة أقدار الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأتبعه ذكر مبدأ عيسىٰ وأمه ، وكيفية دعوته الناس إلى الإيمان ؛

تحقيقاً للحق وإبطالًا لما عليه أهل الكتابين من الإفراط والتفريط في شأنهما ، ثم بين محاجتهم في إبراهيم وادّعاءهم الانتماء إلى مِلّته ، ونزّه ساحته العلية عما هم عليه من اليهودية والنصرانية ، ثم نصّ على أن جميع الرسل دعاة إلى عبادة الله تعالى وتوحيده ، وأن أممهم قاطبة مأمورون بالإيمان بمن جاءهم من رسول مصدّق لما معهم ؛ تحقيقاً لوجوب الإيمان بالرسول ﷺ وتحتم الطاعة له حسبما يأتي تفصيله - انتهى - وهو وجه وجيه » . أقول : بعد أن تقرر في القسم الأول معاني التوحيد والقيومية ، والعزة والحكمة ، ومظاهر ذلك وآثاره ، من إنزال الكتب وإرسال الرسل ، ووجوب الإسلام ، وبعد أن تقرر في القسم الثاني بيان حقيقة عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ، يأتي القسم الثالث وفيه حوار شامل مع أهل الكتاب ، ليدخلوا في الإسلام وليتحققوا بما دعت إليه السورة في قسميها السابقين .

☆ ☆ ☆

القسم الثالث
من أقسام سورة آل عمران

يمتد هذا القسم
من الآية (٦٤) إلى الآية (٩٩) وهذا هو

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟

بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَاللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

☆ ☆ ☆

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي الْأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

☆ ☆ ☆

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ

تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

☆ ☆ ☆

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ

وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

☆ ☆ ☆

كلمة في القسم :

يبدأ هذا القسم بقوله تعالى ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم** ﴾ وينتهي بقوله تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب لم تصدُّون عن سبيل الله من آمن** ﴾ . نلاحظ أن نداء ﴿ **قل يا أهل الكتاب** ﴾ قد بدىء به القِسْمُ ، وختم به القسم . وهذا واحد مما دلّنا على بداية القسم ونهايته . كما أن المعاني السابقة على القسم ، والمعاني الآتية بعده تحدد بدايته ونهايته . فقد سبق بالقسم الذي يتحدث عن عيسىٰ عليه السلام . وجاء بعده قسم بدايته ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ...** ﴾ وهو أول نداء بصيغة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ نراه في سورة آل عمران .

قلنا إن محور سورة آل عمران هو مقدمة سورة البقرة ، وامتدادات معانيها في السورة نفسها ، فلنر هذا جلياً في هذا القسم :

جاء في مقدمة سورة البقرة : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ ومن امتداد هذا المعنى في سورة البقرة الدعوة التي وجهت لبني إسرائيل ، والحوار الذي فتح معهم ، والذي بدايته مدخل مقطع بني إسرائيل الذي فيه ﴿ **وآمنوا بما أنزلت مصدّقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافرٍ به** ﴾ والذي استمر في مقطع بني إسرائيل ، ومقطع إبراهيم ، ومقطع القبلة ، وانتهى بآية من سورة البقرة .

وفي هذا الحوار الطويل مع بني إسرائيل هناك ورد قوله تعالى :

﴿ **وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملّة إبراهيم حنيفا** ﴾وههنا في هذا القسم من سورة آل عمران نجد قوله تعالى: ﴿**ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً**﴾ وفي ذلك الحوار مع بني إسرائيل في سورة البقرة ورد : ﴿**ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون** ﴾ وههنا نجد ﴿ **يا أهل الكتاب لمَ تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون . يا أهل الكتاب لمَ تلبسون الحق بالباطلِ وتكتمون الحق وأنتم تعلمون** ﴾ وفي ذلك الحوار الكبير ورد قوله تعالى : ﴿ **ومنهم أُمّيُّون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ وإن هم إلا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ...** ﴾ .

وههنا يرد قوله تعالى :

﴿ **وإن منهم لفريقاً يلْوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من**

الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ﴾ . وفي معرض الحوار مع بني إسرائيل في سورة البقرة يأتي قوله تعالى :

﴿ قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل .. لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ . وههنا يرد النص نفسه تقريباً : **﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا ... ونحن له مسلمون ﴾** . لاحظ صلة هاتين الآيتين بشكل مباشر بقوله تعالى في مقدمة سورة البقرة :

﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ . وفي سورة البقرة جاء قوله تعالى : **﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾** . وههنا نجد قوله تعالى : **﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾** .

ورأينا في الحوار الطويل مع بني إسرائيل في سورة البقرة إقامة الحجة عليهم بالنسخ ، وههنا يذكر الله - عز وجل - لنا نموذجاً على نسخٍ وقع عندهم :

﴿ كل الطعام كان حِلًّا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزَّل التوراة ... ﴾ . ورأينا في الحوار الطويل مع بني إسرائيل مناقشتهم لقضية القبلة والتوجه في الصلاة إلى كعبة إبراهيم ، وههنا يأتي كلام عن البيت ، وفرضية حجه . **﴿ إن أول بيت وُضِع للناس لَلَّذي ببكة ﴾** وقبل هذه الآية مباشرة يأتي قوله تعالى : **﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملّة إبراهيم حنيفاً ﴾** .

وفي سورة البقرة : **﴿ ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلا من سَفِهَ نفسه ﴾** .

﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ .

ونلاحظ أن الحوار مع بني إسرائيل في سورة البقرة كان منصباً في جملته مع اليهود ، وههنا ينصبّ الحوار في جملته مع النصارى ، حتى إنه يُذكر في أسباب النزول ، أن قسماً كبيراً من هذه الآيات إن لم يكن كلها نزل بسبب الحوار مع وفد نجران النصراني .

فالقسم تفصيل لمحوره في سورة البقرة ، ولامتدادات هذا المحور في سورة البقرة نفسها .

لقد جاء في مقدمة سورة البقرة:**﴿الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾** .

وقد جاء القسم الأول في سورة آل عمران يفصّل تفصيلًا أولياً في هذا النص . ثم بعد ذلك جاء في مقدمة سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ .

ونلاحظ أن القسم الثاني من سورة آل عمران فصّل في بعض ذلك فأعطانا صفحة من صفحات الإيمان بالغيب . ثم جاء بعد هذا في مقدمة سورة البقرة قوله تعالى :

﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك** ﴾ .

ويأتي هذا القسم ليحاور أهل الكتاب من أجل أن يؤمنوا بما أنزل على محمد ﷺ .

وقد جاء في مقدمة سورة البقرة كلام عما يقابل التقوى والمتقين ، وهو الكفر والكافرين ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ . وقد رأينا في القسمين السابقين كيف يتعاقب الكلام عن الإيمان والكفر ، ونلاحظ أنّه في هذا القسم قد جاء : ﴿ **إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون** ﴾ .

﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين** ﴾ .

وفي مقدمة سورة البقرة يأتي كلام عن المنافقين ، وفي معرض الحوار مع أهل الكتاب هنا يأتي ذكر خطة من خطط اليهود : ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره** ﴾ وهكذا نجد كيف أن سورة آل عمران تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، وامتدادات معانيها في نفس السورة ، ولكن مع ذاتية خاصة للسورة ، وسياق خاص بها ، وترابط خاص بين معانيها .

فمن قبل هذا القسم الذي هو حوار شامل مع أهل الكتاب في شؤون كثيرة ، جاء القسم الأول والثاني ممهِّديْن لهذا الحوار . القسم الأول : قرر وحدانية الله وقيوميّته ، وعزّته ، وحكمته ، وأن الدين عنده الإسلام . والقسم الثاني : بين الحق في شأن عيسى عليه السلام ، وهو أخطر انحراف وقع فيه أهل الكتاب . ثم يجيء القسم الثالث ليفتح الحوار الشامل مع أهل الكتاب على ضوء التمهيدين السابقين . فقبل أن يقول هذا القسم : ﴿ **قل يا أهل الكتاب** ﴾ جاءت خاتمة القسم الثاني تقول : ﴿ **فإن تولوا فإن**

الله عليم بالمفسدين ﴾ . وجاءت خاتمة القسم الأول تقول :

﴿ **قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين** ﴾ .

☆ ☆ ☆

وكما أن الصلة بين القسمين السابقين وهذا القسم واضحة بشكل عام ، فالصلة بين الآيات السابقة على هذا القسم وبين بدايته كذلك واضحة ، فبعد أن قرّر الله - عز وجل - الحق في شأن عيسىٰ الذي عَبَده النّصارى : ﴿ **إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم** ﴾ جاء خطاب لأهل الكتاب بأن يعبدوا الله وحده : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله** ﴾ .

لقد جاء القسم الأول دعوة إلى الدخول في دين محمد ﷺ وجاء القسم الثاني مبيّناً أن محمداً ﷺ داخل في المصطفين ؛ فهو من آل إبراهيم ، وأن ما يدعوا إليه في شأن عيسىٰ هو الحق ، وجاء القسم الثالث ليدعو أهل الكتاب إلى هذا الحق ويحاورهم فيه وتتسلسل المعاني في هذا القسم على ذاتية خاصة به .

فهو يبدأ بالدعوة إلى عبادة الله وحده ، ثم في تأنيب أهل الكتاب على دعاواهم أن إبراهيم يهودي ، أو نصراني ، وتبيان أن أولى الناس بإبراهيم هو محمد ﷺ والمسلمون ، ثم يبين القسم رغبة أهل الكتاب في إضلال المسلمين ، ويؤنّب أهل الكتاب على الكفر، وخلط الحق بالباطل ، وكتمانهم الحق . ثم يبيّن القسم بعض خططهم لإضلال المسلمين ، وبعض اعتقاداتهم التي تجعل بعضهم يستبيح الخيانة ، مع أن القاعدة الكلية المقبولة عند الله تعالى هي الوفاء بالعهود ، ثم يقصّ الله علينا بعضا من أخلاقهم ، ومواقفهم ويرد عليهم فيها ثم يدعوهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ وبالإسلام ، ويؤنبهم على أن يتجهوا إلى غير ذلك . ثم يبين أن هؤلاء لا يستحقون الهداية ، إذ إنهم كانوا مؤمنين فكفروا ، إلا إذا اجتمع للواحد منهم التوبة والإصلاح . ثم يبين الله لهؤلاء الكافرين ما أعدّه لهم من عذاب إن أصرّوا على الكفر ، وماتوا عليه .

ثم يبيّن لهم، ولنا بعضاً مما يدخل في ماهية البر، وأن النسخ قائم في شريعتهم، وذلك لأنهم بحجة عدم جواز النسخ يرفضون الدخول في الإسلام. وإذ كانت قضية القبلة من شبههم، فإن كلاماً عن بيت الله الذي بناه إبراهيم عليه السلام يأتي وفيه تبيان لشرف

هذا البيت ، وفرضية الله على الناس حجه ، فضلًا عن استقباله في الصلاة كما قررته سورة البقرة . ثم يختم القسم بنداء لأهل الكتاب ، يؤنبهم فيه على الكفر بآيات الله ، وبنداء آخر يؤنبهم فيه على صدِّهم عن سبيل الله ، وابتغائهم العوج .

ولنبدأ عرض فقرات القسم :

« الفقرة الأولى »

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

المعنى العام : في الآية الأولى : أمر لرسول الله ﷺ أن يدعو دعوة عامة لجميع أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم إلى كلمة عدل ونصف ، يستوي فيها المسلمون وغيرهم ، ألا يعبد الجميع لا وثناً ولا صليباً ، ولا صنماً ولا طاغوتا ، ولا ناراً ولا شيئاً ، بل نفرد العبادة لله وحده لاشريك له وهي دعوة كل الرسل ، وأن يفرد الجميع الله بالطاعة ، فلا يطيع أحد أحداً في معصية الله ، فإن تولوا عن هذه الدعوة وهذا النصف ، فقد أمرنا الله تعالى أن نشهدهم على استمرارنا على الإسلام الذي

شرعه الله لنا . وإذا تذكرنا ما ورد في القسم الأول : ﴿ **أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا** ﴾ إذا تذكرنا ذلك أدركنا صلة الأقسام ببعضها .

ـــ في الآية الثانية : ينكر الله تبارك وتعالى على اليهود والنصارى ادعاء كلٍ من الطائفتين أنّ إبراهيم كان منها . فكيف تدّعون أيها اليهود أنه كان يهودياً ، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى . وكيف تدَّعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً ، وإنما حدثت النصرانية بعده بزمن طويل . ولهذا ختم الآية بتأنيبهم فقال : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾

ـــ وفي الآية الثالثة : إنكار على من يجادل فيما لا علم له به ، فإن اليهود تحاجُّوا في إبراهيم بغير علم ، ولو تحاجُّوا فيما بأيديهم من علم ، مما يتعلق بأديانهم التي شرعت إلى حين بعث محمد ﷺ لكان أولى بهم . وإذ تكلموا فيما لا يعلمون فقد أنكر الله عليهم ذلك وأمرهم برد ما لا علم لهم به ، إلى عالم الغيب والشهادة ، الذي يعلم الأمور على حقائقها ، وجلياتها ، لأنه هو الذي يعلم ، وغيره لا يعلم .

ـــ وفي الآية الرابعة : نفى أن يكون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً ، إنه كان متحنفاً عن الشرك ، قاصداً إلى الإيمان ، وفي ذلك تعريض بشركهم الذي منه إبراهيم براء .

وفي الآية الخامسة : بيّن أن أقرب الناس ، وأخصهم بإبراهيم هم أتباعه ومحمد ﷺ ، والذين آمنوا : المهاجرون والأنصار ، ومن تبعهم بعدهم لأنهم هم الموحِّدون المسلمون .

المعنى الحرفي :

﴿ **قل يا أهل الكتاب** ﴾ يدخل في الخطاب اليهود والنصارى ، ويدخل غيرهم من باب أولى . ﴿ **تعالوا إلى كلمة سواء** ﴾ أي : مستوية بيننا وبينكم ، لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل هي ﴿ **ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله** ﴾ أي : العبادة لله وحده ، والطاعة لله وحده ، فلا يحلل ولا يحرم إلا هو . ولا إله إلا هو . قال ابن جريج في تفسير قوله تعالى : ﴿**ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله** ﴾ يعني لا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله . ﴿ **فإن تولوا** ﴾ أي عن التوحيد ﴿ **فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ أي : فقد لزمتكم الحجة ، فوجب عليكم أن تعترفوا ، وتسلموا بأنا مسلمون دونكم فاعلموا ذلك .

﴿ **يأأهل الكتاب لم تحاجّون في إبراهيم** ﴾ أي : لم تجادلون في شأنه ، فيزعم بعضكم أنه يهودي ، ويزعم بعضكم الآخر أنّه نصراني ﴿ **وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلامن بعده** ﴾ فمن أين له اليهودية أو النصرانية ، وكتابا الديانتين ما أنزلا إلا من بعده بكثير ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال .

﴿ **ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم** ﴾ أي : أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى ، وبيان حماقتكم ؛ وقلة عقولكم أنكم جادلتم بالباطل فيما لكم به علم فخالفتم علمكم ، مما نطق به التوراة والإنجيل . قال القرطبي : يعني في أمر محمد ﷺ لأنهم كانوا يعلمونه فيما يجدون من نعته في كتابهم فحاجُّوا فيه بالباطل . ﴿**فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم** ﴾ ولا ذكر له في كتابكم قال القرطبي : « يعني دعواهم في إبراهيم أنه كان يهودياً أو نصرانياً » .

﴿ **والله يعلم** ﴾ علم ما حاججتم فيه . ﴿ **وأنتم لا تعلمون** ﴾ أي وأنتم جاهلون به . ثم أعلمهم أن إبراهيم بريء مما نسبوه إليه فقال : ﴿ **ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً** ﴾ أي مائلاً عن كل دين إلا دين الله . ﴿ **مسلماً** ﴾ لله في شأنه كله ﴿ **وما كان من المشركين** ﴾ . وقد أشركتم أنتم وغيركم ، فكيف يكون منكم !!! ﴿ **إن أَوْلى الناس بإبراهيم** ﴾ أي أخصهم به ، وأقربهم منه ، وأحقهم بالانتساب إليه ﴿ **للَّذين اتبعوه** ﴾ أي أتباعه في زمانه وبعده . ﴿ **وهذا النبي** ﴾ أي محمد عليه السلام خص بالذكر لخصوصيته بالفضل . ﴿ **والذين آمنوا** ﴾ من أمة محمد عليه السلام . ﴿ **والله ولي المؤمنين** ﴾ أي ناصرهم .

فوائــد :

١ ــ أخرج البخاري نص رسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل عن ابن عباس عن أبي سفيان في قصةٍ حين دخل على قيصر فسأله عن نسب رسول الله ﷺ ، وعن صفته ونعته ، وما يدعو إليه ، فأخبره بجميع ذلك على الجلية . وكان ذلك بعد صلح الحديبية ، وقبل الفتح ، وكما هومصرح به في الحديث وهذا نص الرسالة :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين ، و ﴿ **يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا**

اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ » . وهذا يفيد أن آية « **قل يا أهل الكتاب تعالوا . . .** » قد نزلت قبل مجيء وفد نجران في السنة التاسعة :

وقد ذكر ابن كثير مجموعة وجوه للتوفيق بين قول ابن إسحق إن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية ، نزل بمناسبة مجيء وفد نجران في السنة التاسعة وكون هذه الآية في رسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل في السنة السابعة ومن هذه الأوجه: « ويحتمل أن صدر سورةآل عمران نزل في وفد نجران إلى هذه الآية ، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك ، ويكون قول ابن إسحق إلى بضع وثمانين آية ليس بمحفوظ لدلالة حديث أبي سفيان عليه » .

٢ ـ يقول صاحب الظلال تعليقاً على آية ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله** ﴾ : إن الناس في جميع النظم الأرضية يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .. يقع هذا في أرقى الديمقراطيات كما يقع في الديكتاتوريات سواء .. إن أول خصائص الربوبية هو حق تعبُّد الناس ، حق إقامة النظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين .. وهذا الحق في جميع الأنظمة الأرضية يدّعيه بعض الناس ــ في صورة من الصور - ويرجع الأمر فيه إلى مجموعة من الناس ــ على أي وضع من الأوضاع ــ وهذه المجموعة التي تُخضع الآخرين لتشريعها ، وقيمها وموازينها ، وتصوراتها ، هي الأرباب الأرضية التي يتخذها بعض الناس أرباباً من دون الله ، ويسمحون لها بادّعاء خصائص الألوهية والربوبية ، وهم بذلك يعبدونها من دون الله ، وإن لم يسجدوا لها ويركعوا . فالعبودية عبادة لا يُتوجه بها إلا لله .

وفي النظام الإسلامي وحده يتحرر الإنسان من هذه الربقة .. ويصبح حراً . حراً يتلقى التصورات ، والنظم ، والمناهج ، والشرائع ، والقوانين ، والقيم والموازين ، من الله وحده ، شأنه في هذا شأن كل إنسان آخر مثله . فهو وكل إنسان آخر على سواء . كلهم يقفون في مستوى واحد ويتطلعون إلى سيد واحد ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .

والإسلام ــ بهذا المعنى ــ هو الدين عند الله . وهوالذي جاء به كل رسول من عند الله .. لقد أرسل الله الرسل بهذا الدين ليخرجوا الناس من **عبادة العباد إلى عبادة الله** . ومن جور العباد إلى عدل الله .. فمن تولى عنه فليس مسلماً بشهادة الله . مهما أوّل

المؤولون ، وضلّل المضللون .. ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ ..

٣ ـ ذكر ابن إسحق عن ابن عباس في سبب نزول قوله تعالى ﴿ **يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون** ﴾ قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً ، فأنزل الله تعالى ﴿ **يا أهل الكتاب لم تُحاجّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ...** ﴾

٤ ـ روى الترمذي والبزار عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لكل نبي ولاة من النبيين ، وإن وليي منهم أبي وخليل ربي عز وجل » ثم قرأ ﴿ **إن أولى الناس بإبراهيم لَلَذين اتبعوه وهذا النبي ...** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد من طريق ابن حوشب قال : حدثني ابن غنم ، أنه لما خرج أصحاب النبي ﷺ إلى النجاشي ، أدركهم عمرو بن العاص ، وعمارة بن أبي معيط فأرادوا عَنَتَهم والبغي عليهم ، فقدموا على النجاشي وأخبروه أن هؤلاء الرهط الذين قدموا عليك من أهل مكة ، يريدون أن يحيلوا عليك ملكك ، ويفسدوا عليك أرضك ، ويشتموا ربك ، فأرسل إليهم النجاشي ، فلما أن أتوه قال : ألا تسمعون ما يقول صاحباكم هذان – لعمرو بن العاص . وعمارة بن أبي معيط ؟– يزعمان أنما جئتم لتحيلوا عليَّ ملكي ، وتفسدوا عليَّ أرضي ، فقال عثمان بن مظعون وجعفر : إن شئتم خلوا بين أحدنا وبين النجاشي ، فليكلمه أينا أحدثكم سناً فإن كان صواباً فالله يأتي به ، وإن كان أمراً غير ذلك قلتم : رجل شاب لكم في ذلك عذر ، فجمع النجاشي قسيسيه ورهابنته وتراجمته ، ثم سألهم أرأيتكم صاحبكم هذا الذي من عنده جئتم ما يقول لكم وما يأمركم به ، وما ينهاكم عنه ، هل له كتاب يقرأه ؟ قالوا : نعم هذا الرجل يقرأ ما أنزل الله تعالى عليه ، وما قد سمع منه . ويأمر بالمعروف ، ويأمر باليتيم ، ويأمر بحسن المجاورة ، ويأمر بأن يعبد الله تعالى وحده ، ولا يعبد معه إله آخر فقرأ عليه – سورة الروم ، والعنكبوت ، وأصحاب الكهف ، ومريم ، فلما أن ذكر عيسى في القرآن ، أراد عمرو أن يغضبه عليهم فقال : والله إنهم يشتمون عيسىٰ ويسبّونه ، قال النجاشي : ما يقول صاحبكم في عيسىٰ ؟ قال يقول : إن عيسىٰ عبد الله ورسوله ، وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، فأخذ النجاشي نفثة من سواكه قدر ما يقذي العين ، فحلف ما زاد المسيح على ما يقول صاحبكم بما يزن ذلك القذى في يده من نفثة سواكه ، فأبشروا ولا تخافوا فلا دهونة – يعني بلسان

الحبشة - اللوم أي لا لوم على حزب إبراهيم ، قال عمرو بن العاص : ما حزب إبراهيم ؟ قال : هؤلاء الرهط وصاحبهم الذي جاءوا من عنده ومن اتبعهم ، فأنزلت ذلك اليوم في خصومتهم على رسول الله ﷺ وهو بالمدينة ﴿ **إن أولى الناس بإبراهيم** ﴾ الآية .

كلمة في السياق :

١ - سبقت هذه الفقرة فقرة تضمنت تقرير حقيقة عيسى ، وتحدي من يكذِّب ذلك ، وجاءت هذه الفقرة لتعلّمنا أن ندعو أهل الكتاب إلى التوحيد ، وأن نناقشهم في زعمهم أن أبا التوحيد منهم ، بل نحن منه وهو منَّا بدليل أننا على مذهبه . والآن تأتي فقرة أخرى تبين رغبة أهل الكتاب في إضلالنا ، وبعض مخططاتهم للإضلال ، وبعض وصاياهم لبعضهم والرد عليهم .

٢ - تأتي الفقرة الثانية في هذا القسم وفيها تعليل وتمثيل :

فقد ذكرت الفقرة الأولى جدال أهل الكتاب في شأن محمد ﷺ ، وادّعاءهم أن إبراهيم عليه السلام منهم ، وتأتي هذه الفقرة معللة لجدالهم ودعاواهم ، وأن مرادهم من ذلك إضلال أهل الإيمان ، وفيها تأنيب لهم على رغبتهم في إضلال المؤمنين ، وبعض طرائقهم في ذلك .

٣ - بعد مقدمة سورة البقرة جاء قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ وسار السياق هناك فقصّ الله - عز وجل - قصة آدم ، وقصة بني إسرائيل ، وقصة إبراهيم عليه السلام . وههنا تأتي دعوة لأهل الكتاب : لإفراد الله بالعبادة والربوبية ، وفي هذا السياق تناقش دعاوى أهل الكتاب في إبراهيم عليه السلام .

....

من خلال ما ذكرناه ندرك : كيف أن سورة آل عمران تسير في سياقها الخاص في مسرى واحد ومجرى واحد ، تتكامل مراحله فتتعانق البدايات والنهايات ضمن الأقسام والمقاطع والفقرات ، ومع ذلك فهي تفصّل فى محورها من سورة البقرة ، وامتدادات هذا المحور هناك .

فإذا كان محورها هو مقدمة سورة البقرة ، فإن مقدمة سورة البقرة لها امتداداتها وارتباطها بمعاني بقية سورة البقرة ، وههنا تأتي سورة آل عمران لتفصل في نقطة من

المقدمة ، وتجذب إلى هذه النقطة بعض ما له صلة بها في سورة البقرة ثم تفصل :

كان تفصيل القسم الأول في ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ وكان تفصيل القسم الثاني في ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ .

وينصب تفصيل القسم الثالث على ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ وإذ كان لكل من هذه النصوص في المقدمة ارتباطاته ببقية سورة البقرة ، فإن سورة آل عمران تلقي أضواء على هذه الامتدادات والارتباطات ، فتجذب المعنى إلى المعنى مفصّلة وملقية أضواء على سياق سورة البقرة ، وهذا بعض الأمر .

« الفقرة الثانية »

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

المعنى العام :

ــ يخبر تعالى **في الآية الأولى** : عن رغبة بعض أهل الكتاب في إضلال المسلمين ؛ والراغبون ابتداءً طائفة من اليهود . ولكنها عامّة في أهل الكتاب إلى يوم القيامة . ثم أخبر

تعالى أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم وهم لا يشعرون أنهم ممكور بهم .

ـ **وفي الآية الثانية** : سؤال موجّه لأهل الكتاب عن أسباب كفرهم بآيات الله المنزلة على رسوله محمد ﷺ مع علمهم بصدقها ، وتحقّقهم من أحقيّتها .

ـ **وفي الآية الثالثة** : سؤال آخر لهم عن أسباب خلطهم الحق بالباطل ، وأسباب كتمانهم الحق الموجود في كتبهم من صفة محمد ﷺ مع معرفتهم ذلك وتحققهم منه وإذن هم يعرفون أن المسلمين على حق ومع ذلك يرغبون في إضلالهم .

ـ **وفي الآية الرابعة** : إخبار عن مكيدة أرادوها ، ليلبّسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم ، وهو أنهم ائتمروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ، ويصلُّوا مع المسلمين صلاة الصبح ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ؛ ليقول الجهلة من الناس ، إنما ردهم إلى دينهم اطّلاعُهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين ، فيرتد المسلمون عن دينهم .

ـ **وفي الآية الخامسة** : أخبر تعالى عن تواصيهم فيما بينهم ألا يطمئنوا وألا يظهروا سرّهم وما عندهم إلا لمن تبع دينهم ، وألا يظهروا ما بأيديهم إلى المسلمين ، فيحتج المسلمون عليهم . وإنما دفعهم إلى هذا شيئان : الرغبة بأن يكون لهم امتياز على المسلمين في العلم ، والخوف من أن تقوم الحجة عليهم أمام الله . يقولون : لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم ، ويساووكم فيه ، ويمتازوا به عليكم لشدة الإيمان به ، أو يحاجوكم به عند ربكم ، أي : يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم ، فتقوم به عليكم الدلالة ، وتركبكم الحجة في الدنيا والآخرة . وقد ردّ الله عليهم في الآية مرتين : المرة الأولى بقوله : ﴿ **قل إن الهدى هدى الله** ﴾ أي : هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتمّ الإيمان ، بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات ، والدلائل القاطعات ، والحجج الواضحات ، وإن كتمتم أيها اليهود ما بأيديكم من صفة محمد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين .

والمرّة الثانية : ﴿ **قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم** ﴾ أي الأمور كلها تحت تصرّفه ، وهو المعطي المانع ، يمنّ على من يشاء بالإيمان والعلم والتصرّف التام ، ويضلّ من يشاء ، فيعمي بصره وبصيرته ، ويختم على قلبه وسمعه ، ويجعل على بصره غشاوة ، وله الحجة التامّة والحكمة البالغة .

ـــ **وفي الآية السادسة** : بين - عز وجل - مشيئته المطلقة في أنه يختص من يشاء برحمته ، وأن فضله عظيم لا يحاط به ، وفيه تنبيه للمؤمنين على ما خصهم به من الفضل بما لا يُحدُّ ولا يوصف ، بما شرفنا الله بنبينا محمد ﷺ الذي أعطاه الشرف على سائر الأنبياء وهدانا به إلى أكمل الشرائع .

المعنى الحرفي :

﴿ **ودّت طائفة من أهل الكتاب** ﴾ نزلت الآية في حادثة ، دعا فيها اليهود حذيفة ، وعمارا ، ومعاذا إلى اليهودية ، والنص عام في اليهود وغيرهم ، ويشهد لذلك قيام آلاف المؤسسات التبشيرية للتبشير على الأرض الإسلامية ، بغية إضلال المسلمين ، ﴿ **لو يضلونكم** ﴾ عن الإسلام إلى غيره . ﴿ **وما يضلون إلا أنفسهم** ﴾ أي : وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم ، لأن العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم . ﴿ **وما يشعرون** ﴾ بأن وبال الإضلال عليهم . ﴿ **يا أهل الكتاب لمَ تكفرون بآيات الله** ﴾ الموجودة عندكم وفيها بشارة برسول الله ﷺ ﴿ **وأنتم تشهدون** ﴾ أي : تعترفون بأنها آيات الله ، أو معنى الآية: لمَ تكفرون بالقرآن ودلائل نبوة الرسول ﷺ ، وأنتم تشهدون نعته في الكتابين ! أو لمَ تكفرون بآيات الله جميعاً وأنتم تعلمون أنها حق : ﴿ **يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل** ﴾ أي تخلطون الإيمان بموسىٰ وعيسىٰ بالكفر بمحمد ﷺ ﴿ **وتكتمون الحق** ﴾ من نعت محمد عليه السلام ﴿ **وأنتم تعلمون** ﴾ أن محمداً ودينه حق ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب** ﴾ فيما بينهم لبعضهم ﴿ **آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا** ﴾ من المسلمين ﴿ **وجه النهار** ﴾ أي أوله ﴿ **واكفروا آخره** ﴾ أي اكفروا آخر النهار بالإسلام ، أي أظهروا الإيمان بما أنزل على المسلمين في أول النهار ، واكفروا به آخره ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ أي : لعل المسلمين يرجعون عن دينهم بأن يقولوا : ما رجعوا - وهم أهل كتاب وعلم - إلا لأمر قد تبيَّن لهم ، فيرجعون برجوعكم . ﴿ **ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم** ﴾ أي : لا تطمئنوا إلا لمن تبع دينكم ، أي لا تطمئنّوا إلا لبعضكم ، فتكلّموا فيما بينكم فقط بما تعرفون ، حتى لا ينتفع أحد بالإسلام ، أو تكون للمسلمين حجة من خلال كلامكم . هذه وصيّتهم لبعضهم . ﴿ **قل إن الهدى هدى الله** ﴾ أي : من شاء الله هداه فأسلم ثبّته على الإسلام ولا يضرُّه كيدكم . ولكن لماذا تفعلون ذلك ؟ من تخطيط للإضلال وتواصٍ بالباطل : ﴿ **أن يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجّوكم عند ربكم** ﴾ أي : قلتم هذا

ودبرتموه خشية أن يؤتي الله أحداً مثلما أوتيتم من الكتاب ، أو خشية من محاجة المسلمين لكم عند ربكم بإقامة الحجة على كفركم كأنهم لحماقتهم يتصورون أن الحجة لا تقوم عليهم إذا كفّروا المسلمين !. ﴿ **قل إن الفضل بيد الله** ﴾ أي : الهداية والتوفيق والنّبوة وغيرها بيد الله ﴿ **يؤتيه من يشاء** ﴾ من عباده ﴿ **والله واسع** ﴾ الرحمة ﴿ **عليم** ﴾ بالمصلحة . ﴿ **يختص برحمته من يشاء** ﴾ أي : يختص بالنبوة ، واتباع الإسلام من يشاء ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ ففضله لا يحد .

فائــدة :

نلاحظ أنّ هذه الآيات قد دلتنا على بعض مظاهر ودوافع التخطيط والتآمر والكيد لأهل الإسلام . وبسبب من القوة المادية الهائلة للكفر في عصرنا الحالي ، فقد أخذت هذه الأمور مداها الواسع الآن ، فلنتذكر - إذ يأمرنا الله - عز وجل - في القسم الرابع اللاحق بعدم طاعة أهل الكتاب - الأسباب - الموجبة لذلك ممّا قصّه الله علينا هنا .

كلمة في السياق :

في سورة البقرة في مقطع بني إسرائيل ورد قوله تعالى :

﴿ **وآمنوا بما أنزلت مصدّقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلًا وإياي فاتقون ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون** ﴾ .

وورد قوله تعالى : ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربكم أفلا تعقلون** ﴾ .

وورد قوله تعالى : ﴿ **بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً . أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده** ﴾ .

وورد قوله تعالى : ﴿ **ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيَّن لهم الحق** ﴾ .

وقلنا هناك : إن مقطع بني إسرائيل آت في سياق القسم المبدوء بقوله تعالى :

﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾

وقلنا هناك : إن هذا القسم كله يدل على الطريق للتحقق بصفات المتقين التي من جملتها ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ .

وههنا نرى : أن كثيراً مما جاء هناك قد فصِّل هنا ، وهو هنا مشدود بشكل مباشر إلى القسم المبدوء بدعوة أهل الكتاب إلى عبادة الله وحده ، وترك الطاعة في معصية الله ، مما يخدم قضية التقوى ، وقضية الإيمان ، مما يتضح لنا به شيئاً فشيئا ، كيف أن سورة آل عمران ، تفصِّل في مقدمة سورة البقرة وامتدادات هذه المقدمة في تلك السورة ، بحيث تساعدنا على فهم الروابط التي تربط بين آيات سورة البقرة من ناحية ، وتساعدنا على فهم كثير من الحقائق التي وردت في تلك السورة ، وتفصّل لنا بعض ما أجمل في مقدمتها دون أن يخل ذلك بسياقها الخاص ، ولا نخال أحداً حتى الآن يتهمنا بأننا نتكلف فيما نقوله ، وما سيأتي في هذا التفسير سيزيد ما اتجهنا إليه في موضوع الوحدة القرآنية وضوحاً ، فلننتقل إلى الفقرة الثالثة في القسم الثالث .

الفقرة الثالثة

* وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

المعنى العام :

في الآية الأولى ، يخبر تعالى أن من أهل الكتاب الأمناء ، ومنهم الخونة ، فالأمين منهم مهما ائتمنته بمال كثير أدّاه ، ومنهم من إن تأمنه بالمال القليل لا يؤدّه إليك إلا إذا كنت قائماً على حقك بالمطالبة والملازمة ، والإلحاح لتستخلص حقك ، وقادراً على استخلاصه . وسبب خيانة هؤلاء تصورّهم أنّه ليس عليهم حرج في أكل أموال غير أبناء دينهم ؛ إذ يزعمون أن الله أحلّها لهم ولو كانت أمانات . وهذا كذب على الله واختلاق ، فإنّ الله حرّم عليهم أكل الأموال إلّا بحقّها ، وإنما هم قوم بهت .

- **وفي الآية الثانية** ، بيّن الله - عز وجل - أن دينه وشرعه ، الوفاء بالعهود ، والتقوى التي منها أداء الأمانة إلى أهلها ، وأنه - عز وجل - يحب المتقين ، ولا تقوى إلا باتباع ما أنزل الله .

- وبمناسبة أن دين الله الوفاء بالعهود ، وحفظ الأمانة ، **فإن الآية الثالثة** ، يبين الله - عز وجل - فيها ، أن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه ، وعن أيمانهم بالأثمان القليلة الزهيدة ، وهي عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة ، أولئك لا نصيب لهم في الآخرة ، ولاحظ لهم منها ، ولا يكلمهم الله كلام لطف ، ولا ينظر إليهم نظر رحمة ، ولا يطهرهم من الذنوب ، والأدناس ، بل يأمر بهم إلى النار ، ولهم عذاب أليم .

- وكما أخبر أن بعض أهل الكتاب خائن ، ولا يفي بعهد أو يمين ،**فإنه يخبر في الآية الرابعة** ، أن منهم فريقاً ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويبدّلون كلام الله ويزيلونه عن المراد به ، ليوهموا الجهلة أنه من كتاب الله ، وينسبونه إليه - عز وجل - وهو كذب على الله ، وهم يعلمون أنهم قد كذبوا ، وافتروا في ذلك كله ، والآيات تنطبق أول ما تنطبق على اليهود . وهي عامة .

المعنى الحرفي :

﴿ **ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار** ﴾ أي مال كثير ﴿ **يؤدِّه إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار** ﴾ أي بمال قليل كالدينار أو أقل ﴿ **لا يؤدِّه إليك إلا ما دمت عليه قائماً** ﴾ على رأسه ، ملازماً له ﴿ **ذلك** ﴾ أي أن عدم أداء الأمانة سببه ﴿ **بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل** ﴾ أي إن تركهم الحقوق بسبب قولهم إنهم لا يتطرق عليهم إثم ، وذم ، في شأن الذين ليسوا على دينهم ، ويفهم من هذا أنهم كانوا يستحلّون ظلم

من خالفهم في دينهم وكانوا يقولون : لم يُجعل لهم في كتابنا حرمة . ومن قرأ نصوص التلمود ، رأى من هذا الكثير . والأمّيّون في النص ، يدخل فيهم العرب أولًا ، وكل من ليس له دين كتابي ثانياً ، والنصارى وغيرهم بالنسبة لليهود . ﴿ **ويقولون على الله الكذب** ﴾ أي بادّعائهم أن ذلك في كتابهم . ﴿ **وهم يعلمون** ﴾ أنهم كاذبون . أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما قال أهل الكتاب ليس علينا في الأميين سبيل ، قال نبي الله ﷺ : « كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميّ هاتين إلا الأمانة فإنها مؤدّاة إلى البر والفاجر » . ﴿ **بلىٰ** ﴾ ، هذا إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين ، أي بلىٰ عليهم سبيل فيهم ﴿ **من أوفى بعهده واتقى** ﴾ هذه جملة مفسرة للجملة التي سدّت بلىٰ مسدّها والمعنى ، من أوفى بعهد الله واتقاه ، أو من أوفىٰ بما عاهد الله عليه واتقىٰ الله في ترك الخيانة والغدر . ﴿ **فإن الله يحب المتقين** ﴾ أي : فإن الله يحب من أوفىٰ بعهده وترك الغدر ، والخيانة . ويدخل في الوفاء ، الوفاء بعهود الله ، ومنها الوفاء بما عاهد الله عليه أهل الكتاب أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إذا بُعث . ويدخل في التقوى ، اتقاء المحارم ، واتباع طاعة الله ، وشريعته التي بُعث بها خاتم رسل الله ﷺ .

﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلًا** ﴾ أي : إن الذين يستبدلون بما عاهدوا الله عليه ، من الإيمان بالرسول المصدّق لما معهم ، وبما حلفوا به من قولهم : والله لنؤمننّ به ، ولننصرنّه ، متاعَ الدنيا ، من الترأس والارتشاء ، ونحو ذلك . ﴿ **أولئك لا خلاق لهم في الآخرة** ﴾ أي لا نصيب لهم فيها . ﴿ **ولا يكلّمهم الله** ﴾ بما يسرهم . ﴿ **ولا ينظر إليهم يوم القيامة** ﴾ بعين الرحمة. ﴿ **ولا يزكّيهم** ﴾ أى : لا يثني عليهم ، أو لا يطهّرهم من ذنوبهم ، بأن يعفو عنهم ، ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ أي : مؤلم . ﴿ **وإنّ منهم لفريقاً** ﴾ أي لطائفة ﴿ **يلوون ألسنتهم بالكتاب** ﴾ . أي : يفتلونها عن الصحيح إلى المحرّف ، والمراد باللّيِّ هنا التحريف . ﴿ **لتحسبوه من الكتاب** ﴾ . أي : لتظنّوه من الكتاب . وقد يكون المعنى : يرطنون بألسنتهم بشبه الكتاب ، لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب ، والمراد بالكتاب هنا التوراة ﴿ **وما هو من الكتاب** ﴾ . أي : وليس هو من الكتاب . ﴿ **ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾ أنهم كاذبون .

فوائــد :

١ ـــ أخرج عبد الرزاق « أن رجلًا سأل ابن عباس فقال : إنّا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمّة الدّجاجة ، والشاة ، فقال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال : نقول ليس علينا بذلك بأس ، قال : هذا كما قال أهل الكتاب : ليس علينا في الأميين سبيل ، إنهم إذا أدَّوْا الجزية ، لم تحلّ لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم » . ورواه الثوري كذلك .

٢ ـــ روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ : « من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرىء مسلم ، لقي الله - عز وجل - وهو عليه غضبان » . قال راوي الحديث : وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلًا** ... ﴾ .

وروىٰ الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « إن لله تعالى عباداً لا يكلمهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم . قيل : ومن أولئك يا رسول الله ؟ قال : متبرىء من والديه راغب عنهما ، ومتبرىء من ولده ، ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم ، وتبرّأ منهم » .

وروىٰ البخاريُّ « عن عبد الله بن أبي أوفى : أن رجلًا أقام سلعة له في السوق فحلف بالله لقد أعطي بها ما لم يعط ، ليوقع فيها رجلًا من المسلمين ، فنزلت هذه الآية ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلًا** ... ﴾ الآية .

وروى الإمام أحمد والترمذي ، بإسناد حسن صحيح عن رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : رجل منع ابن السبيل فضل ماءٍ عنده ، ورجل حلف على سلعة بعد العصر ، - يعني كاذباً ـــ ، ورجل بايع إماماً ، فإن أعطاه وفى له ، وإن لم يعطه ، لم يفِ له » .

وروى مسلم عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم » . قلت يا رسول الله : من هم خسروا وخابوا ؟ قال : ـــ وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات ـــ المسبل ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ، والمنان » .

٣ـــ مما مر معنا ، ندرك أن من أخلاق المسلمين أداء الأمانات إلى أهلها في كل الظروف ،والوفاء بالعهد ، والصدق في اليمين ، ولقد تساهل بعضهم في هذه المعاني بسبب من ظروفنا الصعبة ، وبسبب من عموميات فهموها . والذى نقوله :

إن المسلم لا يصدر في كل عمل إلا عن فتوى بصيرة من أهلها ، وحالات الضرورة والاضطرار تُقدَّر بقدرها ، وما يعتبر أمانة أوغير أمانة ، وما يعتبر حقاً للمسلم أو غير حق ، وما يعتبر إكراهاً أو غير إكراه ، وما هو ملزم من الأيمان وما ليس ملزماً بسبب من الإكراه ، إلى غير ذلك من أمور ، كله تحكمه ــ كما قلنا ــ الفتوى البصيرة من أهلها .

كلمة في السياق :

بدأ هذا القسم بدعوة أهل الكتاب إلى عبادة الله وتوحيده ، وترك الطاعة في معصيته ،وناقشهم فيما يزعمونه من ولاية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ثم بين لأهل الإيمان رغبة أهل الكتاب في إضلالهم ، وبعض طرائقهم في هذا الإضلال . وفي هذا السياق جاءت الفقرة الثالثة ، تبين ما عليه بعض أهل الكتاب من خيانة للأمانة ، إلى خيانة في العهود ، ونكث للأيمان ، وتحريف لكتاب الله ــ عز وجل ــ وبعد هذه الجولة من الحوار والبيان ، يعود السياق في الفقرة الرابعة إلى ما بدأ به القسم من قضية التوحيد والربوبية كما سنرى :

لاحظ بداية القسم :

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾

ولاحظ أن الفقرة القادمة تبدأ بقوله تعالى :

﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ﴾... ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ﴾ . ثم لاحظ صلة ذلك بالقسم الثاني الذي تحدث عن المسيح عليه الصلاة والسلام ، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من تحديد بداية القسم الثالث ونهايته ، وصحة ما ذهبنا إليه في أن القسم الأول والثاني بمثابة المقدمة للقسم الثالث ، وسيأتيك في هذا كله مزيد بيان .

ومن استمرارية القسم الثالث من خلال ما رأيناه من صلةٍ بين بدايته والفقرة الرابعة التي ستأتي معنا ، ندرك أن ما مر معنا حتى الفقرة الرابعة له صلة بقضايا التوحيد ،

والطاعة في المعروف ، وتثبيت أهل الإيمان ، وهي القضايا التي تحدثت عنها الآية الأولى في هذا القسم ، والتى ختمت بقوله تعالى ﴿ **فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾

الفقرة الرابعة

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

☆ ☆ ☆

يلاحظ كيف أن هذه الفقرة ، تخدم سياق هذا القسم الذي يدعو إلى عدم اتخاذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً ، كما تلاحظ الصلة بين التوحيد والإسلام ، كما يلاحظ كيف أن الفقرة قررت أن دين النبيين جميعاً هو الإسلام ، وسنرى أهمية هذه الملاحظات بالنسبة للسياق .

المعنى العام :

ــ **في الآية الأولى** ، يبين الله ــ عز وجل ــ أنه ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب

والحكمة والنبوة ، أن يقول للناس اعبدوني من دون الله، أو اعبدوني مع الله . فإذا كان هذا لايصلح لنبي ولا لمرسل ، فهو حتماً لا يصلح لغيرهم بطريق الأولى . وإنما يدعو الرسل الناسَ من أجل أن يكونوا علماء حكماء ، حلماء ، أتقياء ، وذلك مقتضى تعلم الكتاب ، وتعليمه .

وفي الآية الثانية ، يبين الله ــ عز وجل ــ أنه : كما لا ينبغي للأنبياء والرسل أن يدعوا الناس لعبادتهم ، كذلك ما ينبغي لهم أن يأمروا أحداً بعبادة غير الله ، لا ملَك مقرّب ، ولا نبي مرسل ، لأنه لو فعل النبي هذا لكان داعياً للكفر ، والأنبياء دعاة إلى الإيمان . ومن هاتين الآيتين ، نفهم ارتباط هذه الآيات بالسياق ، إذ بداية هذا السياق ، كما قلنا : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً** ... ﴾

وفي الآية الثالثة ، يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي من آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام ، أنه مهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة ، وبلغ أيّ مبلغ ، ثم جاء رسول لله من بعده ليؤمننّ به ، ولينصرنّه ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ، ونصرته . فإذا ربطنا هذا بالسياق العام ، وتذكرنا الآيتين اللتين جاءتا من قبل وهما ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين** ﴾ ثم تذكرنا ما ورد في القسم الثاني في شأن المسيح عليه السلام . ندرك صلة هذا القسم بالقسم الأول وبالقسم الثاني .

ــ **وفي الآية الرابعة** ، يبيّن الله – عز وجل – أنّه من تولى من الرُّسل – وحاشاهم – عن هذا العهد والميثاق – فإنه هو الفاسق . فإذا كان المرسلون هذا شأنهم إن تولوا فما بال غيرهم ممن لا يتبعون الرسول الخاتم .

ــ **وفي الآية الخامسة** ، يبيّن الله – عزّ وجل – أنّه ما كان للرسل إلا أن يكونوا كذلك ، لأنّ مقتضى الإسلام الاستسلام . فإذا كانت السموٰات والأرض مستسلمة ، فما كان لأحد ألا يكون مسلماً . والرسل سادة المسلمين ، وهم أعرف الناس بالله ، وأخوفهم منه ، لأنهم عارفون أنهم إليه راجعون .

وإذا تذكرنا أن المقطع الثاني من القسم الأول مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ ندرك كيف أن السياق في سورة آل عمران يمضي على نسق واحد .

المعنى الحرفي :

﴿ **ما كان لبشر** ﴾ أي ما ينبغي لبشر ﴿ **أن يؤتيه الله الكتاب والحكم** ﴾ . تحتمل كلمة (الحكم) ثلاثة معانٍ : إما فصل القضاء ، وإمّا الحكمة ، وإمّا السنّة المفسِّرة للكتاب . ﴿ **والنبوَّة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله** ﴾ قال الحسن البصري : لا ينبغي لمؤمن أن يأمر الناس بعبادة غير الله . ﴿ **ولكن كونوا ربانيين** ﴾ الرباني : منسوب إلى الرب بزيادة ألف ونون ، وهو الشديد التّمسك بدين الله ، وطاعته ، فصار المعنى : ولكن يقول - من آتاه الله النبوة للناس - : كونوا متمسكين بدين الله ، وطاعته ، وهذا يقتضي علماً ، وفقهاً ، وحلماً . ولذلك فسّر ابن عباس الربانيين بأنهم : العلماء الحكماء الحلماء . وفسّرها الحسن : بأهل العبادة ، والتقوى . والجميع تقتضيه النِّسبة ﴿ **بما كنتم تعلِّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون** ﴾ . أي : كونوا ربانيين بسبب كونكم معلِّمين دارسين ، دلّ النصّ على أن الرّبانية التي هي : قوّة التمسّك بطاعة الله مسبَّبَة عن العلم والتعليم ، وكفى به دليلًا على خيبة سعي من أجهد نفسه ، وكدَّ روحه في جمع العلم ، ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل . ﴿ **ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنّبيين أرباباً** ﴾ . أي : ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله ، لا نبي مرسل ، ولا ملَك مقرّب . ﴿ **أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون** ﴾ . أي : أمِنَ المعقول أن يدعوكم إلى الكفر ، بأن يدعوكم إلى عبادة أحد مع الله ، بعد إذ تستجيبون له بالإسلام لله رب العالمين .

فوائــد :

١ ــ سبب نزول الآيتين ، ما أخرجه ابن إسحق عن ابن عباس قال : « قال أبو رافع القرظي ، حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ، ودعاهم إلى الإسلام قالوا : أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني - يقال له الرئيس -: أو ذاك تريد منا يا محمد ؟ وإليه تدعونا ؟ فقال رسول الله ﷺ : معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو أن نأمر بعبادة غير الله ، ما بذلك بعثني ، ولا بذلك أمرني . فأنزل الله في ذلك : ﴿ **ما كان**

لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي ﴾... إلى قوله ... ﴿ **أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون** ﴾ .

٢ ــ فسّر الرّسول ﷺ اتخاذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله : بأنّهم أحلّوا لهم الحرام ، وحرّموا عليهم الحلال ، فاتّبعوهم كما سنرىٰ في سورة براءة . فكلّ من تابع إنساناً أو حزباً في تحريم حلال أو تحليل حرام فقد اتخذه ربّاً

٣ ــ دلّ قوله ﴿ **بما كنتم تعلّمون الكتاب ، وبما كنتم تدرسون** ﴾ أن العلم والتعليم صفتان رئيسيتان من صفات الرباني ، فلابد إذن ليكون الإنسان ربانياً ، أن يكون شديد التمسك بدين الله وشرعه ، وطاعة ربه ، وأن يجتمع له مع ذلك تعليمه الكتاب وتعلمه . ودلّ قوله تعالى : ﴿ **بما كنتم تعلّمون الكتاب** ﴾ أن الشيء الرئيسي الذي يعلّمه الربّانيوّن هو الكتاب .

﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين** ﴾ أي أخذ العهد عليهم ﴿ **لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنُنَّ به ولتنصرنّه** ﴾ يحتمل معنيين الأول : لمهما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثمَّ جاءكم رسول لتؤمنُنَّ به ، ولتنصرنّه . والثاني : أخذ الله ميثاقهم لتؤمنن بالرسول ، ولتنصرنه لأجل أني آتيتكم الكتاب والحكمة ، أي لأجل إيتائي إياكم الكتاب والحكمة ، عليكم أن تؤمنوا بالرّسول وتنصروه . ﴿ **قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري** ﴾ الإصر : العهد الثّقيل لأنه مما يؤصر ، أي يُشدّ ويعقد فصار المعنى : أأقررتم بذلك وقبلتم عهدي الثقيل على ذلك ؟ دلّ ذلك على أنّ موضوع المتابعة بالحقِّ والخير أمر شاقّ لا يستطيعه إلا من زكّى الله نفسه . ﴿ **قالوا أقررنا قال فاشهدوا** ﴾ أي فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ، ﴿ **وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ على ذلك من إقراركم وتشاهدكم ، وهذا توكيد عليهم ، وتحذير من الرُّجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض . ﴿ **فمن تولى بعد ذلك** ﴾ أي بعد هذا الميثاق فنقض العهد بعد قبوله ، وأعرض عن الإيمان بالنّبيّ الجديد . ﴿ **فأولئك هم الفاسقون** ﴾ أي المتمرِّدون الكفرة . ﴿ **أفغير دين الله يبغون** ﴾ أي لو أنهم لم يبايعوا من أرسل الله إليهم من الرسل الذين أخذ العهد عليهم بمتابعتهم ، فإنهم في هذه الحالة لايكونون على دين الله ، ولايكونون مسلمين مع أنه ، ﴿ **وله أسلم من في السمٰوات** ﴾ من الملائكة ، ﴿ **والأرض** ﴾ من الإنس والجن وغيرهما . ﴿ **طوعاً وكرهاً** ﴾ فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله ، والكافر مستسلم لله كرهاً ، فإنه تحت

التسخير والقهر والسلطان العظيم ، الذي لا يخالَف ولا يمانَع ﴿ **وإليه يرجعون** ﴾ . أي : يوم المعاد فيجازي كلًّا بعمله .

فوائد :

١ ـ قال علي بن أبي طالب وابن عباس : « مابعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً ﷺ وهو حي ليؤمننّ به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بُعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمنُنَّ به ولينصرُنَّه » .

٢ ـ روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن ثابت قال : « جاء عمر إلى النبي ﷺ وقال : يارسول الله إني مررت بأخ لي يهودي من قريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله بن ثابت: قلت ألا ترى مابوجه رسول الله ﷺ . فقال عمر : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولًا ، قال : فسُرِّي عن الرّسول ﷺ وقال : والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظِّي من الأمم وأنا حظُّكم من النّبيّين » .

٣ ـ روى أبويعلى والبزّار عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « لاتسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنّهم لن يهدوكم وقد ضلّوا ، وإنّكم إمّا أن تصدِّقوا بباطل ، وإمّا أن تكذِّبوا بحق ، وإنّه والله لو كان موسى حيّاً بين أظهركم ماحلّ له إلا أن يتّبعني » . قال ابن كثير : وفي بعض الأحاديث : « لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتّباعي » .

كلمة في السياق :

١ ـ في القسم السابق على هذا القسم ، يقرر الله بشريّة المسيح عليه السلام ، ثم يأتي هذا القسم ، فيأمر الله رسوله أن يدعو أهل الكتاب إلى التّوحيد ، ونبذ ربوبيّة البشر ، وفي حالة توليهم أن نشهد أننا مسلمون ، وجاءت بعد ذلك فقرة ، تقيم الحجة عليهم من خلال مناقشتهم في دين إبراهيم ، وأننا نحن على دينه ، وفقرة حول رغبات أهل الكتاب في إضلالنا ، وتخطيطهم لذلك وأسبابه ، وتواصيهم بالباطل فيما بينهم ، والرد عليهم في هذه الاتجاهات التي تنافي التوحيد . ثمَّ تأتي فقرة تبيِّن بعضاً من أخلاقهم التي تتنافى مع دين الله ، مما يدلّل على عدم توحيدهم الله في الألوهية والربوبية ، ثم تأتي

الفقرة التي مرّت معنا أخيراً لتبيِّن : أنّ دعوة الرسل إنّما هي التوحيد ، وهذا ينافي اتخاذهم المسيح رباً . وتبيِّن أنّ دعوة الرسول السابق ، تكمِّلها رسالة الرَّسول اللاحق ، وعلى السابق أن يتابع اللاحق وأن هذا هو الإسلام .

٢ - بعد أن عرفنا من السياق ماهيّة الإسلام ، تأتي الفقرة الخامسة آمرة رسول الله ﷺ أن يعلن إيمانه بالله ، وبرسله ، وبكل وحي ، وأن يعلن إسلامه لله ، ثم يمضي السياق كما سنرى ، ليبين أن الله - عز وجل - لايقبل إلا الإسلام ديناً ، فلنتذكر على ضوء ذلك ما مر معنا من قبل : في القسم الأول من سورة آل عمران أن الدِّين عند الله هو الإسلام .

وإذا كان بعض أهل الكتاب يتمسكون بمعان باطلة فى شأن المسيح عليه الصلاة والسلام ، تصرفهم عن الدخول في الإسلام فقد جاء القسم الثاني مبيّنا حقيقة شأن المسيح عليه السلام ، ثم جاء القسم الثالث ليفتح حوارا شاملا مع أهل الكتاب ليدخلوا فى الإسلام ، ومن ثم قلنا إن القسم الأول ، والقسم الثاني جاءا بمثابة مدخلين للقسم الثالث .

٣ - قلنا : إن سورة آل عمران تفصِّل في مقدمة سورة البقرة وامتداداتها في السورة ، وقد رأينا أنه قد ورد في مقدمة سورة البقرة قوله تعالى ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ ورأينا في سورة البقرة قوله تعالى ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم ...** ﴾ .

ونلاحظ أن الفقرة الخامسة من القسم الثالث ، مبدوءة بقوله تعالى ﴿ **قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ...** ﴾ فإذا رفض بنو إسرائيل الأمر ، فإنَّ رسول الله ﷺ والمؤمنين يقيمونه . وهكذا تمضي السورة في سياقها الخاص مفصِّلة لمحورها في سورة البقرة .

« الفقرة الخامسة »

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

ملاحظة حول السياق :

لاحظنا أن سورة آل عمران ، تقابل مقدمة سورة البقرة ، ولاحظنا أن الآيات الأولى من مقدمة سورة البقرة تصف المتقين ، ثم تأتي آيتان في وصف الكافرين . ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

ونلاحظ في سورة آل عمران ، أنه كثيراً ما يعقب بعض الآيات آيات مبدوءة بقوله تعالى : إن الذين كفروا .. أو إن الذين يكفرون .. وفي نهاية هذه الفقرة نلاحظ ورود آيتين مبدوءتين بقوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا ...** ﴾ .

وفي القسم الأول من سورة آل عمران الذي يقابل في سورة البقرة ﴿**الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين**﴾ ورد في المقطع الأول منه قوله تعالى ﴿ **إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار** ﴾ وورد في المقطع الثاني منه ﴿ **إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ...** ﴾ .

ثم لا نجد ﴿ **إن الذين كفروا ..** ﴾ ترد إلا في نهاية هذه الآيات التي ذكرناها ، فإنها ترد مرتين فلنتذكر الآن ما يلي : إن هذا القسم الذي بين أيدينا ، يقابل في مقدمة سورة البقرة الآية ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ فإذ تتحدّث آيات هذا القسم عن الإيمان فلا عجب أن يرد حديث عما يقابله .

المعنى العام للآيات :

في الآية الأولى ، يأمر الله - عزّ وجل - أفراد هذه الأمة بالأمر لرسولها ، أن يؤمنوا بالله وبكل وحي أنزل ، وبكل كتاب أنزل ، وبكل نبي أرسل . فالمؤمنون من هذه الأمة يصدّقون بما أنزل من عند الله ، وبكل نبي بعثه الله ، لا يفرِّقون بين أحد منهم وهم في هذا كله مسلمون لله .

ــ **وفي الآية الثانية** ، يبين تعالى أنّه لا يقبل إلّا الإسلام ديناً . هذا الإسلام الذي مظهره ما مر في الآيات السابقة . فمن سلك طريقاً سوى ما شرعه الله تعالى فلن يقبل منه ، وهو من الذين وقعوا في الخسران يوم القيامة .

ــ وبعد أن أمر الله أفراد هذه الأمة بالإيمان والإسلام ، هدّد من يرتدّ منهم بعد إيمانه ومعرفته الحجج والبراهين . إنّ هؤلاء على مقتضى العدل لا يستحقون هداية الله بعد ما تلبّسوا به من العمى . وبيَّن أنّ جزاء هؤلاء اللّعنة من الله والملائكة والنّاس . وأنهم خالدون في هذه

اللعنة ، وأنّ العذاب لا يفتر عنهم ساعة واحدة، ثمّ فتح لهؤلاء باب الأمل على مقتضى الفضل بأنهم إذا تابوا بعد ردّتهم وأصلحوا، فإن رحمة الله وغفرانه يصلان إليهم. ذكرت هذه المعاني في الآيات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة . **وفي الآية السابعة** ، أكد الله تهديدهُ ووعيده لمن كفر بعد إيمانه ، ثم ازداد كفراً واستمر عليه إلى الممات. أن هؤلاء لن تقبل توبتهم عند الممات . ثم وصفهم بأنهم الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي .

وفي **الآية الثامنة** : عمّم الله عز وجل مبيناً استحقاق العذاب لكل كافر مات على الكفر ، وأنه لا ينقذه من عذاب الله شيء ، ولو كان قد أنفق ثقل الأرض ذهبا ، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهبا ، وليس لأحد منهم نصير ينقذهم من عذاب الله ، ولا يجيرهم من أليم عقابه ، وسنرى المذاهب في أنواع من الناس ماتوا على الكفر ولم تبلغهم دعوة الله عز وجل .

المعنى الحرفي :

﴿ **قل آمنا** ﴾ هذا أمر لرسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعمن معه بالإيمان بما سيأتي في الآية ، ولذا وُحّد الضمير في قل ، وجُمع في آمنا . وهو أمر لكل فرد من أمته . وقد خوطبت الأمة كلها بمثل هذا في سورة البقرة بلفظ الجمع قولوا . ﴿ **بالله** ﴾ بوجوده وصفاته ، وأسمائه ، وأفعاله ، وربوبيته ، وألوهيته . ﴿ **وما أنزل علينا** ﴾ : يعني القرآن والسنّة . ﴿ **وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب** ﴾ أي من الصحف والوحي ﴿ **والأسباط** ﴾ أي أولاد يعقوب ، وذرياتهم من الأنبياء ﴿**وما أوتي موسىٰ وعيسىٰ** ﴾ أي التوراة والإنجيل . ﴿ **والنبيون** ﴾ جملة . ﴿ **من ربهم** ﴾ أي آمنا بما أنزل عليهم من عند ربهم . ﴿ **لا نفرّق بين أحد منهم** ﴾ في الإيمان كما فعلت اليهود والنصارى وغيرهم ، بل نؤمن بجميعهم . ﴿ **ونحن له مسلمون** ﴾ أي ونحن لله موحّدون مستسلمون ، مخلصون له أنفسنا ، لا نجعل له شريكاً في عبادتنا وعبوديّتنا ، فهو إلهنا وربنا . ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً** ﴾ أي : ومن يطلب ديناً سوى الإسلام ، المتمثل بإسلام الوجه لله ، وبالتسليم له ولشرعه الذي بعث به رسله . والذي كانت صيغته الأخيرة ما أنزله على محمد ﷺ ﴿ **فلن يقبل منه** ﴾ ذلك . ﴿ **وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ الذين خسروا أنفسهم ، وأعمالهم . ولعل هذه الآية ، أوضح دليل على ما ذهبنا إليه في أنّ هذا القسم ، يفصّل في قوله تعالى . ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ من مقدمة سورة البقرة .

فائــدة :

روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « تجيء الأعمال يوم القيامة ، فتجيء الصلاة فتقول : يارب أنا الصلاة فيقول : إنك على خير ، وتجيء الصدقة . فتقول : يارب أنا الصدقة فيقول : إنك على خير ، ثم يجيء الصيام فيقول : يارب أنا الصيام فيقول : إنك على خير . ثم تجيء الأعمال ، كل ذلك يقول الله تعالى : إنك على خير ، ثم يجيء الإسلام فيقول يارب : أنت السلام وأنا الإسلام فيقول الله تعالى : إنك على خير ، بك اليوم أمنع وبك أعطي » .

﴿ **كيف يهدي الله** ﴾ أي لا يهدي الله . ﴿ **قوماً كفروا بعد إيمانهم** ﴾ أي : ارتدوا بعد دخولهم في الإسلام أو بعد أن كانوا مؤمنين . ﴿ **وشهدوا أن الرسول حق** ﴾ وشهدوا أن محمداً رسول الله حقٌّ . ﴿ **وجاءهم البينات** ﴾ أي : قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به رسول الله من الله ومن ذلك القرآن وسائر المعجزات . ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ أي : من شأن الله وجلاله أنه لا يهدي الظّالمين المُصرِّين على البقاء على طريق الكفر . ﴿ **أولئك** ﴾ أي الذين ارتدوا بعد إيمانهم ، ﴿ **جزاؤهم أنّ عليهم لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين خالدين فيها** ﴾ أي في اللعنة﴿ **لا يخفف عنهم العذاب** ﴾ أي لا يُفترّ عنهم . ﴿ **ولا هم ينظرون** ﴾ أي لا يؤخرون عن العذاب ساعة واحدة . ﴿ **إلا الذين تابوا من بعد ذلك** ﴾ أي من بعد الكفر والارتداد ﴿ **وأصلحوا** ﴾ ما أفسدوا أو دخلوا في الصلاح . ﴿ **فإن الله غفور** ﴾ لكفرهم . ﴿ **رحيم** ﴾ بهم .

فائدة في سبب النزول :

نزلت هذه الآيات في رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ، ولحق بالمشركين ، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة ؟ فنزلت فأرسل إليه فأسلم . رواه النسائي والحاكم وابن حبان .

﴿ **إنّ الذين كفروا بعد إيمانهم** ﴾ أي ارتدوا ﴿ **ثم ازدادوا كفراً** ﴾ بأن أصروا على الكفر ، واستمروا عليه وطغوا وبغوا . ﴿ **لن تقبل توبتهم** ﴾ أي: إيمانهم عند الموت وهو إيمان اليأس . ﴿ **وأولئك هم الضالون** ﴾أي: الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي .

فائدة في سبب النزول :

ذكر البزار بإسناد جيد عن ابن عباس أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا ، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية .

﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار** ﴾ أي وماتوا كافرين . ﴿ **فلن يقبل من أحدهم ملءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به** ﴾ أي لن يقبل منهم فدية . ﴿ **أولئك لهم عذاب أليم** ﴾ أي مؤلم . ﴿ **وما لهم من ناصرين** ﴾ أي معينين يرفعون عنهم العذاب .

فائــدة :

روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول : نعم ، فيقول الله : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك » .

وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له : يا ابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أي رب خير منزل فيقول : سل وتمنَّ ، فيقول ما أسأل ولا أتمنىّ إلّا أن تردّني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرات ، لما يرى من فضل الشهادة . ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له : يا ابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : يارب شر منزل ، فيقول له : أتفتدي مني بطلاع الأرض ذهباً ؟ فيقول : أي رب نعم فيقول : كذبت ، وقد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل فيردّ إلى النار » .

كلمة في السياق :

١ ـــ أثناء الكلام عن سياق سورة البقرة ، قلنا : إن الحوار مع بني إسرائيل ينتهي بآية البر مروراً بمقطع إبراهيم عليه السلام ، ومقطع القبلة ، ومقطع الصبر والصلاة والتوحيد ، ثم بالمقطع الثاني من القسم الثاني من سورة البقرة ، وهو المقطع الذي نهايته آية البر ، ونلاحظ هنا أن الفقرة التي ستأتي وهي الفقرة الأخيرة في هذا القسم من سورة آل عمران ، والتي سيغلق في نهايتها الحوار مع بني إسرائيل ، تبدأ بالكلام عن البر ، وتثني بالكلام عما أحله الله لبني إسرائيل ، وتثلث بالكلام عن البيت ، ثم تنتهي

بآيتين كل منهما مبدوءة بقوله تعالى ﴿ **قل يا أهل الكتاب** ﴾ وهي نفس البداية التي بُدئت بها الآية الأولى من هذا القسم .

٢ ــ قلنا أثناء الكلام عن سورة البقرة : إن آية البر لخّصت كل ماله علاقة في التقوى مما سبق الحديث عنه ، لتكون جسراً للكلام عن معان جديدة في التقوى ، ثم جاء بعدها أمور منها الحج ، ونلاحظ هنا أن آيات الحج تأتي في الفقرة المبدوءة بالكلام عن البر ، وهكذا يدلنا السياق الخاص لسورة آل عمران على الروابط التي تربط بين آيات سورة البقرة .

٣ ــ إنه كامتداد لقوله تعالى في مقدمة سورة البقرة ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ جاء الحوار في سورة البقرة مع بني إسرائيل ، وكان من شُبه بني إسرائيل قضية النسخ ، وقضية القبلة ، ويأتي في هذه الفقرة هنا ما يدل على أن النَّسخ كان موجوداً من قبل ، وأن البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام هو الأول .

وهكذا نرى كيف أن سورة آل عمران تفصل من خلال سياقها الخاص فى مقدمة سورة البقرة ، وامتدادات معاني هذه المقدمة فى سورة البقرة ، وبالنسبة للسياق الخاص لسورة آل عمران نقول بين يدي الفقرة السادسة والأخيرة من القسم الثالث :

٤ ــ إنه بعد الأمر بالإيمان ، وتهديد من يرتد ، وتبيان جزاء من يموت على الكفر تأتي فقرة فيها حضّ على الإنفاق ، وارتباط الإنفاق بالإيمان واضح ، وفيها حديث عن الحج وفرضيته ، والحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام ، فالصلة بينه وبين الإنفاق واضحة ، ويأتي بين الكلام عن الإنفاق والكلام عن الحج حديث حول ما أحل الله لبني إسرائيل في الأصل ، من قبل أن يحرم يعقوب - عليه السلام - على نفسه ما حرّم ، وتلك هي شريعة إبراهيم عليه السلام التي جاءت هذه الشريعة موافقة لها مما يؤكد أننا أولى بإبراهيم عليه السلام .

« الفقرة السادسة والأخيرة من القسم الثالث »

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

☆ ☆ ☆

المعنى العام :

في الآية الأولى : بيان أن تحصيل حقيقة البر بأن يكون الإنسان بَرّاً لا يكون إلا بالإنفاق مما يحبه الإنسان ويؤثره ، طعاماً أو غيره ، ثم بيّن الله - عزّ وجلّ - أنّ أيّ نفقة ننفقها فإن الله يعلم ذلك ويجازينا عليها . فالربانية وكمال العبودية في تحقق الإنسان بالبر ، وهذا لا يكون إلا بالإنفاق مما يحبه الإنسان .

وإذا كان مظهراً من مظاهر اتخاذ غير الله رباً تحريم الحلال وتحليل الحرام ، فقد ذكر الله في هذا السياق موضوعاً متعلقاً بالحل والحرمة في أهم قضية يكون فيها التحليل والتحريم ، قضية الطعام . فقد بين الله - عز وجل - أن الطعام كله كان حلالًا لبني إسرائيل ، إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ، من لحوم الإبل وألبانها ، ثم نزلت التوراة فحرّمت ما حرّمت . وفي ذلك إشارة إلى موضوع النسخ الذي تنكره اليهود ، وهو واقع في شريعتهم وعندهم ، ثم تحدّاهم الله - عز وجل - أن يأتوا بالتوراة ليثبتوا خلاف ما يذكره رسول الله ﷺ في هذا الشأن ، ثم بيّن الله - عز وجل - أنه من كذب على الله فإنه هو الظالم ، وأي ظلم أكبر من الكذب على الله - عز وجل - .

وفي الآية الرابعة يأمر الله - عز وجل - رسوله أن يقول : صدق الله فيما أخبر به ، وفيما شرعه في القرآن ، وبناء عليه فاتّبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ فإنّه الحق لاشك فيه ، ولا مرية . وهي الطّريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ، ولا أبيَن ولا أوضح . ثم بين أن إبراهيم لم يكن من المشركين . وفي ذكر هذا هنا دليل على ارتباط هذه الآيات في أول القسم حيث ذكر إبراهيم . وإذ ذكر إبراهيم في هذا القسم كثيراً ، وذكرت ملته ، والحج إلى مكة مرتبط بإبراهيم وملته ، يخبر تعالى أنّ أوّل بيت وضع لعموم الناس لعبادتهم ، ونسكهم ، يطوفون به ، ويصلون إليه ، ويعتكفون عنده ، هو الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام ، والذي يزعم كلّ من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه ، ولا يحجّون إلى البيت الذي بناه بأمر من الله ، ودعا الناس إلى حجّه ، وقد جعله الله مباركاً وهداية للعالمين . هذا البيت الذي فيه علامات واضحات ، لا تلتبس على أحد أنّه من بناء إبراهيم ، وأنّ الله عظّمة وشرّفه ، من هذه الآيات مقام إبراهيم الذي قام عليه يوم بنى الكعبة ، وهو حجر

عليه آثار قدميه . ومن هذه الآيات أمْن الخائف إذا دخله من كل سوء ، هذا البيت فرض الله - عزّ وجلّ - حجّه على المستطيع من الناس . ومن يجحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه .

ثم يختم هذا القسم الذي يمكن أن يكون عنوانه الدعوة إلى ربوبية الله وتوحيده بآيتين كل منهما مبدوءة بـ ﴿ **قل يا أهل الكتاب** ... ﴾ كما بدأ القسم كله . وفي الآيتين تعنيف من الله تعالى لمن لم يدخل في الإسلام من أهل الكتاب على عنادهم للحق ، وكفرهم بآيات الله ، وصدّهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان ، باذلين جهدهم وطاقتهم في ذلك ، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ حق من الله ، ومع ما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين ، والسادة المرسلين صلوات الله وسلامة عليهم أجمعين ، مما بشّروا به ، ونوّهوا من ذكر النّبي الأمّي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، ورسول رب الأرض والسماء ، وقد توعّدهم الله على ذلك وأخبر بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ، ومعاملتهم الرسول المبشر به بالتكذيب والجحود والعناد . فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون . وسيجزيهم على ذلك .

المعنى الحرفي :

﴿ **لن تنالوا البر** ﴾ أي لن تبلغوا حقيقة البر ، أو لن تكونوا أبراراً أو لن تنالوا بر الله وهو : ثوابه وجنّته ، ﴿ **حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها وتؤثرونها . قال الحسن : « كل من تصدق ابتغاء وجه الله بما يحبه ولو تمرة فهو داخل في هذه الآية » ولا وصول إلى المطلوب إلا بإنفاق المحبوب . ﴿ **وما تنفقوا من شيء** ﴾ طيب أو غير طيب ، ﴿ **فإن الله به عليم** ﴾ فيجازيكم بحسبه .

فوائـد :

١ - روى الإمام أحمد ، والبخاري ومسلم عن أنس بن مالك : كان أبو طلحة أكثر الأنصار في المدينة مالًا . وكان أحب أمواله إليه بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال أنس : فلما نزلت

﴿ **لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ قال أبو طلحة : يا رسول الله إن الله يقول : ﴿ **لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ وإن أحبَّ أموالي إليَّ بيرحاء ، وإنّها صدقة لله أرجوبها برّها وذخرها عند الله تعالى ؛ فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال النبي ﷺ : « بخ بخ ، ذاك مال رابح ، ذاك مال رابح ، وقد سمعت ، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين » . فقال أبو طلحة : « أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه » .

٢ ــ وفي الصحيحين : أنّ عمر قال : يا رسول الله ، لم أصبْ مالًا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر ، فما تأمرني به ؟ قال : « احبس الأصل ، وسبِّل الثمرة » وهذا أصل في الوقف .

٣ ــ وروىٰ البزّار : « قال عبد الله – أي ابن عمر – حضرتني هذه الآية : ﴿ **لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ فذكرتُ ما أعطاني الله فلم أجد أحب إليّ شيئاً من جارية لي رومية ، فقلت : هي حرّة لوجه الله فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها » يعني تزوجتها .

﴿ **كل الطعام كان حِلًا لبني إسرائيل** ﴾ أي كل المطعومات التي فيها النّزاع – فإنّ من الأطعمة ما هو حرام قبل ذلك كالميتة والدم – كانت حلالًا لبني إسرائيل . ﴿ **إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنزَّل التوراةُ** ﴾ والذي حرّم إسرائيل على نفسه هو لحوم الإبل وألبانها ، وكانا أحب الطعام إليه . فالمطاعم كلها كانت لم تزل حلالًا لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة ، سوى ما حرّم إسرائيل على نفسه . فلمّا نزلت التوراة على موسىٰ ، حُرِّم عليهم فيها لحوم الإبل وألبانها ، لتحريم إسرائيل ذلك على نفسه .

﴿ **قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين** ﴾ . لأن التوراة ناطقة بهذا .

أمر رسول الله ﷺ بأن يحاجهم بكتابهم ، ويبكِّتهم بما هو ناطق به من أن تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم ، لا تحريم قديم كما يدَّعونه . وفيه دليل على جواز النسخ إذ حرم على بني إسرائيل فيما بعد أشياء أخرى ، فلو لم يجز النسخ كما يدعي اليهود ، لم يكن هذا . ﴿ **فمن افترى على الله الكذب** ﴾ بزعمه أن ذلك كان محرماً في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام . ﴿ **من بعد ذلك** ﴾ أي من بعد ما قامت الحجة القاطعة . ﴿ **فأولئك هم الظالمون** ﴾ أي المكابرون الذين لا ينصفون من

أنفسهم ، ولا يلتفتون إلى البينات . ﴿ **قل صدق الله** ﴾ في إخباره ، وفيه تعريض بكذبهم أي ثبت أن الله صادق فيما أنزل ، وأنتم الكاذبون . ﴿ **فاتّبعوا ملة إبراهيم حنيفاً** ﴾ . أي : مائلًا عن الأديان الباطلة . أي إذ ثبت أن الله صادق فيما أخبر به بهذا القرآن ، فاتبعوا ملة إبراهيم التي هي ملة الإسلام التي عليها محمد عليه السلام ، ومن آمن معه حتى تتخلصوا من انحرافاتكم ، وتعذيب أنفسكم .

﴿ **وما كان من المشركين** ﴾ أي كونوا مُوَحّدين مثله . وهذا دليل على أن هذه الآيات مرتبطة بسياق بداية القسم ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء** ﴾ .

فوائد :

١ - روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : حضرت عصابة من اليهود إلى نبيِّ الله ﷺ فقالوا : حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهنَّ إلا نبيٌّ . قال : « سلوني عما شئتم ، ولكن اجعلوا لي ذمّة الله وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدَّثتكم فعرفتموه لَتُتَابِعُنّي على الإسلام » قالوا : فذلك لك ، قالوا : أخبرنا عن أربع خلال . أخبرنا أي الطعام حرّم إسرائيل على نفسه ؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل ؟ ، وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ ، وأخبرنا بهذا النبّي الأمّي في النّوم ، ومن وليُّه من الملائكة ؟ . فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعُنَّه فقال : « أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أنّ إسرائيل مرض مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر لله نذراً لئن شفاه الله من سقمه ليحرِّمنَّ أحبَّ الطعام والشراب إليه ، وكان أحبّ الطعام إليه لحم الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها ؟ » فقالوا : اللهم نعم . فقال: اللهم اشهد عليهم . وقال : « أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ ، وماء المرأة أصفر رقيق ، فأيُّهما علا كان له الولد والشّبه بإذن الله ، إن علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة كان ذكراً بإذن الله ، وإن علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل كان أنثى بإذن الله ؟ قالوا : نعم قال : اللهم اشهد عليهم ، قال : وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبيّ الأمّي تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟ قالوا : اللهم نعم قال : اللهم اشهد عليهم ، قال : وإن وليّي جبريل ، ولم يبعث الله نبيّاً قطُّ إلا وهو وليّه قالوا : فعند ذلك نفارقك ، ولو كان وليّك غيره لتابعناك ، فعند ذلك قال الله : ﴿ **قل من كان عدواً لجبريل ...** ﴾ **الآية** .

أقول : إنّ لي في فهم علوّ ماء الرجل على ماء المرأة أو العكس اتجاهاً - الله أعلم بصحته - : هو أن المراد بالعلوّ هنا الغلبة فإذا كان للحيوان المنوي غلبة على بويضة الأنثى حدث الإذكار ، وإذا كانت لبويضة الأنثى غلبة على الحيوان حدث التأنيث والأمر غيب وهذا فهم .

٢ - ذكر ابن كثير مناسبتين لذكر آية ﴿ **كل الطعام كان حِلًا لبني إسرائيل** ﴾ مع ما قبلها . المناسبة الأولى : كون إسرائيل قد حرّم على نفسه أحبّ الطعام فلذلك مناسبة مع قوله تعالى : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ... ﴾ المناسبة الثانية : أن الآية لها صلة بالنسخ ، وهو جزء مما ناقش الله به بني إسرائيل ، إذ إن بني إسرائيل ادَّعوا عدم جواز النسخ ، وقد ذكر ابن كثير مجموعة مما حدث فيه النسخ مما هو ثابت في التوراة ، وقد أشرنا إلى هذا الموضوع في أكثر من مكان .

﴿ **إنّ أوّل بيت وُضع للناس** ﴾ أي إنّ أوّل بيت وضَعه الله متعبداً للناس ، ﴿**للّذي ببكة** ﴾ أي للبيت الذي ببكة ، وهو الكعبة ، وبكة من أسماء مكة . ﴿ **مباركاً** ﴾ أي : كثير الخير لما يحصل للحجاج والمعتمرين من الثواب وتكفير السيئات . ﴿ **وهدى للعالمين** ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدهم وبالقيام بحقه يهتدون ، وبمزاولة ما أمرهم الله به من شأنه ، يرزقهم الله الهداية . ﴿ **فيه آيات بيّنات** ﴾ أي : علامات واضحات لا تلتبس على أحد أنه من بناء إبراهيم ، وأن الله عظّمه وشرّفه . ﴿ **مقام إبراهيم** ﴾ وهو الحجر الذي قام عليه أثناء بناء الكعبة ، فظهرت فيه آثار قدميه ، فهو آية بمنزلة آيات كثيرة لاشتماله على آيات كثيرة لظهور شأنه ، وقوة دلالته على قدرة الله تعالى ، ونبوّة إبراهيم عليه السلام من تأثير قدمه في حجر صلد ، فتأثير القدم في الصخرة الصماء آية ، وغوصه فيها إلى الكعبين آية ، وإلانة بعض الصخرة دون بعض آية ، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة . ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ هذه هي الآيةالثانية التي تتضمّن آيات أي وأمن داخله ، وما أكثر من حصَّل الأمن به ، حتى يوم لايكون أمن كأيام العرب في الجاهلية ، وفي ذلك آيات ، وهذا الأمن آية كذلك لإبراهيم إذ إنه كان ببركة دعائه : ﴿ **رب اجعل هذا البلد آمنا** ﴾ (سورة إبراهيم) .

وهناك اتجاه آخر في تفسير قوله تعالى : ﴿ **فيه آيات بينات مقام إبراهيم** ﴾ وهو أنَّ مقام إبراهيم هو الحرم كله ، وفي الحرم آيات أخرى سوى الحجر منها إهلاك جيش أبرهة الذي قصده بسوء . ذكر هذا الاتجاه وضرب هذه الأمثلة كثيرون من المفسرين منهم الألوسي فيكون المعنى « مقام

إبراهيم فيه آيات بيّنات » والله أعلم .

﴿ ولله على النّاس حج البيت ﴾ أي : وقد استقر لله على الناس فرض الحجّ إلى بيته ﴿ من استطاع إليه سبيلا ﴾ أي : على المستطيع لهذا الحجّ ، أو على المستطيع الوصول إلى هذا البيت ، وذلك يكون بقدرة على الزاد والراحلة فاضلتين عن حاجة أهله ، ومن تجب عليه نفقته . فصار المعنى إنّ الله فرض الحجّ على من ملك الزّاد والراحلة الموصلتين إلى هذا البيت . ﴿ ومن كفر فإنّ الله غني عن العالمين ﴾ : يحتمل شيئين ، الأول : ومن جحد فرضية الحج فإنّ الله غني عنه ، وعن غيره . والثاني : ومن لم يشكر ما أنعمتُ عليه من صحة الجسم ، وسعة الرزق ، ولم يحجّ ، فإن الله غني عنه وعن العالمين جميعاً .

فوائد :

١ - أخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس ...** ﴾ قال : كانت البيوت قبله ، ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله . أقول وقد ذكر ابن كثير ضعف الحديث الذي فيه : أنّ أول من بنى البيت آدم وحواء .

٢ - وروى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : « قلت يارسول الله أيّ مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أيّ ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة ، قلت : ثم أي ؟ قال : ثم حيث أدركتك الصلاة فَصَلِّ فكلها مسجد » وأخرجه البخاري ومسلم . دلّ هذا الحديث على أن المسجد الأقصى كان قبل سليمان بكثير فسليمان جدّد بناءه .

٣ - أشهر الأقوال أن بكة : هي مكة ، وسميت كذلك لأنها تبكُّ أعناق الظلمة والجبابرة ، بمعنى أنهم يُذَلون بها ويخضعون عندها ، أو لأن الناس يتباكُّون فيها أي : يزدحمون . قال قتادة : إنّ الله بكَّ به الناس جميعا ، فيصلي النّساء أمام الرجال ولايفعل ذلك ببلد غيرها . وذهب بعضهم إلى أن البيت والمسجد وما كان في هذه الدائرة فهو بكّة ، وما وراء ذلك مكة . وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة منها مكة ، وبكة ، والبيت العتيق ، والبيت الحرام ، والبلد الأمين ، والمأمون ، وأم رحم ، وأم القرى ، وصلاح ، والعرش ، والقادس ، والمقدسة ، والناسة ، والباسة ، والحاطمة ، والرأس ، وكوثاء ، والبلدة ، والبنية ، والكعبة .

٤ - مر معنا في تفسير سورة البقرة ، أن الحجر الذي فيه موطىء قدم إبراهيم كان

ملتصقاً بجدار البيت ، حتى أخّره عمر رضي الله تعالى عنه في إمارته إلى ناحية المشرق لمصلحة الطُّواف ، ومن أجل ألا يشوش الطائفون على المصلين عنده بعد الطواف . لأن الله تعالى أمرنا بالصلاة عنده .

٥ - من مظاهر الأمن في البيت في الجاهلية ما قاله الحسن البصري وغيره : « كان الرجل يقتل ، فيضع في عنقه صوفة فيدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول فلايهيِّجه حتى يخرج » ومن مظاهر الأمن في الإسلام حرمة اصطياد صيدها ، وتنفيره عن أوكاره وحرمه قطع شجرها ، وقلع حشيشها ، إلا الإذخر للضرورة إليه . ومن مظاهر ذلك في الإسلام ما قاله النسفي وهو من الحنفية : ومن لزمه القتل في الحل (أي غير الحرم) بقَوَدٍ ، أو ردّةٍ ، أو زنىً ، فالتجأ إلى الحرم لم يتُعرض له ، إلا أنه لا يُؤوى ولا يُطعم ، ولا يسقى ، ولا يُبايع حتى يضطر إلى الخروج . قال عمر : لو ظفرت به بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه. وقال ابن عباس: «من عاذ بالبيت أعاذه البيت، ولكن لايؤوى ولايطعم. فإذا خرج أخذ بذنبه » وهذا كله فيمن ارتكب جريمة خارج الحرم ثم أوى إليه ، وأمّا من ارتكب جريمة داخل الحرم فالإجماع منعقد على أنّه يؤخذ بها ، ومن مظاهر أمن البيت في الإسلام مارواه مسلم عن رسول الله ﷺ : « لايحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة » وقد مرّ معنا شيء من هذا في سورة البقرة .

٦ - روى الترمذي بسند حسن صحيح والإمام أحمد والنسائي عن عبد الله بن عدي ابن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحزورة بسوق مكة يقول : « إنكِ لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنّي أخرجت منك ماخرجت » .

٧ - قال ابن كثير وقوله : ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا** ﴾ هذه آية وجوب الحج عند الجمهور ... وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ، ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضروريا ، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع .

٨ - روى مسلم عن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج ، فقام الأقرع بن حابس فقال : يارسول الله أفي كل عام ؟ فقال : لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ، ولن تستطيعوا أن تعملوا بها ، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع » .

٩ - روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : من الحاج يا رسول الله ؟ قال : الشعِث التَفِل ، فقام فقال : أي الحج أفضل يارسول الله ؟ قال : العجُّ[1]والثجُّ ، فقام آخر فقال : ما السبيل يا رسول الله ؟ قال : الزاد والراحلة » وورد تفسير السبيل بأنه الزاد والراحلة في أكثر من حديث ، وأكثر من طريق .

١٠ - روى سعيد بن منصور عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبَل منه** ﴾ قالت اليهود : فنحن مسلمون ، قال الله - عز وجل - فأخصمهم فحجّهم يعني فقال لهم النبي ﷺ : « إن الله فرض على المسلمين حجّ البيت من استطاع إليه سبيلًا » فقالوا : لم يُكتب علينا ، وأبوا أن يحجوا . قال تعالى ﴿ **ومن كفر فإن الله غني عن العالمين** ﴾ ا هـ . وبمثل هذا يرد على من ادّعى الإسلام ، وفاته الإذعان ، أو رافق ادّعاءه كفر وفجور .

١١ - في إسناد صحيح عن عمر قال : « من أطاق الحجّ فلم يحجّ فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً » وروى سعيد بن منصور في سننه عن الحسن البصري قال : « قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : « لقد هممت أن أبعث رجالًا إلى هذه الأمصار ، فينظر إلى كل من كان عنده جِدةٌ فلم يحجّ ، فيضربوا عليهم الجزية ، ماهم بمسلمين ، ما هم بمسلمين » وكلام عمر يحمل على من جحد ، أو تُحمَل الجزية على العقوبة التعزيرية ، ونفي الإسلام من باب المبالغة في الإنكار .

١٢ - في قوله تعالى ﴿ **ومن كفر فإن الله غني عن العالمين** ﴾ بعد ذكر فريضة الحج تأكيد وتشديد على ترك الحج . فالله غنيٌّ عن العالمين بمعنى :مستغن عنهم وعن طاعتهم . ذكر هذا بعد قوله ﴿ **ومن كفر** ﴾ مكان : ومن لم يحجّ تغليظاً على تاركي الحجّ . وقال : غني عن العالمين ، ولم يقل (عنه) لما فيه من الدّلالة على الاستغناء عنه ، وعمّم ليدلّ على الاستغناء الكامل . وفي ذلك زيادة إبرازٍ لعظيم السّخط الذي يستحقه من ترك الحج .

﴿ **قل يا أهل الكتاب لِم تكفرون بآيات الله** ﴾ المنزلة على رسوله والآيات الظاهرة على يدي رسوله مما يشهد بصدقه . ﴿ **والله شهيد على ماتعملون** ﴾ أي : والحال أن الله شهيد على أعمالكم فيجازيكم عليها أفلا تستحيون ، أفلا تخافون ، أفلا تحذرون ؟! .

﴿ **قل يا أهل الكتاب لِمَ تصدّون عن سبيل الله** ﴾ . الصدُّ : المنع ، وسبيل الله : دينه الحق ، وطريقه التي أمر بسلوكها : وهو الإسلام ، أي لِمَ تمنعون الناس عن

(١) العجُّ الإكثار من التلبيه والثجُّ الإكثار من إراقة الدم أي الذبح .

الإسلام؟! ومن عرف الجهد الذي بذلته وتبذله في زماننا - الدول والمؤسسات الكافرة للحيلولة دون هذا الإسلام ، وانتشاره ، وتطبيقه ، وانتصار دعاته . عرف مقدار صدّ أهل الكتاب عن سبيل الله ، وأخذ صورة عن الصَّدّ الذي أنكره الله عليهم ﴿ **من آمن** ﴾ أي : لم تصدون عن سبيل الله المؤمنين باستعمالكم كل طرق الصدّ ، مما رأينا نماذجه في هذا القسم . ومما نرى نماذجه في عصرنا من تخطيط ،وإغراء ، وتعذيب بأيديهم ، وأيدي أذنابهم . ﴿ **تبغونها عوجاً** ﴾ أي : تريدونها معوجّة ، وليس أبلغ في التعريف على إرادتهم من هذا التعبير . ولايفسر هذا التعبير شيء كما يفسره الواقع في عصرنا ، إذ يخطط اليهود والنصارى من أجل حصر الإسلام في إطار الروحانيات ،والعبادات ، إذا لم يستطيعوا إنهاءه من قلوب أبنائه بالكلية . ويبذلون الغالي والرخيص ، من أجل أن يحولوا دون قيام الإسلام كاملًا ، فهم يريدون سبيل الله معوجَّة ، غير مستقيمة منحرفة ، فيها إسلام وفيها جاهلية . ﴿ **وأنتم شهداء** ﴾ أي : والحال أنكم شهداء على أن محمداً رسول الله ، بما تعرفونه في التوراة والإنجيل من صفته ، والحال أنكم شهداء على أن دين محمد ﷺ هو سبيل الله ، فالمفروض أن تؤدّوا الشهادة القولية والفعلية لسبيل الله ، فكيف تستبدلون هذا بالصدّ عن سبيل الله ، وترغبون بالطرق المعوجة ! ﴿ **وما الله بغافلٍ عما تعملون** ﴾ . من الصدّ عن سبيله لتحقيق رغباتكم الفاسدة وهذا وعيد شديد لهم .

وبهذا ينتهي هذا القسم من سورة آل عمران .

كلمة في السياق :

قلنا : إن القسم الأول والثاني جاءا تمهيداً للقسم الثالث ، فلنلاحظ بعض ما يدلُّ على ذلك :

في القسم الأول : جاء قوله تعالى : ﴿ **إنّ الدِّين عند الله الإسلام** ﴾ . وجاء قوله تعالى ﴿ **وقل للذين أوتوا الكتاب والأميّين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا** ﴾ . وفي هذا القسم جاء ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السمٰوات والأرض طوعا وكرها** ﴾ . ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه** ﴾ .

وفي القسم الثاني : جاءت قصة عيسى ، وفيها إشارة إلى الغلو فيه ، وفي هذا القسم

جاء قوله تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ...** ﴾ وجاء قوله تعالى ﴿ **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ...** ﴾ .

وكما أن المعاني تسلسلت في الأقسام الثلاثة ، وترابطت . فإن لكل قسم صلاته ، وترابطه فيما بينه .

وسنرى كيف أن القسمين الأخيرين في سورة آل عمران مبنيّان على الأقسام السابقة ، حتى لتكاد أن تكون الأقسام الثلاثة الأولى تمهيداً للقسمين الأخيرين .

تحدث القسم الأول فيما تحدث فيه عن : إنزال الكتب ، والموقف الصحيح من القرآن ، وعن كفر الكافرين بالكتاب ، وعن مظهر من مظاهر انحراف أهل الكتاب ، وعن تزيين شهوات الدنيا ، وماأعده الله للمتقين فى الآخرة ، ومن هُم أهل ذلك ، ثم أخبرنا الله عزوجل أن الدين عنده هو الإسلام ، وعلمنا كيف ينبغي أن نقف من غير المسلمين وعرّفنا ، على ما أعدّه للكافرين من عذاب ، ودلنا على بعض ما يقتضيه أننا مسلمون .

وفي القسم الثاني : ذكر الله – عز وجل – لنا نماذج على اصطفائه ، ودلنا على غلو من غلا في بعض أهل الاصطفاء ؛ بإعطاء أهله ما لم يأذن به الله .

ثم جاء القسم الثالث : وفيه دعوة لأهل الكتاب إلى محض العبودية لله وتوحيده ، وعدم الشرك به ، ومناقشة مواقفهم وأقوالهم ، وبناء على هذه الأقسام كلها يأتي القسم الرابع ، والقسم الخامس ، وكل منهما يبدأ بالتحذير من الطاعة للكافرين ، الأول يبدأ بالتحذير من طاعة أهل الكتاب ، والثاني يبدأ بالتحذير من طاعة الكافرين مطلقاً .

* * *

كنا ذكرنا أن سورة آل عمران تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، أي : في العشرين آية الأولى منها ، وإذ كانت سورة البقرة في كثير من آياتها تلقي أضواءً على مقدمتها ، فإن كثيراً من آيات سورة آل عمران تكاد تكون تفصيلًا لآيات مشابهة في سورة البقرة . وقد أشرنا إلى ذلك من قبل ، وههنا نحب أن نقدم زيادة بيان :

في المقطع الثاني من القسم الثالث من سورة البقرة . نرى آية الكرسي ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم لاتأخذه سِنَة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض . من ذا الذي ....** ﴾ ونرى قوله تعالى : ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم تُوفى كل نفس**

ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ ونرى قوله تعالى : ﴿ **لله ما في السمٰوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **سمعنا وأطعنا** ﴾ .

ونلاحظ أن القسم الأول من سورة آل عمران فيه ملامح من هذا كله :

ففيه ﴿ **الٓمٓ الله لا إله إلا هو الحي القيوم نَزّل عليك الكتاب بالحق** ﴾ .

وفيه ﴿ **فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفّيت كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون ...** ﴾. وفيه ﴿ **قل اللهمّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ...** ﴾ . وفيه ﴿ **قل إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾ . وفيه ﴿ **قل أطيعوا الله والرسول** ﴾ .

ونلاحظ أنه فى المقطع الأول من القسم الثالث من سورة البقرة قد جاء :

﴿ **سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ....** ﴾ . ﴿ **فبعث الله النبيين مبشّرين ومنذرين** ﴾ . ﴿ **تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض** ﴾ . ومن قبل في القسم الأول من سورة البقرة جاء قوله تعالى : ﴿ **وأني فضلتكم على العالمين** ﴾ .

والملاحظ أن القسم الثاني من سورة آل عمران بدأ بقوله تعالى :

﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين** ﴾ .

فالصلة واضحة .

وفي القسم الأول من سورة البقرة ، جاء المقطع الثالث ، مقطع بني إسرائيل ومن بعده مقطع إبراهيم ، ثم مقطع القبلة ، ثم ...... وفي ذلك معان جاء يفصّلها أو يعرضها عرضاً جديداً القسمُ الثالث في سورة آل عمران :

فمثلا قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ....** ﴾ ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا ...** ﴾ يفصّله في آل عمران : ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمِنُوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره ....** ﴾ ﴿ **ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم** ﴾ .

وفي البقرة يرد قوله تعالى : ﴿ **ومنهم أميّون لايعلمون الكتاب إلا أمانيَّ وإن هم**

إلا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ . ونجد في سورة آل عمران : ﴿ **وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ...** ﴾

وفي سورة البقرة نجد قوله تعالى :

﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ....** ﴾ ونجد في سورة آل عمران ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنُنَّ به ولتنصرنَّه** ﴾ .

وفي سورة البقرة نجد
﴿ **ما يودُّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين ....** ﴾ .

وفي سورة آل عمران يرد ﴿ **ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ...** ﴾ .

وفي سورة البقرة نجد ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ...** ﴾ .

ويرد في سورة آل عمران ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السمٰوات والأرض طوعاً وكرهاً** ﴾ .

وفي سورة البقرة نجد ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل** ﴾ .

ويرد في سورة آل عمران
﴿ **إن أول بيت وضع للناس لَلذي ببكة مباركاً ...** ﴾ .

وفي سورة البقرة نجد ﴿ **ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلا من سَفِهَ نفسه ..** ﴾ ﴿ **قل بل ملة إبراهيم حنيفاً** ﴾ .

وفى سورة آل عمران يرد : ﴿ **قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً** ﴾ .

وفي سورة البقرة تأتي آية البر وفيها ﴿ **وآتى المال على حُبّه** ﴾ .

ويرد في سورة آل عمران قوله تعالى : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ .

فسورة آل عمران لها سياقها الخاص بها . وهذا السياق له ترتيبه الخاص وهي في الوقت نفسه تفصل في محورها من سورة البقرة ، وهو مقدمة سورة البقرة .

وامتدادات هذه المقدمة . مما له صلة مباشرة بمقدمة سورة البقرة . وسنرى في

القسمين الأخيرين من سورة آل عمران مزيد بيان .

فمثلاً سنرى في القسم الرابع قوله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمّةأخرجت للناس** ﴾ وهي تفصيل لقوله تعالى ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** ﴾ . ولكن هذا التفصيل يسير على نسق لم يعهده أحد من قبل ولا من بعد ، ولايستطيعه أحد من قبل ولا من بعد : إنه كتاب فريد عجيب « لاتنقضي عجائبه » .

وأخيراً لاحظ مايلي

مرّ معنا المقطع الأول من القسم الثاني من سورة البقرة ، وهو مقطع مبدوء بقوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالًا طيباً** ﴾ ومختوم بآية البر ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن** ... ﴾ ثم جاءت تتمة القسم ، وكان من جملة ما فيه الأمر بإتمام الحج . وفي القسم الذي مرّ معنا من سورة آل عمران نجد فى أواخره آية في البر : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ . ثم آية في الطعام : ﴿ **كل الطعام كان حِلًّا لبني إسرائيل** ... ﴾ . ثم آيتان هما تتمة لمعاني هذه الآية ، ثم كلام عن الكعبة والحج . ﴿ **إن أول بيت وُضع للناس للّذي ببكة مباركاً** ... ﴾ .

فإذا ما اتضح أن هناك صلة بين القسم الذي مرّ معنا وبين مقدمة سورة البقرة ، وامتدادات معانيها أصبح بالإمكان أن نقول :

إن سورة البقرة ذكرت معاني الإسلام بإجمال ، وضمن نسقٍ ، وترتيب معيّن . وتأتي بعدها سور سبع ، هي تتمة قسم الطوال ، لتفصّل كل منها في محور من سورة البقرة ، وفى امتدادات هذا المحور بشكل تفصيلي ، بحيث لا ينتهي قسم الطوال إلا أخذنا التغطية التفصيلية الأولى لمعاني سورة البقرة ، على نفس ترتيب ورودها في سورة البقرة ، فإذا اتضح لك بدايات هذا الموضوع ، وإذا اتضح لك صلة معاني القسم الثالث من سورة آل عمران ببعضها ، وإذا اتضح لك صلة ذلك كله بقسمي السورة الأولين ، فإننا نعتبر أن باستطاعتنا أن ننطلق نحو القسم الرابع في سورة آل عمران .

القسم الرابع من سورة آل عمران

يمتد من الآية (١٠٠) حتى نهاية الآية (١٤٨) وهذا هو :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ

وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ * لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ

إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ
وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ
بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن
تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ
ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن
فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ
ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ
خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾
وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن

قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

☆　☆　☆

كلمة في هذا القسم :

يتألف هذا القسم من ثلاثة مقاطع ، كل مقطع منه مبدوء بصيغة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ والذي دلنا على بداية القسم ونهايته إنما هي المعاني ، فلأول مرة في سياق سورة آل عمران ، يأتي نداء مبدوء بقوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ . في بداية هذا القسم وهو نداء في النهي عن طاعة أهل الكتاب . ويستمر القسم حتى يأتي نهي عن طاعة الكافرين عامة ، وبذلك يبدأ قسم جديد في السورة هو القسم الأخير .

وهذان القسمان الأخيران ينبنيان على الأقسام الثلاثة السابقة . كما أن القسم الأخير مبني على القسم السابق عليه من سورة آل عمران لقد مرّ معنا في القسم الأول مواقف لأهل الكتاب ، وعرفنا فيه بعض طبائعهم ، من كون فريق منهم يتولون وهم معرضون إذا دعوا لكتاب الله ليحكم بينهم ، وههنا يبدأ القسم بقوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ .

لقد عرفنا من القسم الأول كيف أن أهل الكتاب يقتلون الأنبياء ، ويقتلون الذين يأمرون الناس بالقسط ، وأنهم يكفرون بآيات الله ، وعرفنا من القسم الثاني كيف أن بعضهم كفر بالمسيح عليه السلام ، أو غلا فيه ، وعرفنا في القسم الثالث كيف أن طائفة منهم تودُّ إضلالنا ، وكيف أنهم يخططون لذلك ، وكيف أنهم يخونون فيما اؤتمنوا عليه . والآن يأتي هذا القسم مُحَذِّراً لنا من طاعتهم ، مفسِّراًلنامواقفهم ، مبيناً لنا ما ينبغي أن نستعصم به ، موجّهاً لنا إلى ما ينبغي أن نسير فيه .

رأينا في القسم الأول أن الله أنزل الكتاب ، وأن الناس فى شأن الكتاب قسمان : قسم يؤمن بالكتاب كله ، فيعمل بالمحكم ، ويؤمن بالمتشابه وقسم : يَتَّبع المتشابه معطلا المحكم . ورأينا تفصيلًا في صفات المتقين . ونلاحظ هنا مجيء قوله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾** وفيه **﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾** .

وفيه : **﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات ﴾**

ورأينا في القسم الأول قوله وتعالى : **﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾** .

ونجد في هذا القسم قوله وتعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ﴾** .

ورأينا في القسم الأول قوله تعالى :

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم * قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ .

وفي هذا القسم نجد : **﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء والله غفور رحيم * ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ... وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون .... ﴾** . **﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم ... ﴾** . فالقسم الرابع إذن يبين ما سبقه من معان ، ويفصّل فيها ، ويزيد في

بناء المعاني مايحتاجه البناء ....

قلنا إن سورة آل عمران تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، ومقدمة سورة البقرة تحدثنا عن المتقين ، والكافرين ، والمنافقين . وهذا القسم تفصيل في ذلك كله :

فهذا القسم ينهانا أن نسير في طريق الكفر ، ويأمرنا أن نتحقق بكمال التقوى ، وأن نعتصم بالقرآن ، وألا نفعل ما يخل بهذا الاعتصام ، أو يضعفه ، بل علينا أن نفعل ما يقويه ، ويدلنا على الطريق . ويفصل في العلاقات بين أهل الإيمان وأهل الكفر تفصيلًا بعيداً ، وكل ذلك له صلة بمقدمة سورة البقرة . وقد ختم الكلام عن المتقين في مقدمة سورة البقرة بقوله تعالى :

﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ . وفي هذا القسم تبيان لجوانب في الهداية والفلاح : ﴿ **ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم** ﴾ .

﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ .

وقلنا إن لمقدمة سورة البقرة امتدادات في سورة البقرة ، وأن سورة آل عمران تفصل في المقدمة ، وفي المعاني الأشد لصوقا بها ، ضمن سياقها الخاص . ونلاحظ أن في سورة البقرة ورد قوله تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** ﴾ وههنا يرد قوله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ ، وفي سورة البقرة ورد قوله تعالى : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ...** ﴾ وههنا يرد قوله تعالى : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلمِ الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ .

وهكذا نجد من خلال هذا القسم كيف أن لسورة آل عمران سياقها الخاص ، وكيف أنها تفصل في مقدمة سورة البقرة وفيما هو كالامتداد لمعاني هذه المقدمة على طريقة لم يعرفها بشر وهو عاجز عنها ولا يستطيعها أحد

ولنبدأ عرض القسم :

المقطع الأول

يبدأ هذا القسم بآيتين تشكلان بداية المقطع الأول وهما الفقرة الأولى منه :

الفقرة الأولى من المقطع الأول

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

المعنى العام :

يحذر الله تعالى عباده المؤمنين من طاعة فريق من أهل الكتاب – وذِكر الفريق هنا يدل على أن ليس كل أهل الكتاب يبذلون جهداً لإضلالنا . وبيَّن أنه في حالة طاعة هذا الفريق ، فإن الكفر والرِّدة هما اللذان سنصير إليهما . فالهدف الذي يسعى إليه هذا الفريق إذن ، هو تكفيرنا وردتنا . ولعل واقع عصرنا هو التفسير الواضح لهذا المعنى ، إذ استطاع كثير من أهل الكتاب أن يصلوا إلى أخذ طاعة أبناء المسلمين من خلال أحزاب أو مؤسسات واستطاعت كثير من الدول الكافرة أن تستجلب سمع الكثير من أبناء المسلمين ، فكان من آثار ذلك هذه الردة الكبيرة التي نراها . وفي الآية الثانية يعجب الله عز وجل من أن نكفر ، وقد اجتمع لنا مالا يعقل معه الكفر وهو هذا الكتاب المعجز وهذا الرسول الذي تضافرت المعجزات والخصائص والبشائر والآثار والثمرات على أنه رسول الله حقاً ثم يبيِّن أن الهداية إلى الصراط المستقيم مدارها على الاعتصام بالله ، والاعتصام بالله يقتضي اعتصاماً بكتابه ورسوله ، وهذا الاعتصام هو العمدة في الهداية والعدة في مباعدة الغواية والوسيلة إلى الرشاد ، وطريق السداد وحصول المراد .

وهاتان الآيتان جسر بين ما قبل وما بعد ، فبعد أن نوقش موقف أهل الكتاب يأتي الآن نهي عن طاعتهم . وإذ نحن مأمورون بالإيمان فستُذكرُ مقتضياتُه .

المعنى الحرفي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب** ﴾ . أي : إن تعطوا الطاعة طائفة من اليهود أو النّصارى . ﴿ **يردوكم بعد إيمانكم كافرين** ﴾ أي : يخرجونكم من الإيمان إلى الكفر ، فيجعلونكم مرتدين . ﴿ **وكيف تكفرون** ﴾ أي : من أين يتطرق إليكم الكفر . وفي السؤال إنكار وتعجيب . ﴿ **وأنتم تتلى عليكم آيات الله** ﴾ أي : والحال أن آيات الله - وهي القرآن المعجز - تتلى عليكم على لسان رسوله ﷺ . ﴿ **وفيكم رسوله** ﴾ أي : وبين ظهركم رسول الله ينبهكم ، ويعظكم ، ويزيح عنكم شبهكم ، وتظهر على يده الآيات . والمعنى قائم بالنسبة لنا ببقاء سنّة رسول الله ﷺ وسيرته بين أيدينا . ﴿ **ومن يعتصم بالله** ﴾ أي : يتمسك بدينه أو بكتابه ، أو هو حث لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ، ومكايدهم ، وكل شر . ﴿ **فقد هُدي إلى صراط مستقيم** ﴾ فقد أرشد إلى الدين الحق . أو المعنى : ومن يجعل ربه ملجأ ومفزعاً عند الشُبَه ، يُحفظْ منها .

فائدة :

دلت الآية الأخيرة على أن وجود الرسول ﷺ ورؤيته ، والقرآن وإعجازه ، ينبغي ألا يتأتى معهما كفر ، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوماً : « أي الخلق أعجب إليكم إيماناً ؟ قالوا : الملائكة قال : وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم . قالوا : فالنبيون . قال : وما لهم لايؤمنون والوحي ينزل عليهم ! قالوا : فنحن ، قال : وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ! قال : فقال رسول الله ﷺ : « إن أعجب الخلق إليَّ إيمانا لَقَوم يكونون من بعدكم ، يجدون صُحُفا فيها كتاب يؤمنون بما فيها » .

فنحن معشر المسلمين اليوم فاتتنا رؤية رسول الله ﷺ ، ولكن بقيَ فينا القرآن ، والسنّة ، والسيرة ، وفي ذلك كفاية للإيمان .

كلمة في السياق :

بدأت سورة البقرة بالكلام عن المتقين ، والكافرين ، والمنافقين ، وجاءت سورة آل عمران لتفصِّل في هذه المقدمة .

فعرَّفتنا كيف نهتدي بكتاب الله ، وأعطتنا صفحة من صفحات الإيمان بالغيب ،

وعمّقت عندنا الإيمان بما أُنزل على محمد ﷺ ، وبما أنزل من قبله ، وحذّرتنا مما يقابل ذلك ، وكل ذلك في الأقسام الثلاثة الأولى . وجاءت الفقرة الأولى ، من المقطع الأول ، من القسم الرابع : تنهانا عن طاعة أهل الكتاب ؛ لما يترتب على ذلك من الرِدَّة مبيِّنةً أن الكفر لا ينبغي لنا بعد وجود القرآن والرسول ﷺ ، وحضّتنا على الاعتصام بالله ، وأن في ذلك الهداية إلى الصراط المستقيم ، ثم تأتي بعد ذلك فقرة تأمر بالتقوى ، والموت علي الإسلام ، والاعتصام بحبل الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الخير ، مبيِّنة أن ذلك هو طريق الفلاح ، ثم تسير الفقرة في سياقها .

وبهذا تحدد لنا الفقرة طريقَ الهدى ، وعلاماته ، وطريق الفلاح ، ومقتضياته ، فلنتذكر أن الكلام عن المتقين في مقدمة سورة البقرة خُتم بقوله تعالى ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ . إنه إذا كانت مقدمة سورة البقرة قد حددت صفات المتقين ، والكافرين ، والمنافقين ، فإن القسمين الأخيرين من سورة آل عمران ، يعمّقان قضية التقوى ، وقضية الكفر ، ويحددان طبيعة الصراع بين الكفر والإيمان ، ويوضِّحان ما لايجوز لأهل الإيمان أن يفعلوه ، ويعطيان دروساً حياتية كثيرة كمعالم على الطريق ، وكل ذلك نراه في هذه السورة بما ترتبط به السورة بمحورها من سورة البقرة مع أن للسورة سياقها الخاص : فالصلة واضحة بين القسم السابق ، وهذا القسم ، فبعد أن ينتهي الحوار مع أهل الكتاب ، يأتي نهي عن طاعتهم ، وتأتي أوامر بالاعتصام بكتاب الله . وفي هذا السياق يأتي بيان عن أن أهل الكتاب لن يضرونا إلا أذى ، وفي ذلك تطمين لنا أنه إذا لم نطعهم فلا خوف علينا . وهكذا فإن سياق السورة الخاص متلاحم الروابط .

الفقرة الثانية من المقطع الأول من القسم الرابع

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ

ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ

ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾

المعنى العام :

في الآية الأولى : أمر من الله بتحقيق التقوى ، ونهي من الله لنا أن نموت على غير الإسلام ، وذلك بأن نحافظ علي الإسلام في حالة صحتنا ، وسلامتنا ، لنموت عليه ، لأن الكريم قد أجرى عادته بكرمه ، أنه من عاش على شيء بُعث عليه . فعياذا بالله من موت على غير الإسلام .

وفي الآية الثانية : أمر بالاعتصام بكتاب الله ، وعدم التفرُّق ، وأمر بتذكرنعمة الله في الألفة على هذا الدين بعد التفرّق ، وما أكرم الله – عز وجل – به هذه الأمّة إذ أنقذها من النار .

وفي الآية الثالثة أمر لهذه الأمة أن تنتصب للدعوة إلى الكتاب والسنّة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وبذلك تستحق الفلاح .

وفي الآية الرابعة ، والخامسة ، والسادسة ،والسابعة : توجيه لهذه الأمة ألا تكون كالأمم الماضية في افتراقها ، واختلافها ، من بعد ما جاءها من الحق ، وتهديد لهذه الأمة أن تغفل ذلك ، مع تبيان المآل عند الله ، إذ تبيَضُّ وجوه من لزم الحق وأهله ، وتسوَدُّ

وجوه من ترك الحقَ وأهله ، واستحقاق الأولين رحمة الله بفضله ، واستحقاق الآخرين عذابه بعدله. ثم بيّن الله - عز وجل - أن هذا المتلو آيات الله حقاً، وأن الله لايظلم أحداً. وأن الله مالك الجميع ، والكل عبيد له ، وهو الحاكم ، والمتصرِّف في الدنيا والآخرة .

وبعد أن يوجه لنا هذه الأوامر والنواهي ، يقرر لنا أننا خير أمة أخرجت للناس بتحققنا بثلاثة أوصاف ، الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والإيمان بالله . وفي هذا السياق يحض أهل الكتاب على أن يسلكوا سبيلنا مبيّناً أن القليل منهم يؤمنون ، وأن الكثيرين منهم فاسقون عن أمر الله ، لا يدخلون في الإسلام .

ثم بيّن أن هؤلاء الفاسقين عن أمر الله من أهل الكتاب لن يضرُّونا إلا في حدود الأذية لا أكثر ، ووعدنا إن قاتلونا أن ينصرنا عليهم ، وأن يهزمهم . هذا إن كنا جنده حقاً ، ثم بيّن أنه قد ضرب على أهل الكتاب - والمراد بهم اليهود هنا وعرفنا ذلك من خلال صفاتهم - ضرب عليهم الذلّة والمسكنة حيثما كانوا ، وأن هذه الذلّة لا ترتفع عنهم إلا إذا اجتمعت مشيئتان ، مشيئة الله ، ومشيئة الناس كما هو واقع الآن ، إذ قامت لهم دولة سلّطها الله علينا بظلمنا . وتضافرت شعوب العالم كلها على إيجادها وتأييدها ، ودعمها . ثم بيّن علة ضربه الذلّة عليهم ، وهي الكفر ، وقتل الأنبياء ، والعصيان ، والاعتداء . ولم يسلطهم الله علينا إلا لقتلنا ورثة الأنبياء ، ولكفر الكثيرين من أولياء أمورنا ، وعصياننا ، واعتدائنا . والله - عز وجل - ذو العدل المطلق ، والفضل العظيم ، من استحق عقاباً عاقبه إلا أن يشاء شيئاً .

ثم يذكر الله - عز وجل - في مقابل الفسقة من أهل الكتاب ، من يؤمن منهم ؛ فيقوم بآيات الله آناء الليل ، ويؤمن بالله ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويسارع في الخيرات ، فهؤلاء لا يستوون مع الفاسقين منهم ، وهؤلاء من الصالحين الذين يعدهم الله أن يجازيهم على إحسانهم إحساناً ، والمراد بهم - قولًا واحداً - من دخل في الإسلام .

ويختم الله - عز وجل - هذا المقطع بالكلام عن الكافرين ، وأنهم لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ، وأنهم خالدون في نار جهنم ، وأن نفقاتهم لن تقبل منهم . فإذا تذكرنا ما كررناه سابقاً من كون الله - عز وجل - عَقّبَ بوصف الكافرين بعد ذكر المتقين في سورة البقرة ، وأن هذا يتكرر في سورة آل عمران ، يكون ما ذُكر هنا دليلًا على صحة ملاحظتنا .

ففي هذا المقطع توجيه للمؤمنين لما فيه هداهم وخلاصهم ، وتحذير لهم مما فيه هلاكهم وعذابهم . ومحل أهل الكتاب في هذا ، وكونهم فئتين : فئة تؤمن ، وأخرى تستمر على فسوقها ، وكفرها ، وعدم استواء هاتين في ميزان الله . ثم يختم المقطع الكلام عن الكافرين ، فالمقطع توضيح لمقدمة سورة البقرة ، وتفصيل لبعض ما فيها من إجمال ، وتبيان لما ينبغي أن يلاحظ بسبب أن الناس مسلم وكافر .

المعنى الحرفي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته** ﴾ أي : اتقوا الله واجبَ تقواه وما يحق منها وذلك يكون : بالقيام بالواجب ، والاجتناب عن المحارم ، فسّرها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال : « **أن يطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يشكر** فلا يكفر » وذهب بعضهم إلى أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ ورَدَّ هذا القول ابنُ عباس وفسّرها فقال : لم تنسخ ، ولكن حق تقاته ، أن يجاهِدوا في سبيله حقّ جهاده ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم ، وآبائهم ،وأبنائهم . ﴿ **ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون** ﴾ . أي : لاتكونوا على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت ، وذلك بأن تحافظوا على الإسلام في حال صحتكم ، وسلامتكم ، لتموتوا عليه ، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه ، ومن مات على شيء بُعث عليه ، فعياذاً بالله من خلاف ذلك .

﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا** ﴾ أي : تمسّكوا بالقرآن كلكم . ﴿ **ولا تفرّقوا** ﴾ أي : ولا تتفرقوا ؛ بأن يكون منكم فعل ما يكون عنه التفرق ، ويزول به حق الاجتماع ، أو لا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم ، أو لا تتفرقوا كما كنتم في الجاهلية : يحارب بعضكم بعضاً . ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً** ﴾ هذا النصُّ نزل في شأن الأوس والخزرج ، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية ، وعداوة شديدة ، وضغائن وإحَن ، طال بسببها قتالهم ، والوقائع بينهم ، فلما جاء الله بالإسلام ؛ فدخل فيه من دخل ،صاروا متحابين بجلال الله ، متواصلين في ذات الله ، متعاونين على البر والتقوى . وتدخل في ذلك كل حالة شبيهة جَمعَ الله فيها القلوب على الحق بعد إذ كانت متفرّقة على الباطل ،

فهي نعمة تستوجب ذكراً وشكراً . ﴿ **وكنتم على شفا حُفرة من النار** ﴾ الشفا : الحرف والطرف ، أي : وكنتم على طرف حفرة من النار ؛ بما كنتم عليه من الكفر ليس بينكم وبين النّار إلا أن تموتوا ، ﴿ **فأنقذكم منها** ﴾ أي : فأنقذكم الله منها بفضله وكرمه ، إذ هداكم للإسلام . ﴿ **كذلك** ﴾ أي : كمثل هذا البيان البليغ ، ﴿ **يُبيِّن الله لكم آياته** ﴾ أي : يوضّحها لكم ، ويذكّركم بها في قرآنه . ﴿ **لعلكم تهتدون** ﴾ أي : لتهتدوا إلى الصواب ، وما ينال به الثواب . أو لتكونوا مهتدين .

﴿ **ولتكن منكم أُمة** ﴾ تحتمل معنيين : الأول أن تكون (مِن) للبيان ، أي : ولتكونوا أمة ، ويكون هذا أمر لجميع الأمة بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والثاني : أن تكون (مِن) للتبعيض ، فيكون الأمر هنا لبعض الأمة أن يكون منها من يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وتكون المسألة من باب فروض الكفايات ، والأمة هنا الجماعة . ﴿ **يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ . الدّعوة إلى الخير هي الدعوة إلى الكتاب والسنّة، والمعروف: مااستحسنه الشرع والعقل الذي لا يناقض الشرع، أو ما وافق الكتاب والسنّة، أو هو الطاعة، أو هو المباح والمندوب، والواجب والفرض. والمنكر: مااستقبحه الشرع والعقل الموافق للشرع، أو ماخالف الكتاب والسنّة، أو هو المعاصي، أو هو المكروه والحرام . ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ أي : هم الأخصاء بالفلاح الكامل . ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا** ﴾ تفرقوا في العداوة ، واختلفوا في الديانة ، فكفّر بعضهم بعضاً . ﴿ **من بعد ما جاءهم البينات** ﴾ الواضحات الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة : وهي كلمة الحق . ﴿ **وأولئك لهم عذاب عظيم** ﴾ ﴿ **يوم تبيض وجوه** ﴾ أي : يوم القيامة تبيض وجوه أهل الحق ، والجماعة ، والسنّة ﴿ **وتسودّ وجوه** ﴾ وجوه أهل الباطل ، والفرقة ، والبدعة ، أو تبيضُّ وجوه المؤمنين ، وتسود وجوه الكافرين ، والبياض من النور ، والسواد من الظلمة ، وللمؤمن نوره ولو كان أسود اللون ، وللكافر ظلمته ولو كان أبيض . فالسواد والبياض عند الله إنما هما ظلمة الكفر ونور الإيمان فالعبرة لبياض القلب أو ظلمته . ﴿ **فأما الذين اسودّت وجوههم** ﴾ فيقال لهم : ﴿ **أكفرتم بعد إيمانكم** ﴾ وهذا توبيخ لهم ، وتعجيب من حالهم ، وما المراد بالإيمان هنا ؟ هل المراد به الإيمان في عالم الذر يوم الميثاق إذ قالت الأرواح مقرة لله بالربوبية : بلى ؟ فيكون المراد بهذا الخطاب جميع الكفار ، أو المراد بالإيمان هنا الإيمان الدنيوي فيكون المراد بهذا أهل النفاق ، والمرتدين إذ كفروا بعد الإيمان ، أو كفروا باطناً ، وأظهروا الإيمان ظاهراً ، أو المراد به هنا إيمان أهل الكتاب ،

الذين كانوا يؤمنون بمحمد ﷺ قبل بعثته ، فلما بُعث كفروا به ، أو المراد بالإيمان هنا أصلِ الفطرة ، ثم حدث الكفر ، والنّص يدخل فيه هذا كله ، ويخص من سبق إليه إيمانٌ ، ثم كفر بفرقة ، أو بدعة ، أو عداء لحق . ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ أي : بسبب كفركم . ﴿ **وأما الذين ابيضّت وجوههم** ﴾ وهم أهل الإيمان ﴿ **ففي رحمة الله** ﴾ أي : في نعمته ، وجنته ، وثوابه ﴿ **هم فيها خالدون** ﴾ أي : ماكثون لا يظعنون عنها ، ولا يموتون . ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق** ﴾ أي : هذه آيات الله ، وحججه ، وبيّناته ، نتلوها عليك يا محمد متلبّسة بالحق ، والعدل من أمر الدنيا والآخرة . ﴿ **وما الله يريد ظلماً للعالمين**﴾ أي : لايريد الله أن يظلم عباده فيأخذ أحداً بغير جرم ، أو يزيد في عقاب مجرم ، أو ينقص من ثواب محسن . ﴿ **ولله مافي السمٰوات ومافي الأرض** ﴾ أي : الجميع ملك له وعبيد له . ﴿ **وإلى الله تُرجع الأمور** ﴾ أي : هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته . ﴿ **كنتم خير أمة أُخرجت للناس** ﴾ أي : وجدتم خير أمة أظهرت للناس ، ثم بين سبب ذلك وعِلّته . ﴿ **تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في المدح . قال عمر بعد أن قرأ هذه الآية : « من سرّه أن يكون من هذه الأمّة فليؤدِّ شرط الله فيها » .

قال ابن كثير : ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله تعالى ﴿ **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه** ﴾ (سورة المائدة) ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات ، شرع في ذمّ أهل الكتاب ، وتأنيبهم ، فقال تعالى : ﴿ **ولو آمن أهل الكتاب** ﴾ أي : بمحمد ﷺ وبما أنزل عليه ﴿ **لكان خيراً لهم** ﴾ أي : لكان الإيمان خيراً لهم مما هم فيه ؛ لأنهم إنما يؤثرون دينهم على دين الإسلام حبّاً بالرياسة والسلطة لهم أو لأقوامهم ، واستتباعاً للعوام ،أو كِبْراً وحسداً . ولو آمنوا لكان خيراً لهم في الدنيا والآخرة ، مع الفوز بما وُعدوا به على الإيمان من إيتاء الأجر مرتين كما سنرى . ﴿ **منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون** ﴾ أي : قليل منهم من يؤمن بالله : وما أنزل إليكم ، وما أنزل إليهم ، وأكثرهم على الضلالة ، والفسق ، والعصيان . ثم أخبرنا تعالى مبشّراً لنا أنّ النصر والظفر لنا على أهل الكتاب الكفرة الملحدين ، وإن مسّنا منهم أذى قال تعالى : ﴿ **لن يضروكم إلا أذى** ﴾ أي : ضرراً مقتصراً على أذى : من طعن في الدين ، أو تهديد ، أو نحو ذلك دون أن يستطيعوا استئصالكم ﴿**وإن يقاتلوكم يولوكم**

الأدبار﴾ منهزمين، فلا يثبتون أمامكم. **﴿ثم لا ينصرون﴾** أي: ثم لا يكون لهم نصر من أحد، ولا يُمنعون منكم ، وهذه أعظم بشارة لنا إن كنا مؤمنين حقاً . خاصّة في صراعنا مع اليهود ، وأما هزائمنا أمامهم ، فتدلُّ على أن الذين يقاتلونهم لم يتحققوا بصفات الإيمان ، وهذا ظاهر إذ اللواء الذي قاتل تحته العرب فهُزِمُوا حتى الان ، إنما هو لواء الكفر ، والفسوق ، وإلا فالوقائع الماضية للمؤمنين مع أهل الكتاب شاهدة لما ذكرته الآية **﴿ ضربت عليهم الذلّة أينما ثُقِفوا ﴾** هذا الكلام خاص باليهود ، بدليل ما يأتي من صفاتهم التي هي عَلَم عليهم . والآية تفيد أن اليهود قد ألزموا الذِلّة أينما وجدوا ،وذلك بدفعهم الجزية لكل دولة يعيشون في ظلها ، وخوفهم الدائم أينما كانوا . مما يضطرهم لفعل الذليل من الأعمال ، نفاقاً واتقاء شر . ثم استثنى الله حالة عرفناها في عصرنا إذ قامت لهم دولة في فلسطين . قال تعالى : **﴿ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾** أي : إلا بإمداد من الله ، وإمداد من الناس ، إلا بسبب يعطيهم الله إياه ، وبسبب من الناس يكون لهم ، فترتفع عنهم الذِلّة بذلك ويكون لهم دولة وسلطان ، وهذا ما حدث الآن إذ أمدهم الله ، وسخر لهم وسلطهم علينا بظلمنا ، وإذ تمالأ العالم كله لصالحهم يمدهم ويحميهم ، ويكيد لهم ، ويخدمهم ، فكان مانعلمه ، ولكنه حدث عارض بدليل ما سيمر معنا في سورة الأعراف ، وفي سورة الإسراء . **﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾** أي : ألزموا بغضب الله بما استوجبوه من ذلك

﴿ وضُربت عليهم المسكنة ﴾ أي خوف الفقر هنا مع قيام اليسار . فهم لا يُرَوْن إلا مساكين متظاهرين بذلك ، أو متحققين – وسبب هذا كله – وهو تهديد لنا أن نفعل مثل فعلهم ، فنستحق ما استحقوه هم **﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾** أي : سبب ضرب الذلة والمسكنة عليهم ،وبوئهم بغضب الله ، كفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق . **﴿ ذلك بما عصَوْا وكانوا يعتدون ﴾** أي : سبب قتلهم الأنبياء ، وكفرهم ، هو عصيانهم لله ،واعتداؤهم حدوده فالعصيان والاعتداء هما مقدّمتا الكفر والجرأة على سفك دم أهل الإيمان . وقد كفر كثيرون من هذه الأمة في عصرنا ، حكاما ومحكومين ، وقتلوا الدعاة إلى الله ، وتجاوزوا حدوده ، ووقعوا في معاصيه . أيستغرب بعد ذلك أن يغلبهم اليهود في معاركهم ، وما غلب اليهود المسلمين ، وإنما غلبوا أمثالهم . وإذ ذكر الله منذ قليل أن من أهل الكتاب من يؤمن ، وأكثرهم المستمر على الكفر . فالآن يبيّن فضل الأولين ، بعد أن بين خسران الآخرين قال تعالى : **﴿ليسوا سواء﴾** أي ليسوا

مستوين من سيذكر منهم مع من ذُكر . ﴿ **من أهل الكتاب** ﴾ من آمن منهم بالإسلام ﴿ **أمّة قائمة** ﴾ أي : جماعة مستقيمة عادلة . قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه ، متّبعة نبيَّه . فقائمة هنا بمعنى : مستقيمة . ﴿ **يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون** ﴾ أي : يقومون الليل ، ويكثرون التهجد ، ويتلون القرآن في صلواتهم . وآناء الليل : ساعاته . ﴿ **يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات** ﴾ المسارعة في الخير : فرط الرغبة فيه ، لأنّ من رغب في الأمر سارع بالقيام به ، وهؤلاء يبادرون إليها خشية الفوت . ﴿ **وأولئك من الصالحين** ﴾ . أي : وهؤلاء الموصوفون بما وصفوا به من المسلمين ، أو من جملة الصالحين ، صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم . ﴿ **وما يفعلوا من خير فلن يكفروه** ﴾ أي لن يحرموا أجره . ﴿ **والله عليم بالمتقين** ﴾ أي : لا يخفى عليه عمل عامل ، ولايضيع لديه أجر من أحسن عملا ، وهذه بشارة للمتقين بجزيل الثواب . ثمّ قال تعالى مخبراً عن الكفرة . ﴿ **إنّ الذين كفروا لن تُغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً** ﴾ أي : لايُردُّ عنهم بأس الله ولا عذابه . ﴿ **وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ ماكثون فيها أبداً ، فما أشدّ هذا العقاب ، وما أعد له ، لأنهم لو بقوا أبداً لاستمروا على الكفر أبداً . ثم ضرب مثلًا لما ينفقون في هذه الدار ، كيف أنه لاينفعهم عند الله ﴿ **مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا** ﴾ من أموالهم التي يتظاهرون بأنهم ينفقونها بقصد طيّب ،مع كفرهم ، ورغبتهم في الثناء ، والذِّكر الحسن عند الناس ، ﴿ **كمثل ريح فيها صِرّ** ﴾ الصِّرُّ : هو البرد الشديد ﴿ **أصابت حرث قوم** ﴾ أي : أرض قوم قد آن حصادها ، وقطافها وهؤلاء القوم صفتهم ﴿ **ظلموا أنفسهم** ﴾ بالذُّنوب والمعاصي ﴿ **فأهلكته** ﴾ أي :فدمرته فصار المعني : مثل إهلاك ما ينفقون عند الله ، كمثل إهلاك ريح باردة لثمرة أرض . تدمّرها فلا ينتفع أهلها منها بشيء ، وكذلك هؤلاء . ﴿ **وما ظلمهم الله** ﴾ بإهلاك حرثهم ﴿ **ولكن أنفسهم يظلمون** ﴾ بارتكارب مااستحقوا به العقوبة . هذا إذا أرجعنا الضمير على أصحاب الأرض ، وإذا أرجعنا الضمير للمنفقين يكون المعنى : وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفقاتهم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم ، حيث لم يأتوا بها لائقة للقبول .

فوائد حول المقطع :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **اتقوا الله حق تقاته ولاتموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون** ﴾ نذكر

حديثين :

أ - أخرج الإمام أحمد عن مجاهد قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتُنّ إلا وأنتم مسلمون** ﴾ ... لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت عمل أهل الدنيا وما فيهم ، فكيف بمن ليس له طعام إلا الزقوم » ورواه الترمذي وغيره ، قال الترمذي حسن صحيح .

ب - وروى الإمام أحمد عن جابر قال : سمعت رسول االله ﷺ يقول قبل موته بثلاث : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » ورواه مسلم .

٢ - وفي تفسير الحبل في قوله تعالى : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** .. ﴾ نذكر :

أ - روى الطبري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض » .

ب - روى ابن مردويه عن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن هو حبل الله المتين ، وهو النور المبين ، وهو الشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه » .

وقال الألوسي في تحقيق كلمة (حبل الله) : ﴿ **واعتصموا بحبل الله** ﴾ أي : القرآن روي ذلك بسند صحيح عن ابن مسعود .

وأخرج غير واحد عن أبي سعيد الخدري قال : « قال رسول الله ﷺ : كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض »

وأخرج أحمد عن زيد بن ثابت قال : « قال رسول الله ﷺ : إني تارك فيكم خليفتين كتاب الله - عز وجل - ممدود ما بين السماء والأرض ، وعترتي أهل بيتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض » . وورد بمعنى ذلك أخبار كثيرة ، وقيل المراد بحبل الله : الطاعة والجماعة ، وروى ذلك عن ابن مسعود أيضاً .

أخرج ابن أبي حاتم من طريق الشعبي عن ثابت بن قطنة المزني قال : سمعت ابن مسعود يخطب وهو يقول : « أيها الناس عليكم بالطاعة ، والجماعة ،فإنهما حبل الله تعالى الذي أمر به » ، وفي رواية عنه : « حبل الله تعالى الجماعة » ، وروي ذلك أيضاً

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وأبي العالية : «أنه الإخلاص لله تعالى وحده » . وعن الحسن : « أنه طاعة الله – عز وجل – » وعن ابن زيد « أنه الإسلام » . وعن قتادة : أنه عهد الله تعالى وأمره وكلها متقاربة » ا هـ .

٣ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولاتفرَّقوا** ﴾ نذكر الحديث الذي رواه الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويسخط لكم ثلاثاً ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم . ويسخط لكم ثلاثاً : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » قال ابن كثير : وقد ضمنت لهم العصمة ، (أي للمسلمين) – عند اتفاقهم – من الخطأ كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضاً ، وخيف عليهم الافتراق ، والاختلاف ، فقد وقع ذلك في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية إلى الجنة ، ومُسَلَّمة من عذاب النار ، وهم الذين على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه .

٤ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم** ﴾ قال ابن كثير : وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ يوم قسم غنائم حنين فعتب من عتب منهم ، بما فضَّل عليهم في القسمة بما أراه الله ، فخطبهم فقال : « يا معشر الأنصار : ألم أجدكم ضُلَّالا فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي » . فكلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنّ » .

٥ – وقد ذكر محمد بن إسحق وغيره : أن هذه الآية ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً** .... ﴾ نزلت في شأن الأوس والخزرج ، وذلك أن رجلًا من اليهود مرّ بملأ من الأوس والخزرج ، فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة ، فبعث رجلًا معه ، وأمره أن يجلس بينهم ، ويذكّرهم ما كان من حروبهم يوم بُعاث ، وتلك الحروب ، ففعل ، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم ، وغضب بعضهم على بعض وتثاوروا ، ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم ، وتواعدوا إلى الحرَّة ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاهم ، فجعل يسكنهم ويقول : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، وتلا عليهم هذه الآية . فندموا على ما كان منهم ، واصطلحوا ، وتعانقوا ، وألقوا السلاح » . وذكر النسفي أن هذا سبب نزول الآيتين قبلها ﴿ **إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب** ... ﴾ .

ولا يبعد أن كل هذه الآيات الأربع نزلت بهذه المناسبة .

٦ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أُمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ نذكر ثلاثة أحاديث :

أ - روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

ب - وروى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« ما من نبي بعثه الله في أُمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنّته ، ويقتدون بأمره . ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون ، مالا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل » .

ج - وروى الإمام أحمد والترمذي بسند حسن أن النبي ﷺ قال :

« والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ، ولتَنهوُنَّ عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ؛ ثم تدعونه فلا يستجيب لكم » .

٧ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولاتكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات** ﴾ ننقل بعض النصوص والنقول : روى الإمام أحمد عن أبي عامر عبد الله بن يحيى قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلّى صلاة الظهر فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملّة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة - وهي الجماعة - وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، لايبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله . والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ ، لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به » .

٨ - وروى الترمذي : رأى أبو أمامة رؤوساً منصوبة على درج مسجد دمشق فقال أبو أمامة : كلاب النّار شر قتلى تحت أديم السماء ، خير قتلى من قتلوه ، ثم قرأ :

﴿ **يوم تبيضُّ وجوه وتسودُّ وجوه** .... ﴾ إلى آخر الآية . قلت لأبي أمامة : أنت

سمعته من رسول الله ﷺ قال : لو لم أسمعه إلا مرة ، أو مرتين ، أو ثلاثاً ، أو أربعاً ، حتى عدَّ سبعاً ما حدثتكموه » ثم قال الترمذي : حديث حسن والذين رأى أبو أمامة رؤوسهم هم الخوارج ، فهم إحدى الفرق التي تفرقت ، واختلفت ؛ فاستحقت سواد الوجه يوم القيامة .

وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا** ﴾ ننقل تحقيقا للألوسي بسبب أن كثيرين لايفرقون بين أنواع من الاختلافات :

يقول الألوسي : « ثم إن هذا الاختلاف المذموم ، محمول كما قيل على الاختلاف في الأصول دون الفروع ، ويؤخذ هذا التخصيص من التشبيه ، وقيل : إنه شامل للأصول والفروع لما نرى من اختلاف أهل السنّة فيها - كالماتريدي ، والأشعري - فالمراد حينئذ بالنهي عن الاختلاف فيما ورد فيه نص من الشارع ، أو أجمع عليه وليس بالبعيد .

واستدل على عدم المنع من الاختلاف في الفروع بقوله عليه الصلاة والسلام « اختلاف أمتي رحمة » وبقوله ﷺ : « مهما أوتيتم من كتاب الله تعالى فالعمل به لا عذر لأحد في تركه ، فإن لم يكن في كتاب الله تعالى فسنّة مني ماضية ، فإن لم يكن سُنّة مني ماضية فما قال أصحابي . إن أصحابي بمنزلة النجوم في السماء فأيما أخذتم به اهتديتم ، واختلاف أصحابي لكم رحمة » وأراد بهم ﷺ خواصهم البالغين رتبة الاجتهاد ، والمقصود بالخطاب من دونهم فلا إشكال فيه ، خلافاً لمن وهم . والروايات عن السلف في هذا المعنى كثيرة .

فقد أخرج البيهقي في المدخل عن القاسم بن محمد قال : « اختلاف أصحاب محمد ﷺ رحمة لعباد الله تعالى » وأخرجه ابن سعد في طبقاته بلفظ « كان اختلاف أصحاب محمد ﷺ رحمة للناس » وفي المدخل عن عمر بن عبد العزيز قال : « ما سرني لو أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا ؛ لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة » واعترض الإمام السبكي بأن « اختلاف أمتي رحمة » ليس معروفاً عند المحدّثين ، ولم أقف له على سند صحيح ، ولا ضعيف ، ولا موضوع ، ولا أظن له أصلًا إلا أن يكون من كلام الناس ؛ بأن يكون أحد قال : اختلاف الأمة رحمة فأخذه بعضهم ، فظنه حديثاً ، فجعله من كلام النبوة ، وما زلت أعتقد أن هذا الحديث لا أصل له ، واستدل على بطلانه بالآيات ، والأحاديث الصحيحة ، الناطقة بأن الرحمة تقتضي عدم الاختلاف ، والآيات أكثر من أن تحصى ، ومن الأحاديث قوله ﷺ « إنما هلكت بنو إسرائيل بكثرة

سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم » وهو وإن كان وارداً في تسوية الصفوف إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ثم قال : والذي نقطع به أن الاتفاق خير من الاختلاف ، وأن الاختلاف على ثلاثة أقسام : أحدها : في الأصول ، ولاشك أنه ضلال ، وسبب كل فساد ، وهو المشار إليه في القرآن ، والثاني : في الآراء ، والحروب ، ويشير إليه قوله ﷺ لمعاذ . وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن : « تطاوعا ولا تختلفا » ولا شك أيضا أنه حرام ؛ لما فيه من تضييع المصالح الدينية والدنيوية ، والثالث : في الفروع كالاختلاف في الحلال والحرام ونحوهما ، والذي نقطع به أن الاتفاق خير منه أيضا ، لكن هل هو ضلال كالقسمين الأولين أم لا ؟ فيه خلاف ، فكلام ابن حزم ومن سلك مسلكه ممن يمنع التقليد يقتضي الأول ، وأما نحن فإنا نجوّز التقليد للجاهل ، والأخذ عند الحاجة بالرخصة من أقوال بعض العلماء من غير تتبع الرُخص ، وهو يقتضي الثاني ، ومن هذا الوجه قد يصح أن يقال : « الاختلاف رحمة » ، فإن الرخص منها بلا شبهة ، وهذا لا ينافي قطعاً القطع بأن الاتفاق خير من الاختلاف ، فلا تنافي بين الكلامين ، لأن جهة الخيرية تختلف باختلاف وجهة الرحمة ، فالخيرية في العلم بالدين الحق الذي كلف الله تعالى به عباده وهو الصواب عنده ، والرحمة في الرخصة فيه وإباحة الإقدام بالتقليد على ذلك ، ورحمة نكرة في سياق الإثبات لاتقتضي العموم ، فيُكتفى في صحته أن يحصل في الاختلاف رحمة مّا ، في وقت ما ، في حالة مّا ، على وجه مّا ، فإن كان ذلك حديثاً فيخرج على هذا ، وكذا إن لم يكنه ، وعلى كل تقدير نقول إن الاتفاق مأمور به ، والقول بأن الاتفاق مأمور به يلتفت إلى أن المصيب واحد أم لا ؟ فإن قلنا : إن المصيب واحد – وهو الصحيح – فالحق في نفس الأمر واحد ، والناس كلهم مأمورون بطلبه ، واتفاقهم عليه مطلوب ، والاختلاف حينئذ منهي عنه ، وإن عذر المخطىء ، وأثيب على اجتهاده وصرف وسعه لطلب الحق .

فقد أخرج البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه من حديث عمرو بن العاص « إذا حكم الحاكم فاجتهد وأصاب فله أجران » وإذا قلنا : كل مجتهد مصيب فكل أحد مأمور بالاجتهاد ، وباتباع ما غلب على ظنه ؛ فلا يلزم أن يكونوا كلهم مأمورين بالاتفاق ، ولا أن يكون اختلافهم منهياً عنه ، وإطلاق الرحمة على هذا التقدير في الاختلاف أقوى من إطلاقها على قولنا : المصيب واحد ، هذا كله إذا حملنا الاختلاف في الخبر على الاختلاف في الفروع ، وأما إذا قلنا : المراد بالاختلاف في

الصنائع والحِرَف فلا شك أن ذلك من نعم الله تعالى التي يطلب من العبد شكرها كما قال الحليمي في « شعب الإيمان » ، لكن كان المناسب على هذا أن يقال : اختلاف الناس رحمة ، إذ لا خصوصية لأمة بذلك ؛ فإن كل الأمم مختلفون في الصنائع ، والحِرَف ، لا هذه الأمة فقط ، فلا بد لتخصيص الأمة من وجه ، ووجهه إمام الحرمين بأن المراتب والمناصب التي أعطيتها أمته ﷺ لم تعطها أمة من الأمم ؛ فهي من رحمة الله تعالى لهم ، وفضله عليهم لكنه لا يسبق من لفظ الاختلاف إلى ذلك ولا إلى الصنائع والحِرَف ، فالحق الإبقاء على الظاهر المتبادر وتأويل الخبر بما تقدم .

هذه خلاصة كلامه أي (السبكي) ، ولا يخفى أنه مما لا بأس به ، نعم كون الحديث ليس معروفاً عند المحدثين أصلًا لا يخلو عن شيء ، فقد عزاه الزركشي في الأحاديث المشتهرة إلى « كتاب الحجة » لنصر المقدسي ، ولم يذكر سنده ولا صحته ، لكن ماورد يقويه في الجملة مما نقل من كلام السلف والحديث الذي أوردناه قبل وإن رواه الطبري ، والبيهقي في المدخل بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما على أنه يكفي في هذا الباب الحديث الذي أخرجه الشيخان وغيرهما ، فالحق الذي لا محيد عنه أن المراد اختلاف الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، ومن شاركهم في الاجتهاد ، كالمجتهدين المعتد بهم من علماء الدين ، الذين ليسوا بمبتدعين ، وكون ذلك رحمة لضعفاء الأمة ، ومن ليس في درجتهم مما لاينبغي أن ينتطح فيه كبشان ولا يتنازع فيه اثنان فليفهم » . ا.هـ كلام الألوسي .

٩ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أُخرجت للناس** ﴾ ننقل بعض الأحاديث :

أ – في الحديث الحسن الذي رواه الترمذي وغيره قال رسول الله ﷺ : « أنتم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل » .

ب – روى الإمام أحمد : قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال : يارسول الله أي الناس خير ؟ قال : « خير الناس أقراهم ، وأتقاهم لله ، وآمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ، وأوصلهم للرحم » .

ح – روى الإمام مسلم عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « عُرضت عليَّ الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهيط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظيم ، فقيل لي : انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : هذه

أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، ولا عذاب » فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ . وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً . وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « ما الذي تخوضون فيه ؟ فأخبروه فقال : هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ، ولايكتوون ، ولايتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكّاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : أنت منهم ، ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : سبقك بها عكّاشة » .

وفي حديث حسن « فإن الله وعدني سبعين ألفا ، مع كل ألف سبعون ألفا وزادني ثلاث حثيات » . وفي حديث حسن رواه أبو القاسم الطبراني قال رسول الله ﷺ : « أما والذي نفس محمد بيده ليبعثن منكم يوم القيامة إلى الجنة مثل الليل الأسود زمرة جميعها يحيطون الأرض ، تقول الملائكة : لَما جاء مع محمد ﷺ أكثر مما جاء مع الأنبياء » . وفي حديث إسناده حسن قال عليه الصلاة السلام : « أهل الجنة عشرون ومائة صف ، لكم منها ثمانون صفاً » . وفي حديث رواه البخاري ومسلم قال عليه الصلاة السلام : « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولًا الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتينا من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق ، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه ، الناس لنا فيه تبع . غداً لليهود ، وللنصارى بعد غد » .

كلمة في سياق المقطع الأول من القسم الرابع :

١ - يلاحظ أن مقدمة سورة البقرة بدأت بالكلام عن المتقين المهتدين بالكتاب ، المؤمنين المصلّين المنفقين ، ثم ثنّت بالكلام عن الكافرين : ﴿ **إن الذين كفروا** ... ﴾ والملاحظ أن هذا المقطع : بدأ بالنهي عن طاعة أهل الكتاب ، التي تجرّ إلى الكفر ، ثم ثنى بالدعوة إلى التقوى الكاملة والاعتصام بالقرآن ، والدعوة إليه ، ونهى عن التفرق ، واستقرت مجموعة منه على قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين**﴾. ثم جاءت مجموعة تبين خيرية هذه الأمة، وتأخذ على أهل الكتاب انحرافهم ، وتذكر ماعوقبوا به ، وإذ تذكر شرارهم ، تذكّر بخيارهم ، وتستقر المجموعة على قوله تعالى : ﴿ **والله عليم بالمتقين** ﴾ .

فهاتان المجموعتان من هذا المقطع تعملان في تعميق قضية التقوى ، وكما أن مقدمة

سورة البقرة تحدثت عن الكافرين بعد المتقين ، فإن هذا المقطع ينتهي بقوله تعالى ﴿ **إن الذين كفروا ..** ﴾ . ﴿ **إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صِرٌّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون** ﴾ .

لاحظ أن كل شيء من أخلاق المتقين يفعله الكافرون لا يقبل منهم .

٢ - في مقدمة سورة البقرة ورد قوله تعالى ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ . وهذا المقطع بعد أن أمرنا بأن نعتصم بالله ، ﴿ **ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم** ﴾ . وبعد أن أمرنا بالاعتصام بالقرآن مبيناً أن ذلك هو طريق الهداية ، أمرنا بأن ندعو إلى الخير ، ونأمر بالمعروف ، وننهى عن المنكر ، وبيّن أن في ذلك الفلاح .

﴿ **ولتكن منكم أُمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ . وإذن فقد فصّلت آيات في هذا المقطع في موضوع الهداية والفلاح ، بأن بينت معنى مما يدخل في الاهتداء بالقرآن ، ويتوقف عليه الفلاح .

ثم إن مجموعة من الآيات بينت أن الخيرية في هذه الأمة مرتبطة بموضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والإيمان بالله ، وبينت أن أهل الكتاب الملتزمين بالإيمان بالله واليوم الآخر ، والآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر ، لايستوون مع غيرهم من أهل الكتاب .

فالمقطع عمّق قضية التقوى ، وفصّل فيما يدخل فيها .

٣ - لعله اتضح بشكل ما ، صلة هذا المقطع بمقدمة سورة البقرة من خلال ما مر ، فلنر محله في سياق سورة آل عمران :

في القسم الأول من سورة آل عمران ذكر - عز وجل - أنه أنزل القرآن ، وجعله آيات محكمات ، وأخر متشابهات . وفي هذا المقطع يأمرنا الله - عز وجل - بالاعتصام بكتاب الله ، ويحذرنا أن نكون من المتفرقين ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات** ﴾ فالآيات هنا تحذرنا من التفرق ، فإذا ربطنا بين هذه الآيات ، وآيات القسم الأول التي تعرفنا أن الآيات المتشابهات إنما يتبعها من يريد الفتنة

بين المسلمين ، أدركنا نموذجاً من التفرق المذموم . فلابد للمسلمين أن يلحظوا أن اللقاء ينبغي أن يكون على المحكم ، وعلى التسليم في شأن المتشابه . وعدم الخوض فيه .

وفي القسم الأول ورد قوله تعالى : ﴿ **قل للذين كفروا ستُغلبون وتحشرون إلى جهنم** ﴾ وههنا يذكر الله - عز وجل - ﴿ **لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لاينصَرون ..** ﴾ وفي القسم الأول يذكر الله - عز وجل - الذين يقتلون الأنبياء ، وههنا يذكر الله - عز وجل - ﴿ .. **ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق** ﴾ . وهكذا نجد صدق ما ذكرناه من كون الأقسام الأولى مهّدت لهذا القسم ، فبعد الكلام عن عيسى عليه السلام ، نوقش أهل الكتاب . وبعد هذا النقاش نهينا عن طاعتهم ، وعرفنا أنهم لن يضرونا إلا أذى ، وأنهم مهزومون إن قاتلونا .

٤ - لنتأمل الآن في تسلسل المعاني ضمن المقطع الذي مر معنا :
بدأ المقطع بالنهي عن طاعة أهل الكتاب وبيَّن أن عاقبة ذلك الكفر ، ثم عجَّب من كفر المسلم بعد إيمانه ، وحضَّ على الاعتصام بالله ، ثم بيّن أن طريق الاعتصام : تقوى ، واعتصام بالقرآن ، وعدم تفرق ، ودعوة إلى الخير ، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، ثم فصّل في موضوع التفرق وعاقبته ، ثم بيّن أن حكمة اصطفاء هذه الأمة بسبب اجتماع الإيمان بالله ،والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر لها ، ثم بيّن أن أهل الكتاب مفتوحة لهم الطريق ليدخلوا فى هذه الأمة ، وبيَّن أن أكثرهم لا يدخلون ، وبعضهم يدخلون ويفعلون كل ماتستلزمه قضية التقوى .

وفي وسط هذه المعاني ، يبيّن - عز وجل - لنا أن الكافرين من أهل الكتاب لن يضرونا إلا أذى ، وأنهم مغلوبون إن قاتلونا ، وصلة ذلك بالنهي عن طاعتهم ، والاعتصام بالإسلام لا تخفى .

٥ - في بداية هذا المقطع ورد قوله تعالى ﴿ **وكيف تكفرون وأنتم تُتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله** ﴾ وفي وسط هذا المقطع ورد قوله تعالى : ﴿ **ضُربت عليهم الذلّة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ..** ﴾ ومن رأى واقع ما نحن فيه ؛ علم أن في هذه الآية معجزة تدل على أن منزّل هذا القرآن هو المحيط علماً بكل شيء فثبته ذلك على الإيمان .

٦ - لقد بدأ هذا القسم بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين** ﴾ وسار المقطع الأول ليعمّق فينا ما ينبغي أن نفعله .

ويأتي الآن المقطع الثاني ليبدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا** ... ﴾ فالمقطع الثاني في هذا القسم يكمّل في تبيان المواقف التي تترتب على كون الناس مؤمنين وكافرين .

....

لقد حذرنا المقطع الأول في هذا القسم من طاعة أهل الكتاب ، ومن التفرق في الكتاب . وأمرنا بالاعتصام به ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الخير ، وحضّ أهل الكتاب على الإيمان . ﴿ **ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم** ﴾ . وبيَّن لنا أن أهل الكتاب منهم من يؤمن . ﴿ **منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون** ﴾ . وأعطانا صفات المؤمنين منهم ، وعرّفنا على صفات الكافرين ، وبين لنا بعض قوانين الصراع مع الكافرين منهم . ثم جاء حديث عن الكافرين ، ليكون ذلك مقدمة عن النهي عن اتخاذ بطانة من الكافرين . ولو أنك تأملت مقدمة سورة البقرة لذكرتك هذه المعاني في جملة ما تذكرك بقوله تعالى فيها : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ تأمل قوله تعالى هنا : ﴿ **ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ... ﴾ . لتجد أن التفصيل لمقدمة سورة البقرة وفي المقطع واضح ، وصلة المقطع بما قبله من السورة واضحة . ولننتقل إلى المقطع الثاني في القسم الرابع .

المقطع الثاني في القسم الرابع

يمتد هذا المقطع من الآية (١١٨) إلى نهاية آية (١٢٩) وهذا هو

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ

قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

المعنى العام :

رأينا في المقطع السابق تحريم الله علينا طاعة أهل الكتاب ، وأمره لنا بالاعتصام بكتابه ، وعدم التفرق والاختلاف ، وأمره لنا بالدعوة إلى الكتاب والسنّة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وخيرية هذه الأمة بسبب اجتماع الإيمان بالله ، مع الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر لها ، ووعد الله لنا أن ينصرنا على أهل الكتاب إذا قاتلناهم ، وثناء الله على من يؤمن من أهل الكتاب ، ويدخل فيما دخلت به هذه الأمة من عمل . ثم ما أعد الله للكافرين ، وفى هذا المقطع ينهانا الله عزوجل في الآية الأولى عن اتخاذ بطانة من دوننا من الكافرين أو المنافقين ، نطلعهم على أسرارنا ، وما نضمره لأعدائنا ، وبيّن الله - عز وجل - سبب ذلك لأن هؤلاء لايقصرون في مخالفتنا وما يضرنا ، ويرغبون في كل ما يشق على المسلمين ويعنّتهم ، وأنهم لا يضمرون لنا إلا البغضاء ، حتى إنهم ليظهرون ذلك . ثم بصّرنا الله بحالهم أكثر ، فمع أننا نحبهم بحكم الخلْق ، والطبيعة البشرية الصافية . فإنهم لايحبوننا ، ومع أننا نؤمن بالكتاب كله ، فهم يتظاهرون مسايرة لنا بالإيمان ، ولكن الغيظ منا ومن ديننا يأخذ عليهم قلوبهم . فالموقف السليم أن نزيدهم غيظاً ، لا أن نتخذهم خاصتنا ، ومحل أسرارنا . ثم زادنا الله تعريفاً بهم . أنهم لا يفرحون لما يصيبنا من نصر ، أو خير ، أو عز ، وإنما يسوؤهم ذلك ، ويفرحون بما يصيبنا من بلاء ومِحَن . وهم أصحاب كيد للإسلام وأهله ، ولكنا إذا تحققنا بالصبر والتقوى فقد وَعَدنا الله ألا يضرنا كيدهم . ثم شرع الله - عز وجل - يذكرنا بوقائع تطبيقية حدثت لهذه الأمة تدل على أن هذه الأمة إن صبرت واتقت فالله يتولى شأنها كله ، ولايضرها كيد الكافرين أو المنافقين .

المثال الأول من أُحد : إذ كادتْ عشيرتان من الأنصار أن تتأثرا بمواقف الكافرين ، ولكن لتحققهما بالإيمـان ؛ فإن الله عصمهما من ذلك . ومن ثم يأمر الله المؤمنين بالتوكل عليه ؛ لأنهم إن توكلوا عليه أنقذهم من كل كيد ، وفتنة ، أو تخطيط ماكر . ثم ذكّرنا الله - عز وجل - بنصرنا يوم بدر مع ضعفنا وقلتنا ، وأمرنا بالتقوى شكراً له على ذلك ، وهذا هو المثال الثاني وقد بيّن الله - عز وجل - بعض ما فعله لنا يوم بدر ؛ ليحقق المثل ما هو مسوق له من نموذج على ما مر أنه في حالة صبرنا وتقوانا لايضرنا كيد الكافرين أو المنافقين ، بل الله بفضله يفعل ما ينقذنا منهم ،وينصرنا عليهم ، بأن يمدنا بمدد من الملائكة ؛ لينصرنا على الكافرين ، وليمزقهم ، أو يرد كيدهم خائباً .

وتعقيباً على هذا كله يوجه الله رسوله ويعلمه أن الأمر كله لله ، الملك ملكه ، والأمر أمره ، والتدبير تدبيره ، وليس لأحد معه ملك أو أمر أو تدبير . يعذّب من شاء ، وينصر من شاء ، ويغفر لمن شاء ، ويوفق من يشاء ، ويخذل من يشاء ورحمته وسعت كل شيء .

المعنى الحرفي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم** ﴾ بطانة الرجل هم خاصته وأصفياؤه الذين يُطلعهم على أدخل أمره . وقوله ﴿ **من دونكم** ﴾ دخل فيه عامة أهل الأديان ، وأهل الإلحاد ، وأهل النفاق . وكل من دخل في قول من أقوال رسول الله عليه السلام « ليس منا » . فصار المعنى : لا تتخذوا خواص لكم ، وأصفياء ، تطلعونهم على أسراركم ، ومخططاتكم من دون أبناء دينكم ، وهم المسلمون الصادقون . ودخل في هذا النهي أن نجعل أمثال هؤلاء مستشارين لنا ، وأمناء سر . ومخالطين لنا ، وأصحاب عِشْرة . ثم وصف مَن دوننا بالنسبة لنا ﴿ **لا يألونكم خبالا** ﴾ الخبال : الفساد ، أي : لايقصرون في فساد دينكم ، ولا يقصرون في إفساد أمركم . فهم يسعون في مخالفتنا ، وما يضرنا بكل ممكن ، وبما يستطيعون من المكر والخديعة . ﴿ **وَدُّوا ماعنتم** ﴾ أي ودوا عَنتكم والعنت : شدة الضرر ، والمشقة ، والحرج ، أي : يودون ويرغبون بما يشق عليكم ، ويحرجكم . فهؤلاء لا يتمنون إلا أن يضروكم في دينكم ودنياكم ، أشد الضرر وأبلغه ، ومن كانت هذه خبيئة نفسه فكيف تتخذه خاصة لك ، وبطانة ، وملازماً ، ومستشاراً ، ومستنصحاً ! ﴿ **قد بدت البغضاء من أفواههم** ﴾ أي : إنهم مع ضبطهم أنفسهم ينفلت من ألسنتهم ما يُعلَم به بغضهم للمسلمين ، فإن بعض كلامهم يدل على بغضائهم . ﴿ **وما تخفي صدروهم** ﴾ من البغض لكم ﴿ **أكبر** ﴾ مما بدا . لقد لاح على صفحات وجوههم ، وفلتات ألسنتهم من العداوة ، مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ، مالايخفى مثله على لبيب عاقل ، ولهذا ذيلت الآية بقوله تعالى :

﴿ **قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعلقون** ﴾ أي : قد وضحنا لكم الآيات الدالة على وجوب الإخلاص في الدين ، وموالاة أولياء الله ، ومعاداة أعدائه ، وعدم اتخاذهم بطانة ؛ من أجل أن تعقلوا هذه الآيات فتفهموا ، وتعملوا . ﴿ **ها أنتم أولاء** ﴾ المتصفون بما يأتي مما يدل على خطئكم في واقع الأمر ﴿ **تحبونهم ولا يحبونكم**﴾ أي :

تحبون أصنافاً من دونكم ، ولا يحبونكم هم . هذا بيان للخطأ حيث نبذل محبتنا لأهل البغضاء فنجعلهم بطانة وهم أعداء . ﴿ **وتؤمنون بالكتاب كله** ﴾ أي : بكل كتاب أنزله الله وبكل وحي ، ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب . أما هم فمنافقون . ﴿ **وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عَضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ** ﴾ الأنامل أطراف الأصابع ، ويوصف المغتاظ والنادم بعضّ الأنامل ، والبنان والإبهام ، وعضّ الأنامل من الغيظ تعبير عن أشد الغيظ وأفظعه ، فصار المعنى : وإذا لقوكم أظهروا لكم من الإيمان مايطمئنكم إليهم ، ويحببهم إليكم ، وإذا فارقوكم ، أو خلا بعضهم إلى بعض أظهروا أشد الغيظ والحنق عليكم . فإذا كان الأمر كذلك ، تؤمنون بكتابهم ، ويكفرون بكتابكم ، ويضمرون لكم من الحقد والغيظ أفظعه ، فأنتم أحق بالبغضاء لهم ، فما بالكم تحبونهم ؟ ففي الآية توبيخ شديد لنا على محبتنا لمن دوننا من أهل الكتاب ، فضلًا عن غيرهم . فكأننا في هذا الموقف أضعف منهم في حقنا ، وهم أصلب منا في باطلهم . ثم علّمنا الله الموقف الصحيح منهم فقال : ﴿ **قل موتوا بغيظكم** ﴾ أي : مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ، ويغيظكم ذلك منهم ، فاعلموا أن الله متم نِعَمه على عباده المؤمنين ، ومكمِّل دينه ، ومعلٍ كلمته ، ومظهر عبادَهُ ، فازدادوا غيظاً إلى غيظكم حتى تهلكوا به . ﴿ **إن الله عليم بذات الصدور** ﴾ أي : هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم ، وتكنُّه سرائركم من البغضاء والحسد ، والغل للمؤمنين ، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريَكم خلاف ما تأملون ، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها ، لا محيد لكم عنها ، ولا خروج لكم منها . وهل قوله تعالى ﴿ **إن الله عليم بذات الصدور** ﴾ هو من تتمة ما أمر الله رسوله والمؤمنين أن يقولوه لهم ؟ أو هو تذييل للآية كلها ؟ فإذا كان الأول فيكون معناه : وقل لهم إن الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم ، وهو مضمرات الصدور . فلا تظنوا أن شيئا من أسراركم يخفى عليه . وإذا كان الثاني ، يكون معناه : لا تتعجب مما أمرتك به ، واعمل به ، وكن واثقاً مما أعلمتك به من حالهم ، ومواقفهم منكم ، فإني عليم بذات الصدور . ثم بيّن الله - عز وجل - حالهم منا ، بما يزيدنا بصيرة في أمرهم ، وبما يقوّي عزائمنا في أمرهم فلا نتخذهم بطانة بل أعداء ، فقال : ﴿ **إن تمسَسْكم حسنة تسؤهم** ﴾ هذه حالهم الدالة على شدة عداوتهم للمؤمنين ، وهو أنه إذا أصاب المسلمين خصب ، ونصر ، وتأييد ، وكثرة ، وعزّة ، ساء غيرهم ذلك . فالمعنى إذن : إن تصبكم غنيمة ، ونصرة ، ورخاء ، وخصب ، يحزنهم ذلك ، ﴿ **وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها** ﴾ أي : وإن

تصبكم سنة جدب ، أو هزيمة ،يفرحوا بذلك إن أصابكم - وهذا منتهى العداء - ثم وجهنا الله - عز وجل - إلى ما إن تحققنا به لايضرنا كيد غيرنا لنا ، وهو الصبر والتقوى فقال : ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئاً** ﴾ أي : وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقّة ، وما ابتلاكم الله به ، وتتقوا الله في اجتناب محارمه ، لايضركم مكرهم وخططهم ضدكم شيئاً ، بل تكونون في حفظ الله، وذلك لقوله : ﴿ **إن الله بما يعملون محيط** ﴾ فهو المحيط بمكرهم ، وكيدهم . فإذا كنتم صابرين متقين أحبط ذلك لكم .

وفى نهاية الآية إرشاد من الله تعالى إلى طريق السلامة من شر الأشرار ، وكيد الفجّار ، بالتحقق بالصبر والتقوى ، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائنا ، فلا حول ولا قوة لنا إلا به ، وهو الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره . ومشيئته ، ومن توكل عليه كفاه .

فوائد :

١ - نهتنا الآيات أن نتخذ بطانة من دوننا ، وبينت لنا سبب ذلك ، وشعرنا من خلال الآيات أن المقصود الأول بذلك هم كفرة أهل الكتاب ، وإذا كانوا كذلك ، فغيرهم أولى أن نحذر . والنهي أعم من هذا كله ، فالنهي منصب على عدم جواز اتخاذ بطانة من دوننا ، دخل في ذلك الكافرون كلهم من أهل الكتاب ، والمشركون والملحدون ، ودخل في ذلك المنافقون لأنهم ليسوا منا . قال تعالى ﴿ **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض** ﴾ والمنافقون يُعرفون من أوصافهم في كتاب الله ، ومن أقوالهم . ويدخل في ذلك من باب الورع والاحتياط ، كل من نفى رسول الله ﷺ كونه منا من ذلك « من غشنا فليس منا» ، « من رغب عن سنتي فليس مني » ، « ومن أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » ، « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية » ، « ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » ، « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقّر كبيرنا » ، « ليس منا من لم يجل كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه » . أمثال هؤلاء ينبغي أن نحتاط ، فلا نتخذهم خاصتنا ، ولا نفشي لهم أسرارنا ، ولا نظهرهم على عوراتنا ، ولا نطلعهم على مخططاتنا ، ولا نستشيرهم في أمورنا .

٢ - في حديث صحيح رواه النسائي وغيره أن رسول الله ﷺ قال : « ما بعث الله

من نبي ، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالخير وتحضُّه عليه ، وبطانة تأمره بالسوء وتحضُّه عليه ، والمعصوم من عصمه الله » .

٣ - روى ابن أبي حاتم : « قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ ، كاتب ، فلو اتخذته كاتباً ؟ فقال : قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين » . قال ابن كثير : « ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لايجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين ، واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب » أقول : من كلام ابن كثير يفهم جواز استعمالهم فيما سوى ذلك .

وبعد أن بيَّن الله - عز وجل - النهي عن اتخاذ بطانة من دوننا وأسبابه ، ووعد عباده المؤمنين ، أن يحبط مكر الكافرين في حالة تقوانا ، وصبرنا . يضرب لنا مثلين عن حالتين تولى عباده المؤمنين فيهما : يوم أحد ، ويوم بدر ، فأحبط كيد أعدائهم بسبب صبرهم وتقواهم . والدليل على أن هاتين القصتين مساقتان كنموذجين على تولي الله المؤمنين ، وإحباط كيد أعدائهم في حالة صبرهم وتقواهم ، هو ورود ذكر الصبر والتقوى في الآيات السابقة :

﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً** ﴾ .

وروده فيما يأتي : ﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم** ﴾ .

﴿ **وإذ غدوت من أهلك تُبوِّىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم** ﴾ المراد بالقتال هنا معركة أحد ، والغدُوّ : الخروج صباحاً ، والمعنى : واذكر يا محمد مثلاً على تولي الله المؤمنين ، حين خرجت من أهلك بالمدينة تبوِّىء ، **أي** : تنزل المؤمنين في منازلهم ومواطنهم ، ومواقفهم للقتال من الميمنة ، والميسرة ، والقلب ، والجناحين ، والساقة . ﴿ **والله سميع عليم** ﴾ أي : سميع لأقوالكم ، عليم بنياتكم وضمائركم . ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليُّهما** ﴾ هذا الذي سيقت القصة من أجله ، وأمر بالتذكير فيه ، إذ حمى الله - عز وجل - طائفتين من المؤمنين يوم أحد من أن تتخذا مواقف المنافقين ، إذ انسحبوا ، فكان في ذلك حفظ لهما ، ودعم لرسول الله ﷺ ، وتفشيل لكيد المنافقين . والمعنى : واذكر إذ همت عشيرتان : هم بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس ، أن تجبنا وتضعفا ، وتنسحبا ، ولكن الله محبهما وناصرهما ، ومتولِّي أمرهما ولذلك صرفهما عن مشاركة المنافقين بالانسحاب فلم يفعلا . وهذه القصة تعلِّمنا أن نسلم أمورنا لله ، وأن نتوكل عليه ، وألا نخالف أمره . ومن ثم

ختمت الآية بالأمر بالتوكل فقال تعالى : ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ . أمرنا ألا نتوكل إلا عليه ، وألا نفوّض أمورنا إلا إليه .

فوائد :

١ - روى البخاري عن عمر قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : فينا نزلت ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا** ﴾ الآية قال : نحن الطائفتان بنو حارثة ، وبنو سلمة وقال سفيان مرة وما يسرني أنها لم تنزل لقوله تعالى ﴿ **والله وليهما** ﴾ .

٢ - المعروف أن رسول الله ﷺ خرج إلى أُحد يوم الجمعة بعد الصلاة . وقد قال الله تعالى ﴿ **وإذ غدوت** ﴾ وفي الجمع بين هذا وهذا ؟ قال ابن جرير : إنّ غدوهم ليبوئهم مقاعد إنما كان يوم السبت أول النهار .

٣ - خرج رسول الله ﷺ يوم أُحد بألف من المدينة . وكان عدد المشركين ثلاثة آلاف ، فلما كان الرسول عليه الصلاة والسلام ومن معه في الشوط (مكان في الطريق إلى أحد) . رجع عبد الله بن أبي رأس المنافقين بثلث الجيش مغضباً ، لكون رسول الله ﷺ لم يأخذ برأيه وقوله ، هناك كادت الطائفتان أن تتزلزلا ، وترجعا مع المنافقين ، ولكن الله عصمهم تولياً للمؤمنين ، وإحباطاً لكيد المنافقين .

ومن ثم جاءت هاتان الآيتان في معرض البيان أن كيد الكافرين والمنافقين لا يضر المؤمنين إن صبروا واتقوا . ثم ضرب الله مثلاً آخر على تولي المؤمنين ، وخذلان أعدائهم ، وإحباط كيدهم بما حدث يوم بدر . فلنتذكر الصلة بين أجزاء هذا المقطع ، وارتباط آخره بأوله ، وأن المقطع جاء من أجل أن لا نتخذ بطانة من دوننا ، فلا نتخذ بطانة خوفاً من كيد الكافرين والمنافقين ، لأن الله يحبط كيدهم ، وينصرنا عليهم ، بصبرنا وتقوانا لا بمخالفتنا أمره . وما حدث يوم بدر نموذج :

﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة** ﴾ أي : ولقد نصركم الله يوم بدر وأنتم أذلة ، والأذلة جمع قلة لذليل ، واستعمال جمع القلة يفيد أنهم كانوا على ذلتهم وضعف شوكتهم قليلين ، ليعلم أن النصر من عند الله ، لا بكثرة العدد والعدة ، وهذا كما قلنا آت في سياق ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً** .. ﴾ الآية ثم في سياق ﴿ **لاتتخذوا بطانة من دونكم** ﴾ فمن تذكّر يوم بدر أعطاه ذلك درساً أن يستقيم على أمر الله . وأن يخلص وده للمؤمنين وأن يفاصل المشركين ، والكافرين ، والمنافقين ، ولايخشى إلا ربه والله يتولى شأنه ، فيثبط عدوه وينصر جنده ، ﴿ **فاتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾ أي : فاتقوا

الله بالقَيام بما أمر ، لعلكم تتحققون بمقام الشكر الذى لاينا له إلا القليل ﴿ **وقليل من عبادي الشكور** ﴾ (سورة سبأ : ١٣) ﴿ **إذ تقول للمؤمنين** ﴾ اختلف المفسرون في هذا الوعد ، هل كان يوم بدر ، أو يوم أحد ، على قولين . الأرجح فيهما والذي يتفق مع السياق أن قوله تعالى ﴿ **إذ تقول للمؤمنين** ﴾ متعلق بقوله تعالى : ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر** ﴾ وهو قول الحسن البصري ، والشعبي ، وغيرهم ، . واختاره ابن جرير . ﴿ **ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزَلين** ﴾ روى ابن أبي حاتم عن الشعبي ﴿ **ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين** ﴾ **إلى قوله** ﴿ ... **مسومين** ﴾ قال : فبلغت كرزا[1] الهزيمة . فلم يمد المشركين ، ولم يمد الله المسلمين بالخمسة آلاف » هذا ما قاله الشعبي ، والمذكور في سورة الأنفال أن الله وعد المؤمنين أن يمدهم بألف ، وقد أمدهم بهم . وهل أمدهم بالثلاثة ثم بالخمسة ؟ قولان للمفسرين ، لأن التنصيص على الألف في سورة الأنفال لا ينافي الثلاثة آلاف فما فوقها لقوله : ﴿ **مردفين** ﴾ بمعنى : يردفهم غيرهم ، ويتبعهم ألوف أخر وعلى كل الأقوال ، فقد قاتلت الملائكة يوم بدر ، أما عدد من قاتل ففيه خلاف . ومعنى الآية : « ألا يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين لنصرتكم » . وجيء بالاستفهام الذي يفيد الإنكار وبعده (لن) التي تفيد تأكيد النفي للإشعار بأنهم كانوا لقلتهم ، وضعفهم ، وكثرة عدوهم ، كالآيسين من النصر . ثم إن في قول الله تشجيعاً لهم ، وإنكاراً عليهم حالهم ﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين** ﴾ في قوله تعالى (بلى) بعد (ألن) . ما يفيد أن الكفاية حاصلة بالثلاثة آلاف ، بل لَملَكٌ واحد كاف لخراب العالم كله ، فضلًا عن نصرة المؤمنين ، ولكنه مزيد التطمين ، وزيادة الرعاية .

والمعنى : الثلاثة آلاف تكفيكم ، ولكم خمسة آلاف من الملائكة معلمين أنفسهم ، أو معلمة خيلهم ، لأن السوم : هو العلامة ، وذكر نزول الملائكة في حال مجيء المشركين من فورهم مباشرة ، للتطمين إلى أنه مهما أسرع الكافرون في المجيء لقتالكم ، فإنّ نزول الملائكة لا يتأخر عن إتيان الكافرين ، بل يأتي مباشرة ، فاطمئنوا . وقد رأينا من قبل أن الشعبي يرى أن الخمسة آلاف لم تنزل ، القول الثاني وهو لأكثر من مفسر منهم الربيع بن أنس قال : أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم

(١) رواية الشعبي أن كرز بن جابر كان يمدّ المشركين فبلغ ذلك المسلمين فشق عليهم .

صاروا خمسة آلاف/ ﴿ **وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به** ﴾ أي : وما جعل الله إنزال الملائكة ، وإعلامكم بإنزالهم ، إلا بشرى لكم ، وتطييباً لقلوبكم ، وتطمينا لها ، وإلا فإن النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم ؛ فإنه ذو العزة التي لا ترام ، والحكمة في قدره وأحكامه ، وتكليفه ، ونصره أو خذلانه ، ومن ثم ختمت الآية بقوله تعالى ﴿ **وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم** ﴾ . أي : لا من عند المقاتلة ، ولا من عند الملائكة . ولكن ذلك كان رحمة بعباده ، وتقوية لهم ، وإشعارهم أنهم ليسوا وحدهم من خلقه في مقابلة أعداء الله ، فهو العزيز الذي لا يغالب ، الحكيم الذي يعطي النصر لأوليائه ، ويبتليهم بجهاد أعدائه ، ثم بيّن الله - عز وجل - لماذا شرع الجهاد والجلاد ، ولماذا كلّف عباده بالقتال ، ولماذا وعدهم بالنصر ، وأعطاهم إياه فقال : ﴿ **ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين** ﴾ أي : ليهلك طائفة من الذين كفروا ، أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة؛ فيرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم ، فلا ينالون ما أمّلوا . وحقيقة الكبت : شدة وَهَن تقع في القلب ، ثم بيّن الله - عز وجل - أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له ، وأن علينا الطاعة وهو الفعّال لما يريد . ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ بل الأمر كله لله ، ﴿ **أو يتوب عليهم أو يعذبهم** ﴾ أي : إما أن يتوب عليهم مما هم فيه من الكفر ؛ فيهديهم بعد الضلالة ، وإما أن يعذبهم في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم . ﴿ **فإنهم ظالمون** ﴾ أي : مستحقون للتعذيب لظلمهم . فصار المعنى : إن الله وحده هو مالك أمرهم ، فإما أن يهلكهم ، أو يهزمهم ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر ، وليس لك من أمرهم شيء ، إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ، ومجاهدتهم . ثم ختم هذا المقطع كله بقوله تعالى : ﴿ **ولله ما في السموات وما في الأرض** ﴾ أي : الجميع ملك له ، وأهلها عبيد بين يديه ، فليكن رغبتك ورهبتك إليه . ﴿ **يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء** ﴾ أي : هو المتصرف فلا معقب لحكمه ، يوفق من شاء للإسلام ، ويغفر له إن شاء ، ويخذل من يشاء فيعذبه لكفره وضلاله ، لايُسأل عما يفعل وهم يُسألون . إن غفر فذلك فضله ، وإن عذّب فذلك عدله . ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ سبقت رحمته غضبه ، فلا يهلك عليه إلا هالك ، إلا من يستحق العذاب والخذلان ، ولايظلم ربك أحداً .

فوائد :

١ - كان يوم بدر يوم الجمعة ، في السابع عشر من رمضان من سنة اثنتين للهجرة ،

وهو يوم الفرقان الذي أعزّ الله فيه الإسلام وأهله ، ودفع فيه الشرك وأهله . هذا مع قلة المسلمين يومئذ ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا ، فيهم فارسان وسبعون بعيراً ، والباقون مشاة ليس معهم من العُدَد جميع ما يحتاجون إليه . وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف ، في سوابغ الحديد ، والبيض ، والعُدَّة الكاملة، والخيل المسوَّمة ، والحلي الزائد ، والجميع عرب ، ليس لأحدهم على الآخر ميزة في تدريب مادي ، وإنما ليظهر الله في شأنهم سنته الخاصة في نصرة حزبه على قلة الأسباب المادية . فعلينا معشر المسلمين دائماً أن نكون حزب الله ليُظهر اللهُ بنا سنتَه في خذلان الكافرين على كثرتهم ، وكثرة ما عندهم ، ونصر المؤمنين على قلتهم وضعفهم ، واستهانة عدوهم بهم . في أثر صحيح ذكره ابن كثير في هذا المقام : أن المسلمين يوم اليرموك استمدوا عمر . فكتب إليهم : إنه قد جاءني كتابكم تستمدوني ، وإني أدلكم على من هو أعز نصراً ، وأحصن جنداً ، الله - عز وجل - فاستنصروه ، فإن محمداً ﷺ قد نُصر في يوم بدر ، في أقل من عدتكم . فإذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوهم ولاتُراجعوني . قال الراوي : « فقاتلناهم فهزمناهم أربع فراسخ » .

٢ - قال علي بن أبي طالب رضي عنه : « كان سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض ، وكان سيماهم أيضا في نواصي خيولهم » . وقال ابن عباس : « كانَ سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرسلوها في ظهورهم ، ويوم حنين عمائم حمر . ولم تضرب الملائكة في يوم سوى بدر ، كانوا يكونون عدداً ومدداً لا يضربون» .

٣ - في سبب نزول قوله تعالى ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ أكثر من رواية وقد يتعدد نزول الآية بتعدد المواقف ، فتكون تذكيراً بها بانطباقها على الحالة الجديدة . ومما ورد في سبب نزول هذه الآية :

أ - روى البخاري عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ يدعو على رجال من المشركين يسميهم بأسمائهم ، حتى أنزل الله تعالى ﴿ **ليس لك من الأمر شيء ...** ﴾ الآية .. وفي حديث رواه الإمام أحمد فيه أسماء هؤلاء : الحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، وفي نهايته : فتيب عليهم كلهم ، أي :فهداهم الله للإسلام .

ب - وروى الإمام أحمد ومسلم « عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد ، وشجّ في وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال : « كيف يفلح قوم

فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل ! » فأنزل الله ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾. وقد ذكر الألوسي جملة الأقوال في أسباب نزول هذه الآية فلننقلها تتميما للفائدة مع ما فيه من تكرار لبعض ماذكرناه :

« أخرج غير واحد » أن رباعية رسول الله ﷺ السفلى اليمنى أصيبت يوم أحد ، أصابها عتبة بن أبي وقاص ، وشجّه في وجهه ، فكان سالم مولى أبي حذيفة أو علي كرم الله تعالى وجهه يغسل الدم والنبي ﷺ يقول : كيف يفلح قوم صنعوا هذا بنبيّهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

« وأخرج أحمد ، والبخاري ، والترمذي ، والنسائي ، وغيرهم ، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ يوم أحد « اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحرث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية » فنزلت هذه الآية ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ الخ .. فتيب عليهم كلهم . وعن الجبائي أنه ﷺ استأذن يوم أحد أن يدعو على الكفار لما آذوه حتى إنه ﷺ صلى الظهر ذلك اليوم قاعداً من الجراح ، وصلى المسلمون وراءه قعوداً ، فلم يُؤْذَن له ونزلت هذه الآية ، وقال محمد بن إسحق . والشعبي : لما رأى ﷺ والمسلمون ما فعل الكفار بأصحابه ، وبعمه حمزة ، من جدع الأنوف والآذان ، وقطع المذاكير ،قالوا : لئن أدالنا الله تعالى منهم لنفعلن بهم مثل ما فعلوا بنا ، ولنمثلنّ بهم مُثلَة لم يمثلها أحد من العرب قط فنزلت . وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، أراد رسول الله ﷺ أن يدعو على المنهزمين عنه من أصحابه يوم أحد ؛ فنهاه الله تعالى عن ذلك وتاب عليهم ونزلت هذه الآية .

وهذه الروايات كلها متضافرة على أن الآية نزلت في أحد ، المعول عليه منها أنها بسبب المشركين ، وعن مقاتل ، « أنها نزلت في أهل بئر معونة ، وذلك أن رسول الله ﷺ أرسل أربعين وقيل : سبعين رجلًا من قُرّاء أصحابه ، وأمّر عليهم المنذر بن عمرو إلى بئر معونة على رأس أشهر من أحد ؛ ليعلّموا الناس القرآن والعلم ، فاستصرخ عليهم عدو الله عامر بن الطفيل ، قبائل من سليم ، من عصية ، ورعل ، وذكوان ، فأحاطوا بهم في رحالهم فقاتلوا حتى قتلوا من عند آخرهم ، إلا كعب بن زيد أخا بني النجار فإنهم تركوه وبه رمق ، فلما علم بذلك رسول الله ﷺ ؛ وجد وجداً شديداً وقنت عليهم شهراً يلعنهم فنزلت هذه الآية فترك ذلك » ا هـ .

٤ - فائدة حول السياق :

قلنا : إن سورة آل عمران هي تفصيل لما أجمل في مقدمة البقرة ، والمقطع الذي بين أيدينا ، حدّد الله - عز وجل - فيه حدود العلاقة بين المؤمنين وغيرهم من الكافرين والمنافقين ، وبيّن فيه أنه لا يحل للمؤمنين أن يتخذوا بطانة لهم من غيرهم من المنافقين والكافرين . مع تبيان السبب ، ونفي كل ما من شأنه أن يدعو إلى مخالفة النهي هذا . وخلال ذلك حلل نفسية الكافرين والمنافقين ، وحقيقة مابأنفسهم تجاهنا ، وما قد يخطىء به المسلم إذ يتصور أنه باتّخاذه بطانة من غير المسلمين يمكن أن يدفع أذى ، أو يستجلب منفعة ، فنفى هذا كله ، مع التربية على العبودية الكاملة .

كلمة فيما مر وسيمر من القسم الرابع :

مرّ معنا من القسم الرابع مقطعان ، وبقي مقطع واحد ، وقد بدأ القسم بالنهي عن طاعة أهل الكتاب ، وبيّن لنا كل ما نحتاجه من أجل ألا نعطي الطاعة لهم ، من تذكير لنا بما يثبتنا على الإيمان ، إلى تذكير لنا بالاعتصام بالكتاب ، إلى أمر لنا بوجوب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الخير ، إلى نهينا عن التفرق ، إلى تذكيرنا بأن كيد أهل الكتاب لا يضرنا ، وأننا منصورون عليهم ، إلى غير ذلك من معان تشكل البديل عن المنفعة المتوهمة في ظن من يظن أن طاعة أهل الكتاب فيها مصلحة ، كما بين لنا ما ينبغي أن يكون حائلا بيننا وبين طاعة أهل الكتاب .

ثم جاء المقطع الثاني لينهانا أن نتخذ بطانة من دوننا كائناً من كانوا ، وبين لناالأسباب التي يحول بيننا وبين أن نتخذهم بطانة ، وذكّرنا بما يعين على ذلك فهاتان طائفتان مؤمنتان كادتا أن تفشلا بسبب حسن ظنهم بالمنافقين يوم أحد ، ثم إن عصمة الله لهما منعتهما من ذلك ، ونصرة الله للمؤمنين يوم بدر ينبغي أن تكون على ذكر منا ، بحيث تقتلع من قلوبنا ما يمكن أن نحذره حين لا نتخذ بطانة من دون المؤمنين . ثم ذكرنا الله - عز وجل - بحكمته التي تجعله يعذب من يشاء ، ويغفر لمن يشاء ، وذلك له تأثيراته في قضية النهي عن اتخاذ بطانة من الكافرين .

وبعد ذلك كله ، يأتي المقطع الثالث والأخير من القسم الرابع ؛ ليبني الجماعة المسلمة بعد أن حذّرها في المقطعين السابقين من أخطر قضيتين يمكن أن تتساهل فيهما ، طاعة أهل الكتاب ، واتخاذ بطانة من دون المؤمنين . فيأتي المقطع الثالث ليأمر بترك

الربا ، ويأمر بالطاعة لله والرسول ، والمسارعة إلى رضوان الله - عز وجل - وينهى عن الوَهَن والحَزَن ، إلى غير ذلك مما سنراه ، مما يبين لنا أن الطريق هو هذا ، لا في اتخاذكم بطانة من دونكم ، أو في طاعتكم لأهل الكتاب ، والملاحظ أن النهي عن أكل الربا يأتي في ابتداء المقطع اللاحق ، فكأن المقاطع الثلاثة تنبه في آياتها الأولى على النّقاط التي يتوهم المسلمون أن فيها مصلحة . ومن نظر إلى ما حدث في عصرنا من طاعة الكثيرين - حكاماً ومحكومين - لأهل الكتاب ، واتخاذهم بطانة من دون المسلمين ، ورؤية كل الحكومات على الأرض الإسلامية تقريباً أن الربا مفيد . من رأى هذا كله أدرك بعض الحكمة في مجيء هذه المعاني في هذا القسم . ومن أدرك أن المقطعين السابقين حددا فيما حددا العلاقةَ بين أهل التقوى وأهل الكفر والنفاق ، أدرك صلة ذلك بمقدمة سورة البقرة .

المقطع الثالث من القسم الرابع

يمتد هذا المقطع من الآية (١٣٠) إلى نهاية الآية (١٤٨) وهذا هو :

الفقرة الأولى

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم

مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾

الفقرة الثانية

وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ

وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

كلمة في السياق :

في هذا المقطع فقرتان كل منهما مبدوءة بنهي :

﴿ **لا تأكلوا الربا** ﴾ . ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا ....** ﴾ .

وفي سياق الفقرة الأولى ، صدرت مجموعة أوامر تعمّق مفهوم التقوى وتحدّد صفات أهلها ، وختمت بآية تذكرنا بالآية الأولى في سورة البقرة :

﴿ **هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** ﴾ . وفي الفقرة الثانية نهي عن الوَهَن والضعف في أي حالة من الأحوال ، وتبيان سنّة الله في خلقه وعباده ، وتبيان بعض مايتحقق به المؤمنون ، وتأتي هذه التعليمات من خلال عرض ما حدث في وقعة أحد ، وتختم هذه الفقرة بتبيان الموقف الصحيح للأنبياء وأتباعهم في صراعهم مع الكفر والكافرين .

والفقرة الثانية مرتبطة بالفقرة الأولى ، من حيث إن المعاني التي بها لا تتحقق ، إلا من خلال التحقق بالمعاني التي رفع الله إليها هِمَمَ المؤمنين في الفقرة الأولى ، وسنرى الارتباط ما بين الآية والآية أثناء التفسير الحرفي للآيات .

المعنى الحرفي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة** ﴾ . فَهِمَ كثير من الجهال : أن الربا المنهي عنه هو المضعَّف ، وهذا منتهى الجهل ، لأن الله في سورة البقرة قال : ﴿ **فلكم رؤوس أموالكم** ﴾ وإنما هذا نهي عن الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه ، وفي النهي عن الربا المضاعف - مع كون المراد كل الربا - إشارة إلى أن الربا من طبيعته التضعيف المؤدي إلى امتصاص دماء الناس ، وإن كانت الآية نازلة بما كان

عليه أهل الجاهلية . فكانوا فى الجاهلية يقولون : إذا حلّ الدين ، إما أن تقضي ، وإما أن تربي ، فإن قضاه وإلا زاده في المدة ، وزاده الآخر في القدر ، وهكذا كل عام ، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً . ﴿ **واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ . مر معنا في أول سورة البقرة أن المفلحين هم المتقون ، وههنا أمرنا بالتقوى لتحصيل الفلاح .

وقد مر معنا في أول سورة البقرة وصف المتقين ، وسيأتي بعد قليل وصف لهم ، وسنرى هنا أنّ أول صفة من صفاتهم الإنفاق في السراء والضراء ، وقد رأينا في آخر سورة البقرة كيف جاء تحريم الربا بعد سياق الأمر بالإنفاق .

وههنا يأتي الأمر بترك الربا ، وفي سياقه يأتي الحضّ على الإنفاق؛ لأن المرابي والربا على طرفي نقيض مع المنفق والإنفاق . والأمر بالتقوى في هذا السياق ، وتعليق الفلاح عليها أمر بترك أكل الربا بشكل ضمني ، وإشارة إلى عدم الفلاح معه . ثم توعّد الله بالنار وحَذّر منها فقال تعالى : ﴿ **واتقوا النار التي أعدت للكافرين** ﴾ . كان أبو حنيفة يقول : هي أخوف آية في القرآن؛ حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدّة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه ، ثم أتبع ذلك بتعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفرهم على طاعته ، وطاعة رسوله فقال : ﴿ **وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون** ﴾ قال النسفي : « وفيه رد على المرجئة في قولهم « لا يضر مع الإيمان ذنب ولا يعذب بالنار أصلًا » . وعندنا : غير الكافرين من العصاة قد يدخلها ، ولكن عاقبة أمره الجنة . وفي ذكره تعالى (لعل وعسى) فى نحو هذه المواضع - وإن قال أهل التفسير إن لعل وعسى من الله للتحقيق - ما لايخفى على العارف من دقة مسلك التقوى ، وصعوبة إصابة رضى الله تعالى ، وعزة التوصل إلى رحمته وثوابه ، ثم ندبنا تعالى إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات . فقال تعالى : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السمٰوات والأرض أعدت للمتقين** ﴾ كما أعدت النار للكافرين، أعدت الجنة للمتقين، ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة : الإقبال على ما يوصل إليهما من طاعة وإخلاص ، جمعة وجماعة . قال ابن كثير : وقد قيل إن في قوله ﴿ **عرضها السمٰوات والأرض** ﴾ تنبيهاً على اتساع طولها ... وقيل بل عرضها كطولها . لأنها قبة تحت العرش ، والشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله ، وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وسقفها عرش الرحمن » ، ثم وصف الله أهل الجنة المتقين فقال : ﴿ **الذين ينفقون في السراء والضراء** ﴾ . أي : في الشدة والرخاء ، والصحة

والمرض ، في حالة اليسر والعسر، وفي جميع الأحوال لأنها لاتخلو من حالة مسرة ومضرة .

وافتتحت الصفات بذكر الإنفاق لأنه أشقّ شيء على النفس ، وأدلِّه على الإخلاص ، ولأن الحاجة دائماً شديدة إليه في مجاهدة العدو ، ومواساة فقراء المسلمين . ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ أي والممسكين الغيظ عن الإمضاء ، والغيظ : توقد حرارة القلب من الغضب ، وكظمه أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ، ولا يُظهر له أثراً ، فالمتقون إذا ثار بهم الغيظ كظموه ، بمعنى كتموه فلمْ يُعلموه ، ﴿ **والعافين عن الناس** ﴾ أي : إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه ، في وصفهم بكظم الغيظ بيَّن تعالى أنهم لا يُعمِلون غضبهم في الناس ، بل يكفُّون عنهم شرَّهم ، ويحتسبون ذلك عند الله . وفي هذه الصفة أثبت الله لهم أنهم مع كفِّ الشر يعفون عن من ظلمهم في أنفسهم ، فلا يبقى في أنفسهم موجِدة على أحد ، وهذا أكمل الأحوال ، إذ إنه من مقامات المحسنين ، ومن ثَم ختمت هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ قال الثوري : « الإحسان أن تحسن إلى المسيء ، فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة » والإحسان أوسع مدلولًا ، فهو فعل الحسن ، والأحسن مع الإخلاص لله . ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة** ﴾ الفاحشة : هي الكبيرة كالزنا وشرب الخمر . ﴿ **أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله** ﴾ بلسانهم أو بقلوبهم ليبعثهم على التوبة . ﴿ **فاستغفروا لذنوبهم** ﴾ فتابوا عنها لقبحها نادمين . والمعنى : أنهم إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار . ﴿ **ومن يغفر الذنوب إلا الله** ﴾ أي : لا أحد يغفر الذنوب إلا الله ، وفي قوله تعالى هذا تطييب لنفوس العباد ، وتنشيط للتوبة ، وبعث لها، وردع عن اليأس والقنوط ، وبيان لسعة رحمته ، وقرب مغفرته من التائب ، وإشعار بأن الذنوب وإن جلّت ، فإن عفوه أجل ، وكرمه أعظم . ﴿ **ولم يصرُّوا على مافعلوا** ﴾ أي : ولم يقيموا على قبيح فعلهم ، والإصرار : الإقامة ، أي تابوا من ذنوبهم ، ورجعوا من قريب ، ولم يستمروا على المعصية ، ويصروا عليها ، ولو تكرر منهم الذنب ، تابوا منه . ﴿ **وهم يعلمون** ﴾ أن من تاب؛ تاب الله عليه .

في الصحيحين عن رسول الله ﷺ : « أن رجلًا أذنب ذنباً فقال رب إني أذنبت ذنباً فاغفره لي ، فقال الله - عز وجل - عبدي عمل ذنباً فعلم أنَّ له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي ، ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره ، فقال تبارك وتعالى : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي ،

ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره لي.فقال عز وجل : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به»قد غفرت لعبدي . ثمّ عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره فقال : الله عز وجل : عبدي علم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به أشهدكم أني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء » . ﴿ **أولئك** ﴾ أي الموصوفون بما ذكر . ﴿ **جزاؤهم مغفرة من ربهم** ﴾ أي : بأن يتوب عليهم . ﴿ **وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ يعطيهم إياها برحمته ماكثين فيها أبدا . ﴿ **ونعم أجر العاملين** ﴾ يعني : المغفرة والجنات . ﴿ **قد خلت من قبلكم سُنَن** ﴾ أي قد مضت من قبلكم قوانين مما سنّه الله تعالى ، تجري على خلقه بإرادته وقدرته ، منها ما هو خاص بالمؤمنين ، ومنها ما هو خاص بالأنبياء والمرسلين . وسنن الله لا تتغير ولا تتبدل ، هذه السنن مذكورة في الكتاب والسنّة ، فلا يعرفها إلا عالم بالكتاب والسنّة ، ومن استكشفها وعلمها ، استطاع أن يعرف الحاضر ، وأن يتحسَّسَ المستقبل ، ومن سنّة الله أن جعل العاقبة للتقوى والمتقين ، وأن جعل الدائرة في النهاية تدور على المكذبين والكافرين ولهذا قال : ﴿ **فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ أي نهاية المكذبين للرسل ، من الاستئصال ، والهلاك ، والعذاب ، والهزيمة . وهذه الآية مقدمة لما سيقصّه الله علينا من سنن أثناء الكلام الطويل عن غزوة أحد ، ودروسها ، وما رافقها مما تحتاجه الأمة الإسلامية في كل حين . ﴿ **هذا بيان للناس** ﴾ أي : هذا القرآن فيه توضيح لكل ما يحتاجه الناس ، كما فيه توضيح لسنن الله التي لا تتخلف ، أنعم به على الناس جميعاً . ﴿ **وهدى وموعظة للمتقين** ﴾ ومع ما حوى من بيان ، ففيه الهداية الكاملة ، والإرشاد الكامل للقلوب ، والأنفس ، والأجسام ، وفيه ترغيب ، وترهيب ، وزجر عن المحارم ، ولكن هذا الهدى ، وهذه الموعظة لا يستفيد منها إلا المتقون ، الذين اتقوا الشرك والمعاصي ، وأقبلوا على الله بطاعة أوامره .

كلمة حول السياق :

لاحظنا أن سورة آل عمران إنما هي تفصيل لما أجمل في مقدمة سورة البقرة ، وتفصيل لما تحتاجه إقامتها من معان . وفي مقدمة سورة البقرة وصفٌ للمتقين . وفي الآية الأولى منها قوله تعالى ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ . وفي آخر الوصف قوله تعالى : ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

ومن تأمل الفقرة التي مرت معنا ، لاحظ أن الآية الأولى منها ختمت بالفلاح ، والآية الأخيرة منها ختمت بقوله تعالى : ﴿ **هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** ﴾ وبين ذلك كلام عن الإنفاق وغيره . والآية الأخيرة ذكرتنا بالهداية والموعظة الموجودتين في هذا القرآن ، لتستعد الأنفس لتلقي الهداية ، والموعظة الموجودتين في الفقرة الثانية من هذا المقطع ، والتي هي دروس لأهل الإيمان من خلال تجربة عملية هي ما جرى يوم أحد .

فوائد حول الفقرة السابقة :

١ - روى البزار عن أبي هريرة قال : « جاء رجل إلى رسوله الله ﷺ فقال : « أرأيت قوله تعالى ﴿ **جنة عرضها السمٰوات والأرض** ﴾ فأين النار ؟ قال : أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء فأين النهار ؟ قال : حيث شاء الله ، قال وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل » .

قال ابن كثير وهذا يحتمل معنيين : أحدهما : أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان .

الثاني : أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشّى وجه العالم من هذا الجانب ، فإن الليل يكون من الجانب الآخر ، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السمٰوات تحت العرش ، كما قال الله عز وجل : ﴿ **كعرض السمٰوات والأرض** ﴾ ، والنار في أسفل سافلين ، فلا تنافي بين كونها كعرض السمٰوات والأرض وبين وجود النار . ا هـ ويمكن أن نعبر عن المسألة بشكل أبسط ، لو افترضنا أن السمٰوات السبع كروية ، وبعضها داخل بعض ، فالسماء السابعة محيطها أكبر من قطرها ، وكون الجنة عليها لا يعني أنه لم يبق مكان للنار ، لأن في داخلها عوالم من السمٰوات والأرض ، فأي حماقة تلك ، حماقة الذي يتصور أن سعة الجنة تقتضي ألا يبقى مكان للنار أو لغيرها .

٢ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس** ﴾ نذكر الأحاديث التالية :

أ - روى الإمام أحمد : قال رجل : يا رسول الله أوصني قال : « **لاتغضب** » ، **قال الرجل ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال فإذا الغضب يجمع الشرَّ كله .**

ب - ومن حديث رواه الإمام أحمد : قال النبي ﷺ « ما الصرعة ؟ قالوا : الصريع الذي لاتصرعه الرجال ، فقال ﷺ : الصرعة كل الصرعة الذي يغضب فيشتد غضبه ، ويحمر وجهه ، ويقشعر شعره ، فيصرع غضبه » .

ح - روى الإمام أحمد بإسناد حسن عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنظر معسراً أو وضع عنه ؛ وقاه الله من فيح جهنم ، ألا إن عمل الجنة حَزَن بربوة - ثلاثاً - ، ألا إن عمل النار سهل بسهوة ، والسعيد من وقي الفتنة ، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ، ما كظمها عبد لله إلا ملأ الله جوفه إيماناً » .

د - روى الإمام أحمد عن معاذ بن أنس قال رسول الله ﷺ : « من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامه حتى يخيّره من الحور العين ما شاء » ورواه أبو داود والترمذي وقال عنه حسن غريب .

هـ - وعن الإمام أحمد عنه عليه السلام : « من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه ملأ الله جوفه أمناً وإيماناً ، ومن ترك لبس ثوب جمال وهو قادر عليه - قال بِشر (أحد رواة الحديث) : أحسبه قال تواضعاً - كساه الله حلة الكرامة ، ومن توج لله كساه الله تاج الملك » .

و - روى أبو داود عن رسول الله ﷺ قوله :

« إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تُطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » ا هـ . وأغضب ناس أبا ذر ، وكان قائماً فجلس ، فقيل له : يا أبا ذر : لم جلست ؟ ثم اضطجعت ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ قال لنا : إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » والقصة في مسند الإمام أحمد .

ز - وقد وردت السنّة في الاستعاذة عند الغضب .

ح - وفى حديث رواه الحاكم ، وقال عنه : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه : « من سره أن يشرف له البنيان ، وترفع له الدرجات ، فليعفُ عمن ظلمه ، ويعط من حرمه ، ويصل من قطعه » .

ط – وذكر ابن كثير حديثاً عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد يقول : أين العافون عن الناس ، هلموا إلى ربكم ، وخذوا أجوركم ، وحق على كل امرىء مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة » .

٣– وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم** ﴾ نذكر هذه الأحاديث :

أ – روى الإمام أحمد وغيره ، والحديث حسن عن رسول الله ﷺ :

« ما من رجل يذنب ذنباً ، فيتوضأ ، ويحسن الوضوء – قال مسعر – فيصلي – وقال سفيان – ثم يصلي ركعتين فيستغفر الله – عز وجل – إلا غفر له » .

ب – وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « قال إبليس : يا رب وعزتك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسامهم فقال تعالى : « وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » .

ح – روى الإمام أحمد أن النبي ﷺأتي بأسير فقال : « اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال النبي ﷺ : عرف الحق لأهله » .

د – وروى أبو يعلى في مسنده وغيره ، والحديث حسن عن رسول الله ﷺ قال : « وما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » ولذلك قالوا : لا كبيرة مع الاستغفار ،ولا صغيرة مع الإصرار .

هـ – وروى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال : « ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر لكم ، ويل لأقماع القول ، ويل للمصرّين الذين يصرّون على مافعلوا وهم يعلمون » .

و – وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولم يصرُّوا على مافعلوا** ﴾ يقول الألوسي :

ثم إن في هذه الآيات – على ماذهب إليه المعظم – دلالة على أن المؤمنين ثلاث طبقات : متقين ، وتائبين ، ومصرّين ، وعلى أن غير المصرّين تغفر ذنوبهم ، ويدخلون الجنة ، وأما أنها تدل على أن المصرّين لا تغفر ذنوبهم ولا يدخلون الجنة كما زعمه البعض فلا ، لأن السكوت عن الحكم ليس بياناً لحكمهم عند بعض ، ودالّ على المخالفة عند آخرين ، وكفى في تحقيقها أنهم مترددون بين الخوف والرجاء ، وأنهم لايخلون عن تعنيف أقله تعييرهم بما أذنبوه مفصلًا – ويا له من فضيحة – وهذا ما لابُدَّ منه على ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنّة ، وحينئذ لم يتم لهم المغفرة الكاملة كما للتائبين ، على

أن مقتضى ما في الآيات أن الجنة لا تكون جزاءً للمصر ؛ وكذلك المغفرة ، أما نفي التفضل بهما فلا .

ز - وفي أسباب نزول الآية ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة** ... ﴾ .

يقول الألوسي :

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه ذكر عند رسول الله ﷺ حال بني إسرائيل فنزلت هذه الآية ولم يذكر صدر الآية .

وفي رواية الكلبي « أن رجلين أنصارياً ، وثقفياً آخى رسولُ الله ﷺ بينهما ، فكانا لا يفترقان ، فخرج رسول الله ﷺ في بعض مغازيه ، وخرج معه الثقفي ، وخلف الأنصاري في أهله وحاجته ، فكان يتعهد أهل الثقفي ، فأقبل ذات يوم فأبصر امرأة صاحبه ، وقد اغتسلت ، وهي ناشرة شعرها ، فوقعت في نفسه ، فدخل ولم يستأذن حتى انتهى إليها ، فذهب ليلثمها فوضعت كفها على وجهها ، فقبل ظاهر كفها ، ثم ندم واستحيا ، فأدبر راجعاً فقالت : سبحان الله تعالى ، خنت أمانتك ، وعصيت ربك ، ولم تصل إلى حاجتك قال : وندم على صنيعه ؛ فخرج يسيح في الجبال ، ويتوب إلى الله من ذنبه ، حتى وافى الثقفي ، فأخبرته أهله بفعله ، فخرج يطلبه حتى دُلّ عليه فوافقه ساجداً وهو يقول : رب ذنبي ذنبي قد خنت أخي فقال له : قم يا فلان فانطلق إلى رسول الله ﷺ فاسأله عن ذنبك ، لعل الله تعالى أن يجعل لك فرجا وتوبة ، فأقبل معه حتى رجع إلى المدينة ، وكان ذات يوم عند صلاة العصر فنزل جبريل عليه السلام بتوبته فتلا ﴿ **والذين إذا فعلوا** ﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ونعم أجر العاملين** ﴾ فقال عمر رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله ألهذا الرجل خاصة أم للناس عامة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « بل للناس عامة » .

وفي رواية عطاء عن ابن عباس ، أن تيهان التمار أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمراً ، فضمها إلى نفسه وقَبلَها ثم ندم على ذلك ، فأتى النبي ﷺ وذكر ذلك له فنزلت هذه الآية . « وأنت تعلم أنه لا مانع من تعدد سبب النزول » .

ولننتقل الآن إلى **الفقرة الثانية** في هذا المقطع ، وقد رأينا صلتها بما قبلها ، ومحلها في السياق القرآني العام ، ومناسبة النزول هي وقعة أحد .

﴿ **ولا تهنوا** ﴾ أي : ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم أو يصيبكم ﴿ **ولا**

تحزنوا ﴾ على ما فاتكم ، أو يفوتكم ، أو أصابكم ، أو يصيبكم في سبيل الله ﴿ **وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي : والحال أنكم أعلى منهم وأغلب إن صح إيمانكم ، وهذه بشارة للمؤمنين بالعلو ، والغلبة ، والنصر ، والظفر ، في العاقبة . والآية تفيد أن صحة الإيمان توجب قوة القلب ، والثقة بوعد الله ، وقلة المبالاة بأعدائه ﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مس القومَ قرحٌ مثله** ﴾ القرح : الجراحة في الأصل فالمعنى : إن كنتم قد أصابتكم جراح وقتلٌ وأذىً ، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك ، من قتل وجراح . أو إن نالوا منكم يوم أحد ، فقد نِلْتم منهم قبله يوم بدر . ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ، ولم يمنعهم عن معاودتكم إلى القتال ، فأنتم أولى ألا تضعفوا . والنص وإن كان بمناسبة أحد ، وبمناسبة معركة ، فهو أعم من أن يكون في أُحد خاصة ، أو في القتال خاصة . ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾ أي : نصرِّفها ، وهذه من سنن الله ، يديل المؤمنين تارة ، ويديل الكافرين تارة ، وإن كانت العاقبة للمؤمنين ، ويصرِّف ما في هذا العالم من نعم ونقم ، فيعطي لهؤلاء تارة ، وطوراً لهؤلاء ؛ لضروب من الحِكَم قد تُعلم ، وقد لا تعلم ، ومن جملة هذه الحكم ﴿ **وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليُمَحِّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين** ﴾ ، ذكر هنا أربع حِكَم ، وذكر قبلها الواو ليفيد أن هناك حكماً أخرى . أما قوله تعالى : ﴿ **وليعلم الله الذين آمنوا** ﴾ فقد فسره ابن عباس بمعنى : لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء . وقال النسفي : وليعلم الله الذين آمنوا مُمَيزين بالصبر والإيمان من غيرهم ، كما عَلِمهم قبل الوجود ،هذه هي الحكمة الأولى لمداولة الأيام بين الناس تبيان المؤمن الذي يثبت على الإيمان في كل الظروف . والحكمة الثانية هي قوله تعالى ﴿ **ويتخذ منكم شهداء** ﴾ يحتمل معنيين : الأول - وهو المتبادر - ليكرم ناساً منكم بالشهادة حين يُقْتلون في سبيله ، ويبذلون مُهَجَهم من أجله ، وفي سبيل مرضاته ، والثاني ليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة . ولولا أن الأيام دول ما ظهر فضل أهل الفضل ، الذين يبذلون المهَج ، أو يستقيمون في كل حال داعين إلى المنهج ، وبعد أن ذكر هاتين الحكمتين لجعله الأيام دولا ، وقبل أن يذكر الحكمتين الأخيرتين جعل بين ذلك - قوله تعالى : ﴿ **والله لا يحب الظالمين** ﴾ . أي : والله لا يحب من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان ، المجاهدين الباذلين أرواحهم في سبيله . أشعر ذكر الظالمين في ختام الآية أن من ليس مؤمناً مجاهداً فهو ظالم ، فالظلم هنا للنفس يدخل فيه : الكفر ، والنفاق ، ويدخل فيه القعود عن الجهاد ، وعدم

الاستقامة على أمر الله . ثم ذكر الحكمة الثالثة والرابعة ، في جعله الأيام دولًا : ﴿ **ولـيمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين** ﴾ التمحيص : هو التطهير والتصفية ، والمحق : هو الإهلاك ، فصار المعنى : إن جعل الله الدولة على المؤمنين فللتمييز ، والاستشهاد ، والتمحيص ، وإن كانت على الكافرين فلمحقهم ومحو آثارهم .

ونحن الآن في القرن الخامس عشر الهجري حيث الدولة على الإسلام والمسلمين ، فمن منا الذي يستحق كرامة الله ؛ فيثبت على الإيمان ، ويبذل مهجته من أجل الإسلام ، ويبقى في الصف الإيماني الإسلامي على ما أصابه ؛ لتطهر بذلك نفسه ، وتزكو وترتفع درجاته ، ويعمل لمحق الكافرين ، واستئصالهم ، وكسر شوكتهم ، لتكون الدولة للمسلمين ؟ نسأل الله أن نكون من هؤلاء ؛ لنكون من الطائفة الظاهرة ، التي لا يضرها من خالفها وخذلها إلى يوم القيامة. ثم صحح الله مفهوماً خاطئاً، وتصوراً مغلوطاً يقع فيه كثير من الناس ، وحتى ممن يظنون أنفسهم في الذروة من المسلمين ، هذا التصور : أنه بلا جهاد وصبر يمكن أن يدخلوا الجنة .

قال تعالى : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ . أم هنا تفيد الإنكار . ففي الآية إذن إنكار على من يظن أن دخول الجنة يكون بلا جهاد وصبر ، أي: لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تُبتَلوا ، ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله ، والصابرين على مقاومة الأعداء ، أو بتعبير آخر : لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولمَّا تجاهدوا وتصبروا . ولمَّا في الآية بمعني : لم، إلا أن فيها ضرباً من التهييج على الجهاد ، والصبر من حيث كونه متوقعاً ، ومنتظراً من المؤمنين ، وفي هذا السياق يأتي معنى جديد مرتبط بما قبله كل الارتباط ، فلنذكر شيئاً عن السياق :

الآيات التي نشرحها الآن جاءت في سياق النهي عن الوَهَن والحزن في حالة هزيمتنا ، وكون الدولة علينا ، من خلال ما حدث للمسلمين يوم أحد ، وفي هذا السياق بين الله الحكمة في جعله الأيام دولًا ، وصحح مفهوماً خاطئاً يمكن أن نقع فيه حول تصور دخول الجنة ، وفي هذا السياق تأتي الآن مجموعة من الآيات تصور حال الجماعة الإسلامية كما ينبغي أن تكون في حالة قتل زعمائها ، المتمثلين بالأنبياء والرسل وخلفائهم وورائهم من بعدهم إلى يومنا هذا ، وكيف أن هذا القتل لا ينبغي أن يؤثر على الاستمرار والمتابعة . وخلال ذلك ينكر الله – عز وجل – على من يرتد بعد قتل رسوله أو موته ، وهذا كله يأتي في سياق دروس أحد ، فلنر الآيات

﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون** ﴾ . في هذه الآية مجموعة أمور منها : أن هذا الخطاب ابتداء لأصحاب رسول الله ﷺ بعد أحد ، وقد كان هذا حالهم قبل أحد ، أي : قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو ، وتتحرّقون عليه ، وتودون مناجزتهم ، ومصابرتهم ، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه ، فدونكم فقاتلوا ، وصابروا .

ورؤيتهم الموت : معاينتهم له حين قتل إخوانهم بين أيديهم ، وشارفوا أن يُقتَلوا .

وفي الآية نوع من التوبيخ ، إذ إن تمنيهم الموت تجاوز الحد المراد ، ولم يُعط حقه إذ جاء حقه ؛ والأصل أن المسلم يتمنى الشهادة ؛ لينال كرامة الشهداء ، من غير قصد إلى ما يتضمنه قتله من غلبة الكفار ، بل لينتصر الإسلام ، كمن شرب الدواء من طبيب غير مسلم ، فإن قصده حصول الشفاء ، ولا يخطر بباله أن فيه جر منفعة إلى عدو لله ، وتمني الشهادة شيء ، وتمني الموت شيء آخر ، وتمني لقاء العدو شيء مختلف عنهما . فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول كما ثبت فى الصحيحين : « لا تتمنَّوْا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » والصحابة قبيل أحد حرصوا على الموت ، حتى حملوا رسول الله ﷺ – نزولًا على الشورى ، أن يخرج للقتال خارج المدينة ، ولم يكن ذلك رأيه ﷺ ، ثم انهزم قسم كبير عنه . والخطاب وإن كان للصحابة ممن رافق الحادثة ، فهو درس للمسلمين في كل عصر ومصر ، ينبغي أن يحبوا الشهادة ، ولكن الحرص على الشهادة ينبغي أن يرافقه قرار نابع من محض المصلحة . ولما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد ، وقتل من قتل منهم ، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم : قتلتُ محمداً ! وإنما كان قد ضرب رسول الله فشجّه في رأسه ، وشاع بين المسلمين أن رسول الله ﷺ قد قُتل ، فحصل ضعف ووَهَن ، أعطى الله المسلمين درساً في ذلك : ﴿ **وما محمّد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ أي : قد مضت من قبله الرسل فسيخلو كما خلوا . وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم ، فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه ، لأن المقصود من بعثة الرسل تبليغ الرسالة ، وإلزام الحجة ، لا وجوده بين أظهر قومه ، فيتعلق بوجوده قيامهم بالجهاد ، وبأمر الله . فإذا مات ترك ذلك ولذلك أنكر الله – عز وجل – على من حصل له ضعف فقال : ﴿ **أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم** ﴾ أي : رجعتم القهقرى ، والهمزة تفيد الإنكار أن يجعلوا خلو الرسّول سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل ، مع علمهم أن خلو الرسل قبله لم يؤثر على بقاء دينهم متمسكاً

به ، والانقلاب على الأعقاب مجاز عن الارتداد أو عن الانهزام . وأفادت الآية جواز القتل على الرسل ، فما أجهل الذين يرون القتل في سبيل الله علامة على خطأ السير . ﴿ **ومن ينقلب على عقبيه** ﴾ أي : ومن يرتدد . ﴿ **فلن يضر الله شيئاً** ﴾ وإنما يضر نفسه . ﴿ **وسيجزي الله الشاكرين** ﴾ أي : الذين لم ينقلبوا ، وسمّاهم شاكرين لأنهم شكروا نعمة الإسلام في ثباتهم على كل حال ، وقيامهم بطاعة الله ، وقتالهم عن دينهم ، واتباعهم رسوله حياً وميتاً . ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلًا** ﴾ أي : كتب الموت كتاباً مؤقتاً ، له أجل معلومٌ لا يتقدم ولا يتأخر . فصار المعنى : وماجاز لنفس أن تموت إلا بعلم الله ، وإرادته ، وقدرته ، أو بإذنه لمَلَك الموت أن يقبضها إذا انتهت المدة المحددة لها ، فلا يموت أحد إلا بقَدَر الله ، وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله .

يفهم من هذا كله أن موت الأنفس لا يكون إلا بمشيئة الله . وفي ذلك تحريض على الجهاد ، وتشجيع على لقاء العدو ، وإعلام بأن الحذر المؤدي إلى معصية الله لا ينفع ، وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله ، وإن خاض المهالك ، واقتحم المعارك . وإذا كان الأمر كذلك فكيف ترتدون على الأعقاب إذا قُتل أو مات رسول الله ﷺ ؟! وكيف لا تستمرون على دينه ؟ . وإذ كان الثبات وعدمه مرتبطين بالإيمان بالآخرة ، ختم الله الآية بقوله : ﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ﴾ أي : من كان عمله للدنيا فقط ناله منها مما قدَّره الله له ، ولم يكن له في الآخرة من نصيب . ﴿ ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ﴾ أي : ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها ، وما قسم له في الدنيا ناله .. وفي الآية تعريض مباشر بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد ، وتحذير لكل مسلم أن تكون الدنيا مؤثرة عنده على الآخرة ، فيترك الإسلام قولًا أو عملًا من أجل دنيا ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾ الذين يثبتون على دين الله ، قولًا وعملًا واعتقاداً ، أي : سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا .

ثم بين الله - عز وجل - الموقف الصحيح في مثل هذه الظروف من خلال مواقف الأنبياء السابقين وأتباعهم . ﴿ **وكأيّن من نبي قاتل معه ربّيُّون كثير** ﴾ الربيون : هم الربانيون ، قال الحسن في تفسير الآية : علماء كثير ، وقال : علماء صبُّر ، وفسرها ابن كثير فقال : أي أبرار أتقياء . ومآل المعنى كما اختاره ابن جرير : كم من نبي قتل،

وقتل معه ربيون من أصحابه كثير ﴿ **فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله** ﴾ أي : فما فتروا عند قتل نبيهم للذي أصابهم في سبيل الله ﴿ **وما ضعفوا** ﴾ عن الجهاد بعد قتل نبيهم . ﴿ **وما استكانوا** ﴾ أي : وما ضعفوا لعدوهم ، ولاذلّوا له ، بل استمر من بقي منهم على الجهاد ، والعزة ، والإسلام ، وفي هذا نوع تعريض بما أصاب الصحابة من الوهن عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ ، واستكانة بعضهم حتى أرادوا أن يعتضدوا بابن أبي في طلب الأمان من أبي سفيان . ﴿ **والله يحب الصابرين** ﴾ على الإسلام وجهاد أعدائه . ﴿ **وما كان قولهم إلا أن قالوا** ﴾ الدعاء الآتي الذي فيه إضافة الذنوب إلى أنفسهم ، مع كونهم ربانيين ، هضماً لها ، وفيه منتهى الافتقار ، والتذلل لله ، ليثبتهم على ما يحبه : ﴿ **ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا** ﴾ أي : تجاوُزنا حدّ العبودية ﴿ **وثبت أقدامنا** ﴾ أي : في القتال والمواقف ﴿ **وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ بالغلبة ، وقدموا الدعاء بالاستغفار من الذنوب على طلب تثبيت الأقدام في موطن الحرب والنصرة على الأعداء ؛ لأنه أقرب إلى الإجابة ، لما فيه من الخضوع والاستكانة . وقوله تعالى في الابتداء ﴿ **وما كان قولهم** ﴾ يوحي أنه لم يكن لهم من دأب وعادة إلا كثرة الذكر بهذا الدعاء ، فاستحقوا في مقابل ذلك ما ذكره الله ﴿ **فآتاهم الله ثوابَ الدنيا** ﴾ أي : أعطاهم النصرة ، والظفر ، والغنيمة ، والعاقبة . ﴿ **وحسنَ ثواب الآخرة** ﴾ أي : أعطاهم في الآخرة المغفرة والجنة ، فجمع لهم خيري الدنيا والآخرة ، وقال : ثواب الدنيا بينما قال : وحسن ثواب الآخرة ليدل على فضل ثواب الآخرة ، وتقدمه ، وكونه المعتد به ، ولذلك وصفه بالحسْن . ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ دلّت نهاية الآية على أن من كان كذلك فهم المحسنون ، وهم الذين يحبهم الله ، فما أجهل من لم يعرف أن مثل هذا من الإحسان .

فوائد :

١ - لئن كان بعض الصحابة قد وهنوا يوم أحد ، فإن بعضهم قد ضرب أروع أمثال البطولة ، ونذكر هنا مثالًا رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه « دلائل النبوة » : أن رجلًا من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط بدمه فقال له : يا فلان أشعرت أن محمداً ﷺ قد قتل ، فقال الأنصاري إن كان محمد قتل فقد بلَّغ ، فقاتلوا عن دينكم ، فنزل ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ..** ﴾ .

٢ - ذكر ابن كثير عن ابن عباس « أن علياً كان يقول في حياة رسول الله ﷺ ﴿ **أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** ﴾ والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ماقاتل عليه حتى أموت ، والله إني لأخوه ووليه وابن عمه ، ووارثه ، فمن أحق به مني » .

٣ - عند قوله تعالى ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلًا** ﴾ .

قال الألوسي : « وظاهر الآية يؤيد مذهب أهل السنة القائلين : إن المقتول ميت بأجله أي : بوقته المقدّر له ، وخالف في ذلك المعتزلة فذهب الكعبي منهم إلى أن المقتول ليس بميت ؛ لأن القتل فعل العبد ؛ والموت فعل الله سبحانه أي : مفعوله وأثر صفته ، وأن للمقتول أجلين : أحدهما القتل ، والآخر الموت ، وأنه لو لم يقتل لعاش إلى أجله الذي هو الموت ، وذهب أبو الهذيل إلى أن المقتول لو لم يقتل لمات البتة في ذلك الوقت » اهـ .

أقول : مذهب المعتزلة في هذا الشأن نموذج على ترك المحكم إلى المتشابه فالنصوص في هذا الشأن في غاية الوضوح كما نرى فأن تُترَك لنصوص تحتمل أكثر من معنى فذلك خطأ .

٤ - في قراءة ورش ﴿ **وكأين من نبي قُتِل** ﴾ وعليها الوقوف ، ثم ﴿ **معه ربيون كثير** ﴾ وهذا يدل على ما ذهبنا إليه في التفسير أن الذى قتل هو النبي ، ومعه طائفة من أصحابه ، فاستمر الباقون على أمر الله . وقد مات رسول الله ﷺ وورثنا دينه ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الصابرين الشاكرين المحسنين .

٥ - استشهد أبو بكر بقوله تعالى ﴿ **وما محمد إلا رسول ...** ﴾ **الآية** يوم مات رسول الله ﷺ فكانت هذه الآية خير عزاء ، وقصة ذلك كما ذكرها البخاري : أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل - أي يوم وفاة رسول الله ﷺ - على فرس من مسكنه بالسنح ، حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمّم رسول الله وهو مغطى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه وقبله وبكى ثم قال : بأبي أنت وأمي ، والله لايجمع الله عليك موتتين : أما الموتة التي كتبت عليك فقدمتها .

وقال الزهري : « وحدثني أبو سلمة عن ابن عباس : أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس وقال : اجلس يا عمر . قال أبو بكر : أما بعد ؛ من كان يعبد محمدا فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، قال الله تعالى : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾إلى قوله ﴿ **وسيجزي الله الشاكرين** ﴾ قال : فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر ، فتلاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ماتقلّني رجلاي وحتى هويت إلى الأرض » .

٦ - قد مر معنا ارتباط هذا المقطع بالسياق القرآني العام ، وقد رأينا أن المقطع يفصّل في بعض أخلاق المؤمنين والمتقين ، ويعلمهم كيف ينبغي أن يكونوا في مواقفهم العامة ، وفي صراعهم مع الكافرين .

كلمة في القسم الرابع :

١ - يلاحظ أن هذا القسم بدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم بعد إيمانكم كافرين** ... ﴾ لاحظ كلمة ﴿ **يردوكم بعد إيمانكم كافرين**﴾ .

ثم لاحظ أن آخر مجموعة فيه هي قوله تعالى : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** ﴾ . فما بين بداية القسم ونهايته ارتباط واضح ، من خلال الكلام عن الردة بعد الإيمان . فالقسم فيه تثبيت لأهل الإسلام بالبقاء على الإسلام ، من خلال ترك ما يؤدي إلى الردة ، وفعل ما يثبّت على الهداية ، وعلى ضوء ذلك علينا أن نفهم المسرى العام لآيات هذا القسم من كون الاعتصام بحبل الله ، وعدم التفرق فيه ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وعدم اتخاذ بطانة من دون المؤمنين ، وترك الربا ، وطاعة الله والرسول ﷺ ، والتحقق بصفات المتقين ، وترك الوهن والحزن . على أن ذلك كله وغيره مما مر في هذا القسم لابد منه للثبات على الإسلام .

٢ - ولقد مر معنا أثناء عرض مقاطع القسم ما يدل على أن هذا القسم كغيره من أقسام سورة آل عمران ، إنما هو تفصيل لمقدمة سورة البقرة ، وامتدادات معانيها في سورة البقرة . ولو أردنا أن نذكر هنا ما يدل على ذلك فإننا نخشى أن يمل القارىء

ولذلك فإننا نكتفي بأن نقول :

إن سورة البقرة بدأت بمقدمة تتحدَّث عن المتقين ، والكافرين ، والمنافقين ، ثم جاء القسم الأول والثاني فيها ليحكما بناء التقوى وأركانها ، حتى إذا استقرت التقوى وقامت ، جاء القسم الثالث آمراً بالدخول في الإسلام كله ، كل ذلك رأيناه أثناء تفسير سورة البقرة .

وجاءت بعد ذلك سورة آل عمران ؛ لتفصل في مقدمة سورة البقرة ، وامتداداتها ضمن سياقها الخاص ، فأرست الأسس النظرية في أقسامها الثلاثة الأولى ؛ لتتوجه بعد ذلك لعملية البناء للمجتمع الإسلامي ؛ من خلال الحركة والصراع ، ومن خلال الدروس اليومية ؛ والتوجيه المباشر . وقد رأينا كيف تكرر كثيراً اشتقاق الفلاح والتقوى ، ونلاحظ أن الآية الأولى في القسم الخامس تنتهي بقوله تعالى ﴿ **فتنقلبوا خاسرين** ﴾ وأن الآية الأخيرة في القسم والسورة تنتهي بقوله تعالى ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ .

إن القسمين الأخيرين في السورة يوضحان لنا طريقَ الفلاح ، ويجنبانِنا طريقَ الخسران الذي هو ضد الفلاح ، وصلة ذلك بمقدمة سورة البقرة لا تخفى .

القسم الخامس

يمتد القسم الخامس من الآية (١٤٩) إلى نهاية السورة ، أي إلى نهاية الآية (٢٠٠) ، يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين** ﴾ . وينتهي بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ .

ويتألف من أربعة مقاطع :

المقطع الأول : وفيه نهي عن طاعة الكافرين ، ووعد من الله بأنه سيلقي في قلوب الذين كفروا الرعب . وينصرنا عليهم ، ثم تعليل لما حدث يوم أحد مما ظاهره يتعارض مع هذا الوعد . وفي هذا المقطع يرد عرض لصور مما حدث يوم أحد .

المقطع الثاني : وفيه نهي عن أن يقول المؤمنون عن إخوانهم الذين قتلوا . ﴿ **لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا** ﴾ . وفي المقطع كذلك دروس من غزوة أحد .

المقطع الثالث : وفيه تصحيح للتصورات : ﴿ **ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً** ﴾ . ﴿ **ولا يحسبنَّ الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم** ﴾ . ﴿ **ولا يحسبنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم** ﴾ . ﴿ **لا تحسبنَّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا** ﴾ .

المقطع الرابع : وفيه تعليمات وتوجيهات وتربية لأهل الإيمان .

وفي هذا القسم ، تبرز بشكل واضح طريقة التربية من خلال الواقع ، ومن خلال المحاسبة على الخطأ . ففي سياق المعاني التي تشكل مسرى السورة تُعرض صور مما حدث يوم أحد ، ليأخذ المسلمون دروسها .

وسنرى ما في القسم من تسلسل ومعان أثناء عرض مقاطعه ، وههنا نُذَكِّر بما يذكِّر بصلة هذا القسم ببقية سورة آل عمران ، وبمقدمة سورة البقرة .

في القسم السابق على هذا القسم نهينا عن طاعة أهل الكتاب ، وفى هذا القسم ، نهينا عن طاعة الكافرين مطلقاً ، مع وعد من الله - عز وجل - بالنصر على الكافرين ، وبهذه المناسبة قد يتساءل متسائل : وماذا حدث يوم أحد ؟ وههنا يأتي السياق ليحدثنا عن دروس أُحُد ، وهو بذلك يعرض علينا شروط النصر الرباني .

ويأتي المقطع الثاني لينهانا عن خلق من أخلاق الكافرين ، ويحررنا من تصوراتهم .

ويأتي المقطع الثالث ليصحح تصوراتنا عن كثير من القضايا .

ثم يأتي المقطع الرابع ليدفع الهمم إلى كمالات عليا .

فالقسم الخامس امتداد للمقطع الرابع ، وإذا كان القسم الرابع قد بني على الأقسام الثلاثة السابقة عليه ، فإن القسم الخامس قد بني على الأقسام الأربعة السابقة عليه .

وإذا كانت مقدمة سورة البقرة قد ذكرت المتقين ، والكافرين ، والمنافقين ، فإن هذا القسم يفصّل في أخلاق المتقين ، والكافرين ، والمنافقين ، ويحذر من أخلاق الكافرين ، والمنافقين ، ويفصّل في صفات المتقين ، ويحظر على المسلم أن يتابع الكافرين أو يوافقهم في أقوال أو تصرفات ، ويحدد العلاقات بين أهل الإيمان ، وأهل الكفر .

وسنرى بالتفصيل أثناء عرض المقاطع كيف أن القسم فصل في مقدمة سورة البقرة وامتدادات معانيها ولنبدأ عرض المقطع الأول في القسم .

المقطع الأول

يبدأ المقطع الأول بالنهي عن طاعة الكافرين ، ويعد المسلمين بالنصر على الكافرين . فهو إذن يحدد العلاقات بين المؤمنين والكافرين ، وتبين مقدمة المقطع أن طاعة الكافرين توصل إلى الردة عن الإسلام . فالصلة بين مقدمة المقطع وبين المجموعة السابقة عليه واضحة ، إذ المجموعة السابقة تقول : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** ﴾ فالآيات تنبهنا على كل مايؤدي إلى الردة ، وفيها وعد بالنصر ، ثم تبين تتمّة المقطع شروط النصر من خلال ماحدث يوم أُحد ، فيوم أُحد صدق الله وعده ، فنصر المسلمين ولكن ماذا فعل المسلمون ؟ لقد ارتكبوا مجموعة أخطاء أدّت بهم إلى الفشل ، وإذن فالوعد بالنصر على الكافرين مشروط بشروط ، ولذلك ختم المقطع بقوله تعالى : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم** ﴾ .

يبدأ المقطع بالآية (١٤٩) وينتهي بنهاية الآية (١٥٥) . وهو يتألف من مقدمة وفقرة وهذا هو المقطع :-

« المقدمة »

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

« الفقرة »

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى

ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ
ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ
أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ
وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل
لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ
يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ
ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ
مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى
ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾



كلمة في السياق :

في هذه الآيات حذّر الله تعالى عباده المؤمنين من طاعة الكافرين والمنافقين ، فإن طاعتهم تورث الخسران في الدنيا والآخرة ، ثم أمرهم بطاعته وموالاته ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم ،والذلة لهم بسبب كفرهم ، وشركهم مع ما ادّخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال . ثم ذكر

الله - عز وجل - بعض ما حدث يوم أحد ، وبعض دروس معركته . والمناسبة بين هذه الدروس ، وبين هذه المقدمة : أن يوم أحد حدث فيه نوع هزيمة للمسلمين . فما أسباب هذه الهزيمة مع قيام وعد الله بنصرة أوليائه ؟ يذكر الله - عز وجل - أسباب ذلك : الجبن ، وعصيان الأوامر ، والخلل في نية طلب الآخرة . ومع هذا كله فإن الله ما تخلى عنهم ، بل تولاهم ، بأن أحاط هذه الهزيمة بكل لطف ، وتوّج هذا كله بالعفو عما حدث ، وعرض خلال هذا حالات ، ومواقف للمنافقين ، والمؤمنين ، وبيّن أسباب الزلل .وسنرى هذا كله أثناء استعراض المعنى الحرفي للآيات ، والصلة فيما بينها ، ومحلها من السياق القرآني العام .

المعني الحرفي لمقدمة المقطع ومقدمة القسم :

﴿ **يأأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا** ﴾ دخل في ذلك كل الكافرين والمنافقين ، فبعد أن خصص في آية سابقة طاعة أهل الكتاب ، فنهى عنها وحذّر منها ، يحذّر ههنا المؤمنين من طاعة كل أصناف الكافرين ، والنفاق شر أنواع الكفر ، ويبين النتيجة ﴿ **يردوكم على أعقابكم** ﴾ . أي : يرجعونكم إلى الكفر ، إلى الجاهلية ، إلى الفسوق ، إلى النفاق ، إلى الشرك . ﴿ **فتنقلبوا خاسرين** ﴾ . أي : فتخسروا الدنيا والآخرة . فعلى المؤمنين إذن أن يجانبوا الكافرين ، والمنافقين ، ولايطيعوهم في شيء حتى لايستجروهم إلى موافقتهم . وإذا كان سبب طاعة الكافرين ، رغبة في النصرة ، أو رغبة في الرعاية ، أو رغبة في كسب القلوب ، بيّن الله - عز وجل - في الآية : أن نصرته وولايته خير من نصرة وولاية غيره فقال : ﴿ **بل الله مولاكم** ﴾ . أي : ناصركم فاستغنوا به عن نصرة غيره ، لأنه ﴿ **وهو خير الناصرين** ﴾ . فلا نصرة مثل نصرته ، ولا ناصر مثله ، بل هو الناصر الحقيقي لأن غيره قد يريد منفعتك فيضرك ، أما هو فهو العالم بكل شيء ، فإذا نصرك نصرك ..

ومن مظاهر نصره وتوليته ، ما بشّرهم به بقوله ﴿ **سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب** ﴾ وهذا من أعظم مظاهر النصرة ، إذ من المعلوم أن الجيوش التي تفقد معنوياتها لاتستطيع أن تقاتل ، ولا تستطيع أن تستعمل سلاحها . وقد أعطانا الله ذلك على الكافرين ﴿ **بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً** ﴾ . أى : بسبب شركهم ، وما من كافر إلا وهو مشرك نوع شرك ، والملحد يشرك بالله هذا الكون كله ، إذ يخلع عليه صفات

الألوهية . والسلطان في الآية : الحجة ، ولا تعني الآية أن للشرك حجة إلا أنها لم تنزل عليهم ، لأن الشرك لا يستقيم أن تقوم عليه حجة ، وإنما المراد نفي الحجة ، ونزولها جميعاً ، ومن الآية نعلم أن هذا الوعد من الله لنا بسبب إيماننا ، وكفر غيرنا ، فإذا جمعنا وإياهم الكفر – والعياذ بالله – لم يبقَ وعد .

وههنا ملاحظة ، لطيفة وهي أن هذا الوعد جاء بعد النهي عن طاعة الكافرين ، وترتيب الردّة على هذه الطاعة ، مما يدل على أن هذا الوعد لا يكون لنا إذا أعطينا طاعتنا للكافرين ؛ لما يترتب على ذلك من ردة ، وانظر واقعنا الحالي إذ ارتد من ارتد منا ؛ بسبب إعطائه الطاعة للكافرين ، وانظر جرأة اليهود ، وغيرهم من الكافرين علينا ، وخذلاننا بسبب من ذلك .

وبعد أن بين الله – عز وجل – أنه سيلقي الرعب في قلوب الكافرين ، بيّن جزاءهم الأخروي فقال : ﴿ **ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين** ﴾ . هذا ما ادخره الله للكافرين في الآخرة ، من العذاب ، والنكال ، أن النار مقرهم ومرجعهم ، وبئس هذا المقر للظالمين . دل أن الكفر ظلم بل هو أعظم الظلم ، وأي ظلم أكبر من ظلم الله الخالق المنعم ، ومن ثم استحق الكافر الخلود الأبدي في سجن جهنم .

فوائد :

١ – ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال :

« أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ، نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأُحلت لي الغنائم ، وأُعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصّة وبُعثت إلى الناس عامة » .

٢ – يقول صاحب الظلال في الآية التي بدأ بها القسم : « يحذر الله الذين آمنوا أن يطيعوا الذين كفروا ، فطاعة الذين كفروا عاقبتها الخسارة المؤكدة ، وليس فيها ربح ولا منفعة . فيها الانقلاب على الأعقاب بعد الكفر . فالمؤمن إما أن يمضي في طريقه يجاهد الكفر والكفار ، ويكافح الباطل والمبطلين ، وإما أن يرتد على عقبيه كافراً – والعياذ بالله – ومحال أن يقف سلبياً بين بين ، محافظاً على موقفه ، ومحتفظاً بدينه .. إنه قد يُخيّل إليه هذا .. يخيل إليه في أعقاب الهزيمة ، وتحت وطأة الجرح والقرح ، أنه مستطيع أن ينسحب من المعركة مع الأقوياء الغالبين ، وأن يسالمهم ويطيعهم ، وهو مع هذا محتفظ بدينه ،

وعقيدته ، وإيمانه ، وكيانه ! وهو وهْم كبير . فالذي لايتحرك إلى الأمام في هذا المجال لابد أن يتخاذل ويتقهقر ، ويرتد إلى الوراء ، والذي لايكافح الكفر والشر والضلال والطغيان لابد أن يتخاذل ، ويتقهقر ويرتد على عقبيه إلى الكفر والشر والضلال والباطل والطغيان ! والذي لا تعصمه عقيدته ولا يعصمه إيمانه من طاعة الكافرين ، والاستماع إليهم ، والثقة بهم ، يتنازل - في الحقيقة - عن عقيدته ، وأن يستمع إلى وسوستهم ، وأن يطيع توجيهاتهم .. الهزيمة بادىء ذي بدء . فلا عاصم له من الهزيمة في النهاية ، والارتداد على عقبيه إلى الكفر ، ولو لم يحس في خطواته الأولى أنه في طريقه إلى هذا المصير البائس .. إن المؤمن يجد في عقيدته ، وفي قيادته ، غناء عن مشورة أعداء دينه وأعداء قيادته . فإذا استمع إلى هؤلاء مرة فقد سار في طريق الارتداد على الأعقاب .. حقيقة فطرية وحقيقة واقعية ، ينبه الله المؤمنين لها ، ويحذرهم إياها ، وهو يناديهم باسم الإيمان :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾ . اهـ .

كلمة في السياق :

لقد جاءت مقدمة القسم الخامس وهي نفسها مقدمة المقطع الأول ، وفيها نهي عن طاعة الكافرين ، وإعلام بولاية الله لنا ، ونصرته إيانا ، وفيها وعد بإلقاء الرعب في قلوب أعدائنا ، وهي معان مرتبط بعضها ببعض ، فكثيراً ما يحدث أن يتوهم المتوهمون أن الكافرين غالبون ، وأن في قلوبهم خيراً ، وأننا نحتاج إلى نصرتهم وتوليهم ، فجاءت الآيات تنهى عن طاعتهم ، وتبيّن أن الله هو المولى وهو الناصر ، وأنه سيلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فمعاني المقدمة إذن متلاحمة مترابطة ، وبعد المقدمة تأتي فقرة تتحدث عما حدث يوم أحد ، فما الصلة بين الفقرة وبين ما سبقها ؟ في المقدمة وعد بالنصر ، وقد حدثت يوم أحد هزيمة فما السبب ؟ نلاحظ أن الفقرة تبدأ بقوله تعالى **﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾** وإذن فبين الفقرة اللاحقة والآيات السابقة صلة ، هذه الصلة يكشفها لنا السياق شيئاً فشيئاً ، ففيها يأتي تعليل لِمَا حدث يوم أحد ، مما نستبين منه أن وعد الله لنا بالنصر ، والمعونة ، وإلقاء الرعب في قلوب أعدائنا ، معلق بشروط فلنر ذلك من خلال السياق .

المعنى الحرفي للفقرة :

﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ الحس :القتل ، ووعد الله :

موعوده للمؤمنين بالنصر من مثل قوله تعالى ﴿ **وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون** ﴾ ، ﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم** ﴾ . ومن مثل قوله تعالى ﴿ **سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب** ﴾ ومعنى الآية . ولقد صدقكم الله وعده بالنصر والغلبة يوم أحد ، إذ كان عدوكم ثلاثة آلاف ، وأنتم ما بين الستمائة إلى السبعمائة ، إذ تقتلون أعداءكم قتلًا ذريعاً بتسليط الله إياكم عليهم ، قال ابن عباس : وقد كان النصر لرسول الله ﷺ أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة ، وجال المشركون جولة نحو الجبل (أى هاربين) . وقال الزبير بن العوام رضي الله عنه كما يرويه ابن إسحق : « والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند وصواحباتها مشمّرات هوارب » . فهذا تحقيق قوله تعالى : ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده** ﴾ أي : حقق لكم ما وعدكم به ، وهذا جواب تساؤل . قال النسفي : لما رجع رسول الله ﷺ مع أصحابه إلى المدينة قال ناس من أصحابه : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ؟ فنزل (أي هذه الآيات وما بعدها) . وقبل أن نبدأ باستعراض الأسباب التي أدت إلى الهزيمة ، نحب أن نذكر فكرة سريعة تكون كمقدمة للدروس التي سنأخذها من هذا السياق من خلال عبرة أحد :

فى معركة بدر انتصرت القلة على الكثرة ، رغم تفوُّق الكثرة على القلة بالعدة والعتاد ، والعبرة التى نأخذها من هذا أن قوانين النصر المادية من تفوق بالعدة والعدد والتدريب والسلاح والقيادة ، وفنّ القتال ، وأمثال ذلك ، لاتعمل عملها إذا وجد جند الله ، ولا يعني هذا أن جند الله يهملون ! ، لا بل عليهم أن يبذلوا جهدهم في كل شيء ، ويدخلوا المعركة متوكلين على الله ليظهر الله فيهم سنته الأخرى ؛ إذ وجد جنده ، حيث ينصر جنده على تخلف عندهم في عالم الأسباب ، مع عدم تقصيرهم في الأخذ بها ، ومع عدم اعتمادهم عليها . ولكن هذا متوقف على توفر شروط الجندية الكاملة لله ، من قيادة ربانية ، وجند رباني ، وطاعة في الله ، وتقوى خاصة وعامة وغير ذلك مما سنراه .

وفي معركة أحد تخلف عن جند الله النصر بعد أن أُعطوه في ابتداء الأمر لخلل - كما سنرى - في الانضباط والنيات . فحلت بهم الهزيمة ، فدلّ ذلك على أن وعد الله للمؤمنين بالنصر مشروط بقيام المؤمنين بأوامر الله في كل شؤونهم . ومن ثَم فقد تركت هاتان المعركتان آثارهما في نفوس المسلمين إلى يومنا هذا ، وإلى أن يرث الله الأرض .

فما من معركة بعد هاتين المعركتين إلا وعبرتاهما ماثلتان : حقِّقْ أمر الله فيك ، وقاتل العالم ، وإذا لم تفعل فليس لك قِبَلٌ بأحد ، لأن العالم في القوانين المادية أقوى منك ، فلنتذكر هذا ولنرجع إلى السياق ﴿ **حتى إذا فشلتم** ﴾ أي جبنتم ﴿**وتنازعتم في الأمر** ﴾ أي : اختلفتم في التنفيذ الكامل لأمر رسولكم ، إذ أقام الرماة منكم على الجبل وقال لهم : « احموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا نغنم فلاتشركونا » فلما غنم النبي ﷺ وأناخوا عسكر المشركين ، قال بعض الرماة : قد انهزم المشركون فما موقفنا ههنا ، فادخُلوا عسكر المشركين وخذوا الغنيمة مع إخوانكم . وقال بعضهم : لا تخالفوا أمر رسول الله ﷺ ، وهم أمير الرماة عبد الله بن جبير ، ومعه نفر دون العشرة ، والملاحظ أن الخطاب لجميع المسلمين مع أن الذين تنازعوا هم الرماة فقط ، مما يدل على أن الخلل الذي تحدثه مجموعة يسري على الصف كله ومن ثم ينبغي أن يكون الجميع على الغاية في التربية ﴿ **وعصيتم** ﴾ أي أمر نبيكم بترككم مراكزكم ، واشتغالكم بالغنيمة . ﴿ **من بعد ما أراكم ما تحبون** ﴾ من الظفر وقهر الكافرين . ثم بيَّن علة العصيان فقال : ﴿ **منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة** ﴾ الذين يريدون الدنيا : هم الذين تركوا مراكزهم من الرماة ، ورغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة . والذين يريدون الآخرة : هم الذين ثبتوا في مراكزهم . فصار المعنى العام في الآية : ولقد حقق الله وعده لكم بالنصر ، حتى إذا جبنتم ، واختلفتم في تنفيذ الأمر ، وعصيتم أمر رسولكم ، بسبب خلل نيّات بعضكم بأن لم تتمحض للآخرة ، منعكم الله نصره . أو المعنى : ولقد حقق الله لكم وعده إلى وقت فشلكم وتنازعكم وعصيانكم ، فمنعكم بسبب ذلك نصره . قال : ﴿ **ثم صرفكم عنهم** ﴾ أي : ثم كف معونته عنكم فغلبوكم ، وعبّر بالصّرف على أن الأمر أمره . ﴿ **ليبتليكم** ﴾ . أي : ليختبركم ويمتحنكم بامتحان صبركم على المصائب وثباتكم عندها ، مع علمه - عز وجل - ولكن عدله اقتضى أن يجازي العبد على مايعمله لا على مايعلمه منه . وإذ كان ما حدث هو التجربة الأولى ، والخطيئة الأولى من نوعها ، فإنه - عز وجل - عامل أصحاب رسوله ﷺ بالفضل فقال : ﴿ **ولقد عفا عنكم** ﴾ هذه بشارة من الله لهم ، ويدل ذلك على أنهم ندموا وتابوا على ما فرّطوا ﴿ **والله ذو فضل على المؤمنين** ﴾ بعدم تسليط الكافرين عليهم ليستأصلوهم ، وعدم متابعة الكافرين القتال حتى ينهوا أمر المسلمين ، وبالعفو وقبول التوبة ، وبغير ذلك من أنواع فضله التي لا تحصى ، فهو - جل جلاله - متفضل على المؤمنين في جميع الأحوال ، سواء أديل

لهم ، أو أديل عليهم ، غلبوا أو غُلبوا ، ومن نظر إلى الأمر بعين الحكمة ، وبعين مريد الآخرة ، علم أن الابتلاء رحمة ، كما أن النصرة رحمة ، ثم بيّن الله - عز وجل - كيف تمّ الصرف الذي ذكره بقوله ﴿ **ثم صرفكم عنهم** ﴾ فقال ﴿ **إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم** ﴾ هذا تصوير حالهم في الهزيمة بمنتهى الاختصار ، وبأبلغ تصوير . فما أعظم إعجاز هذا القرآن ، ولنر ما حوى هذا الوصف :

معنى تصعدون : أي تبالغون في الذهاب في صعيد الأرض ، والإصعاد : الذهاب في صعيد الأرض والإبعاد فيه . وبعضهم فسّر الإصعاد : بصعود بعضهم إلى جبل أحد فراراً ، والواقع يدل على الأول . قال السدي : لما اشتد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم ، دخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة . ومعنى قوله ﴿ **ولا تلوون** ﴾ أي : ولا تلتفتون على أحد ، وهو تعبير عن مدى انهزامهم وخوفهم من عدوهم. وقوله تعالى: ﴿**والرسول يدعوكم في أخراكم** ﴾ أي : في ساقتكم وجماعتكم الأخرى ، وهي المتأخرة ، وهذا يفيد أنهم خلّفوا رسول الله ﷺ وراء ظهورهم ، وأنه عليه السلام لم يفر ، بل كان - وهو في هذه الحالة - يدعوهم إلى ترك الفرار ، وإلى الرجعة والعودة والكرَّة ، كما ورد في السيرة أنه عليه السلام كان يناديهم « إليَّ عباد الله ، إليَّ عباد الله » . فصار المعنى العام : ولقد صرفكم الله عنهم بعد نصره لكم عليهم ، فأصبحتم بعد النصر ممعنين في الهرب منهم في كل صعيد من الأرض ، لدرجة أن الواحد منكم لم يعد يلتفت على أحد قريب أو بعيد ، حبيب أو عظيم ، وخلفتم رسول الله ﷺ في أرض المعركة وهو يدعوكم ولا تستجيبون ، إلا من ثبت معه وهم قليل . هذا حالكم بعد النصر ، وكل ذلك إنما كان بسبب الخطأ الذي ارتكب : ﴿ **فأثابكم غمّاً بغمّ** ﴾ أي : فجازاكم بالهزيمة وتوابعها ، وهذا هو الغمُّ العظيم ، بسبب غمّ وقعتم فيه ، وأذقتموه رسول الله ﷺ بمخالفتكم أمره . ويمكن أن يكون المعنى فجازاكم الله بغم بعد غم ، وغم متصل بغم ، من الجرح ، والقتل ، وظفر المشركين ، وفوت الغنيمة ، والنصر . وأعظم غم أصابهم سوى هذا كله ، ماأرجف به من قتل رسول الله ﷺ . وهذا كله بسبب الصرف الذي سببه الجبن ، والاختلاف ، والعصيان ، بسبب عدم خلوص نية بعضهم ، إذ لم تتمحض للآخرة ، فهذه العلة الكبرى قال ابن مسعود : ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد ﴿**منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة**﴾ ثم بيّن الله -

عز وجل - حكمته البالغة فيما حدث وهو : تمرين المسلمين وتدريبهم على تحمل المصائب ، وعدم الجزع لها ، وعدم المبالاة بالفائت ، فقال : ﴿ **لكي لا تحزنوا على ما فاتكم** ﴾ . جرعكم الغموم لئلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع . وقال ابن كثير : أي : على مافاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم ﴿ **ولا ماأصابكم** ﴾ أي ولا على مصيبة من المضار من مثل ما حدث لكم هنا من الجراح والقتل . ﴿ **والله خبير بما تعملون** ﴾ أي : عالم بعملكم لا يخفى عليه شيء من أعمالكم . وهذا ترغيب في الطاعة ، وترهيب عن المعصية . وإذ تخلّف عن المسلمين نصر الله بسبب ما وقعوا فيه ، فإن رحمة الله بالمؤمنين ، وتوليه لهم ، موجودة ، فهم عباده ، ولئن منعهم أو سلّط عليهم ، فلتأديبهم . ومن مظاهر توليه ورحمته ماذكره الله - عز وجل - بعد ما مرّ . ﴿ **ثم أنزل عليكم من بعد الغمّ أمنة نعاساً** ﴾ . أي : ثم أنزل الله الأمن على المؤمنين ، وأزال عنهم الخوف الذي كان بهم حتى نعسوا وغلبهم النوم . والمعنى أنزل عليكم نعاساً ذا أمنة .

ويبدو من السياق أن هذا قد كان بعد المعركة وقبل النفير الذي أعلنه الرسول ﷺ في اليوم الثاني كما سنرى . ولكن بعض الروايات التي سننقلها في قسم الفوائد ، تذكر أن النعاس أصاب المسلمين ليلة المعركة ، ويمكن أن يكون النعاس قد أصابهم مرتين ، مرة ليلة المعركة ليواجهوا المعركة مستريحين ، ومرة بعد المعركة لينسوا آثارها . والذي يدل على أن المراد بالنعاس هنا ما أصابَهُمْ بعد المعركة مجيء كلمة (**ثم**) التي تفيد الترتيب دون التعقيب ، وقول المنافقين الآتي : ﴿ **لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا ههُنا** ﴾ فكلامهم هذا إنما كان بعدما حدث للمسلمين من قتل في المعركة ﴿ **يغشى طائفة منكم** ﴾ أي : هذا النعاس يغشى قسماً من المسلمين : وهم أهل الإيمان ، واليقين ، والثبات ، والتوكل الصادق ، وهم الجازمون بأن الله - عز وجل - سينصر رسوله ، وينجز له مأموله . ﴿ **وطائفة قد أهمّتهم أنفسهم** ﴾ هم المنافقون لايهمهم إلا همّ أنفسهم وخلاصها ، لاهمّ الدين ، ولاهمّ رسول الله ﷺ ، ولاهمَّ الجماعة المسلمة ، فهؤلاء لايغشاهم النعاس من القلق ، والجزع ، والخوف . ﴿ **يظنون بالله غير الحق** ﴾ أي : يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به ، فهم يظنون ألّا ينصر رسوله وجنده . ظنوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة ، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة . ﴿ **ظن الجاهلية** ﴾ أي : الظن المختص بالملة الجاهلية ، أو ظن أهل الجاهلية ، أي : لا يظن مثل ذلك الظن ، إلا أهل الشرك الجاهلون بالله تعالى :

﴿ **يقولون** ﴾ أي : أهل النفاق والريب في تلك الحال . ﴿ **هل لنا من الأمر من شيء** ﴾ أي : هل لنا معاشر المسلمين من أمر الله نصيب قط ، يعنون النصر والغلبة ، والسلطان والسيطرة والعز ، والجاه ، والمنافع . فقال تعالى : ﴿ **قل إن الأمر كله لله** ﴾ أي : قل إن الغلبة ، والنصر ، والسلطان ، كله لله ؛ يعطيه من شاء ، ويمنعه من شاء . وقد وعد أولياءه أن تكون لهم العاقبة .

﴿ **يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك** ﴾ خوفاً ورهبة كما قال تعالى في المنافقين . ﴿ **لأنتم أشد رهبةً في صدورهم من الله** ﴾ (الحشر : ١٣) ثم بين هذا الذي يخفونه في أنفسهم ، ويبدونه لبعضهم . ﴿ **يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا** ﴾ أي لو كان الأمر كما قال محمد ﷺ . ﴿ **إن الأمر كله لله** ﴾ وأن أولياءه هم الغالبون ، لما غلبنا قط ، ولما قتل منا من قتل في هذه المعركة . روى ابن إسحق عن الزبير رضي الله عنه قال : لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا ، أرسل الله علينا النوم ، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره ، قال : فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا . فحفظتها منه ، وفي ذلك أنزل الله : ﴿ **يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا** ﴾ لقول معتب ، ورواه ابن أبي حاتم . ﴿ **قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم** ﴾ أي : هذا قدر قدّره الله - عزّ وجل - وحكم حتم لا محيد عنه ، ولا مناص منه . فمن علم الله منه أنه يقتل في هذه المعركة ، كما كتب ذلك فى اللوح المحفوظ لم يكن بد من قتله . فلو قعدتم في بيوتكم لبرز من بيوتهم الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، أي إلى أمكنة مصارعهم بأُحد ليكون ما علم الله أنه يكون . والمعنى : أن الله كتب في اللوح المحفوظ قتل من يقتل من المؤمنين ، وكتب مع ذلك أنهم الغالبون ، لعلمه أن العاقبة في الغلبة لهم ، وأن دين الإسلام يظهر على الدين كله ، وأن ما ينكبون به في بعض الأوقات تمحيص لهم . وبعد أن ذكر الله - عز وجل - نموذجاً من كلام المنافقين ، وبيّن دخيلة أنفسهم ، بيّن بعد هذا أن من جملة الحكم فيما حدث يوم أحد للمسلمين اختبار ما في الصدور ، وتمحيص ما في القلوب ، وهو أعلم فقال : ﴿ **وليبتلي الله ما في صدوركم ، وليمحص ما في قلوبكم** ﴾ أي فعل ذلك ليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص ، ويمحص ما في قلوبهم من وساوس الشيطان ، وذِكْر الواو في ابتداء بيان الحكمتين يشعر بأن مع هاتين الحكمتين حكماً أخرى . فالمعنى إذن فعل ذلك لمصالح جمة ، وللابتلاء والتمحيص الذي هو التمييز . نفهم من ذلك أنه يُستخرج ما

في الصدور ، ويُعرف ما في القلوب على الحقيقة في لحظات المحن ، فهي محك الإيمان . ﴿ **والله عليم بذات الصدور** ﴾ أي بخفياتها وما يختلج فيها من السرائر والضمائر . ثم بيَّن الله – عز وجل – علة ما حدث ، وهو المعاصي التي كان يواقعها منهم . مما يدل على أن الطاعة قبل المعركة والتوبة قبل المعركة ،عاملان من عوامل الثبات فيها فقال :

﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان** ﴾ أي : إن الذين انهزموا منكم – دل ذلك على أن محمداً والصفوة لم ينهزموا – يوم التقى جمع المسلمين بجمع المشركين يوم أحد . ﴿ **إنما استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا** ﴾ أي : إنما دعاهم الشيطان إلى الزّلة ، وحملهم عليها ببعض ذنوبهم السالفة ، وهل المراد بذلك ذنب من عصى يوم المعركة بتركه مركزه في القتال ، أو المراد ذنوب قبل ذلك ،

قولان للمفسرين : قال بعض السلف : « إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها » والإضافة إلى الشيطان لطف وتقريب ، والتعليل بكسبهم وعظ وتأديب ، ثم بشرهم الله – عز وجل – بالعفو فقال : ﴿ **ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم** ﴾ أي ولقد تجاوز عنهم عما كان منهم من الفرار فهو يغفر الذنوب ، حليم لا يعاجل بالعقوبة ، حليم بخلقه ، ويتجاوز عنهم .

كلمة حول السياق :

رأينا أن سورة آل عمران فيها تفصيل لما أجمل في مقدمة سورة البقرة ، وتحديد للعلاقة بين أهل الإيمان والتقوى ، وبين غيرهم . وفي هذا المقطع حدّد الله – عز وجل أنه لا يصح أن يعطي أهل الإيمان الطاعة لأهل الكفر ، ووعد فيه أهل الإيمان بالنصر ، ومن خلال ما حصل يوم أحد عُلم أن الوعد مشروط ، وبيَّن المقطع من خلال ما حدث يوم أحد ، كيف يستقبل أهل الإيمان ؛ وأهل النفاق ما يمتحن الله به عباده .

فالمقطع إذن أعطانا تفصيلات عن حال أهل الإيمان في المحن ، وحال أهل النفاق فيها ، وأعطى أهل الإيمان دروساً فيما ينبغي أن يكونوا عليه ، وأدَّبهم على ألا يعطوا الطاعة لأهل الكفر ، وهدَّم المقطعُ كل سبب يمكن أن يتوهمه مسلم لإعطاء هذه الطاعة .

فـوائـد :

لقد حدثت هزيمة يوم أحد ، ومُنِع المسلمون النصر والغلبة ، ولكن الصفحات التي

سجلوها يوم أحد تعتبر أروع صفحات في تاريخ البطولات الإسلامية على الإطلاق ، وفي السيرة والسنَّة بيان ذلك . وننقل هنا بعض النقول في الحدود التي تلقي أضواء على المقطع الذي ذكرناه .

١ – روى البخاري عن البراء قال : لقينا المشركين يومئذ – يوم أحد – وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة ، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال : لا تبرحوا ، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا ، فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل ، رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون الغنيمة الغنيمة ، فقال عبد الله بن جبير : عهد إليَّ النبيُ ﷺ أن لا تبرحوا ، فأبوا ، فلما أبوا صرف وجوههم ، فأُصيب سبعون قتيلاً ، فأشرف أبو سفيان فقال : أفي القوم محمد ؟ فقال : لا تجيبوه ، فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ قال : لا تجيبوه . فقال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قُتلوا ، فلو كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمر رضى الله عنه – نفسه فقال له : كذبت يا عدو الله ، أبقى الله لك ما يحزنك . قال أبو سفيان : أُعْلُ هبل ، فقال النبي ﷺ : أجيبوه ، قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا الله أعلى وأجل ، قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال النبي ﷺ : أجيبوه ، قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا الله مولانا ولا مولى لكم . قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال . وستجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني .

وروى الإمام أحمد عن البراء قوله : فلم يبقَ مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً ، فأصابوا منا سبعين .

٢ – ثبت في الصحيحين عن أبي عثمان النّهدي قال : لم يبقَ مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ إلا طلحة بن عبيد الله وسعد

وفي الصحيحين عن سعد قال : رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال ما رأيتهما من قبل ذلك اليوم ولا بعده ، يعني جبريل وميكائيل .

وروى مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ، واثنين من قريش ، فلما أرهقوه قال : من يردهم عنا وله الجنة – أو وهو رفيقي في الجنة – ؟ . فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل ، ثم أرهقوه أيضاً فقال : من

يردهم عنا وله الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل ، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ ما أنصفنا أصحابنا » وروى أبو داود الطيالسي عن عائشة قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذاك يوم كله لطلحة ثم أنشأ يحدث قال : كنت أول من فاء يوم أحد ، فرأيت رجلاً يقاتل مع رسول الله ﷺ دونه ، وأراه قال : حمية ، فقلت : كن طلحة حيث فاتني ما فاتني ، فقلت يكون رجلاً من قومي أحب إلي ، وبيني وبين المشركين رجلٌ لا أعرفه ، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه ، وهو يخطف المشي خطفاً لا أعرفه ، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد كُسرت رباعيته ، وشُجّ في وجهه ، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر ، فقال رسول الله ﷺ عليكما صاحبكما ، يريد طلحة . وقد نزف فلم نلتفت إلى قوله : وذهبت لأنزع ذلك من وجهه ، فقال أبو عبيدة : أقسمت عليك بحقي لما تركتني ، فتركته ، فكره أن يتناولها بيده فيؤذي رسول الله ﷺ فأزم عليها بفيه ، فاستخرج إحدى الحلقتين ، ووقعت ثنيته مع الحلقة ، وذهبت لأصنع ما صنع فقال : أقسمت عليك بحقي لما تركتني قال : ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى ، ووقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة ، فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتمًا ، فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ ثم أتينا طلحة في بعض تلك الحفار ، فإذا به بضع وسبعون ، أو أقل ، أو أكثر ، من طعنة ، ورمية ، وضربة ، وإذا قد قطعت أصبعه ، فأصلحنا من شأنه .

٣ - أخرج البخاري عن أنس بن مالك « أن عمه يعني أنس بن النضر - غاب عن بدر فقال : غبت عن أول قتال النبي ﷺ . لئن أشهدني الله مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أجد . فلقي يوم أحد فهزم الناس ، فقال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون ، فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ فقال : أين يا سعد إني أجد ريح الجنة دون أحد ، فمضى فقتل ، فما عُرف حتى عرفته أخته بشامته أو ببنانه وبه بضع وثمانون ، من طعنة ، وضربة ، ورمية سهم .

٤- ومادامت السورة تعطينا دروس أحد ، فقد يكون من المناسب أن نذكر هذه الرواية :

روى ابن إسحق . وجماعة عن ابن شهاب . ومحمد بن يحيى . والحصين بن عبد الرحمن . وغيرهم ، وكل قد حدّث بعض الحديث : « أنه لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب ، ورجع فُلُّهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره ،

مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيبت آباؤهم ، وأبناؤهم ، وإخوانهم يوم بدر ، فكلموا أبا سفيان ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وَتَرَكم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك به ثأرنا بمن أصاب منا ، ففعلوا ، فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ وخرجت بحدها وحديدها ، وأحابيشها ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة ، وأن لا يفروا ، وخرج أبو سفيان وهو قائد الناس بهند بنت عتبة ، وخرج آخرون بنساء أيضاً ، فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا ، قال رسول الله ﷺ : إني رأيت بقراً تنحر ، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينه ، فأوّلتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة ، وندعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هُم دخلوا علينا قاتلناهم فيها ، وكان رأي عبد الله بن أبيّ بن سلول مع رأي رسول الله ﷺ يرى رأيه في ذلك أن لا يخرج إليهم ، وكان ﷺ يكره الخروج فقال رجال من المسلمين ممن أكرمه الله تعالى بالشهادة يوم أحد ، وغيرهم ممن كان فاته يوم بدر : اخرج بنا يا رسول الله إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنّا عنهم وضعفنا ، فقال عبد الله بن أبيّ بن سلول : يا رسول الله أقم بالمدينة ، لا تخرج إليهم ؛ فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخل علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ﷺ فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا ، فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم حتى دخل رسول الله ﷺ فلبس لأمة حربه وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ، ثم خرج عليهم ، وتلاوم الناس وقالوا : استكرَهْنا رسول الله ﷺ ، ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد صلى الله تعالى عليك وسلم فقال : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمَتهُ أن يضعها حتى يقاتل ، فخرج ﷺ بألف من أصحابه وقد وعدهم الفتح إن يصبروا ، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس ، حتى إذا كان بالشوط بين المدينة وأحد ، انخذل عنه عبد الله بن أبي بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصاني ، وما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ، فرجع بمن تبعه من قومه من أهل النفاق والريب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول : يا قوم أذكّركم الله تعالى أن

تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم قال : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال ، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف قال : أبعدكم الله تعالى أعداء الله ، فسيغني الله تعالى عنكم نبيه ﷺ ، ومضى رسول الله ﷺ حتى سلك في حرة بني حارثة ، فذب فرس بذنبه فأصاب كلاب سيف فاستله ، فقال ﷺ - وكان يحب الفأل لصاحب السيف : شم سيفك فإني أرى السيوف تسل اليوم ، ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد من عدوة الوادي إلى الجبل ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، وقال : لا يقاتل أحد حتى نأمره بالقتال وتعبّأ رسول الله ﷺ للقتال ومشى على رجليه ، وجعل يصف أصحابه فكأنما يقوم بهم القدح إن رأي صدراً خارجاً قال : تأخر وهو في سبعمائة رجل وأمّر على الرماة عبد الله بن جبير ، وهو مُعَلّم يومئذ بثياب بيض ، وكانوا خمسين رجلاً وقال : انضح الخيل عنا بالنبل ، ولا يأتونا من خلفنا ، إن كان علينا أو لنا فاثبت مكانك لا نؤتين من قِبَلك ، وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف ، فيهم مائتا فرس قد جنّبوها ، ووقع القتال وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة - ثلاث من الهجرة - وكان ما كان » .

٥ - **بمناسبة قوله تعالى ﴿ وليمحص ما في قلوبكم ﴾** يقول صاحب الظلال :

والتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز ، التمحيص عملية تتم في داخل النفس ، وفي مكنون الضمير .. إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية ، وتسليط الضوء على هذه المكنونات . تمهيداً لإخراج الدخل والدغل والأوشاب ، وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق ، بلا غبش ولا ضباب .. وكثيراً ما يجهل الإنسان نفسه ، ومخابئها ودروبها ومنحنياتها . وكثيراً ما يجهل حقيقة ضعفها وقوتها ، وحقيقة ما استكن فيها من رواسب ، لا تظهر إلا بمثير ! .

وفي هذا التمحيص الذي يتولاه الله - سبحانه - بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء ، يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير : محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية .

ولقد يظن الإنسان في نفسه القدرة ، والشجاعة ، والتجرد ، والخلاص من الشح ، والحرص .. ثم إذا هو يكشف - على ضوء التجربة العملية وفي مواجهة الأحداث الواقعية - أن في نفسه عقابيل لم تمحص . وأنه لم يتهيأ لمثل هذا المستوى من الضغوط !

ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه ، ليعاود المحاولة في سبكها من جديد ، على مستوى الضغوط التي تقتضيها طبيعة هذه الدعوة ، وعلى مستوى التكاليف التي تقتضيها هذه العقيدة ! . والله - سبحانه - كان يربي هذه الجماعة المختارة لقيادة البشرة ، وكان يريد بها أمراً في هذه الأرض . فمحّصها هذا التمحيص ، الذي تكشف عنه الأحداث في أحد ، لترتفع إلى مستوى الدور المقدّر لها ، وليتحقق على يديها قدر الله الذي ناطه بها .

كلمة في سياق المقطع :

من امتدادات معاني مقدمة سورة البقرة في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾ وفي آخر مجموعة من القسم السابق في سورة آل عمران جاء قوله تعالى :

﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين. ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون . وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** ... ﴾ .

ثم جاء المقطع الأول من القسم الخامس وفيه كلام عما يؤدي إلى الردة ، ورأينا صلة ذلك بما قبله مباشرة ، ثم جاء فيه كلام عما حدث يوم أحد . وهي نموذج على الزلزال الذي يصيب المسلمين ، وكيفية مواجهته ، فالمقطع الأول من هذا القسم مرتبط بالمقطع السابق عليه ، وفي الجميع تفصيلات لمقدمة سورة البقرة ، وامتداداتها في السورة نفسها .

وكما أنه في هذا المقطع أخذت دروس من أحد ، فإنّ دروساً أخرى ستؤخذ في مقاطع لاحقة ، وكل ذلك بما ينسجم مع سياق السورة الخاص بها ، وبما يعطينا تفصيلات لمقدمة سورة البقرة في تعميق المعاني الإيمانية وتوضيح القضايا الكفرية ، وتحديد العلاقة بين أهل الإيمان ، وأهل الكفر وتمييز أهل الإيمان عن أهل الكفر والنفاق .

المقطع الثاني من القسم الخامس

المقطع الاول في هذا القسم بيّن لنا عاقبة طاعة الكافرين ، وذكَّرنا بولاية الله لنا ، وأنه خير الشاهدين ، ووعدَنا بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين بسبب كفرهم . ثم

جاءت فقرة تعطينا دروساً فيما ينبغي أن نكون عليه،ليعطينا الله نصره ، وذلك من خلال ما حدث يوم أحد .

ويأتي هذا المقطع لينهانا عن أن نعتقد فيمن مات منا ما يعتقده الكافرون من أن الأجل يتقدم أو يتأخر . إن هذا هو المعنى الرئيسي في المقطع ، بدليل أن البداية والنهاية في المقطع صُبَّت على هذا الموضوع .

يمتد المقطع من الآية (١٥٦) إلى نهاية الآية (١٦٨) وهذا هو :

المقطع الثاني

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

☆ ☆ ☆

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ

وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣)

☆ ☆ ☆

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤) أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)

☆ ☆ ☆

كلمة في المقطع :

بدأ المقطع بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا ..** ﴾ وانتهى بقوله تعالى عن المنافقين :

﴿ **الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين** ﴾ .

فالبداية والنهاية في موضوع واحد . وفي وسط المقطع ذكّرنا الله - عز وجل بِمِنَّتين علينا : ﴿ **فبما رحمةٍ من الله لِنتَ لهم ..** ﴾ . ﴿ **لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم** ﴾ .

وفي منّة الله - عز وجل - علينا بذلك في وسط الكلام الذي ينهانا عن مواطئة الكافرين والمنافقين في قضية الموت ، ما هو كالبيان لنعمٍ يذكّرنا الله - عز وجل - بها ، لا ينبغي معها أن نواطيء الكافرين والمنافقين في اعتقادهم في شأن الموت .

وفي هذه الأجواء ، أجواء القتل في سبيل الله ، وأجواء أقوال الكافرين والمنافقين في من قتلوا في سبيل الله ، مما يترك آثاره في قلوب المسلمين يأتي قوله تعالى :

﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾ فإلى ماذا يشير هذا ؟ إن هذا يشير إلى أن القائد عليه أن يكون ليّناً ، وأن يعفوا ويستغفر ويشاور ، فليس دخول معركة يترتب عليه ما يترتب أمراً سهلاً ، خاصة وأن الكافرين والمنافقين سيثيرون زوابع . فلا بد أن يكون الصف الإيماني على غاية من الوعي والتلاحم ، وذلك لن يتم إلا إذا كان على رأس الأمر قائد هذه صفاته .

وفي هذا السياق يذكّرنا الله بالتوكل عليه ، وأن النصر والخذلان منه ، وفي هذا السياق يعمّق الثقة بشخصية الرسول ﷺ مما يوحي بأن القائد لا ينبغي له الغلول ، ولا ينبغي أن يكون محل شك ، فعلى القادة أن يلاحظوا ذلك .

ولنبدأ عرض المقطع :

في هذا المقطع نهى الله عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد ، الدال عليه قولهم ، عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب : لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم ، ثم بيَّن الله - عز وجل - أنه خَلَق هذا الاعتقاد الفاسد في قلوبهم ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم ، ثم ردّ عليهم اعتقادهم الفاسد ، بأنه تعالى بيده الخلق وإليه يرجع الأمر ، ولا يموت أحد ولا يحيا إلا بمشيئته وقَدَره ، ولا يزداد في عمر أحد ولا ينقص منه شيء إلا بقضائه وقدره . ثم بيَّن أن علمه وبصره نافذ في جميع خلقه ، لا يخفى عليه من أمورهم شيء ، ثم بيَّن أن القتل في سبيله والموت في سبيله خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني ؛ لأن القتل أو الموت في سبيله وسيلة إلى نيل رحمته وعفوه ورضوانه ، ثم

أخبر تعالى أن كل من مات أو قُتل فمصيره ومرجعه إلى الله - عز وجل - فيجزيه بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وفي هذه المعاني ردٌّ على تصور الكافرين الفاسد . وفي نهاية المقطع عودٌ إلى هذه المعاني . وبين نهاية المقطع وهذه البداية معان سنرى الصلة بينها وبين ماقبلها ومابعدها ، فبَعْد المعاني التي ذكرناها ، منَّ الله - عز وجل - على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين بما ألان قلب رسوله لهم ، فأطاب لفظه لهم . ثم بيَّن الحكمة في ذلك ، بأنه لو كان عليه السلام سيء الكلام، قاسي القلب ، لانفضوا عنه وتركوه ، ولكن الله جمعهم عليه ، وألان جانبه لهم تأليفاً لقلوبهم . وفي ذلك رحمة من الله بالجميع . ثم أمر رسوله أن يعفو عنهم ، وأن يشاورهم ، وأن يستغفر لهم تطييباً للقلوب ، وزيادة حرص على خيرهم . ثم أمره إذا شاور وعزم ، أن يتوكل على الله ويُمضي، فالله يحب المتوكلين . ثم بيَّن لهم أن النصْر والخذلان من الله ، ثم أمرهم بالتوكل بعدما بيَّن لهم من قبل أنه يحب أهله . ثم بيَّن عصمة رسوله من الخيانة في أمر الدنيا والدين ، وهدّد الخائنين بعقابه وجزائه . ثم بيَّن عدم استواء من يتَّبع رضوان الله مع من يُسْخط الله . ثم بيَّن أن أهل الخير وأهل الشر درجات ، وأن كلًّا موفّى عمله. ثم بيَّن أن له على المؤمنين منَّةً أخرى ببعثته رسولاً للمؤمنين من جنسهم ، ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به ، ويعلّمهم ويربيهم بعد أن كانوا في جهالة وضلالة ، ثم يعود السياق إلى البداية التي لها علاقة في غزوة أحد ، ودروسها وتصحيح التصورات حول الموت والقتل .

فما الصلة بين ما ذكر في وسط هذا المقطع ، وبين طرفيه ؟ إن منَّة الله على عباده ببعثة رسوله ، وبخصائصه ، وعصمته ، وأمر الله له ﷺ بالمشاورة كل ذلك مرتبط بما ينبغي أن يرافق ما يحدث للمسلمين بالرضا سواء كان قتلاً أو غيره ، كما ينبغي أن يرافقه شعور بالنعمة لا يبقى معه أي بقية للتصورات الكفرية في أي شأن ، كما ينبغي أن يرافقه شعور بتولي الله للمؤمنين في كل حين ، كيف وقد مَنَّ عليهم بكل هذا .

وإذا اتضح شيء من الصلة بين وسط المقطع وطرفيه ، فلنذكر المعاني العامة الواردة في طرفه الأخير : بُيِّن للمسلمين في نهاية المقطع سببُ ما وقع بهم من قتل ، مع تذكيرهم بنعمته عليهم يوم بدر ، وأن علة ذلك هم . ثم بيّن أن ما أصابهم كان بمشيئة الله ؛ تأديباً وتمحيصاً للمؤمنين ؛ وتمييزاً للصف الإيماني من الصف المنافق ، الذي تخلى عن القتال في أشد اللحظات بحجة أنه لاقتال ، يقولون هذا وهم يكتمون خلافه ، ويقولون عمن قُتل : لو أطاعنا ما قُتل ، فردّ الله عليهم أن يردوا عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين .

والملاحظ أن منطق المنافقين الذي خُتم به المقطع ، هو نفس منطق الكافرين الذي بدىء به المقطع ، ومن ثَمَّ نعرف وحدة المقطع .

وإذا نظرنا إلى المقطع من خلال السياق ، وكنا متذكّرين صلة هذا المقطع بمقدمة سورة البقرة ، عرفنا أن هذا المقطع يصفّي المؤمنين ، من أن تكون عندهم تصورات الكافرين ، أو المنافقين ، في قضية القتل ، أو الموت ، مع تبيان التصورات الصحيحة ، مع تبيان مجموعة النعم التي ينبغي أن يقوم بشكرها المؤمنون ، مع تبيان كثير من الأخلاق والتصورات الإيمانية ، مع معانٍ أُخر ، وكلها مرتبطة بقضية الإيمان ، وكل ذلك مرتبط بشكل ما بمقدمة سورة البقرة .

المعنى الحرفي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا** ﴾ أي : لا تتشبهوا بالكفار في اعتقادهم الفاسد الدال عليه ما يأتي ﴿ **وقالوا لإخوانهم** ﴾ أي : عن إخوانهم في النسب ، أو في المذهب والمسلك ﴿ **إذا ضربوا في الأرض** ﴾ أي : سافروا للتجارة أو نحوها ﴿ **أو كانو غزًّى** ﴾ أي : أو كانوا في الغزو فأصابهم موت أو قتل ﴿ **لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا** ﴾ أي : لو كانوا عندنا في البلد ما ماتوا في سفر ، وماقتلوا في غزو والمعنى : لا تكونوا كهؤلاء في النطق بذلك القول واعتقاده ﴿ **ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم** ﴾ أي : قالوا ذلك واعتقدوه ، وأراده الله ؛ ليكون ذلك حسرة في قلوبهم ، والحسرة : هي الندامة على فوت المحبوب . أما أنتم فصونوا منها قلوبَكم بالاعتقاد الصحيح بقضاء الله وقدره . ﴿ **والله يُحيي ويميت** ﴾ هذا رد لقولهم الفاسد : من أن القتال أو السفر يقطع الآجال أو يقرّبها ، فالأمر بيده - سبحانه - فقد يُحيي المسافر والمقاتل ويميت المقيم والقاعد ، لا يُزاد في عمر أحد ، ولا يُنقص منه شيء ، ولا يحيا أحد ، ولا يموت إلا بمشيئته وحده - جل جلاله - وقضائه وقَدَره . ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ فيجازيكم على أعمالكم .

دلّ ختم الآية بهذا ، على أن القول من العمل ، فما أعقل من استشعر رؤية الله لأعماله ، وأقواله ، وأحواله ، وعرف مجازاة الله له على ذلك كله .

﴿ **ولئن قُتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة** ﴾ أي : لنيل أهل الإيمان مغفرة الله ورحمته في حال قتلهم أو موتهم ﴿ **خير مما يجمعون** ﴾ خير مما يجمع أهل

الدنيا من حطامها الفاني . ﴿ **ولئن مُتُّم أو قتلتم لإلى الله تحشرون** ﴾ أي : المصير والمرجع إلى الله ، في حال موتكم أو قتلكم ، فلتعملوا ، ولتحسنوا ، وكِلُوا أمركم في الحياة وغيرها إلى الله .

كذّب الكافرين أولاً في زعمهم أن السفر أو الغزو يقصّران الآجال ، ونهى المسلمين عن اعتقاد ذلك وقوله ؛ لأنه ، سبب التقاعد عن الجهاد ، ثم بيَّن لهم أنه إن تمَّ عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت أو القتل في سبيل الله ، فإنَّ ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت في سبيل الله ، خير مما يجمعونه من الدنيا ، فإن الدنيا زاد المعاد للعاقلين . فإذا وصل العبد إلى المراد لم يحتج إلى الزاد . ﴿ **فبما رحمةٍ من الله لِنت لهم** ﴾ أي : فَبِرحْمة من الله كان لينك للمؤمنين ، ومعنى الرحمة : ربطه على جأشه ، وتوفيقه للرفق ، والتلطف بهم . دلّ على أن لينه لهم ما كان ليكون إلا برحمة من الله تعالى ، وامتنان الله على المؤمنين بهذا في السياق يدل على أن كل مبررات مطاوعة الكافرين ، ومسايرتهم ، لا يجوز وجودها ، بل يجب انتفاؤها لوجود الكمال في القائد وسلوكه ، وتعامله ، ولوجود الكمال في الدعوة كما سيمر . ﴿ **ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ الفظ : هو الجافي الغليظ الكلام ، وغليظ القلب : قاسيه ، والانفضاض : التفرق أي : لو كنت سيء الكلام ، قاسي القلب لتفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد ، فإذا كان رسول الله ﷺ هذا الشأن معه لو كان كذلك لتفرّق عنه الناس ، وهو المفروض على الناس اتباعه ، فما بال غيره . فليتقِ الله أحدٌ أعطاه الله قيادة ، أو إمامة للمسلمين ألا يرفق. بهم ثم أمر الله رسوله ﴿ **فاعف عنهم** ﴾ بدوام إحسانك للمسيء ﴿ **واستغفر لهم** ﴾ الله فيما يختص بحقه إتماماً للشفقة عليهم ، ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾ أي : في كل ما يختص من أمورهم من حرب لسلم لغير ذلك ، مما لم ينزل عليك فيه وحي تطييباً لنفوسهم ، وترويحاً لقلوبهم ، ورفعاً لأقدارهم ، وتوعية لهم على قضاياهم ، وتسييراً لهم من حيث يقتنعون أنه المصلحة ، واستخراجاً لطاقات عقولهم فيما هو خير لمجموعهم . ﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾ . أي : فإذا قطعت الرأي على شيء بعد الشورى ، فتوكل على الله في إمضائه ﴿ **إن الله يحب المتوكلين** ﴾ . أي : المعتمدين عليه والمفوِّضين أمورهم إليه ، يأخذون بالأسباب ، ويقومون بحق الله ، وتنفيذ أمره باستنفاد الوسع ، وبذل الطاقة ، ولا يعتمدون إلا على الله .

فوائد حول الآية :

١ - قال الحسن البصري في هذه الآية : « هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به »

ونضيف : وعلى ورّاثه أن يتخلقوا به ، وعلى قيادات المسلمين أن يكونوا كذلك .

٢ – يقول صاحب الظلال في قوله تعالى ﴿ **وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾ . « وبهذا النص الجازم : « وشاورهم في الأمر » .. يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم – أن الشورى مبدأ أساسي ، لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه .. أما شكل الشورى ، والوسيلة التي تتحقق بها ، فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتها . وكل شكل وكل وسيلة . تتم بها حقيقة الشورى – لا مظهرها – فهي من الإسلام .

لقد جاء هذا النص عقب وقوع نتائج للشورى تبدو في ظاهرها خطيرة مريرة ، فقد كان من جرائها ظاهرياً وقوع خلل في وحدة الصف المسلم ! اختلفت الآراء . فرأت مجموعة أن يبقى المسلمون في المدينة محتمين بها ، حتى إذا هاجمهم العدو قاتلوه على أفواه الأزقّة . وتحمست مجموعة أخرى فرأت الخروج للقاء المشركين . وكان من جراء هذا الاختلاف ذلك الخلل في وحدة الصف . إذ عاد عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الجيش ، والعدو على الأبواب – وهو حدث ضخم وخلل مخيف – كذلك بدا أن الخطة التي نفذت لم تكن – في ظاهرها – أسلم الخطط من الناحية العسكرية . إذ إنها كانت مخالفة « للسوابق » في الدفاع عن المدينة – كما قال عبد الله بن أبي – وقد اتبع المسلمون عكسها في غزوة الأحزاب التالية ، فبقوا فعلاً في المدينة ، وأقاموا الخندق ، ولم يخرجوا للقاء العدو . منتفعين بالدرس الذي تلقوه في أحد .

ولم يكن رسول الله ﷺ يجهل النتائج الخطيرة التي تنتظر الصف المسلم من جراء الخروج . فقد كان لديه الإرهاص من رؤياه الصادقة التي رآها ، والتي يعرف مدى صدقها ، فقد تأوّلها قتيلاً من أهل بيته ، وقتلى من صحابته ، وتأوّل المدينة درعاً حصينة .. وكان من حقه أن يلغي ما استقر عليه الأمر نتيجة للشورى .. ولكنه أمضاها وهو يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات . لأن إقرار المبدأ وتعليم الجماعة ، وتربية الأمة ، أكبر من الخسائر الوقتية .

ولقد كان من حق القيادة النبوية أن تنبذ مبدأ الشورى كله بعد المعركة ، أمام ما أحدثته من انقسام في الصفوف في أحرج الظروف ؛ وأمام النتائج المريرة التي انتهت إليها المعركة ! ولكن الإسلام كان ينشىء أمة ، ويربيها ، ويعدّها لقيادة البشرية . وكان الله يعلم أن خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة ، أن تُربي بالشورى ؛ وأن

تدرب على حمل التبعة ، وأن تخطىء - مهما يكن الخطأ جسيماً وذا نتائج مريرة - لتعرف كيف تصحح خطأها ، وكيف تحتمل تبعات رأيها وتصرفها . فهي لا تتعلم الصواب إلا إذا زاولت الخطأ .. والخسائر لاتهم ، إذا كانت الحصيلة هي إنشاء الأمة المدرَّبة المقدِّرة للتبعة . واختصار الأخطاء ، والعثرات ، والخسائر ، في حياة الأمة ليس فيه شيء من الكسب لها ، إذا كانت نتيجته أن تظل هذه الأمة قاصرة كالطفل تحت الوصاية . إنها في هذه الحالة تتقي خسائر مادية وتحقق مكاسب مادية . ولكنها تخسر نفسها وتخسر وجودها ، وتخسر تربيتها ، وتخسر تدريبها على الحياة الواقعية . كالطفل الذي يمنع من مزاولة المشي - مثلاً - لتوفير العثرات والخبطات . أو توفير الحذاء !

كان الإسلام ينشىء أمة ويربيها ، ويعدها للقيادة الراشدة . فلم يكن بد أن يحقق لهذه الأمة رشدها ، ويرفع عنها الوصاية في حركات حياتها العملية الواقعية ، كي تدَرّب عليها في حياة الرسول ﷺ وبإشرافه . ولو كان وجود القيادة الراشدة يمنع الشورى ، ويمنع تدريب الأمة عليها تدريباً عملياً واقعياً في أخطر الشؤون - كمعركة أحد التي قد تقرر مصير الأمة المسلمة نهائياً ، وهي أمة ناشئة تحيط بها العداوات والأخطار من كل جانب - ويحل للقيادة أن تستقل بالأمر وله كل هذه الخطورة - لو كان وجود القيادة الراشدة في الأمة يكفي ويسد مسد مزاولةالشورى في أخطر الشؤون ، لكان وجود محمد ﷺ - ومعه الوحي من الله سبحانه وتعالى - كافياً لحرمان الجماعة المسلمة يومها من حق الشورى - وبخاصة على ضوء النتائج المريرة التي صاحبتها في ظل الملابسات الخطيرة لنشأة الأمة المسلمة . ولكن وجود محمد رسول الله ﷺ ومعه الوحي الإلهي ووقوع تلك الأحداث ، ووجود تلك الملابسات ، لم يلغ هذا الحق . لأن الله - سبحانه - يعلم أن لا بد من مزاولته في أخطر الشؤون ، ومهما تكن النتائج ، ومهما تكن الخسائر ، ومهما يكن انقسام الصف ، ومهما تكن التضحيات المريرة ، ومهما تكن الأخطار المحيطة .. لأن هذه كلها جزئيات لا تقوم أمام إنشاء الأمة الراشدة ، المدربة بالفعل على الحياة ؛ المدركة لتبعات الرأي والعمل ، والواعية لنتائج الرأي والعمل .. ومن هنا جاء هذا الأمر الإلهي ، وفي هذا الوقت بالذات :

﴿ **فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر** ﴾ .. ليقرر المبدأ في مواجهة أخطر الأخطار التي صاحبت استعماله ؛ وليثبت هذا القرار في حياة الأمة المسلمة أياً كانت الأخطار التي تقع في أثناء التطبيق وليسقط الحجة الواهية التي تثار لإبطال هذا المبدأ في حياة الأمة المسلمة ، كلما نشأ عن استعماله بعض العواقب التي تبدو سيئة ،

ولو كان هو انقسام الصف ، كما وقع في « أحد » والعدو على الأبواب .. لأن وجود الأمة الراشدة مرهون بهذا المبدأ . ووجود الأمة الراشدة أكبر من كل خسارة أخرى في الطريق ! .

على أن الصورة الحقيقية للنظام الإسلامي لا تكمل حتى نمضي مع بقية الآية ؛ فنرى أن الشورى لا تنتهي أبداً إلى الأرجحة والتعويق ، ولا تغني كذلك عن التوكل على الله في نهاية المطاف: ﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله . إن الله يحب المتوكلين** ﴾ ..

إن مهمة الشورى هي تقليب أوجه الرأي ، واختيار اتجاه من الاتجاهات المعروضة . فإذا انتهى الأمر إلى هذا الحد ، انتهى دور الشورى وجاء دور التنفيذ .. التنفيذ في عزم وحسم ، وفي توكل على الله ، يصل الأمر بقدر الله ، ويدعه لمشيئته تصوغ العواقب كما تشاء ..

وكما ألقى النبي ﷺ درسه النبوي الرباني ، وهو يعلّم الأمة الشورى ، ويعلّمها إبداء الرأي ، واحتمال تبعته بتنفيذه في أخطر الشؤون وأكبرها .. كذلك ألقى عليها درسه الثاني في المضاء بعد الشورى ، وفي التوكل على الله ، وإسلام النفس لقَدَرِه – على علم بمجراه واتجاهه – فأمضى الأمر في الخروج ، ودخل بيته فلبس درعه ولأمته – وهو يعلم إلى أين هو ماض ، وما الذي ينتظره وينتظر الصحابة معه من آلام وتضحيات .. وحتى حين أتيحت فرصة أخرى بتردد المتحمسين ، وخوفهم من أن يكونوا استكرهوه ﷺ على ما لا يريد ، وتركهم الأمر له ليخرج أو يبقى .. حتى حين أتيحت هذه الفرصة لم ينتهزها ليرجع ؛ لأنه أراد أن يعلمهم الدرس كله . درس الشورى . ثم العزم والمضي . مع التوكل على الله والاستسلام لقَدَرِه . وأن يعلمهم أن للشورى وقتها ، ولا مجال بعدها للتردد ، والتأرجح ، ومعاودة تقليب الرأي من جديد . فهذا مآله الشلل والسلبية ، والتأرجح الذي لا ينتهي .. إنما هو رأي وشورى . وعزم ومضاء . وتوكل على الله ، يحبه الله » اهـ .

٣ – ذكر ابن كثير أمثلة كثيرة عن استشارة الرسول ﷺ أصحابه كاستشارته لهم يوم بدر ، ويوم الخندق ، ويوم الحديبية ، وحالات أخرى ثم قال :

فكان ﷺ يشاورهم في الحروب ، ونحوها . وقد اختلف الفقهاء هل كان ذلك واجباً عليه أم من باب الندب تطييباً لقلوبهم ؟ على قولين . ونقول : إن الأصل في الأمر أن يكون للوجوب ، إلا إذا وجد صارف ، ولا صارف هنا ، خاصة وأن قوله تعالى في

سورة الشورى عن المؤمنين ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ مذكور بين الصلاة والزكاة ، وهما فريضتان ، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لرسول الله ﷺ ، فكيف بالنسبة لغيره . وإذا استشار رسول الله ﷺ ، أو خلفاؤه ، أو أمراء المسلمين ، فهل النزول على رأي الأكثرية واجب أم لا ؟ وهذه مسألة عصرنا التي طرحها بعضهم تحت عنوان : هل الشورى ملزمة أم معلمة ، فيما لا نص فيه مما يدخل في دائرة الاجتهاد الحياتي ؟ والذي أراه في هذه القضية أن الشورى إذا أعطيت لأهلها ، فإن رأي أكثريتهم في هذه الحالة ملزم . ويشهد لهذا قول الرسول ﷺ الذي رواه الإمام أحمد لأبي بكر وعمر « لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما » ، وما رواه ابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن العزم فقال : « مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم » ولم يعرف قط أن خليفة راشداً طرح مسألة على الشورى ثم ترك رأي الأكثرية إلا في قضية اتضح له فيها نص ، كما فعل أبو بكر في موضوع الردّة ، ويشهد لما ذهبت إليه قول الحنفية : ويجب طاعة الأمير إلا إذا رأى الأكثر أنه ضرر فيتبع .

والأمير الذي يعطل الشورى أو لا يعطيها لأهلها ، أو لا ينزل على رأي أكثرية أهلها أمير لا يقود إلا إلى الدمار . على أن للأمير أن يطرح أمراً ما على دائرة أوسع أو أعلى حال الاختلاف إذا كان بالإمكان ذلك .

٤ - قال النسفي : « في الحديث : ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم . وعن أبي هريرة رضي الله عنه : « ما رأيت أحداً أكثر مشاورة من أصحاب رسول الله ﷺ ». ومعنى شاورت فلاناً : أظهرت ما عندي وما عنده من الرأي . وشرت الدابّة : استخرجت شريها ، وشرت العسل : أخذته من مأخذه ، وفيه دلالة جواز الاجتهاد ، وبيان أن القياس حجة » اهـ .

وإذن فأدب المسلم الاستشارة ، وأدب القائد الاستشارة ، وأدب الخليفة الاستشارة ، ومن ثَمَّ قال عليه السلام مؤدباً من يُستشار « المستشار مؤتمن » وهو حديث حسن رواه أبو داود وغيره وقال : « إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه » رواه ابن ماجه .

كلمة حول محل هذه الآية في السياق :

هذا المقطع كله في سياق قصة أُحد ، ودروسها ، وفي سياق عدم متابعة الكافرين في الحسرة على من يقتل أو يموت ؛ تصوراً منهم أن القتال أو غيره يقرب أجلاً . وقد

جاءت هذه الآية في هذا السياق ، فهذا رسول الله ﷺ وهو كما وصفته الآية وقد اتخذ قراره بعد مشاورة ، ثم أقدم متوكلاً على الله ، فكيف يحق لمسلم أن يتحسر على نتيجة . لقد كان رسول الله ﷺ كما وصف الله ـــ عز وجل ـــ ، وقد شاورهم يوم أحد ، ونزل على رأي أكثريتهم ، ثم أمضى الشورى وكان ما كان ، فلا مجال بعد ذلك لحسرة على شهيد ، وإنما هي أثر عن تصور كفري للموت والحياة . وإذ يكون ورّاثه من بعده على قدمه ، فأي قرار اتخذوه بعد الشورى ونفذ ، فإنه لا ينبغي أن يكون تحسر على ما يكون من بعد ، بل تسليم لله ، فهو الولي في الأمر كله .

وبعد الأمر بالشورى ، وبعد الأمر بعدم الحسرة على ما يكون من نتائج تأتي آية تقرّر قاعدة ، وتأمر أمراً . أما القاعدة فهي قوله تعالى : ﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم** ﴾ أي : فلا أحد يغلبكم ، ولو تواطأ العالم عليكم ﴿ **وإن يخذلكم** ﴾ أي : يحجب عنكم نصره ﴿ **فمن ذا الذي ينصركم من بعده** ﴾ أي من بعد خذلانه أي من بعد ترك معونته .

وأما الأمر فهو قوله تعالى : ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ أي : وليخص المؤمنون ربَّهم بالتوكل والتفويض ؛ لعلمهم أنه لا ناصر سواه ، ولأن إيمانهم يقتضي ذلك .

القاعدة دلت على أن الأمر كله لله،والأمر بُني على ماتقتضيه القاعدة، ومجيء هذه الآية بعد الآية السابقة أن النصر والخذلان من عند الله ، ومجيء هذه الآية في سياق المقطع يشير إلى أن المسلم عليه أن يعرف أن نتائج الأعمال بيد الله ، فمهما كان من أمر فالأمر أمره ، وعليه فينبغي أن يتصف بالتوكل في كل حال ، حال النصر أو الخذلان ، حال القتل ، أو حال السلامة ، ثم يعود السياق بعد هذه الآية إلى وصف رسول الله ﷺ بتنزيهه عن الخيانة بعد أن وصفه في ما قبل الآية السابقة بما وصفه به. فقال : ﴿ **وما كان لنبي أن يَغُل** ﴾ الغلول : هو الأخذ خفية ، والمعنى أن النبوة تنافي الغلول ، والغلول خيانة ، وكذلك فسرها ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد ، فقالوا في تفسيرها : ما ينبغي لنبي أن يخون ، قال ابن كثير : وهذا تنزيه له صلوات الله وسلامه عليه ، من جميع وجوه الخيانة ، في أداء الأمانة ، وتقسيم الغنيمة ، وغير ذلك . وقال محمد بن إسحق في تفسيره : « بأن يترك بعض ما أنزل إليه فلا يبلِّغ أمته » ، والنبي معصوم عن ذلك كله .

وسبب النزول يحدد المعنى الأول، إذ أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: فقدوا قطيفة يوم بدر فقالوا: لعلّ رسول الله ﷺ أخذها فأنزل الله ﴿ **وما كان لنبي أن يغلّ** ﴾ أي يخون، وروى مثله غيره.

والصلة بين هذه الآية ومقطعها من أكثر من وجه. فالمقطع يبيّن ما ينبغي أن تكون عليه أخلاق المؤمنين بعد المعركة في مواقفهم مما يحدث لإخوانهم من قتل.

وهذه الآية تبيّن أمانة المؤمنين بعد المعركة في الغنيمة بأمانة سيدهم وقدوتهم.

وهناك صلة أخرى وذلك أن الذي دعا الرماة إلى النزول عن الجبل ومخالفة الأمر؛ الغنائم، ولا مبرر لذلك إذ ما دام حقهم سيصل إليهم بمنتهى الدقة، فلا مبرر للهلع لتصور أن يفوت بعضهم شيء. ولعل لهذا المدرك اللطيف، ، فسّرها حبر هذه الأمة ابن عباس فقال: بأن يقسم لبعض السرايا ويترك بعضاً، ويمكن أن تكون الصلة بنوع من العطف بعيد ﴿ **لا تكونوا كالذين كفروا** ﴾، ﴿ **ولا تغلوا** ﴾ لأن الغلول لا يصح أن يكون لرسول الله ﷺ ولا لأتباعه. ﴿ **ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة** ﴾ أي: ومن يأخذ شيئاً غلولاً يأت بالشيء الذي غلّه بعينه، حاملاً له كما ورد في كثير من الأحاديث، أو يأت بما احتمل من وباله وإثمه. ﴿ **ثم تُوفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ أي: ثم تعطى كل نفس جزاءها وافياً دون أن تنقص شيئاً، فكل يعطى جزاءه على قدر كسبه، والله ذو فضل. ودخل في هذا التهديد الشديد كل كاسب من الغالّ وغيره، والتهديد في حق الغال أشد، لأنه إذا علم الغالّ أن كل كاسب خيراً أو شراً مجزيٌّ فموفّى جزاءه، علم أنه غير متخلص مع عظم ما اكتسب.

وبعد أن نهى الله عن أخلاقٍ للكافرين، ووصف أخلاق المؤمنين من خلال وصف أخلاق سيّدهم، بيَّن أن هؤلاء وهؤلاء لا يستوون، ليرفع هِمَم أهل الإيمان إلى ما ينبغي. ﴿ **أفمن اتّبع رضوان الله** ﴾ باتباع ما يوصل إلى هذا الرضوان ﴿ **كمن باء بسخط من الله** ﴾ أي: كمن استحق غضب الله وألزم به، فلا محيد له عنه، وهم المنافقون والكفار. ﴿ **ومأواه جهنم** ﴾ أي: منزله. ﴿ **وبئس المصير** ﴾ أي: وبئس المرجع والمآل جهنم. ﴿ **هم** ﴾ أي: أهل الخير وأهل الشر. ﴿ **درجات عند ربهم** ﴾ أي: منازل، يعني هم متفاوتون في منازلهم، درجاتهم في الجنة ودركاتهم في النار، أو هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات، أو هم ذوو درجات بحسب تفاوت منازل المثابين منهم ومنازل المعاقبين، أو بحسب تفاوت الثواب والعقاب. ﴿ **والله بصير بما يعملون** ﴾ أي:

عالم بأعمالهم وسيوفيهم إياها ، لا يظلمهم خيراً ، ولا يزيدهم شراً ، بل يجازي كل عامل بعمله . وكما منَّ الله على المؤمنين برحمة رسوله ﷺ لهم ، ولينه لهم ، يمنّ عليهم هنا برسالته ، وأعظم المنّ في ذلك على العرب ؛ ومجيء هذه الآية في هذا السياق ، تذكير بالنعمة في مقامها ، إذ المقام مقام إبعاد عن أخلاق الكافرين ، وتصوراتهم ، وأقوالهم التي يعني السير فيها كفراناً لنعمة الله ببعثة رسوله ﷺ . ﴿ **لقد منَّ الله على المؤمنين** ﴾ عامة والعرب خاصّة ؛ بدليل ما بعده ، وخصَّ المؤمنين بالذكر ؛ لأنهم هم المنتفعون بالبعثة ﴿ **إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم** ﴾ أي : من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ، ومجالسته ، والانتفاع به ، ولكن ما المراد بالجنس التي فسرنا بها كلمة الأنفس ؟ هل المراد بها الجنس البشري ، أو المراد بها الجنس العربي ؟ فيكون المعنى : من جنسهم عربياً مثلهم أو المراد بقوله ﴿ **من أنفسهم** ﴾ أي : من ولد إسماعيل لما أن أشرف العرب من ولده . والمنة على الوجه الأول ، أي : بكوْن الرسول من البشر من حيث إمكان الاقتداء به ، وسهولة مخاطبته ، ومراجعته ، والتعرف على حاله . والمنة على الوجه الثاني : أي : في كونه عربياً بالنسبة للعرب ، زيادة على ما مر من حيث كون اللسان واحداً فيسهل أخذ ما يجب عليهم أخذه عنه . والمنة على الوجه الثالث : زيادة على ما مر من حيث كونه من أشرف العرب ، فيسهل ذلك على الأنفس المتابعة ، والمنة لله على خلقه عامة ببعثة رسوله ﷺ ، وعلى العرب أشد ، وعلى بني إسماعيل وقريش أبلغ . فما أفظع كفر من يكفر من قريش ، أو من العرب ، أو من المؤمنين بعد كمال المنة ، فيتابع الكافرين في أقوالهم ، أو أفعالهم ، أو أحوالهم ، أو تصوراتهم ، ثم عدّد الله مظاهر النعمة بالرسالة ﴿ **يتلو عليهم آياته** ﴾ أي القرآن بعد أن كانوا في جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي ، وهذا على القول بأن المراد إظهار المنة بالرسالة على العرب . وعلى القول بأن المراد جنس البشر يبقى المراد هو القرآن . والمنة بآياته من حيث كونها تذكيراً لهم بالله من خلال قرآنه المعجز ﴿ **ويزكيهم** ﴾ أي ويطهرهم بالإيمان والإسلام والإحسان ، والتربية بالقول والعمل ، والقدوة ، والحال من كل دنس ، وخبث ، اعتقادي ، أو أخلاقي ، أو سلوكي ، أو غير ذلك ﴿ **ويعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾ أي القرآن والسنَّة ﴿ **وإن كانوا من قبل** ﴾ أي : من قبل بعثة الرسول ﷺ ﴿ **لَفي ضلال مبين** ﴾ أي : لفي عمى وجهالة وغيٍّ ظاهر جليٍّ بيِّن لا شبهة فيه . وهذا يرجّح أن الخطاب والآية يراد به العرب خاصة ، لأن من بقايا أهل الكتاب من كان قبل بعثته عليه الصلاة السلام على علم ، وعلى هدى ، ولكن الخطاب وإن أُريد به العرب خاصة هنا ، فإنه يدخل فيه غيرهم ممن هو مثل حالهم . ولعل

الحكمة في قوله تعالى : ﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين ﴾ هو تعميم التوجيه لكل من أصبح من هذه الأمة ؛ إذ من أصبح من هذه الأمة كان له شرف النسبة إلى الرسول العربي ، وشرف النسبة إلى جيل هذه الأمة الأول وهو عربي عامة .

وعلى كل الأحوال فالمنّة ظاهرة على العرب ببعثة هذا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وبمناسبة هذه الآية يقول صاحب الظلال : كان الإسلام بخصائصه هذه هو « بطاقة الشخصية » التي تقدَّم بها العرب للعالم ، فعرفهم ، واحترمهم ، وسلّمهم القيادة . وهم اليوم وغداً لا يحملون إلا هذه البطاقة . ليست لهم رسالة غيرها يتعرفون بها إلى العالم . وهم إما أن يحملوها فتعرفهم البشرية وتكرمهم ؛ وإما أن ينبذوها فيعودوا هملاً - كما كانوا - لا يعرفهم أحد ، ولا يعترف بهم أحد ! وما الذي يقدمونه للبشرية حين لا يتقدمون إليها بهذه الرسالة ؟ يقدمون لها عبقريات في الإنتاج الصناعي المتفوق ، تنحني له الجباه ، ويغرقون به أسواقها ، ويغطون به ما عندها من إنتاج ؟ لقد سبقتهم شعوبٌ كثيرة ، في يدها عجلة القيادة في هذا المضمار ! .

يقدمون لها فلسفة مذهبية اجتماعية ، ومناهج اقتصادية وتنظيمية من صنع أيديهم ، ومن وحي أفكارهم البشرية ؟ إن الأرض تعجُّ بالفلسفات والمذاهب والمناهج الأرضية . وتشقى بها جميعاً غاية الشقاء !

ماذا إذن يقدمون للبشرية لتعرفهم به ، وتعترف لهم بالسبق والتفوق والامتياز ؟

لا شيء إلا هذه الرسالة الكبيرة . لا شيء إلا هذا المنهج الفريد . لا شيء إلا هذه المنة التي اختارهم الله لها ، وأكرمهم بها ، وأنقذ بها البشرية كلها على أيديهم ذات يوم . والبشرية اليوم أحْوَج ما تكون إليها ، وهي تتردى في هاوية الشقاء ، والحيرة والقلق والإفلاس !

إنها - وحدها - بطاقة الشخصية التي تقدموا بها قديماً للبشرية فأحنت لها هامتها . والتي يمكن أن يقدموها لها اليوم ، فيكون فيها الخلاص والإنقاذ .

إن لكل أمة من الأمم الكبيرة رسالة . وأكبر أمة هي التي تحمل أكبر رسالة . هي التي تقدم أكبر منهج . وهي التي تنفرد في الأرض بأرفع مذهب للحياة .

والعرب يملكون هذه الرسالة - وهم فيها أصلاء ، وغيرهم من الشعوب هم

شركاء – فأي شيطان يا تُرى يصرفهم عن هذا الرصيد الضخم ؟ أي شيطان ؟!

لقد كانت المنة الإلهية على هذه الأمة بهذا الرسول ، وبهذه الرسالة عظيمة عظيمة . وما يمكن أن يصرفها عن هذه المنة إلا شيطان .. وهي مكلفة من ربها بمطاردة الشيطان ؟! . »

ثم يعود السياق بعد هذه الآية إلى المعنى الذي بدأ به المقطع وهو أحد دروس يوم أُحد ، والمرتبط بما أصاب المؤمنين فيه ، والذي يناقش قولة الكافرين ويردها . ﴿ **لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا** .. ﴾ . وكما قلنا ، لقد اعترض ما بين بداية المقطع ونهايته بالآيات التي رأيناها ، والتي بدأت بالتذكير بنعمة ، وختمت بالتذكير بنعمة . وكلتا النعمتين في موضوع الرسالة والرسول ، ليتخلَّص المؤمنون من هذا التصور الكاذب الفاسد في فهم ما حدث ، وما يحدث من أمثاله للمسلمين في معاركهم . ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة** ﴾ يوم أحد من قتل سبعين منكم ﴿ **قد أصبتم مثليها** ﴾ . أي : يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين . ﴿ **قلتم أنى هذا** ﴾ . أي : من أين جرى علينا هذا . ﴿ **قل هو من عند أنفسكم** ﴾ . أي : أنتم السبب ، أي : ما أصابكم كان بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم ألا تبرحوا من مكانكم ، فعصيتم يعني بذلك – الرماة – ﴿ **إن الله على شيء قدير** ﴾ . أي : يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ولا معقب لحكمه . يقدر على النصر وعلى منعه ، وقد منعكم نصره في أحد ، وأعطاكم إياه في بدر . منعكموه الآن عدلاً ، وأعطاكموه قبل فضلاً ، والاستفهام في قوله تعالى : ﴿ **أو لما أصابتكم** .. ﴾ في الآية يراد به التقرير والتقريع كأنه قيل : أفعلتم كذا ، وقلتم حينئذ كذا . وإذا تذكرنا بداية المقطع ﴿ **لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم** .. ﴾ علمنا أن المقصود الرئيسي في المقطع هو تصحيح التصورات للجماعة المسلمة في موضوع القتال ، وآثاره السلبية من خلال وقعة أحد .

وبعد الآية السابقة ، تأتي آية تؤكد الحكمة التي مرت من قبل وتبيِّنها ليتوصل منها إلى كلام المنافقين ، الذين لا يدركون حِكَمَ الله فيما يفعل ، والذين يشبه كلامهم كلام الكافرين الذي ابتدأ به المقطع ، ليردَّه وليبين أن الكفر والنفاق شيء واحد وليسجِّل خلال ذلك الموقف الشائن للمنافقين قبل المعركة إذ انفصلوا عن المؤمنين ، فقال مبيناً هذا كله : ﴿ **وما أصابكم يوم التقى الجمعان** ﴾ أي : جمعكم وجمع المشركين في أحد ، والذي أصابكم فيه هو فراركم بين يدي عدوّكم ، وقتل جماعة منكم ، وجرح

آخرين ﴿ **فبإذن الله** ﴾ أي : فبعلمه وقضائه وقدره ، فسلِّموا لله في ذلك ، لأن أفعاله كلها حكمة . ثم بيَّن بعض الحكمة في ما حدث ، ﴿ **وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا** ﴾ . أي : وما أصابكم فكائن بإذن الله ، وكائن ليتميز المؤمنون من المنافقين ، وليظهر إيمان هؤلاء ، ونفاق هؤلاء ، إيمان المؤمنين بصبرهم وثباتهم على الإيمان ، وعدم تزلزلهم ، ونفاق المنافقين بمواقفهم وأقوالهم : ﴿ **وقيل لهم** ... ﴾ أي : للمنافقين ﴿ **تعالوا قاتلوا في سبيل الله** ﴾ . أي : جاهدوا للآخرة كما يقاتل المؤمنون ، ﴿ **أو ادفعوا** ﴾ أي : قاتلوا دفعاً عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم إن لم تقاتلوا للآخرة ! وفسّر آخرون الدفع في هذا المقام : بتكثير السواد . أي : أو ادفعوا العدو بتكثيركم سواد المجاهدين إن لم تقاتلوا ! لأن كثرة السواد مما تروِّع العدوَّ . ﴿ **قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم** ﴾ أي : لو نعلم ما يصح أن يسمّى قتالا لاتبعناكم . وقولهم هذا يحتمل معنيين : إما أنهم يريدون أنه لا قتال أصلاً ، ويحتمل أنهم أرادوا أن هذا النوع من القتال ليس قتالاً ، ولكنه إلقاء بالنفس إلى التهلكة .

قال النسفي : يعنون أن ما أنتم فيه لخطأ رأيكم ليس بشيء ، ولا يقال لمثله قتال ، إنما هو إلقاء النفس إلى التهلكة . والمعنى الأول هو الذي يشير إليه كلام أهل السير ، وذلك أن المنافقين وقِحون لا يبالون أن يقولوا الكلمة التي تنقضها كل الوقائع . روى محمد بن إسحق في سيرته بسنده عمن ذَكَر : خرج علينا رسول الله ﷺ يعني حين خرج إلى أحد في ألف رجل من أصحابه ، حتى إذا كان بالشوط بين أحد والمدينة ، انحاز عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس ، فقال : أطاعهم فخرج وعصاني ، والله ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ، فرجع بمن اتَّبعه من الناس من قومه أهل النفاق ، وأهل الريب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول : يا قوم أذكِّركم الله أن تخذلوا نبيَّكم وقومكم عندما حضر من عدوكم ، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكن لا نرى أن يكون قتال ، فلما استعصوا عليه، وأبوا إلا الانصراف عنهم قال : أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغني الله عنكم . ومضى رسول الله ﷺ . ﴿ **هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان** ﴾ قال النسفي : يعني أنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان قبل ذلك ، وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم ، فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم ، واقتربوا من الكفر . أو هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان . لأن تقليلهم سواد المؤمنين بالانخذال تقوية للمشركين .

وقال ابن كثير : استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر ، وفي حال أقرب إلى الإيمان . ﴿ **يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون** ﴾ أي : يظهرون خلاف ما يضمرون ، والله يعلم أسرارهم . وهذه طبيعة المنافق يتظاهر بشيء ويبطن شيئاً ، يقول القول ولا يعتقد صحته ، ومن ذلك كلامهم السابق ؛ فإنهم يعرفون أن جنداً من المشركين قد جاؤوا من بلاد بعيدة يتحرَّقون على المسلمين ؛ بسبب ما أصاب أشرافهم يوم بدر ، وهم أضعاف المسلمين ، فالقتال كائن لا محالة ، ومع ذلك ادَّعوا أنه لا قتال ، ثم وصفهم الله بأنهم ﴿ **الذين قالوا لإخوانهم** ﴾ أي : لأجل إخوانهم ، أي : عن إخوانهم – في الصورة – ممن قتل يوم أحد ﴿ **وقعدوا** ﴾ أي : قالوا وقد قعدوا عن القتال ﴿ **لو أطاعونا ما قتلوا** ﴾ أي : لو أطاعنا إخواننا فيما أمرناه به من الانصراف عن رسول الله ﷺ والقعود ، ووافقونا فيه لما قتلوا كما لم نُقتَل . ويبدو – والله أعلم – أنهم يريدون بإخوانهم هنا من قُتِل من الأنصار . قال تعالى : رداً عليهم ﴿ **قل فادرءُوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين** ﴾ أي إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت ، فينبغي أنكم لا تموتون ، والموت لا بد آت ، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . أو المعنى : إن كنتم صادقين بأن الحذر ينفع من القدَر ، ويدفع الموت ، فادفعوه عن أنفسكم ، ولن تستطيعوا . أو المعنى : قل إن كنتم صادقين في أنكم وجدتم إلى دفع الموت سبيلاً وهو القعود عن القتال ، فجدُوا إلى دفع الموت سبيلاً . والملاحظ أن كلامهم هذا يشبه كلام الكافرين الذي نهى الله عنه في أول المقطع بقوله : ﴿ **لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزًّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا** ﴾ وهذا يشعر أن المنافقين كافرون . وفيه تعرية للمنافقين ، وتدليل عليهم من كلامهم . ومن ثَمَّ ندرك كيف أن سورة آل عمران تفصيل لمقدمة سورة البقرة .

لقد تحدثت مقدمة سورة البقرة عن المتقين المؤمنين ، وعن الكافرين ، وعن المنافقين ، وهذا المقطع زادنا بياناً في أخلاق الكافرين ، وصفاتهم ، وأقوالهم ، وأفعالهم ، وزادنا بياناً في أخلاق المنافقين ، وكلامهم ، ومواقفهم ، وصفّى تصورات أهل الإيمان ، وعرَّفهم على مزيد من نعمه عليهم ؛ بما منَّ عليهم من رسوله عليه الصلاة والسلام وعرّفهم على كثير مما ينبغي أن يفعلوه ويتأدبوا به .

وصلة المقطع بما قبله مباشرة واضحة ، فالكلام فيه استمرار للكلام عن دروس

أحد ، وصلة ذلك كله بابتداء القسم لا تخفى .

بدأ القسم بالنهي عن طاعة الكافرين ، والطاعة قد تكون بالاقتداء ، وقد تكون بتنفيذ الأمر . والمقطع قد نبهنا على نماذج من الطاعة لا يجوز أن تكون سواء في ذلك هذا النوع ، أو هذا النوع ، وفي كثير من الأحيان قد يبدو للناظر أن طاعة الكافرين فيها مصلحة ، والكافرون يدَّعون أن طاعتهم فيها مصلحة ﴿ **لو أطاعونا ما قُتلوا** ﴾ فالمقطع إذن بصّرنا بمثل هذا . وارتباط ذلك ببداية القسم واضحة ، وفي مقدمة القسم قال الله تعالى : ﴿ **بل الله مولاكم وهو خير الناصرين** ﴾ وقد مرّت معنا في هذا المقطع بعض مظاهر تولي الله لنا ، وفي مقدمة القسم قال الله تعالى : ﴿ **سنُلقي في قلوب الذين كفروا الرعب** ﴾ وجاءت بعد ذلك دروس غزوة أحد لنعرف شروط الوعد ، وكان المقطع الذي مر معنا استمراراً لذلك .

ولعله بذلك اتضح لنا أن لكل مقطع في القسم وحدته ، ولكل قسم في السورة وحدته ، وأن لكل سورة محورها ، ولكل مجموعة سور ترتيبها ، ولكل قِسم من أقسام القرآن ترتيبه ووحدته ، وكل ذلك سنراه شيئاً فشيئاً . وكما صحَّح لنا هذا المقطع مفاهيم ، ونبهنا على محاذير ، فإن المقطع اللاحق سيصحح ، وينبّه ، ويعرِّفنا على أمهات من التصورات الخاطئة لا ينبغي أن نقع فيها .

فــوائـــد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ومن يغلل يأت بما غَلَّ يوم القيامة** ﴾ نذكر بعض الأحاديث حول الغلول ، ونلاحظ أن بعضها جعل من الغلول هدايا العمال أي الموظفين عند الدولة ، وكذلك الاعتداء على مال الأمة :

أ- روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال : « أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض ، تجدون الرجلين جارين في الأرض ، أو في الدار فيقطع أحدهما من خط صاحبه ذراعاً ، فإذا قطعه طُوِّقه من سبع أرضين يوم القيامة » .

ب - وروى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال : « من ولي عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً ، أو ليس له دابّة ليتخذ دابّة ، ومن أصاب شيئاً سوى ذلك فهو غالٌّ » .

أقول : وذلك إذا أخذه من غير إذن .

ج - روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أبي حميد الساعدي قال :

« استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللُّتبيَّة على الصدقة فرجع فقال : هذا لكم وهذا أهدي لي ، فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال : « ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول : هذا لكم وهذا أهدي لي ؟ أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا ! والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته ، إن كان بعيراً له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تَيْعر ، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه . ثم قال : اللهم هل بلغت - ثلاثاً - » .

د - روى الترمذي عن معاذ بن جبل قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فلما سرت أرسل في أثري فرددت فقال : أتدري لِمَ بعثت إليك ؟ لا تصيبنّ شيئاً بغير إذني ، فإنه غلول . ﴿ **ومن يغلل يأت بما غلَّ يوم القيامة** ﴾ .

هـ - روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « يا أيها الناس من عمل لنا منكم عملاً فكتمنا منه مخيطاً فما فوقه فهو غِل يأتي به يوم القيامة قال : فقام رجل من الأنصار أسود ، قال مجاهد : هو سعد بن عبادة كأني أنظر إليه ، فقال يا رسول الله : اقبل مني عملك ، قال : وما ذاك ؟ قال : سمعتك تقول كذا وكذا ، قال : وأنا أقول ذلك الآن : من استعملناه على عمل فليجيء بقليله وكثيره ، فما أوتي منه أخذه ، وما نهي عنه انتهى » رواه مسلم .

و - روى عبد الله بن الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يأخذ الوبرة من ظهر البعير من المغنم ثم يقول : « ما لي فيه إلا مثل ما لأحدكم ، إياكم والغلول ، فإن الغلول خزي على صاحبه يوم القيامة ، أدوا الخيط والمخيط ، وما فوق ذلك ، وجاهدوا في سبيل الله ، القريب والبعيد ، في الحضر والسفر ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، إنه لينجي الله به من الهمّ والغمّ ، وأقيموا حدود الله في القريب والبعيد ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم » .

ز - روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « لما كان يوم خيبر ، أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : فلان شهيد ، وفلان شهيد ، حتى أتوا على رجل فقالوا ، فلان شهيد ، فقال رسول الله ﷺ : « كلا إني رأيته في النار في بردة غلَّها - أو عباءة - ثم قال رسول الله ﷺ : اذهب فناد في الناس أنه لا

يدخل الجنة إلا المؤمنون ، قال : فخرجت فناديت : إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون » ورواه مسلم .

ح - روى أبو داود عن سمرة بن جندب قال : « كان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمة أمر بلالًا فينادي في الناس فيجوز بغنائمهم ، فيخمّسه ويقسّمه فجاء رجل يوماً بعد الغداء بزمام من شعر فقال : يا رسول الله هذا كان مما أصبناه من الغنيمة ، فقال : « أسمعت بلالاً ينادي ثلاثاً ؟ قال : نعم . قال : فما منعك أن تجيء ؟ فاعتذر إليه ! فقال : كلا أنت تجيء به يوم القيامة فلن أقبله منك » .

- وفي عقوبة الغال ، للفقهاء أقوال: منهم من قال يحرق ماغلّ ويضرب . ومنهم من قال : يعزّر تعزير مثله ، ومنهم من قال : يباع الغلول ويتصدّق بثمنه .

٢ - قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تبيان الحكمة الكلية مما أصاب المسلمين يوم أحد : قال : لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون ، وفرّ أصحاب رسول الله ﷺ ، وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، فأنزل الله . ﴿ **أَوَ لَمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنىٰ هذا قل هو من عند أنفسكم** ﴾ بأخذكم الفداء ا هـ . وهو نظر دقيق في الربط الكلي بين أفعال الله ، ملاحظاً الحكمة القريبة ، والحكمة البعيدة .

كلمة في السياق :

لعل مُتَّهِما يتهمنا أننا نتكلف للربط بين الآيات ، وللصلة بين سور القرآن ، ولعل فيما سنذكره هنا وبعد قليل ما يزيل شبهته . لقد قلنا : إن سورة آل عمران تفصّل في مقدمة سورة البقرة وامتدادات معانيها في سورة البقرة ، بل نقول : إن سورة آل عمران تحدّد لنا امتدادات معاني مقدمة سورة البقرة في سورة البقرة ، وتأمل فيما يلي :

جاء في سورة البقرة : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون** ﴾ ، ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتٌ بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين** ﴾ .

لاحظ أن المقطع الذي مر معنا ينتهي بآيات هي مقدمة للمقطع اللاحق ، وأن نهاية المقطع السابق ، وبداية المقطع اللاحق ، فيها حديث عن منة الله علينا بالرسول ، وفيها حديث عن المصائب في القتال ، وفيها حديث عما لا ينبغي قوله عن القتلى في سبيل الله ، وفيها حديث عن حياة الشهداء . فإذا ما تأملت هذه الآيات لم تشك أنها تفصيل لما ذكر في سورة البقرة ، وهذه هي الآيات : ﴿ **لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين * أوَ لمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير * وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون * الذين قالوا لإخوانهمْ وقعدوا لو أطاعونا ما قُتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين * ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ...** ﴾ .

إنه لمن الواضح أن هناك ارتباطاً بين هذه المعاني وبين ما ذكرناه في سورة البقرة .

فهل لذلك قاعدة أم لا ؟ إن الذين يظنون أن هذا القرآن لا ترابط بين آياته في السورة الواحدة ، أو لا ترابط بين سوَرِه ، محجوجون عن واقع هذا القرآن .

ونحن نتعمد في هذا التفسير ألا نذكر شيئاً حتى يأتي محله ، حتى لا يكون للإنكار علينا سبيل إن شاء الله .

وكثير من الأمور ستتضح كلما سرنا في هذا التفسير .

وإنما ذكرنا هنا ما ذكرناه لتأكيد على أن سورة آل عمران تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، وامتدادات معانيها في سورة البقرة نفسها . وإن مما يحدد امتدادات معاني مقدمة سورة البقرة في سورتها ، سورة آل عمران ، وإنما نؤكد على هذا لأننا سَنَرى أن سوَراً كثيرة ستفصل في آيات من سورة البقرة ، بينما سنجد آياتٍ في سورة البقرة لا تفصلها سور ، وما ذلك إلا لمثل هذا الذي ذكرناه .

هذه الكلية التي نذكرها هنا ، والتي ستأتي الأدلة عليها كثيراً كلما سرنا في هذا التفسير تجعلنا نؤكد : أن ما أُجمل في مقدمة سورة البقرة ، قد فُصّل بعضه في سورة آل عمران ، وستأتي سور أخرى تفصّل بعضه الآخر ، كما أن هناك سوراً ، ستفصل في آيات أخرى من سورة البقرة على نسق وترتيب خاصين .

كل ذلك نقوله لنلفت النظر إلى أن المسلم لا ينبغي أن يخرج من سورة آل عمران ، إلا وقد خرج بمزيد من وضوح الرؤية في قضية التقوى والكفر والنفاق .

لقد عرفنا في مقدمة سورة البقرة ، أن الكافرين لا يؤثر فيهم الإنذار . وعرفنا - مثلاً - من المقطع الذي مر معنا ، أن الكافرين يربطون بين الموت وعالم الأسباب فقط ، وعرفنا في مقدمة سورة البقرة بعضاً من أقوال المنافقين ومواقفهم ، وههنا عرفنا بعضها الآخر من أنهم لا يشاركون في قتال ، ومن كونهم مُثبِّطين عنه ، داعين للقعود ، إلى غير ذلك . وعرفنا من مقدمة سورة البقرة ، أن الإيمان يستلزم صلاة ، وإنفاقاً ، واتباع كتاب ، ومن سورة آل عمران عرفنا ، أن الإيمان يستلزم عدم طاعة الكافرين والمنافقين ، وعدم اتخاذ بطانة من غير المؤمنين .

ولننتقل إلى المقطع الثالث والرابع من القسم الخامس من سورة آل عمران ، وسنبدأ الكلام عن المقطعين معاً لشيء له صلة بما مر معنا آنفا :

المقطعان الثالث والرابع من القسم الخامس من سورة آل عمران

يمتد المقطع الثالث من الآية (١٦٩) إلى نهاية الآية (١٨٩) ، ويمتد المقطع الرابع حتى نهاية السورة ، وهو خاتمة السورة .

والمقطع الثالث يصحح مفاهيم وتصورات ، ولذلك فإن كل فقرة من فقراته تبدأ إما بقوله تعالى : ﴿ **ولا تحسبن** ﴾ أو ﴿ **ولايحسبن** ﴾ والمقطع الرابع يوجد في سياقه الرئيسي تقريران : تقرير في حق أهل الإيمان ، وتقرير في حق من آمن من أهل الكتاب . وتنتهي السورة بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ .

رأينا في هذا القسم صلة المقطع الثاني بالأول ، والمقطع الثالث امتداد للأول ، فالآيات الأولى منه امتداد لما قبلها مباشرة ، والمقطع كله امتداد للمقطع السابق عليه ، فقد سبق مباشرة بقوله تعالى : ﴿ **الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ..** ﴾ .

وجاء المقطع الثالث مبدوءاً بقوله تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ..** ﴾ .

ثم إن المقطع الثاني بدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ...** ﴾ .

وهذا المقطع يبدأ بنفس المضمون ، ويستمر بتصحيح تصورات يتبناها الكافرون أو يقولون بها . ويأتي المقطع الرابع ليعرض علينا صفحة من حال أهل الإيمان ، سواء سبق لهم أن كانوا مؤمنين بكتاب أوْ لا ، وتنتهي السورة بالأمر بالصبر والمصابرة ، والمرابطة والتقوى . وكل ذلك قد جاء في سياق القسم المبدوء بقوله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين * بل الله مولاكم وهو خير الناصرين * سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم يُنزِّل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين** ﴾ .

فالمقاطع كلها تخدم فكرة عدم الطاعة للكافرين ، وتؤكد ولاية الله للمؤمنين ، وتعمِّق الصفات والخصائص التي ينبغي أن يكون عليها أهل الإيمان ، ليستأهلوا وعد الله ، ومن ذلك الصبر والمصابرة والمرابطة .

إن المقطع الثالث من حيث إنه تصحيح للتصورات التي يطرحها أهل الكفر ، فإن صلته بمقدمة سورة البقرة – التي هي حديث عن المتقين والكافرين والمنافقين – لا

تخفى . وإن المقطع الرابع – الذي يتحدث عن حال المؤمنين عامة ، وحال المؤمنين من أهل الكتاب خاصة لا تخفى صلته بمقدمة سورة البقرة . ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ ، ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ . على أنه يمكن أن يقول قائل : إن أي آية في القرآن يمكن أن يقال إنّ لها صلة بمقدمة سورة البقرة بشكل من الأشكال ، وهذا صحيح لأن القرآن كله موضوع واحد . ولكننا نقول : إنه زيادة على هذه الوحدة الموضوعية ، فهناك سور ألصق بموضوع بعينه ، وسنرى كيف أن سورتي الأنفال وبراءة ألصق بموضوع القتال ، وقل ذلك في كل سورة . فمن هذه الحيثية نقول : إن لكل سورة محورها من سورة البقرة ، ومحور سورة آل عمران ، هو مقدمة سورة البقرة وامتدادات معاني هذه المقدمة في السورة . ونظن أنه في النموذج التالي سيكتشف المنصف صدق ما نقول :

جاء في سورة البقرة قصة آدم عليه السلام ، ثم مقطع بني إسرائيل ، ثم قصة إبراهيم عليه السلام ، ثم مقطع القبلة ؛ ومن خلال الحوار مع بني إسرائيل وغيرهم ، عرفنا وضع الكافرين ومواقفهم وقد انتهى مقطع القبلة في سورة البقرة بقوله تعالى : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون * فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ . ثم جاء أمر بالاستعانة بالصبر والصلاة ، ونهي عن القول بأن الشهداء أموات ، وإخبار بأن الابتلاء آت ، وأن علينا أن نعترف لله بالمالكية إذا ابتلينا وذلك في مقطع الصبر ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ وفي هذا السياق جاء كلام عن كتمان ما أنزل الله ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى** ﴾ . ثم في هذا السياق جاء قوله تعالى : ﴿ **إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابّة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** ﴾ هذا كله جاء على تسلسل في مقطعين من سورة البقرة .

وفي سورة آل عمران نجد تفصيلاً لهذا كله .

فلقد رأينا أن المقطع الثاني جاء في آخره قوله تعالى : ﴿ **لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾ .

والمقطع الثالث يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ..** ﴾ .

وفي المقطع الثالث يرد قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننَّهُ للناس ولا تكتمونه** ﴾ .

ويختم المقطع الثالث بإعلان المالكية لله ﴿ **ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير** ﴾ .

ويبدأ المقطع الرابع بقوله تعالى :﴿ **إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** ... ﴾ فهو يعرّفنا على العقلاء الذين يرون آيات الله ، وينتهي المقطع بالأمر بالصبر : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ..** ﴾ .

ألا ترى أن المعاني التي وردت في ذلك الحيّز من سورة البقرة ، جاء هذا الحيز من هذه السورة ليفصّل فيها ضمن ترتيب جديد وفي سياق جديد !

أليس في ذلك ما يلفت النظر ويطالب بالبحث عن الناظم الذي يفسر هذه الشؤون ! .

إن تفسيرنا نحن لهذا هو ما قلناه : إن سورة آل عمران ، محورها مقدمة سورة البقرة وامتدادات معاني هذه المقدمة . فسورة آل عمران هي التفصيل الأول لذلك . وستأتي سور أخرى تفصل تفصيلًا ثانياً وثالثاً ورابعاً في مقدّمة سورة البقرة وهذا مظهر من مظاهر كون القرآن ﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ . (سورة هود)

المقطع الثالث

يتألف هذا المقطع من أربع فقرات متشابهة البدايات ، كل منها مبدوء بفعل مشتق من الحسبان ، ويجمع الفقرات جامع وهو أنها تصحح تصوراً يمكن - لولا البيان - أن يتسلل إلى أصناف من الناس . فلنقبل على تفسير فقرات المقطع الثالث ، وهو مقطع تصحيح التصورات في فقراته الأربع بشكل مباشر ، فقد أطلنا التعليقات .

الفقرة الأولى من المقطع الثالث

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ

خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

المعنى العام :

يخبر تعالى في هذه الفقرة عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حية ، مرزوقة في دار القرار ، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم ، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم ، وأنهم يُسَرون بلحوق من لحقهم من إخوانهم ، على ما مضوا عليه من جهادهم ، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم ، وإنما كان سرورهم بما عاينوه من وفاء الموعود ، وجزيل الثواب ، ومعرفتهم أن الله لا يضيع أجر المؤمنين المتأخرين عنهم ممن لهم مواقف المؤمنين الصادقين . وقد ضرب الله مثلاً لهذا النموذج الصادق المؤمن أصحاب رسول الله ﷺ فيما استجابوا له في

اليوم التالي لأحد،إذ استنفرهم رسول الله ﷺ للحاق العدو فنفروا على ما بهم من جراح وضعف ، مستجيبين لله ورسوله ، إذ بلغهم جمع المشركين لهم ، بغية أن يستأصلوهم ، فلم يكن منهم إلا أن قالوا : ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ ، فأكرمهم الله بأن كف أيدي الناس عنهم . ثم بيَّن الله – عز وجل – أن الشيطان يخوّف المؤمنين من أوليائه ، بأن يوهمهم بأسهم ، وحذّرنا الله أن نطيع الشيطان ، وأمرنا أن نخافه وحده ، ثم نهى رسوله ﷺ أن يحزن على من يسارع في الكفر ؛ محقراً له كيدهم ، مبيناً أنهم هم الخاسرون ، ثم ختم هذه الفقرة بتبيان أن الذين يبيعون الإيمان بالكفر لا يضرون الله بل يضرون أنفسهم باستحقاقهم عذاب الله .

أعطتنا هذه الفقرة التصور الصحيح عن وضع الشهداء ، وبينت لنا خُلقاً من أخلاق الإيمان ، من حيث متابعة أهله للجهاد في كل الظروف ، ومن حيث استعْصاء أهله على الحرب النفسية ، ثم بينت لنا قاعدة : وهي أن الشيطان يحاول تخويفنا من أعداء الله ، وحذرتنا من الوقوع في شباكه ، ثم جاء نهي ، وقاعدة لها علاقة بالمنافقين والمرتدين .

كلمة حول السياق :

يلاحظ أنَّ في هذه الفقرة نهيين موجهين لرسول الله ﷺ وهما للأمة كلها . النهي الأول : نهي عن تصور أن الشهداء أموات ، والنهي الثاني : نهي عن الحزن على من كفر بعد إيمان ، والصلة بين هذا وبداية المقطع السابق عليه واضحة ، إذ في بداية المقطع السابق نهي عن أن نكون كالذين كفروا في تصوراتهم حول موضوع الموت والقتل ، وهو موضوع يكفر بسببه من يكفر بعد إيمان ، ومن ثَمَّ كان النهي الأخير له علاقة بهذا الموضوع . والفقرة كما هي مرتبطة بقسمها في سياقه الخاص ، فهي مرتبطة بالسياق القرآني العام إذ هي توضيح لقضايا إيمانية وكفرية ونفاقية ، وهو السياق العام لسورة آل عمران المرتبطة بمقدمة سورة البقرة وامتداداتها .

المعنى الحرفي :

﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً** ﴾ الخطاب مباشرة لرسول الله ﷺ وهو خطاب لكل أحد ﴿ **بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ . أي : بل هم أحياء عند ربهم ، مقربون عنده ، ذوو زلفى ، يرزقون مثل ما يرزق سائر الأحياء ، يأكلون ويشربون . وذكر الرزق بعد ذكر الحياة تأكيد لكونهم أحياء ، ووصف لحالهم التي هم

عليها من التنعم برزق الله . وشرط هذه الحال : أن يكون القتل في سبيل الله ، أي : من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا كما قال عليه السلام : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » . ثم وصف الله - عز وجل - حالهم في حياتهم ورزقهم : ﴿ **فرحين بما آتاهم الله من فضله** ﴾ من توفيقه لهم للشهادة ، وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم من كونهم أحياء مقربين ، معجلاً لهم رزق الجنة ونعيمها ، ﴿ **ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم** ﴾ . أي : ويستبشرون بإخوانهم المجاهدين الذين لم يُقتَلوا بعد فيلحقوا بهم . بل بقوا خلفهم يتابعون جهادهم . ﴿ **ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ . أي : لا يخافون مما أمامهم ، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم . فهم فرحون لأنفسهم ، فرحون لإخوانهم الذين من ورائهم ، وإنما استبشروا لإخوانهم بتبشير الله لهم . وفي ذكر الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعثٌ للباقين بعدهم على الجد في الجهاد ، والرغبة في نيل منازل الشهداء .

فكأنها قالت للباقين : إن إخوانكم الذين سبقوكم وجدوا خيراً ، فلم يحزنوا على فائت ورأوا ما سرّهم فالحقوهم ﴿ **يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾ . أي : يسرون بثلاثة أمور : بما أنعم الله عليهم ، وبما تفضّل الله عليهم من زيادة الكرامة ، وبسرورهم بإعطاء الله المؤمنين أجورهم كاملة موفرة . هذا حال من قُتل يوم أحد . ويأتي الآن وصف من بقي : فإذا نقلنا الآيات إلى العموم المعتاد ، إذ القاعدة أن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ، نعرف أن ما ذكر لكل شهيد، وأن ما يأتي هو حال المؤمنين في كل زمان . وأصحاب رسول الله ﷺ هم النماذج العليا في هذا الباب. ولنذكر سبب النزول مقدمة لتفسير الآيات اللاحقة ليعين ذلك على الفهْم .

لما أصاب المشركون ما أصابوا يوم أحد ، كروا راجعين إلى بلادهم ، فلما استمروا في سيرهم ندموا لِمَ لم يستأصلوا المسلمين . فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ، ويريهم أن بهم قوة وجلداً ، ولم يأذن لأحد إلا لمن حضر الوقعة يوم أحد سوى جابر بن عبد الله لما سنذكره ، فنهض المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان ؛ طاعة لله - عز وجل - ولرسوله ﷺ . وكان يوم أحد يوم السبت النصف من شوال ، وكان انتداب المسلمين للخروج يوم الأحد لست عشرة ليلة من شوال . فكانت استجابتهم الرائعة بعد كل ما أصابهم هو الموقف الأروع الذي

سجله الله لهم . ومجموع ما له علاقة بهذا هو الذي يذكر في السيرة تحت عنوان غزوة حمراء الأسد . فلنذكر الآيات مع ذكر النص المباشر قبلها .

﴿ **وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح** ﴾ . أي : من بعدما أصابهم الجراح ، فالقرح : هو الجرح . ﴿ **للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم** ﴾ في الآخرة . وقوله تعالى (منهم) : للتبيين لا للتبعيض ، لأن كل من استجابوا لله والرسول محسنون متقون رضي الله عنهم .

هذه صفة أولى من صفات الإيمان ، الاستجابة لداعي الجهاد في كل الظروف والأحوال . ثم تأتي الصفة الثانية . ﴿ **الذين قال لهم الناس** ﴾ : هم ركب من عبد القيس ، كلّفهم أبو سفيان أن يقولوا للمسلمين في حمراء الأسد ، أنهم قد أجمعوا المسير إلى المسلمين لاستئصالهم ، ووعدهم أن يجعل لهم في مقابل ذلك شيئاً عيّنه لهم ، وهذا ما سجلته الآية . ﴿ **إن الناس** ﴾ أي : أبا سفيان ومن معه ، ﴿ **قد جمعوا لكم فاخشوهم** ﴾ . أي : فخافوهم . ﴿ **فزادهم إيماناً** ﴾ . أي : فزادهم هذا القول بصيرة ويقيناً . ﴿ **وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ . أي : يكفينا أن الله ولينا وحده فنتَّكِل عليه ، ونعم الموكّل هو . هذه صفة ثانية من صفات أهل الإيمان ؛ أنهم إذا ادلهمَّت الأمور عليهم ازدادوا توكلاً على الله ، وإيماناً به . والله عند حسن ظن عباده به ، فكان من أمر المشركين يومها ، أن قذف الله في قلوبهم الرعب ، وفروا بعد أن كانوا يفكرون في الهجوم ، واستئصال المسلمين كما سنرى في قسم الفوائد ، وكفى الله المؤمنين شرهم ، وسجل ربنا ذلك ؛ ليمنّ به على المسلمين مُرِياً إياهم أنه عند حسن ظن عباده به . ﴿ **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل** ﴾ أما النعمة : فهي السلامة ، وأما الفضل : فهو فرار الكافرين ، وعودة الهيبة للمؤمنين ، ورجوع الروح المعنوية للمسلمين وغير ذلك . ﴿ **لم يمسسهم سوء** ﴾ . أي : لم يلقوا ما يسوءهم من كيد العدو . ﴿ **واتبعوا رضوان الله** ﴾ باستجابتهم لله والرسول ، وجرأتهم ، وخروجهم ، وحسن توكلهم ، واستعصائهم على ما يسمى في اصطلاحنا الحديث الحرب النفسية . ﴿ **والله ذو فضل عظيم** ﴾ على عباده وأوليائه في الدنيا وفي الآخرة . والآن يأتي دور أخذ الدروس مما حدث . ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يخوِّف أولياءَه** ﴾ . أي : إنما ذلكم الشيطان يخوفكم أولياءه ، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وشدة ، فلننتبه إلى هذا التفسير ، وهو الوجه الوحيد الذي ذكره ابن كثير ؛ إذ قدر

محذوفاً بعد قوله تعالى : ﴿**يخوف أولياءه**﴾ ففسرها بقوله (يخوفكم) . وفسرها النسفي بأن الشيطان يخوف من يواليه من المنافقين . ومن ثَمَّ فإن الخوف يلازم النفاق ؛ ثم نهى الله عباده المؤمنين أن يخافوا أولياء الشيطان قال تعالى : ﴿ **فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ . أي : إن كنتم مؤمنين حقاً فلا تخافوا أولياء الشيطان ، بل خافوا الله وحده ؛ لأن مقتضى الإيمان أن يؤثر العبد خوف الله ؛ فيطيعه ولا يعصيه ومن خاف الله خافه كل شيء ، وسخَّر له كل شيء ؛ ولما كان رسول الله ﷺ شديد الحرص على إيمان الناس ، وكان يحزنه كفر من كفر فضلاً عن كفر من آمن ، قال الله تعالى : ﴿ **ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر** ﴾ هذا النهي فيه أمر لرسول الله ﷺ أن ينظر إلى هذا الموضوع بعين الحكمة لا بعين الرحمة .

﴿ **إنهم لن يضروا الله شيئاً** ﴾ . أي : إنهم بمسارعتهم للكفر لن يضروا دين الله ولا أولياءه ؛ وهذه بشارة عظيمة للمؤمنين ؛ فإذا صبروا واتقوا ، فإن من يسارع إلى الكفر لن يضر إلا نفسه ، وما وبال ذلك عائد إلا عليه ، وقد بيّن الله - عز وجل - كيف أن وبال ذلك لا يعود إلا عليه بقوله : ﴿ **يريد الله ألّا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم** ﴾ . أي : يريد الله بمشيئته وقدرته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة ، فالحظ : هو النصيب . ومع حرمانهم من ثواب الله وجنته فإن لهم عذاباً عظيماً ؛ وأي ضرر يضرُّ به الإنسان نفسه أبلغ من هذا الضرر ! أن يحرمها جنة الله ، وأن يدخلها ناره . ثم قال تعالى مخبراً عن ذلك إخباراً مقرراً ﴿ **إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان** ﴾ . أي : استبدلوا هذا بهذا ﴿ **لن يضروا الله شيئاً** ﴾ . أي : لن يضروه أي ضرر ، ولكن يضرون أنفسهم . ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ عقوبة لهم . وهل الآيتان الأخيرتان في المنافقين ، أو في الكافرين كفراً أصلياً ، أو الأولى في الكافرين ، والثانية في المنافقين ، أو العكس ، أو الأولى في المرتدين ، والثانية في الكفار كلهم ؟ كل ذلك تحتمله الآيتان . وبهذا نكون قد انتهينا من استعراض المعنى الحرفي للفقرة الأولى من المقطع الثالث . فلننتقل بعض الفوائد التي تتعلق بها ، وتساعد على فهمها .

فـــوائـــد :

١ - روى الإمام أحمد وغيره عن ابن عباس قال : « قال رسول الله ﷺ : لما أُصيب إخوانُكم يوم أحد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ، ترِد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب

مأكلهم ومشربهم ، وحسن مقيلهم قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هذه الآيات ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ » وهذا أثبت ما ورد في سبب نزول هذه الآية وما بعدها مباشرة .

٢ - روى مسلم في صحيحه عن مسروق قال : « إنا سألنا عبد الله عن هذه الآية ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطَّلع عليهمربهم اطِّلاعةً ، فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ فقالوا : أيّ شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسامنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا » أقول : وفي كون أرواحهم في جوف طير خضر كرامة لهم فهذه الطيور في حقهم كالمركوب بالنسبة للإنسان .

٣ - وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة ، فيه قبة خضراء ، يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية » قال ابن كثير في التعليق على هذا الحديث : وكأن الشهداء أقسام ، منهم من تسرح أرواحهم في الجنة ، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة ... وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن ، فإن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها ، وتأكل من ثمارها ، وترى ما فيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أُعد لها من الكرامة ، وهو بإسناد صحيح عظيم ، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ، فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله عن مالك ... قال رسول الله ﷺ : « نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » قوله يعلق : أي يأكل . وفي هذا الحديث أن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة ، وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ، فإنها تطير بأنفسها ، فنسأل الله الكريم المنان أن يجمعنا على الإيمان » .

٤ - روى محمد بن إسحق عن رجل من بني عبد الأشهل كان قد شهد أحداً قال : « شهدنا أحداً مع رسول الله ﷺ أنا وأخي ، رجعنا جريحين . فلما أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو ، قلت لأخي - أو قال لي : أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ؟ والله ما لنا من دابَّة نركبها ، وما منا إلا جريح ثقيل . فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جراحاً منه فكان إذا غلب حملته عُقْبةً ، ومشى عُقْبة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون » ا هـ . ففي مثل هذين نزل قوله تعالى : ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ...** ﴾ .

٥ - بعدما حدث في أحد ، أصبح المسلمون في وضع حرج من عدة وجوه : سقوط الهيبة العسكرية ، احتمال كرَّة المشركين على المدينة ، احتمال جرأة الأعراب والمنافقين واليهود عليهم ، هبوط الروح المعنوية عندهم ، فكان خروج الرسول ﷺ إلى حمراء الأسد لاحقاً بالمشركين ، وبقاؤه فيها ثلاثة أيام ، وبلوغ هذا لأبي سفيان ، وإلقاء الله الرعب في قلوب المشركين حتى رجعوا إلى مكة بما يشبه الفرار ، غَسلًا لكل آثار أحد .

٦ - أخرج البخاري عن ابن عباس قال : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » ا هـ .

وقال عليه الصلاة والسلام لأحد أصحابه « فإذا غلبك أمر فقل : حسبي الله ونعم الوكيل » رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي في حديث .

٧ - فُسِّر الفضل في قوله تعالى : ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ﴾ بمامر ، وهناك من فسر الفضل بربح تجاري أصابه المسلمون عقب رجوعهم من حمراء الأسد ، ومنهم من حمل هذه الآية على غزوة بدر الصغرى إذ إن أبا سفيان واعد المسلمين بدراً من العام القادم يوم أحد ، وحاول أن يرهب المسلمين بالإشاعات لعلهم لا يخرجون إلى بدر ، فقال المسلمون : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ وخرجوا إلى بدر ، وتخلف المشركون ، وابتاع المسلمون من سوقها ، وكانت سوقاً تجارياً ، وربحوا فحمل بعضهم الآية على هذا . والآية يدخل فيها مثل هذا ، أما أن يقال : بأن هذا سبب النزول ، فإن السياق لا يدل عليه ، بل يدل على ما ذكرناه أثناء التفسير .

كلمة في السياق :

رأينا أن الفقرة فيها نهيان موجهان لرسول الله ﷺ : « لا تحسبن » ، « ولا يحزنك » وهما نهيان لكل الأمة . ومن هذا ندرك أن السياق الرئيسي في الفقرة هو التصحيح والتوجيه ، تصحيح التصورات في شأن الشهداء ، وتوجيه النظر إلى الحكمة في شأن المرتدين ، وفي سياق النهي عن حسبان الشهيد ميتاً عرضت علينا أخلاقية المؤمنين الذين يستأهلون البشارة ، وعرض أيضاً المرشحون للشهادة من خلال النموذج الكامل للإيمان .

فالمؤمنون الذين يستأهلون البشارة ، والمرشحون للشهادة ، هم الذين يستجيبون لداعي الجهاد في كل الظروف ، وهم الذين لا تؤثّر فيهم الحرب النفسية ؛ لعمق توكلهم على الله - عز وجل - والذين لا يستجيبون لوساوس الشيطان في التخويف من أوليائه هؤلاء هم المؤمنون حقاً .

فالفقرة إذن ، عمّقت مفهوم الإيمان عندنا ، وأعطته مضموناً زائداً على ما مر ، كما صححت تصوراً في شأن الكفر والكافرين ، وفي شأن المنافقين الذين يسارعون إلى الكفر ، فالفقرة تتكامل معانيها ، فتشكل وحدة فيما بين آياتها . وصلتها بالآية التي قبلها واضحة ، فما قبلها هو :

﴿ وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله .. هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان ... الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ .

فجاءت هذه الفقرة بعد ذلك مباشرة تُبشّر بما للشهداء ، وتطالب بألا نحزن على الذين يسارعون في الكفر من هؤلاء المنافقين . ثم إن هذه الفقرة تأتي في سياق القسم الخامس من سورة آل عمران ، والذي فيه وعد من الله للمؤمنين بالرعاية والنصر ، وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين . ومن ثَمَّ فهي تربي على المعاني التي ينال بها أهل الإيمان وعدَ الله بذلك ، وتُقدّم نموذجاً على فعل الله لأوليائه في أشد حالات الضيق إذ انتصروا بالرعب ، كما تأتي هذه الفقرة بعد مقطع ينهى عن مشابهة الكافرين في بعض أقوالهم ، فتكمل هذه الفقرة موضوع مالا ينبغي أن تتوافق فيه تصورات أهل الإيمان مع أهل الكفر . والفقرة مع هذا كله ، تفصّل في محور سورة آل عمران من سورة البقرة ، ففي أول سورة البقرة ورد قوله تعالى : **﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾** .

وفي هذه الفقرة يأتي تفصيل لأثر الإيمان ، وهو الاستجابة لله ولرسوله ﷺ في كل الأحوال ، والتوكل على الله في كل الظروف .

﴿ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ .

وكما جاء كلام في مقدمة سورة البقرة عن الكافرين والمنافقين بعد الكلام عن المتقين ، فإن هذه الفقرة تنتهي بكلام عن الذين كفروا بعد إيمان :

﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم ﴾ .

وبعد هذه الفقرة تأتي فقرة ثانية في المقطع الثالث ، تكمّل معاني الفقرة الأولي في دفع توهمات الكافرين ، وتصحيح تصورات المؤمنين .

الفقرة الثانية في المقطع الثالث

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

لاحظنا أن الفقرة السابقة بدأت بقوله تعالى : ﴿ **ولا تحسبن** ﴾ وهذه بدأت بـ ﴿ **ولا يحسبن** ﴾ وهناك قراءة ﴿ **ولا تحسبن** ﴾ دل ذلك على أننا في بداية فقرة ضمن المقطع الذي يصحح التصورات الإيمانية ويصفيها ، ويميز التصورات الكفرية

ويصفها ، ويوجه المؤمنين إلى كمالهم في التصور . فبعد المقطع السابق الذي صحح التصور حول الموت والقتل ، وأنه لا يكون إلا بأجل ، جاءت الفقرة الأولى من هذا المقطع تصحح التصور حول مآل الشهداء في سبيل الله . ثم تأتي هذه الفقرة فتصحح تصورات المؤمنين حول الإملاء للكافرين ، وامتحان المؤمنين ، وكل ذلك يعرض من خلال أخذ الدروس مما حدث يوم أحد ، وما بعده ، وما قبله . فمن خلال الحياة العملية نأخذ تفصيلات في قضية الإيمان والكفر ، وفي سنن الله - عز وجل - في أهل الإيمان وأهل الكفر ، وفي سنن الله في الصراع الذي يجري بين أهل الإيمان وأهل الكفر .

والخطاب في هذه القراءة وإن كان للكافرين إلا أنه تصحيح لتصور المؤمنين ، لأن الكافرين لا يستفيدون من الخطاب ، ولنلاحظ أن قراءة حمزة بالتاء .

المعنى العام :

ينهى الله عز وجل - الكافرين أن يتصوروا أن إمهالهم والإملاء لهم ، خير لهم ، بل هو شر لهم ، لأنهم بهذا الإملاء يزدادون إثمًا ، فيستحقون العذاب الأكثر ، وإذ بين الله - عز وجل - أن الإملاء ليس علامة على إرادة الخير بصاحبه ، يبين في الآية الثانية أن الامتحان لا بد منه لأهل الإيمان ، ليظهر فيه الولي ، ويفضح فيه العدو ، وليُعرف به المؤمن الصابر ، من المنافق الفاجر ، والأمر كله لله ؛ فهو الذي يعلم الغيب كله ، ومن ثَمَّ يعلم ما فيه الصلاح ، وما فيه الفساد ، وما هو خير للمؤمنين . فثقوا به ، وتوكلوا عليه ، وسلموا أموركم إليه . وإذا أطلع على شيء من الغيب ، فإنما يطلع رسله ، وإذ كان رسول الله ﷺ بين أظهركم ، فذلك أحرى وأدعى للتوكل ورؤية الحكمة . ثم بشرهم أنهم في حالة إيمانهم وتقواهم سيعطيهم أجراً عظيمًا .

ففي هاتين الآيتين إذن تصحيح لمفهوم الإملاء ، والابتلاء ، وتبيان للحكمة في ذلك وواجب العبد المؤمن هو الإيمان والتقوى . فهذان فرضا العمر ، وهاتان الآيتان واردتان في سياق الكلام عن غزوة أحد ودروسها ، لذلك قال مجاهد في قوله تعالى :

﴿ **ما كان الله ليَذَر المؤمنين** ... ﴾ قال : ميز بينهم يوم أحد . وقال ابن كثير في شرح التمييز في الآية : يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين ؛ فظهر به إيمانُهم وصبرهُم ، وجلدُهم ، وثباتُهم ، وطاعتهُم لله ولرسوله ﷺ ، وهتك به ستار المنافقين ، فظهرت مخالفتُهم ، ونكولُهم عن الجهاد ، وخيانتهُم لله ولرسوله ﷺ ولكن كما قلنا فإن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ ، فالآية في كل امتحان ومن ثَمَّ قال

قتادة : ميز بينهم بالجهاد والهجرة .

المعنى الحرفي :

﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم** ﴾ . أي : لا يحسبن الكافرون أن إملاءنا لهم خير لهم . والإملاء لهم : إمهالهم وإطالة عمرهم ، والتوسعة عليهم ، وعدم التضييق عليهم . ثم بين لماذا ليس الإملاء خيراً لهم فقال : ﴿ **إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا** ﴾ . أي : ليزدادوا خطايا فيزدادوا عذاباً . ﴿ **ولهم عذاب مهين** ﴾ أي : مذل . فالإملاء الذي يعقبه عذاب وإذلال ، ليس خيراً لصاحبه ، بل هو استدراج له . وكما يملي للكافرين ، فإنه يمتحن المؤمنين ولذلك قال : ﴿ **ما كان الله ليَذَر المؤمنين على ما أنتم عليه** ﴾ . أي : ما كان الله ليترك المؤمنين على ما هم فيه من اختلاط المؤمنين الخُلَّص والمنافقين . ﴿ **حتى يميزَ الخبيث من الطيِّب** ﴾ . أي : حتى يعْزل المنافق عن المخلص . والخطاب في قوله تعالى : ﴿ **على ما أنتم عليه** ﴾ للمخلصين منهم . فكأن المعنى : ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها من اختلاط مع غيرهم ، حتى يميز المخلص منكم عن غيره ، وذلك بواسطة المحنة . قال ابن كثير في تفسير ما مر : أي لا بد أن يعقد شيئاً من المحنة يظهر فيه وليه ، ويفضح فيه عدوه ، يعرف به المؤمن الصابر ، من المنافق الفاجر ، ولذلك قال تعالى بعد هذا : ﴿ **وما كان الله ليطلعكم على الغيب** ﴾ أي : جرت سُنَّة الله أن لا يطلع عامة خلقه على الغيوب ، وإذ كان الإيمان والنفاق غيباً ، فقد جرت سُنَّة الله أن يتم التمييز بين المؤمن والمنافق لأهل الإيمان بما يفعله من الأسباب الكاشفة عن ذلك ، وذلك بواسطة الابتلاءات ، والامتحانات . ويشعر قوله تعالى : ﴿ **وما كان الله ليطلعكم على الغيب** ﴾ بمعنى زائد على ما ذكرنا ، وهو أن الله يعلم الغيب وحده ، وهو يحب عباده المؤمنين ، فثقوا به ، وتوكلوا عليه في المحنة ، فإن مآلها بالنسبة لكم خير ، والله أعلم .

وبعد أن بيَّن الله ، أنه وحده يعلم الغيب ، وأنه لا يُطلع عباده على غيبه قال :

﴿ **ولكنَّ الله يجتبي من رسله من يشاء** ﴾ . أي : ولكن الله يصطفي من رسله من يشاء ، وهي هنا تعني : ولكن الله يرسل الرسول فيوحي إليه ، ويخبره بشيء من الغيب ومن ذلك : إيمان ناس ونفاق آخرين ، فهو يعلم ذلك من جهة إخبار الله له لا من جهة نفسه . وقد فهمنا هذا من مجيء قوله « **ولكن** » بعد قوله تعالى : ﴿ **وما كان الله ليطلعكم على الغيب** ﴾ . وذكر معرفة الله الغيب ، وعدم معرفتنا ، وذكر اجتباء الله الرسول واطلاعه على شيء من الغيب ، يفيد المطالبة لنا بزيادة التوكل على الله . ومن ثَمَّ

صدر الأمر بعد هذا بقوله تعالى : ﴿ **فآمنوا بالله ورسله** ﴾ . أي : آمنوا بهما حق الإيمان ، الإيمان الذي يرافقه الإخلاص ، والثقة ، والطاعة ، والعمل ، والاطمئنان عند الامتحان والثبات فيه . ثم وعدهم على الإيمان والتقوى أجره العظيم فقال : ﴿ **وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم** ﴾ . أي : إن تؤمنوا بالله ورسله ، وتتقوا النفاق ، وما يؤدي إلى عقوبة الله ، فلكم أجر عظيم في الآخرة .

فــوائـــد :

١ - ذهب المعتزلة إلى وجوب الصلاح والإصلاح على الله ، كما ذهبوا إلى نفي إرادة المعاصي عن الله . وفي قوله تعالى : ﴿ **إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا** ﴾ حجة لنا عليهم في أنه لا يجب على الله شيء وجوباً عقلياً ، بل وجوباً شرعياً بإيجابه على نفسه ، وأنه لا يكون في هذا الكون شيء إلا بإرادته .

٢ - وذهب الباطنية إلى أن إمامهم يعلم الغيب ، وفي قوله تعالى : ﴿ **وما كان الله ليطلعكم على الغيب** ﴾ رد عليهم .

كلمة في السياق :

تحدثت الفقرة عن الإملاء والابتلاء ، وكلاهما مما يخطىء فيه الناس ، فكثيراً ما يظن الظانون أن الإملاء علامة الكرامة ، وأن الابتلاء علامة الإهانة ، فجاءت الفقرة تصحح هذين المفهومين ، فالصلة بين معانيها قائمة . والصلة مع ما قبلها مباشرة قائمة :

فما قبلها هو قوله تعالى : ﴿ **إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم** ﴾ فالله - عز وجل - توعد الكافرين في هذه الآية بالعذاب الأليم ، وكثيراً ما يرى الناس أن كافراً يتنعم في هذه الحياة الدنيا ، ومسلمًا يُضطهد ، فجاءت الفقرة اللاحقة تبيِّن أن الإملاء ، والابتلاء ، ليسا علامة على الكرامة والإهانة ، بل النار والجنة هما العلامة ، فلا يخلو كافر من شقاء ، ولا يحرم مؤمن من سعادة في الدنيا ، والعاقبة للمتقين .

والصلة بين هذه الفقرة والفقرة التي قبلها واضحة من خلال حرف العطف ، كما أن الصلة بين الفقرة وبداية القسم الخامس قائمة ، فالله - عز وجل - وعد المؤمنين في

بداية القسم بالنصر والرعاية ، وجاءت هذه الفقرة لتبين أن الابتلاء نفسه في حق المؤمن رعاية ونصرة . ولنتحدث عن صلة ما يمر معنا بسورة البقرة :

أقول : إن قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين * ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون * ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ أقول : إن هذه المجموعة وثيقة الصلة بمقدمة سورة البقرة التي فيها : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة** ﴾ والتي فيها ﴿ **أولئك على هدى من ربهم** ﴾ وإذن فهذه المجموعة من امتدادات معاني مقدمة سورة البقرة في السورة ، فلنلاحظ الآن ما يلي : بدأت المجموعة بالأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة ، ثم جاء قوله تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون** ﴾ وجاءت الفقرة الأولى في هذا المقطع الثالث في تفصيل هذا : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً** ... ﴾ . وبعد تلك الآية من سورة البقرة جاء قوله تعالى : ﴿ **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات** ﴾ . والملاحظ أن هذه الفقرة التي مرت معنا كان فيها حديث عن حكمة الابتلاء والإملاء والآن تأتي فقرة تتحدث عن البخل والبخلاء ، وصلة ذلك بمقدمة سورة البقرة ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ واضحة ، أليس في ذلك نوع دليل على أن محور سورة آل عمران هو مقدمة سورة البقرة ، وأنها تفصل فيما هو كالامتداد لهذه المقدمة في سورة البقرة ! وكل ذلك دون أن يكون على حساب السياق الخاص لسورة آل عمران . إن سورة آل عمران تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، وهي في كل مرحلة تشدّ لنا معنى من امتدادات المقدمة وتفصِّل في الجميع .

الفقرة الثالثة في المقطع الثالث

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟

إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾

المعنى العام :

نهى الله – عز وجل – في هذه الفقرة أن يَظُنَّ البخيل أن جمع المال ينفعه ، بل هو مضرَّة عليه في دينه ، وربما كان في دنياه . ثم أخبر بمآل ماله يوم القيامة ، إذ يعذّب به . ثم يخبر تعالى أنه وارث السمٰوات والأرض ، وأنه خبير بالأعمال والنيات ، وهذا يقتضي أن ننفق مما أعطانا ، وكما أمر ، وبمحض الإخلاص لنلقى جزاء ذلك . ثم رد الله – عز

وجل - شبهةً أثارها المتكبرون - وهي دعواهم إذ أمرنا ربنا بالإنفاق - أنه فقير ، وهم الأغنياء ، وهذا معناه في زعمهم احتياجه لهم ، فهددهم الله على مقالتهم وعلى قتلهم الأنبياء من قبل . ومن هنا نفهم أن قائلي هذا الكلام هم اليهود ، وبيَّن أن جزاءهم على ذلك عذاب جهنم بسبب أفعالهم ، لا بظلم من الله لأن ربنا ليس بظلام لخلقه ، ثم بين أن من أخلاق هؤلاء ، وأقوالهم دعواهم أن الله لم يأذن لهم أن يؤمنوا برسول إلا إذا قدّم قرباناً أكلته نار من السماء ، فردَّ عليهم هذه الدعوى ، وبيَّن لهم أنهم كاذبون فيما يطلبون ، فإن رسلاً آخرين جاءوا بمعجزات ، وبقربان أكلته النار فقتلوهم ، فهذا دليل على أن كلامهم هذا من باب التعنت لامن باب الإنصاف ، ثم عزّى الله رسوله بأنّه إن كذَّبه هؤلاء ، فإن غيره من الرسل قد كُذِّبوا مع مجيئهم بالمعجزات والوحي ، ثم وعظ الله الناس وعظاً عاماً بالموت ، وذكرهم بالنار والجنة ، وأن الفوز هو في الزحزحة عن النار ، ودخول الجنة ، وأن هذه الدنيا فانية ، والتذكير بهذا في سياق النهي عن البخل واضح الدلالة . ثم ذكَّر الله - عز وجل - المؤمنين بأن من سنته أن يبتليهم في الأموال والأنفس ، وذكرهم بأن أهل الكتاب والمشركين سيؤذونهم كثيراً ، وندبهم إلى الصبر والتقوى ، وأثنى على من يتحقق بهذا .

ثم إن الفقرة تتجه للتذكير بما أخذ من عهود على أهل الكتاب على ألسنة أنبيائهم أن يبينوا كتاب الله ولا يكتموه ، ومن ذلك ما ورد فيه من أمر محمد ﷺ ، وأن ينوِّهوا بذكره في الناس ، فيكون الناس على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعوه . فكتموا ذلك ، وتعوَّضوا عما وُعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف ، والحظ الدنيوي السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم ، وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم ، فيصيبهم ما أصابهم ، ويُسلك بهم مسلكهم . فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح ، ولا يكتموا منه شيئاً .

المعنى الحرفي للآيات :

﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم** ﴾ وفي قراءة : ﴿ **ولا تحسبن** ﴾ ، وهذا يؤكد الصلة بين الفقرات التي تؤلف هذا المقطع . والمعنى : لا يظنن البخلاء بحقوق الله التي جعلها فيما رزقهم ، أن بخلهم خير لهم . ﴿ **بل هو شر لهم** ﴾ . أي : بل بخلهم شر لهم ، لأن أموالهم ستزول عنهم ، ويبقى

عليهم وبال البخل ، والشرِّية لهم في الآخرة متحققة ، وقد يكون بخلهم شراً عليهم في الدنيا كذلك بما يصيبهم بسبب هذا البخل من كراهية ، وثورات عليهم ، وعقوبات دنيوية وربانية . ﴿ **سيطوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة** ﴾ هذا تفسير للشرِّ الذي يصيبهم بسبب بخلهم في الآخرة . ومعناه أن الله سيجعل مالهم الذي منعوه عن الحق طوقاً في أعناقهم يوم القيامة ، كما شرحته السُّنّة . ﴿ **ولله ميراث السموات والأرض** ﴾ . أي : وله ما فيهما مما يتوارثه أهلها من مال وغيره ، فما لهم يبخلون عليه بملكه ، ولا ينفقونه في سبيله . ﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ لا يغيب عنه ظاهر العمل ولا باطنه ، فاعملوا خيراً ، وأخلصوا نياتكم وضمائركم لله فيه ، لتنقذوا أنفسكم من عذابه ، وتنالوا رضوانه .

﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ قال ذلك اليهود عليهم اللعنة عُتُوّاً على الله في تحريفهم لمراد الله من أوامره ، ومعنى سماع الله له : أنه لم يخف عليه ، وأنه أعد له كفاء من العقاب . ﴿ **سنكتب ما قالوا** ﴾ هذا تهديد ووعيد لهم ، ومعناه : سنحفظه عليهم ، ونحاسبهم عليه ، أو سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوا في الصحائف ؛ لنجزيهم عليه . ﴿ **وقتلَهم الأنبياء بغير حق** ﴾ . أي : سنكتب قولهم هذا ، وقتلَهم الأنبياء ، فجعل قتلهم الأنبياء قريناً لهذا القول إيذاناً بأنهما في العظم أخوان ، وأن من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجتراء على هذا القول ، فهؤلاء جرآء على رسله ، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ، ولذلك قال : ﴿ **ونقول ذوقوا عذاب الحريق** ﴾ . أي : ونقول لهم يوم القيامة ذوقوا عذاب النار ، قال الضحاك : يقول لهم ذلك خزنة جهنم ، ﴿ **ذلك بما قدمت أيديكم** ﴾ . أي : ذلك العذاب بما قدمتم من الكفر ، والمعاصي ، والجرأة على الله ورسله . وذكر الأيدي لأن أكثر الأعمال يكون بها ، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب . ﴿ **وأن الله ليس بظلّام للعبيد** ﴾ . أي : إن الله لا يظلم عباده ، فلا يعاقبهم بغير جرم . ويقال لهم هذا تقريعاً وتوبيخاً ، وتحقيراً وتصغيراً ، ثم بين الله عتوَّ هؤلاء وجرأتهم وكذبهم : ﴿ **الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتِينا بقربان تأكله النار** ﴾ . أي : إنهم ادَّعَوا أن الله أمرهم بالتوراة ، بألا يؤمنوا برسول ، فيصدقوه ، ويتابعوه ، إلا إذا قرَّب قرباناً لله ، فتنزل نارٌ من السماء فتأكله ، والقربان : ما يُتقرَّب به إلى الله . والمعنى : افعل هذا يا محمد نصدقك !! وقد أمر الله رسوله أن يرد عليهم ، ﴿ **قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات** ﴾ . أي : بالحجج ، والبراهين ، والمعجزات ، سوى القربان ،

﴿ **وبالذي قلتم** ﴾ أي : بالقربان الذي أكلته النار ، ﴿ **فلِمَ قتلتموهم** ﴾ . أي : فلِمَ قابلتموهم بالتكذيب والمعاندة والقتل ، ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ . أي : في دعواكم أنكم تتبعون الحق ، وتنقادون للرسل إن فعلوا ما طلبتم . فإذا كان هذا فعلكم بمن هو منكم ، فكيف يكون فعلكم بمن ليس منكم إن قدرتم عليه ، ولا شك أن كلامهم محض افتراء وتعنّت ، فالمعجزة معجزة أياً كانت ، والله - عز وجل - هو الذي يختار المعجزة التي تشهد على صدق رسله ، وعلى الخلق أن يؤمنوا . ثم قال تعالى مسلّياً نبيه ﷺ : ﴿ **فإن كذّبوك فقد كُذِّب رسل من قبلك** ﴾ . أي : فإن كذبك اليهود فلا يهولنّك ذلك ، فقد فعلت أقوام برسلها وأنبيائها كذلك مع كونهم ﴿ **جاؤوا بالبينات** ﴾ . أي : بالمعجزات الظاهرات ﴿ **والزبر** ﴾ . أي : الكتب المتلقاة من السماء ﴿ **والكتاب المنير** ﴾ . أي : الواضح الجلي المضيء . والملاحظ أن الزبر ، والكتاب ، بمعنى واحد ، فما الفارق بينهما ؟ . قال النسفي : قيل هما واحد في الأصل ، وإنما ذكرا لاختلاف الوصفين فالزبور كتاب فيه حِكَم زاجرة ، والكتاب المنير هو الكتاب الهادي . ﴿ **كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة** ﴾ . أي : ما من نفس إلا وستموت ، وستُعطون ثواب أعمالكم على الكمال يوم القيامة ، فإن الدنيا ليست بدار جزاء . قال النسفي رابطاً بين هذه الآية وما قبلها : والمعنى : لا يحزنك تكذيبهم إياك ، فمرجع الخلق إليَّ فأجازيهم على التكذيب ، وأجازيك على الصبر . ﴿ **فمن زُحزِح عن النار** ﴾ . أي : أُبعد ، إذ الزحزحة : الإبعاد ﴿ **وأُدخل الجنة فقد فاز** ﴾ . أي : ظفر بالخير . فمن جُنِّب النار ونجا منها ، وأُدخل الجنة فقد فاز كل الفوز . ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ . أي : صغير شأنها ، حقير أمرها ، دنيئة فانية ، قليلة زائلة . شبَّه الدنيا بالمتاع الذي يدلَّسُ به على المستام ، ويغرر حتى يشتريه ، ثم يتبين له فساده ، ورداءته ، والشيطان هو المدلِّس الغرور .

وعن سعيد بن جبير : إن هذا لمن آثرها على الآخرة ، فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ . ﴿ **لتُبلوُنَّ في أموالكم وأنفسكم** ﴾ . أي : لتُختبرُنَّ في الأموال والأنفس ، أما في الأموال فبما يقع بها من آفات ، أو بما يصادر منها في سبيل الله ، أو بما ينفق منها في سبيل الله ، وأما في الأنفس ، فبالقتل والأسر والجراح ، وما يرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب . قال ابن كثير : أي لا بد أن يُبتلَى المؤمن في شيء من ماله ، أو نفسه ، أو ولده ، أو أهله ، ويبتلىٰ الرجل على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء . ﴿ **ولَتسمعُنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم** ﴾ . أي : اليهود

والنصارى ، ﴿ **ومن الذين أشركوا** ﴾ . أي : كل الكافرين سوى اليهود والنصارى ، والملحدون مشركون ، إذ أعطوا الكون صفات الله من الخلق والإرادة والإحياء والإماتة ، وجعلوا أنفسهم آلهتهم ، ﴿ **أذىً كثيراً** ﴾ كالطعن في الدين ، وصد من أراد الإيمان ، وتخطئة من آمن ونحو ذلك . ﴿ **وإن تصبروا** ﴾ على أذاهم ﴿ **وتتقوا** ﴾ مخالفة أمر الله ﴿ **فإن ذلك من عزم الأمور** ﴾ . أي : فإن الصبر والتقوى من عزائم الأمور ، أي : مما يجب العزم عليه من الأمور . خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الشدائد ، والصبر عليها . حتى إذا كانت لقوها وهم مستعدون ، لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدة بغتة فينكرها وتشمئز منها نفسه . ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب** ﴾ . أي : اذكر ذلك ، ثم بيَّن ماهية الميثاق ﴿ **لَتبيّننّه للناس ولا تكتمونه** ﴾ هذا هو الميثاق ، بيان الكتاب ، وعدم كتمانه . ومن الصيغة نفهم تأكيد إيجاب بيان الكتاب ، واجتناب كتمانه ، وكما أُخذ عليهم الميثاق أُخذ علينا . قال عليه السلام : « من سُئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار » . ﴿ **فنبذوه وراء ظهورهم** ﴾ . أي : فنبذوا الميثاق ولم يراعوه ، ولم يلتفتوا إليه . والنبذ وراء الظهر ، مَثَل في الطرح وترك الاعتداد . قال النسفي : وهو دليل على أنه يجب على العلماء أن يبيِّنوا الحق للناس وما علموه ، وألا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة ، وتطييب لنفوسهم ، أو لجر منفعة ، أو دفع أذيَّة ، أو لبخل في العلم . ﴿ **واشتروا به ثمناً قليلاً** ﴾ . أي : اشتروا بهذا الكتمان عَرَضاً يسيراً ، والدنيا كلها عرض يسير . ﴿ **فبئس ما يشترون** ﴾ . أي : فبئس الصفقة صفقتهم إذ باعوا العظيم بما لا يساوي شيئاً .

فـــوائـــد :

١ - روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له شجاعاً أقرع له زبيبتان ، يُطَوِّقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزمتيه - يعني شدقيه - يقول : أنا مالك ، أنا كنزك » ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطَوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة ...** ﴾ إلى آخر الآية .

وروى ابن جرير عن النبي ﷺ قال : « ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه ، فيسأله من فضلٍ جعله الله عنده ، فيبخل به عليه ، إلا خرج له من جهنم شجاع يَتَلَمَّظ حتى

يطوِّقه » .

٢ - قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : ﴿ **من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة** ﴾ (سورة البقرة) قالت اليهود : يا محمد افتقر ربك فسأل القرض ، فأنزل الله : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ .

٣ - ذكر ابن كثير عن ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لما تُوفي النبي ﷺ وجاءت التعزية ، جاءهم آت يسمعون حسَّه ، ولا يرون شخصه فقال : « السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة** ﴾ . إن في الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفاً من كل هالك ، ودركاً من كل فائت ، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حُرم الثواب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

٤ - أخرج ابن مردويه عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « لَموضع سوط أحدكم في الجنة ، خير من الدنيا وما فيها » قال : ثم تلا هذه الآية ﴿ **فمن زُحزِح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز** ﴾ وفي الحديث « والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليم ، فلينظر بم ترجع إليه » وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ قال هي متاع متروكة أوشكت - والله الذي لا إله إلا هو - أن تضمحل عن أهلها ، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ولا قوة إلا بالله » .

٥ - قال ابن كثير في التعليق على قوله تعالى : ﴿ **ولَتسمَعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً** ﴾ فكل من قام بحق ، أو أمَرَ بمعروفٍ ، أو نهى عن منكر ، فلا بد أن يُؤذىٰ ، فما له دواء إلا الصبر في الله ، والاستعانة بالله ، والرجوع إلي الله .

كلمة في السياق :

سيأتي بعد الآية الأخيرة من الفقرة السابقة قوله تعالى : ﴿ **لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا** ﴾ وقد رأينا أن مجيء كلمة (الحسبان) في هذا السياق علامة على ابتداء فقرة ، مما يشير إلى أن آية الكتمان الواردة في الفقرة ألتي مرت معنا هي نهاية هذه الفقرة .

والملاحظ أن الفقرة التي مرت معنا ، وهي الفقرة الثالثة في مقطعها قد ذكرت ثلاث معان رئيسية : البخل ، والابتلاء الذي يقتضي الصبر ، ومنه الصبر على إيذاء أهل الكتاب ، والمعنى الثالث كتمان أهل الكتاب . وقد رأينا أن المقطع الثالث الذي نفسره يفصّل في مقطع الصبر من سورة البقرة ، الذي فيه ذكر الابتلاء والصبر عليه ، والذي فيه ذكر الكتمان . فلو أنك تأملت الفقرة التي بين أيدينا ، لرأيتها تفصِّل في حيّزها الأول في قوله تعالى : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ من مقدمة سورة البقرة ، وتفصِّل في حيزّها الثاني في الابتلاء والكتمان من مقطع الصبر في سورة البقرة .

وهذا يؤكد أن سورة آل عمران تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، وامتدادات معانيها ، وبشكل يربط ويدل على صلة المعاني الواردة في سورة البقرة ، بما له صلة بالمقدمة بشكل مباشر ، ولو أنك نظرت إلى الكتمان ، لرأيت أن له صلة بقوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ . ولو أنك نظرت إلى الصبر على إيذاء أهل الكتاب ، والصبر على الابتلاء ، لرأيت له صلة بالإيمان بالغيب .

فصلة الفقرة إذن في تفصيل مقدمة سورة البقرة ، وامتدادات معانيها موجودة ، ألا ترى مثلاً أن قوله تعالى في الفقرة ﴿ **الذين قالوا إن الله عَهِد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتيَنَا بقربان تأكله النار ، قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم ... فإن كذبوك فقد كُذّب رسل من قبلك** ﴾ ألا ترى أن لهذا صلة مباشرة بقوله تعالى في مقدمة سورة البقرة : ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ .

إنك كيف تأملت تجد روابط بمقدمة سورة البقرة ، والمعاني الأكثر لصوقاً بها من سورة البقرة . إن سورة آل عمران تشد المعنى المرتبط بمقدمة سورة البقرة إلى جزء في هذه المقدمة ، ثم تفصِّل فيه ، ثم تشد جزءاً آخر ، ثم تفصِّل فيه ، وهكذا ضمن سياقها الخاص بها . فمثلاً في سورة البقرة جاءت آية الكرسي ضمن سياقها وهي مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ ولذلك صلة بمقدمة سورة البقرة ، سواء من حيث الإيمان بالغيب ، أو إنزال الكتاب . وجاءت سورة آل عمران لتشد هذا المعنى إلى المقدمة فتفصِّل في ذلك ، وبذلك بدأت السورة كما رأينا .

ولئن قصَّر تعبيرنا في موطن من هذا التفسير عن التدليل ، فإن في مجموع ما سنذكره في هذا التفسير لدليلاً - إن شاء الله - على صحة اتجاهنا .

هناك ارتباط بين الصبر والتقوى ، لذلك رأينا من قبل في سورة آل عمران :

﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً** ﴾ ورأينا في هذه الفقرة :

﴿ **وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور** ﴾ وهذا يؤكد الارتباط المباشر بين مقدمة سورة البقرة ومجموعة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة** . ﴾ .

رأينا أن الصلة بين فقرات هذه المقطع واضحة ، من حيث إن المقطع كله يصحح مفاهيم ، وهو مرتبط بالمقطع السابق عليه ، كذلك بهذا القاسم المشترك ، وأما الصلة بين الفقرة التي مرت معنا ، وبين بداية القسم الذي نهى عن طاعة أهل الكفر ، ووعَد المؤمنين بالرعاية والنصرة ، وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين ، فمن حيث إنه أرانا مواقف للكافرين كل منها تقتضي ألا نطيعهم ، ومن حيث إنه وطّن أنفسنا على الكثير مما سنواجهه ، فحمل الدعوة والاستقامة عليها ، وكسب النصر في الله ليس سهلًا ، ولعل الصلة بين معاني الفقرة لا تخفىٰ على المدقق ، فأهل الكتاب بخلوا ، والسبب هو الدنيا ، وآذوا المسلمين ، وكان المفروض أن يؤمنوا بما آمن به المسلمون لأن هذا مقتضى الميثاق المأخوذ عليهم بالبيان . والصِلات في الفقرة أوسع وأعمق وأبعد .

هناك ناس يبخلون ، فما السر في بخلهم : إن السر في بخلهم اعتقاد فاسد ونسيان للموت ، فهم يعتقدون أن الله هو المكلَّف برزق الفقراء ، وذلك أثر عن عدم الإيمان بالرسل ، فالبخل في أرضيته الواسعة يعود إلى مثل هذا ، لذلك استطردت الفقرة إلى هذه الشؤون . ثم إن من أسباب البخل نسيان الموت ، ونسيان الحساب والجنة والنار ، لذلك جاء في السياق كلام عن ذلك . وبسبب من هذا فالبخلاء يُشكّلون كتلة اقتصادية تستند إلى أرضية اعتقادية ، وهم كتلة في مقابل الكتلة الإيمانية ، والصراع بين الكتلتين سيترتب عليه ابتلاء وإيذاء لأهل الإيمان ، ومن ثَمَّ جاء كلام عن ذلك . وكأصل لعِلّة البخل ، وكأصل لتكذيب الرسل عليهم الصلاة والسلام ، يأتي موضوع كتمان الكتاب من أهل الكتاب ، ولذلك تُختم الفقرة بهذا المعنى ، ولكنّ آية الكتمان هنا تأتي بعد الآية التي تذكر الابتلاء والإيذاء ، فكأنها في الوقت نفسه تقول :

أيها المؤمنون احذروا أن يمنعكم الابتلاء والإيذاء من أن تُظهِروا حكمَ الله وتبيِّنُوه .

وهكذا تجد أكثر من وشيجة تربط بين آيات الفقرة .

ولنتذكر الآن شيئاً ، كنا في مقطع الصبر من سورة البقرة ذكرنا الحكمة في مجيء آية

الأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة ، قبل ذكر الابتلاء ، ومجيء آية الكتمان في ذلك السياق يشير إلى أن البيان سيرافقه ابتلاء ، والابتلاء يحتاج إلى استعانة بالصبر والصلاة ، والملاحظ أن آية (الصفا) في ذلك المقطع فصَلت بين آية الكتمان وآيات الصبر ، أما ههنا فإن آية الكتمان جاءت بعد آية الصبر مباشرة .

ولعلنا الآن نستطيع أن نقول كلمة أكثر وضوحاً في السياق القرآني العام : لقد سارت سورة البقرة على تسلسلها الذي رأيناه ، فكانت مقدمة ، وأقساماً ثلاثة ، وخاتمة . وكان هناك كثير من المعاني التي وردت في الأقسام الثلاثة ، والخاتمة تفصّل في معان موجودة في مقدمة سورة البقرة ، فجاءت سورة آل عمران لتفصِّل في مقدمة سورة البقرة ، ولتشد المعاني المرتبطة بهذه المقدمة من سورة البقرة نفسها ، لتربطها بالمقدمة ، ولتفصّل في ذلك كله على نمط لا يعرفه الإنسان ، ولا يخطر على بال إنسان ، ولا يستطيعه إنسان ، والأمر بالنسبة للقرآن كله أوسع ، وسيتضح الأمر معنا شيئاً فشيئاً ، ولننتقل إلى الفقرة الرابعة في المقطع الثالث .

الفقرة الرابعة من المقطع الثالث

وهي آيتان :

لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

سبقت هاتين الآيتين ، آية تحدثت عن نبذ أهل الكتاب لكتاب الله وراء ظهورهم ، وشرائهم به ثمناً قليلاً ، ثم جاءت هاتان الآيتان ، فكأنهما تقولان : إن هناك ناساً يكتمون ، ويريدون أن يُحمَدوا على أنهم يجهرون بالحق ، فهؤلاء نُهي رسول الله ﷺ أن يَظنَ أنهم بمنجاة من عذاب الله ، والنهي لرسوله ﷺ نهي لأمته ، ثم بيّن الله عز وجل أنه مالك كل شيء ، والقادر على كل شيء فلا يعجزه شيء .

ولنذكر سبب نزول الآية الأولى ، والفهوم غير المرادة منها ، وتصحيح الصحابة

لها ، ونعرض مع ذلك المعنى الحرفي لها ولما بعدها .

روى الإمام أحمد أن مروان قال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرىء منا فرح بما أتى ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل مُعذَّباً ، لنعذبن أجمعين ؟ فقال ابن عباس : وما لكم وهذه ؟ إنما نزلت هذه في أهل الكتاب ، ثم تلا ابن عباس : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق** .. ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **فبئس ما يشترون** ﴾ وهذه الآية : ﴿ **لا تحسبن** ... ﴾ وقال ابن عباس سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أرَوْه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتَوْا من كتمانهم ما سألهم عنه .

فالآية إذن أول ما يدخل فيها — إذا نظرنا إلى معناها من خلال السياق — هذا الذي ذكره ابن عباس . ومن ثَمَّ لاحظنا أن ابن عباس ربط بين هذه الآية وما قبلها ، وعلى هذا فمعنى الآية : لا تظنن الذين يفرحون بما أتوه من كتمان الحق الذي أنزله الله ، ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوه من إظهار الحق ، لا تحسب أنهم ناجون من العذاب ، بل لهم عذاب أليم .

على أنه إذا فهمنا الآية هذا الفهم من خلال سياقها ، فإننا يمكن أن نفهمها فهماً آخر من خلال نصها . وقد روى البخاري وغيره سبباً لنزول الآية غير ما ذكرنا ، ومنه نفهم أن الآية تفهم من خلال نصها مما يدخل فيها غير الحالة الأولى .

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رجالاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو وتخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو ، اعتذروا ، وأحبوا أن يُحمدوا على ما لم يفعلوا فنزلت : ﴿ **لا تحسبن الذين يفرحون** .. ﴾ الآية .

وفي رواية ابن مردويه عن أبي سعيد : إنما ذاك أن ناساً من المنافقين يتخلفون إذا بعث رسول الله ﷺ بعثاً ، فإن كان فيهم نكبة فرحوا بتخلفهم ، وإن كان لهم نصر من الله وفتح ، حلفوا لهم ليرضوهم ، ويَحمدوهم على سرورهم بالنصر والفتح . وعلى هذا يصبح معنى الآية : لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوه من تخلف عن أمر الله ، وأمر رسوله ، ويحبون مع هذا أن يُحمدوا بأنهم من أهل الإيمان والجهاد ، وهم لم يفعلوا ما يدل على ذلك ، فلا تحسب أن هؤلاء بمنجاة من العذاب .

وسبب ذلك أن المسلم إذا تخلف عن الجهاد حزن ، كما سيمر معنا في سورة براءة ، وإذا جاهد رغب أن يكون جهاده خالصاً لوجه الله تعالى ، فهو يخجل من إظهار العمل ، وهؤلاء عكس ذلك ، فهم في الطرف المقابل من أهل الإيمان في أخلاقهم . وعلى هذا الاتجاه فما الصلة بين هذه الآية وما قبلها ؟ الصلة - والله أعلم - أن الجهاد طريق إظهار الحق . وهؤلاء لا يشاركون فيه ، ويحبون أن يُحمدوا بأنهم من أهله ، وإذا نظرنا إلى لفظ الآية ونصها ، فإننا نرى فيها وعيداً لمن يأتي بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب . ويحب أن يحمده الناس بما ليس فيه ، وقوله تعالى : ﴿ **فلا تحسبنَّهم بمفازة من العذاب** ﴾ أي : لا تحسبنهم فائزين ، أي لا تحسبنهم بمنجاة من عذاب الله . وبعد هذا نقول : إن نقطة الخطأ في الفهم هي : أن يفهم فاهم أن مجرد فرحه بفعله يستحق به عذاب الله ، وذلك أن الفرح إذا كان بفضل الله ، فذلك شيء مشروع ، وإنما تدخل في الآية ثلاث حالات (والله أعلم) : **الحالة الأولى** : أن يكتم إنسان ما أنزل الله ، ويحب أن يُحمد على أنه من المجاهرين به . **والحالة الثانية** : أن يتخلف إنسان عن طاعة الله ، وهو فرح بهذا التخلف ، ويحب أن يُحمد على أنه من القائمين بأمر الله . **والحالة الثالثة** : أن يفرح الإنسان بعمله فرح إعجاب - إذ العُجب يحبط العمل - ويحب أن يتظاهر بغير ما هو له ، وأن يُحمد به ، وقد قال ابن كثير في شرح الآية : يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا ، كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ « من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها ، لم يزده الله إلا قلة » وفي الصحيحين أيضا « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور .. » .

ونذكّر بما قلناه من قبل بهذه المناسبة كيف أن هذا القرآن لا تنتهي عجائبه ومعانيه . فمن خلال السياق الجزئي نفهم شيئاً ، ومن خلال السياق العام نفهم شيئاً ، ومن خلال المعنى الحرفي نفهم شيئاً ، ولا يتناقض هذا مع هذا ، بل يكمله ويتممه .

ثم قال تعالى : ﴿ **ولله ملك السمٰوات والأرض والله على كل شيء قدير** ﴾ . أي : **هو المالك لكل شيء ، وهو القادر على كل شيء** ، ومجيء هذه الآية في السياق مرتبط بما قبله من ناحية أن الذين يكتمون ، إنما يشترون بكتمانهم ثمناً قليلاً . فذكّرهم الله بأنه هو مالك كل شيء ، وبيده العطاء . ومن ناحية أن الذين يفرحون بما أتوا يستحقون العذاب . وقدرة الله محيطة بهم تنالهم لتعذبهم . إن التّذكير بمالكية الله للأشياء كلها ، وقدرته على الأشياء كلها ، وتذكّر ذلك ، هو المصفّي لكل أمراض النفوس .

كلمة في السياق :

بهذه الفقرة تم المقطع الثالث ، من القسم الخامس ، من سورة آل عمران ، والفقرة الأخيرة منه مرتبطة بالفقرات كلها ، بجامع أنها تصحح مفاهيم وتصورات ، ثم هي تعقيب على الأصناف السابقة التي تبخل ، وتكتم ، وتشتري ثمناً قليلاً ، وتحب أن تُمدح بما لا تفعل ، ناسية أن الله مالك كل شيء . فالفقرة متصلة بما قبلها مباشرة ، وهي تؤدي للسياق العام ما يكمّله ، وبها تكتمل عندنا مجموعة معان كلها تخدم في توضيح ، وتفصيل مقدمة هذا القسم ، الذي بدأ في النهي عن طاعة الكافرين ، ووعدنا الله به الرعاية والنصرة ، وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين . ولننتقل إلى المقطع الرابع والأخير في القسم الخامس . وهو خاتمة السورة كلها .

المقطع الرابع من القسم الخامس

يمتد هذا المقطع من الآية (١٩٠) إلى نهاية الآية (٢٠٠) أي إلى نهاية السورة .

وهذا هو :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ۖ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ۖ

فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

☆ ☆ ☆

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

☆ ☆ ☆

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾

☆ ☆ ☆

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

كلمة في هذا المقطع :

هذا المقطع هو خاتمة السورة، وهو خاتمة القسم الذي بدأ بالنهي عن طاعة الكافرين ، والتأكيد على تولي الله للمؤمنين بالرعاية والنصرة ، وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين ، ولذلك فإنه يذكّرنا بأخلاق المؤمنين ، ودعَواتهم ومواقفهم ، ثم ينهانا عن أن نغتر بتقلب الكافرين في البلاد . ثم يبيِّن لنا أن نوعاً من أهل الكتاب يسلمون فيؤمنون إيماناً صادقاً

فلهم أجرهم عند ربهم ، ثم يأمرنا بالصبر والمصابرة ، والمرابطة والتقوى ، وفي ذلك كله ما يعمّق عندنا الإيمان الذي لا نطيع به كافراً ، والذي ننال به وعود الله لنا ، وإذ كان هذا المقطع هو خاتمة السورة ، فإنه يربط بين بداية السورة ، وخاتمتها . ففي بداية السورة وصف الله - عز وجل - أولي الألباب بقوله : ﴿ **والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذّكّر إلا أولوا الألباب** ﴾ ويأتي في هذا المقطع تعريف لأولي الألباب . ﴿ **إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم** ... ﴾ فهؤلاء هم الذين يؤمنون بالكتاب حق الإيمان ، فيؤمنون به كله ، عاملين بمحكَمِه ، مسلِّمين لمتشابهه ، وهم القائمون بأمر الله حقاً . وكما ذكر المقطع الأول في السورة الكافرينَ وأهلَ الكتاب ، فهذا المقطع يذكر الكافرين ، ويُثني على من آمن من أهل الكتاب . فالسورة يرتبط أولاها بأخراها ، كما ترتبط كل أقسامها برباط جامع .

وكون المقطع تفصيلاً لمقدمة سورة البقرة فهذا واضح . فمقدمة سورة البقرة تذكر أن القرآن هدى للمتقين ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ... والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾

وهذا المقطع يذكر :

﴿ **ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا** ﴾ . ﴿ **ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة** ﴾ ﴿ **لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات** ﴾ ﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وماأنزل إليهم** ﴾ . وتختم السورة بكلمة الفلاح : ﴿ **اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ .

وكما أن سورة البقرة سُبقت خاتمتها بآية تذكِّر بمالكية الله ، فإن خاتمة سورة آل عمران كذلك . وكما أن خاتمة سورة البقرة ختمت بتعليم وتقرير لقضايا إيمانية ودعوات ، فإن سورة آل عمران كذلك .

المعاني العامة في المقطع : جاءت الآيات الأولى في المقطع تبيِّن : من هم أولوا الألباب ، فقد بيَّن الله - عز وجل - أنَّ في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات ، ولكن هذه الآيات لاتتكشف إلا لأهل اللب . ثم بيَّن أن أهل اللبِّ هم

الذين اجتمع لهم الفكر والذكر . وأنهم يعطون الله - كأثر عن فكرهم وذكرهم - مايليق بجلاله ، فيدعون الله بمجموعة دعوات تجمع قضايا الإيمان والخير كلها . ثم بيَّن الله - عز وجل - أنه استجاب لهم دعواتهم بسبب ماقدموه من عمل ، وهجرة ، وصبر ، وقتال ، مما يدل على أن من هذه أخلاقهم هم أولوا الألباب ، وهم وحدهم الذين يتذكرون ، وأن جزاءهم جنات الله بما فيها . ثم صدر النهي لرسول الله ﷺ ألا ينظر نظر إكبار إلى مافيه الكافرون من نعمة ، وغِبْطة وسرور ، فالدنيا كلها لاتساوي شيئاً بجانب الآخرة ، وأن ماهم فيه أمام ماأعد الله لهم من عذاب جهنم لا يساوي شيئاً . ثم أعاد الله البشارة بالجنات لأهل التقوى بعد النهي عن الاغترار بتقلّب الذين كفروا في البلاد .

ثم بيّن الله - عز وجل - أن هناك طائفة من أهل الكتاب يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ مع ماهم مؤمنون به من الكتب المتقدمة ، وأنهم مطيعون لله ، خاضعون ، متذللون بين يديه ، لايشترون بآيات الله ثمناً قليلًا ، أي : لايكتمون مابأيديهم من بشارة بمحمد ﷺ ، وذكر صفته ، ونعته ، ومبعثه ، وصفة أمته ، هؤلاء أجرهم محفوظ عند الله ، ثم ختمت السورة بنداء لأهل الإيمان بالصبر ، والمصابرة ، والمرابطة ، والتقوى ؛ من أجل فلاحهم . فدلّ ذلك على أنه ليكون الإنسان من المفلحين ، لابد له من اجتماع هذه الأربعة .

المعنى الحرفي للمقطع :

إذ أعطانا الله صورة ناس فيمامر ، لايقومون بحق الله في كتابه ، فإنه الآن يعطينا صورة من يقوم بحق كتابه من خلال مجموعة آيات تصف أولي الألباب الذين هم وحدهم - كما نصت سورة آل عمران في أولها - الذين يتذكّرون إذا ذُكّروا . ﴿ **وما يذَّكَّر إلا أولوا الألباب** ﴾ ..وهذه الآيات - إلى نهاية السورة - لها شأن خاص ، وقد وردت فيها آثار خاصة كما سنرى . ﴿ **إن في خلق السمٰوات والأرض** ﴾ . أي : في حدوثهما وتقديرهما وما في خلقهما من الحكمة . ﴿ **واختلاف الليل والنهار** ﴾ أي : تعاقبهما ، وتقارضهما الطول والقصر ، فتارة يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يعتدلان ، ثم يأخذ هذا من هذا ، فيطول الذي كان قصيراً ، ويقصر الذي كان طويلًا . ﴿ **لآيات** ﴾ أي : لأدلة واضحة على صانع حكيم قادر حي ﴿ **لأولي الألباب** ﴾ أي : لأصحاب العقول التامة الزكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها . وفي كتابنا « الله جل

جلاله » شرحنا كيف أن ظواهر هذا الكون تدل أصحاب العقول - بما لايقبل شكاً - على الله ، وذلك أن كل قوانين العقل والعلم تشهد على أن لهذا الكون بداية ، فهو حادث ، وحدوثه يدل على مُحدِثه ، ومحدثه أزَليٌّ قديم ، وإلا لاحتاج إلى محدث آخر ، إلى ما لا يتناهى ، وحسن صُنعه يدل على علمه ، وإتقانه يدل على حكمته .. ثم وصف الله أولي الألباب أي : الذين خلصت عقولهم عن الهوى خلوص اللب عن القشر ، فقال : ﴿ **الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض** ﴾ أي : الذين اجتمع لهم دوام الذكر ، وعبادة الفكر في ملكوت السمٰوات والأرض . وفسر الذكر في الآية بالصلاة ، كما ثبت في الصحيحين عن عمران ابن حصين ، أن رسول الله ﷺ قال :

« صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنبك » كما فسّر بالذكر الدائم في جميع الأحوال ، بالسرائر والضمائر والألسنة . والتفسير الأول : هو تفسير للذكر بالذكر المفروض ، والتفسير الثاني : هو تفسير للذكر بالذكر المسنون ، فقد وصفت عائشة حال رسول لله ﷺ فقالت : « كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه » والتفكير في خلق السمٰوات والأرض يدخل فيه التفكير في الظواهر الدالة على عظمة الخالق ، وقدرته ، وعلمه ، وحكمته ، واختياره ، ورحمته ، وكبرياء سلطانه ، بما يستجيش في النفس ، وعلى اللسان ما يأتي : ﴿ **ربنا ما خلقت هذا باطلًا** ﴾ . هذا الذي يستجيشه تفكيرهم أن يقولوا : ربنا ما خلقت هذا الخلق عبثاً بغير حكمة ، بل خلقته لحكمة عظيمة ، لتكون أدلة للمكلفين على معرفتك . خلقته بالحق لتجزي الذين أساؤوا بما عملوا ، وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى . ﴿ **سبحانك** ﴾ أي : تنزيهاً لك عن العبث وخلق الباطل . ﴿ **فقنا عذاب النار** ﴾ جزاء ما عرفناك ونزَّهناك ، أي : يا من خلق الخلقَ بالحق والعدل ، يا من هو مُنزَّه عن النقائص ، والعيب ، والعبث ، قنا من عذاب النار بحولك وقوتك ، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنّات النّعيم ، وتجيرنا به من عذابك الأليم . ﴿ **ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته** ﴾ أي : أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ﴿ **وما للظالمين من أنصار** ﴾ أي : يوم القيامة لامجير منك ، ولا محيد لهم عما أردت بهم ، ولا شفعاء لهم ولا أعوان . ﴿ **ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان** ﴾ أي : داعياً يدعو إلى الإيمان ، وهو الرسول ﷺ أو القرآن ﴿ **أن آمنوا بربكم فآمنا** ﴾ أي : يقول : آمنوا بربكم فآمنا ، أي : فاستجبنا له واتبعناه . ﴿ **ربنا فاغفر لنا ذنوبنا** ﴾ أي : استر كبائرنا ﴿ **وكفِّر عنا سيآتنا** ﴾ أي : وامح عنا خطايانا

من الصغائر . ﴿ **وتوفنا مع الأبرار** ﴾ أي : وألحقنا بالصالحين . والأبرار جمع بَرٍّ : وهو المتمسك بالكتاب والسنّة . فصار معنى الآية : ربنا بإيماننا ، واتباعنا نبيك ، اغفر الذنب كله ، واجعلنا من المعدودين في جملة الأبرار ، بأن تختم لنا كما ختمت لهم .

﴿ **ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك** ﴾ أي : على ألسنة رسلك ، والموعود هو الثواب أو النصر على الأعداء ، أو كلاهما . وإنما طلبوا إنجاز ماوعد الله ، والله لايخلف الميعاد ، لأن معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد ، أو المراد اجعلنا ممن لهم الوعد ، إذ الوعد غير مبيَّن لمن هو ، أو المراد ثبِّتنا على مايوصلنا إلى عِدَتِك ، أو المراد إظهار العبودية والافتقار ، والضراعة والخضوع . ﴿ **ولا تخزنا يوم القيامة** ﴾ أي : لا تذلنا يوم القيامة على رؤوس الخلائق . ﴿ **إنك لاتخلف الميعاد** ﴾ أي : لابد من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك ، وهو القيام يوم القيامة بين يديك . ﴿ **فاستجاب لهم ربهم** ﴾ أي : إن المؤمنين ذوي الألباب لما سألوا ماسألوا مما تقدم ذكره ، استجاب لهم . ثم فسر هذه الإجابة والاستجابة فقال : ﴿ **أني لا أُضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى** ﴾ والمعنى : أنّه لايضيع عمل عامل لديه ، ذكراً كان أو أنثى ، بل يوفي كل عامل عمله بالقسط . ﴿ **بعضكم من بعض** ﴾ أي : الذكر من الأنثى ، والأنثى من الذكر . والجميع في ثوابي سواء ، أو بعضكم من بعض في النّصرة والدين . وإذا كان الأمر كذلك ، فعمل العامل ذكراً كان أو أنثى واصل جزاؤه لصاحبه . وهذه الجملة معترضة بُيّنت بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله به عبادة العاملين ، ثم فصَّل عمل العامل منهم على سبيل التعظيم لهذا النوع من العمل . ﴿ **فالذين هاجروا** ﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام ، ومن دار البدعة إلى دار السنّة ، ومن دار الجور إلى دار العدل ، مفارقين الأحباب ، والخلان ، والإخوان ، والجيران ، والأوطان ، فارّين إلى الله بدينهم ، إلى حيث يأمنون هم وذرياتهم عليه . قال النسفي : والهجرة كائنة في آخر الزمان كما كانت في أول الإسلام ﴿ **وأخرجوا من ديارهم** ﴾ التي ولدوا فيها ونشأوا ، أي ضايقهم أعداء الله بالأذى حتى ألجؤوهم إلى الخروج من بين أظهرهم ﴿ **وأوذوا في سبيلي** ﴾ أي : وأوذوا بالشتم والضرب ، ونهب المال في سبيل دين الله . ﴿ **وقاتلوا وقُتلوا** ﴾ أي : وجاهدوا أعداء الله بأيديهم واستشهدوا ﴿ **لأكفرنّ عنهم سيآتهم** ﴾ أي : هؤلاء الذين عملوا هذه الأعمال السنية الفائقة لأغفرن لهم ذنوبهم ﴿ **ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ أي : تجري في خلالها الأنهار من أنواع المشارب من لبن ، وعسل ، وخمر ، وماء غير آسن ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر

على قلب بشر ، ﴿ **ثوابا من عند الله** ﴾ أي : إثابة من عند الله يختص به ، ولا يقدر عليه غيره ، ﴿ **والله عنده حسن الثواب** ﴾ أي : عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً .

بينت هذه الآيات مَنْ هم أولوا الألباب على الحقيقة ، وما هو جزاؤهم . والصلة بين هذه الآيات وما قبلها واضحة ، من حيث إن هؤلاء هم الذين يعطون كتاب الله حقّه على عكس أولئك .

وبهذا انتهت الفقرة الأولى من هذا المقطع فلنر فقرة أخرى :

﴿ **لايغرنّك تقلُّب الذين كفروا في البلاد** ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ تثبيتاً له - إذ هو غير مغتر - وهو خطاب لكل فرد في أمته ، أي : لا يغرنك ماهم فيه من النعمة ، والغبطة ، والسرور ، والمتعة ، واللذة ، والسلطان ، فيحرفك عن الحق الذي أنزله الله إليك ، وما أكثر من يغتر بسلطان الكافرين ، وعزتهم ، وسيطرتهم على كثير من بلاد العالم ، فيحرفه ذلك عن الحق . ﴿ **متاع قليل** ﴾ أي : تقلبهم في البلاد متاع قليل ، قليل في جنب مافاتهم من نعيم الآخرة ، أو في جنب ما أعد الله للمؤمنين من الثواب ، قليل في نفسه لانقضائه ، وكل زائل قليل . ﴿ **ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد** ﴾ أي : وساءت جهنم مهاداً مهّدوه لأنفسهم . ثم بيّن أن المتاع الحقيقي لأهل التقوى فقال : ﴿ **لكن الذين اتقوا ربهم** ﴾ أي : لابقاء لتمتع الكافرين ، لكن ذلك للذين اتّقوا ، ثم بيّن هذا المتاع الحقيقي لأهل التقوى فقال . ﴿ **لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ وهذا هو المتاع الحقيقي الذي لا انقضاء له ، وفي هذا دعوة للمؤمنين لكي يثبتوا على التقوى في كل الظروف ، ولو كانت الغلبة ، والعز ، والجاه ، والسلطان لأهل الكفر . ثم بيّن أن ماأعطاه للمتقين من المتاع الحقيقي إنما هو رزق ، وعطاء ، وضيافة من عنده فقال : ﴿ **نُزلًا من عند الله** ﴾ أي : ضيافة ، ﴿ **وما عند الله خير للأبرار** ﴾ أي : وما عند الله من الخير الكثير الدائم ، خير للأبرار ، مما يتقلب فيه الفجار من القليل الزائل . فليثبت أهل البر على برهم ، وليثبت أهل الإيمان والتقوى والحق على كتاب الله وشرعه .

ثم ذكر صنفاً من أهل الكتاب هم غير مَنْ مرَّ من الكاتمين والكافرين :

﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم** ﴾ أي : من القرآن ﴿ **وما**

أنزل إليهم ﴾ من التوراة ، والإنجيل ، والزبور ﴿ **خاشعين لله** ﴾ أي : مطيعين خاضعين متذللين ﴿ **لايشترون بآيات الله ثمناً قليلاً** ﴾ أي : لايكتمون ما يعلمون من مثل صفة محمد ﷺ في كتبهم ، والتبشير ببعثته ، ورسالته ، كما يفعل من منعه الكبر من الأحبار ، والرهبان ، والمتكبرين ، وهؤلاء الذين وصفهم الله هم خيرة أهل الكتاب ، وصفوَتهم ، إذ جمع الله لهم الإيمان التفصيلي بما أنزل ، ولذلك وعدهم هنا فقال : ﴿ **أولئك لهم أجرهم عند ربهم** ﴾ أي : أولئك لهم الأجر المختص بهم عند ربهم وهو ماوعدهم الله به في قوله : ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين** ﴾ (سورة القصص) ﴿ **إن الله سريع الحساب** ﴾ حسابه سريع لنفوذ علمه في كل شيء . ثم ختم السورة بهذه الآية الجامعة : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ أي : اصبروا على الدين وتكاليفه ، وصابروا أعداء الله في الجهاد ، أي : غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب ، ولا تكونوا أقل صبرا منهم ﴿ **ورابطوا** ﴾ أي : أقيموا في الثغور مترصدين لقتال أعداء الله ، أو رابطوا في المساجد مستعدين لحرب الشيطان ﴿ **واتقوا الله** ﴾ فيما أمر ونهى . ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ بوراثة الجنة ، ونيل رضوان الله . والفلاح : البقاء مع المحبوب بعد الخلاص عن المكروه ، وإنما قال : ﴿ **لعلكم** ﴾ لئلا يتكلوا على الآمال عن تقديم الأعمال .　ولْنُعد ذكر التشابه بين قوله تعالى في مقدمة سورة البقرة : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ وبين قوله تعالى هنا في آخر آل عمران : ﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب * . ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾

ولنلاحظ ذكر الإيمان بما أنزل علينا ، وما أنزل من قبل ، وذكر الفلاح لندرك ماكررناه من أن سورة آل عمران تفصيل لمحورها من سورة البقرة ، وهي مقدمتها وماله علاقة مباشرة بهذه المقدمة من بقية سورة البقرة ، ولكن على نسق جديد .

وإذ انتهينا من هذا المقطع نحب أن نذكر أن فيه تصحيحاً لمفاهيم ، فهو من هذه الناحية استمرار لما قبله ، ولأنّه ختام القسم الثاني كله ، وختام السورة فقد أدّى أكثر من هدف .

فــوائــد :

١ - روى ابن مردويه « أن ثابت بن قيس الأنصاري قال : يارسول الله ، والله لقد خشيت أن أكون هلكت ! قال : لم ؟ قال : نهى الله المرء أن يحب أن يحمد بما لم يفعل ، وأجدني أحب الحمد ، ونهى الله عن الخيلاء ، وأجدني أحب الجمال ، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك ، وأنا امرؤ جهير الصوت ، فقال رسول الله ﷺ : « أما ترضى أن تعيش حميداً ، وتقتل شهيداً وتدخل الجنة . فقال : بلى يا رسول الله ، فعاش حميداً ، وقتل شهيداً يوم مسيلمة الكذاب » . دل هذا على أنه ليس كل محبة للحمد تدخل في الآية: ﴿ **لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ...** ﴾

٢ - روى عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان في صحيحه عن عطاء قال :

« دخلت أنا ، وعبد الله بن عمر ، وعبيد بن عمير على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهي في خدرها ، فسلمنا عليها فقالت : من هؤلاء ؟ . قال : فقلنا : هذا عبد الله ابن عمر، وعبيد بن عمير ، قالت : ياعبيد بن عمير مايمنعك من زيارتنا؟ قال : ما قال الأول : زُرغِبّاً تزدد حباً ، قالت : إنا لنحب زيارتك وغشيانك ، قال عبد الله بن عمر : ... أخبرينا بأعجب مارأيت من رسول الله ﷺ . قال : فبكت ، ثم قالت : كل أمره كان عجباً ، أتاني في ليلتي حتى دخل معي في فراشي ، حتى لصق جلده بجلدي ثم قال : ياعائشة : ائذني لي أتعبّد لربي ، قالت : إني لأحب قربك ، وأحب هواك ، قالت : فقام إلى قربة في البيت ، فما أكثر صب الماء ، ثم قام فقرأ القرآن ، ثم بكى حتى رأيت أن دموعه قد بلغت حقويه . قالت : ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم بكى حتى رأيت دموعه قد بلغت حجره . قالت : ثمّ اتكأ على جنبه الأيمن ، ووضع يده تحت خده ، قالت : ثم بكى حتى رأيت دموعه قد بلغت الأرض ، فدخل عليه بلال فآذنه بصلاة الفجر ، ثم قال : الصلاة يارسول الله ، فلما رآه بلال يبكي قال : يارسول الله : تبكي وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : يابلال : أفلا أكون عبداً شكوراً !! ، ومالي لا أبكي وقد نزل علي الليلة ﴿ **إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل ...**﴾ إلى قوله سبحانك ﴿ **فقنا عذاب النار** ﴾ ثم قال : ويل لمن قرأ هذه الآيات ثم لم يتفكر فيها » .

٣ - **وروى ابن مردويه** عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة بعد مامضى ليل فنظر إلى السماء وتلا هذه الآية ﴿ **إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار** ... ﴾ إلى آخر السورة (أي سورة آل عمران) ثم قال : « اللهم اجعل فى قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن شمالي نوراً ، ومن بين يدي نوراً ، ومن خلفي نوراً ، ومن تحتي نوراً ، وأعظم لي نوراً يوم القيامة » قال ابن كثير : وهذا الدعاء ثابت في بعض طرق الصحيح .

٤ - **قالت أم سلمة** يارسول الله : لانسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشيء فأنزل الله تعالى : ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى** .. ﴾ رواه سعيد بن منصور وغيره .

٥ - ثبت في الصحيحين أن رجلًا قال يارسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابراً محتسباً ، مقبلًا غير مدبر ، أيكفّر الله عني خطاياي ؟ قال: نعم ثم قال : كيف قلت :؟ فأعاد عليه ماقال ، فقال نعم إلا الذي قاله لي جبريل آنفاً أي الدّيْن .

٦ - كان شداد بن أوس يقول : « أيها الناس لاتتهموا الله في قضائه فإنه لايبغي على مؤمن ، فإذا أنزل بأحدكم شيئاً مما يحب فليحمد الله ، وإذا أنزل به شيئاً ممايكره فليصبر وليحتسب فإن الله عنده حسن الثواب » .

٧ - **قال عبد الله بن عمر** « إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء ، كما أن لوالديك عليك حقاً ، كذلك لولدك عليك حق .

٨ - **قال أبو الدرداء** : مامن مؤمن إلا والموت خير له ، ومامن كافر إلا والموت خير له ، ومن لم يصدقني فإن الله يقول : ﴿ **وما عند الله خير للأبرار** ﴾ ويقول : ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم ، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين** ﴾ .

٩ - ثبت في الصحيحين عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ، فذكر منهم رجلًا من أهل الكتاب ، آمن بنبيه وآمن بي » .

١٠ - قال الحسن البصري في تفسير قوله تعالى : ﴿ **اصبروا وصابروا** ﴾ أمروا أن يصبروا على دينهم الذى ارتضاه الله لهم ، وهو الإسلام ، فلا يَدَعوه لسراء ولا لضراء ، ولا لرخاء ، حتى يموتوا مسلمين ، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم .

وأما المرابطة : فهي المداومة في مكان العبادة ، لأنها رباط ضد الشيطان ، وكذلك المرابطة على الثغور حماية لأهل الإسلام ضد أعداء الله . والمسلم إما أن يكون في مثل هذا ، أو في مثلَ هذا . في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ « ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ، إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخُطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » رواه مسلم .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري قال عليه السلام « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وماعليها » . وروى مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله ، وأجري عليه رزقه ، وأمن الفتّان » والمرابطة ههنا ، مرابطة الغزو في نحور العدو ، وحفظ ثغور الإسلام ، وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين ، وقد وردت فيه آثار كثيرة غير مامر ومن ذلك مأأخرجه ابن ماجه عن رسول الله ﷺ قال : « من مات مرابطاً في سبيل الله أجري عليه عمله الصالح الذي كان يعمله ، وأجري عليه رزقه ، وأمن الفتّان ، وبعثه الله يوم القيامة آمناً من الفزع الأكبر » .

ومن ذلك مارواه الترمذي عن عثمان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل » وفي رواية ابن ماجه « من رابط ليلة في سبيل الله ، كانت كألف ليلة قيامها وصيامها » وقال عليه السلام لرجل حرسهم ليلة حنين ، « هل نزلت الليلة ؟ قال : لا إلا مصلياً أو قاضي حاجة ، فقال له : أوجبت فلا عليك أن لاتعمل بعدها » رواه النسائي وروى الترمذي عن رسول الله ﷺ بإسناد حسن غريب : « عينان لاتمسهما النار عين بكت من خشية

الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله » وروى البخاري في صحيحه قال : قال رسول الله ﷺ : « تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم وعبد الخميصة ، إن أعطي رضي ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة ، كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة ،كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يُشفَّع » .

كلمة في القسم الخامس

التربية من خلال التنبيه على الخطأ سِمة من سِمات القرآن ، ومن سِمات التربية النبوية ، فليس هناك خطأ يسكت عنه ، ولكن لإصلاح الخطأ أسلوبه ، فخطأ الجماعة ، وخطأ الأفراد ، كل ذلك كان يُعالج بالأساليب المناسبة . ولقد كان جيل الصحابة ، أعظم جيل رباني عرفه هذا العالم ، إذ لم يكن الخطأ الجماعي يتكرر مرتين ، ومن ثَم نجد في القرآن دروس الحياة اليومية ، فقد سجل القرآن كثيراً من وقائع الأحداث في حياة رسول الله ﷺ وأصحابه ، والحادثة التي تسجل تؤخذ دروسها ضمن سياق السورة ومضمونها ، وضمن السياق القرآني العام . نقول هذا بمناسبة الكلام عن غزوة بدر ، أو غزوة أحد ، أو غزوة حمراء الأسد التي تعرضت لها سورة آل عمران . لقد تعرضت السورة لصور من هذه الغزوات ، وأعطت دروسها ، ولكن ضمن السياق الخاص لسورة آل عمران ، والسياق القرآني العام .

فمثلًا بدأ القسم الخامس بثلاث آيات فيها وعود من الله – عز وجل : ﴿ **بل الله مولاكم وهو خير الناصرين** ﴾ ﴿ **سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب** ﴾ وفي هذا السياق تأتي صور من أحد : ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم ...** ﴾ .

فالآيات تأتي توكيداً لصدق موعود الله ، ولكنها تبيّن من خلال سياقها أن هذه الوعود مشروطة بشروط نفهمها من خلال السياق ، وذلك من رحمة الله – عز وجل – إذ أعطى الوعد صريحاً ، وعرَّفنا على الشروط ضمناً ، فلنضع في حسابنا هذه النقطة ونحن نحاول فهم السياق .

ونلاحظ بشكل عام أن القسم الخامس بدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين** ﴾ . وانتهى بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ بدأ

بتبيان ما فيه الخسارة ، وانتهى بتبيان مافيه الفلاح ، ودلنا فيما بين ذلك على مايوضح قضية الخسران ، وعلى مابه يتوصل إلى الفلاح . وقضية الفلاح والخسارة ، واضحتان في مقدمة سورة البقرة ، فالصلة بين القسم ومقدمة سورة البقرة واضحة .

مما حدث يوم أحد أن تكشّفت نقاط الضعف عند المؤمنين ، وخفابا ما في قلوب المنافقين ، سواء في ذلك ماحدث قبل المعركة أو بعدها ، ومن خلال الواقع هذا المحسّ حرَّر الله - عز وجل - المسلمين من أخلاق الكافرين والمنافقين ، ورفعهم إلى ماينبغي لهم من كمالات إيمانية ، مذكِّراً لهم بالنِّعم ، مذكّرا لهم بالرعاية ، مذكِّراً لهم بسننه ، كاشفاً لهم عن خفايا قلوب الكافرين والمنافقين ، من خلال مايلمسونه ، منبهاً لهم على ماسيواجهونه ، معلِّماً إياهم كيف يتعاملون مع آياته ، ومايفعلون للوصول إلى جناته ، محتقرين ماعليه الكافرون ، عارفين لأهل الفضل فضلَهم ، وكل ذلك في سياق النهي عن طاعة الكافرين ، ووجوب الصبر ، والمصابرة ، والمرابطة ، والتقوى ، أي : في بداية المقطع وخاتمته . وصلة ذلك كله بمحور سورة آل عمران من البقرة لاتخفى ، فمقدمة سورة البقرة وصفت المتقين والكافرين والمنافقين ، وههنا يأتي مزيد تفصيل وبيان من خلال الواقع والحدث ، تعمّق قضية المفاصلة بين المسلمين والكافرين والمنافقين ، وتميّز الصف الإسلامي .

كلمة أخيرة في سورة آل عمران :

مر معنا الحديث « اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما يوم القيامة » . وعرفنا عن سورة البقرة ، وسنعرف عنها ماندرك به مصداق قوله عليه الصلاة والسلام فيها « إن كادت لتستحصي الدين كله » .

فكل المعاني القرآنية تنبثق عن معان أُجملت فيها ، وسورة آل عمران تفصل في الأصل الذي تتفرع عنه الأشياء . فإذا كانت مقدمة سورة البقرة فصلت في التقوى والكفر والنفاق ، فإن سورة آل عمران فصلت في مقدمة سورة البقرة . ومعرفة قضية الكفر والنفاق والتقوى هي التي عنها تتفرع كل الأمور الأخرى . ومقدمة الشيء تشير إلى مضمونه ، ومن ثم فإن المعاني التي جاءت في سورة البقرة كلها مرتبطة بالمقدمة بشكل ما ، فمثلًا جاءت آيات الإنفاق فى أواخر السورة وهي تفصيل لقوله تعالى في المقدمة : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ . وجاء قوله تعالى : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه**

من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ في خاتمة السورة ، وهي تفصيل لقوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ في المقدمة . وجاء حوار طويل مع أهل الكتاب ، وذلك مرتبط بقوله تعالى في مقدمة البقرة . ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ . ولقد جاءت سورة آل عمران تفصِّل في مقدمة سورة البقرة ، وامتدادات معانيها الأكثر لصوقاً بمضمونها المباشر . فكان محلها بالنسبة لسورة البقرة أنها وإياها الزهراوان المضيئتان للإنسان الطريق ، فمن لم يعرف سورة البقرة وآل عمران فإنه يفوته علم كثير ، وفهم غزير .

– لقد اقتضى السياق الخاص لسورة البقرة أن يكون ترتيب معانيها على ماهو عليه ، ولكن المقدمة تحتاج معانيها إلى بيان ، وتفصيل خاص ، ومن ثم جاءت سورة آل عمران لتشد المعاني المبثوثة في سورة البقرة ، مما يحتاجه تفصيل مقدمتها إلى معاني المقدمة وتكون سورة آل عمران هي التفصيل والعرض لذلك كله .

– اقتضت حكمة الله أن يجعل الكلام عن حياة الله وقيوميته بين آيات الإنفاق في سورة البقرة . وجاء الكلام عن الاهتداء بالقرآن لحكمة في مقدمة سورة البقرة . وجاءت سورة آل عمران لتبين أن مقتضى اتصاف الله – عز وجل – بالقيومية ، أن ينزل الكتاب . وهكذا فصلت المعاني المرتبطة بمقدمة سورة البقرة ، وربطت ببعضها ، وأعطيت مداها في سورة آل عمران ضمن سياق خاص فمثلًا :

– قرر النسخ في سورة البقرة ولم يأتنا مثال عليه ، وجاء عليه مثال في سورة آل عمران .

– بعد أن ذكر الله عز وجل آياته في الكون ﴿ **إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر** ...﴾ في سورة البقرة قال ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ وفي سورة آل عمران جاء التفصيل فيمن هم أصحاب العقول :

﴿ **إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم** ...﴾ .

– وفي الكلام عن بني إسرائيل في سورة البقرة عرفنا أن أهل الكتاب نسبوا لله

الولد ، وجاءت سورة آل عمران لتحدثنا عن تفصيلات قصة عيسى عليه السلام ، وهكذا قل في أمور كثيرة رأيناها أثناء عرض السورة .

– في قضية الاهتداء بالكتاب فصَّلت سورة آل عمران ، فعرفنا أن الاهتداء الكامل بالكتاب هو لأولي الألباب ، وعرفنا من هم أولوا الألباب في السورة ، وعرفنا أن الاهتداء بالكتاب يدخل فيه التسليم للمتشابه ، والعمل بالمحكم .

وفي قضية الإيمان بالغيب عرفنا أن كل ما أخبرنا الله – عز وجل – عنه من أمور الماضين يدخل في الإيمان بالغيب .

وفي قضية الإيمان بالكتاب كله ، هذا الكتاب الذي أنزل علينا ، والكتاب الذي أنزل من قبل عرفنا تفصيل ذلك : ﴿ **قل آمنا بالله وما أنزل علينا** ﴾ .

وفي قضية الإيمان بالآخرة زادنا الله تفصيلًا في سورة آل عمران ، وفي موضوع الكفر والكافرين ، والنفاق والمنافقين زادتنا سورة آل عمران تفصيلًا .

وفي أن هذا كله دين الله ، وأن دين الله هو الإسلام ، وأن الله لايقبل غيره ، فصّلت السورة . وفي طبيعة العلاقة التي ينبغي أن تكون بين المسلمين وغيرهم ، فصّلت السورة ، وفيما تتحقق به التقوى ، ويتم به الفلاح فصّلت السورة ، وكل ذلك له صلة بمقدمة سورة البقرة . ولئن فصّلت سورة آل عمران في مقدمة سورة البقرة ، وامتدادات معانيها ، فإن سورة النساء ستفصل في الآيات الأولى من المقطع الأول الذي يأتي بعد مقدمة سورة البقرة .

وكما أنه بعد مقدمة سورة البقرة يأتي نداء لكل الناس .

﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ .

فإن سورة النساء تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالًا كثيراً ونساء ..** ﴾ .

فلننتقل إلى سورة النساء .

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَهِيَ السُّورَةُ الرَّابِعَةُ بِحَسَبِ الرَّسْمِ القرآني
وَهِيَ السُّورَةُ الثَّالِثَةُ قسم الطِّوَالِ
وَآيَاتُهَا مائة وَسِتٌّ وَسَبْعُون
وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

كلمة في سورة النساء :

يقول صاحب الظلال : «هذه السورة مدنية ، وهي أطول سور القرآن . بعد سورة البقرة ، وترتيبها في النزول بعد الممتحنة ، التي تقول الروايات : إن بعضها نزل في غزوة الفتح في السَّنة الثامنة للهجرة ، وبعضها نزل في غزوة الحديبية قبلها في السنة السادسة .

ولكن الأمر في ترتيب السور حسب النزول - كما بينا في مطالع الكلام على سورة البقرة في الجزء الأول - ليس قطعياً . كما أن السورة لم تكن تنزل كلها دفعة واحدة في زمن واحد . فقد كانت الآيات تتنزل من سور متعددة ؛ ثم يأمر النبي ﷺ ، بوضع كل منها في موضعه من سورة بذاتها . والسورة الواحدة - على هذا - كانت تظل « مفتوحة » فترة من الزمان تطول أو تقصر . وقد تمتد عدة سنوات . وفي سورة البقرة كانت هناك آيات من أوائل ما نزل في المدينة ، وآيات من أواخر ما نزل من القرآن .

وكذلك الشأن في هذه السورة . فمنها ما نزل بعد سورة الممتحنة في السنة السادسة وفي السنة الثامنة كذلك . ولكن منها الكثير نزل في أوائل العهد بالهجرة . والمنتظر - على كل حال - أن يكون نزول آيات هذه السورة قد امتد من بعد غزوة أحد في السنة الثالثة الهجرية ، إلى ما بعد السنة الثامنة ، حين نزلت مقدمة سورة الممتحنة .

ونذكر على سبيل المثال الآية الواردة في هذه السورة عن حكم الزانيات :

﴿ **واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ؛ فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً** ﴾ .. فمن المقطوع به أن هذه الآية نزلت قبل آية سورة النور التي بينت حد الزنا : ﴿ **الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** ﴾ .. وهذه الآية الأخيرة نزلت بعد حديث الإفك في السنة الخامسة (أو في السنة الرابعة على رواية) فقد قال رسول الله ﷺ حين نزلت : « خذوا عني . خذوا عني . قد جعل الله لهن سبيلاً .. » إلخ وكان السبيل هو هذا الحكم الذي تضمنته آية النور .

وفي السورة نماذج كثيرة كهذا النموذج ، تدل على تواريخ نزولها على وجه التقريب .

وعلى النحو الذي بيناه في مطالع الكلام عن سورة البقرة » ا هـ .

ويقول الألوسي عن وجه مناسبة مجيء سورة النساء بعد آل عمران :

(ووجه مناسبتها لآل عمران أمور ، منها أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى ، وافتتحت هذه السورة به ، وذلك من آكد وجوه المناسبات في ترتيب السور ، وهو نوع من أنواع البديع يسمى في الشعر تشابه الأطراف وقوم يسمونه بالتسبيغ ، وذلك كقول ليلى الأخيلية :

إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هز القناة رواها
رواها فأرواها بشرب سجالها دماء رجال حيث نال حشاها

ومنها أن في آل عمران ذكر قصة أحد مستوفاة ، وفي هذه السورة ذكر ذيلها ، وهو قوله تعالى : ﴿ **فما لكم في المنافقين فئتين** ﴾ فإنه نزل فيما يتعلق بتلك الغزوة على ما ستسمعه - إن شاء الله تعالى - مروياً عن البخاري ، ومسلم ، وغيرهما . ومنها أن في آل عمران ذكر الغزوة التي بعد أحد كما أشرنا إليه في قوله تعالى : ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول** ﴾ الخ .. وأشير إليها ههنا بقوله سبحانه : ﴿ **ولا تهنوا في ابتغاء القوم** ﴾ الآية . وبهذين الوجهين يعرف أن تأخير النساء عن آل عمران أنسب من تقديمها كما في مصحف ابن مسعود لأن المذكور هنا ذيل لما ذكر هناك وتابع فكان الأنسب في التأخير ، ومن أمعن نظره وجد كثيراً مما ذكر في هذه السورة مفصلاً لما ذكر فيما قبلها فحينئذ يظهر مزيد الارتباط وغاية الاحتباك) ا هـ .

أقول : ما قاله الألوسي عن صلة آل عمران بسورة النساء نموذج لأقوال المفسرين حول الصِلات بين السور ، من محاولة ربط بين نهاية السور السابقة وبداية السور اللاحقة أو محاولة بحث عن وحدة موضوعية بين مواضيع السور عامة ، والشيء الذي نحاول التدليل عليه في هذا التفسير هو أن الصلة بين السور تنتظمها قواعد أخرى وفيها أسرار أدق ، وسيتضح هذا من خلال هذا التفسير ، وقد لا ينتهي القارىء من قراءة ما ذكرناه حول السبع الطوال إلا ويتيقن ذلك وسيزداد يقيناً كلما سار في هذا التفسير إن شاء الله .

لقد رأينا أن الآيات الأولى في سورة البقرة بدأت بـ ﴿ **الٓمٓ** ﴾ وانتهت بقوله تعالى ﴿ **وأولئك**

هم المفلحون ﴾ وأن سورة آل عمران بدأت بقوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ** ﴾ وانتهت بقوله تعالى : ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾

ونلاحظ أنه بعد مقدمة سورة البقرة جاء المقطع الأول من القسم الأول فيها ، وقد بدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس ..** ﴾ وانتهى بقوله تعالى : ﴿ **وهو بكل شيء عليم** ﴾ . ونلاحظ أن سورة النساء بدأت بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس ..** ﴾ وانتهت بقوله تعالى : ﴿ **والله بكل شيء عليم** ﴾ .

وسنرى أنه كما أن سورة آل عمران فصّلت في الآيات الأولى من سورة البقرة وما يتبعها من مقدمة سورة البقرة وما هو الألصق بمقدمة سورة البقرة ، فإن سورة النساء تفصّل في الآيات الأولى من المقطع الذي جاء بعد مقدمة سورة البقرة وتفصّل في امتدادات هذا المحور من سورة البقرة .

إنه بعد مقدمة سورة البقرة ، يأتي المقطع الأول ، من القسم الأول من سورة البقرة ، وقد أسميناه : مقطع الطريقين . وسنرى أنه ستفصل فيه سورة النساء ، وسورة المائدة ، وسورة الأنعام ، وستأتي سورة الأعراف لتفصل بعد ذلك في مقطع قصة آدم عليه السلام من سورة البقرة ، وهذا شيء سنراه إن شاء الله تعالى .

وسنجد – بإذن الله – أن سورتي المائدة والأنعام تفصلان في الآيات الأربع الأخيرة من مقطع الطريقين . فالمائدة تفصل في الآيتين الأوليين منها ، والأنعام تفصل في الآيتين الأخيرتين منها .

أما سورة النساء فهي تفصل فيما قبل ذلك من المقطع ، مع أنها تضع الأساس لتفصيل السورتين بعدها ، فهي تفصّل في محور رئيسي له ارتباطاته المباشرة بآيات وله امتداداته في سورة البقرة ، إن محورها الرئيسي من مقطع الطريقين هو :

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون * وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعو شهدائكم من دون الله

إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافرين * وبشِّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رُزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ .

إن سورة النساء تفصّل في هذا المحور كما سنرى إن شاء الله . فهي توضح ما يدخل في التقوى ، وتوضح الطريق إليها ، وتوضح قضية الإيمان والعمل الصالح ، وتوضّح قضية الموقف من القرآن ، ومن الرسول ﷺ .

ولذلك فإنّها مبدوءة بقوله تعالى :

﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم** ﴾ .

ونجد في أحد مقاطعها : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ . ونجد في أحد مقاطعها ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله** ﴾ . إنها تفصّل في هذا المحور . ولكنه تفصيل على غير ما اعتاده البشر ، وما ألفوه ، إنه تفصيل معجز وهي كما تفصّل في هذا المحور ، تفصّل في امتدادات معانيه في سورة البقرة ، وتفصّل في ارتباطاته . فالوصية المفروضة على المتقين في سورة البقرة ، تأتي ههنا تفصيلاتها . والقتال المفروض على المتقين في سورة البقرة تأتي ههنا تفصيلات في شأنه . والسورة – وهي تفصِّل في محورها من البقرة ، وامتدادات معانيه – لها سياقها الخاص ، وروحها الخاصة .

وسورة النساء نزلت في المدينة كما ذكر العوفي عن ابن عباس . وهي إذ كانت تفصيلاً للطريق إلى التقوى ، وتوضيحاً لماهية التقوى ، وما يدخل فيها . فإنها تأتي بعد سورة آل عمران التي وضعت الأساس للتلقي . وهما جاءا بعد سورة البقرة التي وضعت الأساس للفهم والعمل ، تتألف السورة من ثلاثة عشر مقطعاً . لكل مقطع منها وحدته . ويربط بين المقطع السابق واللاحق روابط ، ويربط بين مقاطع السورة كلها روابط متعددة ، والسورة بمجموعها تشكل كلاً متكاملاً ، وهي بمجموعها تأخذ

مكانها بين السورة السابقة واللاحقة وتأخذ مكانها بين قسمها ضمن سياق قرآني عام كل آية فيه مشدودة إلى أصل جامع . ولا نحب أن نطيل كثيراً هنا لرغبتنا في التفصيل إذا جاء مقامه فلنبدأ عرض المقطع الأول :

المقطع الأول من سورة النساء

وهو من الآية (١) إلى نهاية الآية (١٨) حيث يجيء قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً** ﴾ . وهذا هو :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

☆ ☆ ☆

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

☆ ☆ ☆

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾



وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾

وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

كلمة في المقطع :

طالبَنَا المقطع بالتقوى . ثم طالبَنَا بما هو من مقتضياتها . ومن ذلك :

إعطاء اليتامى أموالهم ، وترك زواج اليتيمات إذا خُشي ظلمهن ، وأن الزواج مقيد في حدود الأربع في حالة العدل ، والواحدة إذا كان التعدد يؤدي إلى ظلم ، ووجوب إعطاء المرأة حقها ، وحكم مال اليتيم إذا بلغ غير رشيد ، ووجوب إعطائه ماله إذا بلغ رشيداً ، ومتى يحلّ للوصي أن يأكل من مال اليتيم ، وما حدود ذلك ؟ وأعطانا المقطع . قاعدة في قضية الإرث ، وحذَّرنا من الاعتداء على مال اليتيم ، ثم فصّل في موضوع الإرث ، وبيَّن مـا ينبغي فعله مع الزناة ، وما يجب عليهم أن يفعلوه . فالمقطع يفصَّل في ما يدخل في التقوى . ولذلك نلاحظ أنه بعد الأمر بالتقوى تأتي هذه الأوامر ، والنواهي ، والتفصيلات . فكأنّ مقتضى التقوى ذلك . وصلة ذلك بمحور السورة من البقرة لا تخفى . فالمحور يدعو إلى العبادة ، كطريق للتقوى . وهذا المقطع يفصل لنا ماذا يدخل في التقوى من أمور ينبغي أن تراعى .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ .

المعنى العام :

يقول تعالى آمراً خلقه بتقواه ، وهي أثر عبادته وحده ، لا شريك له ، ومنبهاً لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة ، وهي آدم عليه السلام . وخلق منها زوجها حواء عليها السلام . خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه ، وهو نائم . فاستيقظ ، فرآها ، فأعجبته ، فأنس إليها ، وأنست إليه وذرأ من آدم وحواء . رجالاً كثيراً

ونساء . ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم. وألوانهم ولغاتهم . ثم كرر الله - عز وجل - الأمر بتقواه وهو الذي يسأل الناس بعضهم بعضاً به وبأرحامهم ، أو أنه كرر الأمر بتقواه ليجمع معها الأمر باتقاء قطيعة الرحم . وختم الله الآية بتبيان أنه تعالى مراقب لجميع أحوالنا ، وأعمالنا .

المعنى الحرفي :

﴿**يا أيها الناس**﴾ . أي : يا بني آدم . ﴿ **اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة** ﴾ . أي : فرّعكم من أصل واحد . وهو نفس آدم أبيكم . ﴿ **وخلق منها زوجها** ﴾ . أي : حواء خلقها من ضلع من أضلاعه ، وأنشأ آدم من تراب ، وخلق منه زوجته ، ثم شعّب الناس منهما . ﴿ **وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء** ﴾ . أي : نشر من آدم وحواء رجالاً كثيراً ، ونساء كثيرات . ﴿ **واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام** ﴾ . أي : واتقوا الله الذي تتساءلون به ، وتتساءلون بأرحامكم . كقول القائل : أسألك بالله ، وبالرحم . ويمكن أن يفهم الأمر فهمًا آخر ، وهو : واتقوا الله ، واتقوا الأرحام . والمعنى : واتقوا الله الذي تتعاقدون به ، وتتعاهدون ، وتتساءلون به ، لطاعتكم إياه . واتقوا الأرحام أن تقطعوها . ولكن بروها ، وصلوها . ﴿ **إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾ . أي : إن الله مراقب لجميع أحوالكم ، وأعمالكم . وفي الرقيب معنى الحفظ والعلم . وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب .

فـــوائـــد :

١ - قال الألوسي عند قوله تعالى ﴿ **خلقكم من نفس واحدة** ﴾ .

« والمراد من النفس الواحدة آدم عليه السلام ، والذي عليه الجماعة من الفقهاء والمحدّثين ومن وافقهم أنه ليس سوى آدم واحد ، وهو أبو البشر . وذكر صاحب جامع الأخبار من الإمامية في الفصل الخامس عشر خبراً طويلاً نقل فيه أن الله تعالى خلق قبل أبينا آدم ثلاثين آدم ، بين كل آدم وآدم ألف سنة ، وأن الدنيا بقيت خراباً بعدهم خمسين ألف سنة ، ثم عمرت خمسين ألف سنة ، ثم خلق أبونا آدم عليه السلام ، وروى ابن بابويه في كتاب التوحيد عن الصادق في حديث طويل أيضاً أنه قال : لعلك ترى أن الله تعالى لم يخلق بشراً غيركم ! بلى ، والله لقد خلق ألف ألف آدم أنتم في آخر أولئك

الآدميين ، وقال الميثم في شرحه الكبير على النهج – ونقل عن محمد بن علي الباقر – أنه قال : قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر ، وذكر الشيخ الأكبر في فتوحاته ما يقتضي بظاهره أن قبل آدم بأربعين ألف سنة آدم غيره ، وفي كتاب الخصائص ما يكاد يفهم منه التعدد أيضاً الآن حيث روي فيه عن الصادق أنه قال : « إن لله تعالى اثني عشر ألف عالم، كل عالم منهم أكبر من سبع سمٰوات وسبع أرضين ، ما يرى عالم منهم أن لله – عز وجل – عالماً غيرهم ، وإني للحجة عليهم » ، وأما القول بظواهر هذه الأخبار فمما لا يراه أهل السنّة والجماعة ، نعم إن آدمنا هذا عليه السلام مسبوق بخلق آخرين ، كالملائكة ، والجن ، وكثير من الحيوانات ، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى ، لا بخلق أمثاله ، وهو حادث نوعاً وشخصاً ، خلافاً لبعض الفلاسفة في زعمهم قدم نوع الإنسان ، وذهب الكثيرون إلى أنه منذ كان إلى زمن البعثة ستة آلاف سنة ، وأن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة ، ورووا أخباراً كثيرة في ذلك ، والحق عندي أنه كان بعد أن لم يكن ، وأما أنه متى كان فمما لا يعلمه إلا الله تعالى ، والأخبار مضطربة في هذا الباب فلا يكاد يعوّل عليها » اهـ .

أقول : يحتاج هذا الكلام إلى كتاب كامل لمناقشته فليقرأه القارىء على حذر ، وإنما نقلته لسبب واحد هو : أنه قبل نظريات التطور الحديثة وجد في مقالات الإسلاميين ما يشير إلى أن جنسنا البشري الحالي مسبوق بمثله ، أو شبيهه ، مع الجزم بأننا من أبينا آدم ، ومع الجزم بأن آدم خلق خلقاً مباشراً ، ولم يوجد أثراً عن تطور ، ومع الجزم بأنه إن كانت هناك مخلوقات شبه الإنسان الحالي قبل آدمنا عليه السلام ، فإنها لا صلة لها بإنساننا الحالي من حيث التوالد أو الوجود ، ومع الجزم بأنه لا توجد نصوص صحيحة أو قطعية في هذا الموضوع ولذلك فنحن نسجلها لاحتمال أن يستفيد منها الباحثون عن المستحسنات لقوله تعالى ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾ (سورة العنكبوت)

٢ – في الحديث الصحيح : « إن المرأة خلقت من ضلع . وإنَّ أعوج شيء في الضلع أعلاه . فإن ذهبت تقيمه ، كسرته . وإن استمتعت بها ، استمتعت بها وفيها عوج » . في الحديث أمر بالرفق بالمرأة . وفيه دليل على كيفية خلق أمّنا حواء من أبينا آدم عليهما السلام . قال ابن عباس : (خلقت المرأة من الرجل . فجعلت نهمتها في الرجل . وخلق الرجل من الأرض فجعلت نهمته في الأرض . فاحبسوا نساءكم) .

رواه ابن أبي حاتم . وهذا الأثر عن ابن عباس يؤكّد أن هناك فهمًا وحيداً لآية ﴿ **وخلق منها زوجها** ﴾ هو الذي تدل عليه النصوص والآثار ، وقد رد الألوسي على بعض المتحذلقين في هذا المقام فقال :

« والقول بأنه: أي فائدة في خلقها من ضلع والله تعالى قادر على أن يخلقها من تراب ؟ يقال عليه : إن فائدة ذلك سوى الحكمة التي خفيت عنا إظهار أنه سبحانه قادر على أن يخلق حَيّاً من حي ، لا على سبيل التوالد – كما أنه قادر على أن يخلق حياً من جماد كذلك – ولو كانت القدرة على الخلق من التراب مانعة عن الخلق من غيره لعدم الفائدة ، لخَلَق الجميع من التراب بلا واسطة لأنه سبحانه – كما أنه قادر على خلق آدم من التراب – هو قادر على خلق سائر أفراد الإنسان منه أيضاً ، فما هو جوابكم عن خلق الناس بعضهم من بعض مع القدرة على خلقهم كخلق آدم عليه السلام فهو جوابنا عن خلق حواء من آدم مع القدرة على خلقها من تراب » ا هـ .

٣ – وبمناسبة ذكر الأرحام في قوله تعالى ﴿ **واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام** ﴾ يقول الألوسي :

وأخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح « إنَّ من أربى الربا الاستطالة بغير حق ، وإن هذه الرحم شجنة من الرحمن فمن قطعها حرّم الله تعالى عليه الجنة » .

والأخبار في هذا الباب كثيرة ، والمراد بالرحم : الأقارب، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب وإن بَعُد ، ويطلق على الأقارب من جهة النساء، وتخصيصه في باب الصلة بمن ينتهي إلى رحم الأم منقطع عن القبول إذ قد ورد الأمر بالإحسان إلى الأقارب مطلقاً .

كلمة في السياق :

قلنا إن محور سورة النساء من البقرة الآيات الخمس الأولى من مقطع الطريقين فلنلاحظ : أن الآية الأولى من المحور هي ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ . وأن الآية الأولى في سورة النساء بدأت بـ ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبَثّ منها رجالاً كثيراً ونساءً** ﴾ ألا ترى التشابه كاملاً بين البدايتين ، مع زيادة تفصيل في سورة النساء في حيثية من الحيثيات ، حتى الألفاظ تكاد تكون متشابهة ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ ،

﴿ خلقكم ﴾ ، ﴿ اتقوا ..... تتقون ﴾ ... وهكذا نرى أنه من الآية الأولى قد تحدد إلى حد كبير محور سورة النساء من سورة البقرة ، وهو موضوع سنتعرض له كثيراً .

بدأت السورة بالأمر بالتقوى ، والتذكير بأننا مخلوقون من نفس واحدة ابتداء ، سواء في ذلك رجالنا ونساؤنا ، ثم كررت الآية الأولى الأمر بتقوى الله ، وأمرت باتقاء الأرحام ، وذكّرت برقابة الله علينا ، وسنرى أنه بعد هذه الآية تأتي أوامر بإيتاء اليتامى أموالهم وإيتاء النساء مهورهن . ألا ترى أن الصلة واضحة بين الآية الأولى وما جاء بعدها مباشرة ، أليس التذكير بوحدة الأصل يثير العطف والرحمة والشفقة ، ويهيّج على أداء الحقوق ، أليس التذكير برقابة الله يبعث على الرحمة بالضعيف ، واليتيمُ والمرأةُ في العادة ضعيفان .

وهكذا تبدأ السورة سياقها الخاص مع تفصيلها لمحورها من سورة البقرة ، ومن خلال تفصيلها لمحورها نعرف من الآيات الأولى في سورة النساء أن مما يدخل في حقيقة التقوى : القيام بصلة الأرحام ، والقيام بحق اليتيم ، والحذر من ظلمه أو غبنه إذ لا تظهر تقوى الله ، كما تظهر في معاملة الضعيف بالعدل . حيث لا يخشى الإنسان بشراً ، ولنمض في تفسير المقطع الأول .

﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيّب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً * وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم ألا تَعْدلوا فواحدةً أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تَعُولوا * وآتوا النساء صَدُقَاتهن نِحْلة فإن طِبْن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ .

المعنى العام :

يأمر تعالى في هذه الآيات ، أن تُدفع أموال اليتامى إليهم - إذا بلغوا الحلُم - كاملة موفرة . ونهى أن يستبدل الإنسان الحلال بالحرام . كما نهى أن تؤكل أموال اليتامى بضمها ، وخلطها إلى أموال الأوصياء ثم أكلها . فإن هذا ذنب كبير ، يتنافى مع التقوى . ثم نهى عن حالة من حالات ظلم اليتامى . وهي حالة ما إذا كانت تحت حجر أحدنا يتيمة ، وخاف ألا يعطيها مهر مثلها في حالة تزوجها فإن الله - عز وجل - نهاه عن تزوجها في هذه الحالة . وندبه إلى العدول إلى ما سواها من النساء ، فإنهن

كثيرات . ولم يضيِّق الله عليه في ذلك . بل وسَّع عليه أن يتزوَّج حتى الأربع من النساء . وذلك من أجل أن لا يقع ظلم . ثم أمر أن تُعطى المرأةُ مهرها ، فريضة واجبة على الرجل . فإن طابت هي له - بعد تسميته - عنه ، أو عن شيء منه فليأكله حلالاً ، طيباً له .

وعلى هـذا فإننـا نفهم من السياق أن من قضايا التقوى الرئيسية ، عدم ظلم اليتامى ، وخاصة إذا كن نساءً . والاقتصار في الزواج على أربع ، وإعطاء المرأة مهرها ، وعدم الاعتداء عليه . فإعطاء الحق لليتيم والمرأة من أول مظاهر التقوى . ومن ثَمَّ صدّرت سورة النساء بهذا الموضوع .

المعنى الحرفي :

﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ . اليتم في اللغة : الانفراد . وفي الشريعة : من مات أبوه ، فانفرد عنه . وحق هذا الاسم أن يقع على الصغار والكبار . لبقاء معنى الانفراد عن الآباء . إلا أنه قد غلب أن يسمّوا به قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال . فإذا استغنوا بأنفسهم عن كافل وقائم عليهم زال هذا الاسم عنهم . قال ﷺ « لا يتم بعد الحلم » . يعني إذا احتلم لم تجر عليه أحكام الصغار . ومعنى النص : آتوا اليتامى أموالهم بعد البلوغ . وسمّاهم يتامى مع أنه لا يتم بعد حلم ، لقرب عهدهم بالصغر . وفيه إشارة إلى أنه لا يؤخر دفع أموالهم إليهم عن حدّ البلوغ ، إنْ أُنس منهم الرشد . وأن يؤتوها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصغار بحكم الاستمرار ، وذلك بمجرد البلوغ ﴿ ولا تتبدلوا الخبيث بالطيّب ﴾ . أي : ولا تستبدلوا الحرام - وهو مال اليتامى - بالحلال : وهو مالكم ، أو تستبدلوا الأمر الخبيث، وهو اختزال أموال اليتامى، بالأمر الطيب وهو حفظها والتورع عنها . وقال سفيان الثوري عن أبي صالح في تفسيرها : (لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذي قدِّر لك) . وقال السُّدّي : (كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ، ويجعل مكانها الشاة المهزولة . ويقول : شاة بشـاة . ويأخذ الدرهم الجيد ، ويطرح مكانه الزيف ويقول : درهم بدرهم) . ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ . أي : لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً ، أو تضموها إليها في الإنفاق حتى لا تفرقوا بين أموالكم وأموالهم ، قلة مبالاة بما لا يحل لكم وتسوية بينه وبين الحلال . ﴿ إنه كان حُوباً كبيراً ﴾ . أي : إن أكلها كان ذنباً عظيماً . فالحوب : هو الإثم . والمعنى : إنَّ أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم ، وخطأ كبير

فاجتنبوه . ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى** ﴾ . أي : وإنْ خفتم ألا تعدلوا في الإناث اليتامى ، لأنّ كلمة اليتامى جمعٌ ليتيم ويتيمة . والمراد بها هنا النساء . ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثْنى وثُلاث ورُباع** ﴾ . أي : فانكحوا ما حل لكم من النساء ثنتين ، أو ثلاثاً ، أو أربعاً . فصار معنى ما مر من الآية . أي : إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة ، وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها . فليعدل إلى ما سواها من النساء فإنهن كثيرات . ولم يضيّق الله عليه . فانكحوا ما شئتم من النساء سواهن ، إنْ شاء أحدكم ثنْتين ، وإن شاء ثلاثاً ، وإن شاء أربعاً . ﴿ **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدةً أو ما ملكت أيمانكم** ﴾ . أي : فإن خفتم ألا تعدلوا بين هذه الأعداد . أو إن خفتم تعداد النساء ألا تعدلوا بينهن فالزموا ، أو اختاروا أن تقتصروا على واحدة ، أو على الجواري . أي فليقتصر من خاف الجور على واحدة ، أو على الجواري السراري . فإنه لا يجب قَسْم بينهن ، بل يستحب . فمن فعل ، فحسن . ومن لا ، فلا حرج . وسوّى في اليسر بين الحرَّة الواحدة وبين الإماء من غير حصر . ﴿ **ذلك أدنى ألا تعولوا** ﴾ . أي : اختيار الواحدة أو التسري أقرب من ألا تميلوا ولا تجوروا ، يقال : عال الحاكم في حكمه ، إذا جار . ﴿ **وآتوا النساء صدقاتهن نِحْلة** ﴾ . الصدُقات : المهور . والنِحْلة : العطية . وفسَّرها كثيرون بالفريضة ، والواجب . والخطاب للأزواج . وقيل : للأولياء . لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم كما يفعل كثير من الأعراب في عصرنا من أخذ المهر ، أو بعضه .

والمعنى : أعطوا النساء مهورهن طيبة بذلك أنفسُكم . والأمر هنا للوجوب . ﴿ **فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً** ﴾ . فإن طاب الزوجات للأزواج عن شيء من الصداق . ﴿ **فكلوه هنيئاً مريئاً** ﴾ . أي : فكلوا ما وهبنه لكم أكلاً هنيئاً لا إثم فيه ، أو هنيئاً في الدنيا لا يطالبكم به أحد . مريئاً – أي سائغاً – لا تنغيص فيه ولا تبعة . والتعبير يفيد المبالغة في الإباحة ، وإزالة التبعة . والمعنى : فإن وهبن لكم شيئاً من الصدقات . وتجافت عنه نفوسهن طيبات ، لا بسبب منكم تضطروهن به إلى الهبة من شكاسة أخلاقكم ، وسوء معاشرتكم ، فعندئذٍ فكلوه سائغاً ، لا تنغيص فيه .

وفي الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك ، ووجوب الاحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس فقال : ﴿ **فإن طِبْن لكم** ﴾ . ولم يقل ، فإن وهبن لكم . إعلاماً بأن المراعى هو تجافي نفسها عن الموهوب ، طيّبة نفسها بذلك .

فــوائـــد :

١ – قال الفقهاء : يحرم الزواج بأكثر من واحدة ، إذا تأكد من نفسه الجور . فإن ظن من نفسه ولم يتأكد ، كره له كراهة تحريمية ، أن يتزوج بأكثر من واحدة . وأما الزواج من واحدة ، فسنّة عند اعتدال الشهوة . فإن تاقت نفسه إلى الجماع ، فواجب . فإن خشي على نفسه الزنا أو اللواط إن لم يتزوج ، أصبح الزواج فريضة .

٢ – معنى قوله تعالى : ﴿ **مثنى وثلاث ورباع** ﴾ . أي : ثنتين ثنتين ، وثلاثاً ثلاثاً ، وأربعاً أربعاً . كقول القائل : اقتسموا هذا الألف : درهمين درهمين ، وثلاثاً ثلاثاً ، وأربعاً أربعاً . فكان الخطاب بذلك ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذي أطلق له . وجيء بالواو ؛ لتدل على تجويز الجمع حتى الأربع . ولو جيء بـ (أو) في هذا المقام ، لما فهم هذا الفهم . وقصر الجمع على الأربع مفهوم من هذه الآية ، لأن المقام مقام امتنان وإباحة ، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره .

قال الشافعي : « وقد دلّت سنّة رسول الله ﷺ المبيّنة عن رسول الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة » وهذا الذي قاله الشافعي ، مجمع عليه بين العلماء ، إلا ما حكي عن طائفة من الشيعة ، أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع ، إلى تسع . وقال بعضهم : بلا حصر . وهو مذهب مرذول ، فاسد ، منقوض بنص القرآن ، وصحيح السنّة ، وإجماع الأمة . وأما ما ذكره أنس ، أن رسول الله ﷺ تزوج بخمس عشرة امرأة ، ودخل منهن ، بثلاث عشرة ، واجتمع عنده إحدى عشرة ، ومات عن تسع . فذلك من خصائصه ﷺ . وما ورد في السنَّة يفيد وجوب الاقتصار على أربع ، من ذلك ما رواه أبو داود ، وغيره بإسناد حسن أنّ عميرة الأسدي قال : أسلمت ، وعندي ثمان نسوة . فذكرت للنبي ﷺ فقال : « اختر منهن أربعاً » . وقد حدث مثل هذا لأكثر من واحد كان عنده أكثر من أربع ، فأمره الرسول ﷺ باختيار الأربع وتطليق ما زاد على ذلك ، قال ابن كثير بعدما ذكر أكثر من حديث في هذا الباب : « دلّ على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال . فإذا كان هذا في الدوام ففي الاستئناف بطريق الأولى والأحرى » .

٣ – مما فسرت به كلمة النِّحلة في الآية : الديانة . وعلى هذا يكون المعنى : وآتوا النساء مهورهن ديانة . ولكن ما ذكرناه هناك أقوى والنتيجة واحدة .

٤ – وفسّر الشافعي قوله تعالى : ﴿ **ذلك أدنى ألا تعولوا** ﴾ : بمعنى ألا تكثر عيالكم ، فتفتقروا فتضطروا إلى ترك الورع . لأن من كثر عياله لزمه أن يعولهم . وفي كثرة العيال ما يصعب معه المحافظة على حدود الورع ، وكسب الحلال . قال ابن كثير : وليس ما مر كلامه ، ولكنه ذكر هذا التفسير وعلّق عليه بقوله : ولكن في هذا التفسير ههنا نظر ! . فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر ، كذلك يخشى من تعداد السراري أيضاً ، والصحيح قول الجمهور ﴿ **ذلك أدنى ألا تعولوا** ﴾ . أي : ألا تجوروا .

٥ – روى البخاري عن عروة بن الزبير ، أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى : ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى** ﴾ .. قالت : « يا ابن أختي : تكون في حجر وليها ، تشركه في ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليُّها أن يتزوَّجها بغير أن يقسط في صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهنّ في الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن » .

٦ – وفي حكمة إباحة تعدد الزوجات في الشريعة يقول صاحب الظلال :

« إن الإسلام نظام للإنسان . نظام واقعي إيجابي . يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه ، ويتوافق مع واقعه وضروراته ، ويتوافق مع ملابسات حياته المتغيرة في شتى البقاع وشتى الأزمان ، وشتى الأحوال .

إنه نظام واقعي إيجابي ، يلتقط الإنسان من واقعه الذي هو فيه ، ومن موقعه الذي هو عليه ، ليرتفع به في المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة في غير إنكار لفطرته أو تنكر ؛ وفي غير إغفال لواقعه أو إهمال ؛ وفي غير عنف في دفعه أو اعتساف ! .

إنه نظام لا يقوم على الحذلقة الجوفاء ؛ ولا على التظرف المائع ؛ ولا على « المثالية » الفارغة ؛ ولا على الأمنيات الحالمة ، التي تصطدم بفطرة الإنسان وواقعه وملابسات حياته ، ثم تتبخر في الهواء . وهو نظام يرعى خلق الإنسان ، ونظافة المجتمع ، فلا يسمح بإنشاء واقع مادي من شأنه انحلال الخلُق ، وتلويث المجتمع ، تحت مطارق الضرورة التي تصطدم بذلك الواقع . بل يتوخى دائمًا أن ينشيء واقعاً يساعد على صيانة الخلُق ، ونظافة المجتمع ، مع أيسر جهد يبذله الفرد ويبذله المجتمع . فإذا استصحبنا معنا هذه الخصائص الأساسية في النظام الإسلامي ، ونحن ننظر إلى مسألة تعدد الزوجات ... فماذا نرى ؟

نرى .. أولاً .. أن هناك حالات واقعية في مجتمعات كثيرة – تاريخية وحاضرة – تبدو فيها زيادة النساء الصالحات للزواج ، على عدد الرجال الصالحين للزواج .. والحد الأعلى لهذا الاختلال الذي يعتري بعض المجتمعات لم يُعرف تاريخياً أنه تجاوز نسبة أربع إلى واحد . وهو يدور دائمًا في حدودها . فكيف يعالج هذا الواقع ، الذي يقع ويتكرر وقوعه ، بِنَسب مختلفة . هذا الواقع الذي لا يجدي فيه الإنكار ؟ نعالجه بهز الكتفين ؟ أو نتركه يعالج نفسه بنفسه ؟ حسب الظروف والمصادفات ؟!

إن هز الكتفين لا يحل مشكلة ! كما أن ترك المجتمع يعالج هذا الواقع حسبما اتفق لا يقول به إنسان جاد ، يحترم نفسه ، ويحترم الجنس البشري ! .

ولابد إذن من نظام ، ولا بد إذن من إجراء .
وعندئذ نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة احتمالات :

١ – أن يتزوج كل رجل صالح للزواج امرأة من الصالحات للزواج ... ثم تبقى واحدة أو أكثر – حسب درجة الاختلال الواقعة – بدون زواج ، تقضي حياتها – أو حياتهن – لا تعرف الرجال !

٢ – أن يتزوج كل رجل صالح للزواج واحدة فقط زواجاً شرعياً نظيفاً . ثم يخادن أو يسافح واحدة أو أكثر ، من هؤلاء اللواتي ليس لهن مقابل في المجتمع من الرجال . فيعرفن الرجل خديناً أو خليلاً في الحرام والظلام !

٣ – أن يتزوج الرجال الصالحون – كلهم أو بعضهم – أكثر من واحدة . وأن تعرف المرأة الأخرى الرجل ، زوجة شريفة ، في وضح النور لا خدينة ولا خليلة في الحرام والظلام !

الاحتمال الأول ضد الفطرة ، وضد الطاقة ، بالقياس إلى المرأة التي لا تعرف في حياتها الرجال . ولا يدفع هذه الحقيقة ما يتشدّق به المتشدقون من استغناء المرأة عن الرجل بالعمل والكسب . فالمسألة أعمق بكثير مما يظنه هؤلاء السطحيون ، المتحذلقون ، المتظرفون الجهال عن فطرة الإنسان . وألف عمل ، وألف كسب لا تغني المرأة عن حاجتها الفطرية إلى الحياة الطبيعية .. سواء في ذلك مطالب الجسد والغريزة ، ومطالب الروح والعقل ، من السكن والأنس بالعشير ... والرجل يجد العمل ويجد الكسب ؛ ولكن هذا لا يكفيه ؛ فيروح يسعى للحصول على العشيرة ، والمرأة

كالرجل - في هذا - فهما من نفس واحدة !

والاحتمال الثاني ضد اتجاه الإسلام النظيف ؛ وضد قاعدة المجتمع الإسلامي العفيف ؛ وضد كرامة المرأة الإنسانية . والذين لا يحفلون أن تشيع الفاحشة في المجتمع ، هم أنفسهم الذين يتعالمون على الله ، ويتطاولون على شريعته ، لأنهم لا يجدون من يردعهم عن هذا التطاول . بل يجدون من الكائدين لهذا الدين كل تشجيع وتقدير .

والاحتمال الثالث هو الذي يختاره الإسلام . يختاره رخصة مُقيّدة . لمواجهة الواقع الذي لا ينفع فيه هز الكتفين ، ولا تنفع فيه الحذلقة والادعاء . يختاره متمشياً مع واقعيته الإيجابية ، في مواجهة الإنسان كما هو - بفطرته وظروف حياته - ومع رعايته للخُلق النظيف والمجتمع المتطهّر ، ومع منهجه في التقاط الإنسان من السفح ، والرقي به في الدرج الصاعد إلى القمة السامقة . ولكن في يسر ولين وواقعية .

ثم نرى ... ثانياً .. في المجتمعات الإنسانية . قديماً وحديثاً . وبالأمس واليوم والغد إلى آخر الزمان . واقعاً في حياة الناس ، لا سبيل إلى إنكاره كذلك أو تجاهله .

نرى أن فترة الإخصاب في الرجل تمتد إلى سن السبعين أو ما فوقها . بينما هي تقف في المرأة عند سن الخمسين أو حواليها . فهناك في المتوسط عشرون سنة من سني الإخصاب في حياة الرجل لا مقابل لها في حياة المرأة . وما من شك أن من أهداف اختلاف الجنسين ثم التقائهما ، امتدادات الحياة بالإخصاب والإنسال ، وعمران الأرض بالتكاثر والانتشار . فليس مما يتفق مع هذه السنَّة الفطرية العامة أن نكف الحياة عن الانتفاع بفترة الإخصاب الزائدة في الرجال .

ولكن مما يتفق مع هذا الواقع الفطري أن يسنّ التشريع - الموضوع لكافة البيئات في جميع الأزمان والأحوال - هذه الرخصة - لا على سبيل الإلزام الفردي ، ولكن على سبيل إيجاد المجال العام الذي يلبي هذا الواقع الفطري ، ويسمح للحياة أن تنتفع به عند الاقتضاء .. وهو توافق بين واقع الفطرة وبين اتجاه التشريع ملحوظ دائمًا في التشريع الإلّهي . لا يتوافر عادة في التشريعات البشرية ، لأن الملاحظة البشرية القاصرة لا تنتبه له ، ولا تدرك جميع الملابسات القريبة والبعيدة ، ولا تنظر من جميع الزوايا ، ولا تراعي جميع الاحتمالات .

ومن الحالات الواقعية - المرتبطة بالحقيقة السالفة - ما نراه أحياناً من رغبة الزوج في

أداء الوظيفة الفطرية ، مع رغبة الزوجة عنها – لعائق من السن أو من المرض – مع رغبة الزوجين كليهما في استدامة العشرة الزوجية وكراهية الانفصال – فكيف نواجه مثل هذه الحالات ؟ نواجهها بهز الكتفين ؛ وترك كل من الزوجين يخبط رأسه في الجدار ؟! أو نواجهها بالحذلقة الفارغة والتظرف السخيف ؟

إن هز الكتفين – كما قلنا – لا يحل مشكلة . والحذلقة والتظرف لا يتفقان مع جدية الحياة الإنسانية ، ومشكلاتها الحقيقية .

وعندئذٍ نجد أنفسنا – مرة أخرى – أمام احتمال من ثلاثة احتمالات :

١ – أن نكبت الرجل ونصدّه عن مزاولة نشاطه الفطري بقوة التشريع وقوة السلطان ! ونقول له : عيب يا رجل ! إن هذا لا يليق ، ولا يتفق مع حق المرأة التي عندك ولا مع كرامتها !

٢ – أن نطلق هذا الرجل يخادن ويسافح من يشاء من النساء !

٣ – أن نبيح لهذا الرجل التعدد – وفق ضرورات الحال – ونتوقى طلاق الزوجة الأولى ...

الاحتمال الأول ضد الفطرة ، وفوق الطاقة ، وضد احتمال الرجل العصبي والنفسي ، وثمرته القريبة – إذا نحن أكرهناه بحكم التشريع وقوة السلطان – هي كراهية الحياة الزوجية التي تكلفه هذا العنت ، ومعاناة جحيم هذه الحياة .. وهذا ما يكرهه الإسلام ، الذي يجعل من البيت سكناً ، ومن الزوجة أنساً ولباساً .

والاحتمال الثاني ضد اتجاه الإسلام الخُلقي ، وضد منهجه في ترقية الحياة البشرة ، ورفعها وتطهيرها وتزكيتها ، كي تصبح لائقة بالإنسان الذي كرمه الله على الحيوان .

والاحتمال الثالث هو وحده الذي يلبي ضرورات الفطرة الواقعية ، ويلبي منهج الإسلام الخلقي ، ويحتفظ للزوجة الأولى برعاية الزوجية ، ويحقق رغبة الزوجين في الإبقاء على عشرتهما وعلى ذكرياتهما ، وييسر على الإنسان الخطو الصاعد في رفق ويسر وواقعية .

وشيء كهذا يقع في حالة عقم الزوجة ، مع رغبة الزوج الفطرية في النسل . حيث

يكون أمامه طريقان لا ثالث لهما :

١ - أن يطلقها ليستبدل بها زوجة أخرى تلبي رغبة الإنسان الفطرية في النسل .

٢ - أو أن يتزوج بأخرى ، ويبقى على عشرته مع الزوجة الأولى .

وقد يهذر قوم من المتحذلقين - ومن المتحذلقات - بإيثار الطريق الأول . ولكن تسعاً وتسعين زوجة - على الأقل - من كل مئة سيتوجهن باللعنة إلى ما يشير على الزوج بهذا الطريق ! الطريق الذي يحطم عليهن بيوتهن بلا عوض منظور - فقلما تجد العقيم وقد تبين عقمها راغباً في الزواج - وكثيراً ما تجد الزوجة العاقر أنساً واسترواحاً في الأطفال الصغار ، تجيء بهم الزوجة الأخرى من زوجها ، فيملأون عليها الدار حركة وبهجة أياً كان ابتئاسها لحرمانها الخاص .

وهكذا حيثما ذهبنا نتأمل الحياة الواقعية بملابساتها العملية ، التي لا تصغي للحذلقة ، ولا تستجيب للهذر ، ولا تستروح للهزل السخيف والتميع المنحل في مواضع الجد الصارم ... وجدنا مظاهر الحكمة العلوية ، في سن هذه الرخصة مقيدة بذلك القيد : ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء - مثنى وثلاث ورباع - فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة** ﴾ . فالرخصة تلبي واقع الفطرة ، وواقع الحياة ؛ وتحمي المجتمع من الجنوح - تحت ضغط الضرورات الفطرية والواقعية المتنوعة - إلى الانحلال أو الملال . والقيد يحمي الحياة الزوجية من الفوضى ، والاختلال ، ويحمي الزوجة من الجور والظلم ويحمي كرامة المرأة أن تتعرض للمهانة بدون ضرورة ملجئة واحتياطٍ كامل . ويضمن العدل الذي تحتمل معه الضرورة ومقتضياتها المريرة » اهـ .

ولنعد إلى السياق :

فبعد أن أمرنا الله - عز وجل - أن نؤتي اليتامى أموالهم وحقوقهم تأتي آية تنهانا أنْ نؤتي اليتامى أموالهم إذا كانوا سفهاء فكما أنه من التقوى أن ندفع لليتيم حقه كاملاً ، فإن من التقوى ألا نسلمه ماله إذا كان سفيهاً . أي : غير رشيد في أمر المال . قال تعالى :

﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً . وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً** ﴾ .

المعنى العام :

نهى الله – عز وجل – عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها للناس قياماً ، أي : تقوم بها معايشهم ، من التجارات وغيرها ، مع الأمر بالإحسان إلى من تحت الحجر بالإنفاق في الكساء والأرزاق وبالكلام الطيب وتحسين الأخلاق .

المعنى الحرفي :

﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم** ﴾ : الخطاب للأولياء . وأضاف الأموال إليهم ، لأنهم يلونها ، ويمسكونها . أو الخطاب للأمة ، وإضافة الأموال إليها مع أن المال ملك للسفيه للإشعار بأن سوء تصرف الفرد في ماله ، أو حسن تصرفه فيه ، ينعكس أثره على الجميع . ومن ثمَّ كان مال الأفراد مالاً للأمة ، وهي مسئولة عن حسن تصرف كل فرد فيها بما يملك . والسفيه هنا : هو غير الرشيد في أمر المال . ويدخل فيه المبذِّر الذي ينفق ماله فيما لا ينبغي . ويدخل فيه العاجز عن تثميره ، والتصرف فيه ، وإصلاحه . ومن السياق مما قبل هذه الآية ، وما بعدها ، نفهم أنَّ السفيه هنا ، هو اليتيم الذي يبلغ غير رشيد في أمر المال . ولكن يدخل معه غيره ممن هو على مثل شأنه . ومن هنا أخذ الفقهاء مبدأ الحجر ، والحجر تارة يكون للصغر ، فإن الصغير يكون مسلوب العبارة . وتارة يكون للجنون . وتارة يكون لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين . وتارة يكون للإفلاس . وهو ما إذا أحاطت الديون برجل ، وضاق ماله عن وفائها ، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه . ﴿ **التي جعل الله لكم قياماً** ﴾ . أي : قواماً لأبدانكم ، ومعاشاً لأهلكم وأولادكم . فالمال به قيام الحياة البشرية . وإذا كان المال له مثل هذه الأهمية في الحياة البشرية ، فينبغي عدم التفريط فيه. ولو بتسليم المال إلى غير صاحبه إذا كان صاحبه ليس رشيداً في أمر التصرف فيه . قال ابن كثير في تفسير ﴿ **قياماً** ﴾ . (أي: تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها) . ﴿ **وارزقوهم فيها** ﴾ . أي : وارزقوا السفهاء في هذه الأموال ، بأن تتجروا فيها وتشغلوها . فيكون لهم رزق من ذلك . قال النسفي : (واجعلوها مكاناً لرزقهم ، بأن تتجروا فيها وتربحوا حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال فيأكلها الإنفاق ، فما أعظم هذا القرآن ، إذ بهذا التعبير القصير أمرنا بالإنفاق عليهم ، وأمرنا بتثمير مالهم لهم ﴿ **واكسوهم** ﴾ الأمر بالكساء هنا دلّ على أن الأمر السابق فيه تضمّن الإطعام والإنفاق . ﴿ **وقولوا لهم قولاً معروفاً** ﴾ . أي : وعدوهم عدة جميلة ، كالقول لهم :

إن صلحتم ورشدتم سلمنا إليكم أموالكم . وهذا يفيد أنه لا ينبغي أن يرافق الحجْر قسوة من الولي ، لما يترتب على ذلك من مفاسد عظيمة ، قد تبلغ حد العداء والجريمة . والمعروف هو كل ما سكنت إليه النفس لحسنه عقلاً أو شرعاً من قول أو عمل ، والمنكر ما أنكرته لقبحه .

فـــوائـــــد :

١ - رأينا أكثر من مرة في هذا التفسير كيف أن معاني هذا القرآن لا تنتهي بسبب أن بعض معانيه تؤخذ من السياق الجزئي ، وبعضها من السياق العام ، وبعضها من النص الحرفي ، ويتولد عن كل من هذه معان يعضد بعضها بعضاً ، بالشكل الذي لا يحيط به إلا منزّله وهو الله تعالى. ويتفاوت الناس في الفهم، وهذه الآية تصلح شاهداً على هذا كله . فمن السياق فهمنا أنّ المراد بالسفيه اليتيم . ومن السياق فهمنا أنّ الخطاب هنا للولي . ومن النص يدخل في النهي كثير ، ومن ثمَّ قال ابن عباس وابن مسعود وكثير في قوله تعالى : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم** ﴾ هم النساء والصبيان . قال أبو هريرة : هم الخدم - أي العبيد - وفسّرها أبو موسى : بإعطاء المال لسفيه ، أي هبة أو صدقة .

واختلاف الأقوال مرجعها إلى دقة الملحَظ ومأخذه ، والجميع داخل في الآية ، وإن كان المراد الرئيسي هو ما ذكرناه أثناء الشرح الحرفي . ولكن غيره يدخل فيه فلننتبه إليه ، كان ابن عباس يقول أخذاً من الآية : « لا تعمد إلى مالك وما خوَّلك الله ، وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك ، أو بنتك ، ثم تنظر إلى ما في أيديهم ، ولكن أمسك مالك وأصلحه ، وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم » .

٢ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **أموالكم التي جعل الله لكم قياما** ﴾ قال النسفي « وكان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن، ولأن أترك مالاً يحاسبني الله عليه خير من أن أحتاج إلى الناس. وعن سفيان- وكان له بضاعة يُقلبها- لولاها لتمندل بي بنو العباس» ونقول: هذه الآية بينت لنا أهمية المال في الحياة البشرية، ولذلك نلاحظ الآن عالمياً، أن ميزان التقدم الذي ارتضاه العالم لنفسه، هو مقدار التقدم الاقتصادي، ومقدار دخل الفرد الواحد من مجموع الأمة، ولئن كان في ذلك نوع غلو، إلا أن الآية بينت لنا الأهمية الكبرى للمال في شؤون الحياة البشرية. ومن ثمَّ فإن الدولة المسلمة ينبغي أن

تكون حريصة على أن يكون دخل كل فرد في الأمة مرتفعاً ، وأن تحرص على أن يكون تصرف كل فرد في الأمة في ماله تصرفاً صحيحاً ، من خلال القضاء ، والتربية ، والتوعية ، والمؤسسات ، والتنظيم .

﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يَكبَروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً ﴾ .

المعنى العام :

يأمر تعالى باختبار الأيتام قبل البلوغ ، فإذا بلغوا مصلحين لدينهم وأموالهم ، انفك الحجْر عنهم ، فتُسلَّم إليهم أموالهم التي تحت يد أوليائهم ، ونهى الله - عز وجل - هؤلاء الأولياء أن يأكلوا أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية ، بالإسراف فيها ، والمبادرة بإنفاقها قبل بلوغهم . ثم أذن الله لولي اليتيم إن كان محتاجاً ، أن يأكل بقدر حاجته . ثم أمر تعالى ، أنه في حالة البلوغ ، وإيناس الرشد ، ودفع الأموال إلى أصحابها : أمر بالإشهاد عليهم ، لئلا يقع من بعضهم جحود وإنكار لما قبضه وتسلّمه . وختم الله - عز وجل - الآية بالتذكير بالله خير الشهداء والرقباء والمحاسبين ليتذكر الأولياء في حال نظرهم للأيتام . وحال تسليمهم لأموالهم هل هي كاملة موفرة ، أو منقوصة مبخوسة مزوّر حسابها ، أو مدلّس أمرها ؟ الله عالم بذلك كله .

المعنى الحرفي :

﴿ وابتلوا اليتامى ﴾ . أي : واختبروهم ، أي اختبروا عقولهم ، وزنوا أحوالهم ، ومعرفتهم بالتصرف قبل البلوغ . وقال النسفي : فالابتلاء عندنا أن يدفع إليه مايتصرف فيه حتى تتبيَّن حاله فيما يجيء منه . وفيه دليل على جواز إذن الصبي العاقل في التجارة . **﴿ حتى إذا بلغوا النِّكاح ﴾** . أي : الحُلُم ، لأنه يصلح للنكاح عنده ، ولطلب ما هو مقصود به وهو التوالد . قال الجمهور من العلماء : البلوغ في الغلام تارة يكون بالحُلُم ، وهو أن ينزل في منامه الماء الدافق الذي يكون منه الولد ، والعبرة في هذه الحالة للنزول في المنام أو في غيره . وتارة يكون بالسنّ وهو خمس عشرة سنة قمرية . **﴿ فإن آنستم منهم رشداً ﴾** . أي : فإن تبيّنتم منهم هداية في التصرفات ، وصلاحاً في المعاملات . وتنكير الرشد يفيد : أن المراد رشد مخصوص ، وهو الرشد في التصرف

والتجارة . أو يفيد التقليل ، أي : طرفاً من الرشد حتى لا ينتظر به تمام الرشد . فالمراد بالرشد على هذا الاتجاه – وهو اتجاه الحنفية – مجرد القدرة على التصرف الرشيد في شأن المال ، وليس غير ذلك . وقال سعيد بن جبير في تفسير الرشد : صلاحاً في دينهم ، وحفظاً لأموالهم ، فوسَّع دائرة الرشد . ﴿ **فادفعوا إليهم أموالهم** ﴾ . أي : فسلِّموا إليهم أموالهم التي تحت أيديكم . والأمر للأوصياء والأولياء . ويفهم من الآية : أن الابتلاء يكون قبل البلوغ ، فإذا كان البلوغ ، وأونس الرشد فلا يتأخر عن دفع الأموال إليهم . فكأنه قيل : وابتلوا اليتامى إلى وقت الرشد منهم ، وهذا يقتضي تدريب اليتيم على الرشد قبل البلوغ . ﴿ **ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا** ﴾ . أي : ولا تأكلوها مسرفين ومبادرين كبرهم ، فتفرِّطوا في إنفاقها ، وتقولوا : ننفق فيما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا . ﴿ **ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف** ﴾ . أي : إن الوصي : إما أنْ يكون غنياً أو فقيراً ، فالغني يستعف عن أكل مال اليتيم ، أي يحذر من أكل مال اليتيم . واستعفَّ أبلغُ من عفَّ ؛ كأنه طالب زيادة العفة . والفقير يأكل قوتاً مقدَّراً محتاطاً في أكله . ﴿ **فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم** ﴾ الشهداء على أنهم تسلموها وقبضوها دفعاً للتجاحد ، وتفادياً على توجه اليمين عليكم عند التخاصم والتناكر . ﴿ **وكفى بالله حسيباً** ﴾ . أي : وكفىٰ بالله محاسباً . فعليكم بالتصادق ، وإياكم والتكاذب . فعليكم بالإصلاح ، وإياكم والإفساد بالاعتداء أو الإسراف .

فـــوائـــد :

١ – في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي ، لا تأمرنَّ على اثنين ، ولا تلينَّ مال يتيم » .

٢ – في سنن أبي دواد عن علي قال : « حفظت من رسول الله ﷺ ، لا يُتْم بعد احتلام ، ولا صُمَات يوم إلى الليل » وفي الصحيحين عن ابن عمر قال : « عُرضت على النبي ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزني ، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني ؛ فقال عمر بن عبدالعزيز لما بلغه هذا الحديث : إن هذا الفرق بين الكبير والصغير » وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ وغيرها من الصحابة عن النبي ﷺ قال : « رفع القلم عن ثلاثة . عن الصبي حتى يحتلم – أو يستكمل خمس عشرة سنة – وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق » . مما مر يفهم أن

البلوغ يكون : إما بالسن ، أو الاحتلام . قال ابن كثير : « واختلفوا في نبات الشعر الخشن حول الفرج ، وهي الشِّعرة ، هل يدل على بلوغ أو لا ؟ على ثلاثة أقوال ، يفرق في الثالث بين صبيان المسلمين وبين صبيان أهل الذمة ، فلا يكون بلوغاً على القول الثالث في حق أبناء المسلمين ، ويكون بلوغاً في حق أهل الذمة . قال ابن كثير : والصحيح أنها بلوغ في الجميع لأن هذا أمر جبلّيّ يستوي فيه الناس واحتمال المعالجة فيه بعيد » . وقد روى الإمام أحمد عن عطية القرظي قال : عرضنا على النبي ﷺ يوم قريظة ، فأمر من ينظر من أنبت فكان من أنبت قتل ، ومن لم ينبت خلي سبيله ، فكنت فيمن لم ينبت فخلى سبيلي .. » وأخرجه أهل السنن الأربعة .

٣ – روى الإمام أحمد : أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : فقال : « ليس لي مال ولي يتيم ، فقال : كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذِّر ، ولا متأثل مالا ، ومن غير أن تقي مالك ، أو قال : أو تفدي مالك بماله » . شك أحد الرواة ، وروى ابن ماجه وأبو داود في سننه أن رجلًا قال : يارسول الله : فيم أضرب يتيمي ؟ قال : « مما كنت ضارباً منه ولدك غير واق مالك بماله ، ولا متأثّل منه مالًا » .

قال فقهاء الشافعية : ولي اليتيم الفقير له أن يأكل من أقل الأمرين : أجرة مثله ، أو قدر حاجته . واختلفوا هل يرد إذا أيسر ؟ على قولين : أحدهما ، لا . لأنه أكل بأجرة عمله ، وكان فقيراً ، وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي ، لأن الآية والأحاديث أباحت الأكل من غير بدل ، كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة . قال عمر بسند صحيح عنه : إنما أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة وليّ اليتيم ، إن احتجت أخذت منه ، فإذا أيسرت رددته ، وإن استغنيت استعففت » والأقوى الاتجاه الأول : أي لايرد ومذهب عمر زيادة في الاحتياط . وما مقدار ما يأكل منه ؟ قال النسفي عن إبراهيم : ما سدّ جوعه ، ووارى العورة .

٤ – إن قياس عمر أمر نفسه على وصي اليتيم في مال الأمة أصل عظيم من أصول الاجتهاد السياسي في الإسلام . فالدولة المسلمة ، والإمام المسلم تصرفاته مقيدة بما يقيد به وصي اليتيم ؛ فما كان فيه مصلحة اليتيم نفذ ، وما لم تكن له فيه مصلحة لم ينفذ . وعلى هذا فكل التصرفات والعقود والمعاهدات الدولية التي تجريها الحكومات تلزم الأمّة بمقدار ما فيها من مصلحة للأمة ، وكل تصرف أو عهد ، أو عقد أجرته ، أو تجريه حكومة ليس فيه مصلحة ، فإنه لاغ حكمًا .

﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً ، وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً * وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً * إن الذين يأكلون أموال اليتامىٰ ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً * ﴾ .

المعنى العام :

كان المشركون العرب في الجاهلية يجعلون المال للرجال الكبار ، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً . وهذا شبيه ببعض أنظمة العالم المعاصر ، إذ تعطي الابن الأكبر حق الإرث فقط . فأنزل الله هذه الآيات مبيِّناً في الآية الأولى منها أن الرجال والنساء سواء في استحقاق الوراثة ، ماداموا سواء في سبب الاستحقاق ، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بسبب الذكورة والأنوثة أو بما يدلي به إلى الميت من قرابة أو زوجية أو أولاد ، مما ستبينه الآيتان التاليتان لهذه الآيات . ثم حضّ الله الورثة أن يرضخوا للأقارب واليتامى والمساكين ممن لا يرثون إذا حضروا قسمة الميراث . وهل هذا الرضخ واجب أو مندوب ، أو أن هذا كان فى أول الإسلام ثم نسخ ؟ أقوال سنراها . وإذا فهمنا الآية في حدود أنه : إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل ، فإن أنفسهم تتوق إلى شيء منه ، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ ، وهم بائسون لا شيء يُعطونه ؛ فأمر الله تعالى وهو الرؤوف الرحيم أن يُرضخ لهم شيء يكون براً بهم ، وصدقة عليهم وإحساناً إليهم ، وجبراً لكسرهم على حساب ما تطيب به أنفس الورثة .

إذا فهمنا الآية في هذه الحدود ، لا نكون قد فهمنا شيئاً ينكره أحد ، أو يختلف في جواز تطبيقه أحد ، ثم ذكَّر الله بحالة يخشاها الإنسان ، وهي حالة ما إذا كان له ذرية ضعاف وأصابه الموت ، فكما يحبُّ أن يُصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة ، فلينظر لورثة الآخرين . دخل في ذلك ما إذا حضر أحداً الموتُ فسمعه رجل يوصي بوصيةٍ تضر بورثته ، فعلى من سمعه أن يسدده . ودخل في ذلك من ولي أيتام إنسان ما ، فعليه أن يفعل لهم ما يحب أن يفعل بأولاده . كما تحب أن تُعامل ذرِّيتك من بعدك فعامل الناس في ذراريهم إذا وليتهم .

ثم أعلم الله - عز وجل - أن من أكل أموال اليتامى ظلمًا ، فإنما يأكل في بطنه ناراً

تتأجج فيها يوم القيامة .

ولعلنا نلاحظ أن هذه الآيات الأربع مرتبطة بما قبلها ، من حيث إن لها علاقة باليتامى، ونلاحظ كذلك أنها مرتبطة بما بعدها من آيات المواريث ، إذ قررت استحقاق الرجال والنساء في الميراث ، وندبت الورثة إلى التصدق ، وحذّرت من ظلم اليتامى ، وندبت إلى معاملة أبناء الميت مثلما يحب الناس أن تُعامَل أبناؤهم من بعدهم . فالمقطع كله مرتبط بعضه ببعض ، وكله يحدد التصرف الصحيح في قضايا حياتية ، ليحقق الإنسان في نفسه التقوى كما أرادها الله ، وأحبها ، وشرعها لنا في كتابه . ومن هذا المقطع ندرك كيف أن قضية التقوى أكبر وأوسع مدلولاً مما يظنها كثير من الناس .

المعنى الحرفي :

﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون** ﴾ . أي : لكل من الرجال والنساء حظه من الميراث ، والمراد بهم المتوارثون دون غيرهم بحسب ما فرض الله لكل منهم ، والنصيب : الحظ والقدر ﴿ **مما قل منه أو كثر** ﴾ . أي : من قليل المتروك وكثيره . ﴿ **نصيباً مفروضاً** ﴾ . أي : نصيباً مقطوعاً لابد لهم من أن يحوزوه . وقد بيَّن الله - عز وجل - هذا النَّصيب المفروض بآيات المواريث الآتية بعد ثلاث آيات من هذه الآية ، و المبدوءة بـ ﴿ **يوصيكم** .. ﴾ ، ﴿ **وإذا حضر القسمة** ﴾ . أي : قسمة التركة ﴿ **أولوا القربى** ﴾ ممن لا يرث ، ﴿ **واليتامى والمساكين** ﴾ من الأجانب . ﴿ **فارزقوهم منه** ﴾ . أي : فأعطوهم مما ترك الوالدان والأقربون . قال النسفي : وهو أمر ندب ، وهو باق لم ينسخ . ﴿ **وقولوا لهم قولاً معروفاً** ﴾ القول المعروف هنا : هو الاعتذار الجميل والعدة الحسنة ، أو العطاء الذي لا يرافقه استكثار أو منٌّ ، أو الدعاء مع العطاء ، كقولهم : خذوا بارك الله عليكم ، أو ما فيه تطييب خاطر ، أو ماتُعورف عليه من القول الطيب في مثل هذه الأحوال ، أو هذا كله . ﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذريّة ضعافاً خافوا عليهم** ﴾ المراد بهم الأوصياء ، أمروا أن يخشوا الله فيخافوا على من في حجورهم من اليتامى ، فيشفقوا عليهم ، خوفهم على ذريتهم لو تركوهم ضعافاً ، وأن يقدِّروا ذلك في أنفسهم ويصوِّروه ، حتى لا يجسروا على خلاف الشفقة والرحمة . فصار المعنى : وليخشَ الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافاً - وذلك عند احتضارهم - خافوا عليهم الضياع بعدهم ، لذهاب كافلهم ، فليتذكروا ذلك ،

وليتصرفوا مع من هم تحت رعايتهم على ضوئه . ﴿ **فليتقوا الله** ﴾ في هذا الشأن ، وليخافوا انتقامه . ﴿ **وليقولوا قولاً سديداً** ﴾ . أي : قولاً مسدَّداً يليق بالمقام ، والقول السديد من الأوصياء ، أن يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب ، ويدعوهم بيابني ، وياولدي ، فالآية إذن أدّبت الأولياء والأوصياء أن يعاملوا من تحت رعايتهم معاملتهم لأولادهم . ثم عاد المقطع إلى موضوع أكل أموال اليتامى ، مهدداً بعد هذه الاستجاشة لعواطف الرحمة الإنسانية فقال : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً** ﴾ . أي : يأكلونها ظالمين ﴿ **إنما يأكلون في بطونهم** ﴾ . أي : ملأها ﴿ **ناراً** ﴾ لأنهم أكلوا ما يجرُّ إلى النار بأكلهم الحقوق ، فاستحقت بطونهم التعذيب من لحظة بعثهم يوم القيامة . ﴿ **وسيَصْلَون سعيراً** ﴾ . أي : وسيدخلون ناراً يعذبون فيها ؛ وأبهمت النار هنا لتعظيم ماسيعذبون به ، ولبيان عظيم جرمهم فيما أتوه .

فــوائــد :

١ - في آية ﴿ **وإذا حضر القسمةَ أولوا القربى ..** ﴾ ثلاثة أقوال ، القول الأول فيها : أنها محكمة وهي على ظاهرها ، وأنها للندب ، ندبت إلى ذلك الورثة تطييباً لخواطر غير الورثة من القرابات ، وخواطر الفقراء واليتامى ، وذهب إلى ذلك خلق كثير . والقول الثاني : أنها محكمة ولكن هي في الوصية ، فكأن الآية تندب الميت إلى أن يوصي لهذه الطبقات ، فإذا مات وُزِّع ما أوصى الميت على أصحابه ممّن ذكرهم الله ، ويندب للميت أن يقدمهم على غيرهم . والقول الثالث : أن الآية منسوخة نسختها آيات المواريث بعدها . ولا شك أن الواجب في التركة هو ما ذكرته آيات المواريث والوصية . فمن أراد أن يفهم الأمر في الآية على الوجوب فلا شك أنه ليس أمامه إلا أن يقول بالنسخ ، وأن تكون الآية في الوصية ففيه صرف للآية عن ظاهرها .

وما يتفق مع السياق قبل وبعد : هو أن نحمل الأمر في الآية على الندب ، وهذا لا يعارض ما بعده ، مع ملاحظة أن الإنفاق في هذه الحالة مقيّد برضى الورثة جميعاً ، وأن يكون الورثة ممن يملكون حق التبرع . أما إذا كان الورثة صغاراً ، فلا يحق لأحد أن يتبرع عنهم ، أو إذا كان في الورثة صغار ، فللكبار أن ينفقوا من أنصبائهم لا من نصيب الصغار . ونحب هنا أن نذكر أنّ كلّاً من الأقوال الثلاثة في فهم الآية منسوب لابن عباس مع وجود غيره معه فيه .

٢ - روى ابن مردويه في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب** .. ﴾ عن جابر قال : أتت أم كحة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله إن لي ابنتين قد مات أبوهما ، وليس لهما شيء فأنزل الله تعالى ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان** ﴾ .

٣ - في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال :

« اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل يارسول الله : وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات » . وروى ابن مردويه وغيره أن رسول الله ﷺ قال : « يبعث يوم القيامة القوم من قبورهم تأجَّجُ أفواههم ناراً ، قيل يا رسول الله : من هم ؟ قال : ألم تر أن الله قال : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا** ﴾ .

كلمة في السياق :

١ - في السياق الخاص للسورة نلاحظ أن هذا المقطع حتى الآية الأخيرة التي مرت معنا قد ركّز على حق المرأة ، وحق اليتيم . وقد روى ابن مردوية عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أُحرّجُ مال الضعيفين المرأة واليتيم » . أي : أوصيكم باجتناب مالهما . نفهم من كون هذا المعنى قد تقدم في سورة النساء على غيره أن له أهمية في قضية التقوى ، فلا تظهر تقوى الإنسان بشيء ، ظهورها في موقفه من حق اليتيم ، وماله ، ومعاملته ، وفي موقفه من حقوق المرأة بالمعروف .

٢ - رأينا في سورة آل عمران ، أن سورة آل عمران فصّلت في مقدمة سورة البقرة ، وامتداد معانيها من سورة البقرة ، على نسق جديد ، وتسلسل جديد ، وترتيب جديد . ونقول الآن : إن سورة النساء تفصِّل في الآيات الخمس المبدوءة بقوله تعالى :

﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وما في معناها من سورة البقرة ، وما هو متعلق بها من سورة البقرة . وتفصِّل ذلك ضمن ترتيب ونسق جديدين يتناسبان مع الموضوع الخاص بسورة النساء ، كما كان ترتيب سورة آل عمران متناسباً مع موضوعها الخاص . ولا يفهمنَّ فاهم من التفصيل

معناه الضيِّق ، بل فلنفهمها بمعناها الواسع .

ولنضرب الآن مثالين على هذا التفصيل بمعناه الواسع ، وهما مثالان على الصلة أيضاً بين سورة النساء وما هو بمعناها في سورة البقرة مما له ارتباط بآيات المحور .

ا - مر معنا في سورة البقرة عن ابن عباس قوله : لما نزلت ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا** ﴾ . الآية (وهي من سورة النساء) : انطلق من كان عنده يتيم ، فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله : ﴿ **ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم** ﴾ .

إن آية النساء سبقت آية البقرة ، وآية البقرة أخرجت من أكل أموال اليتامى ، تلك الحالة التي تقتضيها العشرة والمصلحة ، ولكن آية النساء تبقى تفصيلاً في هذا الموضوع ، تراعي فيه قضية الخلطة . فليتذكر دائمًا المخالط ألّا تكون الخلطة إلا لصالح اليتيم ، وفي حدود رفع الحرج ، وألّا تصل المسألة إلى حد أكل مال اليتيم ، فإن الجزاء فظيع .

فآية النساء من هذا الباب تفصيل لهذا الموضوع في قضية التقوى .

ب - في قوله تعالى : ﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم** ﴾ . قال ابن عباس مفسراً لها : هذا في الرجل يحضره الموت ، فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته ، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله ، ويوفقه ويسدده للصواب ، فينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضَّيْعة . قال ابن كثير : « وهكذا قال مجاهد وغير واحد » فلنتذكر ما ورد في سورة البقرة .

﴿ **فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثمًا فأصلح بينهم فلا إثم عليه** ﴾ ألا نجد هنا في سورة النساء تفصيلاً لقضية وردت في البقرة لها علاقة بقضية التقوى ، لكنها ترد هنا ضمن السياق الخاص لسورة النساء ، وهناك ضمن السياق الخاص في سورة البقرة . فإذا اتضح هذا فإننا نرجح القول الذي نقلناه في سورة البقرة ، وهو أن قوله تعالى في البقرة : ﴿ **كُتب عليكم إذا حضر أحدَكم الموتُ إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين** ﴾ تفسره الآية القادمة : ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم** .. ﴾ فهذا تفسير الوصية الواردة في البقرة .

فهذا القرآن لا تنقضي عجائبه ، أنزله المحيط علمًا بكل شيء . من هذين المثالين ندرك كيف أن سورة النساء تفصّل في محورها من سورة البقرة وفي امتداد معاني هذا المحور من سورة البقرة نفسها . ولعل ما مر معنا هنا يصلح أن يكون مقدمة لما وصلنا إليه من آيات في هذا المقطع : آيات المواريث التي هي بيان للنصيب المفروض المذكور في قوله تعالى :

﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب .. ﴾ .

﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليمًا حكيماً * ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم * تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم * ومن يعصِ الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾ .

المعنى العام :

الآيتان الأوليان من هذه المجموعة ، وآخر آية في هذه السورة ، هن آيات علم الفرائض أي : علم المواريث ، وهذا العلم كله مُستنبط من هذه الآيات الثلاث . ومن الأحاديث الواردة في ذلك ، مما هو كالتفسير لذلك . وهذا من أعظم مظاهر إعجاز هذا القرآن ، أن تجد علم الميراث كله في هذه الآيات ، بمثل هذه الدّقة ، وهذا العدل في التوزيع ، وفي مثل هذا الشمول ، وبمثل هذا الإيجاز ، وبمثل هذه الطريقة من العرض المعجز البالغ الروعة الذي لا ينزل - وهو النص التشريعي - عن المستوى البياني

والبلاغي لأي نص قرآني آخر . إن إنساناً لا يعرف الله في كتابه من مثل هذا محروم محروم .

في الآية الأولى : أمر الله – عز وجل – بالعدل في الأولاد بين الذكور والإناث في أصل الميراث ، وفاوت بين الصنفين ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤونة النفقة والكلفة ، ومعاناة التجارة والتكسُّب وتحمّل المشاق ، فناسب أن يعطى ضعفي ما تأخذه الأنثى . فإذا كان الأولاد إناثاً فقط ، فإن كن ثلاثاً فصاعداً فلهن الثلثان من تركة الميّت ، وإن كن ثنتين فكذلك ، وإن كانت واحدة فلها النصف . وللأبوين إن كان للميت أولاد لكل منهما السدس ، فإن كان الأبوان هما الوارثين الوحيدين ، فللأم الثلث ، والثلثان للأب . فإن كان للميت إخوة ، حجب الإخوةُ الأمَّ عن الثلث إلى السدس ، دون أن يكون لهم شيء مع وجود الوالد ، وللوالد الباقي ؛ وهذا كله بعد أن تُدفع الديون التي على الميت عنه ؛ وهذا كله بعد دفع الوصية إن كانت في حدود الثلث . ثم بيَّن الله – عز وجل – في نهاية الآية الأولى حكمة هذه الفريضة للآباء والأبناء ، إذ الملاحظ أن الآية الأولى كانت في ميراث الآباء والأبناء بشكل رئيسي ، إن الحكمة في هذا التشريع هي : أنَّ الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوي ، أو الأخروي ، أو هما ، من كل من أبيه أو ابنه . وقد يكون أحدهما أرجى نفعاً ، ولكن النفع متوقع ومرجو من هذا ، كما هو متوقع ومرجو من الآخر ، فلهذا فرض الله لهذا وهذا ، وجعل لكلٍ نصيبه بما يناسب حاله . ثم بيَّن الله – عز وجل – أن ما ورد في هذه الآية من تفصيل الميراث ، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض ، هو فرض من الله حَكَم به وقضاه ، والله عليم حكيم ؛ يضع الأشياء في محالّها ، ويعطي كلاً ما يستحقه بحسبه .

وفي الآية الثانية : بيَّن الله حصَّة الأزواج والزوجات ، فبيّن أن للرجال نصف ما ترك أزواجهم إذا متْنَ عن غير ولد ، فإن متن عن ولد فللزوج الربع من بعد الوصية والدّيْن ، وللزوجات الربع في حالةعدم الولد . فإذا وجد الولد فللزوجة إن كانت واحدة ، أو للزوجات إن تعددن الثمن من بعد الوصية أو الدين . فإن مات رجل أو امرأة وليس له أو لها والد ولا ولد ، وكان له أولها أخ أو أخت من أم فلكل واحد منهما السدس . فإن كانوا أكثر من ذلك رجالاً أو نساء أو مختلطين فكلهم شركاء في الثلث . وكل

ذلك بعد الوصية أو الدين . هذه هي وصية الله لنا في شأن الميراث ، وهو المحيط علمًا بكل شيء فهو الأعلم بما ينبغي ، وهو ذو الحلم الذي يشرِّع لعباده التشريع الأرفق بهم .

ثم بيَّن الله – عز وجل – في الآية الثالثة والرابعة : أن هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت ، واحتياجهم إليه ، وفقدهم له عند عدمه ، هي حدود الله فلا تعتدوها ، ولا تجاوزوها . ثم وعد من وقف عند حدوده بجناته ، وأوعد من عصى الله ورسولَه ، وتعدّى حدود الله بناره وإهانته ، لكونه غيرَّ حكمَ الله ، وضادّ الله في حكمه ، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله ، وحكم به ؛ ولهذا يجازى صاحبه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم ، فليسمع من يريدون أن يبدّلوا أحكام الله ، ويغيرّوا شريعته ، فليسمع أصحاب الدعوات الكافرة على أرضنا ممن يريدون أن يُبدِّلوا شرع الله بأهوائهم .

إن الآيتين الأولى والثانية ، وآخر آية في سورة النساء ، هما جماع علم المواريث في القرآن . ومن قرأ كتب هذا العلم أدرك كيف أن هذه الآيات أحاطت بالمسائل كلها ، من خلال ما سيق له النص بشكل رئيسي ، ومن خلال ما يفهم بشكل آخر من أشكال الفهم للنصوص ، ومن خلال الشرح النبوي لهذه الآيات ، وسيتضح لنا شيء من هذا في نهاية الكلام عن هذه الآيات الأربع . ونكتفي هنا أن نسجل أننا فهمنا بشكل واضح من النص : حصّة البنات إذا انفردن ، وحصّة الأب والأم إذا انفردا بالإرث ، وحصة الأب والأم في حالة فقدان الولد ، ووجود الإخوة ، وحصّة الزوج والزوجة وُجِدَ ولد أو لم يوجد ، وحصّة الإخوة في حالة فقدان الوالد والولد .

ولن ننتهي من الكلام عن الآيات إلا وقد وضح لنا هذا العلم إن شاء الله تعالى .

المعنى الحرفي :

﴿ **يوصيكم الله في أولادكم** ﴾ . أي : يعهد إليكم ربكم ، ويأمركم في شأن ميراث أولادكم . وهذا إجمال تفصيله ما بعده . ﴿ **للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ . أي : للذكر منهم حظ الأنثيين ، والمراد حال الاجتماع ، أي : إذا اجتمع الذكر والأنثيان كان له

سهمان ، كما أن لهما سهمين . وأما في حال الانفراد فالابن يأخذ المال كله إذا انفرد والبنتان تأخذان الثلثين . والدليل على ذلك هو ذكر حكم البنات حال الانفراد مباشرة بعد هذا . ﴿ **فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك** ﴾ . أي : فإن كانت الأولاد نساء خُلَّصاً يعني : بنات ليس معهن ابن ، وكن نساء زائدات على اثنتين ، فلهن ثلثا ما ترك الميت . ﴿ **وإن كانت واحدة فلها النصف** ﴾ . أي : وإن كانت المولودة منفردة فلها نصف ما ترك الميت . وحتى الآن ذكر حكم البنتين في حال اجتماعهما مع الابن ، وحكم البنات والبنت في حال الانفراد ، ولم يذكر حكم البنتين في حال الانفراد ، فما حكمهما ؟ ألحق ابن عباس البنتين بالبنت فقال : لهما النصف ؛ وخالفه في ذلك الأمة كلها فجعلوا لهما الثلثين وهو الذي عليه الفتوى . وإنما استفيد كون الثلثين للبنتين من حكم الأختين في الآية الأخيرة من سورة النساء ؛ فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين . وإذا ورث الأختان الثلثين ، فلأن يرث البنتان الثلثين بالطريق الأولى . وقد حكم رسول الله ﷺ لابنتي سعد بن الربيع بالثلثين ، فدلَّ الكتاب والسنّة على ما ذكرنا . قال النسفي : « ولأن البنت لما وجب لها مع أخيها الثلث ، كان أحرى أن يجب لها الثلث إذا كانت مع أخت مثلها » . وقال النسفي : « وفي الآية دلالة على أن المال كله للذكر إذا لم يكن معه أنثى ، لأنه جعل للذكر مثل حظ الأنثيين . وقد جعل للأنثى النصف إذا كانت منفردة ، فعُلم أن للذكر في حال الانفراد ضِعف النصف وهو الكل » ﴿ **ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد** ﴾ الولد يقع على الذكر والأنثى . والمعنى : إن كان للميت أولاد ، أو أولاد أولاد ، فلأبيه السدس ، ولأمه السدس. ثم إن كان للميت بنت واحدة ، فلها النصف في هذه الحالة ، وللأم السدس ، وللأب السدس . وماتبقى يرثه الأب تعصيباً ، إذ الحديث الشريف يقول : « ألحقوا الفروض بأهلها وما تبقى فلأَوْلى رجل ذكر » وأولى رجل ذكر في حالة عدم وجود الابن ، أو ابن الابن هو الأب .

(١٢) ﴿ **فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث** ﴾ . أي : إذا انفرد الأبوان في الميراث ، فللأم الثلث ، وأخذ الأب الباقي تعصيباً ، أي يأخذ الثلثين . ولكن لنفرض أنه كان معهما زوج أو زوجة ، فالزوج في هذه الحالة يأخذ النصف ، والزوجة الربع ، فماذا تأخذ الأم بعد ذلك ؟ الذي عليه الفقهاء السبعة ، والأئمة الأربعة ، وجمهور العلماء ، أنها تأخذ ثلث الباقي ، لأن الأب أقوى من الأم في الإرث ، فلو أعطيناها ثلث

التركة في هذه الحالة ، لكانت في حالة وجود الزوج تأخذ ضعفي ما يأخذه الأب ، فينقلب الحكم إلى أن يكون للأنثى مثل حظ الذكرين ، وهذا يناقض البداءة، ثم ذكرت الآية حالة ثالثة للأبوين ، وهي اجتماعهما مع الإخوة .

﴿ **فإن كان له إخوة فلأمه السدس** ﴾ . أي : إن كان للميت اثنان من الإخوة والأخوات فصاعداً سواء كانوا من أب أو كانوا من أم ، أو كانوا لأب وأم ، فإنهم يحجبون الأم من الثلث إلى السدس ، دون أن يأخذوا هم شيئاً ، ويأخذ الأب في هذه الحال الباقي . أما الأخ الواحد فإنه لا يحجبها عن الثلث ، وكان أهل العلم يرون أن حكمة حجب الأم إلى السدس في حالة وجود الإخوة فيزاد في حصته وينقص من حصتها لأن مؤونة الأب أكثر بوجود الإخوة . ﴿ **من بعد وصيَّة يوصي بها أو دَيْن** ﴾ . أي : قسمة الأنصباء التي تقدمت إنما تكون من بعد وصيّة أو دَيْن . وأجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدّيْن مقدّم على الوصيّة ، والحكمة في تقديمها في التلاوة أن إخراجها مما يشقّ على الورثة ، وأن أداءها مظنة التفريط ، بخلاف الدّيْن ، فقدِّمت على الدّيْن ليسارعوا إلى إخراجها معه .

﴿ **آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً** ﴾ . أي : فرض الله الفرائض على ما هو عنده لحكمة ، ولو وكَّل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم أنفع لكم ، فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة . والتفاوت بالسهام بتفاوت المنافع ، وأنتم لا تدرون تفاوتها ، فتولى الله ذلك فضلاً منه ، ولم يكلها إلى اجتهادكم لعجزكم عن معرفة المقادير . ﴿ **فريضة من الله** ﴾ . أي : هذا الذي ذكرناه من تفصيل الميراث ، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض ، فرض من الله حكَمَ به وقضاه . وإنما ختمت الآية بهذا لكي لا يفهم فاهم من قوله تعالى : ﴿ **يوصيكم** ﴾ أن الأمر وصية غير لازمة ، بل هي فريضة لازمة . ولنتذكر مرة أخرى الصلة بين هذه الآية وقوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **كُتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إنْ ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين** ﴾ . ولنلاحظ كلمة فريضة هنا بعد قوله تعالى ﴿ **آباؤكم وأبناؤكم** ﴾ . ﴿ **إن الله كان عليما حكيما**﴾ علمه محيط ، وحكمته بالغة . وقد قسَّم الفرائض على ما قسَّمها ، وذلك من آثار علمه وحكمته ، فما أجهل من رفض ، وما أحمق من عاند ، وما أكثر المرتدين في عصرنا جهلًا وجاهلية . ﴿ **ولكم نصف ما ترك أزواجكم** ﴾ . أي : زوجاتكم ﴿ **إن لم يكن لهن ولد** ﴾ ابن أو بنت ﴿ **فإن كان لهن ولد** ﴾ منكم أو من غيركم ﴿ **فلكم الربع مما تركن من بعد وصيّة يوصِين بها أو ديْن** ﴾ والدَّيْن مقدَّم على الوصيّة ، وبعده

الوصية ، ثم الميراث . وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء . وحكم أولاد البنين وإن سفلوا ، حكم أولاد الصلب . ﴿ **ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين** ﴾ وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان والثلاث والأربع ، يشتركن فيه . ولاحظنا أن ميراث الرجل جُعِل ضعف ميراث الزوجة انسجاماً مع الأصل ﴿ **للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ ، ﴿ **وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة** ﴾ الكلالة : من لم يخلف ولداً ولا والداً ، وهو في الأصل مصدر بمعنى الكلال ، وهو ذهاب القوة من الإعياء ، ومافسّرنا به الكلالة هو قول الفقهاء السبعة ، والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف ، بل حكى الإجماع عليه غير واحد . ومعنى النص : إن كان الميت يورَث وهو كلالة : لا والد له ولا ولد ، أي : إن كان رجلاً مورثاً وهو كلالة ﴿ **وله أخ أو أخت** ﴾ . أي : من أم ، إذ لو لم يكونوا من أم هنا ، لكان الإرث بالتعصيب في حالة وجود الذكور . ﴿ **فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث** ﴾ لأنهم يستحقون بقرابة الأم ، وهي لا ترث أكثر من الثلث . ولهذ لا يفضل الذكر منهم على الأنثى ، قضى عمر أن ميراث الإخوة من الأم بينهم للذكر مثل حظ الأنثى .

﴿ **من بعد وصيّة يوصىٰ بها أو دين** ﴾ كررت ذكر الوصية والديْن لذكر الكلالة . ﴿ **غير مضار** ﴾ . أي : يوصي بها وهو غير مضار لورثته ، بأن يوصي بزيادة على الثلث ، أو يوصي لوارث ﴿ **وصيّة من الله** ﴾ أي ما مرّ مما بدىء بقوله تعالى ﴿ **يوصيكم** ﴾ وصية من الله ، فحافظوا عليها ، والتزموا بها ، وأقيموها ﴿ **والله عليم حليم** ﴾ عليم بمن جار ، أو عدل ، أو حرّف ، أو بدّل . عليم إذا شرع وحكم وقدّر ، حليم على الجائر لا يعاجله بالعقوبة ، فلا يغترّ من جار أو جنف ، ﴿ **تلك حدود الله** ﴾ أي : هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه ، وفقدهم له عند عدمه ، هي حدود الله سماها حدوداً ، لأن الشرائع كالحدود المضروبة للمكلفين لا يجوز لهم أن يتجاوزوها ، فذكرها هنا أمر بعدم تعديها وتجاوزها . ﴿ **ومن يطع الله ورسوله** ﴾ في حدوده ، فلم يزد ولم ينقص بحيلة أو وسيلة ، أو يتعدّ أو يتجاوز عملًا أو حالًا أو قولًا ﴿ **يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار وذلك الفوز العظيم * ومن يعص الله ورسوله ويتعدّ حدوده** ﴾ التي حدّها في باب المواريث وغيرها ، ﴿ **يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين** ﴾ لهوانه عند الله باستهانته بحدوده ، وكفره ، واستحلاله ما حرم الله ، وما أشده تهديداً ووعيداً في هذا

المقام ، تعرف حكمته في هذا العصر ، إذ تسمع الدعوات الفاجرة من ناس آباؤهم مسلمون ، أو يحملون أسماءً إسلامية ، يدعون إلى نسف شريعة الله في باب المواريث وغيرها .

فـــوائـــد :

١ - في الصحيحين وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال : « عادني رسول الله وأبو بكر في بني سلمة ماشيين ، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً ، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش عليَّ ، فأفقت فقلت : ما تأمرني أن أصنع في مالي يارسول الله ؟ فنزلت ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين** .. ﴾ وفي مسند الإمام أحمد عن جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت : « يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيداً ، وإن عمهما أخذ مالهما ، فلم يدع لهما مالاً ، ولا ينكحان إلا ولهما مال ، فقال : يقضي الله في ذلك ، فنزلت آية الميراث ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : أعط ابنتي سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقي فهو لك » .

أقول : من المعلوم أن العرب في الجاهلية لم يكونوا يورِّثون النساء شيئاً .

٢ - في قوله تعالى ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم** .. ﴾ إشعار لنا منه سبحانه أنه أرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، حيث أوصى الوالدين بأولادهم وغيرهم ، فعلم أنه أرحم بهم منهم ، فشرعه جل جلاله رحمة كله .

٣- روى البخاري عن ابن عباس قال : « كان المال للولد ، وكانت الوصية للوالدين فنسخ الله من ذلك ما أحبَّ ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث ، وجعل للزوجة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع » .

٤ - روى ابن أبي حاتم ، وابن جرير قولاً لابن عباس- وهو جزء من كلام طويل ، يصف حال الناس يوم نزلت آيات المواريث - قال واصفاً أهل الجاهلية : « لا يعطون الميراث إلا لمن قاتل القوم ، ويعطونه الأكبر فالأكبر » .

٥ - ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث » وقد مر معنا في سورة البقرة أن الوصية تجوز في حدود ثلث التركة بعد الديْن ، وإذا كان الورثة لا تجوز لهم الوصية زيادة عما فرضه الله لهم ،

فما حكم لو أقر الميت قبل وفاته لأحد الورثة بشيء عليه ؟ هل يصح الإقرار أو لا يصح ؟ قولان للعلماء . فمن ذهب إلى عدم صحته قال : لا يصح لأنه مظنّة التهمة . واختار الشافعي في الجديد أنّه يصح . ثم إن كان الإقرار صحيحاً مطابقاً لما في نفس الأمر جرى فيه الخلاف من حيث الإلزام للورثة ، لا من حيث الجواز ، ومتى كان حيلة ووسيلة إلى زيادة بعض الورثة ، ونقصان بعضهم ، فهو حرام بالإجماع بنص الآية ، وهي قوله تعالى : ﴿ **من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار** ﴾ وبنص الحديث « الإضرار في الوصية من الكبائر » وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى وحاف في وصيته ، فيختم له بِشَرِّ عمله فيدخل النار . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة ، فيعدل في وصيته ، فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة . قال : ثم يقول أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **تلك حدود الله** ﴾ إلى قوله تعالى .. ﴿ **عذاب مهين** ﴾ .

٦ – في كتب علم الفرائض يبحثون عادة موضوع الحقوق التي تتعلق بالتركة ، ويحددونها بأنها أربعة ، يُقدَّم بعضها على بعض : تكفينه وتجهيزه ، ثم قضاء ديونه ، ثم تنفيذ وصاياه من ثلث ما تبقّى ، ثم قسمة الباقي بين ورثته حسب الكتاب والسنة . ثم يبحثون مراتب الورثة ، وكيف أنه يبدأ بأصحاب الفرائض ، وهم الذين لهم سهام مقدَّرة في كتاب الله أو سنّة رسوله ، أو الإجماع . ثم بالعصبات من جهة النسب . والعصبة : كل من يأخذ ما أبقته الفرائض ، وعند الانفراد يحرز جميع المال . ثم بالعصبة من جهة السبب : وهو مولى العتاقة ، ثم عصبة المولى ، ثم الرد على ذوي الفروض النَّسبَية بقدر حقوقهم ، ثم ذوي الأرحام . ثم مولى الموالاة ، ثم المقر له بالنسب على الغير ، ثم الموصى له بجميع المال ، ثم بيت المال ، على خلاف في بعض الشؤون . ثم يذكرون موانع الإرث وهي أربعة : الرق ، والقتل ، واختلاف الدين ، واختلاف الدارين : دار الحرب ، ودار الإسلام ، سواء اختلفت حقيقة أو حكماً . ثم يبحثون موضوع الفروض ومستحقيها ، وعدد مستحقيها من الرجال والنساء ، ومجموعهم اثنا عشر ، أربع من الرجال ، وثمانية من النساء : الأب ، والجد ، والأخ لأم ، والأخت لأم ، والزوج ، والزوجة ، وبنات الصلب ، وبنات الابن ، والأخوات الشقيقات ، والأخوات لأب ، والأم ، والجدة ، ويبحثون عادة أحوال كل من هؤلاء ، ثم يبحثون موضوع العصبات ، وأقسامها ، وأصنافها ، وأيها يقدّم على غيره ، وأيها يحجب غيره ، وحال كل من العصبات . ثم يذكرون باب حجب النقصان ، وحجب الحرمان ، من

يُحجب ، ومن لا يُحجَب . ثم بحث العول ، وهي قضية خلافية ، وتكون في حالة ضيق المخرج عن فرض فماذا يفعل في هذه الحالة ؟ ثم يبحثون موضوع الرد ، ومن يرد عليه ، ومن لا يرد في حالة فضل المخرج عن فرض ذوي الفروض ولا مستحق له من العصبة يرد عليه ؟ ثم يبحثون موضوع المناسخة : وهي حالة ما إذا صار بعض الأنصباء ميراثاً قبل القسمة ماذا يفعل به ؟ ثم يبحثون موضوع توريث ذوي الأرحام وتفصيلات ذلك وترتيبه . ثم يبحثون موضوع الخنثى ، والحمل ، والمفقود ، والمرتد ، والأسير ، والغرقى ، والحرقى ، والعدمى . ويبحثون موضوع المسائل ، وكيفية حلها ، وكثيراً من الأمور الأخرى . نقول هذا ليعلم أن العودة في المواضيع الموسعة إلى كتبها التي اختصت بها شيء لابد منه .

وبهذه المناسبة نكرر قضيَّة مرت معنا : وهي أن القرآن لم يتحدث عن الموضوع الواحد في المكان الواحد . وكتب السنّة تروي ما ورد من الحديث في الموضوع الواحد ، ولا تعرِّج إلا نادراً عما ورد في القرآن فيه ، وإذا عرّجت فإنها لا تستقصي ، لأنه ليس من اختصاصها ، فلابد إذاً بشكل عفوي أن تنشأ العلوم الإسلامية ، وتؤلَّف الكتب التي تتحدث عن الموضوع الواحد في الكتاب والسنّة والإجماع ، وما يدخل في هذا الموضوع عن طريق القياس . ولابد أن تختلف الأفهام ، ومن ثمَّ نشأ علم أصول الفقه ، الذي يضبط الاجتهاد ، وطرقه ، ووسائله ، ويحدد أصوله ، كما نشأ علم الفقه ، وغيره من العلوم الإسلامية ، فما أجهل من يحارب دراسة الفقه ، أو التوحيد ، أو غير ذلك من العلوم الإسلامية في كتبها ، أو يستغرب وجود مدارسها ، وما أحمق من يفعل ذلك بحجة أنه لا تصح دراسة غير الكتاب والسنة ، فمن قال إن دراسة الكتاب والسُنة تناقض دراسة كتب الاختصاص ؟! إن الذي يستحق اللوم هو من يهمل دراسة الكتاب والسُنة بحجة دراسة غيرهما أما من يجمع فلا لوم عليه . وأما حكمة كون القرآن لم يذكر الموضوع الواحد في المكان الواحد ، فقد ذكرنا بعضها من قبل ، وسنذكر بعضها في نهاية هذا المقطع .

ولنعد إلى السياق :

(١٣) **﴿ واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموتُ أو يجعل الله لهن سبيلًا . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيما * إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر**

أحدَهم الموتُ قال : إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ .

المعنى العام :

الآية الأولى في عقوبة المرأة إذا ثبت زناها قبل أن ينزل الحكم النهائي في سورة النور ، فالحكم هنا مرحلي ، وقد ذكرت الآية ما يشعر بذلك ، وأما حكمة ذكر الآية مع نسخ حكمها فلذلك حِكَم سنذكرها .

والآية الثانية في عقوبة الرجلين يعملان عمل قوم لوط ، أمرنا الله - عز وجل - بتعزيرهما حتى إذا تابا وأصلحا كففنا عنهما . ويمكن أن تفهم الآيتان على أن الأولى في عقوبة المرأة إذا زنت ، والثانية فى عقوبة الرجال إذا زنوا ، وتكون الآيتان منسوختين بالحكم النهائي في عقوبة الزنا المذكورة في سورة النور .

وإذ ذكرت الآية الثانية توبة الزاني أو اللائط ، فقد تحدثت الآيتان الأخيرتان عن موضوع التوبة فبيَّن الله - عز وجل - أنه يقبل التوبة ممن عمل الذنب بجهالة - والعاصي جاهل حتى ينزع عن الذنب - إذا تاب قبل الغرغرة أي : قبل وصول الروح إلى الحلقوم عند الموت ، فمن تاب تاب اللهُ عليه . ثم بيَّن الله - عز وجل - أنه لا يقبل توبة من تاب بعد الغرغرة . وأن من مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا توبته ، ولا يقبل منه فدية . وأن هؤلاء قد أعدّ الله لهم عذاباً شديداً مقيماً .

المعنى الحرفي :

﴿ **واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم** ﴾ الفاحشة هنا هي الزنا ، وأطلق هذا الاسم عليه لزيادة الزنا في القبح على كثير من القبائح ، واللاتي جمع التي ﴿ **فاستشهدوا عليهن أربعة منكم** ﴾ . أي : فاطلبوا شهادة أربعة من المؤمنين يشهدون عليهن ، ﴿ **فإن شهدوا** ﴾ أي : عليهن بالزنا ﴿ **فأمسكوهن في البيوت** ﴾ . أي : احبسوهنّ في البيوت ﴿ **حتى يتوفاهنَّ الموتُ** ﴾ . أي : حتى تأخذهن ملائكة الموت ، أو حتى يأخذهن الموت ويستوفي أرواحهن ﴿ **أو يجعل الله لهن سبيلًا** ﴾ أو يجعل الله لهن طريقاً غير هذه . فالسبيل إذن هنا هو الحكم البديل الناسخ ، وقد كان . قال ابن عباس : كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور ، فنسخها بالجلد ، أو الرجم . وفي الحديث الصحيح : « كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي أثّر عليه ، وكرب لذلك ،

وتغيَّر وجهه ، فأنزل الله - عز وجل - عليه ذات يوم ، فلما سرّي عنه قال : « خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلًا الثّيب بالثّيب ، والبكر بالبكر ، الثيب جلد مائة ورجم بالحجارة ، والبكر جلد مائة ثم نفي سَنَة » والفقهاء مختلفون في موضوع الجمع بين الرجم والجلد ، وبين الجلد والنفي ، فمنهم من يعتبر الجمع منسوخاً ، ومنهم من يعتبر ما زاد على الرجم في الثيب والجلد في البكر من باب السياسة الشرعية ، ومنهم من يأخذه على ظاهره ، وهو موضوع يأتي في سورة النور . ﴿ **واللذان يأتيانها منكم** ﴾ للمفسرين أقوال في المراد بهؤلاء ، فمنهم من قال : هذا في الذكور الزناة قبل النسخ ، ومنهم من قال : هذا في الزانية والزاني جميعاً ، لكن الزانية تُعاقب زيادة على ذلك بالحبس ، ومنهم من قال : هذا في اللّوّاطين . ﴿ **فآذوهما** ﴾ . أي : بالشتم والتعيير والضرب . ﴿ **فإن تابا** ﴾ عن فعلهما ﴿ **وأصلحا** ﴾ بإحسان العمل ، دل ذلك على أن من علامة الصدق في التوبة إصلاح العمل ﴿ **فأعرضوا عنهما** ﴾ . أي : فاقطعوا التوبيخ والمذمة ولا تعنّفوهما ، ولا تعيّروهما بعد ذلك ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له) وكذلك لا يجوز التعيير بعد إقامة الحد ، وقد ثبت في الصحيحين « إذا زنت أَمَةُ أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب عليها » .

﴿ **إن الله كان توابا رحيما** ﴾ . أي : يقبل توبة التائب ويرحمه . ﴿ **إنما التوبة** ﴾ . أي : إنما قبول التوبة ﴿ **على الله** ﴾ كلمة « على » هنا لا تفيد الوجوب على الله ، إذ لا يجب على الله شيء ، ولكنه لتأكيد الوعد يعني أنه يكون لا محالة كالواجب الذي لا يترك . ﴿ **للذين يعملون السوء** ﴾ . أي : الذنب ﴿ **بجهالة** ﴾ ليس المراد بالجهالة هنا الجهل الذي يقابل العلم ، وإنما الجهل الذي يقابل العقل ، وقيل جهله : اختياره اللّذات الفانية على الباقية . وقيل ليس المراد جهالته بأن ارتكب ذنباً ، بل المراد جهالته بكنه عقوبته . روى عبد الرزاق عن قتادة قال : اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عُصي الله به فهو جهالة ، عمداً كان أو غيره . وقال مجاهد : « كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها » وإذن فهناك حالة يستوي فيها العلم والجهل ، حالة ما إذا فعل الإنسان الفعل كأثر عن غلبة نفس ، أو شهوة أو نزوة ، أو طيش أو حماقة .. فالمراد بالجهالة هنا ، ترك العلم . ﴿ **ثم يتوبون من قريب** ﴾ . أي : ثم يتوبون من زمان قريب ، وهو ماقبل حضرة الموت ؛ يدل على ذلك قوله في الآية اللاحقة : ﴿ **حتى إذا حضر أحدهم الموت** ﴾ فدل على أن وقت الموت هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة ؛ قال الضحاك : كل توبة قبل الموت فهو قريب ، وفي الحديث الحسن قال عليه الصلاة والسلام « إن الله

يقبل توبة العبد مالم يغرغر » فدل على أن كل ما كان قبل الموت فهو قريب . (**ومِنْ**) في قوله تعالى ﴿ **من قريب** ﴾ للتبعيض ، فصار المعنى : أي : يتوبون بعض زمان قريب ، كأنه سمَّى ما بين وجود المعصية ، وبين حضرة الموت زماناً قريباً ﴿ **فأولئك يتوب الله عليهم** ﴾ هذه عِدة من الله تعالى لمن تاب ، فإنه يفي له ، وإعلامٌ بأن الغفران كائن . ﴿ **وكان الله عليماً حكيماً** ﴾ عليماً بعزمهم على التوبة ، حكيماً بفتح باب التوبة ، وجعله الندم توبة . ﴿ **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن** ﴾ . أي لا توبة للذين يذنبون ويسوّفون توبتهم إلى أن يزول حال التكليف بحضور أسباب الموت ، ومعاينة ملَك الموت ، فإن توبة هؤلاء غير مقبولة ؛ لأنها حالة اضطرار لا حالة اختيار ، وقبول التوبة ثواب ، ولا وعْدَ به إلا لمختار ؛ وبعد أن ذكر ابن كثير أحاديث تؤيد هذا قال : فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله – عز وجل – وهو يرجو الحياة فإن توبته مقبولة ، وقال : وأما متى وقع الإياس من الحياة ، وعاين الملَك ، وخرجت الروح عن الحلق ، وضاق به الصدر ، وبلغت الحلقوم ، وغرغرت النفس صاعدة في الغَلَاصم (جمع غلصمة : وهي اللحم بين الرأس والعنق) فلا توبة مقبولة حينئذ ولات حين مناص » . ﴿ **ولا الذين يموتون وهم كفار** ﴾ . أي : وليست التوبة للذين يموتون وهم كفار ﴿ **أولئك** ﴾ دخل في ذلك الذين ماتوا ولم يتوبوا ، والذين ماتوا وهم كفار ﴿ **أعتدنا لهم عذاباً أليما** ﴾ . أي : هيأنا وحضَّرنا لهم عذاباً مؤلماً . ولسعيد بن جبير فهمٌ في هاتين الآيتين : فقوله تعالى ﴿ **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء ..** ﴾ جعلها في المؤمنين . وقوله تعالى ﴿ **وليست التوبة للذين يعملون السيئات .. قال إني تبت** ﴾ جعلها في المنافقين ، وقوله تعالى ﴿ **ولا الذين يموتون وهم كفار ..** ﴾ جعلها في الكافرين .

فـوائد :

١ ــ آية ﴿ **واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم** ﴾ منسوخة كما رأينا بما نزل في الموضوع في سورة النور ، وآية ﴿ **واللذان يأتيانها منكم ..** ﴾ إن فُسرت بأن المراد منها الزاني والزانية فهي منسوخة ، وإن فُسرت بأن المراد منها الفاعل والمفعول به فهي غير منسوخة ، وتكون دليلًا ظاهراً لأبي حنيفة في أنه يعزِّر في اللواطة ، ولا يحد حدّ الزنىٰ ، وقد يصل التعزير عنده إلى القتل . وهذه المسألة ترجع عنده إلى رأي الإمام ، فإن شاء عزَّر بما هو الأشد حتى القتل ، وإن شاء عزّر بما دون ذلك وعليه يحمل ماورد في تعدد العقوبات الواردة في شأن الفاعل والمفعول فيه ؛ ومن ذلك ما رواه أصحاب السنن عن

ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » .

٢ - يقول صاحب الظلال تعليقاً على قوله تعالى ﴿ **فاستشهدوا عليهن أربعة منكم** ﴾ : « وفي النص دقة واحتياط بالغان . فهو يحدد النساء اللواتي ينطبق عليهن الحد : « من نسائكم » - أي المسلمات - ويحدد نوع الرجال الذين يُسْتشهَدون على وقوع الفعل : « من رجالكم » - أي المسلمين - فحسب بهذا النص يتعين من توقع عليهن العقوبة إذا ثبت الفعل . ويتعين من تطلب إليهم الشهادة على وقوعه .

إن الإسلام لا يستشهد على المسلمات - حين يقعن في الخطيئة - رجالًا غير مسلمين . بل لابد من أربعة رجال مسلمين ﴿ **منكم** ﴾ من هذا المجتمع المسلم . يعيشون فيه ، ويخضعون لشريعته ، ويتبعون قيادته ، ويهمهم أمره ، ويعرفون ما فيه ومن فيه . ولا تجوز في هذا الأمر شهادة غير المسلم ، لأنه غير مأمون على عرض المسلمة ، وغير موثوق بأمانته وتقواه ، ولا مصلحة له ولا غيرة كذلك على نظافة هذا المجتمع وعِفته ، ولا على إجراء العدالة فيه . وقد بقيت هذه الضمانات في الشهادة حين تغير الحكم ، وأصبح هو الجلد أو الرجم » اهـ .

٣ - رأينا أن آية ﴿ **واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم ...** ﴾ قد وقع على بعض أحكامها نسخ ، فهي من الآيات التي تُضرب كمثال على نسخ الحكم مع بقاء التلاوة ، وحكمة نسخ الحكم مع بقاء التلاوة تثبيت وجود النسخ ، وابتلاء الخلق بذلك ، ثم إن نسخ حكم من أحكام الآية لا يعني نسخ كل شيء فيها ، فهي في مكانها وفي سياقها ، وفي معانيها تؤدي معاني كثيرة .

٤ - روى الإمام أحمد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « قال إبليس : يارب وعزتك لأزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الله عز وجل : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » . وروى الإمام أحمد أن أبا ذر حدّثهم أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يقبل توبة عبده ، أو يغفر لعبده ما لم يقع الحجاب ، قيل : وما وقوع الحجاب ؟ قال : تخرج النفس وهي مشركة » .

كلمة في السياق :

١ - نلاحظ في السياق القرآني أن الموضوع الواحد قد يتكرر في القرآن مرات

ومرات ، وأن الموضوع الواحد قد يوجد جزء منه في مكان ، وجزء منه في مكان آخر ، والحكمة في ذلك أن الموضوع يتكرر بحسب احتياجات تعميقه في النفس البشرية ، وأن الموضوع يتجزأ بحسب احتياج السياق الوارد فيه للجزء الوارد منه ، ويتجزأ ليذكره الإنسان أكثر من مرة . فالقرآن كتاب تربية وتزكية وإعجاز ، كما هو كتاب علم وحكمة ، كما هو كتاب تشريع وتوجيه للبشر في كل شيء ، وكتاب هذا شأنه تساق المواضيع فيه لا ككتب التشريع المجرد ، ولا ككتب العلم المجرد ، ولا ككتب الحكمة المجردة ، ولا ككتب المعجزات المجردة ، فهو على ما هو عليه يؤدي مجموعة أمور ويحقق مجموعة قضايا بآن واحد ، وبسبب من كونه كذلك فإن ملايين المواضيع تنبثق عنه بما يغطي احتياجات الزمان والمكان .

٢ - رأينا محل سورة النساء ضمن السياق القرآني العام ، والمقطع الذي مر معنا هو المقطع الأول في هذه السورة ، وهو مقطع إذا نظرنا إليه على ضوء محل سورة النساء في السياق القرآني العام كما رأيناه من قبل ، فإننا نفهم أن هذا المقطع قد ربّى الإنسان على التقوى لله في مجموعة أمور : معرفة الله ، وصلة الأرحام ، وحفظ أموال اليتامى ، وعدم الاعتداء عليها ، وعدم أكل أموالهم ظلماً وإعطائهم إياها كاملة ، وإعطاء المرأة حقها المالي ، وتوزيع تركة الميت على حسب ما أوصى الله ، ووأد الفاحشة بعقوبة فاعليها ، والحضّ على التوبة . وكل ذلك معان داخلة في المفهوم القرآني للتقوى ، وهو مفهوم أوسع من مفهوم التقوى في موازين العامة من الناس ، ونقصد بالعامة : كل من لم يتفقه في دين الله حق التفقه . فإذا تأكدتْ هذه المعاني من التقوى في المقطع الأول ، ينتقل السياق إلى المقطع الثاني ليبين لنا معاني جديدة في قضية التقوى . ونحب أن نذكّر هنا - ولو كررنا - : إن سورة النساء تفصّل في محورها ، من سورة البقرة . ومحورها يبدأ بالدعوة إلي العبادة كطريق للتقوي . وهنا نضيف ، إن مقاطع سورة النساء التي تبدأ في الغالب بقوله تعالي : ﴿ **يا أيها** ﴾ . إنما هي تفصيل للعبادة والتقوى بمعناهما الواسعين . فطاعة أمر الله وترك نهيه ، عبادة ، والتزام شرعه تقوى . فما من مقطع في سورة النساء إلا وهو تعميق لمفهوم العبادة ، كطريق للتقوى ، أو هو تعميق لمفهوم التقوى نفسه ، وما ينبثق عنها ، أو هو تبيان لما يدخل في التقوى من أجزاء .

٣ - هناك قاسم مشترك يجمع بين المقطع الأول والثاني ، وهو الكلام عما يسمى الآن بالأحوال الشخصية ، من زواج ، وإرث ، وانحراف جنسي ، وظلم للأيتام ، إلى

غير ذلك من قضايا مرت معنا ، أو ستمر ، وكل ذلك مرتبط بالآية التي صُدّرت بها السورة : فالآية ذكرت الرجال والنساء ، وذكرت الأرحام ، وجاء المقطع الأول والثاني في ذلك . ويأتي المقطع الثالث وفيه حديث عن أكل أموال الناس بالباطل ، وقتل الأنفس ، والتمرد وصلة ذلك بالآية الأولى كذلك لا تخفى ، وفي المقطع الثالث يأتي أمر بعبادة الله وحده ، ويأتي أمر بالإحسان ، ويأتي تحذير من الاختيال والفخر والبخل ، وصلة ذلك بالحياة الاجتماعية واضحة ، ومجيء الأمر بالعبادة في هذا السياق يشير إلى دور العبادة في إقامة ما سبقه وما سيلحقه من أحكام .

ثم يأتي مقطع يبدأ بالنهي عن قربان الصلاة في حالة السكر ؛ ولذلك صلة بالعبادة وفي ذلك المقطع يوضح الله - عز وجل - لنا مجموعة من مواقف أهل الكتاب ويستقر المقطع على قوله تعالي ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ ولذلك صلة بكل ما سبق ، ثم يأتي مقطع يأمر بالطاعة لله والرسول ﷺ ، ومقطعان في موضوع القتال ، ومقطع في موضوع الحكم بالقرآن ، وينتهي ذلك المقطع بقوله تعالي ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله** ﴾ فكأن المقاطع الثلاثة تتحدث عما تقوم به أداء الأمانات ، وعما يقوم به العدل ، ثم تستمر السورة في سياقها .

من مثل هذا يتضح لنا كيف أن للسورة سياقها الخاص كما سنرى تفصيلًا ، كما أنها مرتبطة بمحورها من سورة البقرة ، وبروابط هذا المحور ، وبامتداداته ، كما سنرى كذلك تفصيلًا ، فليكن ما مر معنا هنا بمثابة المقدمة لسياق المقاطع اللاحقة .

المقطع الثاني من سورة النساء

ويمتد من الآية (١٩) إلي نهاية الآية (٢٨) . وهذا هو :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ

شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ * وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۖ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ

وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَٰتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

كلمة في المقطع :

جاء هذا المقطع بعد الآيات التي تحدثت عما ينبغي أن يعاقب به فاعلو الفاحشة . فهو يكمل ذكر الأشياء التي لا ينبغي أن تكون في الحياة الاجتماعية . كما يذكر المحرمات من النساء . وفي سياقه يذكر العلاقة الزوجية والزواج ، والبديل عن زواج الحرائر . وصلة هذا المقطع بالمقطع السابق واضحة ، فكلا المقطعين يتحدث عن الأسرة ، وما يسمى الآن بالأحوال الشخصية . وكل ذلك جاء في سياق التذكير بأن أصل الإنسان من ذكر وأنثى . وأن الله - عز وجل - هو الخالق .

والمقطع يضيف إلى بناء التقوى ، مجموعة أمور . فليس من التقوى أن تكون المرأة كالمتاع يورث . ولا من التقوى أن يضغط الرجل على المرأة من أجل أن يأكل شيئاً من مهرها وهو يريد أن يطلقها . ولا من التقوى ، الزواج بزوجات الآباء . ولا من التقوى الزواج بمحرم . وسنعرض المقطع على فقرات . فلنبدأ :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كَرْهاً ولا تعضُلُوهنَّ لتذهَبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبيّنة وعاشروهنَّ بالمعروف فإن كرهتموهن

فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً * وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضُكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً * ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلًا ﴾ .

المعنى العام :

كانت المرأة فى الجاهلية ، تُورث كما يورث المتاع ، فكانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته . إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاؤوا زوجوها . وإن شاؤوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها من نفسها ومن أهلها . فأنزل الله تحريم ذلك في الآية الأُولى من هذا المقطع ، فنهى فيه عن إرثهن وما كانوا يرتبون عليه ، كمانهى عن مضارتهن بالعِشْرة وقهرهن حال كراهيتهن ، من أجل أن يتخلين عن حقوقهن ليُخلِّصْن أنفسهنَّ . ولم يسمح بذلك إلا في حالة واحدة : في حالة الزنا ، فقد سمح فيه أن يضاجرها ليسترجع صداقها ويخالعها . وهذا إذا لم يرد أن يلجأ إلى اللعان ، فإذا لاعن طُلّقت منه ، وسقط حقه في المهر . ثم أمر بالإحسان بعشرتهن بطيب القول ، وحسن الفعل ، وتحسين الهيئة . ثم بيَّن أنه حتى لو كان الرجل يكره امرأته فإنه يندب له أن يصبر ويمسك ، إذ عسى أن يكون في الصبر على إمساكهن مع الكراهة خير كثير في الدنيا والآخرة . كأن يرزق منها ولد ، ويكون في ذلك الولد خير كثير . وفي الحديث الصحيح : « لا يفرك مؤمن مؤمنة ، إن سخط منها خلقاً رضي منها آخر » .

وفي الآية الثانية بيَّن الله - عز وجل - أن الزوج إذا أراد أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها ، فلا يأخذ مما كان أصدق الأولى شيئاً ، ولو كان قنطاراً من المال . إذ كيف يؤخذ من الصداق بعد ما حدث من الجماع ، وكان العقد والعهد . فهذا يقتضي إن كان طلاق ألَّا يكون استرجاع صداق . ثم نهى الله - عز وجل - عن نكاح زوجات الآباء ، تكرمة لهم ، وإعظاماً واحتراماً أن توطأ من ولده من بعده . حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها . وهذا أمر مجمع عليه . وقد بشَّعه الله غاية التبشيع . فوصفه بأنه فاحشة ، وأن الله يمقت عليه . وأنه بئس طريقاً لمن سلكه من الناس .

المعنى الحرفي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً** ﴾ . أي : لا يحل لكم أن

تأخذوا النساء على سبيل الإرث ، كما تحاز المواريث ، وهنّ كارهات لذلك ، أو مكرهات. والتقييد بالكره ، لا يدل على الجواز عند عدمه، لأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي ما عداه كما في قوله تعالى : (في سورة الإسراء) ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق** ﴾ . ﴿ **ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن** ﴾ العضل هنا : الحبس والتضييق . أي : لا تحبسوهنَّ ، وتضيقوا عليهن ليفتدين منكم بأموالهنَّ ، ويختلعن ببعض ما دفعتم لهنَّ من المهر . ﴿ **إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾ :الفاحشة تطلق على الزنا . وقد فسَّرها بعضهم بذلك . وعلى هذا فإن المعنى إلا أن يزنين . فإن فعلت حلَّ لزوجها أن يسألها الخلع . وبعضهم فسر الفاحشة في الآية بالذنب المتعلق بهذه الشؤون ، وهو هنا النشوز وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء . فيكون المعنى : إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن فقد عذرتم في طلب الخلع . والفاحشة المبيِّنة ، هي الواضحة .

﴿ **وعاشروهنَّ بالمعروف** ﴾ . في البيتوتة ، والنفقة ، والإجمال في القول ، والملاطفة ، والمداعبة وبسط الوجه ، والتودد ، والمؤانسة . ﴿ **فإن كرهتموهن** ﴾ . لقبحهنَّ ، أو سوء خُلُقهنَّ ، أو لانصراف قلوبكم عنهنَّ ، ﴿ **فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** ﴾ . أي : ويجعل الله في ذلك الشيء ، أو في الكره ثواباً جزيلًا ، أو ولداً صالحاً . والمعنى : فإن كرهتموهن فلا تفارقوهن لكراهة الأنفس وحدها . فربما كرهت النفس ما هو أصلح في الدين وأدنى إلى الخير ، وأحبت ما هو بضد ذلك . فإن فارقتم ففارقوا لا من حيث الكره ، ولكن من حيث ما هو الأصلح . وإذن فالمعنى : فإن كرهتموهن ، فاصبروا عليهن مع الكراهية ، فلعل لكم فيما تكرهونه خيراً كثيراً قد لا تجدونه فيما تحبونه . ﴿ **وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج** ﴾ أي : وإن أردتم تطليق امرأة وتزوج أخرى . ﴿ **وآتيتم إحداهن قنطاراً** ﴾ . أي : وأعطيتم إحدى الزوجات مالًا عظيماً . ﴿ **فلا تأخذوا منه شيئاً** ﴾ أي: لا تأخذوا أيَّ شيء من هذا المال الكثير الذي أعطيتموهن إياه مهراً . ﴿ **أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً** ﴾ : الإثم المبين : الذنب الواضح ، والبهتان : أن تستقبل الرجل بأمر قبيح تقذفه به وهو بريء منه ، لأنه يُبْهت عند ذلك أي يتحيرَّ ، والمعني : أتأخذونه باهتين وآثمين . ﴿ **وكيف تأخذونه** ﴾ . إنكار للأخذ بعد حدوث ما يأتي . ﴿ **وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** ﴾ . الإفضاء : هو الخلوة في الأصل وما يكون فيها من جماع . والميثاق الغليظ : هو العهد الوثيق . والمعنى : كيف تأخذون من المهر بعد أن خلا بعضكم إلى بعض ، وبعد عقد الزواج وما يحتويه ضمناً من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان وغير ذلك ، ثم تطلقوهن ،

فكيف تأخذون من مهورهن شيئاً . ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء** ﴾ . أي : لا تطئوا ما وطىء آباؤكم من النساء . ﴿ **إلا ما قد سلف** ﴾ . أي : لكن ما قد سلف ، فإنكم لا تؤاخذون به . ﴿ **إنه** ﴾ . هذا العقد على نساء الآباء ﴿ **كان فاحشة** ﴾ .أي : بالغة في القبح . ﴿ **ومقتاً** ﴾ . أي : بغضاً عند الله ، وعند المؤمنين . ﴿ **وساء سبيلًا** ﴾ . أي : وبئس الطريق طريقاً ذلك .

فوائد :

١ – في أسباب نزول الآية الأولى عبارات كثيرة للمفسرين ننقل بعضها :

أ – قال ابن عباس . « كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته . إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاؤوا زوجوها. وإن شاؤوا لم يزوجوها . فهم أحق بها من أهلها . فنزلت هذه الآية . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً** ... ﴾ » رواه البخاري وغيره . وفي الآية نفسها قال ابن عباس . (وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته ، فيعضلها حتى تموت ، أو ترد إليه صداقها . فأحكم الله تعالى عن ذلك) . أي نهى عنه . رواه أبو داود .

وفي الآية نفسها قال ابن عباس . (كان الرجل إذا مات وترك جارية ، ألقى عليها حميمُه ثوبه ، فمنعها من الناس ، فإن كانت جميلة تزوجها ، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت ، فيرثها) . وقال زيد بن أسلم في سبب نزول الآية : « كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم في الجاهلية ، ورث امرأته من يرث ماله . وكان يعضلها حتى يرثها أو يزوجها من أراد ، وكان أهل تهامة يسيء الرجل صحبة المرأة حتى يطلقها ، ويشترط عليها أن لا تنكح إلا من أراد ، حتى تفتدي منه ببعض ما أعطاها ، فنهى الله المؤمنين عن ذلك » رواه ابن أبي حاتم .

ب – وقال عطاء : إن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل وترك امرأة حبسها أهلها على الصبي يكون فيهم ، فأنزل الله ﴿ **لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً** ﴾ .

ج – وقال مجاهد : (كان الرجل إذا توفي ، كان ابنه أحق بامرأته . ينكحها إن شاء إذا لم يكن ابنها ، أو يُنكحها من شاء : أخاه ، أو ابن أخيه) .

د – وقال عكرمة : (نزلت في كبيشة بنت معن بن عاصم بن الأوس . توفي عنها أبو

قيس بن الأسلت . فجنح عليها ابنه . فجاءت رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله : لا أنا ورثت زوجي ، ولا أنا تُركت فأُنكح ، فأنزل الله هذه الآية) .

٢ – وفي قوله تعالى : ﴿ **إلا أن يأتين بفاحشة مبيّنة** ﴾ . اختار ابن جرير أن ذلك الزنا ، والعصيان ، والنشوز ، وبذاء اللسان ، وغير ذلك . يعني أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها ، أو بعضه ، ويفارقها . قال ابن كثير : (وهذا جيد) .

٣ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وعاشروهن بالمعروف** ﴾ . قال ابن كثير : (وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة دائم البِشر ، يداعب أهله ، ويتلطف بهم ، ويوسعهم نفقة ويضحك نساءه ، حتى كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها يتودد إليها بذلك قالت : سابقني رسول الله ﷺ فسبقته ، وذلك قبل أن أحمل اللحم . ثم سابقته بعدما حملت اللحم ، فسبقني . فقال ﷺ « هذه بتلك » . ويجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ ، فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها ، وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد ، يضع عن كتفيه الرداء ، وينام بالإزار ، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلًا قبل أن ينام ، يؤنسهم بذلك ﷺ) .

٤ – قال عبد الله بن المبارك في قوله تعالى :

﴿ **لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً** ﴾ . (في الجاهلية . ﴿ **ولا تعضلوهن** ﴾ . في الإسلام) . وهذه لفتة كريمة من ابن المبارك فإرث النساء انتهى . ولكن العضل لا زال محتملًا .

٥ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وآتيتم إحداهنّ قنطاراً** ﴾ . قال ابن كثير : (وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل . وقد كان عمر بن الخطاب نهى عن كثرة الإصداق ثم رجع عن ذلك كما روى الإمام أحمد ... عن أبي العجفاء السلمي قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : (ألا لا تغالوا في صداق النساء . فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا ، أو تقوى عند الله ؛ كان أولاكم بها النبي ﷺ . ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه ، ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية . وإن كان الرجل ليبتلى بصدقة امرأته حتي يكون لها عداوة في نفسه . وحتى يقول : كلفت إليك علق القربة) . والأثر حسن صحيح كما قال الترمذي ...

وكلام سيدنا عمر هنا لا اعتراض عليه . فهو ندب إلى تخفيف المهور . ولكن روايات أخرى تذكر أنه عزم على الناس ألا يزيدوا على أربعمائة درهم . وأراد أن يمنع الزيادة بقوة السلطان . وعندئذ اعترضته امرأة من قريش . فقالت : يا أمير المؤمنين . نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم ؟ . قال : نعم . فقالت : أما سمعت ما أنزل الله في القرآن ؟ . قال : وأي ذلك ؟ . فقالت : أما سمعت الله يقول : ﴿ **وآتيتم إحداهن قنطاراً** ...﴾ الآية . قال : اللهم غفراً . كل الناس أفقه من عمر . ثم رجع ، فركب المنبر فقال : يا أيها الناس . كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم . فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب . قال أبو يعلى : فمن طابت نفسه فليفعل » إسناده قوي .

٦ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿**وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً**﴾ قال ابن كثير : وفي صحيح مسلم عن جابر في خطبة حجة الوداع أن النبي ﷺ قال فيها : « واستوصوا بالنساء خيراً فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله » .

٧ - وفي سبب نزول ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم** ...﴾ . ذكر ابن كثير رواية أخرى لحادثة مرت من قريب قال : أخرج ابن أبي حاتم : لما توفي أبو قيس - يعني ابن الأسلت - وكان من صالحي الأنصار - فخطب ابنه قيس امرأته فقالت : إنما أعدّك ولداً وأنت من صالحي قومك ، ولكني آتي رسول الله ﷺ فقالت : إن أبا قيس توفي فقال خيراً . ثم قالت : إن ابنه قيساً خطبني وهو من صالحي قومه وإنما كنت أعده ولداً فما ترى فقال لها : « ارجعي إلى بيتك » قال : فنزلت ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء** ... ﴾ الآية .

٨ - ذكر ابن كثير حكمةً لتحريم زوجة الأب على الابن فقال : فإن في الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله ؛ ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة ، لأنهن أمهات لكونهن زوجات النبي ﷺ وهو كالأب ، بل حقُّه أعظم من حق الآباء بالإجماع ، بل حبُّه مُقدّم على حب النفوس (صلوات الله وسلامه عليه) . أقول : ولئن كانت هذه حكمة فهناك حِكَم أخرى ، فالرجل سيد زوجته ، وأمه سيدته ، فما أبشع أن يحل أمه محل تابعته ، وزوجة أبيه أم له ، والمسألة ذات وجوه أكثر تعقيداً ، وأبعد عن أن يتكلم بها ، يحس ذلك ذو الذوق المرهف . ثم قال ابن كثير : فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه فيقتل ويصير ماله فيئاً لبيت المال ، كما رواه الإمام أحمد ، وأهل السنن من طرق عن البراء بن عازب عن خاله أبي بردة وفي رواية عمر « أنه بعثه رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه

من بعده أن يقتله ويأخذ ماله » .

٩ - قال ابن كثير : وقد أجمع العلماء على تحريم من وطئها الأب بتزويج أو ملك أو شبهة ، واختلفوا فيمن باشرها بشهوة دون الجماع ، أو نظر إلى ما لا يحل له النظر إليه منها لو كانت أجنبية فعن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنها تحرم أيضاً بذلك . أقول : وعند الحنفية لو لمسها بشهوة أو نظر إلى فرجها الداخل بشهوة فإنها تحرم على ابنه وتحرم عليه بنتها .

١٠ - أخذ الحنفية من قوله تعالى ﴿ **وقد أفضى بعضكم إلى بعض** ... ﴾ أن الخلوة الصحيحة توجب المهر ولو لم يكن جماع لأن الإفضاء في الأصل : الخلوة .

﴿ حُرِّمت عليكم أُمهاتُكُم وبناتُكُم وأخواتُكُم وعمّاتُكُم و خالاتُكُم وبناتُ الأخ وبناتُ الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتُكُم من الرضاعة وأمهاتُ نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهنّ فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف إن الله كان غفورا رحيما * والمحصناتُ من النساء إلا ماملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأُحلَّ لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما ﴾ .

المعنى العام :

لما ذكر في أول السورة نكاح ماحلّ من النساء ، وذكر بعض ماحرم قبل هذا وهن نساء الآباء ، ذكر هنا المحرمات الباقيات ، وهن سبع من النسب ، وسبع من السبب ، وبدأ بالنسب ، فهاتان الآيتان هما آيتا تحريم المحارم ، ومايتبعه من الرضاع ، والمحارم بالصهر ، وبعد أن عدّد الله المحارم ، بيَّن أنَّ ماعدا مَن ذُكرن هنَّ لنا حلال ، إذا حصَّلناهنَّ بأموالنا من زوجات أربع ، أو ماشئنا من السراري بالطريق الشرعي ، لاعن طريق سفاح ، وأنه كما نستمتع بهن فعلينا أن ندفع لهن مهورهن ، في مقابل ذلك ، إلا إذا وضعت هي لك منه شيئاً ؛ فهو لك سائغ ، وختم الآية الأخيرة بالتذكير بعلمه وحكمته ؛ فهو إن حرَّم حرّم بعلم ، ووضع كلَّ شيء محله ، يفهم من ذلك أن ماحرّمه علينا ففي تحريمه محض الحكمة ، وتحريمه أثر العلم .

المعنى الحرفي :

﴿ **حُرِّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبناتُ الأخ وبناتُ الأخت** ﴾ هؤلاء المحرمات السبع من النسب . ١ ــ الأمهات ، والجدة من قِبَل الأم أو الأب في حكم الأم . ٢ ــ البنات ، وبنات الابن ، وبنات البنت ملحقات بهن . ٣ ــ الأخوات ، سواء كن أخوات لأب وأم ، أو أخوات لأب ، أو أخوات لأم . ٤ ــ العمّات : وهن أخوات الأب من أمه أو من أبيه ، أو من أبيه وأمه ٥ . ــ الخالات وهن أخوات الأم ، سواء كن أخواتها لأمها ، أو لأبيها ، أو لأبيها وأمها . ٦ ــ بنات الأخ سواء كان أخاً لأم ، أو أخاً لأب أو أخاً لأب وأم . ٧ ــ بنات الأخت سواء كانت أختا لأب ، أو لأم ، أو لأب وأم ﴿ **وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف إن الله كان غفورا رحيما * والمحصناتُ من النساء إلا ماملكت إيمانكم** .. ﴾ .

هؤلاء المحرمات بسبب وهن سبع: **١ ، ٢** ﴿**وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة**﴾ . أنزل الله الرّضاعة منزلة النسب ؛ فسمَّى المرضِعة أمّاً للرضيع والمراضعة أختاً ، فكما تحرم عليك أمك التي ولدتك أو أختك ؛ تحرم عليك أُمّك التي أرضعتك ، وبناتها ، وبنات أبيك من الرضاعة قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه مسلم « يحرم من الرضاعة مايحرم من النسب » وعلى هذا فزوج المرضعة أب للرضيع ، وأبواه جداه ، وأخته عمته ، وكل ولد وُلد لزوج المرضعه ولو من غير مرضعته قبل الرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه ، وأم المرضعة جدته وأختها خالته وكل من وُلد لها من هذا الزوج ، فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه ومن وُلد لها من غيره فهم إخوته وأخواته لأم في الحكم .

٣ ــ ﴿ **وأمهاتُ نسائكم** ... ﴾ سواء دخل بمن عقد عليها أو لم يدخل فإن أمها تحرم عليه فبمجرد العقد على البنات تحرم أمهاتهن .

٤ ــ ﴿ **وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن . فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم** ﴾ . القاعدة : أن الدخول بالأمهات يحرم بناتهنّ ، أما مجرد العقد على الأمهات بلا دخول بهن فإنه لايحرم بناتهن ، والربائب جمع ربيبة ، والربيبة والربيب : هما ولد المرأة من غير زوجها ، سُمّيا بذلك لأن زوج الأم يربيهما كما يربي ولده في

الغالب ، ثم تُوسِّع في ذلك ، فسميا به وإن لم يربهما . وذكر الحِجر في الآية على غلبة الحال دون الشرط ، وفائدة ذكره التعليل للتحريم ، أي : إنهن لاحتضانكم لهن أو لكونهن بصدد احتضانكم لهن ، كأنكم في العقد على بناتهن عاقدون على بناتكم . والربيبة إنما تحرم إذا دخل الرجل بأمها ، فإذا لم يدخل بأمها فلا إثم عليه أن يتزوجها . والدخول بالأمهات كناية عن الجماع . واللمس ونحوه يقوم مقام الدخول . وهل يحق له أن يتزوجها إذا لم يدخل بأمها مع بقاء العقد على أمها ؟ . بديهي أنه لايجوز له ذلك . لأنه لو فعل ، يكون قد جمع بين المرأة وابنتها ، وهو لايجوز . وإذن يجوز له أن يتزوج بنت زوجته التي لم يدخل بها بعد طلاق أمها أو بعد موتها . وهل يحل له أن يتزوج بنتها بعد طلاق أمها مباشرة ؟ الجواب نعم لأنه إذا طلقها ولم يدخل بها كان الطلاق بائناً ولا عدة عليها .

٥ ـــ ﴿ **وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم** ﴾ . الحلائل : جمع حليلة . وهي الزوجة . لأن كل واحد منهما يحل للآخر . أو يحل فراش الآخر ، من الحل ، أو الحلول . والمعنى :أن أزواج أبنائكم الذين من أصلابكم ، محرمات عليكم . وذكر أبناء الأصلاب ، لإخراج أزواج من كانوا يتبنونهم . وقد زوَّج الله رسوله ﷺ زينب حين فارقها زيد . وقال الله تعالى (فى سورة الأحزاب) مبيِّناً حكمة هذا التزويج . ﴿ **لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم** ﴾ . وليس هذا لنفي الحرمة عن حليلة الابن من الرضاع . لدخول ذلك في السنة . والحكم الحرمة سواء دخل بها الابن أو لم يدخل ، فإنها تحرم على أبيه .

٦ ـــ ﴿ **وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف** ﴾ . أي : وحرِّم عليكم الجمع بين الأختين في النكاح . ولكن مامضى مغفور . قال ابن كثير في تفسيرها . (وحرم عليكم الجمع بين الأختين معاً في التزويج) . وكذا في ملك اليمين بأن يطأ الأختين المملوكتين له إلا ماكان منكم في جاهليتكم ، فقد عفونا عنه ، وغفرنا له. فدلَّ على أنه لامثنوية فيما يستقبل . لأنه استثني ما سلف .... وقد أجمع العلماء من الصحابة ، والتابعين ، والأئمة قديماً ، وحديثاً على أنه يحرم الجمع بين الأختين في النِّكاح ، ومن أسلم وتحته أختان خيِّر ، فيمسك إحداهما ، ويطلق الأخرى لا محالة .

وبمناسبة عفو الله عما سلف من الجمع بين الأختين ، فقد ختم الله هذه الآية بقوله . ﴿ **إن الله كان غفورا رحيما** ﴾ . غفر لكم مامضى مما لم يسبق إليكم فيه بلاغ . ورحمكم بهذا الشرع الذي لم يحرِّم إلا مافي تحريمه رحمة بكم ، وحكمة بالغة ، تستفيدون بها في

دنياكم ، وأخراكم . ومن رحمته بكم أن حرّم عليكم ماحرم من المحرمات ؛ لما في التحريم من مصالح لأنفسكم ، ولمحارمكم .

٧ ــ ﴿ **والمحصنات من النساء إلا ماملكت أيمانكم** ﴾ . المحصنات من النساء : أي ذوات الأزواج لأنهنَّ أحصنَّ فروجهن بالتزويج ، ثم استثنى من ذلك ذوات الأزواج إذا ملكنا هنَّ بالسبي وأزواجُهن في دار الحرب . قال النسفي : (والمعنى :وحرم عليكم نكاح المنكوحات أي :اللائي لهن أزواج ، إلا ماملكتموهن بسبيهنّ فتحل الغنائم بملك اليمين بعد الاستيلاء) وبعد أن ذكر الله المحارم من النسب أو السبب قال تعالى : ﴿ **كتاب الله عليكم** ﴾ . أي : فريضة الله عليكم أي : كتب الله عليكم فالزموا كتابه ، ولا تخرجوا عن حدوده ، والزموا شرعه ، وما فرضه . ﴿ **وأحل لكم ماوراء ذلكم** ﴾ . أي : وأحل لكم ماسوى المحرمات المذكورة مما عدا من ذكرن من المحارم ، فهنّ حلال لكم . ﴿ **أن تبتغوا بأموالكم** ﴾ . أي : يبيِّن لكم مايحل ومايحرم لأن تبتغوا بأموالكم ماأحل الله لكم من الزوجات إلى الأربع ، أو السراري . وذكر الأموال في هذا المقام ، دليل على أن النكاح لايكون إلا بمهر ، وأنه يجب المهر وإن لم يسمّ ، وأن غير المال لايصلح مهراً ، وأن القليل لايصلح مهراً إذ الحبة لا تعد مالًا عادة . ﴿ **محصنين غير مسافحين** ﴾ . الإحصان : هو العفة وتحصين النفس من الوقوع في الحرام ، والمسافح : الزاني من السفح : وهو صب المني في غير محله الصحيح وهو الفرج الحلال ، أي : ابتغاؤكم بأموالكم ينبغي أن يكون في حال كونكم محصنين ، لا مسافحين ، لئلا تضيعوا أموالكم فيما لا يحل . فتخسروا دينكم ودنياكم . ولافساد أعظم من الجمع بين الخسرانين . ﴿ **فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن** ﴾ . أي : فما نكحتموه منهنّ فآتوهن مهورهن مقابله . إذ المهر ثواب البُضع . ﴿ **فريضة** ﴾ . أي : فرض ذلك فريضة . أي : فرض إيتاء المهور في مقابل النكاح فريضة . ﴿ **ولاجناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة** ﴾ . أي : ولاإثم عليكم فيما تراضيتم به فيما تحط هي عنه من المهر ، أو تَهَب له من كله ، أو فيما يزيدها هو على ماتم الشروط عليه ، أو فيما يتراضيان به من مقام أو فراق بعد أن تتم الفريضة وتستقر .

﴿ **إن الله كان عليماً حكيماً** ﴾ : عليماً بما خلق عليماً بما شرع لخلقه ، حكيماً فيما خلق ، وشرع ، وفرض . ومن ذلك ماشرعه من عقد النكاح الذي به تُحفظ الأنساب ، ويبقى النسل ، وتسعد المرأة والرجل .

فوائد :

١ ـ رأينا أن من جملة المحرمات، البنات. وقد استدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى ﴿**وبناتكم**﴾ فإنها بنت فتدخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة، ومالك، وأحمد بن حنبل. وقد حكي عن الشافعي شيء في إباحتها، لأنها ليست بنتاً شرعيةً ، فكما لم تدخل في قوله تعالي : ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ فإنها لاترث بالإجماع ، فكذلك لاتدخل في الآية ، والله أعلم .

٢ ـ قال بعض الفقهاء : كل مايحرم من النسب يحرم من الرضاعة ، إلا أربع صور . وقال بعضهم : ست صور هي مذكورة في كتب الفروع ، والتحقيق أنه لايستثنى شيء من ذلك لأنه يوجد مثل بعضها في النسب ، وبعضها إنما يحرم من جهة الصهر ، فلا يرد على القاعدة المأخوذة من نصوص الأحاديث شيء .

٣ ـ اختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرمة : فمنهم من قال : القطرة الواحدة في سنّ الرَّضاع تحرِّم ، ومنهم من قال : لاتحرِّم أقل من خمس رضعات .

٤ ـ في الصحيحين : أن أم حبيبة قالت : يارسول الله ! انكَح أختي بنت أبي سفيان . وفي لفظ لمسلم : عزة بنت أبي سفيان . قال : « أو تحبين ذلك ؟ » . قالت نعم . لست بك بمخلية ، وأحَب من شاركني في خيرٍ أختي . قال : « فإن ذلك لايحل لي » . قالت : فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة . قال : « بنت أم سلمة » ؟ قالت : نعم . قال : « إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ، ماحلت لي . إنها لبنت أخي من الرضاعة ، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة ، فلا تعرضن عليّ بناتكن ، ولاأخواتكن » . وفي رواية للبخاري : « إني لو لم أتزوج أم سلمة ، ماحلت لي » . جعل في هذا الحديث مناط التحريم ، مجرد تزوجه أم سلمة . وهذا أصل للقاعدة ، أن الدخول في الأمهات يحرِّم البنات ، وأن العقد على البنات يحرم الأمهات . وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة ، والفقهاء السبعة ، وجمهور السلف ، والخلف .

٥ - قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله : لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة وبنتها بملك اليمين . لأن الله حرَّم ذلك في النكاح ، قال : ﴿ **وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي فى حجوركم من نسائكم** ﴾ . وملك اليمين عندهم ، تبع للنكاح ، إلا ما روي عن عمر وابن عباس . وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ، ولا من تبعهم .

٦ - رأينا أن الدخول بالأمهات ، يحرم البنات . وقد قال الحنفية : إن الخلوة الصحيحة دخول وبها تحرم البنت . ولكن ابن جرير قال : وفي إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأة لا تحرِّم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ، ومباشرتها ، وقبل النظر إلى فرجها بشهوة ، ما يدل على أن معنى ذلك (أي الدخول) هو الوصول إليها بالجماع .

٧ - عن إياس بن عامر قال : سألت علي بن أبي طالب فقلت : إن لي أختين مما ملكت يميني . اتخذت إحداهما سرية ، فولدت لي أولاداً . ثم رغبت في الأخرى . فما أصنع ؟ . فقال علي : تعتق التي كنت تطأ ، ثم تطأ الأخرى . قلت : فإن ناساً يقولون : بل تزَوِّجها ثم تطأ الأخرى . فقال علي : أرأيت إن طلقها زوجها ، أو مات عنها . أليس ترجع إليك ؟ . لأن تعتقها أسلم لك . ثم أخذ عليٌّ بيدي فقال لي : إنه يحرم عليك مما ملكت يمينك ما يحرم عليك في كتاب الله - عز وجل - من الحرائر إلا العدد . ويحرم عليك من الرَّضاع ما يحرم عليك في كتاب الله من النسب . قال أبو عمر بن عبد البر بعد أن ذكر هذا الأثر مبيناً قيمته : هذا الحديث رحلة رجل لو لم يصب من أقصى المغرب والمشرق إلى مكة غيره ، لما خابت رحلته . قال ابن كثير : وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله تعالى : ﴿ **حرّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم** ... ﴾ إلى آخر الآية أن النكاح وملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء ، وكذلك يجب أن يكون نظراً وقياساً الجمع بين الأختين ، وأمهات النساء والربائب . وكذلك هو عند جمهورهم وهم الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها .

٨ - روى الإمام أحمد وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (أصبنا سبياً من سبي أوطاس ، ولهنَّ أزواج ، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج ، فسألنا النبي ﷺ . فنزلت هذه الآية : ﴿ **والمحصنات من النساء إلا ماملكت أيمانكم** ﴾ فاستحللنا فروجهن) .

٩ - حمل بعضهم قوله تعالى : ﴿ **فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة** ﴾ . على أنه في نكاح المتعة . والنص لايُفهم ذلك كما رأينا . وسواء كانت في نكاح المتعة أو لم تكن ، فحرمة نكاح المتعة مقررة في السنة وثابتة فيها ، فالمسألة تدور بين كون الآية منسوخة بالسنّة إذا فهمناها على أنها في المتعة . أو أنها غير منسوخة إذا فهمناها على أنها في غير المتعة . والعمدة في تحريم المتعة ماثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال : (نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة ، وعن لحوم

الحُمُر الأهلية يوم خيبر) . وفي صحيح مسلم عن سبرة بن معبد الجهني أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقال : « ياأيها الناس : إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء ، وإن الله قد حرّم ذلك إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهنّ شيء فليخلِ سبيله ولاتأخذوا مما آتيتموهنّ شيئاً » .

١٠ ــ ذكر صاحب الظلال تعليقاً على الآيات التي حرّمت علينا ماحرّمت من النساء فقال : « هذه هي المحرمات في الشريعة الإسلامية ، ولم يذكر النص علة للتحريم ــ لاعامة ولاخاصة ــ فكل مايذكر من علل ، إنما هو استنباط ورأي وتقدير .. فقد تكون هناك علة عامة . وقد تكون هناك علل خاصة بكل نوع من أنواع المحارم . وقد تكون هناك علل مشتركة بين بعض المحارم . وعلى سبيل المثال يقال : إن الزواج بين الأقارب يضوي الذرية ، ويضعفها مع امتداد الزمن . لأن استعدادات الضعف الوراثية قد تتركز وتتأصل في الذرية ، على عكس ماإذا تركت الفرصة للتلقيح الدائم بدماء أجنبية جديدة ، تضاف استعداداتها الممتازة ، فتجدد حيوية الأجيال واستعداداتها . أو يقال : إن بعض الطبقات المحرمة كالأمهات ، والبنات ، والأخوات ، والعمات ، والخالات وبنات الأخ ، وبنات الأخت . وكذلك نظائرهن من الرضاعة . وأمهات النساء ، وبنات الزوجات ــ الربائب في الحجور – يراد أن تكون العلاقة بهن علاقة رعاية وعطف ، واحترام وتوقير ، فلا تتعرض لما قد يجد في الحياة الزوجيةمن خلافات تؤدي إلى الطلاق والانفصال ــ مع رواسب هذا الانفصال – فتخدش المشاعر التي يراد لها الدوام .

أو يقال : إن بعض هذه الطبقات كالربائب في الحجور ، والأخت مع الأخت ، وأم الزوجة ، وزوجة الأب .. لايراد خدش المشاعر البنوية أو الأخوية فيها . فالأم التي تحس أن ابنتها قد تزاحمها في زوجها ، والبنت والأخت كذلك ، لاتستبقي عاطفتها البريئة تجاه بنتها التي تشاركها حياتها ، أو أختها التي تتصل بها ، أو أمها ، وهي أمها ! وكذلك الأب الذي يشعر أن ابنه قد يخلفه على زوجته . والابن الذي يشعر أن أباه الراحل أو المطلّق غريم له ؛ لأنه سبقه على زوجته : ومثله يقال في حلائل الأبناء الذين من الأصلاب ، بالنسبة لما بين الابن والأب من علاقة لايجوز أن تشاب . أو يقال : إن علاقة الزواج جعلت لتوسيع نطاق الأسرة ، ومدها إلى ماوراء رابطة القرابة . ومن ثَم فلا ضرورة لها بين الأقارب والأقربين ، الذين تضمهم آصرة القرابة القريبة ، ومن ثَم

حرم الزواج من هؤلاء لانتفاء الحكمة فيه ، ولم يبح من القريبات إلا من بعدت صلته ، حتى ليكاد أن يفلت من رباط القرابة . وأياً ما كانت العلة ، فنحن نسلم بأن اختيار الله لابد وراءه حكمة ، ولابد فيه مصلحة . وسواء علمنا أو جهلنا ، فإن هذا لايؤثر في الأمر شيئاً ، ولاينقص من وجوب الطاعة والتنفيذ ، مع الرضى والقبول . فالإيمان لايتحقق في القلب ، مالم يحتكم إلى شريعة الله ثم لايجد في صدره حرجاً منها ويسلم بها تسليماً » اهـ .

﴿ ومَن لم يستطعْ منكم طَوْلًا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ماملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصناتٍ غيرَ مسافحات ولامتخذات أخدان فإذا أُحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ماعلى المحصنات من العذاب . ذلك لمن خشِيَ العَنَت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم * يريد الله ليبيِّن لكم ويهدِيَكم سُنَنَ الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلًا عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخُلِق الإنسان ضعيفاً ﴾ .

المعنى العام :

بعد أن بيَّن الله ــ عز وجل ــ ماأحل وما حرَّم من النساء ، بيَّن أنه في حالة عجز الإنسان عن نكاح الحرائر العفائف المؤمنات . فإن الله قد أباح له أن يتزوج من الإماء اللاتي يملكهن المؤمنون. والله ــ عز وجل ــ وحده هو الذي يعلم حقائق الأُمور وسرائرها ، ومن ذلك حقيقة الإيمان ، غير أن لنا الظاهر ، فمن كانت مؤمنة في الظاهر حلّ لنا نكاحها ، ولكن نكاح الأَمَة ينبغي أن يتم بإذن سيِّدها ومالكها . ثم أمر تعالى بدفع مهورهن إلى أسيادهن ، وألا يُبْخس منه شيء استهانة بهن . ثم بيّن أن الأَمَة التي تنكح ينبغي أن تكون عفيفة عن الزنى ، لامعلنة به ولا مسرّة به ، لازانية لكل الناس ، ولا لأصحاب ، أو صاحب مُعيّن . ثم بيّن أنه في حالة زناها بعد زواجها ، فعليها نصف ماعلى المحصنات من الحد وهو : خمسون جلدة ولا ترجم . ولا يعني هذا أنه لاعذاب عليها إذا لم تكن متزوجة ، بل عليها كما سنرى . والمهم أن نعرف أن حد الرجم لايطبق عليها . وهذه الإباحة للزواج من الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا ،

وشق عليه الصبر عن الجماع ، وعنت بسبب ذلك كله ، فله حينئذٍ أن يتزوج بالأَمَة ، وإن ترك تزوجها وجاهد نفسه في الكف عن الزنا ، فهو خير له ، لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء . ومن هذه الآية الكريمة ، استدل جمهور العلماء : على أنه لابد من عدم الطوْل لنكاح الحرائر ، ولا بد من خوف العنت حتى يجوز نكاح الإماء ؛ لما في نكاحهن من مفسدة رق الأولاد ، ولما في ذلك من الدناءة في العدول عن الحرائر إليهن . ولأبي حنيفة رأي في هذا الموضوع خلاصته : أن من لم يكن متزوجاً بحُرَّة ، جاز له نكاح الأَمَة المؤمنة والكتابية . سواء كان واجداً لطَوْل حُرّة ، أم لا ، وسواء خاف العَنَت ، أم لا . وسنرى ذلك إن شاء الله .

ثم بيَّن الله - عز وجل - في الآيات الأخيرة ، أن له إرادة ، وللكفار والفساق إرادة . فإرادته تعالى أن يبيّن لنا الحلال والحرام ، وأن يدلَّنا على الطرائق الحميدة لمن قبلنا من الأنبياء والمرسلين والصالحين والشهداء ، وأن يطهِّرنا من ذنوبنا بتوبته علينا . وهو العليم الحكيم ، يظهر علمه وحكمته في شرعه وقدره وأقواله وأفعاله . وأما إرادة الكفار ، والفساق ، ممن يتَّبعون الشهوات ، فهي أن ننحرف انحرافاً كبيراً عن الصراط المستقيم . ومانراه في عصرنا من تواطؤ الكافرين والفساق على إضلال أهل الإيمان تجسيد عملي لما ذكرته الآية . ثم بيّن الله ـــ عز وجل ـــ أن إرادته بنا ليست لإرهاقنا وعنتنا . بل أراد بنا فيما بيّن وشرع وهدى ، التخفيف علينا في شرائعه ، وأوامره ، ونواهيه . وذلك لأن الله الذي خلق الإنسان ، وعلم ضعفه ، وتهالكه أمام الشهوات ، أنزل له شريعة تناسب هذا الضعف في نفسه وعزمه وهمته ، فكانت شريعة يسر ، وشريعة تخفيف . وقد جاءت الآيات الثلاث الأخيرة ، عقبَ التخفيف علينا ، بإباحة تزوج الإماء . وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن المجتمع الإسلامي النظيف ، يحتاج إلى وجود إماء ، كعامل مساعد على نظافته من الزنا والفاحشة . نقول هذا غير آبهين لأي صوت كافر ، يريد أن يأخذ على الإسلام إباحته الرق . في الوقت الذي يمتهنون فيه الإنسان كما لم يمتهن الحمار في يوم من الأيام .

المعنى الحرفي :

﴿ **ومن لم يستطِعْ منكم طولًا** ﴾ . أي : ومن لم يجد منكم سِعةً ، وقدرةً ، وزيادة ﴿ **أن ينكح المحصنات المؤمنات** ﴾ . أي : أن يتزوج الحرائر المسلمات ، أو الحرائر العفيفات المسلمات ﴿ **فمن ماملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات** ﴾ . أي :فلينكح مملوكة من الإماء المسلمات . وقوله تعالى : ﴿ **من فتياتكم** ﴾ . أي : من فتيات المسلمين . والمعنى : ومن لم يستطع زيادة في المال وسعة يبلغ بها نكاح الحرّة ، فلينكح أمة . وقال النسفي – وهو من أئمة الحنفية ـــ : ونكاح الأمة الكتابية يجوز عندنا (أي عند الحنفية) . والتقييد في النص للاستحباب بدليل أن الإيمان ليس بشرطٍ في الحرائر اتفاقاً مع التقييد به ﴿ **والله أعلم بإيمانكم** ﴾ . أي : هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها ، والإيمان – وهو مغيب – هو أعلم به ، وفيه تنبيه على قبول ظاهر إيمانهن ، ودليل على أن الإيمان هو التصديق دون عمل اللسان ، لأن العلم بالإيمان المسموع لا يختلف ، فلكم – أيها الناس – الظاهر من الأمور ، فخذوا به . ﴿ **بعضكم من بعض** ﴾ . أي : فكلكم بنو آدم ، وفيه تحذير من التعيير بالأنساب والتفاخر بالأحساب . وفيه إشارة إلى عدم الاستنكاف من نكاح الإماء عند ضرورته . ﴿ **فانكحوهن بإذن أهلهن** ﴾ . أي : فتزوجوا الإماء بإذن سادتهن . قال الحنفية : وهو حجة لنا ، في أن لهن أن يباشرن العقد بأنفسهن . لأنه اعتبر إذنُ الموالي لا عقدُهم ، وأنه ليس للعبد أو الأمة أن يتزوج إلا بإذن المولى .

وقال ابن كثير : فدلّ على أن السيّد هو ولي أَمَته لا تُزوّج إلا بإذنه ، وكذلك هو ولي عبده ليس له أن يتزوج بغير إذنه . ﴿ **وآتوهن أجورهن بالمعروف** ﴾ . أي : وأدوا إليهنَّ مهورهنَّ من غير مُطل ولا إضرار . ومُلّاك مهورهنّ مواليهن . فكان أداؤها إليهن أداءً إلى الموالي لأنهنَّ وما في أيديهنَّ مال الموالي . قال ابن كثير : أي وادفعوا مهورهن بالمعروف ، أي : عن طيب نفس منكم ، ولا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماءً مملوكات . ﴿ **محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان** ﴾ : الإحصان : العفة . والمسافِحَة : هي الزانية علانية . والمتخذة خديناً : هن الزواني سراً . والأخدان : الأخلاء في السر . نهى الله عن تزوج وتزويج الأمة إذا كانت زانية سراً أو علناً ، ولم تكن عفيفة ما دامت كذلك . ﴿ **فإذا أحصن** ﴾ . أي : بالتزويج . ﴿ **فإن أتين بفاحشة** ﴾ . أي : بزنا . ﴿ **فعليهن نصف ما على المحصنات من**

العذاب ﴾ . أي فعليهن نصف ما على الحرائر من الحد . يعني خمسين جلدة . فقوله : ﴿ **نصف ما على المحصنات** ﴾ . يدل على أن المراد بالعذاب هنا الجلد لا الرجم ؛ لأن الرجم لا يتنصّف ، وأن المحصنات هنا : الحرائر اللاتي لم يُزوجن ، ودل على أن الإماء لايرجمن في الزنا ولو تزوجن . ﴿ **ذلك لمن خشي العَنَت منكم** ﴾ . أي : نكاح الإماء رُخْصة لمن خاف الإثم الذي تؤدي إليه غلبة الشهوة ، وأصل العنت : انكسار العظم بعد الجبر . فاستعير لكل مشقة وضرر ، ولا ضرر أعظم من مواقعة الإثم . ﴿ **وأن تصبروا خير لكم** ﴾ . أي : وصبركم عن نكاح الإماء متعففين خير لكم ، لأن فيه إرقاق الولد . ولأنها (أي الأمة) خرَّاجة ولَّاجة ممتهنة مبتذلة ، وذلك كله نقصان يرجع إلى الناكح ومهانة ، والعزة من صفات المؤمنين . ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ : غفور يستر المحظور ، رحيم يرفع عنكم ما فيه مشقة عليكم . ﴿ **يريد الله ليبين لكم** ﴾ . أي : يريد الله أن يبيّن لكم ما هو خفيٌّ عليكم من مصالحكم وأفضل أعمالكم ، ﴿ **ويهديَكم سُنَنَ الذين من قبلكم** ﴾ . أي : وأن يهديكم مناهج من كان قبلكم من الأنبياء ، والصالحين ، والطرق التي سلكوها في دينهم لتقتدوا بهم . ﴿ **ويتوب عليكم** ﴾ .أي : ويوفقكم للتوبة عما كنتم عليه من الخلاف . ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ : عليم بمصالح عباده ، حكيم فيما شرع لهم . ﴿ **والله يريد أن يتوب عليكم** ﴾ . هذا تأكيد لما سبق . كرَّره لذكر ما يقابله . ﴿ **ويريد الذين يتَّبِعون الشهوات** ﴾ . من الكفرة والفجرة . ﴿ **أن تميلوا ميلًا عظيماً** ﴾ . أي : أن تميلوا عن القصد إلى الجور ، وعن الحق إلى الباطل . والميل : الانحراف . ولا انحراف أعظم من موافقة أهل الباطل والفجور ، ومساعدتهم على اتباع الشهوات . ﴿ **يريد الله أن يخفف عنكم** ﴾ : في شرائعه ، وأوامره ، ونواهيه ومن ذلك ما أباحه لكم من إحلال نكاح الأمَة وغيره من الرُّخص . ﴿ **وخُلِق الإنسان ضعيفاً** ﴾ . أي : أمام الشهوات ، لا يصبر عن الشهوات وعلى مشاق الطاعات ، ومن ثَم خفف الله عليه بما يناسب ضعفه ، وهو في سياقه يفيد ضعفه في أمر النساء ، ومن ثَمّ وسَّع عليه في شأنهن ، قال وكيع في ذلك : يذهب عقله عندهن .

فائدة :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب** ﴾ .يبحث المفسرون موضوع : هل تجلد الأمة إذا زنت قبل

الإحصان خمسين جلدة نصف حد الحرة البكر ؟ . الجمهور قالوا : الأَمَة تجلد خمسين جلدة سواء كانت متزوجة أو غير متزوجة إذا زنت . وذهب قوم - منهم ابن عباس - أن الأمة إذا زنت ، ولم تحصن فلا حد عليها وتضرب تأديباً ، ويشهد للأولين ما رواه الإمام مسلم عن علي رضي الله عنه أنه خطب فقال : (يا أيها الناس ، أقيموا الحد على إمائكم من أحصن ومن لم يحصن ، فإنَّ أَمَةً لرسول الله ﷺ زنت ، فأمرني أن أجلدها . فإذا هي حديثة عهد بنفاس . فخشيت إن جلدتها أن أقتلها . فذكرت ذلك للنبي ﷺ . فقال : « احسنت ، اتركها حتى تتماثل ») . وهل يجمع بين الجلد والنفي ؟ . أقوال . والخلاف فيه أثر عن الخلاف في الأصل في جمع الجلد ، والنفي على الحرة البكر إذا زنت .

كلمة في السياق :

لاحظنا أن هذا المقطع انصبّ على موضوع الحِل والحرمة في قضايا نسائية : إرث المرأة ، حُسن العشرة ، حرمة العضل ، حرمة نكاح زوجة الأب ، المحارم من النساء ، ما أحل الله بعد المحارم ، حل زواج الأَمَة في حالة تعذر طَوْل الحرة . ولو أننا تذكرنا أن سورة النساء تفصل في قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ . وما هو ألصق بها من معاني سورة البقرة . وتذكرنا أن العَضْل قد ورد في سورة البقرة ، أثناء الكلام عن موضوع الطلاق والوفاء والخطبة ؛ فإننا نجد أن هذا المقطع من سورة النساء هو تفصيل لامتدادات محور هذه السورة في سورة البقرة . وعلى هذا الأساس نفهم أن من التقوى في الإسلام عدم العضل للمرأة ، وحسن العشرة لها ، واجتناب نكاح المحارم ، وإيتاء الزوجة حقوقها . وتحليل ما أحلّ الله ، وتحريم ما حرّم . وقبول بيان الله ، وهداه في كل شأن من شؤون الحياة .

إن هذا المقطع من سورة النساء ، يشبه المقطع الذي تم فيه الكلام عن كثير من الأحوال الشخصية للإنسان في سورة البقرة ، وكل ذلك مكانه في التقوى الاهتداء بكتاب الله : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ .

ولنتذكر أن سورة النساء تفصل في الآية المشابهة لبدايتها في سورة البقرة . والمعاني المرتبطة بها في سورة البقرة نفسها ، فإذا تذكرنا هذا فلنذكر أن في سورة البقرة قوله

تعالى ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ...** ﴾ . وأننا قلنا هناك : إن هذه الآية تصحح مفهوماً ، وتوسع مفهوماً ، وتُدخِل في التقوى ما هو منها . والآن يأتي مقطع جديد في سورة النساء يعمق مفهوم التقوى ، ويدخل فيها ما هو منها . ويهذب الإنسان مما يناقضها . وهو مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ...** ﴾ . وبعد هذا الكلام العام عن صلة المقطع بمحوره من سورة البقرة وامتدادات هذا المحور فلنقف وقفات متأنية حول السياق :

١ - لو تأملنا الآية الأولى من مقطع الطريقين :

﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾

لوجدنا أنها تقرر أن الله - عز وجل - هو الذي خلقنا ، وخلق مَن قبلنا ؛ وبناء عليه فإنها تطالبنا بالعبادة ؛ من أجل أن نتحقق بحقيقة تقواه ، ونلاحظ أن سورة النساء تُفرّع على هذه الأصول ، فهي تطالبنا بالتقوى وتذكّرنا بأن الله - عز وجل - خلقنا من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبثّ منهما رجالًا كثيراً ونساءً ، وبناءً على أن الأمر كذلك فما هي الأحكام التي تحكم هؤلاء الرجال والنساء ؟ وهكذا وجدنا المقطع الأول والثاني يفصل في مثل هذه الشؤون .

٢ - وسنلاحظ أن المقطع الثالث في مجموعة من مجموعاته هو استمرار لمثل ما مر معنا في المقطع الأول والثاني ولكنا سنري أن مجموعة أخرى من مجموعاته ستبدأ بقوله تعالى :

﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً** ﴾

وتأمل محور السورة : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل ... فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ .

إن الدمج بين الأمر بالعبادة وترك الشرك ، والأمر بالإحسان لأنواع من البشر، مرتبط أي ارتباط بالمحور ، وبعد آيتي المحور اللتين ذكرناهما يأتي قوله تعالي : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا ..** ﴾ وسنرى أن المقطع الرابع سيكون فيه .

﴿ **يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معكم** ﴾ .

ثم إن آية المحور الرابعة تختم بقوله تعالى :

﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾
والآية الخامسة ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...** ﴾ .

وسنرى أنه في نهاية المقطع الرابع سيأتي قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهّرة وندخلهم ظلّاً ظليلاً** ﴾ .

ألا ترى كيف أن هذه المقاطع تفصّل في محورها من سورة البقرة بشكل واضح .

٣ - ونحب دائماً أن نذكّر أن ارتباط أي سورة بمحورها لم يكن على حساب سياقها الخاص ، فالصلات بين الآيات في المقطع ، وبين بدايات المقاطع اللاحقة ، ونهايات المقاطع السابقة ، كل ذلك على أكمله وأتمه ، ونحن في الغالب أثناء الشرح الإجمالي ، أو الحرفي ، أو في التقديم للمقطع ، نشير إلى دقائق في هذه الشؤون نرجو ألّا تغيب عن ذهن القارىء وهو يستجمع ما نقوله في موضوع السياق .

المقطع الثالث من سورة النساء

يمتد هذا المقطع من الآية (٢٩) إلى نهاية الآية (٤٢) وهذا هو :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ج وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ
نَصِيبَهُمْ ج إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ
بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ج فَٱلصَّٰلِحَٰتُ
قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ج وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ
وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ صلى فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ج
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ
وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ قلى إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

* وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا صلى وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ
وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ج إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾
ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ قلى وَأَعْتَدْنَا
لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ قلى وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾
وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ج وَكَانَ ٱللَّهُ
بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾

☆ ☆ ☆

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

☆ ☆ ☆

كلمة في المقطع :

أثناء الكلام عن سورة آل عمران قلنا : إن سورة آل عمران ، تفصل في محورها من سورة البقرة وهو المقدمة ، وفي امتدادات معاني هذه المقدمة في السورة . ورأينا نماذج ذلك . ولقد رأينا في المقطعين ، الأول والثاني من سورة النساء ، كيف أن سورة النساء تفصّل في محورها من سورة البقرة وفي امتدادات هذا المحور في سورة البقرة . ومن ثَم ، فكثير من القضايا التي جاءت في سورة البقرة ، والتي هي ذات صلة بالعبادة والتقوى . تأتي ههنا تفصيلات ، أو توضيحات في شأنها . وقد أدخل هذا المقطع في قضية العبادة ، والتقوى ، والإيمان ، والعمل الصالح . ألّا نأكل أموال بعضنا بالباطل . وألّا نقتل أنفسنا ، وألّا يتمنى النساء ما أعطيه الرجال ، والإحسان إلى أصناف من الناس ، وتحريم الاختيال والفخر والبخل . كما عرض المقطع في سياقه لأمور أخرى .

ولو أردنا أن نبرهن على ما ذهبنا إليه ، من أن سورة النساء تفصيل لمحورها من سورة البقرة ، ولامتدادات هذا المحور . فإننا نقول : إن محور سورة النساء من سورة البقرة هو : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم .. ... هم فيها خالدون** ﴾ . وفي سورة البقرة نجد من امتدادات المحور : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً** ﴾ . وفي سورة البقرة نجد من امتدادات المحور :

﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ . ومن امتدادات المحور : ﴿ **ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة** ﴾ .

ونلاحظ هنا أن هذا المقطع قد وجد فيه : ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ .

﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فَضّل الله ...** ﴾ .

﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجُنُب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم** ﴾ إن من تأمل مثل هذا ، لا يستغرب ما ذهبنا إليه في موضوع المحور ، وامتدادات معانيه . وأن سورة النساء تفصيل لذلك كله . ولنبدأ بعرض الفقرة الأولى في المقطع .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً * ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً * إن تجتنبوا كبائر ما تُنهَوْن عنه نُكفِّر عنكم سيئاتكم ونُدخلْكم مُدخَلًا كريماً * ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيءٍ عليماً * ولكل جعلنا مَوَالي مما ترك الوالدان والأقربون والذين عَقَدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً** ﴾ .

المعنى العام :

ينهى الله تبارك وتعالى عباده في الآية الأولى عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل . أي : بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية ، كالنهب ، والسرقة ، والغصب ، والغش ، والربا ، والقمار ، وما جرى مجرى ذلك ، ويدخل في ذلك سائر صنوف الحِيَل وإن ظهرت في صورة الحكم الشرعي ، فإنه مما لا يخفى على الله نية صاحبها في أنه يريد أن يحتال ، ثم بيَّن الله - عز وجل - طريق الحِل في التعامل ، وهو طريق التبادل القائم على الرضا ضمن ما أباحه الله وشرعه ، ثم نهانا - جل جلاله - أن نقتل أنفسنا ، بقتل بعضنا بعضاً . أو بقتل الواحد منا نفسه ، ثم بيَّن أنّه شرع لنا هذا كله رحمة بنا .

وفي الآية الثانية ، بيّن الله - عز وجل - أن من يتعاطى ذلك منا من أكل مال بباطل ، أو قتْل نفس مؤمنة ، معتدياً في فعله ، ظالماً في تعاطيه ، عالماً بتحريمه ، متجاسراً على

انتهاكه ؛ فإن الله سيصليه ناراً ، وأنَّ إصلاءه هذه النار ليس صعباً على الله . وفي هذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد . فليحذر منه كل عاقل لبيب .

وفى الآية الثالثة ، قَعَّد الله - عز وجل - قاعدة وهي : أننا إذا اجتنبنا الكبائر ؛ غفر الله لنا الصغائر ؛ وأدخلنا باجتناب الكبائر جنته ، وقد فهم من ذلك من فهم - كما سنرى إن شاء الله - أن ما ذكر فى المحرمات فيما مضى من سورة النساء قبل هذه القاعدة كبائر يجب اجتنابها .

وفي الآية الرابعة نهى الله الرجالَ أن يتمنَّوا ما خصّ به النساء ، ونهى النساء أن يتمنَّين ما خصّ به الرجال ، ومن ذلك : ما خصّ به النساء في الإرث ، وما خصّ به الرجال في الإرث ، وأن كلًا من الرجال والنساء ، مجزي على عمله ونيته بما يستحقه ، وأمر الله الجميع رجالًا ، ونساءً أن يسألوه من فضله . فإنه كريم وَهَّاب .

وختم الله الآية ، بالإعلام أنه بكل شيء عليم . وهي في هذا المقام تفيد أنه إن خصّ الرجال بشيء فبعلم ، وإن خصّ النساء فبعلم ، وإن أعطى فبعلم ، وإن جازى فبعلم ، وإن سُئل فإنه يعلم ؛ وبعلمٍ يعطي .

وبمناسبة الكلام عن عدم أكل أموال الناس بالباطل ، وعدم تمنّي مافضَّل الله به بعض الناس على بعض ، وعدم تمني النساء ماللرجال ، والعكس ، تأتي القاعدة : أن لكلٍ من الرجال ، والنساء جعل الله ورثة ، يرثون ماتركه الوالدان والأقربون ، مما هو مقرر في وصية الإرث ، ويذكر الله هنا صورة تُسمَّى عند فقهاء الحنفية ومن وافقهم - والتي يعتبرها غيرهم منسوخة - بعقد مولى الموالاة : وهو الرجل من غير العرب إذا أسلم وليس له وارث معروف ، فيتعاقد مع عربي أن يرثه العربي المسلم إذا لم يكن وارث أحق ، ويعقل عنه العربي إذا جنى أي جناية تستوجب العقل ، فهؤلاء الذين عقدوا هذا العقد يورثون من مواليهم إذا لم تكن قرابة أولى كما رأينا ، فههنا وعلى هذا الفهم للآية يأمر الله ــ عز وجل ــ في هذا السياق أن يعطى هؤلاء نصيبهم من التركة ، ويذكّرنا الله ــ عز وجل ــ بأنه الشهيد على كل شيء . ويفيد هذا المعنى في هذا السياق : أن الله شاهد على عقودكم فَفُوا بها .

المعنى الحرفي :

﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ . أي : لاتأكلوا أموالكم

بينكم بما لم تبحه الشريعة من نحو السرقة ، والخيانة ، والغصب ، والقمار ، وعقود الربا . ﴿ **إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم** ﴾ . أي : إلا أن تكون التجارة تجارة صادرة عن تراضٍ منكم ، ومظهر التراضي: العقد . وهل التعاطي يدل على التراضي ؟ قولان للفقهاء . أجازه الحنفية ، ومنعه الشافعية ، وفرّق بعضهم في جوازه بين الخسيس والنفيس ،وخصّت التجارة بالذكر ، لأن أسباب الرزق أكثرها متعلق بها ، قال النسفي - من الحنفية -: والآية تدل على جواز البيع بالتعاطي ، وعلى جواز البيع الموقوف إذا وجدت الإجازة لوجود الرضا ، وعلى نفي خيار المجلس ؛ لأن فيها إباحة الأكل بالتجارة عن تراضٍ من غير تقييد بالتفرق عن مكان العقد . ﴿ **ولاتقتلوا أنفسكم** ﴾ . ذكر النسفي في تفسير هذا النهي خمسة معان كلها محرم . الأول : ولاتقتلوا من كان من جنسكم من المؤمنين؛ لأن المؤمنين كنفْس واحدة ، الثاني ، أي : لايقتلنّ أحدكم نفسه . أي : لاينتحر . الثالث ، أي : لاتقتلوا أنفسكم بظلم بعضكم بعضاً في موضوع الأموال فظالم غيره كمهلك نفسه . الرابع : لاتتبعوا أهواءها فتقتلوها . الخامس ، أي : لاترتكبوا مايوجب القتل ﴿ **إن الله كان بكم رحيماً** ﴾ ولرحمته نبّهكم على مافيه صيانة أموالكم ، وبقاء أبدانكم ، ومن مظاهر رحمته بكم أيتها الأمة المسلمة : أن الله أمر بني إسرائيل بقتلهم أنفسهم ؛ ليكون ذلك توبة لهم ، وتمحيصاً لخطاياهم ، وكان بكم ياأمة محمد ﷺ رحيماً حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الصعبة . بل نهاكم عنها . ﴿ **ومن يفعل ذلك** ﴾ . أي : القتل . ﴿ **عدواناً وظلماً** ﴾ . أي : لاخطأ، ولاقصاصاً . فصار المعنى : ومن يقدم على قتل الأنفس المؤمنة ، لاخطأ ، ولاقصاصاً . ﴿ **فسوف نُصْليه ناراً** ﴾ . أي : فسوف ندخله ناراً مخصوصة ، شديدة العذاب . ﴿ **وكان ذلك على الله يسيراً** ﴾ . أي : وكان إصلاؤه النار على الله سهلاً . قال النسفي : وهذا الوعيد في حق المسْتَحِل للتخليد ، وفي حق غيره لبيان استحقاقه دخول النار مع وعد الله بمغفرته . ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نُكَفِّرْ عنكم سيئاتكم** ﴾ . أي : إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نهيتم عنها كفّرنا عنكم صغائر الذنوب . ﴿ **وندخلكم مُدْخَلًا كريماً** ﴾ . أي : مدخلًا حسناً . أي الجنة . قال النسفي : « وتشبّث المعتزلة بالآية على أن الصغائر واجبة المغفرة باجتناب الكبائر ، وعلى أن الكبائر غير مغفورة،باطل؛ لأن الكبائر والصغائر في مشيئته تعالى سواء ، إن شاء عذّب عليهما ، وإن شاء عفا عنهما لقوله تعالى : ﴿ **إن الله لايغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ فقد وعد المغفرة لما دون الشرك وقرنها بمشيئته تعالى

وقوله تعالى : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ فهذه الآية تدلّ على أن الصغائر والكبائر يجوز أن يذهبا بالحسنات لأن لفظ السيئات يطلق عليهما » وقد فهم ابن مسعود من السياق أن الكبائر هي ماذكرت في سورة النساء سابقة لهذه الآية .

﴿ **ولاتتمنَّوْا مافضَّلَ الله به بعضكم على بعض** ﴾ . هذا نهي من الله ـــ عز وجل ـــ أن يتمنى الرجال مافضّل به النساء ، أو أن تتمنى النساء مافضّل به الرجال ، ونهي من الله أن يتمنى الناس مافَضّل الله به بعضهم على بعض . وقد جاء هذا في سياق النهي عن أكل أموال الناس بالباطل ، والنهي عن قتل الأنفس . فإذا عرفنا أن تمني مافضّل الله به بعض الناس على بعض ، وتمني مافضل الله به الرجال على النساء هو مرض العصر ، وأساس الكثير من مذاهبه ، وعنه تصدر بعض المذاهب الضالة ، إذا عرفنا ذلك أدركنا بعض مظاهر الإعجازفي هذا القرآن . والصلة بين هذه الآية وسياقها واضحة ، فصلتها بما قبلها من حيث إن أخذ مال الغير بالباطل ، وقتل النفس بغير حق ، له صلة بتمني مال الغير وجاهه ، فنهاهم الله عن تمني مافضَّل الله به بعض الناس على بعض ، من الجاه ، والمال ؛ لأن ذلك التفضيل قسمة من الله ، صادرة عن حكمة ، وتدبير ، وعلم بأحوال العباد ، وبما ينبغي لكل من بسط له في الرزق أو قبض ، فعلى كل واحد أن يرضى بما قسم له ، ولايحسد أخاه على حظه ، فالحسد : أن يتمنى كون ذلك الشيء له ويزول عن صاحبه ، والغِبْطَة : أن يتمنى مثل مالغيره ، وهو مُرخّص فيه والأول منهي عنه ، وهذا كله مقيَّد بما إذا كان كل إنسان قائماً بحق الله في ماله وعمله ، أما إذا لم يقم بحق الله تعالى فالأمر عندئذ له أحكامه ، وعلى الدولة ، والإمام أن يتدخلا لإقامة أمر الله في موضوع الأموال وغيرها . وأما صلة هذه الآية بما بعدها فمن حيث إن الله سيذكر بعد آيةٍ قوله : ﴿ **الرجال قوامون على النساء** ﴾ فكانت هذه الآية مقدمة لتلك ، ومخالفة النهي الموجود في هذه الآية هو رأس الأسباب التي أوصلت كثيراً من نساء المسلمين ، وبناتهم إلى الردة ، والفجور ، والفسوق . وبداية هذا الاتجاه كانت في زمن رسول الله ﷺ ومن ثَم نزلت هذه الآية تعالج هذا الأمر كما سنرى في الفوائد إن شاء الله

﴿ **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** ﴾ . أي : كل له جزاء عمله بحسبه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، أي لكل من الرجال والنساء كسبه الذي سيجزيه الله عليه فيما كلفه الله به ، فعلام يتمنى أحد مافُضِّل به الآخر مادام نجاح كل واحد في امتحانه عليه مدار جزائه ومكافأته ، فليهتم الرجال بما كُلفوا به ، ولتهتم النساء بما كلفن به ، وليهتم الجميع بما كلفوا به ، وعوضاً عن أن يتمنى أحد مالأحد قال

تعالى : ﴿ **واسألوا الله من فضله** ﴾ . أي : بدلًا من أن تتمنَّوا مافضَّل الله به بعضكم على بعض ، سلوا الله يعطكم ، فإنه واسع الفضل . قال ابن عيينة : لم يأمر بالمسألة إلا ليعطي . ﴿ **إن الله كان بكل شيء عليماً** ﴾ . تفضيله بعلمٍ ، وعطاؤه بعلم ، وإذا سئل يعلم ، فلا تعترضوا على الله في فعل أو حكم . ﴿ **ولكل جعلنا موالي** ﴾ . الموالي : هم الورّاث ، يلون المال ويحرزونه . وقوله تعالى : ﴿ **ولكل** ﴾ . يحتمل في هذا المقام إما : ولكل أحد ، وإما : ولكل مالٍ . ﴿ **مما ترك الوالدان والأقربون** ﴾ . فصار المعنى : لكل مالٍ مما ترك الوالدان والأقربون جعلنا ورّاثاً يرثونه ويحوزونه ، هذا على تقدير أن المحذوف بعد : (**ولكل**) كلمة : مال ، وعلى القول بأن المقدَّر بعد (**ولكل**) كلمة : أحد يكون المعنى : ولكل أحد جعلنا له وراثاً يرثون مما ترك الوالدان والأقربون . وعلى هذا نكون قد قدّرنا فعلًا قبل (**مما ترك**) . استخرجناه من معنى قوله تعالى : ﴿ **موالي** ﴾ . ﴿ **والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم** ﴾ . أي : والذين عاقدتهم أيديكم أي : عقدت عهودَهم أيمانُكم فأعطوهم نصيبهم من الميراث . وفي الآية إشارة إلى عقد الموالاة ، وهو مشروع عند الحنفية ، ويرث صاحبُه الميتَ بعد أصحاب الفروض ، والعصبة ، وذوي الأرحام ، وتفسيره : إذا أسلم رجل أو امرأة ولاوارث له ، وليس بعربي ، ولامُعتَق ، وأراد فإنه يقول لعربي مسلم : واليتك على أن تعقلني إذا جنيت ، وترث مني إذا مت ، ويقول الآخر : قبلت . انعقد ذلك ، ويرث العربي من مولاه إذا لم يكن هناك أحق منه من صاحب فرض ، أو عصبة ، أو رحم ﴿ **إن الله كان على كل شيء شهيداً** ﴾ . فهو عالم الغيب والشهادة ، ويفيد هنا أنه شهيد على عقودكم ففوا بها ، وقوموا بالتزاماتها ، وهو أبلغ وعد ووعيد ، فإذا كان الله شهيداً على عقودنا فإنه يأجر على الوفاء ، ويعاقب على الغدر والنكث .

فوائد :

١ ـــ يعتبر فقهاء الشافعية أن من تمام التراضي بالبيع ، إثبات خيار المجلس كما ثبت في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : « البيّعان بالخيار مالم يتفرقا » . وفي لفظ البخاري : « إذا تبايع الرجلان ، فكل واحد منهما بالخيار مالم يتفرقا » . وهذا مذهب أحمد . وفهم الحنفية من الحديث ، أن المراد منه تفرق الأقوال ، لا الأجساد .

٢ ـــ وقال الفقهاء : إن من تمام التراضي في عقد البيع ، مشروعية خيار الشرط بعد العقد إلى ثلاثة أيام إذا وجد في العقد . ومازاد على الثلاثة أيام ، فيه خلاف فمنهم

من أجاز الشروط ، ولو إلى سنة .

٣ ـــ روى الإمام أحمد ، وغيره عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل قال : (احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فتيممت ، ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح ، قال : فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت له ذلك . فقال : « ياعمرو صليت بأصحابك وأنت جنب » . قال : قلت يارسول الله : إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فذكرت قول الله عز وجل : ﴿ **ولاتقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً** ﴾ . فتيممت، ثم صليت . فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً)

٤ ـــ قال ﷺ : من قتل نفسه بحديدة ، فحديدته في يده يجأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بسمّ ، فسمّه في يده يتحسّاه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو متردٍ في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » . والحديث في الصحيحين . وفي هذا المعنى مارواه الجماعة : « من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة » . وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ : « كان رجل ممن كان قبلكم ، وكان به جرح ، فأخذ سكيناً ، نحر بها يده . فما رقأ الدم حتى مات . قال الله ـــ عز وجل : عبدي بادرني بنفسه . حرمت عليه الجنة » .

٥ ـــ روى البزار عن أنس عن رسول الله ﷺ قال : « لم نر مثل الذي بلغنا عن ربنا ـــ عز وجل ـــ ثم لم نخرج له عن كل أهلٍ ومال : أن تجاوز لنا عما دون الكبائر ، يقول الله : ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم** ﴾ .

٦ ـــ روى البخاري عن أبي هريرة ، وأبي سعيد الخدري يقولان : خطبنا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « والذي نفسي بيده » . ثلاث مرات . ثم أكبَّ ، فأكبَّ ، كلُّ رجل منا يبكي لا ندري ماذا حلف عليه ، ثم رفع رأسه وفي وجهه البشرى . فكان أحب إلينا من حُمُر النَّعم . فقال : « ما من عبد يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ويخرج الزكاة ، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة ثم قيل له : ادخل بسلام » . وفي الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات قيل يارسول الله : وماهنَّ ؟ . قال : « الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وقد اختلف الناس كثيراً في تفسير الكبائر ، وعدِّها ، وحدِّها ، وكونُها ذكرت في الحديث السابق سبعاً لايفيد الحصر ، لأن لفظ الكبيرة قد ورد في أحاديث أخرى . وورد فيها غير السبع ، فذكرت شهادة الزور على أنها من أكبر الكبائر ، وذكر من الكبائر ، اليأس من رَوْح الله ، والقنوط من رحمة الله ـــ عز وجل ـــ والأمن من مكر الله ، وذكر التّعرب بعد الهجرة . وذكر عمر رضي الله عنه في إحدى رسائله ، أن من الكبائر ، الجمع بين الصلاتين ، والنهبة ، وذكر في بعض الأحاديث ، أن من أكبر الكبائر استطالة الرجل في عرض رجل مسلم بغير حق . ومن الكبائر السبَّتان بالسبَّة . وذكر في بعض الأحاديث ، أن من الكبائر عقوق الوالدين ، واليمين الغموس . وقد ألفت كتب في الكبائر ، وحدِّها ، وعدِّها . فلتراجع . ومما يدل على أن الكبائر كثيرة ، وهي أكثر مما ذكر في الحديث الأول : أنه لايشك أحد في أن الزنا ، والسرقة كبيرتان . ولم تدخلا في الحديث . ولذلك قال ابن عباس : (هن إلى السبعين أدنى منهن إلى سبع) . وقال مرة : (هن إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع . غير أنه لاكبيرة مع استغفار ، ولاصغيرة مع إصرار) وإنا نسأل الله توبته ، وإنا لنرجوا شفاعة رسولنا ﷺ كما ورد في الحديث الصحيح : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » . رواه عبد الرزاق . وفي الصحيح شاهد لمعناه . وهو قوله ﷺ بعد ذكر الشفاعة : « أترونها للمؤمنين المتقين ؟ . لا . ولكنها للخاطئين المتلوثين » .

٧ ـــ عن مجاهد قال : قالت أم سلمة : يارسول الله لانقاتل فنستشهد ، ولانقطع الميراث ؟ . فنزلت الآية . أي قوله تعالى : ﴿ **ولاتتمنّوا مافضّل الله به بعضكم على بعض** ... ﴾ .

وقال السدي في الآية : قال الرجال إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء كما لنا في السهام سهمان . وقالت النساء : إنا نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الشهداء . فإنا لا نستطيع أن نقاتل . ولو كُتب علينا القتال لقاتلنا . فأبى الله ذلك . ولكن قال لهم : سلوني من فضلي ...

وقال ابن عباس في الآية : ولايتمنى الرجل ، فيقول : ليت لو أن لي مال فلان ، وأهله . فنهى الله عن ذلك . ولكن يسأل الله من فضله .

٨ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **واسألوا الله من فضله** ﴾ . روى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ : « سلوا الله من فضله . فإن الله يحب أن يُسأل ، وإن أفضل العبادة ،

انتظار الفَرَج » . ورواه ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سلوا الله من فضله . فإنَّ الله يحبُّ أن يُسأل . وإنَّ أحبَّ عباد الله إلى الله الذي يحبُّ الفَرَجَ » .

٩ــ يرى بعضهم أن عقد مولى الموالاة المذكور في قوله تعالى : ﴿ **والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم** ﴾ قد نُسخ بقوله تعالى : ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ . وبقي النصر ، والرفادة ، والنصيحة . ونقول : إن الذين أثبتوا الإرث بعقد الموالاة لاينفون أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض . ولكن يقولون : إذا لم يكن ورثة أصحاب فروض ، أو عصبات ، أو أرحام ، فإنّ مولى الموالاة يرث .

* * *

﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتاتٌ حافظاتٌ للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلاتبغوا عليهن سبيلًا . إن الله كان علياً كبيراً * وإن خِفتم شِقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إنَّ الله كان عليماً خبيراً** ﴾ .

المعنى العام :

يبيِّن الله ــ عز وجل ــ في هذه الآيات أن الرجل هو القيِّم على المرأة ، فهو رئيسها ، والحاكم عليها ، ومؤدّبها إذا اعوجّت ، وذلك لفضل الرجل على المرأة بالخصائص ، ومن ثَم كانت النبوة في الرجال ، وكذلك الخلافة ، وكذلك القضاء . ثمّ لكون الرجل هو المكلّف بالمهر ، والنفقة عليها؛ فالرجل في الجملة أفضل من المرأة ، وله الفضل عليها والإفضال ، فناسب أن يكون قيِّماً عليها ، فالصالحات من النساء يُعطينَ الطاعة لأزواجهن ، ويحفظن أزواجهن في غيبتهم بما يوفقهن الله ــ عز وجل ــ لذلك . وإذ أعطى الله ــ عز وجل ــ حق الطاعة للرجل على المرأة ، بيّن أن المرأة التي تترفَّع على زوجها ، وتترك أمره ، وتعرض عنه تستحق الوعظ ، والتخويف من الله ، ثم الهجر داخل البيت : إما بأن لاينام معها ، أو أن ينام معها وهو مُعرِض عنها ، بأن يدير لها ظهره ، ولايكلمها ، ولايجامعها . وذلك عليها شديد . ثم إن لم ترجع إلى الطاعة ، فقد أذن له أن يضربها ضرباً غير مبرِّح . فإذا أطاعت زوجها في جميع مايريده منها مما أباحه الله له منها ، فلا سبيل له عليها بعد ذلك ، وليس له ضربها ، ولاهجرانها . فإن الله العلي

الكبير وليهُنَّ ، وهو منتقم ممن ظلمهنَّ ، وبغى عليهن .

وبعد أن بيَّن علاج حالة ما إذا كان النفـور والنشوز من الزوجة ، ذكر حالة ماإذا كان النفور من الزوجين وعلاجه ، فإذا وقع الشقاق بين الزوجين ، أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة ، ينظر في أمرهما ، ويمنع الظالم منهما من الظلم . فإن تفاقم أمرهما ، وطالت خصومتهما ، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة ، وثقة من قوم الرجل ليجتمعا ، فينظرا في أمرهما ، ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق ـــ على خلاف بين الفقهاء في كونه للحكمين ـــ أو التوفيق على إجماع . وندب الشارع إلى التوفيق . والله عز وجـل عليم بالنّيات ، والإرادات ، خبير بالظلم من صاحبه .

المعنى الحرفي :

﴿ **الرجال قوَّامون على النّساء** ﴾ . أي : الرجال يقومون على النساء آمرين ، ناهين ، كما يقوم الولاة على الرعايا . وسُمّوا قُوَّاماً لذلك . ﴿ **بما فضَّل الله بعضهم على بعض** ﴾ . أي : هذه القوامة والسيطرة بسبب تفضيل الله بعضهم ، وهم الرجال ، على بعض ، وهم النساء ، بالعقل ، والحزم ، والرأي ، والقوة ، ونوع العواطف المؤهلة للقوامة ، والغزو ، وكمال الصوم ، والصلاة ، والنبوة ، والخلافة ، والإمامة ، والأذان ، والخطبة ، والجماعة ، والجمعة ، والشهادة في الحدود ، والقصاص ، وتضعيف الميراث ، والتعصيب فيه ، وملك النكاح ، والطلاق . وإليهم الانتساب ، وهم أصحاب اللّحى ، والعمائم .

إن الخصائص والصفات التي فضَّل الله بها الرجل على المرأة كأثر عن اختلاف الجسم والوظيفة ، والتي ترتب عليها اختلاف في الأحكام هي سبب القوامة الأول . والسبب الثاني ﴿ **وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾ . أي : وبسبب أن المهـر والنفقة عليهم ، وفيه دليل وجوب نفقتهنَّ عليهم . ﴿ **فالصالحات قانتات** ﴾ . أي : فالصالحات من النساء ، مطيعات لأزواجهنّ ، قائمات بما عليهن لهم . ﴿ **حافظات للغيب** ﴾ . أي : حافظات لواجب الغيب . أي : حافظات لغيبة أزواجهن . أي : إذا كان الأزواج غير شاهدين لهن ، حفظن مايجب عليهن حفظه في حال الغيبة ، من الفروج ، والبيوت ، والأموال . ويدخل في ذلك حفظهن لأسرار أزواجهن في غيبتهم . ﴿ **بما حفِظ الله**﴾ . أي :

حفظهن للغيب ، بسبب حفظ الله إياهن ، وعصمتهن وتوفيقهن لحفظ الغيب ، حيث صيَّرهن كذلك . ﴿ **واللاتي تخافون نشوزهن** ﴾ . أي : واللاتي تخافون عصيانهن ، وترفَعهنَّ عن طاعة الأزواج . ﴿ **فعظوهنَّ** ﴾ . هذا أول الدواء . أي : فخوّفوهنّ عقوبة الله تعالى . والعظة ، كلام يُلين القلوب القاسية ، ويرغّب الطبائع النافرة . ﴿ **واهجروهنَّ في المضاجع** ﴾ . هذا ثاني الدواء ، وهو الهجر في المضجع ، أي المرقد . أي : لاتدخلوهن تحت اللحف ، وهو كناية عن الجماع ، أو هو أن يوليها ظهره في المضجع ، إذ لم يأمر الله تعالى بهجرانهن عن المضاجع ، بل قال : في المضاجع . فالهجر إذن يبقى داخل البيت ، وفي الفراش . ﴿ **واضربوهن** ﴾ . هذا ثالث الدواء . أمر بالضرب ، وقيَّدت السُنَّة هذا الضرب بأن يكون غير مبرِّح ، أي غير مؤثِّر . أي : ضربا رفيقاً ، لايكسر فيها عضواً ولايترك أثراً . أمر بوعظهن ، ثم بهجرانهن في المضاجع ، ثم بالضرب إن لم ينجح فيهن الوعظ والهجران . ﴿ **فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلًا** ﴾ . أي : فإن أطعين الطاعة ، فلا تطلبوا لهن سبيلًا لتتعرَّضوا لهن بالأذى . أي : فإن أطعنكم فأزيلوا عنهنَّ التّعرض بالأذى ﴿ **إن الله كان علياً كبيراً** ﴾ : تذكير الله إيانا بصفتي العلو والعظمة في هذا المقام يفيد : أيها المؤمنون إن علت أيديكم عليهن فاعلموا أن قدرة الله عليكم أعظم من قدرتكم عليهن ، فاجتنبوا ظلمهن .

أو : أيـها المؤمنون إنكم تعصون الله على علو شأنه ، وكبرياء سلطانه ، ثم تتوبون ، فيتوب عليكم . فعليكم بالعفو عمن يجني عليكم إذا رجع . ﴿ **وإن خفتم شِقَاق بينهِما** ﴾ . الخطاب لولاة المسلمين ، وقضاتهم . والشِقاق : العداوة والخلاف ، والضمير للزوجين ، ولم يجر ذكرُهما لجري ذكر مايدل عليهما ، وهو الرجال والنساء . فصار المعنى : وإن خفتم أيها الولاة ، والقضاة شقاقاً بين زوجين ﴿ **فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها** ﴾ . أي : فابعثوا من أهله رجلًا يصلح للحكومة والإصلاح بينهما ، وابعثوا من أهلها رجلًا كذلك . وإنما كان بعث الحكمين من أهلهما ، لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح ، ونفوس الزوجين أسكن إليهم ، فيبرزان مافي ضمائرهما من الحب والبغض وإرادة الصحبة والفرقة . وماهي حدود صلاحية الحكمين ؟ هل التوفيق فقط ، أو التوفيق والتفريق . وإذا كان لهما التفريق ، فما حدوده ؟ قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر : وأجمع العلماء على أن الحكمين ، إذا اختلف قولهما ، فلا عبرة بقول الآخر . وأجمعوا على أن قولهما نافذ في الجمع ، وإن لم

يوكلهما الزوجان ، واختلفوا هل ينفذ قولهما في التفرقة ؟ ثم حكى عن الجمهور ، أنه ينفذ قولهما فيها أيضا من غير توكيل .

قال إبراهيم النخعي : إن شاء الحكمان أن يفرّقا بينهما بطلقة ، أو بطلقتين ، أو ثلاث ، فَعَلا . وهو رواية عن مالك . ومذهب الحنفية : أن لهما الجمع لاالتفريق . وسبب الاختلاف يعود إلى أن الحكمين ، هل هما منصوبان من جهة الحاكم ، فيحكمان ، وإن لم يرض الزوجان . أو هما وكيلان من جهة الزوجين ؟ . على قولين . والجمهور على الأول . وهو الجديد من مذهب الشافعي . ﴿ **إن يريدا إصلاحاً يُوفِق الله بينهما** ﴾ . الضمير في يريدا ، للحكمين . وقيل للزوجين . والضمير في بينهما ، للزوجين ، وقيل للحكمين . والمعنى على الأول : إنْ قَصد الحكمان إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة ، بورك في وساطتهما ، وأوقع الله بحسن سعيهما بين الزوجين الألفة والوفاق ، وألقى في نفوسهما المودة والاتفاق . وإذا اعتبرنا الضميرين للحكمين ، يكون المعنى : إنْ قصدا إصلاح ذات البين والنصيحة للزوجين ، يوفق الله بينهما ، فيتفقان على الكلمة الواحدة ، ويتساندان في طلب الوفاق حتى يتم المراد ، وإن اعتبرنا الضميرين للزوجين ، كان المعنى : إنْ يريدا إصلاح مابينهما ، وطلبا الخير ، وأن يزول عنهما الشقاق ، يلق الله بينهما الألفة ، ويبدلهما بالشقاق الوفاق ، وبالبغضاء ، المودة . ﴿ **إن الله كان عليماً خبيراً** ﴾ عليماً بإرادة الحكمين ، خبيراً بالظالم من الزوجين .

فوائد :

١ ـــ إن تجار السياسة في كثير من بلدان العالم يتاجرون في الأغلب في قضيتين : القضية الأولى : قضية الأموال . والقضية الثانية : قضية النساء . فباسم إعادة توزيع الملكية ، أو إلغائها . وباسم حرية المرأة ومساواتها : يَضِلُّون ويُضِلون ، مستغلين الجهل ، أو الفسوق ، أو عقدة النقص ، أو مستثيرين الحقد . وفي هذا المقطع وَضْع للأمور في نصابها الصحيح . المال مال الله ، لايؤكل إلا بطريق مشروع . والرجال قوامون على النساء . ولايصح للرجال أن يتمنوا ماأنعم الله به على بعضهم . ولايصح للنساء أن يتمنين ماللرجال .

٢ ـــ روى البخاري عن رسول الله ﷺ قوله : « لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة » . وبعض أصحاب النظر القاصر ، يستشكلون هذا خاصة في عصرنا الذي وصل فيه إلى رئاسة كثير من الدول ، نساء . وكان لهن وزنهن . والجواب : أن العبرة

عادة في مثل هذه الظروف ، لكل النتائج التي تترتب على تصرفات المرأة الحاكمة . ليس على المدى القريب . بل على المدى القريب والبعيد .

٣ ـــ قال الحسن البصري : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ تشكو أن زوجها لطمها فقال رسول الله ﷺ القصاص . فأنزل الله عز وجل . ﴿ **الرجال قوامون على النساء** ﴾ الآية . فرجعت بغير قصاص . رواه ابن جريج ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير . وروى ابن جرير عن علي قال : أتى رسول الله ﷺ رجل من الأنصار بامرأة له . فقالت : يارسول الله إن زوجها فلان بن فلان الأنصاري ، وإنه ضربها ، فأثر في وجهها . فقال رسول الله ﷺ : « ليس له ذلك » . فأنزل الله تعالى : ﴿ **الرجال قوامون على النساء** ﴾ . أي : في الأدب فقال رسول الله ﷺ : « أرادت أمراً ، وأراد الله غيره » .

٤ ـــ روى ابن جرير عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خير النساء امرأة ، إذا نظرت إليها ، سرتك . وإذا أمرتها ، أطاعتك . وإذا غبت عنها ، حفظتك في نفسها ، ومالك » . قال ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **الرجال قوامون على النساء** ﴾ إلى آخرها .

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها ، قيل لها : ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت » . وقال رسول الله ﷺ : « ولو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » . وروى مسلم عن رسول الله ﷺ : « إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح » . وفي رواية البخاري : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه ، فأبت عليه ، لعنتها الملائكة حتى تصبح » .

٥ ـــ في السنن والمسند عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال : يارسول الله : ماحق امرأة أحدنا عليه ؟ . قال : « أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ولاتضرب الوجه ، ولاتقبح ، ولاتهجر إلا في البيت » .

وقال ﷺ في حجة الوداع : « واتقوا الله في النساء ، فإنهن عندكم عَوان ولكم عليهن أن لايوطئن فرشكم أحداً تكرهونه . فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرِّح .

ولهن رزقهن ، وكسوتهن بالمعروف » .

وقال ابن عباس : يهجرها في المضجع . فإن أقبلت ، وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضرباً غير مبرِّح . ولاتكسر لها عظماً . فإن أقبلت ، وإلا فقد أحل الله لك منها الفدية » . (أي في الخلع) .

وقال النبي ﷺ (مرة) : « لاتضربوا إماء الله . فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال : ذئرت النساء على أزواجهن . فرخَّص رسول الله ﷺ في ضربهن . فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن . فقال رسول الله ﷺ : « لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن ، ليس أولئك بخياركم » . وروى الإمام أحمد عن الأشعث بن قيس قال : ضفت عمر رضي الله عنه ، فتناول امرأته ، فضربها . فقال : ياأشعب ! احفظ عني ثلاثاً ، حفظتهن عن رسول الله ﷺ لاتسأل الرجل فيما ضرب امرأته . ولاتنم إلا على وتر ، ونسي الثالثة .

٦ ــ في تفسير قوله تعالى : ﴿ **إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما** ﴾ قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : أمر الله – عز وجل – أن يبعثوا رجلًا صالحاً من أهل الرجل ، ورجلا مثله من أهل المرأة . فينظران أيهما المسيء فإن كان الرجل هو المسيء ، حجبوا عنه امرأته ، وقصروه على النفقة ، وإن كانت المرأة هي المسيئة ، قصروها على زوجها ، ومنعوها النفقة ، فإن اجتمع رأيهما على أن يفرِّقا أو يجمعا فأمرهما جائز ، فإن رأيا أن يجمعا فرضي أحد الزوجين وكره الآخر ، ثم مات أحدهما ، فإن الذي رضي يرث الذي لم يرض ، ولايرث الكاره ، الراضي » رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير .

٧ ــ روى عبد الرزاق عن ابن عباس قال : بعثت أنا ومعاوية حكمين . قال معمر : بلغني أن عثمان بعثهما ، وقال لهما : إن رأيتما أن تجمعا ، جمعتما ، وإن رأيتما أن تفرِّقا ، ففرقا . فهذا مذهب سيدنا عثمان رضي الله عنه . وروى عبد الرزاق عن عبيدة قال : شهدت علياً جاءته امرأة وزوجها ، مع كل واحد منهما فئام من الناس . فأخرج هؤلاء حكماً ، وهؤلاء حكماً . فقال عليٌّ للحكمين : أتدريان ماعليكما ؟ . إن عليكما إن رأيتما أن تجمعا جمعتما . فقالت المرأة : رضيت بكتاب الله لي وعليَّ . وقال الزوج : أما الفرقة ، فلا . فقال علي : كذبت واللهلاتبرح حتى ترضى بكتاب الله ــ عز وجل ــ

لك وعليك ، فهذا مذهب علي رضي الله عنه . وقد رأينا أن كون الحكمين لهما حق التفريق أو لا ؟ قولان للعلماء .



﴿ واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وماملكت أيمانكم إن الله لايحب من كان مختالًا فخوراً . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ماآتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً . والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً. وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً ﴾ .

بعد أن وضع الله الأمور مواضعها في قضايا المال ، والنفس ، والمرأة . أمر بعبادته ، والإحسان إلى خلقه ، والإنفاق في سبيله مبيناً علة البخل .

المعنى العام :

يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده ، لاشريك له . فإنه هو الخالق الرازق المنعم ، المتفضل على خلقه ، فهو المستحق أن يوحدوه ، ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته . ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين . فإن الله سبحانه وتعالى جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود . وكثيراً مايقرن الله سبحانه بين عبادته ، والإحسان إلى الوالدين . ثم عطف على الإحسان إليهما ، الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء ، ثم عطف على ذلك الإحسان إلى اليتامى ، وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم ، ومن ينفق عليهم . فأمر الله بالإحسان إليهم ، والحنو عليهم ، ثم عطف على الإحسان إلى ماسبق ، الإحسان إلى المساكين ، وهم المحاويج من ذوي الحاجات الذين لايجدون من يقوم بكفاياتهم . فأمر الله سبحانه بمساعدتهم ، بما تتم به كفايتهم ، وتزول ضرورتهم . ثم أمر بالإحسان إلى الجار ذي القربى ، والجار القريب ، والصاحب في العمل ، والصاحب في البيت ، والصاحب في السفر ، ثم أمر بالإحسان إلى ابن السبيل . وهو الضيف ، أو الذي يمر عليك في سفر . ثم بيَّن الله ـــ عزّ وجلّ ـــ بعد أن أمر بعبادته ، والإحسان إلى خلقه ، أنه تعالى لايحب من كان مختالًا في نفسه ، متكبراً فخوراً على

الناس ، يرى أنه خير منهم ، فهو في نفسه كبير ، وهو عند الله حقير ، وعند الناس بغيض ، يفخر على الناس بما أعطاهم ، ويفخر علــى الناس بما أعطاه الله من نِعَمه ، وهو قليل الشكر لله على ذلك . والسياق يدل على أن من لايعبد الله ، ولايحسن إلى خلقه ، لابد أن يكون فيه اختيال ، وفخر . ولذلك وصف الذين يختالون ، ويفخرون بأنهم يبخلون ، ويأمرون الناس بالبخل . وأنهم يجحدون نعمة الله عليهم ، ولايظهرونها ، لافي العطاء ، ولافي البذل . ثم هدد الله الكافرين بالعذاب الأليم . مما يدل على أن الأخلاق المذكورة من اختيال ، وفخر ، وبخل ، وكتمان لفضل الله ، إنما هي أخلاق الكافرين ، لاأخلاق المؤمنين . ثم وصف الله الكافرين بخلق من أخلاقهم ، وهو أنهم إذا أنفقوا ، فإنما يريدون بإعطائهم ، السمعة ، وأن يُمدَحوا بالكرم ، ولايريدون بذلك وجهَ الله . وأنهم لايؤمنون بالله ، ولاباليوم الآخر . وإنما حملهم على صنيعهم القبيح وعدولهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطان ، فإنه سوّل لهم ، وأملى لهم ، وقارنهم فحسّن لهم القبائح . ومن كان الشيطان صاحبه ، فساء صاحباً .

ثم خاطبهم الله تعالى بأنه : أي شيء يضرهم لو آمنوا بالله ، وسلكوا الطريق الحميدة ، وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص ؛ رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن يحسن عمله ، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها . ثم ذكّر الله ــ عز وجل ــ بعلمه . وهو في هذا السياق يفيد : أنه عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة ، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه ، ويلهمه رشده ، ويقيّضَه لعمل صالح يرضى به عنه . وبمن يستحق الخذلان ، والطّرد عن جنابه الأعظم ، الذي من طُرد عن بابه فقد خابَ ، وخسر في الدنيا والآخرة عياذاً بالله من ذلك .

المعنى الحرفي :

﴿ **واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً** ﴾ . قال ﷺ لمعاذ بن جبل : « أتدري ماحق الله على العباد ؟ . قال : الله ورسوله أعلم . قال : أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً . ثم قال : أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ أن لايعذبهم » .

فالأمر الأول ، والواجب الأول ، هو معرفة الله ، وتوحيده ، وطاعته ، وعدم الشرك به- في شأن ألوهيته ، وفي شأن ربوبيته- بشراً ، أو حجراً ، أو كوناً ، أو طبيعة ، أو مجتمعاً ، أو غير ذلك . ﴿ **وبالوالدين إحساناً** ﴾ . أي : وأحسنوا بهما

إحساناً بالقول والفعل ، والإنفاق عليهما عند الاحتياج . ﴿ **وبذي القربى** ﴾ . أي : وأحسنوا بكل من كان بينكم وبينه قربى من أخ ، أو عم ، أو غيرهما ﴿ **واليتامى والمساكين** ﴾ . أي : وأحسنوا باليتامى والمساكين . ﴿ **والجار ذي القربى** ﴾ . أي : وأحسنوا بالجار الذي قرب جواره ، أو بالجار القريب النسيب . ﴿ **والجار الجنب**﴾ . أي : وأحسنوا بالجار الجنب وهو : إما الذي جواره بعيد ، أو هو الجار الأجنبي . ﴿ **والصاحب بالجنب** ﴾ . أي : وأحسنوا بالصاحب بالجنب ،ويدخل في ذلك الزوجة ، والذي صحبك بأن حصل بجنبك إما رفيقاً في سفر ، أو شريكاً في تعلّم علم أو غيره ، أو قاعداً إلى جنبك في مجلس أو مسجد . ﴿ **وابن السبيل** ﴾ . الغريب ، أو الضيف . ﴿ **وماملكت أيمانكم** ﴾ . أي : وأحسنوا بالعبيد والإماء . ﴿ **إن الله لايحب من كان مختالًا** ﴾ . أي : متكبراً ، يأنف عن قرابته ، وجيرانه ، فلا يلتفت إليهم . ﴿ **فخوراً** ﴾ . أي : يعدِّد مناقبه كِبْراً . فإن عدَّها اعترافاً ، كان شكوراً . ﴿ **الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل** ﴾ . أي : الذين يبخلون بذات أيديهم وبما في أيدي غيرهم ، فيأمرونهم بأن يبخلوا به مقتاً للسّخاء . ﴿ **ويكتمون ماآتاهم الله من فضله** ﴾ . أي : ويخفون ماأنعم الله عليهم به من المال وسعة الحال . ﴿ **وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً** ﴾ . أي : وهيأنا للكافرين عذاباً يُهانون به في الآخرة . ﴿ **والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس** ﴾ . أي : للفخار ، وليقال : ماأجودهم لا لابتغاء وجه الله . وهم المنافقون ، أو الكافرون ، بدليل . ﴿ **ولايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً** ﴾ . أي : صاحباً ، ومرافقاً . ﴿ **فساء قريناً** ﴾ . حيث حملهم على البخل ، والرياء ، وكل شر . ويمكن أن يفهم منه الوعيد بأن الشيطان يقرن بهم في النار . ﴿ **وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله** ﴾ . أي : وأي تبعة ووبال عليهم في الإيمان والإنفاق في سبيل الله ؟ والمراد بالاستفهام ، الذم ، والتوبيخ . وإلا فكل منفعة ومصلحة في ذلك . وهذا كما يقال للعاق : ماضرك لو كنت باراً ، وقد علم أنه لامضرة في البر . ولكنه ذم وتوبيخ ﴿ **وكان الله بهم عليماً**﴾ . هذا وعيد لهم بأنهم إن لم يؤمنوا ، ولم ينفقوا ، بأن الله مطّلع عليهم ، وعالم بهم .

فوائد :

١ ــ قال النسفي : قيل : العبودية أربعة : الوفاء بالعهود، والرضا بالموجود،

والحفظ للحدود ، والصبر على المفقود . وقال : قيل : البخل أن يأكل بنفسه ، ولايؤكل غيره . والشح : ألا يأكل ولايؤكل . والسخاء: أن يأكل ، ويؤكل . والجود: أن يُؤكل ، ولايأكل .

٢ ــ فسَّر نوفٌ البكَّاليُّ : الجارِ الجنب بأنه اليهودي والنصراني . نفهم من ذلك ، أن الجار ، ولو لم يكن مسلماً ، فقد أُمرنا بالإحسان إليه . وفي الحديث الذي رواه البزار قال : قال رسول الله ﷺ : « الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وهو أدنى الجيران حقاً ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق ، وهو أفضل الجيران حقاً . فأما الجار الذي له حق واحد ، فجار مشرك لارحم له ، له حق الجوار ، وأما الجار الذي له حقان فجار مسلم ، له حق الإسلام ، وحق الجوار ، وأما الذي له ثلاثة حقوق ، فجار مسلم ذو رحم ، له حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق الرحم » .

٣ ــ مما ورد من أحاديث في الوصية بالجار :

أ ــ في الصحيحين : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيُوَرِّثه » .

ب ــ وروى الإمام أحمد عنه ﷺ : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله ، خيرهم لجاره » .

ج ــ وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قوله : « لايشبع الرجل دون جاره » .

د ــ وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود : قلت يارسول الله : أيُّ الذنب أعظم ؟ . قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قلت : ثم أي ؟ . قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أي ؟ . قال : أن تزاني حليلة جارك » .

هـ ــ روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت : إن لي جارين فإلى أيهما أهدي ؟ . قال : « إلى أقربهما منك باباً » .

٤ ــ كانت وصية رسول الله ﷺ في مرض الموت : « الصلاة ، الصلاة ، وماملكت أيمانكم » . فجعل يرددها ، حتى مايفيض بها لسانه .

وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قوله : « ماأطعمت نفسك فهو لك صدقة ، وماأطعمت ولدك ، فهو لك صدقة ، وماأطعمت زوجتك ، فهو لك صدقة ، وماأطعمت خادمك ، فهو لك صدقة » . ورواه النسائي ، وإسناده صحيح .

ومما ورد في الإحسان إلى الخادم ، والمملوك ، والأهل قوله ﷺ كما في مسلم : « كفى بالمرء إثماً أن يحبس عما يملك قوتهم » . وفي مسلم أيضاً : « للمملوك طعامه ، وكسوته ، ولايكلَّف من العمل إلا مايطيق » . وفي الصحيحين : « إذا أتى أحدَكم خادمُهُ بطعامه ، فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين ، أو أكلة أو أكلتين ، فإنه وَلِيَ حرّه ، وعلاجه » . وفي الصحيحين : « إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولاتكلّفوهم مايغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

٥ ــ في الحديث : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة » .

٦ ــ عن أبي تميمة عن رجل من بني الهجيم قال : « قلت يارسول الله : أوصني . قال : إياك وإسبال الإزار من المخيلة . وإن الله لايحب المخيلة » .

٧ ــ في الحديث : « إن الله إذا أنعم نعمة على عبد ، أحب أن يظهر أثرها عليه » .

٨ ــ وبمناسبة الإنفاق رياءً ، نذكّر بالحديث المعروف الذي يذكر الثلاثة الذين هم أول من تسجر بهم النار . وهم العالم ، والغازي ، والمنفق ، المراؤون بأعمالهم . يقول صاحب المال : ماتركت من شيء تحب أن ينفق فيه ، إلا أنفقت في سبيلك . فيقول الله : كذبت . إنما أردت أن يقال : جواد . فقد قيل . أي فقد أخذت جزاءك في الدنيا . وهو الذي أردت بفعلك . وكذلك يقال للغازي ، وللعالم . نسأل الله الإخلاص في القول ، والعمل .

ثم يختم هذا المقطع بهذه الآيات :

﴿ إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تَكُ حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً . فكيف إذا جئنا من كل أُمَّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً . يؤمئذٍ يودُّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض ولايكتمون الله حديثاً ﴾ .

المعنى العام :

يقول تعالى مخبراً أنه لايظلم أحداً من خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل ، ولامثقال

ذرة . بل يوفيها له ، ويضاعفها له إن كانت حسنة ويعطي الجنة . ثم بيّن تعالى هول يوم القيامة ، وشدة أمره وشأنه حين يأتي الأنبياء شهداء على أقوامهم ، ويأتي رسول الله ﷺ شهيداً على قومه وأمته . يومئذ يود الذين كفروا لو انشقت الأرض وبلعتهم ، مما يرون من أهوال الموقف ، ومايحل بهم منه من الخزي ، والفضيحة ، والتوبيخ ، يومئذٍ يعترفون بجميع مافعلوه ، ولايكتمون منه شيئاً وبهذه المعاني يختم هذا المقطع الذي بيّن قضايا رئيسية في موضوع التقوى ، من عدم أكل الأموال بالباطل ، وعدم قتل الأنفس ، ووجوب اجتناب الكبائر ، وعدم تمني ما للآخرين ، وألزم بقوامية الرجال على النساء ، وبين حدود معالجة المنشوز . كما أمر بالعبادة ، والتوحيد ، وترك الاختيال والفخر والبخل . وبعد ذلك تأتي هذه المعانى المرغِّبة ، المرهبة . ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة** ﴾ .

المعنى الحرفي :

﴿ **إن الله لايظلم مثقال ذرة** ﴾ : قال النسفي : (وقيل : كل جزء من أجزاء الهباء في الكون ذرة) . وهذا معنى عظيم ، فالهباءة على هذا القول مؤلفة من ذراتٍ كثيرة . وعلى هذا فإن النسفي يفسر الذرة في الصغر بما نفسرها به الآن من كونها أصغر وحدة مستقلة في المادة . فالله ــ عز وجل ــ لاينقص عمل أحد مثقال هذه الذرة من خير ، أو شر . ﴿ **وإن تكُ حسنة يضاعفها** ﴾ . أي : وإن تكن مثقال الذرة حسنة ، يضاعف ثوابها . ﴿ **ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾ . أي : ويعطي صاحبها من عنده ثواباً عظيماً ، وماوصفه الله بالعظم فمن يعرف مقداره ؟ مع أنه سمَّى متاع الدنيا قليلًا . وفيه إبطال قول المعتزلة في تخليد مرتكب الكبيرة ، مع أنّ له حسنات كثيرة . ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد** ﴾ . أي فكيف يصنع هؤلاء الكافرون إذا جئنا من كل أمّة بشهيد ، يشهد عليهم بما فعلوه ، وهو نبيُّهم . ﴿ **وجئنا بك** ﴾ يامحمد . ﴿ **على هؤلاء** ﴾ . أي : على أمتك ﴿ **شهيداً** ﴾ . أي : شاهداً على من آمن بالإيمان ، وعلى من كفر بالكفر ، وعلى من نافق بالنفاق .

روى البخاري عن ابن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : « اقرأ عليّ .

فقلت : يارسول الله ، أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ . قال : نعم . إني أحب أن أسمعه من غيري . فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾ . فقال : حسبك الآن . فإذا عيناه ﷺ تذرفان » .

﴿ **يومئذٍ يَودُّ الذين كفروا** ﴾ بالله . ﴿ **وعَصَوا الرسول لو تسوَّى بهم الأرض** ﴾ . أي : لو يدفنون فتسوَّى بهم الأرض كما تسوَّى بالموتى ، أو يودون أنهم لم يبعثوا وأنهم كانوا والأرض سواء ، أو حين تصير البهائم تراباً يودون حالها . ﴿ **ولايكتمون الله حديثاً** ﴾ . أي : ولايقدرون على كتمانه ، لأن جوارحهم تشهد عليهم .

فوائد :

١ ــ في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل وفيه : « فيقول الله عز وجل : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار . وفي لفظ : أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، فأخرجوه من النار . فيخرجون خلقاً كثيراً . ثم يقول أبو سعيد : اقرأوا إن شئتم . ﴿ **إن الله لايظلم مثقال ذرة ...** ﴾ .

٢ ــ روى أبو داود الطيالسي : « إن الله لايظلم المؤمن حسنة ، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بها في الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة ، لم يكن له حسنة » .

٣ ــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإن تك حسنة يضاعفها** ﴾ . يروي ابن كثير حديثاً بأسانيد متعددة عن أبي هريرة وفيه : « إن الله ليضاعف الحسنة ألفي حسنة » .

٤ ــ روى عبد الرزاق عن سعيد بن جبير قال : (جاء رجل إلى ابن عباس فقال : أشياء تختلف عليّ في القرآن . قال : ماهو ؟ أشَكٌّ في القرآن ؟ . قال : ليس هو بالشك ولكن اختلاف ، قال : فهات ما اختلف عليك من ذلك . قال : أسمع الله يقول : ﴿ ثم

لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ماكنا مشركين ﴾ . وقال : ﴿ **ولايكتمون الله حديثاً** ﴾ . فقد كتموا ؟. فقال ابن عباس : أما قوله : ﴿ **ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ماكنا مشركين** ﴾ . فإنهم لما رأوا يوم القيامة ، أن الله لايغفر إلا لأهل الإسلام ، ويغفر الذنوب ولا يغفر شركا ، ولايتعاظمه ذنب أن يغفره ، جحد المشركون فقالوا : ﴿ **والله ربنا ماكنا مشركين** ﴾ ؛ رجاء أن يغفر لهم فختم الله على أفواههم ، وتكلمت أيديهم ، وأرجلهم بما كانوا يعملون . فعند ذلك يود الذين كفروا ، وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولايكتمون الله حديثاً) .

تحقيق وتعليق

١ ــ يقول الألوسي مبيناً وجهتي النظر في قوله تعالى ﴿ **والَّذينَ عَقَدَتْ أيمانكُمْ** ﴾ . هم موالي الموالاة . أخرج ابن جرير . وغيره عن قتادة قال : كان الرجل يعاقد الرجل في الجاهلية فيقول دمي دمك ، وهدمي هدمك ، وترثني وأرثك ، وتطلب بي وأطلب بك ؛ فجعل له السدس من جميع المال في الإسلام ، ثم يقسم أهل الميراث ميراثهم ، فنسخ ذلك بعد في سورة الأنفال بقوله سبحانه : ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ .

وروي ذلك من غير ماطريق عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وكذلك عن غيره ، ومذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه أنه إذا أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يرثه ويعقل عنه صح وعليه عقله وله إرثه إن لم يكن له وارث أصلا ، وخبر النسخ المذكور لايقوم حجة عليه ، إذ لادلالة فيما ادعى ناسخاً على عدم إرث الحليف لاسيما وهو إنما يرثه عند عدم العصبات وأولي الأرحام ، والأيْمان هنا جمع يمين بمعنى اليد اليمنى ، وإضافة العقد إليها لوضعهم الأيدي في العقود أي بمعنى القَسَم اهـ .

٢ ــ ويقول صاحب الظلال عند قوله تعالى ﴿ **الرجال قوَّامون على النساء** ﴾ .

إن الأسرة ــ كما قلنا ــ هي المؤسسة الأولى في الحياة الإنسانية . الأولى من ناحية أنها نقطة البدء التي تؤثر في كل مراحل الطريق . والأولى من ناحية الأهمية لأنها تزاول إنشاء وتنشئة العنصر الإنساني ، وهو أكرم عناصر هذا الكون ، في التصور الإسلامي .

وإذا كانت المؤسسات الأخرى الأقل شأناً ، والأرخص سعراً ، كالمؤسسات المالية والصناعية والتجارية ، وماإليها .. لايوكل أمرها – عادة – إلا لأكفأ المرشحين لها ، ممن تخصصوا في هذا الفرع علمياً ، ودربوا عليه عملياً ، فوق ماوهبوا من استعدادات طبيعية للإدارة والقوامة ...

إذا كان هذا هو الشأن في المؤسسات الأقل شأناً والأرخص سعراً ... فأولى أن تُتّبع هذه القاعدة في مؤسسة الأسرة ، التي تنشّيء أثمن عناصر الكون .. العنصر الإنساني ..

والمنهج الرباني يراعي هذا . ويراعي به الفطرة ، والاستعدادات الموهوبة لشطري النفس لأداء الوظائف المنوطة بكل منهما وفق هذه الاستعدادات ، كما يراعي به العدالة في توزيع الأعباء على شطري النفس الواحدة . والعدالة في اختصاص كل منهما بنوع الأعباء المهيأ لها ، المعان عليها من فطرته واستعداداته المتميزة المتفردة ..

والمسَلَّم به ابتداءً أن الرجل والمرأة كلاهما من خلق الله . وأن الله – سبحانه – لايريد أن يظلم أحداً من خلقه ، وهو يهيئه ويعدّه لوظيفة خاصة ، ويمنحه الاستعدادات اللازمة لإحسان هذه الوظيفة !

وقد خلق الله الناس ذكراً وأنثى .. زوجين على أساس القاعدة الكلية في بناء هذا الكون .. وجعل من وظائف المرأة أن تحمل ، وتضع ، وترضع ، وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل .. وهي وظائف ضخمة أولًا ، وخطيرة ثانياً . وليست هينة ولايسيرة ، بحيث تُؤدَّى بدون إعداد عضوي ونفسي وعقلي عميق غائر في كيان الأنثى : فكان عدلًا كذلك أن ينوط بالشطر الثاني – الرجل – توفير الحاجات الضرورية ، وتوفير الحماية كذلك للأنثى ؛ كي تتفرغ لوظيفتها الخطيرة ؛ ولايحمل عليها أن تحمل وتضع وترضع وتكفل .. ثم تعمل وتكد وتسهر لحماية نفسها وطفلها في آن واحد . وكان عدلًا كذلك أن يُمنَح الرجل من الخصائص في تكوينه العضوي والعصبي والعقلي والنفسي مايعينه على أداء وظائفه هذه . وأن تُمنح المرأة في تكوينها العضوي والعصبي والعقلي والنفسي مايعينها على أداء وظيفتها تلك . وكان هذا فعلًا .. ولايظلم ربك أحداً .. ومن ثَم زودت المرأة – فيما زودَت به من الخصائص – بالرقّة والعطف ، وسرعة الانفعال ، والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة – بغير وعي

ولاسابق تفكير — لأن الضرورات الإنسانية العميقة كلها — حتى في الفرد الواحد — لم تترك لأرجحة الوعي والتفكير وبطئه ، بل جعلت الاستجابة لها غير إرادية ! لتسهل تلبيتها فوراً وفيما يشبه أن يكون قسراً . ولكنه قسر داخلي غير مفروض من الخارج ؛ ولذيذ ومستحب في معظم الأحيان كذلك ، لتكون الاستجابة سريعة من جهة ومريحة من جهة أخرى . مهما يكن فيها من المشقة والتضحية ! صنع الله الذي أتقن كل شيء .

وهذه الخصائص ليست سطحية . بل هي غائرة في التكوين العضوي والعصبي والعقلي والنفسي للمرأة .. بل يقول كبار العلماء المختصين : إنها غائرة في تكوين كل خلية . لأنها عميقة في تكوين الخلية الأولى ، التي يكون من انقسامها وتكاثرها الجنين ، بكل خصائصه الأساسية ! وكذلك زُوّد الرجل — فيما زُوّد به من الخصائص — بالخشونة والصلابة ، وبطء الانفعال والاستجابة ، واستخدام الوعي والتفكير قبل الحركة والاستجابة . لأن وظائفه كلها من أول الصيد الذي كان يمارسه في أول عهده بالحياة إلى القتال الذي يمارسه دائماً لحماية الزوج والأطفال . إلى تدبير المعاش .. إلى سائر تكاليفه في الحياة .. لأن وظائفه كلها تحتاج إلى قدر من التروي قبل الإقدام ، وإعمال الفكر ، والبطء في الاستجابة بوجه عام ! .. وكلها عميقة في تكوينه عمق خصائص المرأة في تكوينها .. وهذه الخصائص تجعله أقدر على القوامة ، وأفضل في ممارستها.. كما أن تكاليفه بالإنفاق — وهو فرع من توزيع الاختصاصات — يجعله بدوره أولى بالقوامة ، لأن تدبير المعاش للمؤسسة ومن فيها داخل في هذه القوامة ، والإشراف على تصريف المال فيها أقرب إلى طبيعة وظيفته فيها .. وهذان هما العنصران اللذان أبرزهما النص القرآني ، وهو يقرر قوامة الرجال على النساء في المجتمع الإسلامي . قوامة لها أسبابها من التكوين والاستعداد . ولها أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات . ولها أسبابها من العدالة في التوزيع من ناحية ، وتكليف كل شطر — في هذا التوزيع — بالجانب الميسر له ، والذي هو مُعان عليه من الفطرة .

وأفضليته في مكانها .. في الاستعداد للقوامة والدربة عليها والنهوض بها بأسبابها .. لأن المؤسسة لا تسير بلا قوامة – كسائر المؤسسات الأقل شأناً والأرخص سعراً – ولأن أحد شطري النفس البشرية مهيأ لها معان عليها ، مكلف تكاليفها . وأحد الشطرين غير مهيأ لها ، ولا معان عليها .. ومن الظلم أن يحمل تكاليفها إلى جانب

أعبائه الأخرى .. وإذا هو هُيىء بالاستعدادات الكامنة ، ودُرّب عليها بالتدريب العلمي والعملي فسد استعداده للقيام بالوظيفة الأخرى .. وظيفة الأمومة .. لأن لها هي الأخرى مقتضياتها واستعداداتها . وفي مقدمتها سرعة الانفعال ، وقرب الاستجابة . فوق الاستعدادات الغائرة في التكوين العضوي ، وآثارها في السلوك والاستجابة ! إنها مسائل خطيرة .. أخطر من أن تتحكم فيها أهواء البشر .. وأخطر من أن تترك لهم يخبطون فيها خبط عشواء .. وحين تركت لهم ولأهوائهم في الجاهليات القديمة والجاهليات الحديثة ، هددت البشرية تهديداً خطيراً فى وجودها ذاته ؛ وفي بقاء الخصائص الإنسانية التي تقوم بها الحياة الإنسانية وتتميز .

ولعل من الدلائل التي تشير بها الفطرة إلى وجودها وتحكمها ؛ ووجود قوانينها المتحكمة في بني الإنسان ، حتى وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكرون لها ..

ولعل من هذه الدلائل ما أصاب الحياة البشرية من تخبط وفساد ، ومن تدهور وانهيار ، ومن تهديد بالدمار والبوار ، في كل مرة خولفت فيها هذه القاعدة . فاهتزت سلطة القوامة في الأسرة . أو اختلطت معالمها . أو شذّت عن قاعدتها الفطرية الأصيلة !

ولعل من هذه الدلائل توقان نفس المرأة ذاتها إلى قيام هذه القوامة على أصلها الفطري في الأسرة . وشعورها بالحرمان والنقص والقلق وقلة السعادة ؛ عندما تعيش مع رجل لا يزاول مهام القوامة ؛ وتنقصه صفاتها اللازمة ؛ فيكل إليها هي القوامة ! وهي حقيقة ملحوظة تسلم بها حتى الخابطات في الظلام .

ولعل من هذه الدلائل أن الأطفال – الذين ينشأون في مؤسسة عائلية القوامة فيها ليست للأب . إما لأنه ضعيف الشخصية ، بحيث تبرز عليه شخصية الأم وتسيطر . وإما لأنه مفقود : لوفاته – أو لعدم وجود أب شرعي !– قلما ينشأون أسوياء . وقلَّ ألَّا ينحرفون إلى شذوذ ما في تكوينهم العصبي ، والنفسي ، وفي سلوكهم العلمي والخلقي .. فهذه كلها بعض الدلائل ، التي تشير بها الفطرة إلى وجودها وتحكمها ، ووجود قوانينها المتحكمة في بني الإنسان ، حتى وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكرون لها ! ولا نستطيع أن نستطرد أكثر من هذا – في سياق الظلال – عن قوامة الرجال ومقوماتها ومبرراتها ، وضرورتها وفطريتها كذلك .. ولكن ينبغي أن نقول : إن هذه القوامة ليس من شأنها إلغاء شخصية المرأة في البيت ، ولا في المجتمع الإنساني ، وإلغاء وضعها « المدني » – كما بينا ذلك من قبل – وإنما هي وظيفة – داخل كيان الأسرة

لإدارة هذه المؤسسة الخطيرة ، وصيانتها وحمايتها . ووجود القيم في مؤسسة ما ، لا يلغي وجود ولا شخصية ولا حقوق الشركاء فيها ، والعاملين في وظائفها . فقد حدد الإسلام في مواضع أخرى صفة قوامة الرجل وما يصاحبها من عطف ورعاية ، وصيانة وحماية ، وتكاليف في نفسه وماله ، وآداب في سلوك مع زوجه وعياله .

كلمة في السياق :

بهذا المقطع يكون قد مرَّ معنا ثلاثة مقاطع من سورة النساء ، اتضحت لنا فيها معانٍ كثيرة ، مرتبطة بالعبادة والتقوى ، وتحددت فيها أمور .

وفي المقطع الثالث تحددت قضايا ، هي من الأهمية بمكان كبير ، ومن ثَم فإن فهم هذا المقطع يترتب عليه شيء كثير في عصرنا . خاصّة وأن فتنة العصر تكمن في القضيتين الرئيسيتين : اشتراكية الأموال ، ومساواة الرجال بالنساء . والمقطع يقيم المؤمنين حيث ينبغي أن يقيموا في هاتين القضيتين ، وغيرهما . ولعلنا لاحظنا في هذا المقطع تشابهاً بين معان فيه ، ومعان موجودة في سورة البقرة . ولكنها هنا أكثر تفصيلًا كقوله تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ... ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ **وللرجال عليهن درجة** ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله** ... ﴾ وكل ذلك في سورة البقرة . مما يؤكد ما قلناه من أن سورة النساء تفصِّل في محورها من سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربّكم** ... ﴾ ، وامتدادات هذا المحور في سورة البقرة نفسها .

ولنقف هنا وقفة متأنية : جاء قوله تعالى فى سورة البقرة ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ بعد مقدمة سورة البقرة التي وصفت المتقين بأنهم يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، وأنهم ينفقون مما رزقهم الله - عز وجل -. ومن قوله تعالى ﴿ **اعبدوا ربكم .. لعلكم تتقون** ﴾ نفهم أن العبادة هي الطريق لتعميق الإيمان ، وإقامة الصلاة ، واستخراج الإنفاق ، وتحقيق الالتزام بالقرآن .

وقد جاء في المقطع الذي مَرّ معنا أمرٌ بالعبادة وانتهت الآية التي أمرت بالعبادة بقوله تعالى ﴿ **إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل** ﴾ فالسياق إذن يحرِّر من البخل ، وقد جاءت آية الأمر بالعبادة هنا بعد تبيان أن الصالحات قانتات ، فهي تدل على طريق الصلاح ، وجاءت هذه الآية بعد أوامر

ونواه - هي من التقوى - فهي تدل على طريق التقوى وكل ذلك صلته بمحور السورة من البقرة واضح لمن تأمل .

أمرت آية العبادة بالعبادة ، وترك الشرك ، وأمرت بالإحسان ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى** ... ﴾ ومحور سورة النساء من البقرة جاء فيه أمر بالعبادة ، ونهي عن الشرك ، وجاء به ما يستثير الإحسان : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم .. الذي جعل لكم الأرض فراشا .. فلا تجعلوا الله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ إنه سيتأكد لدينا شيئا فشيئاً كيف أن سورة النساء تفصّل في محورها من البقرة ، وفي ارتباطات هذا المحور ، وفي امتداداته من سورة البقرة بما لا يبقى معه شك . وبعد المقطع الثالث ، يأتي المقطع الرابع ، ويبدأ بالنهي عن الصلاة في حالة السكر ، ويبيح التيمم للصلاة في بعض الحالات ، ثم تأتي مجموعة فيه توضح الرؤية في أمر أهل الكتاب ، ثم تأتي مجموعة تتحدث عن الكافرين والمؤمنين ، ثم تأمر بأداء الأمانة ، والحكم بالعدل ، فلنتأمل صلة ذلك ببعضه وبالمحور : لقد جاء في المحور أمر بالعبادة لتحقيق التقوى التي أحد أجزائها :

﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أُنزل من قبلك** ﴾ فللعبادة صلة بقضية الإيمان ، ومن التقوى الصلاة ، وهي كذلك عبادة فأن يأتي الآن مقطع ينهى عما ينافي الصلاة ، ثم يوضح لنا الرؤية في شأن من لا يؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ ، وما هي دوافعهم في ذلك؟ كل ذلك لا تخفى صِلاته مع المحور ، ولهذا الموضوع تتمة نراها أثناء استعراض المقطع الرابع .

المقطع الرابع

ويمتد من الآية (٤٣) إلى نهاية الآية (٥٨) . وهذا هو :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ

صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

☆ ☆ ☆

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

☆ ☆ ☆

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾

☆ ☆ ☆

كلمة في المقطع :

جاء هذا المقطع بعد أمر بالعبادة ، وتذكير بمشهد من مشاهد يوم القيامة ، والصلاة جزء من العبادة ، والعبادة بمجموعها تعمّق الرؤية الإيمانية ، ومن ثَمَّ جاءت في المقطع توجيهات تعمّق الرؤية في شأن أهل الكتاب ، وجحودهم ، وضلالهم ، وحسدهم ، وكفرهم ، ثم جاءت آيتان تنذر الكافرين ، وتبشر المؤمنين ، وإذ تعمّقت الرؤية واستجيشت النفس بالتبشير والإنذار يأتي الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل .

وهكذا يضيف السياق إلى ماهية التقوى قضيتين رئيسيتين هما : أداء الأمانة إلى أهلها ، والحكم بالعدل .

إن مجيء النهي عن الصلاة في حالة السكر ، وتعليل ذلك بقوله تعالى : ﴿ **حتى تعلموا ما تقولون** ﴾ . يشير إلى أن العبادة التي تحقق المراد منها هي العبادة الخاشعة ، ومجيء إباحة التيمم في بعض الحالات في هذا السياق يشير إلى أنّ العبادة في الإسلام مقرونة باليسر ، ومجيء الدروس في شأن أهل الكتاب في هذا السياق يشير إلى أن من لا عبادة له لا يستطيع أن يرى حقيقة أهل الكتاب ، فالرؤية الإيمانية الكاملة مرتبطة : بالعبادة ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بالعدل مرتبط : بالعبادة ، والإيمان ، وبالعمل الصالح ، وبالرؤية الإيمانية ، وكل ذلك يقدمه لنا المقطع فلنبدأ عرض المقطع على مراحل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً** ﴾ .

فى الآية قضيتان :

١ ــ قربان الصلاة والإنسان سكران .

٢ ــ التيمم ، ولكلٍ سبب نزول .

سبب نزول تحريم قربان الصلاة والإنسان سكران :

من المعلوم أن المرحلة الثالثة في تحريم الخمر ، هي المنصوص عليها في هذه السورة وأما المرحلة الرابعة ، فهي المنصوص عليها في سورة المائدة . وسنذكر هناك – إن شاء الله – بعض الأحاديث في هذا الموضوع ، أما هنا فنكتفي بما له صلة بموضوع الآية :

روى ابن أبي حاتم عن سعد بن أبي وقاص قال : (نزلت فيَّ أربع آيات . صنع رجل من الأنصار طعاماً ، فدعا أناساً من الأنصار ، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا ، ثم افتخرنا ، فرفع رجل لحي بعير ، ففزر بها أنف سعد ، فكان سعد مفزور الأنف ، وذلك قبل تحريم الخمر ، فنزلت : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ... ﴾ والحديث بطوله عند مسلم . وروى الترمذي ، وابن أبي حاتم – وهو حديث حسن صحيح – عن عليّ بن أبي طالب قال : (صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً ، فدعانا وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمر منا ، وحضرت الصلاة ، فقدَّموا فلاناً . قال : فقرأ : قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون . ونحن نعبد ما تعبدون .

فأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ...** ﴾ وقد روي هذا الأثر روايات متعددة . وفي سنن أبي داود الحديث الذي فيه دعاء عمر : « اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً » .. فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ، ينادي أن لا يقربنّ الصلاة سكران) .

والمهم أن نعرف أن هذه الآية نزلت والاستعداد النفسي لقبول حكمها كان قائماً بعد مجموعة حوادث ، كلها مقنع بضرورة هذا الحكم .

سبب نزول مشروعية التيمم :

قال ابن كثير : (وإنما ذكرنا ذلك ههنا ، لأن هذه الآية التي في النساء ، متقدمة النزول على آية المائدة : وبيانه : أن هذه نزلت قبل تحريم الخمر . والخمر إنما حرم بعد (أحُد) بيسير ، في محاصرة النبي ﷺ لبني النضير . وأما المائدة ، فإنها من آخر ما نزل ، ولاسيما صدرها فناسب أن يذكر السبب هنا . وبالله الثقة) .

ـــ روى البخاريُّ عن عائشة قالت : (خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش ، انقطع عقد لي ، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه ، وأقام الناس معه ، وليسوا على ماء . وليس معهم ماء . فأتى الناس إلى أبي بكر ، فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله ﷺ ، وبالناس ، وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء ! فجاء أبو بكر ، ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام . فقال : حبستِ رسول الله ﷺ والناسَ وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء ! قالت عائشة : فعاتبني أبو بكر ، وقال ما شاء الله أن يقول ، وجعل يَطعن بيده في خاصرتي . ولا يمنعني من التحرك إلا مكانُ رسول الله ﷺ على فخذي . فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التَّيمم ، فتيمَّموا . فقال أُسيد بن حُضير : ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر . قالت : فبعثنا البعير الذي كنت عليه ، فوجدنا العقد تحته) .

وروى ابن مردويه عن الأسلع بن شريك قال : كنت أرحّل ناقة رسول الله ﷺ فأصابتني جنابة في ليلة باردة ، وأراد رسول الله ﷺ الرحلة ، فكرهت أن أرحّل ناقة رسول الله ﷺ وأنا جنب . وخشيت أن أغتسل بالماء البارد ، فأموتَ أو أمرضَ فأمرت رجلًا من الأنصار ، فرحلها . ثم رضفت أحجاراً ، فأسخنت بها ماءً ، واغتسلت . ثم

لحقت رسول الله ﷺ وأصحابه . فقال : يا أسلع مالي أرى رحلتك تغيّرت . قلت يا رسول الله ، لم أرحلها . رحلها رجل من الأنصار . قال : ولم ؟ قلت : إني أصابتني جنابة ، فخشيت القَرَّ على نفسي ، فأمرته أن يرحلها . ورضفت احجاراً ، فأسخنت بها ماءً ، فاغتسلت به فأنزل الله تعالى : ﴿ **لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون** ﴾ إلى قوله - ﴿ **إن الله كان عفواً غفوراً** ﴾ قال ابن كثير : وقد روي من وجه آخر عنه .. أقول قد يتعدد النزول لتأكيد شمول النص لأكثر من حادثة ، وقد لا يكون الأسلع قد عرف الآية من قبل فظنها في حادثته .

المعنى العام :

ينهى الله تبارك وتعالى عباده عن فعل الصلاة في حال السكر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول ، وعن قربان محالها ــ التي هي المساجد ــ للجنب إلا أن يكون مجتازاً من باب إلى باب ، من غير مكث ، وفي حال الضرورة ، والحكمة في تحريم قربان الصلاة ، والإنسان سكران ، هو علم الإنسان بما يقول . فإنَّ المخمور فاقد التدبر والخشوع ، يخلط في قراءته ، و لايعقلها . فالآية نهت عن تعاطي الصلاة على هيئة ناقصة تُناقض مقصودها . وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة ، وهي الجنابة ، المباعدة للصلاة ولمحلها ، إلا إذا كان عابر طريق في حالة الضرورة ، كما ذكرنا ، حتى يغتسل الإنسان من جنابته .

ثم رخَّص في التيمم ، كبديل عن الغسل في حالات : حالة السفر إذا فقد الماء . وحالة المرض الذي يضر معه استعمال الماء . ثم بين كيفية التيمم وأداته . ثم ذيّل الآية بالتذكير بعفوه وغفرانه ، وتذييل الآية بالعفو والمغفرة ، يفيد أن من عفوه وغفرانه ، أن شرع لكم التيّمّم ، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء . توسعة عليكم ، ورخصة لكم . وذلك أن هذه الآية الكريمة ، فيها تنزيه الصلاة أن تفعل على هيئة ناقصة ، من سكر حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول ، أو جنابة حتى يغتسل ، أو حدث حتى يتوضأ ، إلا أن يكون مريضاً ، أو عادماً للماء ، فإن الله ــ عزوجل ــ قد أرخص في التيمم ، والحالة هذه ، رحمة بعباده ، ورأفة بهم ، وتوسعة عليهم . فإذا كان محور سورة النساء في العبادة ، والتقوى ، ومن التقوى الصلاة . فهذه الآية إذن ، تفصيل لبعض قضايا التقوى ، بتفصيل بعض ما يدخل فيها .

المعنى الحرفي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكارى** ﴾ . أي : لا تصلّوا وأنتم في حالة سكر . ﴿ **حتى تعلموا ما تقولون** ﴾ . أي : لتعلموا ما تقرؤون . ﴿ **ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا** ﴾ . أي : ولا تصلوا جنباً . أي : لا تقربوا الصلاة غير مغتسلين حال الجنابة ، إلا أن تكونوا مسافرين ، عادمين الماء ، متيممين . هذا ما ذهب إليه الحنفية في فهم الآية :

لا تقربوا الصلاة سكارى ، لا تقربوا الصلاة جنباً حتى تغتسلوا ، إلا في حالة السفر ، فاقربوها متيممين لفقدان الماء .

ومذهب الشافعية في فهم الآية على الشكل التالي :

لا تقربوا الصلاة . أي : لا تقربوا مواضعها . وهي المساجد ، وأنتم سكارى . ولا تقربوا المساجد جنباً ، إلا عابري سبيل . أي : مجتازين فيها . فيجوز عندهم للجنب العبور في المسجد عند الحاجة . ﴿ **وإن كنتم مرضى أو على سفر** ﴾ : طويل ، أو قصير . ﴿ **أو جاء أحد منكم من الغائط** ﴾ . والغائط : هو المكان المطمئن من الأرض كنّى بذكره عن التغوط وقضاء الحاجة ، وهو الحدث الأصغر . ﴿ **أو لامستم النساء** ﴾ . أي : أو جامعتموهن على أصح أقوال المفسرين في هذا المقام ، كما رجَّحه ابن كثير . ﴿ **فلم تجدوا ماءً** ﴾ . أي : فلم تقدروا على استعماله ، لعدمه أو بعده ، أو فقد آلة الوصول إليه ، أو لمانع من حية أو سبع ، أو عدو . ذكره النسفي . ﴿ **فتيمّموا صعيداً طيّباً** ﴾ . فسر الزجّاج الصعيد ، بوجه الأرض ، تراباً كان ، أو غيره . وإن كان صخراً لا تراب عليه . لو ضرب المتيمم يده ، ومسح ، لكان ذلك طهوره . وهذا مذهب الحنفية . وسترى أن هذه القضية ، خلافية . والطيّب في الآية : الطاهر على رأي الحنيفة . فصار المعنى : أن المريض ، والمسافر ، والمحدث ، وأهل الجنابة ، لهم التيمم إذا عدموا الماء حقيقة أو حكماً ﴿ **فامسحوا بوجوهكم وأيديكم** ﴾ . أي : امسحوا وجوهكم وأيديكم ، بأيديكم التي ضربتم بها الصعيد الطّيب بنية التيمم ، وهل المراد بالأيدي هنا ، الأكف فقط ، أو الأيدي إلى المرافق ؟ قولان سنراهما إن شاء الله . ﴿ **إن الله كان عفواً** ﴾ . بالترخيص ، والتيسير . ﴿ **غفوراً** ﴾ . عن الخطأ ، والتقصير .

فوائد :

١ ــ الجزء الأول من الآية،وهو ماله علاقة بإباحة السكر إلا في الصلاة منسوخ بالتحريم القطعي للخمر ، الذي ورد في سورة المائدة . فما الحكمة في بقاء النص ، مع نسخ حُكمه ؟ . لو تأملنا بدقة هذا الموضوع ، لرأينا أن التحريم المقيّد ، لم ينسخ . بل بقي مع زيادة . فتحريم قربان الصلاة ، والإنسان سكران ، لا زال قائماً . ولكن ما يفهم من حل الخمر فيما عدا ذلك ، هو الذي نسخ . هذه واحدة . ثم إننا نفهم مّن الآية مجموعة أمور ، كلها غير منسوخ فلئن بقي النّص ، فلوجوده إذن حكم كثيرة . عدا عن الحكمة الكبيرة ، وهي إثبات الواقع التاريخي ، التدريجي ، لعملية تحريم الخمر . مما يمكن أن نفهم منها طريقة التربية الإسلامية للأمة المسلمة في نشأتها . وما يمكن أن نستفيد من ذلك من عِبَرٍ في ، تطوير أوضاعها في غير ما استقرت عليه الأحكام .

٢ ــ مما نفهمه من النص ، ومن سبب النزول ، ما ذكره الحنفية ، قالوا : وفيه دليل على أن ردة السكران ، ليست بردة . لأن قراءة سورة الكافرون بطرح اللاءات كفر . ولم يحكم بكفره ، حتى خاطبهم باسم الإيمان . أي بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا** ... ﴾ . ومما فهمه بعضهم من الآية وجوب الخشوع في الصلاة من قوله تعالى : ﴿ **حتى تعلموا ما تقولون** ﴾ . فدلَّ ذلك على أن عقل الإنسان لما يقول في صلاته ، مقصود في الشريعة . وأخذ الفقهاء تعريف السكران من النص فعرفوه : بأنه الذي لا يدري ما يقول . ومن الآية نفهم أن للصلاة مهمة خاصة ، لذلك يراعى فيها ، ما لا يراعى في غيرها .

٣ ــ هذه الآية كانت التوطئة الكبرى للتحريم النهائي للخمر . ففيها تعريض بالنهي عن السكر بالكلية . لكونهم مأمورين بالصلاة في الأوقات الخمسة ، من الليل والنهار . فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائماً ، إلا إذا جانب الخمر في أكثر أوقاته .

٤ ــ دلَّت الآية على أن معرفة المصلي ما يقول ، مراد رئيسي في الصلاة . ويؤكد هذا ، الحديث الصحيح عنه ﷺ : « إذا نعس أحدكم ، وهو يصلي ، فلينصرف ، ولينم ، حتى يعلم ما يقول » . رواه البخاري ، والنسائي . وفي ألفاظ الحديث : « فلعله يذهب يستغفر ، فيسب نفسه » .

ومن ثم ، فعلينا أن نبذل جهدا لتحصيل علم الخشوع ، وحاله . وهو أول علم يرفع من الأرض ، كما في حديث حسن .

٥ ــ رأينا أن في قوله تعالى : ﴿ **إلا عابري سبيل** ﴾ ، تفسيرين : التفسير الذي فسَّر ذلك بالسفر ووجَّه الاستثناء على أنه استثناء من جواز قربان الصلاة في حالة الجنابة . وهو اتجاه الحنفية . وبناءً عليه ، فلا يجوز لجنب أن يدخل المسجد ولو ماراً .

والتفسير الثاني : وهو الذي فسَّر الاستثناء على أنه استثناء من جواز قربان محالِّ الصلاة ، وهي المساجد . وبالتالي فإنَّ عبور المسجد للجنب عند الحاجة على هذا المذهب جائز . قال ابن كثير : (ومن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد ويجوز المرور ، وكذا الحائض ، والنفساء أيضاً في معناه إلا أن بعضهم قال يحرم مرورهما ، لاحتمال التلويث ، ومنهم من قال : إن أمنت كل واحدة منهما التلويث في حال المرور ، جاز لها المرور) . وذكر ابن كثير أدلَّة الطرفين ، ولكل دليله . وأما المكث في المسجد للجنب فإن أبا حنيفة ، ومالكاً ، والشافعي يحرمون على الجنب المكث في المسجد حتى يغتسل ، أو يتيمم إن عدم الماء ، أو لم يقدر على استعماله بطريقه ، وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث في المسجد لما روى هو ، وسعيد بن منصور في سننه ، بسند صحيح : أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك .

٦ ــ وفي حد المرض الذي يبيح التيمم ، قال ابن كثير :

(أما المرض المبيح للتيمم ، فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو ، أو شينه ، أو تطويل البرء) . ومن العلماء من جوَّز التيمم بمجرد المرض ، لعموم الآية .

٧ ــ وفي تفسير الصعيد في الآية ، أقوال قال ابن كثير :

(والصعيد ، قيل هو : كل ما صعد على وجه الأرض . فيدخل فيه التراب ، والرمل ، والشجر ، والحجر ، والنبات . وهو قول مالك . وقيل : ما كان من جنس التراب . كالرمل والزرنيخ ، والنّورة . وهذا مذهب أبي حنيفة . وقيل : هو التراب فقط . وهو قول الشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وأصحابهما) . ثم ذكر أدلة القول الأخير .

٨ ــ وعند قوله تعالى : ﴿ **فامسحوا بوجوهكم وأيديكم** ﴾ قال ابن كثير : التَّيمُّم بدل عن الوضوء في التطهير ، لا أنه بدل منه فى جميع أعضائه بل يكفي مسح الوجه واليدين بالإجماع . ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمُّم على أقوال : أحدها – وهو مذهب الشافعي في الجديد – أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين

بضربتين ، لأن لفظ اليدين ، يصدق إطلاقه على ما يبلغ المنكبين ، وعلى ما يبلغ الكفين كما في آية السرقة ﴿ **فاقطعوا أيديهما** ﴾ . قالوا : وحمل ما أطلق ههنا على ما قيّد في آية الوضوء أولى ، لجامع الطّهورية) . ثم ذكر أدلة الطرفين . والأمر فيه سعة . وفي سورة المائدة عند آية الوضوء زيادة بيان . وبعد أن ذكرت هنا في هذا المقطع هذه الآية عن الصلاة ، ومحلها من التقوى والعبادة ما نعلم ، تأتي هنا مجموعة آيات تتكرر فيها ﴿ **ألم تر** ﴾ . توضح الرؤية للمتقين .

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل * والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليّاً وكفى بالله نصيراً * من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه . ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً * ياأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردّها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً * إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما ﴾ .

﴿ ألم تر إلى الذين يزكّون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلًا انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً ﴾ .

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا . أولئك الذين لعنهم الله . ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً . أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً . أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله . فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً ﴾ .

كلمة في السياق :

في محور سورة النساء من البقرة أمرٌ بالعبادة ونهيٌ عن الشرك ، والهدف هو الوصول إلى التقوى ، ولا عبادة ولا توحيد ولا تقوى إلا إذا وضحت رؤيتنا لمواقف أهل الكتاب وهذه المجموعة توضح الرؤية لذلك يرد فيها قوله تعالى : ﴿ **ألم تر** » ثلاث مرات وفي سياقها يأتي قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ .

المعنى العام

يخبر تعالى في هذه المجموعة من الآيات عن اليهود – عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة – أنهم يشترون الضلالة بالهدى ، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله ، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ . يشترون به ثمناً قليلًا من حطام الدنيا . ويودون لو تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون ، وتتركون ما أنتم عليه من الهدى ، والعلم النافع . ثم بيَّن الله – عز وجل – أنّه الأعلم منا بأعدائنا . ثم ذكّرنا أنه كفى به ولياً لمن لجأ إليه ، ونصيراً لمن استنصره ، ثم بيّن لنا بعض طبائع اليهود في كونهم يتأوَّلون كتاب الله على غير تأويله . ويفسرونه بغير مراد الله – عز وجل – منه قصداً وافتراءً . ومن صفاتهم ، أنهم يعلنون السمع ، والعصيان ، بدلًا من إعلان السمع والطاعة . وهذا أبلغ في الكفر ، والعناد . أن يتولى الإنسان عن كتاب الله بعد ما عقله . ومن صفاتهم ، أنهم يقولون لرسول الله ﷺ : ﴿ **واسمع غير مُسْمَع** ﴾ . أي : اسمع ما نقول ، لا سمعت . استهزاءً منهم ، واستهتاراً . فما أحقره من خلق . ومن صفاتهم أنهم يقولون القول ويريدون غيره ، إيهاماً للسامع ، كقولهم لرسول الله ﷺ ﴿ **وراعنا** ﴾ التي ظاهرها طلب الإقبال والرعاية . وهم يريدون السب بإرادتهم الرعونة ، أو بإرادتهم كلمة عبرانية معناها سبّ . ثم بيَّن الله – عز وجل – أنهم لو أعلنوا السمع والطاعة ، وطلبوا السمع والإنظار ، لكان خيراً لهم ، وأقوم . ولكن قلوبهم مطرودة عن الخير ، مبعدة عنه ، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم ، بسبب الكفر المستقر في قلوبهم . ثم نادى الله أهل الكتاب ، آمراً بالإيمان بما نزَّل على رسوله ﷺ من الكتاب العظيم ، الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات . ومهدداً لهم إن لم يفعلوا أن يطمس وجوههم . فلا يُبقي لهم سمعاً ، ولا بصراً . ولا أنفاً . ومع ذلك يردها إلى ناحية الأدبار . أو يفعل بهم كما فعل بالذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد ، وقد مسخوا قردة وخنازير . ثم هدَّد الله – عز وجل – أنه إذا أمر بأمر فإنه لا يخالف ، ولا يمانع . ثم بيَّن الله – عز وجل – الأصل العظيم الذي يعامل به عباده . وهو أنه من لقيه وهو مشرك به لا يغفر له . أما ما دون ذلك من الذنوب ، فإنه يغفرها إن شاء . أو يعذب عليها إن شاء . ثم بين أن الشِّرك بالله إنما هو افتراء يأثم به صاحبه إثماً عظيماً . ثم يعود السياق إلى لفت نظر أهل الإيمان إلى حالة أخرى من حالات أهل الكتاب ينبغي أن تكون واضحة عند أهل الإيمان . هذه الحالة الثانية هي مدح أهل الكتاب لأنفسهم ودعاواهم ، كقولهم نحن أبناء الله

وأحباؤه . ثم يبيِّن الله - عز وجل - أن الشأن ليس أن تزكِّيَ نفسك ولكن أن يزكِّيكَ الله ، فالمرجع إليه ، لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها ، وأنه لا يظلم أحداً من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل (وهو ما يكون في شق النواة) . ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يرى افتراءهم على الله الكذب في تزكيتهم أنفسهم ، ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم لن يدخلوا النار إلا أياما معدودات ، والأمر لرسول الله ﷺ بالرؤية يؤكد أن هدف المجموعة هو توضيح الرؤية ثم بيّن الله - عز وجل - أنه كفى بصنيعهم هذا كذباً وافتراءً ظاهراً . وبعد أن وضَّح الله للمؤمنين الرؤية في هاتين القضيتين ، وضَّح لهم الرؤية في قضية ثالثة عند أهل الكتاب ، وهي إيمانهم بالسحر والشيطان إيمان المطيع المستعمل ، وأنهم يفضّلون الكفار وعبَّاد الأصنام على المسلمين بجهلهم ، وقلة دينهم ، وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم ، ثم بيَّن أن هؤلاء يستحقون لعنة الله - وقد لعنهم - وأن الذي يلعنه الله فإن أحداً ما لا يستطيع نصره . ثم أنكر الله - عز وجل - عليهم حالهم من أنهم لو كان لهم نصيب من الملك والتصرف لما أعطوا أحداً من الناس - ولاسيما محمداً ﷺ - شيئاً ولا ما يملأ النقير : وهو النقطة التي في النواة . ثم أنكر الله - عز وجل - حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه من النبوة العظيمة . وكيف منعهم من تصديقهم إياه حسدُهم له ؛ لكونه من العرب ، وليس من بني إسرائيل ، ولكنها طبيعتهم ، فقد جعل الله في أسباط بني إسرائيل - الذين هم من ذرية إبراهيم - النبوة ، وأنزل عليهم الكتب ، وحكم النبيون فيهم بالسنن ، وهي الحكمة ، وجعل منهم الملوك ومع هذا فمنهم من آمن به ، أي : بهذا الإيتاء ، وهذا الإنعام ، ومنهم من صدَّ عنه ، أي : كفر به وأعرض عنه وسعى في صد النّاس عنه ، وهم منهم ، ومن جنسهم ، أي من بني إسرائيل فقد اختلفوا عليهم ، فكيف بك يا محمد ولست من بني إسرائيل ؟ . ثم تهدَّدهم الله بقوله : ﴿ **وكفى بجهنم سعيراً** ﴾ . أي : وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله .

ونظرة إلى هذه المجموعة ترينا أنها توضح الرؤيا للمتقين بطبائع أهل الكتاب ، ومواقفهم ، كي لا نغتربهم . ونظرة إلى واقع أهل الكتاب الحالي ترينا أن خصائصهم السيئة هذه مستمرة ، مستقرة ، سواء في ذلك اشتراؤهم الضلالة ، وإرادتهم ضلالنا ، ودعواهم ، وتزكيتهم لأنفسهم، وتزيينهم الكفر لأهله ، وتفضيله على هذا الإسلام سواء كان مجوسية ، أو بوذية ، أو هندوسية ، وحرصهم على الخير لأنفسهم . وحسدهم لمن أوتي شيئاً من الفضل غيرهم ، حتى إنهم ليسرقون كثيراً من النظريات

التي كتبها الإسلاميون ، ويرفضون أن ينسبوها إلى أصحابها .

المعنى الحرفي :

﴿**ألم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب**﴾ النصيب هنا : الحظ ، والكتاب : هو التوراة لأنَّ الكلام فيما يبدو منصبٌ على اليهود ، والرؤية هنا رؤية القلب ﴿**يشترون الضلالة**﴾ . أي : يستبدلونها بالهدى ، والضلالة هي البقاء على ما هم عليه بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوة رسول الله ﷺ وأنه هو النبي العربي المبشَّر به في التوراة والإنجيل ﴿**ويريدون أن تضلوا السبيل**﴾ **أي** : ويودون أن تضلوا سبيل الحق كما ضلُّوه ، يودون أن تكفروا بما أنزل على محمد ﷺ ﴿**والله أعلم بأعدائكم**﴾ . أي : والله أعلم منكم بعداوة هؤلاء ، فاحذروهم ، ولا تستنصحوهم في أموركم . ﴿**وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً**﴾ أي : كفى به ولياً في الدفع ، فثقوا بولايته ونصرته دونهم ، أو لا تبالوا بهم ، فإن الله ينصركم عليهم ، ويكفيكم مكرهم . ﴿**من الذين هادوا ...**﴾ هذا دليل على أن الآيات تنصبُّ على نوع من أهل الكتاب وهم (اليهود) كما أنّ هذه تحدِّد المذكورين سابقاً بلفظ الأعداء ، وبالذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴿**يحرِّفون الكلم عن مواضعه**﴾ . أي : يميلونه عنها ويزيلونه ، لأنهم إذا بدَّلوه ووضعوا مكانه كَلماً غيره فقد أمالوه عن مواضعه في التوراة التي وضعه الله تعالى فيها ، وأزالوه عنها . فمعنىٰ عن مواضعه . أي : عن مواضعه التي أوجبت حكمةُ الله وضعَه فيها ، بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه ، ومن ذلك صفة رسول الله ﷺ . ﴿**ويقولون سمعنا وعصينا**﴾ . أي : يقولون سمعنا قولك ، وعصينا أمرك ، ويحتمل أنهم أسروا به . ﴿**واسمع غير مُسمَع**﴾ . أي : واسمع قولنا وأنت غير مسمع ، وهو قول ذو وجهين : وجه يحتمل الذم ، ووجه يحتمل المدح ، وهم يريدون الذم ، أما احتماله الذم فلأن معناه على هذا : اسمع منا مدعواً عليك بلا سمعت ، لأنه لو أجيبت دعوتهم عليه لم يسمع شيئاً ، فكان أصم غير مسمع ، قالوا ذلك اتكالًا على أن قولهم لا سمعت دعوة مستجابة ، أو اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه ، ومعناه غير مسمع جوابا يوافقك ، فكأنك لم تسمع شيئاً ، وأما احتماله المدح فبمعنى : اسمع غير مسمع مكروهاً ، من قولك أسمع فلان فلاناً إذا سبّه . ﴿**وراعنا**﴾ يحتمل : راعنا بكلمك ، أي ارقبنا وانتظرنا ، ويمكن أن يكونوا يريدون فيها الرعونة ، فكانوا سخرية بالدين وهزءاً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمِلٍ ينوون به الشتيمة والإهانة ، ويظهرون به التوقير والاحترام .

ولماذا يفعلون ذلك ؟ بيَّن الله سبب فعلهم ﴿ **ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين** ﴾ اللَّيُّ : هو الفتل والتحريف ، أي : يفتلون بألسنتهم الحق إلى الباطل حيث يضعون راعنا موضع انظرنا ، وغير مُسمَع موضع لا أسمعت مكروهاً ، أو يفتلون بألسنتهم ما يضمرونه من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقاً . والطعن في الدين من أمثال قولهم : لو كان نبياً حقاً لأخبر بما نعتقد فيه ، فلينتبه المؤمنون إلى طرق اليهود ، وأمثالهم في تحريف الكلم وفتله . ﴿ **ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا** ﴾ . بدل قولهم : سمعنا وعصينا ، ﴿ **واسمع وانظرنا** ﴾ . أي وقالوا : واسمع دون أن يلحقوا بها غير مسمع ، وانظرنا بدل قولهم راعنا ﴿ **لكان خيراً لهم وأقوم** ﴾ . أي : لكان قولهم ذاك خيراً لهم عند الله ، وأعدل وأسدّ ﴿ **ولكن لعنهم الله بكفرهم** ﴾ . أي : ولكن طردهم وأبعدهم عن رحمته بسبب اختيارهم الكفر . ﴿ **فلا يؤمنون إلا قليلًا** ﴾ يحتمل معنيين : إما أن قليلين منهم فقط هم الذين يؤمنون ، وإما إن إيمانهم قليل ، ضعيف ، لا يعبأ به ، وهو إيمانهم بخالقهم مع كفرهم بما هو من مقتضيات الإيمان . ﴿ **يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا** ﴾ : أي : آمنوا بالقرآن . ﴿ **مصدّقاً لما معكم** ﴾ . من التوراة أي : آمنوا بالقرآن المصدق للتوراة . ﴿ **من قبل أن نطمس وجوها فنردَّها على أدبارها** ﴾ الطمس : محو تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم ، والردّ على الأدبار يحتمل أكثر من معنى ، فإما أن يكون معناها : فنجعلها على هيئة أدبارها ، وهي الأقفاء مطموسة مثلها ، أو أن نطمس وجوهاً فنعكس الوجوه إلى خلف ، والأقفاء إلى قدام .

ويمكن أن تفهم الوجوه على أن المراد بها رؤوس الناس ، ووجهاؤهم ، فيكون المعنى آمنوا من قبل أن نغيِّر أحوال وجهائكم فنسلبهم إقبالهم ووجاهتهم ، ونكسوهم صغارهم وإدبارهم ، ﴿ **أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت** ﴾ . أي : أو نخزيهم بالمسخ كما مسخنا أصحاب السبت . وبعض العلماء قال : إن هذا الوعيد كان معلقاً بألا يؤمنوا كلهم ، وقد آمن بعضهم ، ﴿ **وكان أمر الله مفعولا** ﴾ . أي : وكان المأمور به من الله وهو : العذاب في حالة أمر الله به كائناً لا محالة . ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾ . أي : لمن مات على الشرك ، ﴿ **ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ . أي : ويغفر مادون الشرك لمن يشاء ولو كان من الكبائر ، ولو لم يكن توبة ، هذا مذهب أهل السنة ، وسنرىٰ في الأحاديث ما يؤيّده . ﴿ **ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً** ﴾ . أي : ومن يشرك بالله فقد كذب كذباً عظيماً ، استحق به عذابا أليماً . ﴿ **ألم ترَ إلى الذين يزكون أنفسهم** ﴾ من اليهود والنصارىٰ حيث قالوا : نحن أبناء الله

وأحباؤه ، وأمثال ذلك ، وهذا الوعيد يدخل فيه كل من زكى نفسه ، فأثنى عليها ، ووصفها بزكاء العمل ، وزيادة الطاعة والتقوى . ﴿ **بل الله يزكّي من يشاء** ﴾ هذا إعلام بأن تزكية الله هي التي يعتد بها ، لا تزكية غيره ، لأنه هو العالم بمن هو أهل للتزكية . ﴿ **ولا يظلمون فتيلا** ﴾ . أي : قدر فتيل ، وهو ما يحدث بفتل الأصابع من الوسخ ، أو هو ما يكون في شِقِّ النَّواة . والضمير في ﴿ **ولا يظلمون** ﴾ يعود إما على الذين يزكون أنفسهم ، أو على من يزكيه الله فيكون المعنى على القول الأول : الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكية أنفسهم عقوبة عادلة دون ظلم ، والمعنى على القول الثاني : إن من زكاه الله يثيبه على زكاء نفسه ، ولا ينقصه شيئاً من ثوابه . ﴿ **انظر كيف يفترون على الله الكذب** ﴾ . أي : في زعمهم أنهم عند الله أزكياء . ﴿ **وكفى به إثماً مبيناً** ﴾ . أي وكفى بزعمهم هذا إثماً واضحاً من بين سائر آثامهم . ﴿ **ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب** ﴾ . أي : اليهود الذين أعطوا حظاً من الكتاب . ﴿ **يؤمنون بالجبت** ﴾ . أي : بما عُبد من دون الله ﴿ **والطاغوت** ﴾ . أي : الشيطان أو كل من تجاوز حدود الله . ﴿ **ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا** ﴾ . أي : يقولون للكافرين أنتم أهدىٰ طريقاً من محمد وأصحابه . روىٰ ابن أبي حاتم في سبب نزول هذه الآية عن عكرمة قال : جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب ، وأهل العلم ، فأخبرونا عنا ، وعن محمد ؟ فقالوا : ما أنتم وما محمد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكوماء ، ونسقي الماء على اللبن ، ونفك العاني ، ونسقي الحجيج ، ومحمد صنبور قطع أرحامنا ، واتبعه سراق الحجيج من غفار ، فنحن خير أم هو ؟ فقالوا : أنتم خير ، وأهدى سبيلا . فأنزل الله تعالى : ﴿ **ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ...** ﴾ . ﴿ **أولئك الذين لعنهم الله** ﴾ . أي : هؤلاء الذين أبعدهم الله من رحمته . ﴿ **ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا** ﴾ . أي : فلن تجد له ناصراً يعتدُّ بنصره . ﴿ **أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً** ﴾ . النقير هو النقرة في ظهر النّواة ، وهو مثل في القلة كالفتيل . والاستفهام في الآية يفيد الإنكار . والمعنى : أي لو كان لهم نصيب من الملك ، أي من ملك أهل الدنيا ، أو من ملك الله ، فإذا لا يؤتون أحداً مقدار نقير لفرط بخلهم . ﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله** ﴾ . أي : بل أيحسدون رسول الله ﷺ والمؤمنين على ما آتاهم الله من القرآن ، والنصر ، والغلبة ، وازدياد العز والتقدم كل يوم . وصفهم الله فى الآية السابقة بالبخـل ، وفي هذه الآية بالحسد، وهما

من شر الخصال ، يمنعون مالهم ، ويتمنّون ما لغيرهم ، وفي الآية دليل على فساد الحسد واستقباحه ﴿ **فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب** ﴾ . أي : التوراة . ﴿ **والحكمة** ﴾ . أي : الموعظة والفقه. ﴿ **وآتيناهم ملكاً عظيماً** ﴾ ، ملك يوسف وداود وسليمان عليهم السلام . وهذا إلزام لهم بما عرفوه من إيتاء الله الكتاب والحكمة آل إبراهيم الذين هم أسلاف محمد ﷺ ، وأنه ليس ببدع أن يؤتيه الله مثل ما آتى أسلافه . ﴿ **فمنهم من آمن به ومنهم من صدَّ عنه** ﴾ . أي : فمن اليهود من آمن بما ذكر من حديث آل إبراهيم ، ومنهم من أنكره ، ومنعَ الناس من الإيمان به ، مع علمه بصحته ! وهذا إلزام لهم بأنهم عاقون متمردون ، فليس مستغرباً كفرهم بمحمد ﷺ ، ومنهم من فسَّر النصَّ بقوله : فمنهم من آمن بمحمد ﷺ ومنهم من كفر به ، وصدّ عن دينه . والتفسير الأول هو الأكثر انسجاماً مع السياق . ﴿ **وكفى بجهنَّم سعيراً** ﴾ . أي : وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ، ومخالفتهم كتب الله ورسله .

فوائـد :

١ ـ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أن نطمس وجوها ..** ﴾ يروي المفسرون أن هذه الآية كانت سبب إسلام كعب الأحبار ، ومما يروونه في ذلك عن أبي إدريس عائذ الله الخولاني قال : كان أبو مسلم الجليلي معلِّم كعب ، وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله ﷺ قال : « فبعثه إليه ينظر أهو هو ، قال كعب : فركبت حتى أتيت المدينة ، فإذا تالٍ يقرأ القرآن يقول : ﴿ **يا أيها الذين أوتوا الكتاب ...** ﴾ الآية . فبادرت الماء ، فاغتسلت ، وإني لأمس وجهي مخافة أن أطمس ، ثم أسلمت » ، والمعروف أن كعباً أسلم في خلافة عمر فلعلّ هذه الحادثة في غير كعب ، وهناك رواية أخرى تذكر إسلام كعب بسبب سماعه الآية في حمص وهو في طريقه إلى بيت المقدس .

٢ ـ روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدواوين عند الله ثلاثة : ديوان لا يعبأ الله به شيئا ، وديوان لا يترك الله منه شيئاً ، وديوان لا يغفره الله ، فأما الديوان الذي لا يغفره الله ، فالشرك بالله ، قال الله – عز وجل– ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾ الآية، وقال : ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة** ﴾ . وأما الديوان الذي لا يعبأ به شيئاً ، فظلم العبد نفسه بينه وبين الله من صوم يوم تركه ، أو صلاة ، فإن الله لا يغفر ذلك ، ويتجاوز إن شاء ، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً القصاص لا محالة » .

٣ ــ وقد ورد في ذم التمادح والتزكية أحاديث ، وقد أثنى رسول الله ﷺ على ناس مما يشير إلى أن المدح تعتوره أحكام متعددة على حسب الأحوال والأشخاص ، فمما ورد في ذم التمادح والتزكية ، ما ورد في صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال : « أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب » . وفي الصحيحين عن أبي بكرة « أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يثني على رجل فقال : ويحك قطعت عنق صاحبك ، ثم قال : إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة ، فليقل أحسبه كذا ولا يزكي على الله أحداً » . وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإن هذا المال حلو خضر ، فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه ، وإياكم والتمادح فإنه الذبح » . وقال ابن مسعود : « إن الرجل ليغدو بدينه ، ثم يرجع وما معه منه شيء ، يلقى الرجل ليس يملك له ضراً ولا نفعاً فيقول له : إنك والله كيت وكيت ، فلعله أن يرجع ، ولم يحظ من حاجته بشيء وقد أسخط الله ، ثم قرأ ﴿ **ألم ترَ إلى الذين يزكون أنفسهم** ... ﴾ الآية .

٤ ــ روى الإمام أحمد عن قبيصة بن مخارق أنه سمع النبي ﷺ قال : « إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت » قال عوف : العيافة : زجر الطير ، والطرق : الخط يخط فى الأرض ، والجبت قال الحسن : الشيطان ، وقال الإمام مالك في تفسير الجبت : هو كل ما يعبد من دون الله – عز وجلّ – أقول : كانوا يزجرون الطير ليبنوا على خطوط سيرها هل يقدمون على عمل أو لا ، وكانوا يخطون بالرمل ليستخرجوا الغيب ، فكل ذلك مع التطيّر من الجبت .

﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيما * والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة ، وندخلهم ظلًّا ظليلًا * إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نِعِمَّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً** ﴾ .

المعنى العام :

بعد أن ذكر الله – عز وجل – فى الآيات السابقة كفر أهل الكتاب ، وأنه لا يغفر شرك من أشرك به ، يبيّن في آيتين من هذه الآيات الثلاث التي هي خاتمة هذا المقطع جزاء الكافرين والمؤمنين ، ثم يُصْدِر للمؤمنين أمرين ، لا يكون المؤمن تقياً إلا بهما .

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم مَنْ كفر بآياته ، وصَدّ عن رسله ، بأنه سيدخلهم ناراً دخولًا يحيط بجميع أجرامهم ، وأجزائهم ، ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم ، وأنه كلما احترقت جلودهم ، بُدِّلوا جلوداً غيرها ، حتى إنه ليتبدل في الساعة مائة مرة كما روي عن عمر ، وفي رواية مائة وعشرين مرة ، وكلا الروايتين عن عمر يرفعها إلى رسول الله ﷺ . وقد روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال : « يعظم أهل النار في النار ، حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً ، وإن ضرسه مثل أحد » ثم ختم الله – عز وجل – الآية الأولى بوصف ذاته بالعزة والحكمة ، وهما يفيدان في هذا المقام غلبة الله بالانتقام ، وأنه لا يمتنع عليه شيء مما يريده بالمجرمين ، وعقوبته لهم هي الحكمة عينها . وإذ بَيَّن عقوبة الكافرين ، بيّن فيما بعد جزاء المؤمنين ، فأخبر عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ، ومحالِّها ، وأرجائها ، حيث شاؤوا ، وأين أرادوا ، وهم خالدون فيها أبداً ، لا يحولون ولا يزولون ، ولا يبغون عنها حولاً ، ولهم فيها أزواج مطهرة من الحيض والنفاس والأذى ، والأخلاق الرذيلة ، والصفات الناقصة ، ويدخلهم ظلًا عميقاً كثيراً غزيراً طيباً أنيقاً ، وقد روى ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها – شجرة الخلد » . وقال تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ . (سورة الرحمن) ثم أمر الله – عز وجل – المؤمنين أمرين – كلاهما ضروري في قضية التقوى :

الأمر الأول : فى أداء الأمانات إلى أهلها ، وهو يعمّ جميعَ الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله – عز وجل – على عباده من الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والكفارات ، والنذور ، وغير ذلك ، مما هو مؤتمن عليه لا يطّلع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك ، مما يأتمنون به من غير اطلاع وبيّنة على ذلك . فأمر الله – عز وجل – بأدائها . ومن ذلك قيام كل إنسان برعاية مسؤولياته حتى قال ابن عباس: يدخل فيه وعظ السلطان النساء ، يعني يوم العيد .

والأمر الثاني : أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس ، ولا عدل إلا بإقامة حكم الله ، وكل تصور للعدل غير ذلك ، إنما هو انحراف وجهل وجور ، ثم أثنى الله – عز وجل – على ما يأمرنا به من أداء الأمانات ، والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة . ثم ختم الله الآية والمقطع بتذكيرنا بأنه سميع لأقوالنا بصير بأفعالنا .

المعنى الحرفي :

﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً** ﴾ . أي : سوف ندخلهم ناراً . ﴿ **كلما نضجت جلودهم** ﴾ . أي : كلما أُحرقت . ﴿ **بدّلناهم جلوداً غيرها** ﴾ قال النسفي : أي : أعدنا تلك الجلود غير محترقة . فالتبديل والتغير لتغاير الهيئتين ، لا لتغاير الأصلين عند أهل الحق ، وعن الفضل : يجعل النضيج غير نضيج . ﴿ **ليذوقوا العذاب** ﴾ . أي : ليدوم لهم ذوقه . وقد ذكر علماء التشريح أن الأعصاب التي تذوق الألم هي في الجلود ، فما أعظم إعجاز هذا القرآن . وكيف لا يكون الأمر كذلك ومنزِّله خالق كل شيء ، والعالم بكل شيء . ﴿ **إن الله كان عزيزاً** ﴾ . أي : غالباً في انتقامه ، ﴿ **حكيما** ﴾ . في ما يفعله بالمجرمين .* ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ . أي اجتمع لهم الإيمان مع العمل الصالح ، ﴿ **سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة** ﴾ . أي : من الأنجاس والحيض والنفاس ﴿ **وندخلهم ظلّاً ظليلاً** ﴾ . أي : ظلّاً طويلا فيناناً لا جيوب فيه ، ودائماً لا تنسخه الشمس ، وسجسجاً لا حرَّ فيه ولا برد ، وليس إلا ظل الجنة كذلك . اجتمع لهم الخلود مع لذّة النظر ولذّة المتعة ، ولذة المحيط دون منغصات ، نسأل الله الجنة . *

﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾ . دخل في هذا الأمر أداء الفرائض التي هي أمانة الله تعالى التي حمّلها الإنسان ، وحفظ الحواس التي هي ودائع الله تعالى ، ودخل في ذلك الأمانات العادية التي يأتمن الناس بعضهم بعضاً عليها ﴿ **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ أي : وإذا قضيتم بين الناس أن تقضوا بالسويَّة والإنصاف ، بلا هوى ولا جور ، بالقضاء بحكم الله . ﴿ **إن الله نِعِمَّا يعظكم به** ﴾ .

أي : إن الله نعم شيئا يعظكم به ، أو إن الله نعم الشيء الذي يعظكم به ، أي نعمّا يعظكم به ذلك ، وهو المأمور به ، من أداء الأمانات ، والعدل في الحكم . ﴿ **إن الله كان سميعاً بصيراً** ﴾ سميعاً لأقوالكم ، بصيراً بأعمالكم . وسبب نزول هذه الآية الأخيرة ما رواه ابن جرير عن ابن جريج قال : نزلت في عثمان بن طلحة ، قبض منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة ، فدخل في البيت يوم الفتح ، فخرج وهو يتلو هذه الآية ﴿ **إن الله يأمركم ...** ﴾ الآية . فدعا عثمان إليه . فدفع إليه المفتاح . قال : « وقال عمر ابن الخطاب لما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة وهو يتلو هذه الآية ﴿ **إن الله يأمركم ...** ﴾ . فداه أبي وأمي ما سمعته يتلوها قبل ذلك » . وقد عرض ابن كثير مجموعة

الروايات وقصة ذلك ، ثم عقب على ذلك فقال : « وهذا من المشهورات » أن هذه الآية نزلت في ذلك . وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا فحكمها عام . ولهذا قال ابن عباس ومحمد بن الحنفية : هي للبر والفاجر ، أي : هي أمر لكل أحد . وقال أكثر من مفسر ، منهم زيد بن أسلم : إن هذه الآية إنما نزلت في الأمراء يعني الحكام بين الناس .

فوائـد :

١ ـ روى الإمام أحمد وأهل السنن عن رسول الله ﷺ قال : « أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تَخُن من خانك » وفي الحديث الصحيح عنه عليه الصلاة السلام : « لتُؤَدَّنَّ الحقوق إلى أهلها ، حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء » . وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال : « إن الشهادة تكفِّر كلَّ ذنب إلا الأمانة ، يؤتى بالرجل يوم القيامة ، وإن كان قد قُتل في سبيل الله فيقال : أدِّ أمانتك ، فيقول : فأنَّى أؤديها وقد ذهبت الدنيا ؟! فتُمثَّل له الأمانة في قعر جهنم فيهوي إليها فيحملها على عاتقة ، قال فتنزل عن عاتقه فيهوي على إثرها أبد الآيدين ، قال زاذان : فأتيت البراء فحدثته فقال : صدق أخي ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ..** ﴾ .

قال أبي بن كعب : من الأمانات أن المرأة ائتمنت على فرجها .

٢ ـ قال محمد بن كعب ، وزيد بن أسلم ، وشهر بن حوشب « إن هذه الآية : أي ﴿ **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ . إنما نزلت في الأمراء يعني الحكام بين الناس » قال ابن كثير وفي الحديث : « إن الله مع الحاكم ما لم يجُر فإذا جار وكله إلى نفسه » . وفي الأثر « عَدْلُ يوم كعبادة أربعين سنة » .

٣ ـ روى أبو داود وابن حبان في صحيحه وغيرهما عن أبي يونس مولى أبي هريرة قال : سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها .. إن الله كان سميعاً بصيراً** ﴾ ويضع إبهامه على أذنه ، والتي تليها على عينه ويقول : وهكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها ، ويضع أصبعيه .. » .

٤ ـ رأينا أن كلمة (الأمانات) في الآية عامة وفي ذلك يقول الألوسي :

« وأياً ما فالخطاب يعم كل أحد - كما أن الأمانات ، وهي جمع أمانة مصدر سمي به المفعول - تعم الحقوق المتعلقة بذممهم من حقوق الله تعالى ، وحقوق العباد ، سواء كانت فعلية ، أو قولية ، أو اعتقاديه . وعموم الحكم لا ينافي خصوص السبب . وقد روي ما يدل على العموم عن ابن عباس ، وأبيّ ، وابن مسعود ، والبراء بن عازب ، وأبي

جعفر ، وأبي عبد الله رضي الله تعالى عنهم ، وإليه ذهب الأكثرون ، وعن زيد بن أسلم واختاره الجبائي وغيره أن هذا خطاب لولاة الأمر أن يقوموا برعاية الرعية ، وحملهم على موجب الدين والشريعة ، وعدوا من ذلك تولية المناصب مستحقيها ، وجعلوا الخطاب الآتي لهم أيضاً ، وفي تصدير الكلام - بإن - الدالة على التحقيق ، وإظهار الاسم الجليل ، وإيراد الأمر على صورة الإخبار من الفخامة ، وتأكيد وجوب الامتثال ، والدلالة على الاعتناء بشأنه مالامزيد عليه ، ولهذا ورد من حديث ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « لا إيمان لمن لا أمانة له » .

وأخرج البيهقي في الشُعَب عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك فيما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة طعمة » . وأخرج عن ميمون بن مهران « ثلاث تؤدين إلى البر والفاجر . الرحم تُوصل برّة كانت أو فاجرة . والأمانة تُؤدىٰ إلى البر والفاجر . والعهد يُوفّى به للبَر والفاجر » ، وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: من إذا حَدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » . والأخبار في ذلك كثيرة .

٥ ـــ وفي آخر آية في المقطع أي في قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم ...** ﴾ يقول صاحب الظلال :

« هذه هي تكاليف الجماعة المسلمة ؛ وهذا هو خلقها : أداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بين « الناس » بالعدل ، على منهج الله وتعليمه .

والأمانات تبدأ من الأمانة الكبرى .. الأمانة التي ناط الله بها فطرة الإنسان ؛ والتي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها « الإنسان » .. أمانة الهداية ، والمعرفة ، والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واتجاه . فهذه أمانة الفطرة الإنسانية خاصة . فكل ماعدا الإنسان ألهمه ربه الإيمان به . والاهتداء إليه ، وعبادته ، وطاعته . وألزمه طاعة ناموسه بغير جهد منه ولا قصد ، ولا إرادة ولا اتجاه . والإنسان وحده هو الذي وُكل إلى فطرته ، وإلى عقله وإلى معرفته ، وإلى إرادته ، وإلى اتجاهه ، وإلى جهده الذي يبذله للوصول إلى الله ، بعون من الله : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ .. وهذه أمانة حملها وعليه أن يؤديها أول ما يؤدي من الأمانات .

ومن هذه الأمانة الكبرى ، تنبثق سائر الأمانات ، التي يأمر الله أن تؤدى : ومن هذه

الأمانات : أمانة الشهادة لهذا الدين .. الشهادة له في النفس أولًا بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له . ترجمة في شعورها وسلوكها . حتى يرى الناس صورة الإيمان في هذه النفس . فيقولوا : ما أطيب هذا الإيمان وأحسنه وأزكاه ؛ وهو يصوغ نفوس أصحابه على هذا المثال من الخلق والكمال ! فتكون هذه شهادة لهذا الدين في النفس يتأثر بها الآخرون .. والشهادة له بدعوة الناس إليه ، وبيان فضله ومزيّته – بعد تمثل هذا الفضل وهذه المزية في نفس الداعية – فما يكفي أن يؤدي المؤمن الشهادة للإيمان في ذات نفسه ، إذا هو لم يدعُ إليها الناس كذلك . وما يكون قد أدى أمانة الدعوة والتبليغ والبيان– وهي إحدى الأمانات– ثم الشهادة لهذا الدين بمحاولة إقراره في الأرض ، منهجاً للجماعة المؤمنة ؛ ومنهجاً للبشرية جميعاً .. المحاولة بكل ما يملك الفرد من وسيله ، وبكل ما تملك الجماعة من وسيلة . فإقرار هذا المنهج في حياة البشر وهو كبرى الأمانات ، بعد الإيمان الذاتي . ولا يعفىٰ من هذه الأمانة الأخيرة فرد ولا جماعة . ومن ثم فـ « الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة » على هذا الأساس .. أداء لإحدى الأمانات .

ومن هذه الأمانات – الداخلة في ثنايا ما سبق – أمانة التعامل مع الناس ؛ وردّ أماناتهم إليهم : أمانة المعاملات والودائع المادية . وأمانة النصيحة للراعي وللرعية . وأمانة القيام على الأجيال الناشئة . وأمانة المحافظة على حرمات الجماعة وأموالها وثغراتها .. وسائر ما يجلوه المنهج الرباني من الواجبات والتكاليف في كل مجالي الحياة على وجه الإجمال .. فهذه من الأمانات التي يأمر الله أن تؤدى ؛ ويجملها النص هذا الإجمال .

فأما الحكم بالعدل بين « الناس » فالنص يطلقه هكذا عدلًا شاملًا « بين الناس » جميعاً . لا عدلًا بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب . ولا عدلًا مع أهل الكتاب ، دون سائر الناس .. وإنما هو حق لكل إنسان بوصفه « إنساناً » . فهذه الصفة – صفة الناس – هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني . وهذه الصفة يلتقي عليها البشر جميعاً : مؤمنين وكفاراً ، أصدقاء وأعداء ، سوداً وبيضاً ، عرباً وعجماً .. والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل – متى حكمت في أمرهم – هذا العدل الذي لم تعرفه البشرية قط في هذه الصورة – إلا على يد الإسلام ، وإلا في حكم المسلمين ، وإلا في عهد القيادة الإسلامية للبشرية .. والذي افتقدته من قبل ومن بعد هذه القيادة ؛ فلم تذق له طعماً قط ، في مثل هذه الصورة الكريمة التي تتاح للناس جميعاً . لأنهم « ناس » لا لأية صفة أخرى زائدة عن هذا الأصل الذي يشترك فيه « الناس » . وذلك هو أساس الحكم في الإسلام ، كما أن الأمانة – بكل مدلولاتها – هي أساس الحياة في

المجتمع الإسلامي . والتعقيب على الأمراء بأداء الأمانات إلى أهلها ؛ والحكم بين الناس بالعدل ، هو التذكير بأنه من وعظ الله - سبحانه - ونعم ما يعظ الله به **ويوجه** : ﴿ **إن الله نعمّا يعظكم به** ﴾ . ونقف لحظة أمام التعبير من ناحية أسلوب الأداء فيه . فالأصل في تركيب الجملة : إنه نعم ما يعظكم الله به .. ولكن التعبير يقدم لفظ الجلالة ، فيجعله « اسم إن » ويجعل نعم ما « نعما » ومتعلقاتها ، في مكان « خبر إن » بعد حذف الخبر .. ذلك ليوحي بشدة الصلة بين الله - سبحانه - وهذا الذي يعظهم به .. ثم إنها لم تكن « عظة » إنما كانت «أمراً» .. ولكن التعبير يسميه عظة . لأن العظة أبلغ إلى القلب ، وأسرع إلى الوجدان ، وأقرب إلى التنفيذ المنبعث عن التطوع والرغبة والحياة ! ثم يجيء التعقيب الأخير في الآية ؛ يعلق الأمر بالله ومراقبته وخشيته ورجائه : ﴿ **إن الله كان سميعاً بصيراً** ﴾ ..

والتناسق بين المأمور به من التكاليف ؛ وهو أداء الأمانات ، والحكم بالعدل بين الناس ؛ وبين كون الله سبحانه « سميعا بصيراً » مناسبة واضحة ولطيفة معاً .. فالله يسمع ويبصر ، قضايا العدل ، وقضايا الأمانة . والعدل كذلك في حاجة إلى الاستماع البصير ، وإلى حسن التقدير ، وإلى مراعاة الملابسات والظواهر ، وإلى التعمق فيما وراء الملابسات والظواهر . وأخيراً فإن الأمر بهما يصدر عن السميع البصير بكل الأمور .

وبعد : فالأمانة والعدل .. ما مقياسهما ؟ ما منهج تصورهما وتحديدهما وتنفيذهما في كل مجال في الحياة ، وفي كل نشاط للحياة ؟ .

أيترك مدلول الأمانة والعدل ووسائل تطبيقهما وتحقيقهما إلى عرف الناس واصطلاحهم ؟ وإلى ما تحكم به عقولهم أو أهواؤهم ؟

إن للعقل البشري وزنه وقيمته بوصفه أداة من أدوات المعرفة والهداية في الإنسان .. هذا حق .. ولكن هذا العقل البشري هو عقل الأفراد والجماعات في بيئة من البيئات ؛ متأثراً بشتى المؤثرات .. ليس هناك ما يسمى « العقل البشري » كمدلول مطلق ! إنما هناك عقلي وعقلك ، وعقل فلان وعلان ، وعقول هذه المجموعة من البشر ، في مكان ما وفي زمان ما .. وهذه كلها واقعة تحت مؤثرات شتى ، تميل بها من هنا ، وتميل بها من هناك .. ولابد من ميزان ثابت ، ترجع إليه هذه العقول الكثيرة ؛ فتعرف عنده مدى الخطأ والصواب في أحكامها وتصوراتها . ومدى الشطط والغلو ، أو التقصير والقصور في هذه الأحكام والتصورات . وقيمة العقل البشري هنا هو أنه الأداة المهيأة للإنسان ، ليعرف بها وزن أحكامه في هذا الميزان .. والميزان الثابت ، الذي لا يميل مع

الهوى ، ولا يتأثر بشتى المؤثرات ... ولا عبرة بما يضعه البشر أنفسهم من موازين .. فقد يكون الخلل في هذه الموازين ذاتها فتختل جميع القيم .. ما لم يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت القويم . والله يضع هذا الميزان للبشر ، للأمانة والعدل ، ولسائر القيم ، وسائر الأحكام ، وسائر أوجه النشاط ، في كل حقل من حقول الحياة .

فصل : في مناقشة كلامية

مما حدث فيه نقاش كثير بين علماء الكلام ، موضوع هل الذرات المادية التي خالطت جسد الإنسان هي عينها التي تلتحق بجسده ولها يكون العقاب والعذاب ، أو ليس هذا ضرورياً ؟ ويستتبع هذا النقاش : هل الجلود التي يبدلها الله أهلَ النار هي الجلود نفسها يعيدها الله غير نضيجة ؟

والقول الذي عليه جماهير المتكلمين هو : أن الذرات نفسها هي التي تنال العقاب والجزاء ، وأن ذلك كائن بقدرة الله - عز وجل - والألوسي يرى الرأي الآخر ومن أجل أن تتضح آفاق النقاش ننقل كلامه في تفسير قوله تعالى ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾ . يقول :

« أي أعطيناهم مكان كل جلد محترق عند احتراقه جلداً مغايراً للمحترق صورة ، وإن كانت مادته الأصلية موجودة بأن يزال عنه الاحتراق فلا يرد أن الجلد الثاني لم يعص فكيف يعذّب ، وذلك لأنه هو العاصي باعتبار أصله فإنه لم يبدّل إلا صفته ، وعندي أن هذا السؤال مما لا يكاد يسأله عاقل فضلا عن فاضل ، وذلك لأن عصيان الجلد وتألمه وتلذذه غير معقول ، لأنه من حيث ذاته لا فرق بينه وبين سائرالجمادات من جهة عدم الإدراك والشعور وهو أشبه الأشياء بالآلة ؛ فيد قاتل النفس ظلما مثلاً آلة كالسيف الذى قتل به ، ولا فرق بينهما إلا بأن اليد حاملة للروح ، والسيف ليس كذلك ، وهذا لا يصلح وحده سبباً لإعادة اليد بذاتها وإحراقها ؛ دون إعادة السيف وإحراقه ؛ لأن ذلك الحمل غير اختياري ، فالحق أن العذاب على النفس الحساسة بأي بدن حلّت ، وفي أي جلد كانت وكذا يقال في النعيم ، ويؤيد هذا أن من أهل النار من يملأ زاوية من زوايا جهنم وأن سنّ الجهنمي كجبل أحد ، وأن أهل الجنة يدخلونها على طول آدم عليه السلام ستين ذراعاً في عرض سبعة أذرع ، ولاشك أن الفريقين لم يباشروا الشر والخير بتلك الأجسام ، بل مَن أنصفَ رأى أن أجزاء الأبدان في الدنيا لا تبقى على كميتها كهولة وشيوخة ، وكون الماهية واحدة لا يفيد لأنّا لم ندّع فيما نحن فيه أن الجلد الثاني

يغاير الأول كمغايرة العَرَض للجوهر ، أو الإنسان للحجر بل كمغايرة زيد المطيع لعمرو العاصي مثلًا على أنه لو قيل : إن الكافر يعذب أولًا ببدن من حديد تحله الروح ، وثانياً ببدن من غيره كذلك لم يسغ لأحد أن يقول : إن الحديد لم يعص فكيف أحرق بالنار ولولا ما علم من الدين بالضرورة من المعاد الجسماني بحيث صار إنكاره كفراً لم يبعد عقلًا القول بالنعيم والعذاب الروحانيين فقط .

ولَمَا توقف الأمر عقلًا على إثبات الأجسام أصلًا ، ولا يتوهم من هذا أني أقول باستحالة إعادة المعدوم – معاذ الله تعالى – ولكني أقول بعدم الحاجة إلى إعادته وإن أمكنت ، والنصوص في هذا الباب متعارضة ، فمنها ما يدل على إعادة الأجسام بعينها بعد إعدامها ، ومنها ما يدل على خلق مثلها وفناء الأولى ، ولا أرى بأساً بعد القول بالمعاد الجسماني في اعتقاد أي الأمرين كان ، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في الآيات التي يدل ظاهرها على إعادة العين مثل قوله سبحانه : ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾ وما في شرح البخاري للسفيري – من أنه لا تزال الخصومة بين الناس حتى تختصم الروح والجسد يوم القيامة ، فتقول الروح للجسد : أنت أمرت وأنت سولت ، ولولاك لكنت بمنزلة الجذع الملقى لا أحرك يداً ولا رجلًا ، فيبعث الله تعالى ملكاً يقضي بينهما فيقول لهما : إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير وآخر ضرير دخلا بستاناً فقال المقعد للضرير : إني أرى ههنا ثماراً لكن لا أصل إليها . فقال له الضرير : أركبني فتناولها فأيهما المتعدي ؟ فيقولان : كلاهما فيقول لهما الملك : فإنكما قد حكمتما على أنفسكما – لا أراه صحيحاً لظهور الفرق بين المثال والممثل له فإن الحامل فيما نحن فيه لا اختيار له ولا شعور بوجه من الوجوه اللهم إلا أن يكون هناك شعور لكن لا شعور لنا به . ولعل لنا عودة إن شاء الله تعالى لتحقيق هذا المقام ، ثم إن هذا التبديل كيفما كان يكون في الساعة الواحدة مرات كثيرة .

فقد أخرج ابن مردوية ، وأبو نُعيم في الحلية ، عن ابن عمر قال : « **قرىء عند عمر هذه الآية فقال كعب : عندي تفسيرها قرأتها قبل الإسلام فقال هاتها يا كعب فإن جئت بها كما سمعت من رسول الله ﷺ صدقناك . قال : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ﴾ في الساعة الواحدة عشرين ومائة مرة ، فقال عمر : هكذا سمعته من رسول الله ﷺ** ، وأخرج ابن أبي شيبة . وغيره عن الحسن قال : « **بلغني أنه يحرق أحدهم في اليوم سبعين ألف مرة كلما أنضجتهم النار وأكلت لحومهم قيل لهم : عودوا فعادوا** » .

﴿ **ليذوقوا العذاب** ﴾ أي ليدوم ذوقه ولا ينقطع كقولك للعزيز : أعزك الله . والتعبير عن إدراك العذاب بالذوق من حيث إنه لا يدخله نقصان بدوام الملابسة ، إو للإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه ، أو للتنبيه على شدة تأثيره من حيث إن القوة الذائقة أشد الحواس تأثيراً أو على سرايته للباطن ، ولعل السر في تبديل الجلود - مع قدرته تعالى على إبقاء إدراك العذاب وذوقه بحال مع الاحتراق أو مع بقاء أبدانهم على حالها مصونة عنه - أن النفس ربما تتوهم زوال الإدراك ولا تستبعد كل الاستبعاد أن تكون مصونة عن التألم والعذاب صيانة بدنها عن الاحتراق قاله مولانا شيخ الإسلام ، وقيل : السر في ذلك أن في النضج والتبديل نوع إياس لهم وتجديد حزن على حزن » ا هـ كلام الألوسي .

أقول : وأنا أرجح القول الذي ذهب إليه النسفي وغيره وأثبتناه في صلب التفسير . وسنفصل في هذا الموضوع - إن شاء الله - عند قوله تعالى ﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم** ﴾ (سورة ق) .

كلمة في السياق :

ابتدأ هذا المقطع بتحريم الصلاة في حالة السكر مبيناً الحكمة في ذلك ، ثم بصَّرنا بمواقف أهل الكتاب منا وحالهم ، ثم بيّن جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين ، ثمّ أمر بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل . فلنر صلة هذا المقطع بمحور السورة من البقرة :

قلنا إن محور سورة النساء هو الآيات الخمس بعد مقدمة سورة البقرة ، ونلاحظ أن في الآيات الخمس قوله تعالى : ﴿ **اعبدوا ربكم** ﴾ وفي هذا المقطع ذكر للصلاة وهي عبادة . وفي الآيات الخمس من البقرة قوله تعالى : ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ . وفي هذا المقطع نجد قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء** ﴾ وفي الآيات الخمس من البقرة قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدّت للكافرين** ﴾ ونجد في المقطع قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾ .

وفي الآيات الخمس من البقرة نجد قوله تعالى : ﴿ **وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهّرة وهم فيها خالدون** ﴾ . ونجد في هذا المقطع قوله تعالى : ﴿ **إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلًا ظليلًا** ﴾ .

وإذا كانت آيات المحور تأمر بالعبادة كطريق للتقوى ، فإن من التقوى أداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بين الناس بالعدل ، وقد ختمت آيات المقطع بهذين الأمرين فالصلة بين محور السورة من البقرة وبين المقطع على أتمها وأكملها ، وقد رأينا من قبل بعض معالم السياق الخاص للمقطع وصلته بسياق سورة النساء .

قلنا إن سورة النساء تفصّل في محورها من سورة البقرة وارتباطات هذا المحور وامتداداته ، ومن المعاني الشديدة الصلة في سورة البقرة بمحور سورة النساء : قوله تعالى ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون** ﴾

وقوله تعالى ﴿ **كتب عليكم إذا حضر أحدَكم الموتُ إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين** ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ **ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير** ﴾

وقوله تعالى ﴿ **ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ...** ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ **ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة** ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ **فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلك أزكى لكم وأطهر** ﴾ .

والملاحظ أن هذه المعاني وغيرها شدت إلى محور سورة البقرة ، وفصّلت فيها سورة النساء في مقاطعها الأربعة التي مرّت معنا والتي انتهت بقوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾

والملاحظ أن كل ما مرَّ معنا قبل هذه الآية يدخل في موضوع الأمانات بمعناها العام وكثير

مما مرّ معنا يدخل في قضايا العدل ، والملاحظ أن المقاطع التالية لها صلة بهذه الآية :

فالطاعة لله ، والرسول ﷺ ، ولأولي الأمر ، هي مظهر الأمانة الأول ، والاحتكام لله والرسول هو واجب الحاكم الأول وهو من الأمانة ، والطاعة هي الأساس الذي عليه يقوم القتال وهي من الأمانة ، والقتال به تقوم الحياة الإسلامية وهو من الأمانة . وبعد الكلام عن الطاعة والقتال يأتي مقطع يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله** ﴾ وينتهي بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله** ﴾ فهذا المقطع له علاقة بالعدل فالمقاطع اللاحقة لها علاقة بالأمانة وبالعدل وذلك مرتبط بموضوع الآية : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ . ومن هنا ندرك بعض صلة المقاطع التالية ببعضها وصلتها بما قبلها ، والأمر أوسع من ذلك كما سنرى فلننتقل إلى المقطع الخامس :

المقطع الخامس

ويمتد من الآية (٥٩) إلى نهاية الآية (٧٠) وهذا هو :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ

إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

☆ ☆ ☆

كلمة في هذا المقطع

واضح أن هذا المقطع موضوعه الرئيسي طاعة الله والرسول ﷺ أي طاعة الكتاب والسنة ، والاهتداء بهما ، وهو ركن من أركان التقوى كما نعلم .

لقد رأينا في مقدمة سورة البقرة أن أول ما وُصف به المتقون هو أن القرآن هداهم

﴿ **الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ . ورأينا أن المقطع الأول في سورة البقرة يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ . وقلنا هناك إن المقطع الأول الآتي بعد مقدمة سورة البقرة يدلنا على الطريق لنكون من المتقين ، والطريق هو العبادة ، وإذا كانت سورة النساء تفصيلاً لقضيتي العبادة والتقوى ، وإذا كان من التقوى الاهتداء بالكتاب ، فإن المقطع الذي بين أيدينا يفصّل في هذا الموضوع .

وإذ جاءت سورة النساء تفصيلاً لقضية التقوى والعبادة ، وما يدخل فيهما فإننا نرى أن هذا المقطع يذكّرنا بطاعة الله والرسول ﷺ وكيف أنه لا إيمان بالقرآن ولا إيمان بالرسول ﷺ ، ولا إيمان بالله إلا بالطاعة لله والرسول ﷺ .

لاحظ الصلة بين قوله تعالى في مقدمة سورة البقرة : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ وبين قوله تعالى في هذا المقطع : ﴿ **ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به** ﴾

إن ادعاء التقوى دون سلوك طريقها دعوى زائفة . إن سورة النساء التي تفصّل في المحور - الذي دعا الناس إلى السير في الطريق الذي يوصل إلى التقوى - تفصِّل لنا في الطريق ، وتوضّح لنا ماهية التقوى ، فالمقطع واضح الصلة بسياق السورة واضح الصلة بمحورها . ومن خلال قوله تعالى ﴿ **يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت** ﴾ ندرك أن هناك صلة بين المقطع وبين الآية السابقة عليه وهي : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾

فصيغة العدل الوحيدة هي هذا الدين في مصدريه الرئيسين الكتاب والسنة ، وفي مصادره الفرعية الملتزمة بالكتاب والسنة والمنبثقة عنهما .

إنه من خلال أدنى نظرة إلى المقطع ندرك أن المقطع وحدة متكاملة موضوعها (الطاعة) فالآية الأولى فيه : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾

والآيتان الأخيرتان فيه : ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك ... ذلك الفضل من الله** ﴾ فالمقطع يبدأ بالأمر بطاعة الله والرسول ﷺ ، وأولي الأمر من المسلمين في طاعة الله ، وأن على كل المسلمين أن يرجعوا إلى الكتاب والسنة حال التنازع ، وفي المقطع حديث عمَّن يدعي الإيمان ويريد أن يتحاكم إلى الطاغوت ، وإذا دُعي إلي الله والرسول ﷺ أو إلى الكتاب والسنة أعرض فهؤلاء هم المنافقون . والمقطع يبيِّن لنا أن الله ـــ عزوجل ـــ ما أرسل رسولًا إلا ليطاع ، فهؤلاء الذين يعصون رسول الله ﷺ لم يحققوا ما يقتضيه إرسال الرسل لهم ، وقد بيّن المقطع أنه لا إيمان إلا بتحكيم الرسول ﷺ في النزاع والتسليم لحكمه ، وأن على المؤمن أن يطيع الله ، ولو كان في ذلك ترك الأوطان ، وقتل الأنفس ، وأن عاقبة الطاعة لله والرسول ﷺ حميدة ، ثم ذكَّرنا المقطع بأن الطاعة لله والرَّسول ﷺ تجعل صاحبها مع المنعَم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهذا يذكرنا بصلة المقطع بالمحور ، وصلة المحور بمقدمة سورة البقرة ، وصلة مقدمة سورة البقرة بسورة الفاتحة ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ .

المعنى العام للمقطع :

يأمر عزوجل بطاعة الله ، وطاعة الرسول ﷺ ، وذلك بطاعة كتابه ، والأخذ بسنة رسوله ﷺ . كما يأمر بطاعة أولي الأمر فيما يأمرون من طاعة الله ، لا في معصيته . وأولوا الأمر في الأصل : العلماء والأمراء . ثم أمر تعالى أن يُرَدَّ كل تنازع يقع بين الناس في أصول الدين ، أو فروعه ، أو في أي أمر إلى الكتاب والسنة . ثم بيَّن أن علامة الإيمان بالله واليوم الآخر هو رد الخصومات إلى كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ والاحتكام إليهما في كل شيء مما شجر فيه خلاف ، فدلَّ على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ، ولا يرجع إليهما في ذلك ، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر ، ثم بيَّن أن التحاكم إلى كتاب الله ، وسنة رسوله ، والرجوع إليهما في فصل النزاع هو الخير والأحسن عاقبة ومآلا ، والأحسن جزاء .

ثم يلفت الله نظر رسوله ﷺ ، والمؤمنين المتقين إلى من يدّعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله ، وعلى الأنبياء الأقدمين ، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فيعدلون عنهما ، ويتحاكمون إلى ما سواهما من

الباطل ، مع أن الله ــ عزوجل ــ أمرهم أن يكفروا بالطاغوت ، وهو الباطل هنا ، وهو كل ما خالف الكتاب والسنة ، وما يفعلون ذلك إلا طاعة للشيطان الذي يريد إضلالهم الضلال البعيد . ثم أكمل الله ــ عزوجل ــ وصف حالهم بأنهم عندما يُدعَون إلى كتاب الله وإلى رسول الله ، لا يكون منهم إلا الإعراض الشديد . ثم قال الله مهدِّداً مبيناً أن هؤلاء المنافقين ستنزل بهم مصائب بسبب مواقفهم ، وعندئذ يأتون رسول الله ﷺ حالفين كذباً وزوراً . وقد سيق هذا المعنى بعبارة مضمونها ، فكيف إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم ، فاحتاجوا إليك فجاؤوك يعتذرون إليك ، ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك ، وتحاكمنا إلى أعدائك إلا الإحسان والتوفيق ، أي المداراة والمصانعة ، لا اعتقاداً منا صحَّة تلك الحكومة ، وذلك دأب المنافقين يسيرون تحت لواء الكافرين . ثم يدَّعون أنهم فعلوا ذلك بقصد الإحسان والتوفيق . ولا تعبير يستطيع أن يحل محل اعتذار المنافقين بإرادتهم الإحسان والتوفيق في سيرهم مع الكافرين ، أو في الرضوخ لحكمهم . كتعبيرهم ذلك في التغطية على فعلتهم .

ثم بيَّن الله ــ عزوجل ــ لرسوله ﷺ أن هذا الضرب من الناس هم المنافقون ، والله يعلم ما في قلوبهم ، وسيجزيهم على ذلك . فإنه لا تخفى عليه خافية ، فاكتف بعلمه فيهم ، فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم ، فلا تعنِّفهم على ما في قلوبهم ، وانْهَهُم بوعظك عما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ، وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم . وبهذا اكتملت هذه الصورة للمنافقين . وهي صورة لمن يرفض الاحتكام للكتاب والسنة ، ويحتكم في شأنه إلى غيرهما ، وما ينبغي أن يكون الموقف منهم . فدلَّ على أن الاهتداء بكتاب الله ، وقبول الاحتكام له ، والخضوع لحكمه هو الذي يحدِّد تقوى الإنسان أو نفاقه .

ثم بيَّن الله ــ عزوجل ــ أنَّ ما أمر به من طاعته وطاعة رسوله هو الأصل الدائم عنده ، فما أرسل رسولا إلا من أجل أن يطاع ، ولا يطيع الرسل إلا من وفقه الله ، ثم أرشد الله تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ، ويسألوه أن يستغفر لهم ، فإنهم إذا فعلوا ذلك ، تاب الله عليهم ورحمهم ، وغفر لهم . ثم أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا إيمان حتى يحكِّم الرسول ﷺ في جميع الأمور ، فما حَكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له ظاهراً وباطناً ، فكما تجب الطاعة الظاهرة ، يجب الانقياد الباطني لحكمه بالتسليم الكلي من غير

مخالفة ولا مدافعة ، ولا منازعة . ثم بيَّن تعالى أن الخير كله في طاعة الله مهما كان في الطاعة من مشقَّة على النفس ، حتى لو كان الأمر فيه قتل الأنفس ، وترك الديار ، والهجرة منها . ففعل الأمر كائناً ما كان هو الخير ، وهو الذي يزيد من ثبات المؤمن على إيمانه ، والله عز وجل يأجر أصحاب ذلك على ذلك الجنة والهداية في أمر الدنيا والآخرة . ثم بشَّر الله - عز وجل - مطيعي الله ورسوله الذين يعملون بما أمر الله ورسوله ، ويتركون مانهى الله عنه ورسوله ، بشَّر الله - عز وجل - من كان كذلك بأنّه يسكنه دار كرامته ، ويجعله مرافقاً للأنبياء ومن بعدهم في الرتبة وهم الصديقون ، ثم الشهداء ، ثم عموم المؤمنين ، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم ، وما أحسن هؤلاء من رفقة ، ما أحسن معيَّتهم ، وما أحسن صحبتهم ، وما أحسن مرافقتهم ، وما أحسن عشرتهم . ثم ختم الله - عز وجل - هذا المقطع بتبيان أن الفضل فضله إذا وفَّق إنساناً لطاعته أو أعطاه فذلك من آثار رحمته إذ هو سبحانه الذي أهّلَ هؤلاء لذلك ، وما أهّلهم وتفضل عليهم إلا لعلمه بهم ، فهو العليم بمن يستحق الهداية والتوفيق .

المعنى الحرفي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله** ﴾ بطاعة كتابه ، ﴿ **وأطيعوا الرسول** ﴾ بطاعة شخصه في حياته ، وطاعة سنته بعد وفاته . ﴿ **وأولي الأمر منكم** ﴾ . أي : من المسلمين . أما غير المسلم فلا ولاية له على المسلم ولا طاعة . وأولوا الأمر هم الأمراء المسلمون . هذا الذي يفهم من سبب النزول . وقال ابن عباس : هم أهل الفقه والدين ، ولا تعارض ، لأن الأصل أن يكون الأمراء علماء فقهاء.أخرج الدارمي عن تميم الداري أن عمر قال «لا إسلام إلا بجماعة ولا جماعة إلا بإمارة ولا إمارة إلا بطاعة فمن سوده قومه على الفقه كان حياة له ولهم ، ومن سوّده قوم على غير فقه كان هلاكاً له ولهم » ، فإن لم يكونوا كذلك فعليهم أن يرجعوا في شؤون ولايتهم إلى العلماء ، ومن ثَم فالعلماء فوقهم ، ولكن يبقى لهم حق الطاعة على العلماء فيما سوى ذلك إن كانوا ولاة عدل وعدولا . ﴿ **فإن تنازعتم في شيء** ﴾ . أي : فإن اختلفتم أنتم وأولوا الأمر في شيء من أمور الدين ، أو اختلفتم فيما بينكم ﴿ **فردّوه إلى الله والرسول** ﴾ . أي : فارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة ﴿ **إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ . إذ إن الإيمان مقتضاه الطاعة ، ومن مقتضى الطاعة الرجوع إلى الكتاب والسنة في حالة النزاع ﴿ **ذلك خير** ﴾ . أي : الرد إلى الكتاب والسنة خير في العاجل ﴿ **وأحسن تأويلا** ﴾ وأحسن في الآجل أي وأحسن عاقبة .

فوائــد :

١ ــ قال النسفي : دلت الآية على أن طاعة الأمراء واجبة ، إذا وافقوا الحق ، فإن خالفوه فلا طاعة لهم . وروى الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن علي رضي الله عنه قال : « بعث رسول الله ﷺ سريَّة ، واستعمل عليهم رجلًا من الأنصار ، فلما خرجوا ، وجد عليهم في شيء ، قال : فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني ، قالوا : بلىٰ ، قال فاجمعوا لي حطباً ، ثم دعا بنار فأضرمها فيه ثم قال : عزمت عليكم لتدخُلُنَّها . قال : فقال لهم شاب منهم : إنما فررتم إلى رسول الله من النّار ، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ فأخبروه ، فقال لهم : لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا ، إنّما الطاعة في المعروف » . وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

٢ ــ وبمناسبة ذكر ولاة الأمر نقول : إن ولي الأمر عندنا في الأصل هو الخليفة الذي تنبثق إمرته عن شورىٰ المسلمين ، ومهمته إقامة الكتاب والسنة ، والأمر له في الطريقة التي يختارها لتعيين الولاة والمساعدين . إن شاء أن يجعلها شورى ، أو يعيِّن تعييناً ، ويجب على المسلمين طاعته وطاعة عمّاله في المعروف. روى مسلم عن أم الحصين أنها سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حَجَّة الوداع يقول : « ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله اسمعوا وأطيعوا » .

٣ - ليس هناك أهم في الإسلام من ثلاث قضايا ، القضيتان الأولى والثانية : التقوى والعباده وهما متلازمتان . القضية الثالثة : الطاعة . لذلك كانت الأوامر الرئيسية التي وجهها الرسل لأقوامهم هي : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون**﴾ (الشعراء) ﴿ **أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون** ﴾ (نوح) ولذلك كان من أهم الفقه في دين الله فقه العبادة والتقوى والطاعة ، كيف نعبد الله عز وجل؟ وبماذا نعبده؟ وما هو مضمون التقوى؟ وكيف نتحقق به؟ ولمن نعطي طاعتنا ؟ لله والرسول ﷺ فذلك واضح ، وطاعة أولي الأمر في حال الاستقامة والسلامة واضحة ، وذلك إذا كان هناك خلافة راشدة بل وحتى خلافة ظالمة لكنها تعترف لله بالحاكمية وتقيم كتاب الله على ضعف أو ظلم . ولكن حيث لا خلافة راشدة ولا ظالمة فلمن تعطى الطاعة ؟ عندما يكون النظام كافرا فلمن تعطى الطاعة ؟ هناك الطاعة لسلطان القانون والنظام فهذه مفروضة على المسلم كرهاً وهذه ليست محل بحثنا ، وإنما محل بحثنا لمن يعطي المسلم طاعته الاختيارية ؟ فعندما يكون في

نظام كفري فإنه لا تدخل طاعته في قوله تعالى : ﴿**وأولي الأمر منكم**﴾ ولكن سلطان القانون يطالبه فهو مضطر للطاعة الإجبارية ، والذي نستطيع أن نفتي به هو أن الطاعة الاختيارية في هذه الحالة تكون للعلماء الربانيين فهم وراث النبوة. وعلى مثل هذا نستطيع أن نحمل حملًا مباشراً كلام ابن عباس في تفسير : أولي الأمر بأنهم العلماء الفقهاء ويشهد لما ذكرناه بعض روايات حديث حذيفة « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وأسأله عن الشر مخافة أن يدركني » فهذا الحديث أصل عظيم في الفتوى فيما يكون بعد رسول الله ﷺ ، ففي بعض روايات أبي داود لهذا الحديث مايلي :

« قلت يا رسول الله ثم ماذا ؟ قال : إن كان لله خليفة في الأرض فضرب ظهرك وأخذ مالك فأطعه وإلا فمت وأنت عاضٌ بجذل شجرة » ، وفى رواية أخرى : أن رسول الله ﷺ كان يكرر أمراً ثلاث مرات ، في كل مرحلة تمر ، هذا الأمر هو :

« تعلّم كتاب الله واتّبع ما فيه » ، وفي هذا إشارة إلى التلمذة على الربانيين قال تعالى : ﴿ **ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون** ﴾ فتعلم كتاب الله يقتضي أخذا عن الربانيين فكأن الحديث يشير إلى ما ذكرناه : أن الطاعة الاختيارية في حالة فقدان الخلافة إنما تكون لوراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكما قلنا فليس كلامنا في الطاعة المفروضة بسلطان النظام والقانون ، وفي حديث حذيفة ما يدل على أن التلمذة على الربانيين هي الأساس حتى في حالة وجود الخلافة الظالمة ، فما بعد الخلافة الراشدة الأصل أن تعطى الطاعة الإجبارية للخلافة وأن تعطى الطاعة الاختيارية لوراث الأنبياء .

٤ ـــ وفي سبب نزول الآية يروي ابن جرير ، وابن مردويه وغيرهما ما يلي :

« بعث رسول الله ﷺ سريّة عليها خالد بن الوليد ، وفيها عمار بن ياسر ، فساروا قِبَل القوم الذين يريدون . فلما بلغوا قريباً منهم ، عرَّسُوا ، وأتاهم ذو العيينتين ، فأخبرهم ، فأصبحوا وقد هربوا ، غير رجل أمر أهله . فجمعوا متاعهم ، ثم أقبل يمشي في ظلمة الليل ، حتى أتى عسكر خالد ، فسأل عن عمار بن ياسر ، فأتاه ، فقال : يا أبا اليقظان : إني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وإنَّ قومي لما سمعوا بكم هربوا ، وإني بقيت ، فهل إسلامي نافعي غداً ، وإلا هربت ؟ قال عمار : بل هو ينفعك فأقم ، فأقام فلما أصبحوا أغار خالد ، فلم يجد أحداً غير الرجل ، فأخذه ، وأخذ ماله . فبلغ عماراً الخبر ، فأتى خالدا فقال : خلِّ عن الرجل ، فإنه قد أسلم ، وإنه في أمان مني . فقال خالد : وفيم أنت تجير ؟ فاستبَّا ، وارتفعا إلى النبي

ﷺ فأجاز أمان عمَّار ، ونهاه أن يجير الثانية على أمير ، فاستبَّا عند رسول الله ﷺ فقال خالد : يا رسول الله أتترك هذا العبد الأجدع يسبُّني ، فقال رسول الله ﷺ يا خالد : لا تسبَّ عمارا ، فإنه من سبَّ عمّارا يسبُّه الله ، ومن يبغض عمارا يبغضه الله ، ومن يلعن عماراً يلعنه الله » فغضب عمَّار ، فقام فتبعه خالد فأخذ بثوبه فاعتذر إليه ، فرضي عنه ، فأنزل الله - عز وجل - قوله : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ...** ﴾ . ومن هذا النّص نفهم أن الآية في طاعة الأمراء ، وأن طاعتهم واجبة ، وأن عدم التقدم عليهم في أمر واجب . وقد استثنى فقهاء الحنفية حالة ، وهي ما إذا أمر الأمير بأمر رأى الأكثرية فيه ضرراً ، فيتّبع رأي الأكثرية في هذه الحالة ، ذكره ابن عابدين في أول كتاب الجهاد .

﴿ **ألم ترَ إلى الذين يزعمون** ﴾ . أي : يدَّعون ﴿ **أنهم آمنوا بما أنزل إليك** ﴾ . من الوحي والقرآن ﴿ **وما أنزل من قبلك** ﴾ على رسل الله عليهم الصلاة والسلام ﴿ **يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت** ﴾ . أي : إلى ما خالف الكتاب والسنة من الباطل ، وهو المراد بالطاغوت هنا . وقيل الطاغوت هنا : الشيطان ممثلًا بجنده وأتباعه . وقيل الطاغوت : هو من جاوز الحدَّ في طغيانه ، وعتوّه ، ومحاربته للإسلام. وكل ذلك صحيح . ﴿ **وقد أمروا أن يكفروا به** ﴾ . أي : وقد أمروا أن يكفروا بالطاغوت والشيطان الداعي إليه ، ﴿ **ويريد الشيطان أن يضلَّهم ضلالًا بعيداً** ﴾ . عن الحق ، والمراد بقوله : ضلالًا بعيداً : أي مستمراً إلى الموت . ﴿ **وإذا قيل لهم** ﴾ . أي : للمنافقين ﴿ **تعالوا إلى ما أنزل الله** ﴾ . أي : إلى كتاب الله ﴿ **وإلى الرسول** ﴾ إلى شخصه في حياته وإلى سنته بعد مماته للتحاكم ، ﴿ **رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً** ﴾ . أي : يعرضون عنك أشد أنواع الإعراض . ﴿ **فكيف إذا أصابتهم مصيبة** ﴾ . أي فكيف تكون حالهم ، وكيف يصنعون إذا نزلت بهم المصائب ﴿ **بما قدمت أيديهم** ﴾ . أي : بسبب ما فعلوه من التحاكم إلى غير الله ورسوله وأمثال ذلك . ﴿ **ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا** ﴾ . أي : ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك ﴿ **إلا إحساناً وتوفيقاً** ﴾ بين الخصوم ، فلم نرد مخالفةً لك ولا تسخّطاً لحكمك ، وهذا شأن المنافق يظن أنه محسن في نفاقه وأنه يجمع بين وجهات النظر وهذا وعيد لهم على فعلهم ، وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم ، ولا يغني عنهم الاعتذار . ﴿ **أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم** ﴾ من النفاق ، ﴿ **فأعرض عنهم** ﴾ . أي : فأعرض عن قبول الاعتذار ، ﴿ **وعظهم** ﴾ . أيَّ وعظ بالزجر والإنكار ، ﴿ **وقل لهم في أنفسهم قولًا**

بليغاً ﴾ أي: قولًا يبلغ منهم ، ويؤثر فيهم : والبلاغة : أن يبلغ الإنسان بلسانه كنه ما يريد ، ويمكن أن يراد بالإعراض ، الإعراض عن العقاب والعتاب . وبالوعظ التذكير ، وبالإبلاغ إيصال الحقائق إلى أنفسهم بأبلغ أسلوب .

فائـــدة :

مما ورد في أسباب نزول هذه الآيات ، أنها نزلت في رجل من الأنصار ، ورجل من اليهود تخاصما ، فجعل اليهودي يقول : بيني وبينك محمد ، وذاك يقول : بيني وبينك كعب بن الأشرف .

وروىٰ الطبراني في سبب نزولها عن ابن عباس قال : كان أبو برزة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه ، فتنافر إليه ناس من المشركين ، فأنزل الله **﴿ ألم ترَ إلى الذين ... ﴾** الآيات ، وقيل غير ذلك . قال ابن كثير : والآية أعم من ذلك كله ، فإنها ذامَّة لمن عدل عن الكتاب والسنة ، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل ، وهو المراد بالطاغوت هنا .

﴿ وما أرسلنا من رسول ﴾ . أي : وما أرسلنا رسولًا قط **﴿ إلا ليطاع بإذن الله ﴾** . أي : إلا ليطاع بتوفيق الله في طاعته وتيسيره ، أو بسبب إذن الله في طاعته ، إذ إنه أمر المبعوث إليهم أن يطيعوه ، لأنه مؤد عن الله ، فطاعته لله . **﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ﴾** بالتحاكم إلى الطاغوت . **﴿ جاؤوك ﴾** تائبين من النفاق ، معتذرين عما ارتكبوا من الشقاق . **﴿ فاستغفروا الله ﴾** من النفاق والشقاق . **﴿ واستغفر لهم الرسول ﴾** . أي : بالشفاعة لهم ، والدعاء لهم **﴿ لوجدوا الله تواباً رحيما ﴾** . أي : لعلموه توَّاباً عليهم إن تابوا رحيماً بهم . والمعنى : ولو وقع مجيئهم للرسول في وقت ظلمهم مع استغفارهم ، ثمّ استغفر الرسول لهم ، لوجدوا الله تواباً رحيماً ، ولم يقل : واستغفرت لهم ، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيماً لشأنه ﷺ ، وتعظيماً لاستغفاره ، وتنبيهاً على أن شفاعةَ مَن اسمُه الرسولُ ﷺ من الله بمكان .

فائـــدة :

لم يفرِّق بعض الإسلاميين بين دعاء رسول الله ﷺ وخطابه بعد وفاته . ولا بد في الحقيقة أن نفرّق بين دعائه – والدُّعاء لا يجوز إلا لله – وبين مخاطبته أن يدعو الله للمخاطب . وقد روى ابن كثير عند هذه الآية هذه الحادثة قال : « وقد ذكر جماعة

منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه (الشامل) الحكاية المشهورة عن العتبي . قال : كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : ﴿ **ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ...** ﴾ الآية ، وقد جئتك مستغفراً لذنبي ، مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول :

يا خير من دفنت في القاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي ، فغلبتني عيني ، فرأيت النبي ﷺ في النّوم فقال : « ياعتبي الحق الأعرابي ، فبشره أن الله قد غفر له » . وشاهدنا أن ابن كثير ذكر هذه الحادثه دون تعليق مما يدلُّ على أنه يعتبر أن الآية حكمها لازال باقياً في جواز مخاطبة رسول الله ليستغفر الله لطالب ذلك .

﴿ **فلا وربك لا يؤمنون** ﴾ . أي : فوربك لا يؤمنون ﴿ **حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ﴾ . أي : فيما وقع بينهم من اختلاف واختلاط . ﴿ **ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت** ﴾ . أي : لا يجدون ضيقاً أو شكاً ، لأن الشاك في ضيق من أمره حتى يلوح له اليقين . فكما فرض الله علينا الرضوخ لحكم رسوله ﷺ فقد حرّم علينا أن تضيق صدورنا بحكمه ﴿ **ويسلّموا تسليما** ﴾ . أي : وينقادوا لقضائك انقياداً لا شبهة فيه بظاهرهم وباطنهم ، والمعنى : لا يكونون مؤمنين حتى يرضوا بحكمك وقضائك .

فائدة في سبب النزول :

روى البخاري عن عروة قال : « خاصم الزبير رجلًا في شِراج الحرّة ، فقال النبي ﷺ : اسق يا زبير ، ثم أرسل الماء إلى جارك ، فقال الأنصاري : يا رسول الله ! أن كان ابن عمّتك ؟ فتلوّن وجه رسول الله ﷺ ثم قال : اسق يا زبير ، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ، ثم أرسل الماء إلى جارك ، فاستوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم ، حين أحفظه الأنصاري ، وكان أشار عليهما ﷺ بأمر لهما فيه سعة . قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون ...** ﴾ الآية » وروى الحافظ أبو إسحق بن عبد الرحمن في تفسيره عن حمزة : أن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ فقضى للمحق على المبطل ، فقال المقضي عليه : لا أرضىٰ ، فقال صاحبه فما تريد ؟ قال : أن تذهب إلى أبي بكر الصديق فذهبا إليه ، فقال الذي قُضي له : قد اختصمنا إلى النبي ﷺ فقضىٰ لي ، فقال أبو بكر : أنتما على ما قضىٰ به رسول

الله ﷺ فأبى صاحبه أن يرضى ، فقال : نأتي عمر بن الخطاب ، فقال المقضي له : قد اختصمنا إلى النَّبي ﷺ فقضى لي عليه فأبى أن يرضى ، فسأله عمر بن الخطاب ، فقال : كذلك ، فدخل عمر منزله ، وخرج والسيف في يده قد سلّه ، فضرب رأس الذي أبى أن يرضى فقتله ، فأنزل الله ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون** ... ﴾ الآية .

﴿ **ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم** ﴾ . أي : ولو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بني إسرائيل من قتلهم أنفسهم ، بأن يقتل بعضهم بعضاً ﴿ **أو اخرجوا من دياركم** ﴾ . أي : هاجروا ﴿ **ما فعلوه إلا قليل منهم** ﴾ ممن خلصوا لله ، وذلك لصعوبة الأمر ، وندرة المخلصين . دلّت على أن الخروج من الديار يعدل القتل . ﴿ **ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به** ﴾ من اتّباع رسول الله ﷺ ، والانقياد لحكمه ، وتنفيذ أمره ، مهما كان . ﴿ **لكان خيراً لهم** ﴾ في الدارين ، ﴿ **وأشدَّ تثبيتاً** ﴾ . أي : وأكثر تثبيتاً لإيمانهم ، وأبعد عن الاضطراب فيه . ﴿ **وإذاً لآتيناهم من لدنّا أجراً عظيماً** ﴾ . أي : ثواباً كثيراً لا ينقطع ، ﴿ **ولهديناهم صراطاً مستقيماً** ﴾ . أي : لثبتناهم على الدين الحق ، وهدينا قلوبهم إليه ، وفيه .

فائـــدة :

قال السدي : افتخر ثابت بن قيس بن شمّاس ، ورجل من اليهود ، فقال اليهودي : والله لقد كتب الله علينا القتل فقتلنا أنفسنا . فقال ثابت : والله لو كتب علينا أن اقتلوا أنفسكم لفعلنا ، فأنزل الله هذه الآية . وبعد أن نزلت الآية قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ لو فعل ربنا لفعلنا ، فبلغ النبي ﷺ . فقال : « لَلإيمان أثبت في قلوب أهله من الجبال الرواسي » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم » . وقال : « لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل » قال ذلك عن ابن رواحة .

﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم** ﴾ . ثم بيَّنهم وعدَّدهم ، ﴿ **من النّبيين والصّدّيقين** ﴾ الصديق : هو المبالغ في صدق ظاهره بالمعاملة ، وباطنه في المراقبة ، ﴿ **والشهداء** ﴾ . أي : الذين استشهدوا في سبيل الله ﴿ **والصالحين** ﴾ . قال تعالى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلهم في الصالحين) . أي : من صلحت أحوالهم ، وحسنت أعمالهم ﴿ **وحَسُنَ أولئك رفيقا** ﴾ . أي : وما أحسن أولئك رفيقاً . ﴿ **ذلك الفضل من الله** ﴾ . أي : إنّ ما أعطي المطيعون من الأجر العظيم ، ومرافقة المنعم عليهم إنما هو فضل من الله تفضّل الله

به عليهم . ﴿ **وكفىٰ بالله عليما** ﴾ . أي : ليس أعلم منه بعباده ، وبمن هو أهل الفضل . دلّت الآية على أن ما يفعل الله بعباده ، وما يوفّقهم إليه ، إنّما هو فضله ، وهو حجّة على المعتزلة في نفي خلق الأفعال .

فوائـد :

١ ـ روى البخاريُّ عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من نبي يمرض إلّا خُيِّر بين الدنيا والآخرة » وكان في شكواه التي قبض فيها ﷺ أخذته بَحَّةٌ شديدة فسمعته يقول : ﴿ **مع الذين أنعم الله عليهم من النَّبيين والصّديقين والشهداء والصّالحين** ﴾ . فعلمت أنه خُيِّر » قال ابن كثير : وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر « اللهم الرفيق الأعلىٰ » ثلاثا ثم قضىٰ ، عليه أفضل الصلاة والتسليم .

٢ ـ روى الطبراني بإسناد لا بأس به عن عائشة قالت : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : «يا رسول الله إنك لأحبُّ إلـيَّ من نفسي ، وأحبُّ إلـيَّ من أهلي ، وأحبُّ إلـيَّ من ولدي ، وإني لأكون في البيت فأذكرك ، فما أصبر حتى آتيك ، فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنّة ، رفعت مع النّبيين ، وإن دخلت الجنة خشيت ألا أراك ، فلم يردَّ عليه النبي ﷺ حتّى نزلت عليه ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك** ... ﴾ الآية .

٣ ـ وفي صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال : « كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته ، فقال لي : سل ، فقلت : يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة ، فقال : أو غير ذلك ؟ قلت هو ذاك ، قال : فأعنِّي على نفسك بكثرة السجود » .

٤ ـ ثبت في الصحيح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، فقال : « المرء مع من أحب » قال أنس فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث . وفي رواية عن أنس أنه قال : إني لأحب رسول الله ﷺ وأحب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأرجو أنَّ الله يبعثني معهم ، وإن لم أعمل كعملهم » .

٥ ـ وقد فسّر رسول الله ﷺ معنى هذه الآية في حديث رواه ابن جرير :

« إن الأعلين ينحدرون إلى من هو أسفل منهم ، فيجتمعون في رياض ، فيذكرون ما أنعم الله عليهم ، ويثنون عليه ، وينزل لهم أهل الدرجات ، فيسعون عليهم بما يشتهون ،

وما يدعون به ، فهم في روضة يحبرون ويتنعمون » .

٦ ــ روى الإمام مالك والبخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تراءون الكوكب الدُّرِّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال : بلى ، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين » .

٧ ــ روىٰ الإمام أحمد عن عمر بن مرة الجهني قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، وصليت الخمس ، وأديت زكاة مالي ، وصمت شهر رمضان ، فقال رسول الله ﷺ من مات على ذلك كان مع النَّبيين والصِّدِّيقين والشهداء يوم القيامة هكذا - ونصب أصبعيه - مالم يعقَّ والديه » .

٨ ــ وروى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « من قرأ ألف آية في سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً إن شاء الله » .

٩ ــ وروىٰ الترمذي عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء » .

كلمة في السياق :

بيّن - عز وجل - في هذا المقطع معنى عظيماً من معاني عبادته وتقواه ، هذا المعنى هو الطاعة المطلقة له - عز وجل - ولرسوله ﷺ ، ولأولي الأمر من المسلمين في طاعة الله ورسوله . وبيَّن معاني ما يدخل في هذه الطاعة ، مما بدونه لا تكون تقوى ولا عبادة لله ، بل ولا إيمان أصلًا ، فلا تقوى ولا عبادة إذا لم يكن أصل الإيمان موجوداً . فهذا المقطع إذن سائر على النَّسق الخاصِّ في هذه السورة ، والذي محوره الآيات الخمس من سورة البقرة ، والملاحظ أن المقطع الأول والثاني في السورة كانا في توضيح معانٍ من التقوى لها علاقة بالضعيفين: المرأة واليتيم . والمقطع الثالث بين معانٍ في التقوى لها علاقة بالأموال والأنفس ، ووضع كل في محله ، والإحسان إلى خلق الله . والمقطع الرابع بين معاني من العبادة والتقوى في الصلاة والمواقف من أهل الكتاب ، والأمانة والعدل . وهذا المقطع يبيّن معانٍ في أصل العبادة والتقوى وهو

الإيمان ومحلّ الطاعة الكاملة فيه ومواضعها ، وما ينافيها ، وما يدخل فيها .

ومجيء هذا المقطع الذي يمكن تسميته بمقطع الطاعة في سياق السورة التي تربي على العبادة والتوحيد والتقوى والإيمان والعمل الصالح واضح السبب ، ثم مجيء هذا المقطع بين آية الأمر بأداء الأمانة والحكم بالعدل وبين مقطع الأمر بالنّفير العام واضح السبب كذلك . إن الانضباط والطاعة في الفن العسكري يعتبران أساس الوجود العسكري أصلًا فأن يسبق الكلام عن القتال كلام عن الطاعة فذلك واضح السبب ، وأن يأتي مقطع الطاعة لله والرّسول بعد الأمر بأداء الأمانة والحكم بالعدل ، فذلك لأنه لا أمانة إلا بطاعة الله ورسوله ، ولا عدل إلا بطاعة الله ورسوله ، ولذلك ورد اشتقاق الحكم أكثر من مرة في المقطع : ﴿ **يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت** ﴾ ﴿ **لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ﴾ ولعلّ ما ذكرناه فيه كفاية لمعرفة محل المقطع في السياق الخاص للسورة ومحله بالنسبة للسياق القرآني العام ، ومع ذلك نقول لزيادة الإيضاح : إنه في آيات المحور ورد قوله تعالى : ﴿ **وبشّر الذين آمنوا** ﴾ وفي المقطع بشارة لأهل الإيمان مع توضيح في شأن هؤلاء الذين يستحقون البشارة ، وفي محور السورة أمر بالعبادة للوصول إلى التقوى التي تنافي الكفر والنفاق ، والمقطع يدلنا على أخلاق للكافرين والمنافقين وكل ذلك له صلة بمحور سورة النساء من البقرة وارتباطاته وامتداداته .

ولنختم الكلام عن هذا المقطع بفصل ونقل :

فصل : في طاعة أولي الأمر

لاشك أن طاعة أولي الأمر فيما هو واجب ، واجبة . . وأن طاعة أولي الأمر في المعصية حرام ، ولكنّ كثيراً من قضايا الواجب والمعصية يخضع للفتوى البصيرة من أهلها ، فهناك حالات الضرورة والاضطرار ، وحالات الإكراه ، والحالات الاستثنائية ، وتأثير ذلك على أصل الحكم الشرعي ، وصلة ذلك بالفتوى ، وهناك حالات يعطيها أمر أولي الأمر الشرعيين صفة استثنائية ، فقد تكون قضية لا تجوز في بعض الأحوال ، فإذا أمر بها الأمير أصبحت جائزة ، كأمر الأمير أحد المسلمين أن يموّه عن نفسه لتحقيق خدعة ، أو لتحقيق مصلحة تخدم المعركة ، وإذن فنحن إذا تحدثنا عن الطاعة والمعصية فعلى ضوء الفتوى البصيرة التي تلاحظ الزمان والمكان والأشخاص والأوضاع الاستثنائية على ضوء الكتاب والسنَّة .

على ضوء ذلك كله يقال : لا طاعة في المعصية إنما الطاعة في المعروف فحيثما كانت

معصية فالطاعة حرام ، وحيثما كان واجباً فالطاعة واجبة .

والطاعة في المعصية حرام ولكن الحكم على المطيع في المعصية يختلف باختلاف أنواع المعاصي ، ويختلف باختلاف أحوال الآمر والمأمور ، ويتدخل في الحكم عوامل متعددة لابد أن تراعى ، فهناك حالات تغتفر في حالات الإكراه ، وهناك حالات لا تغتفر ، وهناك حالات ينفّذ الإنسان فيها أمراً لا يجوز ومع ذلك يعتبر في عبادة ، كالصورة التي ذكرها الفقهاء : لو أن أميراً فرض ضريبة ظالمة على ناس ويمكن أن يوزعها عادل فيوزّع الظلم بعدل أو يوزّعها ظالم فيزيد الظلم ظلماً قال الفقهاء : الذي يوزِّع الظلم بعدل هو كالمجاهد في سبيل الله . هذا كله لابد أن يتفطّن له ، ونحن ندرس أمر الطاعة في ظروفنا وأوضاعنا . ومن الآية نعرف : أنه في حالة أي خلاف على أي أمر فالحكم هو الكتاب والسنّة بين كل الناس وفي كل قضية .

بقي أن نتساءل ما هو حكم طاعة أولي الأمر في المباح ؟ نقول : لابد من التفريق بين المباح الأصلي الذي تقتضي مصلحة للمسلمين بتقييده كأن يقيّد السير بقانون فلا شك في هذه الحالة أن طاعة أولي الأمر من المسلمين واجبة فيه ، وبين التحكّم في تحريم الحلال فذلك لا يجوز لأحد ، وقد عرض الألوسي لهذه المسألة في تفسيره وذكر وجهات النظر فيها فقال : « وهل يشمل المباح أم لا ؟ فيه خلاف ، فقيل: إنه لا يجب طاعتهم فيه لأنه لايجوز لأحد أن يحرم ما حلّله الله تعالى . ولا أن يحلل ما حرّمه الله تعالى ، وقيل : تجب أيضاً كما نص عليه الحصكفي وغيره ، وقال بعض محققي الشافعية : يجب طاعة الإمام في أمره ونهيه ما لم يأمر بمحرّم ، وقال بعضهم : الذي يظهر أن ما أمر به مما ليس فيه مصلحة عامة لا يجب امتثاله إلا ظاهراً فقط ، بخلاف ما فيه ذلك يجب باطناً أيضاً ، وكذا يقال في المباح الذي فيه ضرر للمأمور به ، ثم هل العبرة بالمباح والمندوب المأمور به باعتقاد الآمر . فإذا أمر بمباح عنده سنة عند المأمور يجب امتثاله ظاهراً فقط ، أو المأمور فيجب باطناً أيضاً وبالعكس فينعكس ذلك كل محتمل ؟ وظاهر إطلاقهم في مسألة أمر الإمام الناس بالصوم للاستسقاء الثاني لأنهم لم يفصلوا بين كون الصوم المأمور به هناك مندوبا عند الآمر أولا ، وأيد بما قرروه في باب الاقتداء من أن العبرة باعتقاد المأموم لا الإمام ، ولم أقف على ما قاله أصحابنا في هذه المسألة فليراجع هذا».

نقــل

قدم صاحب الظلال للآيات التي بدأت بتوضيح مواقف أهل الكتاب بمقدمة هي

لذلك المقطع وللمقاطع اللاحقة وقد رأينا أن ننقل بعضها هنا لتكون مقدمة مباشرة للمقطع السادس الذي يأمر بالنفير العام ، يقول صاحب الظلال :

« لقد كان القرآن فيها (أي في السور الثلاث البقرة وآل عمران والنساء) يخوض المعركة بالجماعة المسلمة ، في كل جبهة .. كان يخوضها في الضمائر و المشاعر ، حيث ينشىء فيها عقيدة جديدة ، ومعرفة بربها جديدة ، وتصوراً للوجود جديداً ، ويقيم فيها موازين جديدة ، وينشىء فيها قيماً جديدة ؛ ويستنقذ فطرتها من ركام الجاهلية ؛ ويمحو ملامح الجاهلية في النفس والمجتمع ؛ وينشىء ويثبت ملامح الإسلام الوضيئة الجميلة .. ثم يقودها في المعركة مع أعدائها المتربصين بها في الداخل والخارج .. اليهود والمنافقين والمشركين .. وهي على أتم استعداد للقائهم ، والتفوق عليهم ، بمتانة بنائها الداخلي الجديد : الاعتقادي والأخلاقي والاجتماعي والتنظيمي سواء ..

ولقد كان التفوق الحقيقي للمجتمع المسلم على المجتمعات الجاهلية من حوله ــ بما فيها مجتمع اليهود القائم في قلب المدينة ــ هو تفوقه في البناء الروحي والخلقي والاجتماعي والتنظيمي ــ بفضل المنهج القرآني الرباني ــ قبل أن يكون تفوقاً عسكرياً أو اقتصادياً أو مادياً على العموم !

بل هو لم يكن قط تفوقاً عسكرياً واقتصادياً ــ مادياً ــ فقد كان أعداء المعسكر الإسلامي دائماً أكثر عدداً ، وأقوى عدة وأغنى مالًا ، وأوفر مقدرات مادية على العموم ! سواء في داخل الجزيرة العربية ، أو في خارجها في زمن الفتوحات الكبرى بعد ذلك .. ولكن التفوق الحقيقي كان في ذلك البناء الروحي والخلقي والاجتماعي ــ ومن ثم السياسي والقيادي ــ الذي أسسه الإسلام بمنهجه الرباني المتفرد .

وبهذا التفوق الساحق على الجاهلية في بنائها الروحي والخلقي والاجتماعي ــ ومن ثم السياسي والقيادي ــ اجتاح الإسلام الجاهلية .. اجتاحها أولًا في الجزيرة العربية . واجتاحها ثانياً في الإمبراطوريتين العظيمتين الممتدتين حوله : امبراطوريتي كسرى وقيصر .. ثم بعد ذلك في جوانب الأرض الأخرى . سواء كان معه جيش وسيف ، أم كان معه مصحف وأذان !

ولولا هذا التفوق الساحق ما وقعت تلك الخارقة التي لم يعرف لها التاريخ نظيراً . حتى في الاكتساحات العسكرية التاريخية الشهيرة . كزحف التتار في التاريخ القديم . وزحف الجيوش الهتلرية في التاريخ الحديث .. ذلك أنه لم يكن اكتساحاً عسكرياً

فحسب ، ولكنه كان اكتساحاً عقيدياً ، ثقافياً ، حضارياً كذلك ، يتجلى فيه التفوق الساحق الذي يطوي ــ من غير إكراه ــ عقائد الشعوب ولغاتها ، وتقاليدها وعاداتها .. الأمر الذي لا نظير له على الإطلاق في أي اكتساح عسكري آخر قديماً !

لقد كان تفوقاً « إنسانياً » كاملًا . تفوقاً في كل خصائص « الإنسانية » ومقوماتها . كان ميلاداً آخر للإنسان . ميلاد إنسان جديد غير الذي تعرفه الأرض على وجه اليقين والتأكيد. ومن ثم صبغ البلاد التي غمرها هذا المد بصبغته ؛ وترك عليها طابعه الخاص ؛ وطغى هذا المد على رواسب الحضارات التي عاشت عشرات القرون من قبل في بعض البلاد . . كالحضارة الفرعونية في مصر . وحضارة البابليين والآشوريين في العراق ، وحضارة الفينيقيين والسريان في الشام . لأنه كان أعمق جذوراً في الفطرة البشرية ؛ وأوسع مجالًا في النفس الإنسانية ، وأضخم قواعد وأشمل اتجاهات في حياة بني الإنسان ، من كل تلك الحضارات .

وغلبة اللغة الإسلامية واستقرارها في هذه البلاد ظاهرة عجيبة ، لم تستوف ما تستحقه من البحث والدراسة والتأمل ، وهي في نظري أعجب من غلبة العقيدة واستقرارها . إذ إن اللغة من العمق في الكينونة البشرية ومن التشابك مع الحياة الاجتماعية ، بحيث يُعدّ تغييرها على هذا النحو معجزة كاملة ! وليس الأمر في هذا هو أمر « اللغة العربية » . فاللغة العربية كانت قائمة ؛ ولكنها لم تصنع المعجزة في أي مكان على ظهر الأرض وقبل الإسلام ، ومن ثم سميتها « اللغة الإسلامية » فالقوة الجديدة التي تولدت في اللغة العربية ، وأظهرت هذه المعجزة على يديها ، كانت هي « الإسلام » قطعاً ! وكذلك اتجهت العبقريات الكامنة في البلاد المفتوحة (المفتوحة للحرية والنور والطلاقة) اتجهت إلى التعبير عن ذاتها ــ لا بلغاتها الأصلية ــ ولكن باللغة الجديدة . لغة هذا الدين -- اللغة الإسلامية – وأنتجت بهذه اللغة في كل حقل من حقول الثقافة نتاجاً تبدو فيه الأصالة ، ولا يلوح عليه الاحتباس من معاناة التعبير في لغة عربية ــ غير اللغة الأم ــ لقد أصبحت اللغة الإسلامية هي اللغة الأم فعلًا لهذه العبقريات .. ذلك أن الرصيد الذي حملته هذه اللغة كان من الضخامة أولًا ؛ ومن ملاصقة الفطرة ثانياً ؛ بحيث كان أقرب إلى النفوس وأعمق فيها ، من ثقافاتها . ومن لغاتها القديمة أيضاً !

لقد كان هذا الرصيد هو رصيد العقيدة والتصور ؛ ورصيد البناء الروحي والعقلي ، والخلقي والاجتماعي الذي أنشأه المنهج الإسلامي في فترة وجيزة . وكان من الضخامة

والعمق واللصوق بالفطرة ، بحيث أمدّ الله ــ لغة الإسلام ــ بسلطان لا يقاوم . كما أمدّ الجيوش ــ جيوش الإسلام ــ بسلطان لا يقاوم كذلك !

وبغير هذا التفسير يصعب أن نعلل تلك الظاهرة التاريخية الفريدة .

المقطع السادس

ويمتد من الآية (٧١) إلى نهاية الآية (٩٣) . وهذا هو :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ

وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

☆ ☆ ☆

مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

☆ ☆ ☆

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

كلمة في المقطع :

قلنا أثناء الكلام عن آيات القتال الأولى وما قبلها في سورة البقرة :

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾ .

إن مجيء هذه الآيات في سياق الكلام عن التقوى والطرق التي توصل إليها يصحح مفاهيم خاطئة عن التقوى ، فالكثيرون من الناس يفهمون أن التقي هو المسالم أبداً ، وهو الذي لايرد الاعتداء ، وهذا تصور مغلوط عن التقوى . وكذلك فإن كثيرين لا يعتبرون أن الوصول إلى الشيء من بابه هو من التقوى ، وهذا شيء مغلوط بينته تلك الآيات ، وكثيرون لايعتبرون أن حريتهم في التصرف بأموالهم مقيّدة بقيود الشرع ،وذلك تصور مغلوط صححته الآيات هناك .

وإذا كان المحور الرئيسي لسورة النساء هو التقوى ، وتبيان ماهيتها ، والدلالة على طريقها ، فهي تأمر ، ومن خلال الأمر تصحح مفاهيم ، ومن المفاهيم الضائعة في قضية التقوى ، موضوع الطاعة والحركة الجهادية ، إن كثيرين من الناس لايعرفون لمن يعطون طاعتهم ، ولا يعرفون كيف ينبغي أن يتحركوا الحركة الجهادية ، والمقاطع التي بين أيدينا من سورة النساء حدَّدت الطاعة ، وأطلقت الطاقة . ففي المقطع الخامس تحدّدت الطاعة ، وفي المقطع السادس ومابعده مباشرة تحريك للطاقة في الطريق الذي لايصح أن

تتوقف الحركة فيه ، وهو طريق الجهاد الذي لايعرف الكثيرون كيف يقيمون أمر الله - عز وجل - فيه .

يأتي هذا المقطع ليبيِّن معانٍ من العبادة والتقوى ، مرتبطة بموضوع القتال ، ففيه الأمر بالنفير العام ، وفيه كلام عن المتقاعسين ، وفيه حضٌّ على القتال ، وبيانٌ لأسبابه ، وبيان لنوعية قتال المؤمنين ، ولطبيعة قتال الكافرين ، ثم عودة لتبيان طبيعة المتقاعسين ، ومعالجة لها . وإذ كانت الطاعة ركن القتال ، فإنه يأتي كلام عن الطاعة ، وإذ كانت الشائعات جزءاً من المعركة ، فإن المقطع يحدِّد موقف المسلم من الشائعة ، ويأتي ذلك في سياق الأمر بتدبر القرآن ، ثم يأتي أمر بالقتال ، ولو نكص الناس جميعاً . وفي هذا السياق يأتي كلام عن التحية والشفاعة والتوحيد ، وفي ذلك إشارة إلى أن المسلم يقابل بالأحسن ، وأن تلافي آثار القتال يحتاج إلى شفاعة ، وأن التوحيد يقتضي توكّلاً ، وكل ذلك له صلة بالقتال من وجه . ثم يأتي كلام عن المنافقين ومتى يجوز قتالهم ؟ ومتى لايجوز؟ وفي هذا السياق يأتي تبيان تحريم قتل المؤمن عمداً ، وماذا يجب أن يفعل من قتل مؤمناً خطأ؟ فالمقطع يوضح لنا محلّ القتال في التقوى ، وما هي مواقف المتقين حيث ينبغي القتال ، وفي المقطع تأكيد لكلمة الإيمان إذ الإيمان الحق هو الذي ينبثق عنه القتال الحق .

رأينا أن سورة البقرة تحدثت عن المتقين والكافرين والمنافقين ، ثم جاء المقطع الأول في القسم الأول يحدثنا عن الطريق إلى التقوى ، والطريق إلى الكفر والنفاق ، ورأينا في سورة البقرة أمراً بقتال الذين يقاتلوننا ، وقلنا هناك إن الكلام عن القتال جاء يصحح مفهوماً عن التقوى والمتقين ، وههنا نلاحظ أن التقاعس عن القتال نوع نفاق ، وأن محاولة الوقوف على الحياد بين أهل الإيمان والكفر نفاق ، وأن على أهل الإيمان أن يتصرَّفوا ضمن حدود معيَّنة مع المنافقين . فالمقطع يفصِّل في الطريق للتقوى ، وفي ماهيَّة التقوى في أمور متعددة . ولعلنا نتذكر أن الأمر بقتال من يقاتلنا في سياق القسم الثاني من أقسام سورة البقرة ، هو القسم نفسه الذي فيه حديث عن القصاص . وهذا المقطع يختتم بالكلام عن القتل العمد والقتل الخطأ .

إن سورة النِّساء تفصِّل في التقوى ، والطريق إليها ، وامتدادات ذلك في سورة

البقرة ، ولذلك مظاهره الكثيرة التي من أبرزها ابتداء كثير من مقاطع سورة النساء بصيغة « يأأيها » التي هي الصيغة الآتية بعد مقدمة سورة البقرة .

المعنى العام للمقطع :

رأينا في سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله** ... ﴾ أن هذه الآيات آتية في سياق توضيح أنَّ القتال في سبيل الله جزء من التقوى ، لا كما يظنُّ الجاهلون أنَّ القتال يتنافىٰ مع التقوى . وهذا المقطع والذي يليه توضيح لكون القتال جزءاً من عبادة الله ومن تقواه . ولنر المعاني العامة التي تضمَّنها هذا المقطع .

يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوِّهم ، وهذا يستلزم التَّأهُّب لهم بإعداد الأسلحة والعُدد ، وتكثير العدد بالنَّفير في سبيل الله ، سرية بعد سرية ، نفيراً عاماً ينفر به الجميع . ثم بيَّن تعالى أنَّ ممن يخالطون المؤمنين ، ويتظاهرون بالإيمان ، ناساً يتخلفون عن القتال في سبيل الله ، فيتباطؤون عنه ، ويبطِّئون غيرهم ، وينظرون إلى القتال من خلال المصلحة المادّية لهم ولغيرهم ، فإذا رأوا المسلمين أصيبوا فرحوا ، وإن رأوهم غلبوا وغنموا تمنوا أن يكونوا معهم ليصيبوا من الغنائم . ومن فساد تصورهم أنهم يعتبرون عدم خروجهم للقتال حال غلبة الكافرين على المسلمين أن ذلك من فضل الله عليهم ، جهلاً منهم بالله وسننه في عباده ، وجهلاً منهم بمعاني الإسلام والإيمان والقرآن . وإذ بيّن الله فساد تصور هؤلاء لموضوع الجهاد وحكمته ، وما يحيط به من قتل في سبيل الله ، أصدر أمره تعالى للمؤمنين بالقتال ، وأمرهم أن يكون قتالهم في سبيله خالصاً ، وبيَّن أن كل من قاتل في سبيل الله سواء قُتِل أو غَلَب ، فله عند الله ثواب عظيم ، وأجر جزيل . وقد جاء هذا الأمر كتصحيح لذلك التصور الموجود عند المنافقين عن القتال . ثم بيَّن الله - عز وجل - الحكمة في القتال مُصحِحاً المفاهيم المعوجَّة فيه ، محرِّضاً للمؤمنين على القتال ، منكراً عليهم تركه ، ومن أولى من الله - عزّ وجلّ - أن يُقاتَل في سبيله ، ومن أولى من المسلمين المستضعفين المغلوبين على أمرهم ، المضطهدين في دينهم ، الراغبين إلى الله أن ينقذهم من طغيان من هم تحت سلطانه من المَرَدَة والظالمين ، من أولى من هؤلاء أن يُقاتل من أجلهم ؟؟ وإذ تقرر بهذا الأمر القتال ، وضرورته ، بيَّن تعالى بعد ذلك الفارق بين قتال المؤمنين ، وقتال الكافرين ، فالمؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه ، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان ومقاصده . ثم هيَّج الله تعالى المؤمنين على قتال أعدائه أولياء الشيطان ، مبيِّناً أن الشيطان وحزبه

ومكرهم ، كل ذلك ضعيف أمام قدرة الله ، ضعيف إذا وُجد الجهاد . فليعلم ذلك المؤمنون . أن كيد الشيطان ضعيف إذا قام المسلمون بأمر الله في الجهاد في سبيله . أما إذا لم يفعلوا فيا خسارتهم في الدنيا والآخرة ، إن ذلك من النفاق كما ورد في الحديث « من لم يَغْـزُ ولم يحدّث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق » .

ثم يلفت الحق – عز وجل – نظر رسوله ﷺ والمؤمنين إلى تصوُّر خاطىء عند بعض الناس تصور من يظن أن الإسلام صلاة وزكاة ، ثم لاقتال ، تصور الذين هم مستعدون لطاعة الله في قضايا العبادة ، لا في قضايا بذل الدم في سبيل الله ، وذلك من خلال عرض حال بعض المؤمنين بعد أن كُتب عليهم القتال ، وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين في ابتداء الإسلام بالصلاة ، والإنفاق في سبيل الله مواساة للفقراء منهم ، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين إلى حين ، وكانت هذه مرحلة لها أسبابها ، حتى إذا أذن الله بالجهاد والقتال ، وأمر به ، إذا فريق من هؤلاء المؤمنين يجزع ويخاف من مواجهة الناس بالقتال ، ويتمنَّون على الله أن يؤخِّر عنهم فريضة القتال ؛ لما فيها من سفك الدماء ، ويُتم الأولاد ، وتأيُّم النِّساء ، والتي من أجلها يتمنَّون تأخير فريضة القتال ، فبيّن أن متاع الدنيا قليل لا يساوي شيئاً ، وأن الآخرة لأهل التقوي ، خير من هذه الدنيا ، وأن الله يوفِّي أهل التقوى جزاء أعمالهم كاملًا ، فليرغبوا في الآخرة ، وليجاهدوا .

ثم زادهم بصيرة وبياناً ليرغبوا في الجهاد ، عندما بيَّن لهم أنهم صائرون إلى الموت لا محالة ، وأن الموت لا ينجو منه أحد ، وأن كل أحد صائر إلى الموت في الأجل المحدَّدِ ، لا ينجيه من ذلك شيء سواء جاهد أو لم يجاهد ، حتى ولوكان في الحصون المنيعة العالية الرفيعة ، ثمَّ سفَّه الله – عز وجل – تصوُّراً آخر عند بعض من يدّعون الإسلام ، ويتظاهرون أنهم من أهله ، ولا يعقلون ولا يعلمون . هذا التصوُّر ، هو أنه إذا كان خِصب ، ورِزق ، وثمار ، وزروع ، وأولاد ، ورخاء ، يعتبرون ذلك من عند الله ، وإن كان قحط ، وجدب ، ونقص في الثمار والزروع والأولاد ، يعتبرون ذلك من قِبل رسول الله ﷺ وبسبب اتِّباعه والاقتداء بدينه . وإذا كان نصرٌ وغلبة يعتقدون أن ذلك من الله ، وإذا كان إصابة من قتل أو هزيمة يعتقدون أن ذلك من رسول الله ﷺ أو من يقوم مقامه من بعده من أمته على طريقته في أمر الجهاد وغيره . فصحَّح الله هذا المفهوم الصادر عن قلة فهم وعلم وكثرة جهل وظلم ، مبيِّناً أن الحسنة والسيئة من عند الله ، وأن الجميع بقضاء الله وقدره ، وهو نافذ في البَر والفاجر ، والمؤمن والكافر ،

وهو وليُّ المؤمنين ، يمتحنهم تارة ويديل عليهم ، ويمتحنهم تارة بنصرهم ، والفعل فعله . وبعد أن صحّح الله هذا التصور الكفري لهذا الموضوع المرتبط ارتباطاً كاملاً بموضوع الجهاد . إذ الجهاد قد يرافقه نصر ، وقد يرافقه غير ذلك ، وعلى المؤمنين في الحالين التسليم لله لا إلقاء اللّوم على قيادتهم . بعد أن بيَّن الله ذلك لفت النظر – في الوقت نفسه – إلى أنه وإن كان كل شيء فعله – إن أصاب بالسيئة من قحط أو هزيمة فذلك عدله ، وإن أصاب بالحسنة فذلك فضله ، لكنّه إن أصاب الإنسان بسيئة فما ذلك إلا بذنب ، وإن أصاب المجموع فقد يكون بذنب بعضهم ، والله هو الذي قدّر . وإذا كان الأمر كذلك فقد أرسل رسوله ﷺ من أجل أن يبلِّغ شرائعه ، وما يحبه ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه . وهو شهيد على رسوله ﷺ وعلى عباده بالبلاغ ، والعمل ، وكل شيء . وإذ كان الأمر كذلك فعلى الناس أن يجتهدوا ألايذنبوا ، وإذا أذنبوا ، فلا يلومون إلا أنفسهم ، مع معرفة أن الفعل فعل الله ، وأن ذلك استحقاقهم ، وأن عليهم أن يسلِّموا .

ثم بيَّن تعالى أن طاعة رسول الله ﷺ طاعة لله ، وهذا أكبر ردٍّ عليهم في دعواهم أن طاعة رسول الله ﷺ سبب المصائب ! إذ سبب المصائب المعاصي لا الطاعات ، فكيف تكون طاعة رسول الله ﷺ سبباً للمصائب ، وطاعته طاعة لله ! وقد رأينا أن طاعة الأمراء في ذات الله طاعة لله ، ورسوله ، ثم عزَّى الله رسوله ومَن على قدمه بأنه من تولى عن الطاعة ، وأعرض عنها ، فالله هو الحفيظ عليه ، وهو الذي يتولى أمره ، وليس لرسول الله ﷺ ولا عليه من ذلك شيء ، وإذ بيّـن أن الطاعة لرسول الله ﷺ سبب الحسنات والخيرات والنصر ، بيّن حالة من حالات المنافقين وسفَهَهَا ، ودلّ رسوله ﷺ على مايفعله معهم مقابلة لها ، هذه الحالة هي أن المنافقين يتظاهرون بالطاعة ، والموافقة في حضرة رسول الله ﷺ ، فإذا خرجوا من عنده وتواروا عنه ، أسرّوا فى أنفسهم ، واتفقوا فيما بينهم على غير ذلك . وعزَّى الله رسوله ، وهدَّدهم بأنه يعلم بما يضمرونه ، وما يخفونه ، وما يتفقون عليه فيما بينهم من العصيان ، وسيجزيهم على ذلك . ثم أمره أن يقابل ذلك بالإعراض عنهم ، والتوكل على الله ، فهما سلاحا رسول الله ﷺ ، ومن على قدمه أمام عدم انضباط بعض المتظاهرين أنهم من الصف وفيه . وسبب مجيء هذه المعاني في سياق الأمر بالقتال ، وفي سياق نفي أن تكون المصائب بسبب اتّباع رسول الله ﷺ وموافقته ، واضح ، فلا قتال بلا طاعة وانضباط ، ولانصر إلا بطاعة وانضباط . ثم أنكر الله – عز وجل – حالهم مبيّناً أن سبب هذا الحال هو عدم تدبر

القرآن ، وفهمه ، وفقهه ، والإيمان به ، مع أن الدليل على أنه من عند الله ، قائم به ، من حيث إن كل كتاب بشري لابد أن يظهر فيه شيء من الاضطراب ، والتضاد والتناقض ، إما مع نفسه ، وإما مع الحقيقة . وهذا الكتاب سالم من الاختلاف في معانيه وأسلوبه ، وغير ذلك ، وكفى ذلك دليلًا على أنه من عند الله ، ومن الآية وسياقها نعلم أنه لاطاعة ، ولا انضباط ، ولا إيمان ، إلا بتدبرٍ لهذا القرآن . وفي عصرنا نعرف أهمية الحرب النفسية ، وأهمية حرب الإشاعات ، وتأثيرها على نفسية الأمة ، ونفسية المقاتل ، وفي هذا السياق ، سياق الأمر بالقتال الجزئي ، أو بالقتال الشامل ، بالقتال على طريقة حرب العصابات ، أو بالقتال على طريقة الحرب النظامية ، ينكر الله - عز وجل - على من يبادر بنشر خبر قبل أن يتحقق ، أو قبل أن يعرف محتواه ودلالاته ، ويطالب المؤمنين أن يردوا أمثال هذه القضايا إلى رسول الله ﷺ ، وإلى قياداتهم المؤهلة لمعرفة الأمور وحقائقها ، من أجل أن يعرفوا دلالات ماله علاقة بهذه القضايا . والأمر بهذا - في الحقيقة - أمر بالثقة ، وأمر بالتروّي ، وأمر بالتقَيّد بالسياسة الرسمية للدولة المسلمة ، وعقب هذا التنبيه ، بيَّن الله فضله على هذه الأمة ، والذي من مظاهره حفظهم من اتباع الشيطان ، وفي ذلك بشارة وإشارة : بشارة بحفظ أهل الإيمان ، وإشارة إلى أن السير وراء الشائعات ، ونشرها ، وعدم إرجاعها إلى المختصين بها اتِّباعٌ للشيطان .

رأينا في هذا المقطع أنه ابتدأ بتوجيه الأمر إلى المؤمنين أن ينفروا للقتال سرايا أو جيوشاً ، ثم صدر أمر بالقتال لمن يشتري الدنيا بالآخرة . والآن يصدر الأمر لرسول الله ﷺ بالقتال ولو منفرداً ، والأمر لرسول الله ﷺ هنا ، أمر لكل فرد من أمته ، أنه لو نكلت الأمة كلها عن القتال ، فعليه أن يقاتل هو ، وأن يحرِّض المؤمنين على القتال ، وبذلك يكون قد أسقط عن نفسه فريضة القتال ، إذ بذلك يكون قد بذل جهده . ثم بيَّن الله - عز وجل - أنه بذلك ينكفُّ بأس الذين كفروا عن المؤمنين ، مع أن الله قادر عليهم ، وهو معذّبهم ، ومنكِّل بهم ، ولكن شاء - عز وجل - أن يبتلي الناس بعضهم ببعض ، فكلَّف المؤمنين بقتالهم . دلّ ذلك على أنه لاينكف بأس الذين كفروا إلا بقتال .

وفي هذا السياق يذكر الله - عز وجل - ثلاث آيات ، آية في الحضّ على الشفاعات في الخير ، والنهي عن الشفاعات في الشرّ ، والتذكير برقابة الله ، وحفظه ، ومحاسبته لخلقه ، والآية الثانية في رد السلام على من سلم بأحسن منه ، أو بمثله ، مع التذكير بمحاسبة الله عباده . والآية الثالثة في التذكير بالوحدانية ، وباليوم الآخر ومجيئه ، وأنه

لاشك فيه ، وكيف يكون شك وأصدق الصادقين الله هو الذي حدثنا عنه !!!

فما صلة هذه المعاني بالسياق ؟ إن الصلة بين هذه المواضيع والقتال واضحة ، فالقتال يترتب عليه أسْر للمسلمين ، أو سجن لهم ، أو اضطهاد لهم ، وفي هذه الحالات قد يشفع ناس بالخير ، وقد يحرِّض ناس على المسلمين - المبتلين - بشرّ ، ومن ثَم جاءت الآية في هذا السياق للندب إلى الشفاعة بخير . وفي عملية القتال ، قد تظهر بادرة أخلاقية عند الكافرين فعلينا أن نقابلها بمثلها ، أو أحسن منها ، أو قد تظهر رغبة في السلام من أعداء الله ، فعلينا أن نقابل هذه المبادرة بمثلها ، مع ملاحظة شروط السلام كما هي في الإسلام ، لا كما هي في اصطلاحات العالم كما سنرى ذلك ، والتذكير بالله واليوم الآخر في هذا السياق واضح الصلة ، فلا قتال في سبيل الله إذا لم يرافق ذلك إيمان بالله واليوم الآخر . وبعد الآيات الثلاث يعود السياق إلى الموضوع الرئيسي . فالقتال يقتضي صفاً موحَّداً ، وموقفاً موحَّداً ، ومن ثَم تأتي الآيات في السياق تنكر على المؤمنين انقسامهم في أمر المنافقين إلى قسمين : قسم يريد قتلهم ، وقسم يرى مسالمتهم بعد أن أظهر الله ضلالهم ، من خلال مواقفهم ، بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول ﷺ . واتباعهم الباطل ، ورغبتهم في تكفير المسلمين . فكيف يصح أن يكون منهم موقف ليِّن ؟ وإذا كان سبب الموقف الليِّن هو الرغبة في هدايتهم ، فهذا في غير محله بعد أن تبيَّن أن الله يريد إضلالهم ، وإذ تتحدد هذه المعاني ، فلا مجال بعد ذلك لأن ينقسم المسلمون في أمرهم قسمين ، بل ينبغي أن يكون الموقف واحداً ، وهو ترك توليهم ، ثم قتلهم حيث كانوا - وهذا متوقف على شرط ، وعدم اتخاذ وليٍّ منهم أو نصير . ثم استثنى الله - عز وجل - من الأمر بالقتل والقتال ، ناساً لجؤوا وتحيَّزوا إلى قوم بيننا وبينهم مهادنة ، أو عقد ذمة ، فعندئذ يأخذون حكمهم ، كما استثنى ناساً رغبوا في مهادنة المسلمين ، وقلوبهم لاترغب في قتال المسلمين ، ولا في قتال قومهم مع المسلمين ، فدخلوا مع المسلمين في عهد أن يكونوا على الحياد ، وقبل المسلمون منهم ذلك ، فإن الله - عز وجل - أجاز لنا عدم قتلهم وقتالهم ، وذلك من لطفه تعالى بنا ، إذ أعطانا بهذا فرصة كي لايقاتلنا الناس جميعاً ، أو نُضطر لقتال الناس جميعاً . ومن ثَمَّ أمرنا الله ألا نقاتل هؤلاء ماداموا مسالمين ، ملتزمين بما التزموا به . وهذه الآيات والتي بعدها مباشرة قد لاتفهم فهماً جيداً إلا بعد استعراض المعنى الحرفي . وذلك أن الكلام عن المنافقين مختلط بالكلام عن الكافرين في موضوع الأمر بالقتل والقتال ، وما يستثنى من ذلك ، ومالا يستثنى . وتطبيقات ذلك على عصرنا ، كل ذلك نرجو أن يتضح أثناء

التفسير الحرفي ، والفوائد التي نلحقها به . ولنعد إلى السياق ، فبعد أن استثنى الله ناساً من الأمر بالقتل والقتال ، يَذكُر الله ناساً يأمر بقتلهم وقتالهم ، يشبهون المستَثنينَ في الصورة ويختلفون عنهم في الحقيقة والنِّية ، هؤلاء الذين يأمر الله بقتلهم وقتالهم قوم منافقون يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ، ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ، ويصانعون الكفار بالباطن ، ومتى وُضعوا في أدنى وضعٍ من الفتنة عن الإسلام ، دخلوا فى الكفر والشرك وانهمكوا به ، وأظهروا إخلاصهم له ، بل أصبحوا في صف الكفر إيذاءً وقتالاً للمسلمين ، هؤلاء أمر الله في شأنهم إذا لم يعتزلوا قتال المسلمين ، ويعلنوا الإسلام ، ويكفُّوا أيديَهم عن إيذاء المسلمين ، أن يُقتَلوا ، ولأن هذا الموضوع قد يتحرج منه بعض الناس ختم الله الآية بقوله ﴿ **وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً** ﴾ أي : بيِّنا واضحاً . وبعد أن أمر الله هذه الأمة بالقتل والقتال حذّر هذه الأمة أن تستجرَّها جرأتها على قتل أعدائها إلى أن تتجرأ على أن يقتل بعضها بعضاً ، وكان التحذير شديداً ، فقد بيَّن الله - عز وجل - في الآيات الأخيرة من هذا المقطع ، أنه ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه ، وإذ كان هذا النهي جازماً ، والمؤمن في الأصل لا يخالفه ، بيَّن تعالى أنه تُتَصور حالة واحدة من الحالات ، يمكن أن يقتل مؤمن مؤمناً ، وهي حالة الخطأ . ثم بيَّن أنه في حالة تلبس المؤمن بالقتل الخطأ فماذا يفعل ؟ يختلف الحكم بين ما إذا كان هذا المؤمن المقتول خطأً من قوم كافرين ، بيننا وبينهم ميثاق ، أو كان من قوم كافرين ليس بيننا وبينهم ميثاق ، فإن كان مؤمناً من قوم بيننا وبينهم ميثاق ، فعلى القاتل الدِّية والكفّارة ، وإلا فالكفَّارة دون دية ، والكفارة إما عتق رقبة ، أو صيام شهرين متتابعين ، تلك توبة القاتل خطأً . أما الذي يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه الخلود في نار جهنم ، واستحقاق غضب الله ، ولعنته وعذابه الأليم الشديد ، ثم يأتي مقطع جديد مرتبط بالمقطع السابق بشكل عام ، وبدايته مرتبطة بما قبلها مباشرة وسنرى ذلك .

المعنى الحرفي

﴿ **يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم** ﴾ الحِذر والحَذَر واحد ، والحذر التحرز ، وأخذ حذره إذا تيقظ واحترز من المخوف ، كأنه جعل الحذر آلته التي يقي بها نفسه ، ويعصم بها روحه ، والمعنى : كونوا دائماً حذرين ، متحرزين ، متيقظين من عدوكم وعلى عدوكم . ﴿ **فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً** ﴾ الثبات : واحدها ثبة ، وهي الجماعة ،

وكلمة جميعاً هنا حال ، والمراد مجتمعين ، فالأمر الثاني بالنّفير العام ، والنفر : الخروج للعدو . والمعني: فاخرجوا إلى قتال العدو ، جماعات متفرقة سرية بعد سرية ، وجماعة بعد جماعة ، عصابة بعد عصابة أو اخرجوا مجتمعين ، فهو أمر بالقتال ، إما بالخروج المجزّأ ، وإما بالنفير العام ، حسب مقتضيات الأحوال . ويدخل في الأمر بالقتال ﴿ **ثباتٍ** ﴾ القتال على طريقة حرب العصابات ، حتى إن ابن كثير فسر ثبات فقال : أي عصباً . ففي الآية أمران ، أمر بالحذر ، وأمر بالقتال ، والأمر بالقتال على حسب مقتضيات الأحوال . والمهم ألا يترك المسلمون القتال في سبيل الله على قدر ما يلزم ، وبحسب مايمكن . وسنرى في هذا المقطع أن بأس الكافرين لاينكف عنا إلا بالقتال ، ولو بقتال فردي ، فما أكثر غفلة المسلمين حين تركوا القتال حتى تغلّب الكافرون على أرضهم ، وسيطر المرتدون على بلادهم ، فذلُّوا ببلادهم لعدوهم ، وطمع بهم كلّ طامع . وإذا لم يعودوا إلى دينهم بإحياء فريضة القتال على قدر المستطاع ، فلن تكون كلمة الله هي العليا لا في أقطارهم ، ولا في العالم ، وهذا الذي ورد في الحديث « إذا تبايعتم بالعينة ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم جهادكم ، سلط الله عليكم ذلّاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم » . فكأن ميزان الرجوع إلى الإسلام هو الجهاد ﴿ **وإن منكم لمن ليبطّئن** ﴾ . أي : وإن منكم أيها المسلمين لمن أقسم جازماً ليتثاقلنَّ ، وليتخلفنّ عن الجهاد ، وقد عرفنا القَسَم من وجود اللام في قوله تعالى : ﴿ **ليبطئن** ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ **منكم** ﴾ . أي : من المسلمين ، أي في الظاهر دون الباطن وهم المنافقون ، ويحتمل أن يكون من المسلمين أنفسهم ، ولكن ممن اختلت تصوراتهم ، وكثر جهلهم ، وفسد تقديرهم للأمور ، ونظروا للأمور كلها من خلال مصلحتهم الذاتية ، ومنفعتهم الخاصة . ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو في نفسه ، ويبطّىء غيره عن الجهاد ، كما كان عبدالله بن أبيّ بن سلول - قبحه الله - يفعل ، يتأخر عن الجهاد ، ويثبّط الناس عن الخروج فيه ، وهذا قول ابن جريج ، وابن جرير ، وقد يفعل هذا الذي يفعله المنافقون كثيرٌ من بسطاء المسلمين ممن لا يَصْدرون في أحكامهم عن شرع ، أو فتوى ، وإنما يصدرون أحكامهم بناء على ما يتصورونه مصلحة لأنفسهم ، أو لناس من المسلمين ، وهم بهذا يقتلون أنفسهم ، ويقتلون المسلمين ، وهم وإن لم يكونوا منافقين نفاق عقيدة ، فإن عملهم هذا يستحقون به دخول النار ، لجرأتهم على تعطيل فريضة الله ، وعلى الفتوى بغير علم . والذي قلناه في كون مَنْ لا يتصف بنفاق العقيدة قد يقف نفس الموقف ، بناء على أن كثيرين من الناس

قد يصابون بأمراض المنافقين أو الكافرين ويتخلقون بأخلاقهم ، وإن لم يكن ثمة كفر أو نفاق ، ولكنه الفسوق والمرض والانحراف ﴿ **فإن أصابتكم مصيبة** ﴾ كقتل أو هزيمة أو كارثة ﴿ **قال قد أنعم الله عليَّ إذ لم أكن معهم شهيداً** ﴾ . أي : قال هذا المُبَطِّىء قد أنعم الله عليَّ إذ لم أكن مع المسلمين الذين شهدوا القتال حاضراً ، فيصيبني مثل ما أصابهم ، يَعُدُّ عدم حضوره مع المسلمين وقعة القتال ، يَعُدُّ ذلك من نعم الله عليه ، ولم يدرِ ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل ﴿ **ولئن أصابكم فضل من الله** ﴾ . أي : من فتح أو نصر أو غنيمة ﴿ **ليقولنَّ** ﴾ . أي : هذا المبطِّىء متلهفاً على مافاته من الغنيمة ، لا طلباً للمثوبة ﴿ **كأن لم يكن بينكم وبينه مودّة** ﴾ . أي : كأنه لم يتقدم له معكم مودة ، لأن المنافقين كانوا يوادُّون المؤمنين في الظاهر ، وإن كانوا يبغون لهم الغوائل في الباطن . قال ابن كثير في تفسيرها : كأنه ليس من أهل دينكم . ﴿ **ياليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً** ﴾ . أي : ياليتني كنت معهم فآخذ من الغنيمة حظاً وافراً ، فهذا أكبر قصده وغاية مراده ، أن يضرب له بسهم مما ينال المسلمون من خير .

هذا هو منطق هؤلاء ، وتصورهم ، ينظرون إلى الأمور من خلال مصلحتهم ومنفعتهم لا من خلال أداء ما أوجب الله عليهم ، ويقيسون الأمور بمقياس الربح والخسارة الدنيويَّيْن لابمقياس طاعة الله ، ومعرفتهم بالله قاصرة ، إذ يتصوَّرون أن تخلُّفهم عن الواجب مع نجاتهم من المصائب دليل رضى الله . وإذا أصاب المسلمين مصيبة وهم يقومون بواجبهم يعتبرون ذلك علامة خطأ ابتداء وانتهاء ناسين أن المسلمين الذين يصابون ، على فرض أنهم أصيبوا نتيجة خطأ ، فإن إصابتهم تكفِّر عنهم سيآتهم ، وفي قيامهم بالواجب أسقطوا فرض الله عنهم ، وهؤلاء المثبِّطون والمتباطئون لم يفعلوا هذا وهذا . وإذ بيَّن الله – عز وجل – حقيقة هذه النّوعية من الناس الذي موقفها ترك القتال ، والتثبيط عنه ، يُصْدِر الله – عز وجل – أمره التالي :

﴿ **فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة** ﴾ يحتمل النص معنيين على حسب ما تفسّر به كلمة الشراء ، لأنها من كلمات الأضداد في اللغة العربية ، تطلق على البيع والشراء بآن واحد ، ويحدِّد ذلك السياق . فعلى أن المعنى المراد بها البيع يكون المعنى : فليقاتل المؤمنون الذين يستحبون الحياة الآجلة على العاجلة ، ويستبدلونها بها . فليقاتل هؤلاء في سبيل الله فلئن صدَّ الذين مرضت قلوبهم وضعفت نيّاتهم عن القتال ، فليقاتل الثابتون المخلصون . وأما معنى النص على أن المراد الشراء فيكون : فليقاتل هؤلاء

المنافقون الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة . فعلى هذا فإن النص يكون وعظاً لمن ذكروا في الآية السابقة من أجل أن يغيروا ما بهم من النفاق ، ويخلصوا الإيمان بالله ورسوله ، ويجاهدون في سبيل الله حق جهاده ، فذلك هو الدواء لنفاقهم ، والأول أقوى . ثم يبيِّن الله – عز وجل – ما أعد لمن قاتل في سبيله ﴿ **ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتَل أو يَغْلِب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ . أي : كل من قاتل في سبيل الله ، سواء قُتِل أو غلب ، فله عند الله مثوبة عظيمة ، وأجر جزيل ، كما ثبت في الصحيحين : « وتكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يُرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة » . قال النسفي : وعد الله المقاتل في سبيل الله ظافراً ، أو مظفوراً به إيتاء الأجر العظيم على اجتهاده في إعزاز دين الله . ﴿ **ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله** ﴾ . أي : وأي شيء لكم تاركين القتال ، وقد ظهرت دواعيه ، وهذا الاستفهام فيه معنى التنبيه على الاستبطاء إن قاتلنا ، والإنكار إن لم نقاتل . ثم قال : ﴿ **والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان** ﴾ . إذا اعتبرنا أن الواو في قوله تعالى ﴿ **والمستضعَفين** ﴾ للعطف ، يكون المعنى : ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله ، وفي خلاص ﴿ **المستضعفين** ... ﴾ . وإذا اعتبرناها للاستئناف كان المعنى : ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله ، واختص من سبيل الله خلاص المستضعَفين من المستضعِفين ، لأن سبيل الله عام في كل خير ، وخلاص المسلمين من أيدي الكفار من أعظم الخير وأخصّه ، ولكل عصر مستضعفوه ، وما أكثر المستضعَفين في عصرنا ، وما أقل قتالنا . والمستضعَفون ساعة نزول الآية هم الذين أسلموا بمكة ، وصدّهم المشركون عن الهجرة ، فبقوا بين أظهرهم مستَذَلِّين مستضعَفين ، يلقون من المشركين الأذى الشديد، وذكر الولدان تسجيل لإفراط ظلمهم، حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين، إرغاما لآبائهم وأمّهاتهم، وفي عصرنا يُفْتَن صغار المسلمين عن دينهم في مدارسهم ، وفي غير ذلك بألوف الوسائل ، فهل يَعقِل المسلمون ، ويقاتلون لإسقاط الأنظمة الكافرة بالطرق التي تمكنهم منها وسائل عصرنا ؟ . ثم وصف الله حال هؤلاء المستضعفين ﴿ **الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلُها** ﴾ القرية الظالم أهلها يوم نزول الآية هي مكة ، والوصف يصدق على كل حالة مشابهة . ﴿ **واجعل لنا من لدنك ولياً** ﴾ يتولى أمرنا ويستنقذنا من أعدائنا ، ﴿ **واجعل لنا من لدنك نصيرا** ﴾ ينصرنا على أعدائنا ، فهم يدعون الله بالخلاص ويستنصرونه، أقول: إذا توجه مثل هذا الخطاب ﴿**وما لكم لا تقاتلون**﴾ من أجل المستضعفين لرسول الله ﷺ والصحابة وهم ماهم؟ في القيام بأمر الله، فماذا يقال لجيلنا الذي

ترك القتال فذلّ المسلمون في كل مكان. فهل من قتال لإنقاذ المستضعفين من جديد ثم ذكر الله – عز وجل – الفارق بين قتال المؤمنين وقتال الكافرين فقال : ﴿ **الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت** ﴾ . أي : المؤمنون يقاتلون طاعة لله تعالى ، وفي الطريق التي شرعها ، والكافرون يقاتلون طاعة للشيطان ، وفي طريقه المعوجّة التي يضل بها . وكل قتال غير قتال المسْلمين هذا شأنه ، وهذا ترغيب للمؤمنين في القتال ، لأنه مادام في سبيل الله فالله وليُّهم وناصرهم . ثم هيَّجَ الله المؤمنين على قتال أعدائه فقال ﴿ **فقاتلوا أولياء الشيطان** ﴾ . أي : أنصاره وهم الكفار بأصنافهم ومنهم المرتدون . ﴿ **إنَّ كيد الشيطان** ﴾ . أي : وساوسه ، والكيد : هو السعي في فساد الحال ، على جهة الاحتيال . ﴿ **كان ضعيفاً** ﴾ لأنه غرور لايؤول إلى محصول ، ولأن كيده في مقابلة نصر الله ضعيف .. وفي هذا تجريء للمسلمين على القتال ، إذ مادام الشيطان هو وليّ الكافرين ، وهذا شأن كيده ، ومادام الله هو وليّ المؤمنين ، وتعالى شأنه ، فكيف لايجرؤ المؤمنون على الكافرين . وفي كل زمان يوجد من يخشى القتال ، حتى من المؤمنين ، وفي جيلنا يوجد من يتصوَّر أن الإسلام مجرد صلاة وزكاة ، أما أن يكون الإسلام قتالاً فلا ، وفي جيلنا يوجد من يتصوَّر أن التقوى في الصلاة والزكاة ، وكلها تصوّرات فاسدة ، يطهِّر الله عباده المسلمين المتقين منها بالآيات التالية : ﴿ **ألم ترَ إلى الذين قيل لهم كفوا أيديَكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ كان ذلك في ابتداء الإسلام إذ كان المسلمون مأمورين بالصلاة ومواساة المحتاج منهم ، والعفو والصفح وترك القتال ، وكانوا وهم في مكة يتمنّون أن يؤذن لهم بالقتال . ﴿ **فلما كتب عليهم القتال** ﴾ . أي : فرض عليهم وأمروا به ، وذلك بعد إذ كانوا في المدينة . ﴿ **إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله** ﴾ . أي : يخافون أن يقاتلهم الكفار كما يخافون أن ينزل الله عليهم بأسه ، لاشكاً في الدين ولا رغبة عنه ، ولكن نفوراً عن المخاطرة بالأرواح ، وخوفاً من الموت .

كانوا يودُّون القتال ، فلما أُمروا به جزع بعضهم منه ، وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً . قال الشيخ أبومنصور الماتريدي : هذه خشية طبع ، لا أن ذلك منهم كراهة لحكم الله وأمره اعتقاداً ، فالمرء مجبول على كراهة مافيه خوف هلاكه غالباً . دلت الآية على أن هناك ناساً خشية الله عندهم لايعدلها شيء بدليل تشبيه خشية هؤلاء من الناس بخشية من يخشىٰ الله . ومن المعلوم أن المشبّه به أقوى من المشبّه ، فالآية تعني أن هذا الفريق الذي خشي الناس إذ أمر بالقتال قد خشيٰ الناس مثل أهل خشية الله ، أي

مشبهين لأهل خشية الله . ﴿ **أو أشد خشية** ﴾ . أي : أو أشد خشية من أهل خشية الله . وأو في الآية للتخيير ، أي إن قلت خشيتهم الناس كخشية الله ، فأنت مصيب ، وإن قلت إنها أشدُّ فأنت مصيب ، لأنه حصل مثلها وزيادة . ولايعني هذا أن خشية الله عند أهلها ليست على كمالها حتى يكون عليها مزيد ، بل إن خشية الله عند أهلها يرافقها معرفة بجمال الله وفضله ، ولذلك فإن الخشية يرافقها عادةً رجاء ، أما هؤلاء فإن خشيتهم من الناس أعمت قلوبهم حتى لم يبق معها محل لغيرها ، ولذلك زادت على خشية الله . ﴿ **وقالوا ربنا لِمَ كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب** ﴾ . سألوا عن وجه الحكمة في فرض القتال عليهم ، لا اعتراضاً لحكمه بدليل أنهم أجيبوا على سؤالهم بما يأتي . وبدليل أنهم اقترحوا أن يؤخر فرضه عليهم إلى مدة أخرى . لقد طلبوا التأجيل ولو إلى أمد قريب ، رغبة في الحياة ، وتجنباً لسفك الدماء ، ويتم الأولاد وتئيّم النِّساء . وهي حالة مَرَضية ، عالجها الله تعالى ، بلفت النظر إلى حقيقة الحياة الدنيا ، وإلى حقيقة الموت . ﴿ **قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى** ﴾ . أي : متاع الدنيا قليل زائل . ومتاع الآخرة دائم ، والكثير إذا كان على شرف الزوال فهو قليل . فكيف بالقليل الزائل . وقيَّد كون الآخرة خيراً للمتقين لأنهم هم الذين في حقهم الآخرة خير من الدنيا أمّا الكافرون ، فإن الآخرة شر لهم من الأولى . ﴿ **ولا تُظْلَمون فتيلاً** ﴾ . هذا النص في سياقه يعني : أنكم لاتنقصون أدنى شيء من أجوركم على مشاقّ القتل ، فلا ترغبوا عنه . ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت** ﴾ . أي : أنتم صائرون إلى الموت . والموت واصل إليكم . والحذر لاينجي من القدر . ﴿ **ولو كنتم في بروج مُشيَّدة** ﴾ . أي : الموت يصل إليكم ، ولو كنتم في حصون أو قصور حصينة ، منيعة ، عالية ، رفيعة .

وبهاتين القضيّتين ، تعالج كراهية القتال ، وحب الحياة : معرفة حقيقة الدنيا بالنسبة للآخرة . ومعرفة أن الموت لايتقدم ، ولا يتأخر . ثم ذكر الله – عز وجل – مرضاً آخر ، وقع فيه هؤلاء الطالبون لتأخير فريضة القتال وهو مرض يصيب الكثيرين خاصة في حالات الصراع مع أهل الكفر عندما يصاب أهل الإيمان ، وكلٌ من المرضين يمكن أن يصاب به المسلمون في كل زمان ومكان . ﴿ **وإن تصبهم حسنة** ﴾ . أي : نعمة من خصب ورخاء . ﴿ **يقولوا هذه من عند الله** ﴾ . وهي كذلك . ولا اعتراض على هذا . ولكن الاعتراض على ما بعده . ﴿ **وإن تصبهم سيئة** ﴾ . أي : بليَّة من قحط

وشدة . ﴿ **يقولوا هذه من عندك** ﴾ أي : أضافوها إلى رسول الله ﷺ حين نزول الآية ، وفي كل عصر يمكن أن ينسبها أمثالهم إلى ورّاثه ﷺ والمعنى أن هؤلاء يعتبرون ماهم فيه من خير من الله ، وهذا صحيح . وما يصيبهم من شدة ، يعتبرون ذلك شؤماً سببه رسول الله ﷺ ، والجواب : ﴿ **قل كلٌ من عند الله** ﴾ . أي : كل ذلك من عند الله . فهو يبسط الأرزاق ، ويقبضها . وكل شيء فعله . ثم أنكر الله – عز وجل – عليهم اعتقادهم هذا بقوله : ﴿ **فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً** ﴾ . أي : لايكادون يفهمون حديثاً ، فيعلمون أن الله هو الباسط ، القابض . وكل ذلك صادر عن حكمه .

ثم بيَّن الله – عز وجل – تفصيل هذا الموضوع ، بما يجمع مابين معرفة الواقع : أن كل شيء صادر عن الله وبفعله ، وأن لنزول المصائب التي ينزلها بعباده أسباباً مع أن الكل فعله . ولكن فعله لايكون إلا مقروناً بالحكمة . فقال تعالى : ﴿ **ماأصابك من حسنة** ﴾ . أي : من نعمة ، وإحسان ﴿ **فمن الله** ﴾ . تفضلًا منه ، وامتناناً . إذ لأحد له عليه شيء . ﴿ **وما أصابك من سيئة** ﴾ . أي : من بليّة ومصيبة ، ﴿ **فمن نفسك** ﴾ . أي : فمن عندك أي : فبما كسبت يداك أيها الإنسان . ومن هنا عرفنا خطأ أولئك . فبدلًا من أن يرجعوا إلى الله رجوعاً عاماً ، عن معاصيهم ، ليرفع الله عنهم بأسه ، أرجعوا سبب المصائب إلى وجود رسول الله ﷺ وهو المعصوم وهو الرحمة . ولذلك ختمت هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ **وأرسلناك للناس رسولاً** ﴾ : فأنت رحمة ، وأنت معصوم ، وأنت مبلِّغ ، وعليهم أن يتركوا ما هم عليه مما يخالف رسالتك ، لينالوا بِرَّ الله ، وفضله ، لا أن يعصوك ، ثم يحمّلوك مسئولية ما ينزل عليهم . ﴿ **وكفى بالله شهيداً** ﴾ . أي : على أنه أرسلك وهو شهيد أيضاً ، بينك ، وبينهم . وعالم بما يكلفهم إياه . وبما يردون عليك من الحق ؛ كفراً ، وعناداً . وما أقل الفاهمين عن الله . وما أكثر المتقوِّلين على الله . ولعلنا لانحتاج إلى أي إيضاح إضافي حول ارتباط هذا المعنى الأخير بسياق مقطع القتال هذا . إذ من يقود المسلمين في صراعهم ، وقتالهم ، كثيراً ما ينسب إليه الذين في قلوبهم مرضٌ مسئولية مايصيبهم . وقد لايكون هو السبب ، وقد يكون أحياناً . ونحن نتكلم عن من يقود المسلمين قيادة راشدة ، كوارث لرسول الله ﷺ ، وفي هذا السياق – سياق القتال – يأتي الآن حديث عن الطاعة . ونحن نعلم أن كل من كتب في فنّ الحرب ، من كافر ، أو مسلم يجمع على أن أي جيش في العالم ، لا يستطيع أن يربح معركة ، ولا تستطيع أمة أن تربح في أي مجال من مجالات الحياة ، إلا

بانضباط ، وطاعة . ونحن المسلمين مكلَّفون بالطاعة بشرط أن تكون الطاعة مبصرة ، ولأهلها . ومن ثَمَّ تأتي الآيات الثلاث القادمة مُقرِّرةً ومعالجةً ومبيِّنةً . ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ... ﴾ : وذلك لأن رسول الله ﷺ ، لايأمر ولاينهى إلا بما أمر الله به ونهى عنه ، فكانت طاعته في أوامره ونواهيه طاعة لله ، ومن أدرك هذه الحقيقة ، أعطى رسول الله ﷺ منتهى الطاعة ، وكان في غاية الانضباط ، وهذا ماكان ، وهذا مظهر من مظاهر المعجزة التي خلقها الله على يد رسوله ﷺ في أُمَّة العرب ، وقد أدخل رسول الله ﷺ في هذه الطاعة التي تعني طاعة الله في النهاية ، طاعة الأمراء كما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ : « من أطاعني فقد أطاع الله . ومن عصاني ، فقد عصى الله . ومن أطاع الأمير ، فقد أطاعني . ومن عصى الأمير وهناك - رواية يقول : ومن عصى أميري-فقد عصاني » . والملاحظ في هذا الحديث على إحدى رواياته ، أنه أطلق لفظ الأمير . والمراد به الأمير المسلم ، المؤمّر بالحق والسائر بالحق والقائم بالحق ، وأوَّل من يدخل في ذلك ، أمراء رسول الله ﷺ . وأمراء الخلافة الرّاشدة . ﴿ **ومن تولى** ﴾ . أي : ومن أعرض عن الطاعة : ﴿ **فما أرسلناك عليهم حفيظاً** ﴾ . أي : فما أرسلناك عليهم تحفظ أعمالهم ؛ وتحاسبهم عليها وتعاقبهم . بل أمر ذلك إلى الله ، وفي ذلك تهديد لمن أعرض عن الطاعة . ثمَّ أخبر تعالى عن حال المنافقين من كونهم يظهرون الموافقة والطاعة . ويبيتون الخلاف ، والعصيان . ﴿ **ويقولون طاعة** ﴾ . أي : ويقول المنافقون إذا أمرتهم بشيء : أمرنا وشأننا طاعة . ﴿ **فإذا برزوا** ﴾ . أي : خرجوا . ﴿ **من عندك بَيَّتَ طائفةٌ منهم غير الذي تقول**﴾ . بيَّت : بمعنى : زوَّر وسوّى من البيتوتة ، لأنه قضاء الأمر وتدبيره بالليل . والمعنى : زوّر طائفة منهم في أنفسهم خلاف ماقلت وما أمرت به ، أو خلاف ماقالت ، وما ضمنت من الطاعة ، لأنهم أبطنوا الرد لاالقبول ، والعصيان لا الطاعة ، وإنما ينافقون بما يقولون ويظهرون . ﴿ **والله يكتب ما يُبيِّتون** ﴾ . أي : والله يُثبت ما بيَّتوه في صحائف أعمالهم ويجازيهم عليه ﴿ **فأعرض عنهم** ﴾ . أي : فتولَّ عنهم ﴿ **وتوكل على الله** ﴾ في شأنهم ، فإن الله يكفيك مضرتهم ، وينتقم لك منهم ، ويتولى أمرهم ﴿ **وكفى بالله وكيلًا** ﴾ كافياً لمن توكل عليه . أمره في مقابل عملهم أن يجمع بين التوكل عليه ، والإعراض عنهم ، ثم بيَّن علَّة مَرَضهم ، وهو عدم التدبر لكتاب الله . وهذا يعني أنه بقدر ما تُربّى الأمَّة على التّدبُّر لكتاب الله ، ينمو الانضباط الضحيح ، والطاعة المبصرة . ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن** ﴾ . أي : أفلا يتأمَّلون معانيه ومبانيه . والتدبر : التأمل والنظر في أدبار الأمر

وما يؤول إليه في عاقبته . ثم استعمل في كل تأمل . والتفكر : تصرف القلب بالنظر في الدلائل ثم قال تعالى : ﴿ **ولو كان من عند غير الله** ﴾ كما يزعم الكفرة ﴿ **لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ . أي : لوجدوا فيه تناقضاً كبيراً في معانيه ، بينما نجد معانيه يكمِّل بعضها بعضاً في التوحيد ، والتحليل والتحريم ، والتربية والإخبار . أو المعنى : لوجدوا فيه تفاوتاً من حيث البلاغة ، فكان بعضه بالغاً حد الإعجاز ، وبعضه قاصراً عنه يمكن معارضته ، أو لوجدوا فيه تفاوتاً كثيراً من حيث المعاني ، فكان بعضه إخباراً بغيب قد وافق المخبَر عنه ، وبعضه إخباراً مخالفاً للمخبَر عنه ، وبعضه دالاً على معنى فاسد غير ملتئم ، أو هذا كله . وفي كتابنا – الرسول ﷺ – في بحث المعجزة القرآنية ذكرنا شيئاً عن هذا ، فليراجَع .

فائدة :

استدل علماؤنا بهذه الآية فردّوا على بعض الطوائف التي تقول : إن القرآن لايفهم معناه إلا بتفسير الرسول ﷺ والإمام ، واستدلوا بها على صحة القياس . أما هي في سياقها فإنها تشير إلى مظهر من مظاهر الإعجاز في القرآن الذي يقطع شك الشاكين ، ويزيل تردد المترددين في أمر طاعة الرسول ﷺ . وقد ذكرنا من قبل أن تدبُّر القرآن هو الطريق لتربية الأمة الإسلامية على الطاعة والانضباط .

ثمَّ ذكر الله – عز وجل – قضية أخرى مهمة في موضوع الحرب والقتال ، لها علاقة بحرب الإشاعات ، والحرب النَّفسية ، تحدث عنها ، ووضع علاجها . فالله – عز وجل – يريد من هذه الأمة أن تكون لديها مناعة ضد الحرب النفسية وضد حرب الإشاعات ﴿ **وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به** ﴾ . الإذاعة : الإفشاء والنَّشر ، والأمن : السلامة والسلم ، والخوف : الخلل ، أو الخطر ، أو الهزيمة ، أو الإصابة . والمراد أن هناك ناساً إذا بلغهم الخبر عن سرايا المسلمين وجيوشهم ، كانوا يشيعونه ويذيعونه ، فيترتب على ذلك خلل في المجتمع الإسلامي ، ولذلك فقد ربىَّ الرسول ﷺ المسلمين على التَّثبُّت ، ففي الصحيحين « أنَّ رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال » أي الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبّر، وفي الصحيح : « من حدَّث بحديث ، وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » ، وفي سنن أبي داود « بئس مطيّة الرجل زعموا » .

وههنا في الآية ، بعد أن أنكر الله – عز وجل – على من يروّج الإشاعات في المجتمع

الإسلامي ، بيَّن الطريق العملي ، والموقف الصحيح من هذه الإشاعات ، فقال : ﴿ **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم** ﴾ . أي : ولو ردوا الخبر أو الإشاعة إلى رسول الله ﷺ في حياته ، وكبار أصحابه البصراء في الأمور في زمانه ، أو لو ردوه إلى خلفائه ، وأمراء المسلمين من بعده ﴿ **لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ . أي : لعلم تدبير ماأخبروا به الذين يستخرجون تدبيره ، وما ينبغي فعله ممن عندهم قدرة على ذلك بفطنتهم ، وتجاربهم ، ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها . دلّت الآية على أن هناك أناساً عندهم قدرة على الاستنباط للحلول والأحكام لما يجدّ أو يحدث ، أو يقع . وقد فسَّرنا الآية بما مر ، وهو أحد اتجاهين في تفسيرها ، فعلىٰ هذا الاتجاه الذي ذكرناه ، هي في الإشاعات التي تصل إلى المجتمع الإسلامي بشكل من الأشكال ، مما يخدم مصلحة العدو ، وعلاج ذلك هو ترك أمر معالجة هذه الإشاعات إلى أمراء المسلمين ، وإهمال الإشاعة ، وعدم التحدّث عنها ، وفي ذلك إماتتها . وفي قوله تعالى : ﴿ **ولو ردوه** ﴾ إشارة إلى أن إبلاغ الإشاعة إلى الرّسول ﷺ ، وإلى أولي الأمر لا مانع منه ، ولكن إشاعة الأمر وتداوله هو الخطأ . وهناك اتجاه آخر في تفسير الآية وهو كذلك قضية ينبغي أن تلاحقها الجماعة المسلمة، هذا الاتجاه هو : أن بعضهم كانوا يقفون من رسول الله ﷺ وأولي الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء ، أو على خوف واستشعار فيذيعونه فينتشر ، فيبلغ الأعداء ، فتعود إذاعة الخبر الفاسد بالشر ، ولو ردوه إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر منهم ، وفوَّضوه إليهم ، وكانوا كأن لم يسمعوا ، لأعطوا الذين يدبرون الأمور ويديرونها ، ويخططون لها ، فرصة الإدارة الصالحة ، فيعرفون ما يأتون وما يذرون . وهذا اتجاه في التفسير ينبغي أن يلاحظ تطبيقه . والنبط : هو الماء الذي يخرج من البئر أول ماتحفر ، واستنباطه استخراجه ، فاستعير لما يستخرجه الرجل بفضل ذهنه من المعاني والتدابير فيما يفعل . وبعد أن ذكر الله - عز وجل - هذه القضية المهمَّة في شأن القتال ، ذكر أن الاستعداد النفسي عند الإنسان يوصله لاتباع الشيطان في هذه القضايا وغيرها ، لولا أن الله قضت حكمته أن يتدارك المسلمين بفضله ، ويتولاهم ، وفي ذلك إشارة إلى أن نشر الإشاعات من الشيطان ، وفي ذلك إشارة إلى ضرورة الشعور بفضل الله ورحمته ، والتوكل عليه ، لأنه مولى المؤمنين ، ﴿ **ولولا فضل الله عليكم** ﴾ بتزكيته لكم ﴿ **ورحمته** ﴾ بإرسال رسوله ﷺ ، وإنزال كتابه ، وحفظه لكم ، ﴿ **لاتّبعتم الشيطانَ** ﴾ فيما يوسوس ﴿ **إلا قليلا** ﴾ . أي : إلا قليلًا منكم ، وهم من صفت فطرتهم ، بما فطرهم الله عليه من كمال عقل . وقال ابن

عباس في تفسيرها : لاتبعتم الشيطان كلكم ، لأن القليل في اللغة يطلق على العدم .

فائدة : في الحديث المتفق عليه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلّق نساءه ، فجاء من منزله حتى دخل المسجد ، فوجد الناس يقولون ذلك ، فلم يصبر حتى استأذن على النبي ﷺ ، فاستفهمه أطلّقت نساءك ؟ فقال : لا . فقلت : الله أكبر . وذكر الحديث بطوله . وعن مسلم : فقلت أطلقتهن ؟ فقال : لا . فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي ، لم يطلّق الرسول ﷺ نساءه ، فنزلت هذه الآية ﴿ **وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه** ... ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر . نفهم من هذا أن الاستنباط ، وردّ الأمر إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر ليس خاصاً في قضايا القتال التي فهمناها من خلال السياق . وإذا لاحظنا أن أولي الأمر في المقطع السابق فسِّرت بالعلماء على أحد أوجه التفسير ندرك وجاهة من يُدخل في هذه الآية قضية الاجتهاد الذي هو استنباط الأحكام لما يجدُّ ، وقضية المجتهدين الذين أهّلتهم ملكَاتهم وعلمهم وتقواهم لاستنباط الأحكام .

وبعد أن أمر الله - عز وجل - في هذا المقطع أمراً عاماً للمؤمنين جميعاً أن يقاتلوا على طريقة حرب العصابات ، أو على طريقة الحرب النظامية ، أو على حسب مقتضيات الجهاد ، وعاب على المتباطئين والمثبّطين ، وعالج مرض الراغبين في تأخير القتال ، وربّى المسلمين على الطاعة والصمت ، والكتمان ، يُصدر الآن أمراً لكل فرد على حدة من خلال الأمر لرسول الله ﷺ أن يقاتل ، وأن يحرِّض المسلمين على القتال ، مبيِّناً أنَّ بأس الكافرين لاينكف إلا بذلك ، قال : ﴿ **فقاتل في سبيل الله لاتكلَّف إلا نفسك** ﴾ . أي : لا تكلَّف غير نفسك وحدها أن تقدِّمها إلى الجهاد ، فإن الله تعالى ناصرك لا الجنود . والمعنى : وإن أفردوك وتركوك وحدك ، فقاتل . ﴿ **وحرِّض المؤمنين** ﴾ . أي: حُضّهم على القتال ورغِّبهم فيه ، وشجِّعهم عليه ﴿ **عسى الله أن يكُفَّ بأس الذين كفروا** ﴾ . أي : عسى الله بتحريضك على القتال ، وقتالك ، أن يكف بطش الذين كفروا وشدَّتهم ، وعسى كلمة مطمعة ، غير أن إطماع الكريم أعْوَد من إنجاز اللئيم ﴿ **والله أشد بأساً** ﴾ من الكافرين ﴿ **وأشد تنكيلًا** ﴾ أي : وأشد تعذيباً ، يفهم من ذلك : أن بأس الكافرين شديد ، وتنكيلهم بالمؤمنين شديد ، ولكن بأس الله وتنكيله أشد . وقد دلّت الآية أن بأس الكافرين الشديد ، وتنكيلهم الشديد بالمؤمنين ،

لاينكفّان إلا بقتال ، وتحريض على القتال بالخطب والمحاضرات وبالنشرات والرسائل ، والكتب ، ليرتفع عن المؤمنين بأس الكافرين وتنكيلهم .

فوائد :

١ - أخرج ابن أبي حاتم عن أبي إسحق قال : سألت البراء ابن عازب عن الرجل يلقى المائة من العدو فيقاتل ، فيكون ممن قال الله فيه : ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ؟ قال : قد قال الله لنبيِّه : ﴿ **فقاتل في سبيل الله لاتكلف إلا نفسك وحرِّض المؤمنين** ﴾ رواه الإمام أحمد بنفس المعنى مع زيادة ، وإنما ذكرنا هذه الفائدة ليعلم أن الصحابة فهموا أن هذا الأمر للأمة كلها لا لشخص رسول الله ﷺ وحده .

٢ - من أمثلة تحريضه عليه الصلاة والسلام للمؤمنين على القتال ، قوله عليه الصلاة والسلام يوم بدر : « قوموا إلى جنة عرضها السمٰوات والأرض » ومن ذلك ما رواه البخاري في التحريض على الجهاد المندوب . قال رسول الله ﷺ : « من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وصام رمضان ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، هاجر في سبيل الله ، أو جلس في أرضه التي ولد فيها »- هذا حيث لا تكون الهجرة واجبة - قالوا : يارسول الله : أفلا نبشِّر الناس بذلك فقال : « إنَّ في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ، بين كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله ، فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة . وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجَّر أنهار الجنة » . أقول : هذا في الجهاد المندوب ، أما إذا كان الجهاد فرضاً فجزاء تاركه النار إلا أن يشاء الله - عزوجل - والآن تأتي ثلاث آيات في مقطع القتال هذا ، لاعلاقة لها في الظاهر بموضوع القتال ، ثم تأتي آيات لها علاقة بالقتال ، فما الحكمة في مجيء هذه الآيات ضمن هذا السياق ؟ كنّا ذكرنا أكثر من مرَّة أن من مظاهر حكمة الله في القرآن ، ومن مظاهر الإعجاز ، أنك تفهم من النّص شيئاً ، ومن سياقه القريب شيئاً ، ومن سياقه العامّ شيئاً ، وأن هذا كله يكمِّل بعضه بعضاً ، وهذا يسبِّبُ توالداً في المعاني القرآنية فلا تتناهى ، فالآيات الثلاث هنا مرتبطة بمعاني القتال كما سنرى ، وهي تعطي معاني مقصودة بذاتها ﴿ **من يشفع شفاعة حسنة** ﴾ الشفاعة الحسنة هي : ماكانت في دفع شر ، أو جلب نفع مع جوازها شرعاً ﴿ **يكن له نصيب منها** ﴾ . أي : من ثوابها ، والمعنى : أن من يسعى في أمر فيترتب

عليه خير كان له نصيب من ذلك الخير ، وقد ثبت في الصحيح عنه (عليه الصلاة السلام) أنه قال : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيِّه ماشاء » . قال مجاهد ابن حبير: نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض . ﴿ **ومن يشفع شفاعة سيئة** ﴾ . الشفاعة السيئة : ما كانت في جلب ضر ، أو دفع نفع ، أو كانت غير جائزة شرعاً . ﴿ **يكن له كِفْل منها** ﴾ . أي : يكن عليه نصيب من إثمها ﴿ **وكان الله على كل شيء مقيتاً** ﴾ . أي : مقتدراً من أقات على الشيء : اقتدر عليه ، أو حفيظاً من القوت ، لأنه يمسك النفس ، والحفيظ : شهيد وحسيب . فما محل هذه الآية في السياق ؟ قال النسفي : قال ابن عباس - أي في هذه الآية - ما لها مفسر غيري . معناه : من أمر بالتوحيد وقاتل أهل الكفر « أي : فقد شفع شفاعة حسنة » . وإنما نقلنا كلام ابن عباس هذا ليعلم أن من المفسرين من فهم هذه الآية على ضوء السياق . وعلى هذا فإن ابن عباس يفهم أن الشفاعة الحسنة هي القتال في سبيل الله ، وذلك لأنها وحدها تنقذ المستضعفين وأمثالهم . وأن الشفاعة السيئة هي القتال في سبيل الشيطان ؛ لما يترتب عليه من ظلم لأهل الإيمان . ويمكن أن نفهم الصلة بين هذه الآية وماقبلها من حيث إن القتال يترتب عليه أسر ، أو سجن ، أو مصائب لأهل الإيمان ، أو لأهليهم ، فجاءت الآية تحضّ من يستطيع الشفاعة أن يشفع . ﴿ **وإذا حيّيتم بتحية فحيُّوا بأحسنَ منها أو ردوها** ﴾ . أي : إذا سلَّم عليكم المسلم فردُّوا عليه أفضل ممَّا سلَّم ، أو ردُّوا عليه بمثل ماسلَّم ، فالزيادة مندوبة ، والمماثلة مفروضة . وفسِّرت التحية بالسَّلام لأنها هي التّحية في ديننا في الدنيا وفي الآخرة . ﴿ **إن الله كان على كل شيء حسيبا** ﴾ . أي : يحاسب على كل شيء من التحية وغيرها . والآن ، ما الصِّلة بين هذه الآية وسياقها ؟ يقول صاحب الظلال : لعلّ المراد منها أن يشار إلى قاعدة الإسلام الأساسية : السلام .. فالإسلام دين السلام وهو لايقاتل إلا لإقرار السلام في الأرض بمعناه الواسع الشامل ، السلام الناشيء عن استقامة الفطرة على منهج الله » .

ومما يمكن أن يقال عن الصلة : الإسلام أمرنا أن نعامل بعضنا البعض بمكارم الأخلاق ، ومن ذلك إفشاء السلام لما يترتب على ذلك من محبَّة . قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه أبوداود « والذي نفسي بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا ، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم » . ووجود المحبة داخل المجتمع الإسلامي شرط أساسي لإمكانية القتال ، ومن مظاهر الصلة بين هذه

الآية والسياق أن في الآية إشارة نأخذها من السياق وهي : أنه إذا ظهرت بادرة أخلاقيَّة من عدوِّنا فينبغي أن نقابلها بمثلها ، أو بأحسن منها ، والله أعلم .

فوائد :

١ - يستثنى من عموم الآية في الردِّ بالمثل أو بالأحسن غير المسلم . ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « لاتبدؤوا اليهود والنصارى بالسّلام ، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلي أضيقه » . وفي الصحيحين عنه عليه الصلاة والسلام « إذا سلَّم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم : السامُّ عليكم ، فقل : وعليكم » نفهم من هذا أن ابتداء غير المسلم بالسّلام في الأصل لايجوز ، أما الردُّ فيجب ولكن بـ (وعليكم) فقط . قال ابن عباس : من سلَّم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسياً ، ذلك بأن الله يقول : ﴿ **فحيُّوا بأحسن منها أو ردوها** ﴾ . واستثنى الحنفية من حالة عدم الجواز في البداءة لغير المسلم في السَّلام ، حالة ما إذا كان للمسلم حاجة ، فيصح له البداءة بالسلام للذمي ، (راجع الهدية العلائية ص ٢٦٠) . أقول : يبدو أن الأوزاعي يعتبر أن الأوامر بمنع الابتداء بالسلام للذمي والتضييق عليه في الطريق أوامر يوميّة يقتضيها ظرف معيَّن ، ولذلك يجيز الابتداء بالسّلام للذمي .

٢ - روى ابن جرير عن سلمان الفارسي قال : « جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ وقال : السلام عليك يارسول الله ، فقال : « وعليك السلام ورحمة الله ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يارسول الله ورحمة الله ، فقال له الرسول ﷺ وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته . فقال له : وعليك ، فقال الرجل : يانبي الله بأبي أنت وأمي ، أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما ، أكثر مما ردّدت علّي ، فقال : إنك لم تدع لنا شيئاً ، قال الله تعالى : ﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيُّوا بأحسن منها أو ردوها** ﴾ فرددناها عليك » .

قال ابن كثير : وفي هذا الحديث دلالة على أنه لازيادة في السَّلام على هذه الصفة ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول الله ﷺ . وقال النسفي : ويقال : لكل شيء منتهى ، ومنتهى السلام ، وبركاته . وروي من طرق في أكثر من كتاب من كتب الحديث « أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : « السَّلام عليكم يارسول الله ، فردَّ عليه ثم جلس فقال : عَشر ، ثم جاء آخر فقال :

السَّلام عليكم ورحمة الله يارسول الله ، فردّ عليه ثم جلس ، فقال : عشرون . ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد عليه ثم جلس ، فقال : ثلاثون » رواه أبوداود والترمذي وغيره .

٣ – قال صاحب الهديّة العلائية من الحنفية : « ويكره السَّلام على الفاسق لو معلناً وإلا لا يكره ، كما يكره على عاجز على الرد حقيقة كآكل ، أو شرعاً كمصلٍ ، وقارىء ، وذاكر ، وخطيب ، ومن يصغي إليهم ، ومكرر فقه ، ومن يفصل الأحكام بين الناس حالة الدعوى ، وحالة مذاكرة العلم الشرعي ، ومؤذن ومقيم ، ومدرس ، ومن جلس للصلاة والتسبيح ، ومن يلبّي ، والأجنبيّات الفتيات ، وعلى من يلعب لعباً غير مباح ، ومن يغتاب الناس ، أو يطيرِّ الحمام ، والشيخ الممازح ، والكذَّاب ، واللاغي ، ومن يسبُّ الناس ، أو ينظر وجوه الأجنبيات ، مالم نعرف توبتهم ، ومن يتمتع مع أهله ، ومكشوف عورة ، ومن هو في حال قضاء البول ، أو التغوط أو ناعس ، أو نائم ، أو في الحمَّام ، فلا يجب الرد في كل محل لا يشرع فيه السلام ، إلا في الفاسق فينبغي وجوب الرد عليه ولا يجب رد سلام الطفل أو السكران ، أو المجنون ، ولا في قوله « سلامْ عليكم » « بسكون الميم في سلامْ » . وقوله سلام الله عليكم دعاء لاتحية ... يكره إعطاء سائل المسجد إذا تخطىَّ رقاب الناس ، أو مرَّ بين يدي المصلين لأنه إعانة على أذى الناس وإلا لا يكره ... وإن سلَّم ثانياً في مجلس واحد لايجب رد الثاني ، وقال الحنفية : وينوي بالسَّلام تجديد عهد الإسلام وأن لاينال المؤمن بأذى في عرضه وماله . وتتمة أحكام السلام نعرضها في كتابنا – الأساس في السنة وفقهها – ولنرجع إلى السياق :

﴿ **الله لا إله إلا هو** ﴾ فله الألوهية وحده . ﴿ **ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لاريب فيه** ﴾ هذا قَسَمٌ منه سبحانه أنه سيجمع الأوَّلين والآخرين في صعيد واحد ، فيجازي كل عامل بعمله ، وأن هذا الجمع لاريب فيه ، ولاشكّ . وسمِّي يوم القيامة بذلك ، لقيام الناس فيه من قبورهم ، أو لقيام الناس للحساب ﴿ **ومن أصدق من الله حديثاً** ﴾ هذا استفهام بمعنى النَّفي ، أي لا أحد أصدق منه في إخباره ، ووعده ، ووعيده ، لاستحالة الكذب عليه ، لأن الكذب : إخبارٌ عن الشيء بخلاف ماهو عليه ، وهو محال في حقه تعالى ، وقد جاء هذا النّفي بعد الإخبار عن وحدانيته ، وبعد القسم على جمعه الناس يوم القيامة ، فليلاحظ ، فياويح من فاته التوحيد ، وفاته الإيمان باليوم الآخر .

ومجيء هذه الآية في وسط المقطع الذي موضوعه القتال يذكّرنا بالغاية من القتال ويحضنا ويهيّجنا عليه .

﴿ **فما لكم في المنافقين فئتين** ﴾ . أي : فما لكم اختلفتم في شأن قوم قد نافقوا ظاهراً ، وتفرّقتم فيهم فرقتين ، ومالكم لم تقطعوا القول بكفرهم . هذا قول النسفي . وروى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت أنّ رسول الله ﷺ لمّا خرج إلى أحد ، فرجع ناس ، خرجوا معه . فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين . فرقة تقول : نقتلهم . وفرقة تقول : لا ، فأنزل الله : ﴿ **فما لكم في المنافقين فئتين** ﴾ . فقال رسول الله ﷺ : « إنها طيبة ، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة » . وأخرجاه في الصحيحين . فالحكم فيهم القتل والمرجع في ذلك إلى رسول الله ﷺ . فإن شاء قتل ، وإلا ترك إذا وجد مصلحة ؛ معاملة لهم بظواهرهم . وإذ كان كذلك فما كان ينبغي ، ولا ينبغي أن يفترق المسلمون في الموقف . ومن هذا النص ، نفهم أن مواقف المسلمين ينبغي أن تكون واحدة . وكيف لاتكون ، والكتاب والسنّة موجودان ، والشورى مقرّرة ، والقيادة على ضوء ذلك كله تتخذ القرار الملزم . ﴿ **والله أركسهم بما كسبوا** ﴾ أركس هنا بمعنى : أوقع ، وردَّ ، وأهلك ، وأضلَّ . أي : والله ردَّهم إلى حكم الكُفَّار بسبب كسبهم السيء الظاهري والباطني . فعاقبهم الله على ذلك ، بردِّهم إلى الكفر . ومن ثم كان حكمهم جواز القتل . ﴿**أتريدون أن تهدوا من أضل الله** ﴾ . أي : أتريدون أن تجعلوا من جملة المهتدين من جعله الله ضالاً ، فأركسه ، وحكم بكفره ، وأجاز قتله . وذلك باللين معهم ومسايرتهم . أو المعنى : أتريدون أن تسمُّوهم مهتدين ، وقد أظهر الله ضلالهم . فيكون النص إنكاراً على وصف المنافقين بالمهتدين والمؤمنين بعد إذ تبيَّن أمرهم . وعلى المعنى الأول : فالنَّص إنكار على من يريد أن يلين مع المنافقين بعد إذ تبيَّن له نفاقهم الكامل . ﴿ **ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً** ﴾ . أي : ومن شاء الله إضلاله ، بسبب عمله ، فلا طريق له إلى الهدى ، ولا مخلص له إليه ، ويمكن أن يفهم النص فهمًا آخر . وهو : أن من شاء الله إضلاله ، فلن تجد له طريقاً ما . بل هو خابط في كل طريق ، وعلى غير هدى ، فليس له سبيل واضح . ويكون هذا علامة على المنافق ، فمن علاماته ، تقلبه ، وتناقضه . فهو اليوم على غير ماهو عليه بالأمس ، وما يقوله الآن غير مايقوله وما سيقوله . ﴿ **ودُّوا لو تكفرون كما كفروا** ﴾ . أي : ودَّ هؤلاء المنافقون ، لو تكفرون ، كفراً مثل كفرهم . فهم يَوَدُّون الضلالة للمسلمين ، ليستووا هم ، وإياهم فيها . دلَّ هذا على ماذكرناه سابقاً ، أن الفئة

التي لم تر القتل هي الخاطئة المعاتَبة في هذه الآيات . ﴿ **فتكونون سواء** ﴾ . أي : ودّوا كفركم لتكونوا أنتم وهم مستوين في الكفر . ﴿ **فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله** ﴾ . أي : فلا توالوهم حتى يؤمنوا ، لأن الهجرة في ابتداء الإسلام كانت هي الإعلان العملي عن الإسلام . لأنها دخول إلى دار الإسلام وموالاة عملية لأهله . فكأن الله – عز وجل – نهانا أن نتخذ منهم أولياء ، إلا بعد إعطائهم الولاء الكامل للإسلام ، وأهله ، وداره قولاً ، وعملاً ، والقضية التي تلفت النظر هنا ، هي ذكر عدم التولي حتى تكون الهجرة ، مع أن السياق في المنافقين ، وهم يخالطون المسلمين في المدينة . والجواب على هذا – والله أعلم – هو أن ذكر الهجرة في هذا المقام ، أفاد شيئين ، الأول : أن غير المهاجر ولو ادّعى الإسلام ، فإنه مادام مكثِّراً لسواد الكافرين ، عاملاً في ظلهم ، منفِّذاً لأوامرهم ، فهو منافق ، مالم يكن مستضعفاً ، مستكرهاً ، وهذا حيث وجبت الهجرة وكانت مستطاعة . والثاني : أن من خالط المسلمين ، وعاش في دارهم ، فحكمه حكم من لم يهاجر ، إذ إنه لم يعط لازم الهجرة ، من الولاء والطاعة لأهل الإسلام وداره وقيادته ، ولم يعاد أعداء الله ويقطع عنهم الولاء . ﴿ **فإن تولوا** ﴾ . أي : فإن أعرضوا عن الإيمان . وقال ابن عباس : أي : تركوا الهجرة . وقال السدي : أي : أظهروا كفرهم . والمعاني الثلاثة ، متكاملة في محلها . في النّص والسياق ، فالمنافق هو الموالي لأهل الكفر في دارهم ، أو في دارنا ، المُعْرض عن إعطاء الولاء لله ورسوله والمؤمنين . فهذا جزاؤه القتل . ﴿ **فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً** ﴾ . فههنا أمر ، ونهي ، في حق هؤلاء المنافقين ، أمر بقتلهم حيثما وُجدوا ، ونهي عن اتخاذهم أولياء ، ونُصراء . فليفهم هذا الحكم من لم يفهم حتى الآن ، أن من أعطى ولاءه للكافرين ، والمنافقين ، جزاؤه القتل ، والإعراض ، والرفض . أما أن يتخذ ولياً ، ونصيراً ، وصديقاً ، وبطانة ، ومستودع سر ، وأحياناً قائداً فكيف يكون ذلك إلا من جاهل أحمق ، أخرق ، أو منافق ضَال خدّاع . وإذن فحكم المنافقين في الأصل في وجوب قتلهم حيث كانوا ، كحكم المشركين في وجوب قتلهم حيث كانوا ورفض ولايتهم ونصرتهم ؛ لأنها كاذبة خادعة ، لاتنبع عن صدق وإيمان. وإنما قلنا بوجوب قتل المنافقين في الأصل من حيث إنه كافر مرتدّ فيجب قتله ولكن لأن المنافق في دار الإسلام له وضعه الخاص فلا يقتل إلا إذا أظهر نفاقه أو أمر الإمام بقتله ببيّنة . ويحتمل قوله تعالى : ﴿ **ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً** ﴾ . أي : لاتعطوهم نصرتكم ، ولا تقبلوا منهم نصرة . وبهذه الآية والتي

قبلها ، بيَّن الله – عز وجل – الحكم الأصلي في المنافقين ، وهو القتل ، وعدم إعطائهم النصرة ، وعدم قبولها منهم حتى يكونوا مؤمنين حقاً ، علماً وعملاً . وبعد أن ذكر الله – عز وجل – الحكم الأصلي في المنافقين ، ذكر صوراً تدخل تحت هذا الحكم . وصوراً مستثناة من هذا الحكم . فذكر من يستثنى من هذا الحكم في الآية اللاحقة وذكر من يدخل تحت هذا الحكم في الآية التي تليها . ﴿ **إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ . هذه أول الصُوَر المستثناة من حكم القتل . صورة من لجأ وتميّز إلى قوم بينهم وبينكم مهادنة ، أو عقد . فإن حكمهم ، كحكمهم . كما حدث يوم الحديبية . إذ كان من جملة بنود الصلح ، أن من أحبَّ أن يدخل في صلح قريش ، وعهدهم دخل ومن أحب أن يدخل في صلح محمد ﷺ وأصحابه دخل . فيكون المعنى بعد فهم هذه الصورة المستثناة : فاقتلوهم ، إلا من اتصل بقوم بينكم وبينهم ميثاق . أي : إلا الذين ينتهون إلى قوم بينكم وبينهم عهد ، أو يتصلون بهم . وهناك مثال يذكره النسفي من السيرة على هذا : أن هلال بن عويمر الأسلمي ، وادع رسول الله ﷺ قبل خروجه إلى مكة ، على ألا يعينه ، ولا يعين عليه ، وعلى أن من وصل إلى هلال ، والتجأ إليه ، فله من الجوار مثل الذي لهلال . » والصورة الثانية من الصور المستثناة من الأمر بالقتل :

﴿**أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم**﴾ . الحَصر : الضيق ، والانقباض . والمعنى : واقتلوهم إلا من كان ممسكاً عن قتالكم ، أوقتال قومه ، بسبب ضيق نفسه عن هذا ، وهذا . فهؤلاء قوم آخرون ، مستثنون من الأمر بالقتال . وهم الذين تضيق صدورهم أن يقاتلوا المسلمين . ولا يستريحوا أن يقاتلوا قومهم معكم . بل هم لا لكم ولا عليكم، وضرب ابن كثير مثالاً لهؤلاء فقال : وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين . فحضروا القتال وهم كارهون ، كالعباس ، ونحوه . ولهذا نهى النبي ﷺ عن قتل العباس ،وأمر بأسره . وهناك مثال آخر ينطبق على هذه الحالة . وقد ذكره ابن كثير كنموذج للحالة الأولى . ونراه لهذه الحالة . وهذا هو المثال : أخرج ابن أبي حاتم أن سراقة بن مالك المدلجي قال : لما ظهر النبي ﷺ على أهل بدر ، وأحد . وأسلم من حولهم . قال سراقة بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي ، بني مدلج . فأتيته ، فقلت : أنشدك النِّعمة ، فقالوا : صَه ، فقال النبي ﷺ « دعوه . ماتريد ؟» . قال : بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي ، وأنا أريد أن توادعهم ، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في

الإسلام ، وإن لم يسلموا لم تَخْشُن قلوب قومك عليهم ، **فأخذ** رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد فقال : « **اذهب معه ، فافعل مايريد** » . **فصالحم** خالد على أن لايعينوا على رسول الله ﷺ . وإن أسلمت قريش ، أسلموا معهم ... » .

ونحب أن نشير هنا إلى أن هاتين الصورتين المستثنيتين هنا ، إنما تتصوران في المنافقين الموجودين خارج دار الإسلام ، أو خارج دولته ، والله أعلم . ولنلاحظ أن من لم يربط مصيره بمواقف المسلمين فإن النص يعامله كمنافق .

ثم بيَّن الله – عز وجل – المنَّة ، والحكمة في هذا الحكم ، وفي وجود هذا الصنف من الناس ، فقال : ﴿ **ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم** ﴾ . أي : من لطف الله بكم أن كفَّهم عنكم ، وإلا فلو شاء الله لقوَّى قلوبهم ، وأزال عنها الحصر ، فقاتلوكم . ثمَّ أكّد الله – عز وجل – استثناء الأمر بقتالهم بقوله : ﴿ **فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم** ﴾ . أي : فإن لم يتعرضوا لكم بقتال . ﴿ **وألقوا إليكم السَّلم** ﴾ . أي : وأعطوكم السلام والمسالمة . ﴿ **فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً** ﴾ . أي : طريقاً إلى القتال . أي : فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك .

في هذه الآية ذكر الله – عز وجل – حالتين ، استثناهما من الأمر بالقتال . وتأتي الآن آية فيها صورة داخلة في الأمر بالقتال . هي من حيث الظاهر ، تشبه الصورة الأخيرة الواردة في الآية السابقة . ولكنها تختلف عنها في الحقيقة . ﴿ **ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم** ﴾ . هؤلاء في الظاهر كما قلنا ، يشبهون المذكورين في الآية السابقة . ولكنهم في الواقع غيرهم . فإن هؤلاء قوم منافقون ، يظهرون للنبي ﷺ ، ولأصحابه الإسلام ، ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم ، وأموالهم ، وذراريهم . ويصانعون الكفار في الباطن . فيعبدون معهم مايعبدون ليأمنوا بذلك عندهم . وهم في الباطن مع الكافرين . فالأوّلون إذن ، مخلصون في موقفهم المحايد . أما هؤلاء ، فهم في الحقيقة مع الكافرين ، ويتظاهرون أمام المؤمنين بغير ذلك ، بدليل تتمة الآية : ﴿ **كلما رُدُّوا إلى الفتنة أُرْكِسُوا فيها** ﴾ . أي : إذا ردَّهم قومهم إلى الافتتان عن الإسلام ، بإظهار الشرك ، والكفر ، يفعلون ، وينهمكون ، ويزيدون على ذلك أن يصانعوا قومهم ، فيؤذوا المسلمين ، ويقاتلوهم ، ويقتلوهم ، قال النسفي : أي كلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه ، وكانوا شراً فيها من كل عدوٍّ . هؤلاء أمر الله – عز وجل – المسلمين أن يوقفوهم عند حدهم فقال : ﴿ **فإن لم**

يعتزلوكم ويلقوا إليكم السَّلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ .
أي : حيث وجدتموهم فتمكنتم منهم ، وظفرتم بهم فاقتلوهم . ألزمهم بثلاثة أشياء مجتمعة ، فإن أدُّوها كان بها ، وإلا فقد أمر بقتلهم . ١ - اعتزال قتال المسلمين ٢ - إعطاء الإسلام الكامل ، فالسلم هنا الإسلام ، والإلقاء يفيد الإعطاء الكامل ، وذلك أن هؤلاء أعلنوا الإسلام فهم مطالبون به ، وإلا فهم مرتدون حكمهم حكم المرتد . ٣ - كف الأيدي عن إيذاء المسلمين . فإذا لم يعطوا هذه الأشياء الثلاثة ، فقد أمر الله - عز وجل - بقتلهم وقتالهم . ﴿ **وأولٰئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً** ﴾ . أي : حجة واضحة ، إن قاتلتموهم وقتلتموهم ، أو تسليطاً ظاهرا حيث أذِنّا لكم في قتلهم .

والسلطان المبين ، إنما كان بسبب انكشاف حالهم في الكفر والغدر والإضرار بالمسلمين . قال مجاهد في سبب نزول هذه الآية « إنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء ، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا ، وههنا ، فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا » . والسبب وإن كان خاصا ، فالعبرة لعموم اللفظ ، وبهذه الآية يكون السياق قد وضّح حيثياتٍ في القتل والقتال ، قتال الكافرين والمنافقين .

وإذ كان الأمر بالقتل والقتال هنا بمثل هذا الوضوح سواء في حق الكافرين أو المنافقين ، وإذ كان أمر المنافقين ووضعهم دقيقاً ، فقد بدأ السياق يحذِّر بشدة من قتل المؤمنين ، ويذكر كفارة القتل الخطأ إن حدث . ﴿ **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ** ﴾ . أي : ليس المؤمن كالكافر الذي تقدمت إباحة دمه ، فلا يصح للمؤمن ولا يليق بحاله ، ولا يستقيم أن يقتل مؤمناً إلا على وجه الخطأ . والمعنى : من شأن المؤمن أن ينتفي عنه وجود قتل المؤمن ابتداءً البتة ، إلا إذا وجد منه خطأ من غير قصد ، بأن يرمي كافراً فيصيب مسلماً ، أو يرمي شخصاً على أنه كافر ، فإذا هو مسلم . ﴿ **ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلَّمة إلى أهله** ﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ ، أحدهما الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم ، وإن كان خطأ . ومن شرطها أن تكون رقبة مؤمنة ، فلا تجزىء الكافرة ؛ والحكمة في ذلك أنه لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار ، لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها ، من قِبل أن الرقيق ملحق بالأموات ، إذ الرق أثر من آثار الكفر ، والكفر موت حكمًا . ﴿ **أوَ من كان مَيْتاً فأحييناه** ﴾ .

الواجب الثاني هو الدية لأهل القتيل عوضاً لهم عما فاتهم من قتيلهم ؛ ومعنى التحرير : الإعتاق ، والمراد بالرقبة هنا النّسمة المسترقّة . ومعنى قوله تعالى : ﴿ **ودية مسلّمة إلى أهله** ﴾ أي : ودية مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كما يقتسمون الميراث . قال النسفي : لافرق بينها وبين سائر التركة في كل شيء ، فيقضى منها الدين ، وتنفذ الوصية ، وإذا لم يبق وارث فهي لبيت المال وقد ورّث رسول الله ﷺ امرأة أشيم الضبابي من عقل زوجها أشيم . ﴿ **إلا أن يصدقوا** ﴾ . أي : إن هذه الدية واجبة لورثة القتيل إلا أن يتصدقوا بالدِّية ، فالدية واجبة في كل حال ، إلا في حال التّصدّق بها من الورثة . ﴿ **فإن كان من قوم عدو لكم** ﴾ . أي : فإن كان المقتول خطأً من قوم كفار ﴿ **وهو مؤمن** ﴾ . أي : والمقتول مؤمن ﴿ **فتحرير رقبة مؤمنة** ﴾ . هذه هي الكفارة في هذه الحالة ، وصورتها : لو أسلم إنسان في دار الحرب ولم يهاجر إلينا ، فقتله مسلم خطأً ، تجب الكفارة بقتله ، للعصمة المؤثمة وهي الإسلام ، ولاتجب الدية لأن العصمة المقوَّمة بالدار لم توجد . قال ابن كثير في تفسيرها : أي إذا كان القتيل مؤمناً ، ولكنَّ أولياءه من الكفار أهل الحرب فلا دية له ، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لاغير .

﴿ **وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلَّمةٌ إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة** ﴾ . أي : فإن كان أولياء القتيل أهل ذمّة أو هدنة ، فلهم دية قتيلهم المؤمن كاملة ، ويجب على القاتل أيضاً تحرير رقبة مؤمنة . ﴿ **فمن لم يجد** ﴾ . أي : رقبة يعتقها إما لفقره وعجزه عن التملك . أو لعدم وجود الأرقاء كما في عصرنا . ﴿ **فصيام شهرين متتابعين** ﴾ . أي : فعليه بدل العتق صيام شهرين متتابعين ، أي لا إفطار بينهما ، بل يسرد صومهما إلى آخرهما ، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس ، استأنف . واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا ؟ على قولين . هذا كلام ابن كثير . ﴿ **توبةً من الله وكان الله عليماً حكيماً** ﴾ . أي : هذه توبة القاتل خطأً ، إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين . واختلفوا فيمن لايستطيع الصيام هل يجب عليه إطعام ستين مسكيناً كما في كفَّارة الظهار ؟ على قولين ، أحدهما : نعم وإنّما لم يُنصّ عليه هنا لأن المقام مقام تهديد وتخويف وتحذير . والمعنى : شرعه الله ذلك توبة لكم ، رحمةً منه وقبولاً وهو العليم إذ يأمر ، الحكيم إذ يُقدِّر ويشرع . وبعد أن بيَّن الله انتفاء القتل العمد عن المؤمن ، وبيَّن حكم القتل الخطأ ، شرع في بيان حكم القتل العمد حال وقوعه فقال : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمّداً** ﴾ . أي قاصداً قتله ﴿ **فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه** ﴾ أي : انتقم منه وطرده من رحمته . ﴿ **وأعدَّ له عذاباً**

عظيماً ﴾ لارتكابه أمراً عظيماً ، وخطباً جسيماً .

فوائد :

١ – ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنّ رسول الله ﷺ قال :

« لايحلُّ دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيِّب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » . قال ابن كثير : ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله ، وإن ذلك إلى الإمام أو نائبه – أقول ولكن هل يأثم من قتل أمثال هؤلاء إثم القاتل ؟ حتماً لا ، وإنما الإثم في تقدُّمه على الإمام حتى لايترتّب على ذلك مفسدة – أما من حيث إنه قتل مستحقاً للقتل فهو مأجور إن فعل ذلك بنيَّة صالحة .

٢ – وفي سبب نزول آية القتل الخطأ قال مجاهد وغير واحد : نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه ، وهي أسماء بنت مخرمة . (وذلك أنه قتل رجلاً يعذِّبه مع أخيه على الإسلام وهو الحارث بن يزيد الغامدي) – فبسبب من تعذيب ذلك الرجل لعيّاش وأخيه – أضمر له عياش السوء ، فأسلم ذلك الرجل وهاجر وعيّاش لا يشعر ، فلما كان يوم الفتح رآه فظنَّ أنه على دينه ، فحمل عليه فقتله ، فأنزل الله هذه الآية .

٣ – وفي كفّارة القتل الخطأ هل تجزىء أي رقبة صغيرة أو كبيرة ، رجل أو امرأة ؟ . الجمهور أنه متى كان مسلمًا صح عتقه عن الكفارة سواء كان صغيراً أو كبيراً ، رجلاً أو امرأة .

٤ – وأما مقدار الدِّية فقد قال ابن مسعود : « قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض ، وعشرين بني مخاض ذكوراً ، وعشرين بنت لبون ، وعشرين جذعة ، وعشرين حقّة . هذا لفظ النسائي . وعند الحنفية يجزىء عن الدية عشرة آلاف درهم فضة ، وتختلف قيمتها باختلاف سعر الفضة نزولاً أو ارتفاعاً . وفي يوم جمع هذا الكتاب كان ذلك يعدل حوالي ستة عشر ألفاً من الريالات السعودية . وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل لا في ماله . قال الشافعي رحمه الله : لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة . قال ابن كثير : وهذا الذي أشار إليه رحمه الله قد ثبت في غير ما حديث ، فمن ذلك ماثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : « اقتتلت امرأتان من هذيل ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها ، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقضىٰ أن دية جنينها غرة عبد أو أمة ، وقضىٰ بدية المرأة على عاقلتها » قال ابن

كثير : وهذا مايقتضي أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض ، لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثاً لشبهة العمد . وفي صحيح البخاري عن الزهيري عن سالم عن أبيه قال : « بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صبأنا صبأنا ، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر ، ودفع إلى كل رجل منا أسيره ، فأمر كل رجل منا أن يقتل أسيره ؛ فقلت والله لا أقتل أسيري ، ولا يقتل أحد من أصحابي أسيره ، فذكرنا ذلك للنبي ﷺ فقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالدمرتين » وبعث علياً فودى قتلاهم وما أتلف من أموالهم ، حتى ميلغة الكلب . وهذا الحديث يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال ، قال النسفي من الحنفية : إن دية الذمي كدية المسلم وهو قولنا . وقد مرّ معنا في هذه الفائدة أكثر من اصطلاح : العاقلة ، شبه العمد ، فأما العاقلة : فهي عشيرة الرجل وقبيلته التي يتناصر هو وإياها ، وأما شبه العمد : فهو كالعمد إلا أن الأداة فيه ليست قاتلة في الأصل . فمن قتل عامداً بسيف مثلاً أو بمسدس فذلك قاتل عمد ، وأما من قتل بمثل عصا أو بحجر مما لايقتل في الأصل فهذا شبه عمد .

٥ – في قوله تعالى : ﴿ **فمن لم يجد** ﴾ في آية القتل الخطأ مظهرًا من مظاهر الإعجاز القرآني العظيم إذ فيه ما يشير إلى دقة اللفظ القرآني بحيث يسع الزمان والمكان ، وبحيث يسع تشريعه الزمان والمكان ، فقوله تعالى : ﴿ **فمن لم يجد** ﴾ . يدخل فيه حالة عدم الاستطاعة ، ويدخل فيه عدم الوجود . وفي عصرنا حيث لايوجد رقاب ورقيق ، يدرك الإنسان سعة هذه الشريعة إذ وضعت بديلاً مراعاة لمثل هذه الحالة ، ومثل هذا الإعجاز في النص وفي التشريع ، لايمكن أن يكون لولا أن هذا القرآن من عند الله رب العالمين .

٦ – وفي موضوع القتل العمد ، وتفسير الخلود في النار – الذي هُدِّد به صاحبه – قضايا كثيرة ، ضلَّ بها من ضلّ ، وخلاصة الحق في هذا الموضوع ، أن من قتل مؤمناً قاصداً لأنه مؤمن ، أو قتل مؤمناً مُستَحِلاً قتله بلاشبهة معتبرة شرعاً ، فهو كافر ، وجزاؤه الخلود الأبدي في النار . أما من قتل مؤمناً عمداً غير مستحل ، فهو مؤمن ويستحق المقام الطويل في جهنم إلا أن يعفوَ الله . وقد قال العلماء : إن في القتل ثلاثة حقوق : حق الله ، وحق القتيل ، وحق أوليائه . فحق أوليائه الدية أو القصاص ، وحق الله يسقط بالتوبة إن قبلها الله ، ويبقى حق القتيل يوم القيامة ، فإن شاء الله أن يرضي

القتيل أرضاه عن قاتله ، وإن شاء عذّب القاتل بحق القتيل ، وإذا أدخله الله في النار فذلك إليه - سبحانه - ولكن لايخلّد فيها أبداً ، كالكافرين لقوله عليه الصلاة والسلام : « يخرج من النار من كان في قلبه ذرة من إيمان » والخلود في اللغة يطلق على المكث الطويل . وفي آية القتل العمد ، يدور كلام كثير ، وماقلناه مدار كلام أهل الحق . وفي النقل الصحيح عن ابن عباس في هذه الآية قال : « هي آخر نزولاً وما نسخها شيء » فليحذر الإنسان أن يقع في دماء المؤمنين .

٧ - ومما ورد في القتل العمد :

أ - في الصحيحين عن رسول الله ﷺ « أول مايقضى بين الناس يوم القيامة في الدّماء » وفي الحديث الذي رواه أبوداود عنه عليه الصلاة والسلام : « لايزال المؤمن معنقاً (أي مسرعاً في سيره) صالحا مالم يصب دماً حراماً ، فإذا أصاب دماً حراماً بَلَّح » - أي انقطع من الإعياء والوهن- » وفي حديث آخر : « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم » . وفي الحديث الآخر « لو اجتمع أهل السمٰوات والأرض على قتل رجل مسلم لأكبّهم الله في النار » وفي الحديث الآخر « من أعان على قتل المسلم ولو بشطر كلمة ، جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله » .

ب - روى الإمام أحمد عن معاوية قال : سمعت رسول لله ﷺ يقول : « كل ذنب عسىٰ الله أن يغفره ، إلا الرجل يموت كافراً ، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمِّداً » وسبب عدم قبول توبة القاتل من حيث إن القتل حق القتيل ، وحقوق الآدميين لاتسقط بالتوبة بالإجماع . فلابد من ردِّها إليهم ، فإذا تعذَّر ذلك ، فلابد من المطالبة يوم القيامة .

قال ابن كثير : لكن لايلزم من وقوع المطالبة ، وقوع المجازاة ، إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها ، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة ، أو يعوِّض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ، ونعيمها ، ورفع درجته فيها ونحو ذلك .

ج - روى النسائي وغيره عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « يجيء المقتول متعلِّقاً بقاتله يوم القيامة ، آخذاً رأسه بيده الأخرى فيقول : يارب سل هذا فيمَ قتلني ؟ قال : فيقول : قتلته لتكون العزة لك ، فيقول : فإنها لي ، قال : ويجيء آخر متعلقا بقاتله فيقول : رب سل هذا فيم قتلني ؟ قال : فيقول قتلته لتكون العزة لفلان ، قال : فإنها ليست له ، بُؤْ بإثمه، قال فيهوي في النار سبعين خريفاً » .

٨ - كان ابن عباس يرى أن قاتل العمد لاتقبل توبته ، وفي هذا نظر . كيف وقد ثبت في الصحيحين خبر الإسرائيلي الذى قتل مائة نفس ، ثم سأل عالما هل لي من توبة ؟ فقال : من يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه ، فهاجر إليه ، فمات في الطريق ، فقبضته ملائكة الرحمة ، وإذا كان هذا في بني إسرائيل ، فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى ، لأن الله وضع عنا الآصار والأغلال التي كانت علينا ، وبعث نبيًّنا بالحنيفية السمحة .

٩ - ولقاتل العمد أحكام في الدنيا ، وأحكام في الآخرة ، فأما في الدنيا ، فتسليط أولياء المقتول عليه ، وهم مخيَّرون بين أن يقتلوا أو يعفوا ، أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثاً ، ثلاثون حقة ، وثلاثون جذعة ، وأربعون خَلِفة ، واختلف الأئمة هل تجب عليه كفارة عتق رقبة ، أو صيام شهرين متتابعين ، أو إطعام ؟ فالشافعي وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون : نعم يجب عليه ، وقال الإمام أحمد وأصحابه وآخرون : قتل العمد أعظم من أن يكفّر ، فلا كفارة فيه . وقد احتج من ذهب إلى وجوب الكفارة بحديث رواه الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع قال : « أتى النبي ﷺ نفر من بني سليم فقالوا : إن صاحباً لنا أوجب ، قال : فليعتق رقبة ، يفدي الله بكل عضو منها عضواً من النار » .

كلمة في السياق :

إذا كانت سورة النساء في سياقها العام توضيحاً لقضية التقوى فإن هذا المقطع بيَّن أن مما يدخل في التقوى القتال ومقتضياته من طاعة ، وانضباط وإرادة ، وأن مما يدخل في التقوى قتال المنافقين وقتلهم بشروطه ، وأن مما يتنافى مع التقوى قتل المؤمن عمداً ، وأن مما يدخل في التقوى الكفارة والدية في حالة القتل الخطأ ، وأن مما يدخل في التقوى الشفاعة الخيّرة ورد السلام ، والتوحيد الخالص ، والتصديق الكامل . وقد صحح الله - عز وجل - بهذا المقطع مفاهيم كثيرة خاطئة عن التقوى ، يمكن أن يقع فيها المؤمنون سواء في مواقفهم من قتال الكافرين ، أو في مواقفهم من قتال المنافقين . ولنا عودة على السياق فيما بعد إن شاء الله .

المقطع السابع

ويمتد من الآية (٩٤) إلى الآية (١٠٤) وهذا هو :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ

كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)

كلمة في المقطع :

هذا المقطع استمرار للمقطع السابق ، فبعد أن ذكر الله – عز وجل – عاقبة القتل العمد ، أمرنا فى هذا المقطع أن نتبيّن إذا قاتلنا ، وألا نقتل من يقول لا إله إلا الله ، حتى ولو قالها أثناء القتال . ثم بيَّن الله – عز وجل – أنه لايستوي عنده من يقاتل مع من لايقاتل . ثم بيَّن تعالى وجوب الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام . إلا للعاجز عن ذلك ، ووعد المهاجر السعة ، ومراغمة أعداء الله . وفي هذا السياق ذكر قصر الصلاة للمهاجر ، وذكر صلاة الخوف ، وذكّرنا بوجوب إقامة الصلاة كاملة في الأمن . وختمت آيات القتال بالتذكير بوجوب متابعة القتال في كل الظروف مادامت الحرب قائمة .

ولنتذكر الآن - ولنا عودة على الموضوع - أن صلاة الخوف قد ذكرت في سورة البقرة في سياق الكلام عن شؤون المرأة وطلاقها ، ووفاة زوجها عنها . والملاحظ أن المقطع اللاحق لهذا المقطع يأتي فيه كلام عن المرأة والطلاق ، وهذا يذكّرنا بالقاعدة التي اعتمدناها أن لكل سورة محورها من سورة البقرة ، وأن السُّورةتفصّل فى هذا المحور ، وفي امتداداته في نفس سورة البقرة . وهذا الذي اتجهنا إليه سنرى مايؤكده في هذا التفسير شيئاً فشيئاً ، ولازلنا نعتبر أن ما نذكره هو بمثابة شواهد يتكامل معها الدليل شيئاً فشيئاً .

المعنى العام :

يأمر الله - عز وجل - في هذا المقطع عباده المؤمنين إذا قاتلوا في سبيله أن يتبيَّنوا ، إذا قاتلوا أو قتلوا ، وينهاهم إذا أعلن لهم أحد إسلامه أن يرفضوا إعلانه رغبة منهم في تحصيل عرض من الدنيا بقتله ليأخذوا ماله ، ووعدهم الله - عز وجل - مغانم كثيرة يؤتيهم إياها من فضله . ثم ذكَّرهم بأنهم كانوا في يوم من الأيام يُسِرُّون إيمانهم ، فإذا وجدوا إنساناً يُسِرُّ إيمانه بين قومه ، حتى إذا جاؤوا هم أظهره لهم ، فكيف يقتلونه ، ثم جدَّد لهم الأمر بالتبيُّن والتَّثبُّت إذا قاتلوا أو قَتَلُوا، ثم هدَّدهم بأنه يعلم الظواهر والخوافي فلا يخالفوا . ثم بيَّن الله - عز وجل - أن المجاهدين لايستوون عنده مع القاعدين إلا إذا كان قعودهم أثراً عن ضرر كمرضٍ ، أو عرج ، أو عمى ، وأنه - عز وجل - فضّل المجاهدين على القاعدين ، ثم أخبر تعالى بما فضلهم به من الدرجات في غُرف الجنّات العاليات ومغفرة الذنوب والزلات ، وأحوال الرحمة والبركات ، إحساناً منه وتكريماً . وبعد أن أمر الله - عز وجل - بالتبيُّن في الجهاد مراعاة لحال من يكتم الإيمان بسبب من الأسباب ، ومن جملة ذلك إقامته بين الكفار ، فقد بيَّن الله - عز وجل - حكم الإقامة بين الكفّار ليرفع هِمَمَ أهل الإيمان إلى الهجرة .

ومن ثَم فقد بيّن الله - عز وجل - أن من أقام بين ظهراني الكفار ، وهو قادر على الهجرة ، وليس متمكناً من إقامة الدين ، فهو ظالم لنفسه ، ومرتكب للحرام بإجماع المسلمين ، وبنص ماذكر في هذا السياق من كون أمثال هؤلاء عندما تتوفاهم الملائكة تعنِّفُهم سائلة إياهم لِمَ مكثتم ههنا ، وتركتم الهجرة ؟ فيعتذرون بعدم قدرتهم على الخروج أو الذهاب في الأرض ، فتردّ عليهم الملائكة حجتهم أن أرض الله واسعة ،

وكان باستطاعتهم الهجرة ، وبناء على تقصيرهم هذا فإن الله قد حكم عليهم بالعذاب في نار جهنم ، ثم أخرج الله - عز وجل - من هؤلاء المستضعفين حقيقة ، كالنساء والأولاد . فهؤلاء لايقدرون أن يتخلّصوا من أيدي الكافرين ، ولو قدروا ما عرفوا أن يسلكوا طرق الهجرة ، فهؤلاء عسى الله أن يتجاوز عنهم بتركهم الهجرة ، إذ هو عفوٌ لمن يستحق المغفرة والعفو ، ومشيئته مع هذا مطلقة يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .

ثم حضّ الله - عز وجل - على الهجرة ، ورغّب فيها ، وحرّض إليها مبيِّناً أن المؤمن حيثما ذهب وجد مندوحة وملجأ يتحصّن فيه ، ويراغم به أعداء الله ، ورزقاً واسعاً ، ووعد من يخرج من منزله بنيّة الهجرة فيموت في أثناء الطريق ، أن يعطيه ثواب من هاجر ، وذلك من كمال مغفرته ورحمته .

فإذا وصل السياق في هذا المقطع إلى نهاية هذه المعاني ينتقل السياق إلى بيان قضايا متعلقة بالصلاة أثناء الهجرة والحرب ، وكالعادة في شأن آيات القرآن إذا نُظر إليها من خلال السياق ، تعطي معاني ، وإذا نُظر إلى كل كلمة منها في محلها فإنها تفيد معاني تكمل تلك ، وذلك من إعجاز هذا القرآن . وقبل أن نستعرض ما ورد من معان حول الصلاة في هذا السياق نذكِّر بما ذُكر قبله : أمر الله المسلمين بالتبيّن إذا قاتلوا أو قتلوا في سبيل الله ، حتى لايقتلوا مؤمناً ، ولكي لا يوقفهم التبيّن عن الجهاد بيّن الله فضيلة الجهاد ليجمع المسلمون بين الجهاد والتبيّن ؛ حتى لايعَطِّلوا الجهاد بحجة التبيّن ، ولمّا كان التبيّن لصالح المسلمين المقيمين بين ظهراني الكافرين ، فقد حذَّر هؤلاء من المقام بين ظهراني الكافرين ، وأمرهم بالهجرة إلى دار الإسلام ، وأوجبها عليهم ، وهي قضية ستتضح معنا أثناء التفسير الحرفي وفوائده ، وبمناسبة الجهاد والهجرة ، فقد ذكر أحكاماً في الصلاة ، منها ما هو مرتبط بالهجرة والسفر ، ومنها ماهو مرتبط بالجهاد واحتمالاته .

فبيَّن الله - عز وجل - أن المسافر المهاجر له أن يقصر الصلاة مراعاة لوضعه إذ يحتمل أن يلحق به الكافرون ، ويفتنوه عن دينه ، إذ عداوة الكافرين شديدة واضحة . ثم بيَّن الله - عز وجل - أنه في حالة اللقاء مع الأعداء ، فإن للمسلمين أن يصلُّوا صلاة الخوف التي يجتمع فيها إقامة العبادة والحذر واليقظة بآن واحد ، بأن يجتمع مع الصلاة مراقبة العدو والاستعداد بالسلاح ، وسنرى تفصيل ذلك في التفسير الحرفي وفوائده . ثم يأمر الله - عز وجل - بكثرة الذكر بعد صلاة الخوف ، والذكر وإن كان مشروعاً

مرغّباً فيه بعد كل صلاة ، لكنه بعد صلاة الخوف آكد ، ولما وقع فيها من التخفيف ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب ، وغير ذلك مما لا يوجد في غيرها ، ولأنّ حال المحارب يقتضي يقظة وانتباهاً ، وحالاً طيّباً مع الله . ثم أرشدنا الله - عز وجل - في حالة انتهاء وضع الخوف ، وحصول الطمأنينة ، إلى وجوب إتمام الصلاة وإقامتها بحدودها ، وخشوعها ، وركوعها ، وسجودها ، وجميع شؤونها ، مبيّناً تعالى أن الصلاة فرض مفروض ، ومؤقت بوقت محدّد. ومن هنا نفهم أن الصلاة يُطالَب بها المسلم في كل حال ، ولايسعه التخلف عن أدائها بحال ، لافي سلم ولا في حرب ، ولا في خوف ، ولا في أمن . وإذا اضطر إلى تأخيرها في بعض الحالات التي نص عليها الفقهاء فعليه قضاؤها ثم يختم الله - عز وجل - هذا المقطع الذي يعتبر امتداداً لما قبله والذي ينصب هو والذي قبله على موضوع القتال ، بأن لايضعفوا في طلب عدوّهم ، بل عليهم أن يجدّوا فيهم ، ويقاتلوهم في كل حال ، حتى في حالة الإصابة والجراح ، مبيّناً أنه كما تصيبنا الجراح تصيبهم ، وكما نألم يألمون ، فنحن وإياهم سواء فيما يصيبنا من جراح وآلام ، ولكنا نزيد عليهم بأننا نرجو من الله نصراً ومثوبة وتأييداً مالا يرجون ، كما وعدنا ذلك في كتابه العزيز ، وعلى لسان رسوله ﷺ وهو وعد حق ، وخبر صدق ، وهم لايرجون شيئاً من ذلك ، فنحن أولى بمتابعة القتال منهم ، والصبر عليه ، والرغبة فيه . وإذ يطالبنا الله - عز وجل - بذلك ، فما ذلك إلا من آثار علمه وحكمته ، بأن هذا هو الطريق ، الجهاد الدائم المستمر المتتابع في كل الظروف والأحوال . وقد كان خالد لاينام ولا ينيم .

هذه هي المعاني العامة في هذا المقطع ، وسنرى تفصيلاتها فيما يلي ، فهل اتضح من هذا كله أنه لاتقوى إلا بجهاد وقتال .

المعنى الحرفي :

﴿**ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل اللهفتبيّنوا**﴾ . أي : إذا سرتم في طريق غزو وقتال في سبيل الله ، فتبينوا ، أي : اطلبوا بيان الأمر وثباته ووضوحه في حال قتلكم وقتالكم . أو إذا قاتلتم فتبيّنوا حال من تقتلونه ﴿ **ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السَّلام لست مؤمناً** ﴾ . السلام هنا : هو الإسلام بدليل آخر النص ﴿ **لست مؤمناً** ﴾ وقيل هو الاستسلام ، وقيل هو التسليم الذي هو تحيّة أهل الإسلام ﴿ **تبتغون عرض الحياة الدنيا** ﴾ أي : تطلبون الغنيمة التي هي حطام سريع النفاذ ، فهو الذي يدعوكم إلى

ترك التثبُّت ، وقلة البحث عن حال من تقتلونه . والعرض : المال سمي به لسرعة فنائه . ﴿ **فعند الله مغانم كثيرة** ﴾ يغنمكموها تغنيكم عن قتل رجل يظهر الإسلام ويتعوَّذ به من التعرّض له لتأخذوا ماله ﴿ **كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم** ﴾ . أي : إنّكم أول ما دخلتم في الإسلام سُمعت من أفواهكم كلمة الشهادة ؛ فحقنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطّلاع على مواطأة قلوبكم لألسنتكم ، فمنَّ الله عليكم بالاستقامة والاشتهار بالإيمان . فافعلوا بمن يدخل في الإسلام كما فُعِل بكم ، واقبلوا منهم ماقُبِل منكم . ويحتمل إنكم كنتم أيها المسلمون في ابتداء الأمر تخفون إسلامكم بين قومكم ، كما يخفي هذا الذي أظهر لكم الإسلام – أثناء القتال – إسلامه بين قومه ، فيظهره لكم إذا جئتم ، فمنّ الله عليكم أنتم بأن أصبحتم تجهرون بالإسلام ، ولكن لاتنسوا حالكم الأول ، وارحموا أمثالكم . ويحتمل أن يكون المعنى : إنكم أيها المسلمون كنتم قبل إسلامكم تقاتلون وتقتلون من أجل الدنيا ، فمنَّ الله عليكم بالإسلام ، فأصبحتم تقاتلون في سبيل الله ، فلا تكفروا نعمة الله . ﴿ **فتبيَّنوا** ﴾ كرر الأمر بالتبيُّن تأكيداً عليهم . ﴿ **إن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾ قال سعيد بن جبير : «وهذا تهديد ووعيد» . التهديد بعلم الله بما يخفى وما يظهر هنا يفيد النهي عن التهافت في القتل ، والأمر بأن يكونوا محترزين ، محتاطين في ذلك .

فوائد :

١ – في سبب نزول هذه الآية ، آثار كثيرة كلها يرفد بعضها ، وكلها يفسر بعض وجوهها والعبرة كما نكرر دائماً لعموم اللفظ ، ومما ورد في سبب نزولها :

أ – روى الإمام أحمد والترمذي ، وقال عنه حسن صحيح عن ابن عباس قال : مر رجل من بني سليم – بنفر من أصحاب النبي ﷺ – يرعى غنماً له ، فسلّم عليهم ، فقالوا : لا يسلِّم علينا إلا ليتعوّذ منا ، فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه النبيَ ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم ...** ﴾ الآية إلى آخرها .

ب – وقد ذكر ابن كثير قصة رجل اسمه ضرار ، هاجر إلى رسول الله ﷺ في عماية الليل ، وكان قد قال لهم : إنه مسلم ، فلم يقبلوا منه ، فقتلوه ، فقال أبوه : فقدمت على رسول الله ﷺ فأعطاني ألف دينار ودية أخرى ، وسيَّرني فنزل قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا ..** ﴾ .

جـ – وقد روى الإمام أحمد قصة محلم بن جثامة ، ورواها ابن جرير بسياق أتمَّ منه هذا هو : « عن ابن عمر قال : بعث رسول الله ﷺ محلم بن جثامة مبعثاً فلقيهم عامر ابن الأضبط فحيّاهم بتحيَّة الإسلام ، وكانت بينهم إحنة في الجاهلية ، فرماه محلم بسهم فقتله ، فجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ ... فجاء محلم في بردين ، فجلس بين يدي رسول الله ﷺ ليستغفر له فقال رسول الله ﷺ: لاغفر الله لك ، فقام وهو يتلقى دموعه ببرديه ، فما مضت له سابعة حتى مات ودفنوه ، فلفظته الأرض ، فجاؤوا إلى النّبي ﷺ فذكروا ذلك له ، فقال : إن الأرض تقبل من هو شرٌّ من صاحبكم ، ولكن الله أراد أن يعظكم » ثم طرحوه بين صدفي جبل وألقوا عليه الحجارة فنزلت ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيَّنوا** ... ﴾ .

د – روى البخاري قول رسول الله ﷺ للمقداد تعليقاً على حادثة ، ويروي الحادثة كلها البزار ، وهذه روايته عن ابن عباس قال : « بعث رسول الله ﷺ سريّة فيها المقداد ابن الأسود، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرّقوا ، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأهوى إليه المقداد فقتله ، فقال له رجل من أصحابه : أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله ! والله لأذكرنَّ ذلك للنبي ﷺ ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا : يارسول الله ! إنّ رجلاً شهد أن لا إله إلا الله ، فقتله المقداد ، فقال : « ادعوا لي المقداد ، فقال : يامقداد أقتلت رجلاً يقول لا إله إلا الله ؟! فكيف لك بلا إله إلا الله غداً » . قال : فأنزل الله ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيَّنوا** ﴾ الآية . فقال رسول الله ﷺ للمقداد « كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار ، فأظهر إيمانه فقتلته ، كذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل » .

هـ – وذكر النسفي : أن مرداس بن نهيك أسلم ، ولم يسلم من قومه غيره فغزتهم سريّة لرسول الله ﷺ فهربوا وبقي مرداس لثقته بإسلامه ، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى منفرج من الجبل وصعد ، فلما تلاحقوا وكبَّروا كبَّرَ ونزل وقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، السلام عليكم ، فقتله أسامة بن زيد ، واستاق غنمه ، فأخبروا رسول الله ﷺ فوجد وجداً شديداً وقال : « قتلتموه إرادة ما معه ثم قرأ الآية على أسامة » .

٢ – من هذه الآية نفهم أن الفارق الرئيسي بين قتال المسلمين ، وقتال غيرهم . أن غير المسلمين يقاتلون من أجل الدنيا متمثلة باحتلال أرض ، أو بسوق اقتصادي ، أو من

أجل موادّ خام ، أو من أجل استغلال ما ، أو من أجل ربح مباشر أو غير مباشر ، أما المسلمون فلا يقاتلون إلا من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا ، وفي سبيل الله ، وما يعطيهم الله - عز وجل - بسبب ذلك من الدنيا فهو منّة منه وفضل ، ولكنه ليس غاية ولا هدفاً . وهذا الذي لا يصل إلى إدراك كنهه ولا إلى فهمه من لا يعرف آفاق الربّانيّة في النَّفس البشريّة .

٣ - إن قضية التبيُّن ينبغي أن تأخذ مداها في أي لحظة أو تخطيط أو تنفيذ . فإذا كان لابد من قتال ، فلنتذكر دائمًا أنه لابد من تبُّين .

﴿ **لايستوي القاعدون** ﴾ . أي : عن الجهاد ﴿ **من المؤمنين غير أولي الضرر** ﴾ . الضرر : المرض أو العاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها ﴿ **والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم** ﴾ نفى التساوي بين المجاهد والقاعد بغير عذر وإن كان معلوماً ؛ توبيخا للقاعد عن الجهاد ، وتحريكاً له عليه ، ثم لبيان عدم الاستواء بين المجاهدين والقاعدين لعذر قال : ﴿ **فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة** ﴾ . أي فضّلهم تفضلة ﴿ **وكُلّاً وعد الله الحسنى** ﴾ . أي : وكل فريق من القاعدين لعذر والمجاهدين وعده الله المثوبة الحسنى وهي الجنة ، وإن كان المجاهدون مفضَّلين على القاعدين لعذرٍ درجة ، ﴿ **وفضّل الله المجاهدين على القاعدين** (بغير عذر)﴿ **أجراً عظيماً** ﴾ ﴿ **درجاتٍ منه** ﴾ هذا وما بعده بيان للأجر العظيم ﴿ **ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً** ﴾ إذ يقبل العذر ﴿ **رحيما** ﴾ إذ يوفر الأجر . قال النسفي : وحاصله أن الله تعالى فضّل المجاهدين على القاعدين بعذر درجة ، وعلى القاعدين بغير عذر - في حالة كون الجهاد فرض كفاية وفي حالة إذن الإمام لهم في المقام - درجات ، لأن الجهاد في حال السعة فرض كفاية .

فوائد :

١ - هذه الآية محمولة على كون الجهاد فرض كفاية ، وقد قام من يكفي من المسلمين به ، فعندئذ لايأثم القاعدون ، ويؤجر المجاهدون هذا الأجر العظيم ، أما إذا كان الجهاد فرض عين ، أو لم يقم من المسلمين مايكفي عندما يكون الجهاد فرض كفاية ، فإن القاعدين يأثمون إثماً عظيماً ؛ يستحقون به دخول النار . أما متى يكون الجهاد فرض عين ، ومتى يكون فرض كفاية ؟ فهذا له تفصيلاته الكثيرة وباختصار نذكر بعض

الصور : يكون الجهاد فرض عين إذا أعلن الإمام النفير العام ، أو إذا هوجمت بلد أو منطقة فقد افترض القتال على المستطيع رجلاً أو امرأة ، وإذا هوجمت منطقة ، فكفى أهلها للدفاع عنها ، فالجهاد فرض عين عليهم فقط ، وإلا فتنتقل فرضية العين إلى من حولهم ، ثم إلى من حولهم . وهكذا حتى يعُمَّ الفرض الأمة الإسلامية كلها . ومن حالات النفير التي يجب على المسلمين فيها الجهاد ، حالة ما إذا استنفرهم الإمام الحق ، لقتال الخارجين عليه بغير الحق ، ومن الحالات التي يفترض على المسلمين فيها القتال فرضاً عينياً ، حالة ما إذا سيطر المرتدون أو الكافرون على قطر من أقطارهم ؛ فقد افترض على أهل هذا القطر فرضاً عينياً ، أن يقاتلوا وعلى المسلمين أن يمدوهم . ويفترض على المسلمين القتال فرض كفاية ، في حالة ما إذا كانوا آمنين ، فعليهم أن يقاتلوا أي جهة من جهات دار الحرب ، وهذا الذي هو فرض كفاية إذا قام به بعضهم سقط عن البعض الآخر ، ولا يسقط هذا إلا في حالات الضعف الذي هو مظنة استئصال المسلمين لو هاجموا بشرط نيّة الإعداد ، وتلافي حالة الضعف والوضع الدولي في عصرنا في غاية التعقيد فلابدّ أن يلاحظ ذلك .

٢ - وفي صحيح البخاري عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال : « إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ، ولا قطعتم من وادٍ إلا وَهُم معكم فيه ، قالوا : وهم بالمدينة يارسول الله ؟ قال : نعم . حبسهم العذر » فهذا مثال على لحوق أصحاب الأعذار للمجاهدين في الأجر ، ولكن تبقىٰ درجة لمن مارس الجهاد عملياً .

٣ - وفي تفسير الدرجة والدرجات قال رسول الله ﷺ كما ثبت في الصحيحين : « إن في الجنة مائة درجة ، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » وروى عبدالله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال : «من رمىٰ بسهم فله أجره درجة ، فقال رجل : يارسول الله ، وما الدّرجة ؟ فقال : أما إنها ليست بعتبة أمِّك ، مابين الدرجتين مائة عام » .

٤ - وفي سبب النزول وما أحاط به يروي البخاري عن ابن عباس أنَّ الآية نزلت بمناسبة غزوة بدر . قال ابن عباس لايستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر ، والخارجون إلى بدر ، وقد روىٰ البخاري وغيره تساؤلَ عبدالله بن أمّ مكتوم - وهو أعمى - عن حال أمثاله ممن لا يستطيعون الجهاد فأنزل الله ﴿ **غير أولي الضرر** ﴾ وهذه رواية الإمام أحمد في هذا الموضوع قال زيد بن ثابت : إني قاعد إلى جنب النبي ﷺ إذ أوحي إليه ، وغشيته السكينة ، قال : فوقع فخذه على فخذي حين غشيته السّكينة ،

قال زيد : فلا والله ما وجدت شيئاً قط أثقل من فخذ رسول الله ﷺ ثم سُرِّي عنه فقال : اكتب يازيد ، فأخذت كتفاً ، فقال : اكتب ﴿ **لا يستوي القاعدون من المؤمنين ... والمجاهدون** ﴾ ... إلى قوله ﴿ **أجراً عظيماً** ﴾ فكتبت ذاك في كتف ، فقام حين سمعها ابن أم مكتوم وكان رجلاً أعمى - فقام حين سمع فضيلة المجاهدين وقال: يارسول الله! كيف بمن لايستطيع الجهاد ، ومن هو أعمى وأشباه ذلك ؟ قال زيد : فوالله مامضىٰ كلامه - أو ما هو إلا أن قضىٰ كلامه حتى غشيت النّبي ﷺ السّكينة ، فوقعت فخذه على فخذي ، فوجدت من ثقلها كما وجدت في المرة الأولى ، ثم سُرِّي عنه فقال : اقرأ فقرأت عليه ﴿ **لايستوي القاعدون من المؤمنين غير ....** ﴾ فقال النبي ﷺ ﴿ **غير أولي الضرر** ﴾ قال زيد : فألحقتها ، فوالله كأني أنظر إلى ملحقها عند صدع كان في الكتف » .

٥ - والملاحظ أن هذه الآية جاءت بعد الأمر بالتبيّن ، فكأنه بعد الأمر بالتبيّن قد يتباطأ ناس عن الجهاد خوفاً من عدم التبيّن ، فجاءت هذه الآية لترفع الهمم إلى الجهاد .

﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم** ﴾ توفاهم . أي : تتوفاهم ، والتوفي : قبض الروح . والمراد بالملائكة : ملك الموت وأعوانه . وظلمهم أنفسهم بمخالطة الكافرين ، وتركهم الهجرة المفروضة ، ﴿ **قالوا فيم كنتم** ﴾ . أي : قال الملائكة للمتوفين : في أي شيء كنتم في أمر دينكم ، ومعناه التوبيخ لأنهم لم يكونوا في شيء من الدين لتركهم الهجرة ، ومخالتطهم للكافرين ، وما يقتضيه ذلك من طاعة ورضوخ ومجاملة وترك عمل . ﴿ **قالوا كنا مستضعفين في الأرض** ﴾ . أي : كنا عاجزين عن الهجرة ، ومجبرين على المكث في الأرض التي نحن فيها . ﴿ **قالوا ألم تكنْ أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ﴾ . أي : قال الملائكة لهؤلاء موبِّخين لهم : إنكم كنتم قادرين على الهجرة أي : على الخروج إلى بلد ما لاتمنعون فيها من إظهار دينكم . فالإنسان لايعدم حيلة إن صمّم على شيء ﴿ **فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيرا** ﴾ . أي : مقرهم فيها وساءت مايصيرون إليه قال النسفي : والآية تدلُّ على أنَّ من لم يتمكن من إقامة دينه في بلد كما يجب ، وعلم أنه يتمكن من إقامته في غيره حقت المهاجرة . أهـ .

وقد ذكر ابن كثير الإجماع على ذلك . أمّا إذا تمكّن من إقامة دينه ، فهل تجب عليه الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام ، ومن دار الظلم إلى دار العدل ؟ ومن دار البدعة إلى دار السنَّة ؟ قولان للعلماء . قال الحنفية : يجب ، وقال الشافعية : يندب له البقاء .

ولنعد إلى السياق لنرى أن الله قد استثنى من أهل الوعيد : المستضعفين حقيقة لادعوى فقال : ﴿ **إلا المستضعفين من الرِّجال والنِّساء والولدان لايستطيعون حيلة** ﴾ في الخروج والهجرة إما لفقرهم وإما لعجزهم ﴿ **ولا يهتدون سبيلا** ﴾ . أي : ولا معرفة لهم بالمسالك . ﴿ **فأولئك عسىٰ الله أن يعفو عنهم** ﴾ هذا وعد من الله لهم أن يعفو عنهم ، فعسىٰ وإن كانت في الأصل للإطماع إلا أن ما أطمعت فيه من الله واجب الوقوع لأن الكريم إذا أطمع أنجز ﴿ **وكان الله عفواً غفوراً** ﴾ أكدت نهاية هذه الآية عفوه ، وأثبتت أن عدم الهجرة ذنب ﴿ **ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُرَاغمًا كثيراً وسعه** ﴾ المراغم : هو المهاجَر ، والطريق الذي يراغم بسلوكه الإنسانُ قومَه ، أي يفارقهم على رغم أنوفهم . والرغم : الذل والهوان ، يقال : راغمت الرجل إذا فارقته وهو يكره مفارقتك لمذلة تلحقه بذلك ، والسعة يدخل فيها السعة في الرِّزق ، أو في إظهار الدين ، أو في الصَّدر لتبدُّل الخوف بالأمن .﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله** ﴾ . أي : إلى حيث أمر الله ورسوله ﴿ **ثمّ يدركه الموت** ﴾ . أي : قبل بلوغه مهاجره ﴿ **فقد وقع أجره على الله** ﴾ . أي : فقد حصل له الأجر بوعد الله ، وذكر الوقوع تأكيد للوعد ، وإلا فلا شيء يجب على الله لأحد من خلقه ، وإنما هو جل جلاله يوجب على نفسه ماشاء ﴿ **وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ يغفر بالعمل ، ويرحم بالنّية ، وقد قالوا : كل هجرة لطلب علم ، أو حج ، أو جهاد ، أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة ، أو قناعة ، أو زهداً وابتغاء رزق طيِّب فهي هجرة إلى الله ورسوله ، وإن أدركه الموت في طريقه فقد وقع أجره على الله .

فوائد :

١ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ...** ﴾ الآية يروي البخاري عن ابن عباس : أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثِّرون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ يأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم فيقتله ، أو يضرب عنقه فيقتل فأنزل الله ﴿ **إن الذين توفاهم ...** ﴾ ويكمل ابن أبي حاتم رواية هذا المعنى ، أن المسلمين لما أصيب هؤلاء قالوا : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين ، وأكرهوا فاستغفروا لهم ، فنزلت ﴿ **إن الذين توفاهم ...** ﴾ الآية فكُتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية التي مضمونها أنه لا عذر لهم . قال فخرجوا فلحقهم المشركون ، فأعطوهم التَّقية . فنزلت هذه الآية : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا منكم ...** ﴾ .

٢ - روى أبوداود عن رسول الله ﷺ قوله : « من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله » .

٣ - روى ابن أبي حاتم : لما أسر العباس وعقيل ونوفل . قال رسول الله ﷺ للعباس : « افد نفسك وابن أخيك » فقال يارسول الله : ألم نُصَلِّ إلى قبلتك ، ونشهد شهادتك . قال ياعباس : إنكم خاصمتم فخُصمتم . ثم تلا عليه هذه الآية : ﴿ **ألم تكن أرض الله واسعة ...** ﴾ وفي الصحيح : أن ابن عباس كان يقول : « كنت وأمي من المستضعفين من النِّساء والولدان » . وروى ابن جرير عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ كان يدعو في دبر صلاة الظهر : « اللهم خلِّص الوليد وسلمة بن هشام ، وعياش ابن أبي ربيعة وضَعفة المسلمين من أيدي المشركين ، الذين لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً » .

٤ - روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قوله : « من خرج من بيته مجاهداً في سبيل الله ثم قال : وأين المجاهدون في سبيل الله ؟ فخرّ عن دابته فمات ، فقد وقع أجره على الله ، أو لدغته دابة فمات ، فقد وقع أجره على الله ، أو مات حتف أنفه ، فقد وقع أجره على الله » قال الراوي : يعني بحتف أنفه على فراشه ، والله إنها لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ « ومن قتل قعصاً فقد استوجب الجنّة »

٥ - قال ابن عباس خرج حمزة بن جندب إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ . فنزلت ﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ...**﴾ .

٦ - روى الطبراني عن رسول الله ﷺ قوله : « إن الله قال : من انتدب خارجاً في سبيلي ، غازياً ابتغاء وجهي ، وتصديق وعدي ، وإيماناً برسلي ، فهو في ضمان على الله ، إما أن يتوفاه بالجيش ، فيدخله الجنة ، وإما أن يرجع في ضمان الله ، وإن طالب عبداً فنغّصه حتى يردّه إلى أهله مع ما نال من أجر أو غنيمة ونال من فضل الله ، فمات أو قتل ، أو وقصته فرسه ، أو بعيره ، أو لدغته هامة ، أو مات على فراشه بأي حتف شاء الله فهو شهيد » .

ولنعد إلى السياق :

بعد أن فرض الله التبيِّن لصالح المسلمين المقيمين بين ظهراني الكافرين ، وحضَّ على

الجهاد كي لايتقاعس المسلمون عن الجهاد بحجّة التبيّن ، هدّد المسلمين المقيمين بين ظهراني الكافرين إن لم يهاجروا ، وبهذه المناسبة يذكر حكم الصلاة في السفر . ﴿ **وإذا ضربتم في الأرض** ﴾ . سافرتم فيها ، فالضَّرب في الأرض : هو السفر . ﴿**فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ...** ﴾ . أي : ليس عليكم حرج في أن تقصروا من أعداد ركعات الصلاة الرباعية ، فتصلوها ركعتين . ﴿ **إن خِفتم أن يفتنكم الذين كفروا** ﴾ . أي : إن خشيتم أن يقصدكم الكُفّار بقتل أو جرح أو أخذ . والخوف شرط جواز القصر عند الخوارج ؛ لظاهر هذا النّص ، وعند أهل السنّة ليس بشرط .

روى الإمام أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن يعلى بن أميّة قال : سألت عمر بن الخطاب قلت له : قوله ﴿ **فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم ...** ﴾ وقد أمن الناس ؟ فقال لي عمر رضي الله عنه : عجبتُ مما عجبتَ منه ، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » . ﴿ **إن الكافرين كانوا لكم عدوّا مبيناً** ﴾ . وصدق الله فما من عداوة أوضح من عداوة الكافر للمؤمن ، وذكر العداوة هنا أمر بالتحرز .

فوائد :

١ - روى البخاريُّ عن أنس قال : « خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكّة فكان يصلي ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة . قلت : أقمتم بمكة شيئاً ؟ قال : أقمنا بها عشرا » . وروى الإمام أحمد عن حارثة بن وهب الخزاعي قال : « صليت مع النبي ﷺ الظهر والعصر بمنى أكثر ماكان الناس وآمنه ركعتين » والكلام عن صلاة المسافر مفصّل في كتب الفقه .

٢ - من قوله تعالى : ﴿ **فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة** ﴾ فهم الشافعي أن القصر رخصة في السفر ، والإكمال عزيمة ، لأن لا جناح ، يستعمل في موضع التخفيف والرُّخصة ، لا في موضع العزيمة . وقال الحنفية : القصر عزيمة غير رخصة ، ويكره الإكمال كراهة تحريم ؛ لما روى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان بإسناد صحيح عن عمر قال : « صلاة السفر ركعتان ، وصلاة الأضحى ركعتان ، وصلاة الفطر ركعتان ، وصلاة الجمعة ركعتان ، تمام غير قصر على لسان محمد ﷺ » . وأما الآية فقد قال النسفي في توجيهها : فكأنهم ألفوا الإتمام فكانوا مظنّة لأن يخطر ببالهم أن عليهم نقصاناً في القصر ، فنفى عنهم الجناح لتطيب أنفسهم بالقصر ، ويطمئنوا إليه ، اهـ .

٣ - تعليق قصر الصلاة هنا على الخوف يشبه قوله تعالى في سورة النور : ﴿ **ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً** ﴾ فكما أنه لايفهم من التعليق بإرادة الإحصان جواز البغاء عند عدم إرادته فكذلك هنا ، ومحلُّ التوسّع في فهم مثل هذه النصوص وغيرها كتب أصول الفقه .

٤ - هناك اتجاه آخر في فهم الآية ، هذا الاتجاه يقول : إن الآيات على ظاهرها وليس المراد بها صلاة السفر والمسافر ، وإنما المراد بها بيان جواز قصر الصلاة والصلاة بالقدر المستطاع في حالة كون المسلم خائفاً في قتال ، أو وهو مطارد من قبل الكافرين ، أو وهو يحتمل المطاردة ، فإنه في هذه الحالة كلها يقصر ، وقد اختلف في حدود هذا القصر ، قال ابن عباس : فرض الله الصلاة على لسان نبيكم محمد ﷺ في الحضر أربعاً ، وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعة .. وقال جبير عن الضّحاك : ذاك عند القتال يصلي الرجل الراكب تكبيرتين حيث كان وجهه . وعلى هذا الاتجاه تكون الآية اللاحقة زيادة بيان للآية السابقة في تبيان حالة أخرى من حالات الصلاة في الخوف .

ولنعد إلى السياق : فقد رأينا أنه بمناسبة الكلام عن الهجرة ذكرت صلاة السفر ، ولكن هذا الورود كان ضمن سياق القتال . وعلى هذا فإن الآية التالية تبيِّن لنا صورة من صور الصلاة في القتال .

﴿ **وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة** ﴾ . أي : وإذا كنت يامحمد في أصحابك ، فأردت أن تقيم الصلاة بهم . قال أبويوسف : هذا النص خاص برسول الله ﷺ فلا صلاة خوف بعده ﷺ وقال غيره : الأئمة نوابٌ عن رسول الله ﷺ في كلِّ عصر ، فكان الخطاب له متناولاً لكل إمام ، ودليله فعل الصحابة بعده ﷺ فالخطاب في الآية ، وإن كان له ﷺ ، فهو يشمل كل أمير للمسلمين إلى يوم القيامة . ﴿ **فلتقم طائفةٌ منهم معك** ﴾ . أي : فاجعلهم طائفتين . فلتقم إحداهما معك ، فصلِ بها ، وتقوم طائفة تجاه العدو . ﴿ **وليأخذوا أسلحتهم** ﴾ . أي : وليأخذ الجميع أسلحتهم . والمصلون يأخذون من السلاح ، ما لا يشغلهم عن الصلاة ﴿ **فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم** ﴾ . قال الحنفية وكثيرون غيرهم في تفسيرها . أي : إذا قيَّدوا ركعتهم بسجدتين ، فلترجع هذه الطائفة ، لتقف بإزاء العدوّ حتى إذاانتهت الطائفة الثانية من صلاتها ، تكمِّل الطائفة الأولى صلاتها في محلها ، أو في مكان الصلاة الأوّل . وقال

مالك : تنتهي صلاة الطائفة الأولى بصلاتهم ركعة . لأن صلاة الخوف ركعة عنده . ﴿ **ولتأت طائفة أخرى لم يصلُّوا فليُصلُّوا معك** ﴾ . أي : ولتحضر الطائفة الواقفة بإزاء العدوِّ فليصلوا معك الركعة الثانية . ورسول الله ﷺ يسلِّم . وعند مالك تنتهي بذلك صلاة الطائفتين . وعند غيره ، تكمل كل من الطائفتين ما فاتها . الطائفة الثانية أولاً . ثم الطائفة الأولى . ﴿ **وليأخذوا حذرهم** ﴾ . أي : وليأخذوا ما يتحرّزون به من العدوِّ من انتباه ، وآلة كالدرع ونحوه . ﴿ **وأسلحتهم** ﴾ جمع سلاح . وهو مايقاتل به . وأخذ السلاح شرط عند الشافعي ، وعند الحنفية مستحب ، وذكر الركعتين أثناء الشرح على اعتبار أن الغالب في صلاة الخوف أن تكون في سفر . ولصلاة الخوف كيفيات كثيرة . تسع العصور والأحوال . سنرى - إن شاء الله - إشارة لها في باب الفوائد . وتفصيل ذلك في كتاب (الأساس في السُّنَّة وفقهها) . ﴿ **ودَّ الذين كفروا لو تغفُلون عن أسلحتِكم وأمتعتِكم فيميلون عليكم ميلةً واحدة** ﴾ . هذا البيان للحكمة من مشروعية صلاة الخوف . والمعنى : أنّ الكافرين يتمنّون أن ينالوا منكم غِرَّة في صلاتكم . فيشدُّوا عليكم شدَّة واحدة . ﴿ **ولا جناح عليكم إن كان بكم أذىً من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم** ﴾ . رخَّص لهم في وضع الأسلحة إن ثقل عليهم حملها بسبب ما يبلهم من مطر ، أو يضعفهم من مرض . وأمرهم مع ذلك بأخذ الحذر لئلا يغفلوا فيهجم عليهم العدو . ﴿ **إنّ الله أعدَّ للكافرين عذاباً مهيناً** ﴾ . أي : مذلاً ، وإخباره تعالى في هذا المقام بأنه يهين الكافرين من أجل أن تقوى قلوب المسلمين ، وليعلموا أن قدرة الله غالبة ، وأن الأمر بالحذر ليس لتوقع غلبة الكافرين عليهم ، وإنما هو تعبُّد من الله تعالى . ﴿ **فإذا قضيتم الصلاة** ﴾ . أي : فإذا فرغتم منها . ﴿ **فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم** ﴾ . أي : فداوموا على ذكر الله في جميع الأحوال . ﴿ **فإذا اطمَأننتُم فأقيموا الصلاة** ﴾ . أي : فإذا سكنتم بزوال الخوف ، فأتمّوها بطائفة واحدة ، أو فإذا أقمتم فأتمُّوا ولا تقصروا . أو : إذا اطمأننتم بالصِّحة فأتمُّوا القيام ، والركوع ، والسجود . ﴿ **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً** ﴾ . أي : مكتوباً محدوداً بأوقات معلومة . أو فرضية مؤقتة بوقت .

فوائد :

١ - لصلاة الخوف صُوَر كثيرة ، فإن العدوَّ تارة يكون تجاه القبلة ، وتارة يكون

في غير اتجاهها، والصلاة تارة تكون رباعية ، وتارة تكون ثلاثية ، كالمغرب ، وتارة تكون ثنائية كالصبح، وهناك صلاة السفر . والصلاة تارة يمكن أن تُصلى جماعة، وتارة يلتحم الحرب ، فلا يقدرون على الجماعة بل يصلون فرادى ، مستقبلي القبلة ، وغير مستقبليها ، رجالاً وركباناً ، ولهم أن يمشوا - والحالة هذه - ويضربون الضرب المتتابع في متن الصلاة ، ومن العلماء من قال يصلون ، والحالة هذه ، ركعة واحدة . وقال إسحق بن راهويه . أما عند المسايفة ، فيجزيك ركعة واحدة ، تومىء بها إيماءً . فإن لم تقدر ، فسجدة واحدة ، لأنها ذكر لله . وقال آخرون : يكفي تكبيرة واحدة . حتى قال الأمير عبدالوهاب بن بخت المكي : فإن لم يقدر على التكبيرة ، فلا يتركها في نفسه يعني بالنيّة . ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال ، ولعذر المسير إليه . وقال الأوزاعي : إن تهيأ الفتح ، ولم يقدروا على الصلاة صلوا إيماءً كل امرىء لنفسه . فإن لم يقدروا ، صلوا ركعة ، وسجدتين . فإن لم يقدروا ، فلا يجزيهم التكبير . ويؤخرونها حتى يأمنوا ، وبه قال مكحول ، وقال أنس بن مالك ، حضرت عند مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر ، واشتد اشتعال القتال ، فلم يقدروا على الصلاة . فلم نصلّ إلا بعد ارتفاع النهار ، فصليناها ، ونحن مع أبي موسى ، فَفُتِح لنا ، قال أنس : وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها . وكان ذلك في إمارة عمر بن الخطاب . ولم ينقل أنه أنكر عليهم ، ولا أحد من الصحابة ، من هذا كله ندرك أن في هذا الموضوع سِعة . وهذه السعة تقتضيها طبيعة عصرنا أكثر من أي عصر مضى . وفي كتب الفقه تفصيلات مثل هذه الشئون .

٢ - روى الإمام أحمد عن أبي عياش الزرقي قال : « كنا مع رسول الله ﷺ بسعفان فاستقبلَنا المشركون ، عليهم خالد بن الوليد . وهم بيننا وبين القبلة ، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهرَ . فقالوا : لقد كنا على حال ، لو أصبنا غرَّتهم ، ثم قالوا : يأتي عليهم الآن صلاة ، هي أحبُّ إليهم من أبنائهم وأنفسهم . قال : فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر : ﴿ **وإذا كنت فيهم** ... ﴾ . قال : فحضرت ، فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح . قال : فصفّنا خلفه صفين . قال : ثم ركع ، فركعنا جميعاً . ثم رفع ، فرفعنا جميعاً . ثم سجد النَّبيُّ ﷺ بالصف الذي يليه ، والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم . ثم تقدم هؤلاء إلى مصافِّ هؤلاء ، ثم هؤلاء إلى مصافِّ هؤلاء ، ثم ركع فركعوا جميعاً ، ثم رفع فرفعوا جميعاً ، ثمّ سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه ، والآخرون قيام يحرسونهم . فلما

جلسوا جلس الآخرون . ثم سلّم عليهم ، ثم انصرف . قال : فصلاها رسول الله ﷺ مرتين مرة بعسفان ، ومرة بأرض بني سليم ..» والحديث صحيح . وهذه إحدى صوَر صلاة الخوف ، وصوَرها كثيرة . ومن صورها ، مارواه أحمد ، ومسلم ، والنسائي عن جابر « أن رسول الله ﷺ صلى بهم صلاة الخوف ، فقام صفّ بين يديه ، وصف خلفه . فصلى بالذين خلفه ركعة وسجدتين ، ثم تقدّم هؤلاء حتى قاموا في مقام أصحابهم ، وجاء أولئك حتى قاموا في مقام هؤلاء . فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعة وسجدتين ثم سلّم . فكانت للنّبيِّ ﷺ ركعتين ، ولهم ركعة » .

ثم يختتم الله هذا السياق في موضوع القتال بهذه الآية : ﴿ **ولا تهنوا في ابتغاء القوم** ﴾ أي : ولا تضعفوا ، ولا تتوانوا في طلب الكفار بالقتال ، والتعرض به لهم . ثم ألزمهم الحجة بفعل ذلك بقوله : ﴿ **إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون** ﴾ . أي : ليس ما تجدون من الألم بالجرح والقتل مختصا بكم . بل هو مشترك بينكم وبينهم ، يصيبهم كما يصيبكم ، ثم إنهم يصبرون عليه ، فما لكم لاتصبرون مثل صبرهم ! مع أنكم أجدر منهم بالصبر ! ؛ لأنكم ترجون من الله مالا يرجون من إظهار دينكم على سائر الأديان . ومن الثواب العظيم في الآخرة . ﴿ **وكان الله عليمًا حكيمًا** ﴾ . عليمًا بما تجدونه من آلام . حكيمًا فيما أمركم به ، ويدبِّر لكم من أموركم .

كلمة في السِّياق :

إذا كانت سورة النساء تدور حول ماهية التقوى . فإنَّ هذا المقطع قد بيّن أن التبُّين في القتال ، والهجرة إلى دار الإسلام ، والصلاة في القتال ، وذكر الله في كل حال ، والصبر على القتال ، والاستمرار فيه . كل ذلك داخل في العبادة ، والتقوى . ولنا عودة فيما بعد على السياق إن شاء الله .

المقطع الثامن

اعتدنا فيما مضى من سورة النساء أن تكون المقاطع مبدوءة بـ (يا أيها) : ﴿ **يأأيها الناس** ﴾ ، ﴿ **يأأيها الذين آمنوا** ﴾ ، ولكنا في هذا المقطع نجد أن صيغة (يأأيها) تأتي في نهايته ، فالمعاني في هذا المقطع تتسلسل حتى نجد في نهايته آية مبدوءة بـ

﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ وفيها إشعار بالمعنى الرئيسي الذي ينتظم معاني المقطع . وهو أسلوب سنرى نماذجه في القرآن أكثر من مرة ، وفيه مظهر من مظاهر التنويع في الأسلوب . إن المقطع الثامن يعرض لنا معاني من مظاهر العدل ، ثم يختم المقطع بآية هي : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط** ... ﴾ .

يمتد المقطع من الآية (١٠٥) إلى الآية (١٣٥) وهذا هو :

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) لَّا خَيْرَ فِى

كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

☆ ☆ ☆

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ

أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾

☆ ☆ ☆

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)

كلمة في المقطع :

بدأ المقطع بتبيان الحكمة من إنزال الكتاب بالحق على رسول الله ﷺ وذلك من أجل أن يحكم به ، وفي ذلك أبلغ رد على من يهمل قضايا الحكم بما أنزل الله ، ومن هذه المقدمة ينطلق السياق إلى التوجيه إلى أنه لاينبغي أن يجادل أحد عن الخائنين ، وهذا أول مظهر من مظاهر العدل ، ليصل السياق إلى عدم مواطئة الشيطان وطاعته في دعوته ، وذلك مظهر من مظاهر العدل ، ليصل السياق إلى التعامل العادل مع المرأة ، وذلك مظهر من مظاهر العدل . ويختم بالأمر بالقيام بالعدل والشهادة بالعدل ، مع كل الناس .

قلنا : إن محور سورة النساء من سورة البقرة هو : ﴿ **يأأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون * وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدّت للكافرين * وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأوتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهّرة وهم فيها خالدون *** ﴾ .

لاحظ صلة : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا** ﴾ من سورة البقرة بقوله

تعالى هنا : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق** ﴾ .

وصلة ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً** ﴾ في سورة البقرة بقوله تعالى هنا :

﴿ **إن الله لايغفر أن يُشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء** ﴾ .

وصلة ﴿ **وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات** ﴾ من سورة البقرة بقوله تعالى هنا : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً** ﴾ ﴿ **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً** ﴾ .

وصلة : ﴿ **ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ من سورة البقرة بقوله تعالى هنا: ﴿**ولله مافي السموات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله** ﴾ .

وصلة ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ في سورة البقرة بقوله هنا :

﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُوَلّه ما تولى ونُصْله جهنم وساءت مصيراً** ﴾ .

إن الصلة واضحة ، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أنّ محور سورة النساء من سورة البقرة هو الآيات (٢١- ٢٢- ٢٣- ٢٤- ٢٥) ولنا عودة على السياق .

المعنى العام للمقطع :

بيَّن الله - عز وجل - في هذا المقطع أنه أنزل كتابه على رسوله ﷺ بالحق ، فهو يتضمن الحق في خبره وطلبه ، من أجل أن يحكم رسوله على ضوئه في كل أمر من أمور الناس ، وهذا هو الحق الخالص ، ومع الأمر بالحق نهىٰ الله رسولَه ﷺ عن أن يكون بجانب الخائنين مجادلاً عنهم ومدافعاً ، وهو نهي للأمة كلها ، وإذن فهناك صيغة للحق وحيدة هي ما أنزله الله في كتابه ، وما سواها باطل وأهلها خَوَنة ، والدفاع عن أهل الباطل حرام ، كترك الحق في الحكم . وإذا عرفنا أن هذه بداية المقطع ، وأن نهايته الأمر بإقامة العدل والقسط ، عرفنا مضمون هذا المقطع ، وعرفنا أن كل ما يحتويه داخل

ضمن توضيح قضايا من الحق والعدل ، كجزء من مفهوم التقوى التي هي محور السورة الرئيسي . وبعد الأمر بالحق والنهي عن الدفاع عن أهل الباطل في الآية الأولى من هذا المقطع ، يصدر الأمر بالاستغفار ؛ لدقة قضية الحق ؛ ولدقّة الموقف من أهل الباطل ، ولكنّ الله واسع المغفرة والرحمة ، يغفر ويرحم لمن يجهد في إقامة الحق ، ويحرِّر نفسه من الوقوف بجانب أهل الباطل . ثم يؤكد الله - عز وجل - نهيه عن الدفاع عمن يعمل الباطل ويخون نفسه بفعله الإثم ، وذلك لأن الله لايحب من كانت صفته الخيانة والإثم ، فكيف يدافع المؤمن عمن يبغضه الله . فههنا إذن قضيتان متلازمتان ، الحكم بالحق ، وترك الدفاع عن أهل الباطل ، والله - عز وجل - ينفّر من الدفاع عن أهل الباطل بتبيان صفاتهم المنفّرة ، ومن ذلك استخفاؤهم من الناس ، وإخفاؤهم قبائحهم عنهم ؛ لئلا ينكروا عليهم ،ويجاهرون الله بها فلا يستخفون منه ؛ لأنهم منافقون ، إيمانهم بالله مضطرب وغير صحيح . فيبيِّتون الباطل والظلم ، ومَن هذا شأنهم فكيف يدافع المؤمن عنهم ، والله هو المحيط بأعمالهم ، وهو محاربهم ومعاديهم . وإذا افترض أحد أن هؤلاء الخائنين قد استفادوا من مجادلة المؤمنين عنهم ، فمن يستطيع الجدال عنهم يوم القيامة ، أو من يتوكل لهم يومئذ - يوم القيامة - في ترويج دعواهم ؟ فإذا كان الأمر كذلك ، والله محيط هذه الإحاطة ، فلا يدافعنّ مسلم عن خائن .

وفي عصرنا هذا - عصر القانون والمحاماة - تظهر أهمية هذا التوجيه ، إذ يقرِّر أن صيغة الحق هي كتاب الله ، وأن الدفاع عمن يختانون أنفسهم لايجوز .

ثم يستمرُّ السِّياق بعد أن وضح النهي عن الدفاع عن الخائنين ، يستمرُّ مقرِّراً ثلاث حقائق رئيسية ، الأولى : أن المذنب المسيء إذ استغفر يغفر الله له . والثانية : أن كل إنسان مسئول عن نفسه ، وأنه لاتزر وازرة وزر أخرى ، وأن إثم الآثم لايتعداه . والثالثة : أن الذي يرتكب الخطيئة ، أو الإثم ، ثم يرمي به الأبرياء ، فقد اجتمع عليه ذنبان ، ذنب البهتان ، وإثمه الأصلي . وإذ تتقرر هذه الحقائق الثلاث المرتبطة بموضوع عدم الدفاع عن الخائنين ، يبيِّن الله - عز وجل - أن بقاء الإنسان على الحق ، وعدم تبنّيه للدِّفاع عن الخائنين ، لايكون إلا بتوفيقٍ من الله ، خاصَّة مع وجود الرّاغبين في الإضلال ، الذين لا يضلون إلا أنفسهم ولا يضرون غيرها . ثم يذكِّر الله رسولَه ﷺ بنعمته عليه بإنزال الكتاب عليه ، وتعليمه الحكمة ، وتعليمه ما كان يجهله ، وهذا يدلّ على عظم ما خصَّ الله به رسوله ﷺ ، من الفضل العظيم ، الذي من مقتضيات

شكره ، الوقوف على الحق ، وترك الدفاع عن الباطل وأهله . والصلة واضحة بين بداية المجموعة المطالِبة بالحكم بالقرآن ، والنهي عن الجدال عن الخائنين ، وبين نهايتها المتحدثة عن نعمة الله على رسوله ﷺ بتعليم القرآن .

وفي إطار السورة ، وفي سياق هذا المقطع الذي يبيّن صوراً من العدل والحق ، في إطار العبادة والتقوى ، يحدِّد الله - عز وجل - إطار الخير في أحاديث الناس بعضهم مع بعض ، وهو مظهر من مظاهر العبادة والتقوى عظيم . فبين أن الحديث الخيّر هو ما كان أمراً بصدقة ، أو أمراً بمعروف : وهو الحق والعدل ، أو كان إصلاحاً بين الناس . ثم بيّن الله أن من يفعل ذلك ، مبتغياً وجه الله ، مخلصاً لله فيه ، فإن له أجره العظيم عند الله . دلَّ ذلك على أن توجيه الكلام في هذه الدائرة ، من أعظم أنواع العبادة ، ومن ألصق آثار التقوى . ثم يقرر الله - عز وجل - حقيقة مرتبطة بقضية الحق والعدل ، هذه القضية هي أن ما شرعه الله حق ، وما أجمعت عليه الأمة الإسلامية حق ، ومخالفة هذا الحق يستحق به صاحبه العذاب الأليم ، وارتباط هذه القضيّة بموضوع السياق الخاص والعام ، والجزئي ، والكلي واضح . إن من سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ ، أو سلك غير الطريق الذي اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما عُلم اتفاقهم عليه تحقيقاً ، فإنه قد تضمنت لهم العصمة - في اجتماعهم من الخطأ ؛ تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيّهم ، فمن سلك طريق الشقاق لهذا ، أو لهذا ، يجازيه الله على ذلك باستدراجه في الدنيا ، ويجعل النار مصيره في الآخرة . لأنَّ من خرج عن الهدى ، لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة ؛ لمخالفته الحق الذي لايزيغ عنه إلا هالك . ولما كان رأس الانحراف عن الحق سببه الشرك واتّباع الشيطان ، فقد جاءت الآيات اللاحقة تبين هذه القضية مقرِّرة : أن الذنب الذي لا يغفره الله هو الشِّرك ، وأن مادونه يمكن أن يغفره وأن الذي يشرك بالله ، قد سلك غير الطريق الحق ، وضل عن الهدى ، وبَعُد عن الصواب ، وأهلك نفسه وخسرها في الدنيا والآخرة ، وفاتته سعادة الدنيا والآخرة . ثم بيَّن الله - عز وجل - حال هؤلاء المشركين ، محقِّراً إياه ، وأنهم ما يعبدون إلا إناثاً كالأحجار ، ومظاهر من هذا الكون والطبيعة ، وأنهم ما يعبدون في شركهم إلا الشيطان المتمرِّد على الله ، إذ هو الذي يأمرهم بذلك ، ويحسِّنه ويزيِّنه لهم ، وهو الملعون المطرود ، المبعَد من رحمة الله ، وعن جواره ، وهو الذي أخذ على عاتقه أن يضل قسمًا معيّناً ، مقدّراً معلوماً من الناس ، من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، يضلُّهم عن الحق ، ويزيّن لهم ترك التوبة ويعدهم الأماني ، ويأمرهم

بالتّسويف والتّأخير ، ويغرّهم من أنفسهم ، ويزيّن لهم تحريم ماأحل الله ، وتغيير خلق الله بارتكاب ما حرّم ، كالوشم والنّمص وخصي الإنسان ، وغير ذلك . ثم بيّن الله - عز وجل - أن من يتخذ الشيطان ولياً مطاعاً معبوداً ، فإنه قد خسر الدنيا والآخرة ، وتلك خسارة لاجبر لها ، ولا استدراك لفائتها. ثم بيّن الله - عز وجل - طريق الشيطان في الإضلال ، وهو أن الشيطان يعد أولياءه ويمنّيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة ، وقد كذب وافترىٰ في ذلك . ولذلك بين الله - عز وجل - أن وعد الشيطان أولياءه إنّما هو هباء ، ثم بيّن الله - عز وجل - جزاء المستحسنين لإغواء الشيطان ووعوده ومناه ، وأن هذا الجزاء هو جهنم ، فهي مصيرهم ومآلهم يوم القيامة ، وأنه ليس لهم عنها مندوحة ، ولا مصرف ، ولا خلاص ولا مناص .

فالشّرك إذن يسبّب الانحراف عن الحق ، وأن الشّرك في حقيقته عبادة للشيطان وطاعة له في دعوته ، ومجيء هذه المعاني في سياق الأمر بالحق والعدل واضح . إذ لا عدل ولاحق مع الشرك واتباع الشيطان . وإذ ذكر حال الأشقياء في الآخرة ، قفى بحال المؤمنين الذين صدّقت قلوبهم ، وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات ، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات بأن جزاءهم الخلود الأبديّ في جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ذلك وعد الله لهم ، ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لامحالة ، إذ هو أصدق الصّادقين ، فلا أحد أصدق منه قولاً وخبراً ووعداً . ومجيء هذه الآية في سياق الدّعوة إلى الحق والعدل واضح ، إذ بدون الإيمان ، والعمل الصّالح ، والثّقة بوعد الله في الآخرة ، لايستطيع إنسان أن يثبت على الحق والعدل ، وإذْ كان كل أهل دين يدّعون أنهم أهل الحق ، وأن الجنّة لهم دون غيرهم ، وحتى بعض المسلمين يعيشون على الأماني ، فيتصورون أن الجنة لهم بلا عمل ، قرّر الله - عز وجل - أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال . وليس كل من ادعىٰ شيئاً حصل له بمجرد دعواه ، ولاكل من قال إنه على الحق سُمع قولُه بمجرد ذلك ، حتى يكون له من الله برهان ، فليست النّجاة بمجرد التّمني ، بل العبرة بطاعة الله سبحانه ، واتّباع ما شرعه على ألسنة الرّسل الكرام ، وأن القاعدة عند الله أن من يعمل سوءاً يجازيه به . ولايستطيع أحد أن يحول بين الله وبين مجازاته ، فينصره أو يدفع عنه . ولَما ذكر الله الجزاء على السيئات ، وأنه سيأخذ مستَحَقَّها من العبد ، إما في الدنيا وهو الأجود له ، نسأل الله العافية - وإما في الآخرة والعياذ بالله من ذلك ، شرع في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده ، ذكورهم وإناثهم بشرط الإيمان ، وأنه

سيدخلهم الجنة ، ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير ، وهو : النّقرة ، التي في ظهر نواة التمر .

ثم بيَّن الله - عز وجل - أنه لا أحسن ديناً ممن اجتمع له إخلاص العمل لربه فعمل إيماناً واحتساباً ، متبعا في العمل لما شرعه الله ، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق . وهذان الشرطان لايصح عمل عامل بدونهما ، أن يكون العمل خالصاً وصواباً . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون متابعاً للشريعة ، فيصح ظاهر العبد بالمتابعة ، وباطنه بالإخلاص . فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد . فمتى فقد الإخلاص كان منافقاً ، وهم الذين يراؤون الناس ، ومتى فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً ، ومن جمعهما كان من المؤمنين الذين لا أحسن ديناً منهم ، فهم مخلصون محسنون ، وهم متّبعون لملة إبراهيم ، المائل عن كل شرك إلى التوحيد الخالص ، ومن ثمّ اتخذه الله خليلاً ، ثمّ بيَّن الله - عز وجل - أن ما في السمٰوات والأرض ملكه وعبيده وخلقه ، وهو المتصرِّف في جميع ذلك ، لا رادَّ لما قضى ، ولا معقِّب لما حكم ، ولا يُسأل عما يفعل ؛ لعظمته وقدرته ؛ وعدله وحكمته ، ولطفه ورحمته . وأن علمه نافذ في جميع ذلك ، لاتخفىٰ عليه خافية من عباده ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، فهو المحيط بكل شيء ، وتقرير هذه المعاني في سياق الأمر بالحق والعدل ، وفي السياق الذي يربي على العبادة والتقوى ، والإيمان ، والعمل الصالح ، لايغيب عن الحاذق الفهم ، فليس الحق دعوى ، وإنما هو عمل ، وليس ميزان الله بخس ، ولكنه ميزان عدل ، وميزانٌ دقيق ، وليس شأن الله قليلاً ، حتى يهمل أمره أو يُعصىٰ أو يُطاع غيره في غير طاعته ، فالعبوديَّة لله ميزانها الإسلام له ، والإحسان في عبادته ، واتّباع رسله ، إذ هو مالك كل شيء ، والمحيط بكل شيء ، ومن كان كذلك كان حريّاً أن يُسلَّم له ، وأن يُحسَن في عبادته ، وأن يُتّبع رسله ، وذلك من الحق والعدل .

فالحق والعدل في اتّباع كتاب الله ، وكذلك في عدم الدفاع عن المبطلين . وكما يكونان في ذلك . يكونان في المناجاة بالخير والإصلاح . وكما يكونان في هذا كله يكونان في ترك الشرك وطاعة الشيطان ، وكذلك في الإسلام لله ، والإحسان في عبادته ، واتباع رسله ، وذلك كله عبادة وتقوىٰ .

فالمقطع يوضح جوانب من الحق والعدل ، يفطن الناس لبعضها ،ولا يفطنون لبعضها الآخر . وكل ذلك في إطار السياق الكلي لمحور سورة النساء الذي يعمّق قضيّة العبادة

والتقوى . ثم يكمّل المقطع شرح جوانب من الحق والعدل في موضوع يتامىٰ النِّساء ، والمستضعفين ، واليتامىٰ عامة ، فيفتي بما هو حق وعدل ، وذلك أن الرّجل قد يكون في حجره يتيمة ، هو وليُّها ووارثها ، لا يرغب أن يتزوجها ، ويكره أن يزوّجها رجلاً فيشركه في مالها إذا ماتت ، أيفوِّت عليه مايطمع فيه ، فيعرضها . فبيّن الله - عز وجل - حكمه العادل ، والحق في مثل هذا ، إما أن تتزوجها ولها مهرها كاملاً أسوة بأمثالها من النساء ، وإما أن تُزَوّجها إن جاءها طالب كفأ ورضيت ، وكانوا في الجاهلية لايورِّثون الصغار ولا البنات ، فأنزل الله حكمه العادل بوجوب التوريث حسب الاستحقاق ، ثمّ أمر الله - عز وجل - بإعطاء اليتامىٰ العدل مذكِّراً بعلمه بمن فعل خيراً ؛ تهييجاً على فعل الخيرات وامتثال الأوامر .

ومجيء هذه المعاني في سياق الدعوة إلى الحق والعدل لايحتاج إلى بيان . ثم بيَّن الله - عز وجل - قضايا من الحق والعدل في الشئون الزَّوجية ، فأخبر مشرِّعاً لأحوالٍ من أحوال الزوجين ، تارة في حال نفور الرجل من المرأة ، وتارة في حال اتّفاقه معها ، وتارة في حال فراقه لها ، وفي كل حالة من هذه الحالات علمنا الله الموقفَ العدل والحق . فالحالة الأولى ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها ، أو يعرض عنها ، فلها أن تسقط عنه حقها ، أو بعضه من نفقة أو كسوة ، أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه ، وله أن يقبل ذلك منها ، فلا حرج عليها في بذلها ذلك له ؛ ولا عليه في قبوله منها ، إذ الصلح خير من الفراق . وإن كانت النفوس عادة شحيحة . ثم ندب الله - عز وجل - الأزواج إلى الإحسان والتقوى ، واعداً إياهم بالخير الكثير ، إن تجشموا مشقّة الصبر على ما يكرهون منهنّ ، فإذا فعلوا ذلك وصبروا عليه فالله يعلمه ، وسيجزي عليه خير الجزاء . والحالة الثانية حالة الوفاق في حال كون الرجل له أكثر من زوجة . فقد بيَّن الله - عز وجل - أن المساواة المطلقة والعدل المطلق بين الزوجات من كل الوجوه غير مستطاع للإنسان ، ولذلك لم يكلّف الإنسان به ، فلابد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع ، ولكنه فَرضَ العدل في المبيت والمطعم والملبس ، ونهى عن المبالغة في الميل إلى واحدة ؛ حتى تصبح الأخرى كالمعلّقة ، ووعد جل جلاله أنه في حالة الإصلاح في الأمور ، والقسم بالعدل ، في الحدود التي يملكها الإنسان ، وفي حالة التقوى ، فإن الله سيغفر ماكان من تفريط عند عدم وجود العدل المطلق ، وأما الحالة الثالثة حالة الفراق ، فقد وعد الله كلاً من الزوجين أنهما إذا تفرّقا فإن الله يغنيه عنها ، ويغنيها عنه ، بأن يعوِّضه الله بمن هي أو ماهو خير له منها ، ويعوضها عنه بمن أو ما هو خير لها منه ، ثم ذكر الله -

عز وجل - بأنه واسع الفضل ، عظيم المنّة ، حكيم في جميع أفعاله وأقداره وشرعه ، فليطمئن كلٌّ من الزَّوجين إذا فارق الآخر إلى فضل الله ، وليتوكَّلْ كلٌّ من الزَّوجين على الله . ثم أخبر الله - عز وجل - أنّه مالك السمٰوات والأرض ، وأنّه الحاكم فيهما ، وأنّه وصّانا بما وصّىٰ به مَن قبلنا من تقواه ، وعبادته وحده لاشريك له ، وأنه في حالة كفرنا - والعياذ بالله - فإنه لايضره ذلك ، وكيف وهو مالك السمٰوات والأرض ، وهو الغني عن عباده ، وهو المحمود في جميع ما يقدِّره ويشرعه .وإذن فمادام الله مالك السمٰوات والأرض وهو الغنّي عن خلقه ، المحمود في فعله وشرعه ، فمن حقِّه أن يُتَّقى ، وأن يُشكر فلا يكفر . ثمّ ذكر تعالى مرَّة ثانية بأنّه مالك السمٰوات والأرض ، وأنه هو القائم على كلِّ نفس بما كسبت ، الرّقيب الشّهيد على كلّ شيء ، وتذكيره بهذا مقدمة لتذكيره بأنه هو القادر على إذهابنا وتبديلنا بغيرنا إن عصيناه ، إذ هو القادر على كل شيء ، وإذا كان الأمر كذلك ، فقد ذكَّر الله - عز وجل - من ليس له هِمَّة إلا في الدنيا أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة ، وإذا سأله السائل مِن هذه وهذه أعطاه ، فلتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة ، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضر والنفع ، وهو الله الذي لا إله إلا هو ، الذي قسم السّعادة والشّقاوة بين النّاس ، في الدنيا والآخرة ، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذه ، وممن يستحق هذه ، فهو السّميع البصير .

وما محل هذه المعاني في السياق الخاص في مقطعها الذي هو أمر بالحق والعدل ، وتوضيح لما يدخل في مفهوم الحق والعدل ؟ الذي يبدو : أنّ الصلة بين هذه الآيات وبين مقطعها ، من حيث إن الله مالك السمٰوات والأرض ، هو صاحب الحق في توجيه الإنسان إلى الحق ، ويجب أن يُتَّقىٰ ، ويجب أن ترتفع همة الإنسان للسير في الحق الذي شرعه لنيل رضوانه وجنته . إلا أننا نحب أن ننبه إلى أن الآيات ينبغي أن تفهم على ضوء سياقها الخاص ، وارتباط سورتها بالسياق القرآني العام . وعلى هذا فلنتذكر أن ماذكره الله في هذا المقطع وفي كل مقطع مرتبط بمجمل السورة في السياق القرآني العام ، وسورة النساء محورها الأمر بالعبادة والتقوى . فإذا تذكرنا هذا ، وتذكرنا الآيات التي هي محل كلامنا ، والتي فيها الوصية بالتقوى وطلب الآخرة . أدركنا صلة هذه الآيات وصلة مقطعها القرآني العام .

والآن يستقر سياق المقطع بنداء المؤمنين أن يكونوا قوّامين بالعدل ، فلا يعدلوا عنه

يميناً ولا شمالاً ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنه صارف ، وأن يكونوا متعاونين ، متساعدين ، متعاضدين ، متناصرين فيه ، وأن يؤدُّوا الشهادة ابتغاء وجه الله فتكون صحيحة عادلة حقاً ، خالية من التحريف والتبديل والكتمان ، وأمر أن تؤدى شهادة الحق ولو عاد ضررها على صاحبها . فإذا سئلت عن أمر فقل الحق فيه ، ولو عادت مضرته عليك ، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه ، وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها ، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم ؛ فإن الحق حاكم على كل أحد ، وإن كان المشهود عليه غنيّاً أو فقيراً فأدّ فيه شهادة الحق ، لا ترع غنياً لغناه ، ولا تشفق على فقير لفقره ، فالله يتولى الجميع ، بل هو أولى بهما منك ، وأعلم بما فيه صلاحهما . ثم نهىٰ أن يحملنا الهوى والعصبيّة وبغض الناس عن ترك العدل في أي أمر وشأن ، ثم أمر بلزوم العدل على أي حال ، فإنّ العدل هو الأقرب للتقوى ، التي هي الهدف ، ثم هدّد من يحرِّف الشهادة ويغيِّرها ، ويتعمّد الكذب ، بعلم الله فيه .

وبهذا ينتهي المقطع ، وإذا تذكر الإنسان ذكر الحق في بداية المقطع ، وذكر العدل في نهايته ، وكثرة ورود التقوى في المقطع ، أدرك كيف أنَّ هذا يمثل تجديداً في الأسلوب بالنسبة لما مرّ معنا من بدايات المقاطع ونهاياتها إذ ينتهي المقطع بما يتضمن موضوع المقطع كله ، ليبدأ مقطع جديد على الطريقة الأولى مبدوء بـ ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ .

المعنى الحرفي :

﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق** ﴾ . أي : محقاً فهو حق من الله ، وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه وما شرع ﴿ **لتحكم بين الناس بما أراك الله**﴾ . أي : بما عرّفك وأوحى به إليك . وقال أبومنصور الماتريدي في تفسيرها : بما ألهمك في أصوله المنزلة ، وبهذه الآية استدل من جوّز الاجتهاد في حقه عليه الصلاة والسّلام ﴿ **ولا تكن للخائنين خصيماً** ﴾ . أي : ولا تكن لأجل الخائنين مخاصمًا ، أي ولا تجادل عن الخائنين ، وكل معصية خيانة ، وكل عاص خائن في معصيته ، فلا يجادلنّ مسلم عن عاص في معصيته ﴿ **واستغفر الله** ﴾ . أي : من أي خاطر يخالف ما مرّ .

﴿ **إن الله كان غفوراً رحيماً** ﴾ . غفوراً لما يهمّ به العبد مالم ينفذه ، رحيمًا بالمسلم إذ لـم يكلِّفه مالا يطيق . ﴿ **ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم** ﴾ . **أي :**

يخونونها بالمعصية . جعلت معصية العصاة خيانة لأنفسهم ، لأن الضرر راجع إليهم ، والنهي ينصب على المخاصمة عن هؤلاء والدفاع عنهم ﴿ **إن الله لايحب من كان خوانا أثيما** ﴾ الخوان هو : المفرط في الخيانة ، والأثيم : المفرط في الإثم ، فإذا كان الله لايحب الخونة والآثمين ، فكيف يدافع المسلم عنهم ؟!! .

ثم زادنا الله - عز وجل - بياناً لحال هؤلاء العصاة ليقطع دابر أي تفكير في القلوب المؤمنة في الدفاع عنهم . ﴿ **يستخفون من الناس ...** ﴾ . أي : يستترون من الناس حياء منهم ، وخوفاً من ضررهم ﴿ **ولا يستخفون من الله وهو معهم** ﴾ . أي : ولا يستحيون من الله وهو عالم بهم ، مطّلع عليهم ، ولا يخفىٰ عليه خاف من سرِّهم ، وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم مع علمهم أنه معهم لاسترة ولا غيبة . ﴿ **إذ يبيِّتون ما لايرضى من القول** ﴾ . أي : إذ يدبِّرون مالا يُرضِي الله من الكلام ، وسمي التدبير تبييتاً : لأنه يكون عادة في الليل ، وللنهار التنفيذ . ﴿ **وكان الله بما يعملون محيطاً** ﴾ علمه محيط ، وإرادته محيطة ، ولا يكون شيء إلا به ، فكيف لايستحيون منه وهم يعصونه ويدبِّرون في معصيته . ﴿ **ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا** ﴾ . أي : هَبُوا أنكمْ خاصمتم عن هؤلاء الخائنين العصاة في الحياة الدنيا ﴿ **فمن يجادلُ الله عنهم يوم القيامة** ﴾ . أي : فمن يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه . ﴿ **أم من يكون عليهم وكيلاً** ﴾ . أي : من يكون حافظاً ومحامياً عنهم من بأس الله وعذابه ؟ اللهم لا أحد . ﴿ **ومن يعمل سوءاً** ﴾ السوء هنا : الذنب دون الشرك ﴿ **أو يظلم نفسه** ﴾ . بالشرك ، ويحتمل أن يكون المراد بالسوء القبيح الذي يتعدى ضرره إلى الغير ، والظلم للنفس : ما يختص ضرره بفاعله . ﴿ **ثم يستغفر الله** ﴾ . أي : يسأل الله مغفرته ﴿ **يجد الله غفوراً** ﴾ له ﴿ **رحيماً** ﴾ به . ﴿ **ومن يكسب إثمًا** ﴾ . أي : ذنباً ﴿ **فإنما يكسبه على نفسه** ﴾ لأنّ وباله عليه ﴿ **وكان الله عليمًا** ﴾ بمن أذنب ﴿ **حكيمًا** ﴾ ومن حكمته أنه لايعاقب بالذنب إلا صاحبه . ﴿ **ومن يكسب خطيئة أو إثمًا** ﴾ يحتمل أن يراد بالخطيئة هنا الصغيرة ، وبالإثم الكبيرة ، ويحتمل أن يكون المراد بالخطيئة هنا الذنب بينه وبين ربه ، وبالإثم الذنب في مظالم العباد ﴿ **ثم يرم به بريئاً** ﴾ . أي : ثمَّ يتّهم بهذا الذنب أو الخطيئة غير فاعله ﴿ **فقد احتمل بهتاناً وإثمًا مبيناً** ﴾ . البهتان : الكذب العظيم ، إذ البهتان كذب يبهت من قيل عليه مالا علم له به ، والإثم المبين هو الذنب الظاهر ، وقد اجتمعت الصفتان فيمن يفعل ما ذكرته الآية ﴿ **ولولا فضل الله عليك ورحمته** ﴾ أي :

ولولا عصمة الله وحفظه ولطفه ﴿ **لهمت طائفة منهم** ﴾ . أي : من الناس ﴿ **أن يضلوك** ﴾ . أي : عن القضاء بالحق وتوخي طريق العدل وجعلك تدافع عن العصاة . ﴿ **وما يضلون إلا أنفسهم** ﴾ بمحاولتهم ، وهمِّهم وتبييتهم لأن وبال ذلك عليهم . أما رسول الله ﷺ فمحفوظ بحفظ الله ، وكذلك من كان على قدمه ، مع فارق العصمة فهو عليه الصلاة والسلام معصوم ، ومن على قدمه تُحتمل في حقه الزّلّة . ﴿ **وما يضرونك من شيء** ﴾ إن وقفت عند حدود الله ، وعملت بما ظهر لك ، ولم يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك . ﴿ **وأنزل الله عليك** ﴾ يامحمد ﴿ **الكتاب** ﴾ . أي : القرآن ﴿ **والحكمة** ﴾ . أي : السنة . ﴿ **وعلمك ما لم تكن تعلم** ﴾ . أي : من أمور الدين والشرائع . ﴿ **وكان فضل الله عليك عظيمًا** ﴾ . أي : فيما علّمك وأنعم عليك ، والخطاب لرسول الله ﷺ ، خطاب لأمته ، فهذا الفضل على رسول الله ﷺ ورثته عنه أمّته .

فوائد :

١ - شرحنا هذه الآيات بما يقتضيه عمومها ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ولكن سبب النزول يساعد على فهم النص ، لأنه يكون مثالاً على ما يمكن أن يدخل في النص مع بقاء عموم اللفظ على حاله ، وقبل أن نذكر أسباب نزول هذه الآيات في فائدة لاحقة ، نحب هنا أن ننبه على أن مما يدخل تحت عموم هذه الآيات بطريق الأولى في عصرنا صنعة المحاماة التي هي في كثير من أحوالها دفاع عن العصاة والخائنين ، ومما يدخل تحت هذا العموم ، الدفاع عن أيٍّ مذنب وعاص ، وخائن لله ورسوله وجماعة المسلمين في أمر ما .

٢ - قوله تعالى : ﴿ **لتحكم بين الناس بما أراك** ﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية ، وبما ثبت في الصحيحين « أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : ألا إنما أنا بشر ، وإنما أقضي بنحو مما أسمع ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض ، فأقضي له ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو ليذرها » .

٣ - وفي سبب نزول الآيات السابقة ، وآيتين بعدها ، يروي الترمذي وابن جرير عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال : « كان أهل بيت منّا يقال لهم : بنو أبيرق ، بشر ، وبشير ، ومبشّر ، وكان بشير رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجوبه أصحاب رسول

الله ﷺ ، ثم ينحله لبعض العرب ، ثم يقول : قال فلان كذا وكذا ، وقال فلان كذا وكذا ، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الرجل الخبيث ، أو كما قال الرجل . وقالوا : ابن الأبيرق قالها ، قالوا : وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام ، وكان النّاس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشّعير . وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة من الشام من الدرمك ، ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه ، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشّعير ، فقدِمت ضافطة من الشام ، فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من الدرمك ، فجعله في مشربة له ، وفي المشربة سلاح ودرع وسيف ، فعُدِيَ عليه من تحت البيت ، فنقبت المشربة ، وأخذ الطعام والسلاح ، فلمّا أصبحنا أتاني عمي رفاعة فقال : ياابن أخي ! إنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه ، فنقبت مشربتنا فذُهِب بطعامنا وسلاحنا . قال : فتحسسنا في الدار ، وسألنا فقيل لنا : قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم .

قال : وكان بنو أبيرق قالوا ونحن نسأل في الدار - والله مانرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل ، رجلاً منا له صلاح وإسلام - فلمّا سمع لبيد اخترط سيفه وقال : أنا أسرق ؟ والله ليخالطنّكم هذا السيف ، أو لتبيننّ هذه السرقة ، قالوا : إليك أيها الرجل ، فما أنت بصاحبها ، فسألنا في الدار حتى لم نشكّ أنهم أصحابها . فقال لي عمي : ياابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، قال قتادة : فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إن أهل بيت منا أهل جفاء ، عمدوا إلى عمّي رفاعة بن زيد ، فنقبوا مشربة له ، وأخذوا سلاحه وطعامه ، فليردُّوا علينا سلاحنا ، فأمّا الطعام فلا حاجة لنا فيه ، فقال النّبيُّ ﷺ سآمر في ذلك ، فلمّا سمع بذلك بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له أسيد بن عروة ، فكلّموه في ذلك ، فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدّار فقالوا : يارسول الله ! إن قتادة ابن النعمان وعمّه عمدا إلى أهل بيت منّا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسَّرقة من غير بيّنة وثبت ، قال قتادة : فأتيت النّبيَّ ﷺ فكلّمته فقال : « عمدت إلى أهل بيْت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسَّرقة على غير ثبت ولا بيِّنة » قال فرجعت ولوددّت أني خرجت من بعض مالي ، ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك . فأتاني رفاعة فقال : ياابن أخي ، ما صنعت ، فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ فقال : الله المستعان ، فلم نلبث أن نزل القرآن ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً** ﴾ يعني بني أبيرق . ﴿ **واستغفر الله** ﴾ . أي : مما قلت لقتادة ﴿ **إن الله كان غفوراً رحيمًا ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ...** ﴾ إلى قوله

﴿ **رحيمًا** ﴾ . أي : لو استغفروا الله لغفر لهم . ﴿ **ومن يكسب إثمًا فإنما يكسبه على نفسه** ... ﴾ إلى قوله ﴿ **إثمًا مبيناً** ﴾ قوله للبيد ﴿ **ولولا فضل الله عليك ورحمته** ... ﴾ إلى قوله ﴿ **فسوف نؤتيه أجراً عظيمًا** ﴾ فلّما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسّلاح فردّه إلى رفاعة ، فقال قتادة : لمّا أتيت عمّي بالسّلاح ، وكان شيخاً قد عمي أو عشي – الشك من أبي عميس – في الجاهلية ، وكنت أرى إسلامه مدخولاً ، فلما أتيته بالسِّلاح قال : يابن أخي هي في سبيل الله ، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً . فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين فنزل على سلافة بنت سعد بن سميّة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيّن له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولِّه ما تولّى ، ونصله جهنم وساءت مصيراً إن الله لايغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً** ﴾ فلما نزل على سلافة بنت سعد هجاها حسّان بن ثابت بأبيات من شعر ، فأخذت رحله فوضعته على رأسها ، ثم خرجت به فرمته في الأبطح ثم قالت : أهديت لي شعر حسان ، ما كنت تأتيني بخير » .

٤ – روى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال : « كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعني الله فيه بما شاء أن ينفعني منه . وحدّثني أبوبكر – وصدق أبوبكر – قال : قال رسول الله ﷺ « ما من مسلم يذنب ذنباً ، ثم يتوضّأ ، ثم يصلّي ركعتين ، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له ، وقرأ هاتين الآيتين ﴿ **ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه** ... ﴾ الآية . ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم** ... ﴾» .

٥ – جاءت امرأة إلى عبدالله بن مغفّل فسألته عن امرأة فجرت فحبلت ، فلما ولدت قتلت ولدها ، قال عبدالله بن مغفّل : لها النّار ، فانصرفت وهي تبكي ، فدعاها ثم قال : ما أرى أمرك إلا أحد أمرين « من يعمل سوءاً أويظلم نفسه ثمَّ يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيمًا » قال : فمسحت عينيها ثمَّ مضت .

٦ ـــ هناك رواية تذكر أن ابن أبيرق عندما بلغه أنه اتهم بسرقة الدرع عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي اسمه زيد بن السمين ، وقال لنفر من عشيرته إني غَيّبت الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده ، وعلى هذه الرواية يكون البرىء يهودياً ، وعلى أساس هذه الرواية يعلّق صاحب الظلال على مجموعة الآيات التي نزلت بسبب

الحادثة بقوله : « هذه الآيات تحكي قصة لاتعرف لها الأرض نظيراً ، ولا تعرف لها البشرية شبيهاً .. وتشهد - وحدها - بأن هذا القرآن وهذا الدين لابد أن يكون من عند الله ، لأن البشر - مهما ارتفع تصورهم ، ومهما صفت أرواحهم ، ومهما استقامت طبائعهم - لايمكن أن يرتفعوا - بأنفسهم - إلى هذا المستوى الذي تشير إليه هذه الآيات ؛ إلا بوحي من الله ... هذا المستوى الذي يرسم خطاً على الأفق لم تصعد إليه البشرية - إلا في ظل هذا المنهج - ولاتملك الصعود إليه أبداً إلا في ظل هذا المنهج كذلك .

إنه في الوقت الذي كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة التي تحويها جعبتهم اللئيمة ، على الإسلام والمسلمين ؛ والتي حكت هذه السورة وسورة البقرة وسورة آل عمران جانباً منها ، ومن فعلها في الصف المسلم ..

في الوقت الذي كانوا فيه ينشرون الأكاذيب ، ويؤلبون المشركين ، ويشجعون المنافقين ، ويرسمون لهم الطريق ، ويطلقون الإشاعات ، ويضللون العقول ، ويطعنون في القيادة النبوية ، ويشككون في الوحي والرسالة ، ويحاولون تفسيخ المجتمع المسلم من الداخل ، في الوقت الذي يؤلبون عليه خصومه ليهاجموه من الخارج .. والإسلام ناشىء في المدينة ، ورواسب الجاهلية مايزال لها آثارها في النفوس ، ووشائج القربى والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم ، تمثل خطراً حقيقياً على تماسك الصف المسلم وتناسقه . في هذا الوقت الحرج ، والخطر ، الشديد الخطورة .. كانت هذه الآيات كلها تتنزل ، على رسول الله ﷺ وعلى الجماعة المسلمة ، لتنصف رجلاً يهودياً اتهم ظلمًا بسرقة ؛ ولتدين الذين تآمروا على اتهامه ، وهم بيت من الأنصار في المدينة . والأنصار يومئذ هم عدة الرسول ﷺ وجنده ، في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله ، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة ... ! .

أي مستوى هذا من النظافة والعدالة والتسامي ! ثم أي كلام يمكن أن يرتفع ليصف هذا المستوى ؟ وكل كلام ، وكل تعليق ، وكل تعقيب ، يتهاوى دون هذه القمة السامقة ، التي لايبلغها البشر وحدهم . بل لا يعرفها البشر وحدهم . إلا أن يقادوا بمنهج الله ، إلى هذا الأفق العلوي الكريم الوضيء ؟!...

إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة بريء ، تآمرت عليه عصبة لتوقعه في الاتهام - وإن كانت تبرئة بريء أمراً هائلاً ثقيل الوزن في ميزان الله - إنما كانت أكبر من ذلك .

كانت هي إقامة الميزان الذي لايميل مع الهوى ، ولا مع العصبية ، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أياً كانت الملابسات والأحوال .

وكانت المسألة هي تطهير هذا المجتمع الجديد ؛ وعلاج عناصر الضعف البشري فيه مع علاج رواسب الجاهلية والعصبية - في كل صورها حتى في صورة العقيدة ، إذا تعلق الأمر بإقامة العدل بين الناس - وإقامة هذا المجتمع الجديد ، الفريد في تاريخ البشرية ، على القاعدة الطيبة النظيفة الصلبة المتينة التي لاتدنسها شوائب الهوى والمصلحة والعصبية ، والتي لاتترجرج مع الأهواء والميول والشهوات ! .

ولقد كان هناك أكثر من سبب للإغضاء عن الحادث ، أو عدم التشديد فيه والتنديد به وكشفه هكذا لجميع الأبصار . بل فضحه بين الناس - على هذا النحو العنيف المكشوف ...

كان هناك أكثر من سبب لو كانت الاعتبارات الأرضية هي التي تتحكم وتحكم موازين البشر ومقاييسهم هي التي يرجع إليها هذا المنهج ! .

كان هناك سبب واضح عريض ... أن هذا المتهم « يهودي » من « يهود » يهود التي لاتدع سهمًا مسموماً تملكه إلا أطلقته في حرب الإسلام وأهله . يهود التي يذوق منها المسلمون الأمرّين في هذه الحقبة (ويشاء الله أن يكون ذلك في كل حقبة !) يهود التي لا تعرف حقاً ولا عدلاً ولا نصفة ، ولا تقيم اعتباراً لقيمة واحدة من قيم الأخلاق في التعامل مع المسلمين على الإطلاق ! .

وكان هناك سبب آخر ، وهو أن الأمر في الأنصار . الأنصار الذين آووا ونصروا ، والذين قد يُوجِد هذا الحادث بين بعض بيوتهم مايُوجِد من الضغائن . بينما أن اتجاه الاتهام إلى يهودي ، يبعد شبح الشقاق ! .

وكان هنالك سبب ثالث ، هو عدم إعطاء اليهود سهمًا جديداً يوجهونه إلى الأنصار ، وهو أن بعضهم يسرق بعضاً ، ثم يتهمون اليهود ! وهم لايدعون هذه الفرصة تفلت للتشهير بها والتغرير ! .

ولكن الأمر كان أكبر من هذا كله . كان أكبر من الاعتبارات الصغيرة . الصغيرة في حساب الإسلام . كان أمر تربية هذه الجماعة الجديدة لتنهض بتكاليفها في خلافة الأرض وفي قيادة البشرية . وهي لاتقوم بالخلافة في الأرض ولا تنهض بقيادة البشرية حتى

يتضح لها منهج فريد متفوق على كل ما تعرف البشرية ؛ وحتى يثبت هذا المنهج في حياتها الواقعية ، وحتى يمحص كيانها تمحيصاً شديداً ؛ وتنفض عنه كل خبيئة من ضعف البشر ومن رواسب الجاهلية ، وحتى يقام فيها ميزان العدل – لتحكم بين الناس – مجرداً من جميع الاعتبارات الأرضية ، والمصالح القريبة الظاهرة ، والملابسات التي يراها الناس شيئاً كبيراً لايقدرون على تجاهله .

واختار الله – سبحانه – هذا الحادث بذاته ، في ميقاته .. مع يهودي .. من يهود التي يذوق منها المسلمون الأمرين إذ ذاك في المدينة ، التي تؤلب عليهم المشركين ، وتؤيد بينهم المنافقين ، وترصد كل ما في جعبتها من مكر وتجربة وعلم لهذا الدين ! وفي فترة حرجة من حياة المسلمين في المدينة ، والعداوات تحيط بهم من كل جانب ، ووراء كل هذه العداوات يهود .

اختار الله هذا الحادث في هذا الظرف ، ليقول فيه – سبحانه – للجماعة المسلمة ما أراد أن يقول ، وليعلمها به ما يريد لها أن تتعلم ! .

ومن ثم لم يكن هناك مجال للّباقة ، ولا للكياسة ، ولا للسياسة ، ولا للمهارة ، في إخفاء ما يحرج ، وتغطية ما يسوء . ولم يكن هناك مجال لمصلحة الجماعة المسلمة الظاهرة ! ومراعاة الظروف الوقتية المحيطة بها !.

هنا كان الأمر جداً خالصاً ، لايحتمل الدهان ولا التمويه ! وكان هذا الجدّ هو أمر هذا المنهج الرباني وأصوله . وأمر هذه الأمة التي تُعد لتنهض بهذا المنهج وتنشره . وأمر العدل بين الناس . العدل في هذا المستوى الذي لايرتفع إليه الناس – بل لايعرفه الناس – إلا بوحي من الله ، وعون من الله .

وينظر الإنسان من هذه القمة السامقة على السفوح الهابطة – في جميع الأمم على مدار الزمان – فيراها هنالك .. هنالك في السفوح . ويرى من تلك القمة السامقة في السفوح الهابطة صخوراً متردية ، هنا وهناك ، من الدهاء ، والمراء ، والسياسة ، والكياسة ، والبراعة ، والمهارة ، ومصلحة الدولة ، ومصلحة الوطن ، ومصلحة الجماعة .. إلى آخر الأسماء والعنوانات .. فإذا دقق الإنسان فيها النظر رأى من تحتها .. الدود ..!! .

وينظر الإنسان مرة أخرى فيرى نماذج الأمة المسلمة – وحدها – صاعدة من السفح إلى القمة . تتناثر على مدار التاريخ ، وهي تتطلع إلى القمة ، التي وجهها إليها المنهج

الفريد . أما العفن الذي يسمونه « العدالة » في أمم الجاهلية الغابرة والحاضرة ، فلا يستحق أن نرفع عنه الغطاء ، في مثل هذا الجو النظيف الكريم .

كلمة في السياق :

بدأ المقطع بتبيان مراد من مرادات الله في إنزال الكتاب - وهو الحكم - بالحق بين الناس ، ثم ثنّى بالنهيّ عنِ الدفاع عن الخائنين ، واستمر المقطع يوضِّح حيثيات هذا المعنى حتى الآية التي تذكِّر رسول الله ﷺ بفضل الله عليه ، والتذكير بفضل الله - الذي منه إنزال الكتاب والحكمة - مرتبط بموضوعي الحكم بالحق ، وعدم الدفاع عن الخائنين . فلا يليق بأحد بعد إنزال الكتاب والحكمة أن يحكم إلا بالحق ، كما لايليق به أن يدافع عن أهل الباطل . وفي الآية الأخيرة تذكير لرسول الله ﷺ بفضل الله عليه ، بإنزال الكتاب والحكمة ، وبالعصمة التي خصّه بها .

﴿ **لاخير في كثير من نجواهم** ﴾ التناجي : كلام الناس فيما بينهم وقد نفى الله الخيريَّة عنه ﴿ **إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس** ﴾ . أي : إلا نجوى من أمرَ بصدقة ، ففي نجواهم الخير ، والصدقة تشمل الزكاة وصدقة التطوع ، وإلا نجوى من أمر بمعروف ، والمعروف : شريعة الله ودينه . ومن المعروف القرض وإغاثة الملهوف وكل جميل . وإلا من أمر بإصلاح ذات البين ﴿ **ومن يفعل ذلك** ﴾ . أي : المذكورات ﴿ **ابتغاء وجه الله** ﴾ . أي : طلباً لمرضاة الله ، وخرج عنه من فعل ذلك رياء أو ترأساً ﴿ **فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ . أي : ثواباً جزيلاً كثيراً واسعاً ﴿ **ومن يشاقق الرّسول من بعد ما تبيّن له الهدى** ﴾ . أي : ومن يخالف الرسول من بعد وضوح الدليل ، وظهور الرّشد ﴿ **ويتبع غير سبيل المؤمنين** ﴾ . أي : ويتبع غير ما عليه المؤمنون من الدّين ، وهذا دليل على أن الإجماع حجّة لاتجوز مخالفتها ، كما لايجوز مخالفة الكتاب والسنة ، لأن الله تعالى جمع بين اتّباع غير سبيل المؤمنين ، وبين مشاقّة الرسول ﷺ في الشّرط ، وجعل جزاءه الوعيد الشّديد ، فكان اتّباع الإجماع واجباً كموالاة الرسول ﷺ . ﴿ **نولّه ما تولّى** ﴾ . أي : في الدنيا نجعله والياً لما تولى من الضلال ، وندعه وما اختاره في الدنيا . ﴿ **ونُصْله جهنّم** ﴾ . أي : في الآخرة ، ﴿ **وساءت مصيراً** ﴾ . وأيُّ منقلب ومأوى ومستقر شر من النار ؟ !

فوائد :

١ - روى الترمذي عن رسول الله ﷺ قوله : « كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا ذكر الله - عز وجل - أو أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر » .

٢ - روى الإمام أحمد عن أمِّ كلثوم بنت عقبة - وهي من المهاجرات - أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ، فينمي خيراً ، أو يقول خيراً ، وقالت : لم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث : في الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها » .

٣ - وروى الإمام أحمد عن أبي الدّرداء قال : قال ﷺ : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصّدقة ؟ قالوا : بلى يارسول الله قال : إصلاح ذات البين ، قال : وفساد ذات البين هي الحالقة » . رواه أبوداود والترمذي وقال حسن صحيح .

﴿ **إنّ الله لايغفر أن يُشْرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً** ﴾ . أي : عن الصواب ، إذ ضلّ عن الهدى ، وعطّل قوانين العقل ، وأفسد تصوراته ، فانحرف سلوكه ، وفاتته سعادة الدنيا والآخرة . ﴿ **إن يدعون من دونه إلا إناثاً** ﴾ والإناث جمع أنثى : وهي اللات والعزى ومنات ، ولم يكن حيٌّ من العرب إلا ولهم صنم يعبدونه ، يسمونه أنثى بني فلان . وحتى ملحدوا عصرنا يخلعون على الطبيعة كل صفات الإله ، وخصائصه فمعبودهم أنثى ، وحتى الوجوديون الذين يعبدون أنفسهم يبقون في إطار عبادة الإناث . ومن عبد الملائكة من العرب كان يعتبر الملائكة أنهم بنات الله . وبعضهم فسّر الأنثى بأنه الذي لاروح له ، من حجر أو خشب يابس . فالمشركون لا يعبدون إلا أمواتاً لاحياة فيها . ﴿ **وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً** ﴾ . أي : وما يعبدون في الحقيقة إلا الشيطان الخارج عن الطاعة ، العاري عن الخير وهو المَريد . لأنه هو الذي أغراهم على عبادة الأصنام ، فأطاعوه ، فجعلت طاعتهم له عبادة ، وكيف يعبدون الشيطان وقد جمع الله عليه صفتين : لعنة الله ، وأخذه على نفسه أن يُضلَّ بني آدم . قال تعالى : ﴿ **لَعَنَه الله** ﴾ . أي : طرده ، وأبعده عن رحمته ، وأخرجه من جواره . ﴿ **وقال لَأَتخِذن من عبادك نصيباً مفروضاً** ﴾ . أي : نصيباً معيّناً مقدّراً معلوماً ، مقطوعاً واجباً لي . قال قتادة : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار . ﴿ **ولأُضلنَّهم** ﴾ . أي : بأن يدعوهم إلى الضّلالة والتزين والوسوسة . ﴿ **ولأمنينّهم** ﴾ . أي : يلقي في قلوبهم الأماني

الباطلة ، من طول الأعمار وبلوغ الآمال ، ودخول الجنة بلا عمل ، وتحقيق الأهداف بلا أخذٍ بالأسباب . ﴿ **ولآمرنّهم فَلَيُبتكنَّ آذان الأنعام** ﴾ . البتك : القطع . والتبتيك : للتكثير والتكرير . والمعنى ولأحملنهم على أن يقطعوا آذان الأنعام ، كانوا يشقُّون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً ، وحرّموا على أنفسهم الانتفاع بها . قال قتادة والسدي وغيرهما في تفسير التبتيك : يعني تشقيقها وجعلها سِمَة وعلامة للبحيرة والسائبة والوصيلة ، وسيمر تفسيرها في سورة المائدة .

﴿ **ولآمرنهم فليُغيرنَّ خلق الله** ﴾ من مثل فقء عين الحامي ، وإعفائه عن الركوب ، والخصاء ، وهو مباح في البهائم محظور في بني آدم . والوشم ، والنمص ، والتنمص ، والتفليج للحسن ، وتغيير الشيب بالسواد ، والتحريم والتحليل ، والتخنّث ، وتشبه الرجال بالنّساء ، والنّساء بالرِّجال . وأهم من ذلك تبديل فطرة الله التي هي دين الإسلام بصرف الناس عنها . ﴿ **ومن يتخذ الشّيطان ولياً من دون الله** ﴾ أي : مجيباً إلى مادعاه إليه . ﴿ **فقد خسر خسراناً مبينا** ﴾ . أي : واضحاً ، وأيُّ خسارة أعظم من خسارة الهدى في الدنيا ، وخسارة الآخرة بدخول النّار . ﴿ **يعدهم** ﴾ . أي : يوسوس إليهم أن لاجنة ولا نار ، ولا بعث ، ولا حساب . ﴿ **ويمَنّيهم** ﴾ . أي : يجعلهم يتمنون مالا ينالون . ﴿ **وما يعدهم الشيطان إلا غروراً** ﴾ . أي : يريهم الأمر على خلاف ما هو ، وهذا هو الغرور ، رؤية الإنسان نفسه على خلاف ماهو . ﴿ **أولئك** ﴾ . أي : أولياء الشيطان المستجيبون له ، ﴿ **مأواهم جهنّم ولا يجدون عنها محيصاً** ﴾ . أي : معدلاً ومفراً ، أو مندوحة ، أو مصرفاً ، أو خلاصاً ، أو مناصاً . وبعد أن ذكر الله - عز وجل - حال أولياء الشيطان ، ذكر حال السعداء ، والأتقياء ، وماهم من الكرامة التامّة . ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ فخالفوا الشيطان ، فلم يتبعوه بالكفر أو بعمل السوء ﴿ **سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً** ﴾ . أي : بلا زوال ولا انتقاص ﴿ **وعد الله حقاً** ﴾ . أي : هذا وعد من الله ، ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة . ﴿ **ومن أصدق من الله قيلا** ﴾ . أي : لا أحد أصدق منه .

وفائدة هذه التوكيدات مقابلة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه ، بوعد الله الصادق لأوليائه . وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته : « إن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » .

فوائد :

١ - في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : « لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والنامصات والمتنمصات ، والمتفلِّجات للحسن المغيرات خلق الله ثم قال : ألا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله - عز وجل - يعني قوله : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ .

٢ - إن أعظم تبديل لخلق الله يؤاخذ الله عليه هو تبديل الفطرة .

في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » . وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ « قال الله - عز وجل - : إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم » .

كلمة في السياق :

رأينا أن هذا المقطع يوضِّح جوانب من الحق والعدل في إطار العبادة والتقوى والإيمان والعمل الصالح : وفي المجموعة الأولى رأينا أن الدفاع عن الخائنين محرم . وفي المجموعة الثانية رأينا المناجاة الخيّرة ، وفي المجموعة الثالثة رأينا فظاعة الشرك ، وكونه من الشيطان ، ورأينا معالم مظلمة من دروس الشيطان ومدرسته . وكل ذلك بيان عن الحق والعدل أو ما يتنافى معهما .

ولننتقل إلى مجموعة رابعة في هذا المقطع :

﴿ **ليس بأمانيكم** ﴾ . أي : ليس الأمر على شهواتكم وأمنياتكم . ﴿ **ولا أمانّي أهل الكتاب** ﴾ . أي : وليس الأمر على شهوات اليهود والنّصارى وأمنياتهم في ادّعائهم بنوَّة الله ، وأنهم أحبابه ، وأنه لن تمسهم النّار إلا أياماً معدودات وغير ذلك . ﴿ **من يعمل سوءاً يُجزَ به** ﴾ منهم من فسّر السوء هنا بالمعصية أياً كانت ، ومنهم من فسّرها بالمعصية التي لاتغفر وهي الشرك ، مستدلاً بتتمة الآية بعدها في وصف حال المؤمنين . ﴿ **ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً** ﴾ هذا وعيد للكفار ، أو هو وعيد لكل من فعل ذنباً على الخلاف السابق في تفسير السوء . ﴿ **ومن يعمل من**

الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾ تقييد العمل بالإيمان دليل لأهل السنة والجماعة على أن العمل ليس من الإيمان ، بل علامة عليه ، وكمال فيه . ﴿ **فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً** ﴾ . أي : قدر نقير ، والنّقير : هو النّقرة في ظهر النواة . والضمير في ﴿ **ولا يظلمون** ﴾ يعود لعمّال السوء ، وعمّال الصالحات جميعاً ، وجاز أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دليلاً على ذكره عند الآخر . ﴿ **ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله** ﴾ . أي : أخلص نفسه لله ، وجعلها سالمة له لا يعرف لها رباً ولا معبوداً سواه ﴿ **وهو محسن** ﴾ . أي : يعمل الحسنات مع المراقبة لله ﴿ **واتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً** ﴾ الحنيف : هو المائل عن الأديان الباطلة إلى الدّين الحق . والجواب : أنه لا أحد أحسن دينا ممن اجتمع له الإسلام والإحسان ، والاتباع لملة إبراهيم . كيف لا ﴿ **واتخذ الله إبراهيمَ خليلاً** ﴾ . الخليل في الأصل اللغوي هو الخالّ ، وهو الذي يخالّك ، أي يوافقك في خلالك ، أو يداخلك منزلك ، أو يسدّ خللك والخُلّة هنا صفاء مودّة ويفهم منها الاختصاص بتخلّل الأسرار . وقد اصطفى الله - عز وجل - إبراهيم لمقام الخُلّة عنده . وفائدة ذكر هذه الجملة تأكيد وجوب اتّباع ملّته وطريقته ، لأن من بلغ من الزلفىٰ عند الله أن اتخذه خليلاً ، كان جديراً بأن تتبع ملّته وطريقته . ﴿ **ولله ما في السمٰوات وما في الأرض** ﴾ ذكر هذا بعد ما سبقه إشارة إلى أن اتخاذ الله إبراهيم خليلاً إنما كان لاحتياج الخليل إليه ؛ مكافأة له على عبوديته ، لا لاحتياجه تعالى إليه ، لأنه منزّه عن ذلك ، فهو مالك كل شيء ﴿ **وكان الله بكل شيء محيطاً** ﴾ أي : عالماً . قال ابن كثير في تفسيرها : أي علمه الفذ في جميع ذلك ، لاتخفى عليه خافية من عباده ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، ولا تخفى عليه ذرة مما تراءى للنّاظرين ، وما توارىٰ .

فوائد :

١ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ليس بأمانيكم** ﴾ قال ابن عباس : تخاصم أهل الأديان ، فقال أهل التوراة : كتابنا خير الكتب ، ونبيُّنا خير الأنبياء ، وقال أهل الإنجيل مثل ذلك ، وقال أهل الإسلام : لادين إلا الإسلام ، وكتابنا نسَخ كلَ كتاب ، ونبيُّنا خاتم النَّبيين ، وأُمِرْ تُم وأمرنا أن نؤمن بكتابكم ونعمل بكتابنا ، فقضى الله بينهم وقال : ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجزبه** ﴾ الآية . وخيّر بين الأديان فقال : ﴿ **ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾ . قلت فأظهر

الله في هذه الآية المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان .

٢ - روى الإمام أحمد عن أبي بكر قال: « يارسول الله ! كيف الفلاح بعد هذه الآية : ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانّي أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجزبه** ﴾ فكل سوء عملنا به ، فقال النبي ﷺ غفر الله لك ياأبابكر ألست تمرض ، ألست تنصب ، ألست تحزن ، ألست تصيبك اللأواء ، قال : بلىٰ ، قال : فهو مما تجزون به » وفي رواية « إنما هي المصيبات في الدنيا » وفي رواية : « المصائب والأمراض والأحزان في الدنيا جزاء » ، وفي رواية عن عائشة عن رسول الله ﷺ في الآية « هو ما يصيب العبد المؤمن حتى النكبة ينكبها » وفي رواية قال : « ياعائشة هذه مبايعة الله للعبد مما يصيبه من الحمى والنكبة والشوكة ، حتى البضاعة فيضعها في كمّه فيفزع لها فيجدها في جيبه ، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما أن الذهب يخرج من الكير » وفي رواية : « إن المؤمن يؤجر في كل شيء حتى في القبض عند الموت » . وفي رواية عنها « إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفِّرها ابتلاه الله بالحزن ليكفِّرها عنه » . وروى سعيد بن منصور أن أباهريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ **من يعمل سوءاً يجز به** ﴾ شقَّ ذلك على المسلمين ، فقال رسول الله ﷺ « سدِّدوا وقاربوا ، فإنّ في كل مايصاب به المسلم كفّارة حتى الشوكة يشاكها ، والنكبة ينكبها » . وفي الصحيحين » عنه عليه الصلاة والسلام « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا سقم ، ولا حزن ، حتى الهمُّ يهمه إلا كفّر الله من سيئاته » . وروى ابن مردويه عن ابن عباس قال : « قيل يارسول الله من يعمل سوءاً يجز به ؟ قال : نعم ومن يعمل حسنة يجز بها عشراً ، فهلك من غلب واحدتُه عشراته » .

٣ - ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري « أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال : أمّا بعد أيُّها النّاس فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبابكر بن أبي قحافة خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله » وروى الحاكم وقال صحيح على شرط البخاري عن ابن عباس قال : « أتعجبون من أن تكون الخلّة لإبراهيم ، والكلام لموسىٰ ، والرؤية لمحمد ﷺ » قال ابن كثير ، وكذا روي عن أنس ابن مالك وغير واحد من الصحابة والتابعين والأئمة من السلف والخلف » .

فصل : في المصائب تصيب الإنسان :

رأينا في المجموعة السابقة قوله تعالى ﴿ **من يعمل سوءاً يجز به** ﴾ فهذه الآية

والنصوص التي ذكرناها بمناسبتها تفيد أن صاحب الذنب مجازى به فإن كان مسلماً ففي الدنيا ، ويحتمل أن يؤخر إلى الآخرة إذا لم يُرِد الله له السلامة في الآخرة، وإن كان كافراً فعذابه في الآخرة ، وقد يعجّل الله له العقوبة في الدنيا زيادة على الآخرة ، والله - عز وجل - يقول في سورة الشورى ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ قال البيضاوي : « والآية مخصوصة بالمجرمين فإن ماأصاب غيرهم فلأسباب أخر ، منها تعريضه للأجر العظيم بالصبر عليه » أقول : كلام البيضاوي في التخصيص يظهر في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فهم معصومون عن الذنب ، فالمصيبة في حقهم رفع درجات ، أما في غير الرسل عليهم الصلاة والسلام فإن الإنسان لايخلو من ذنب ، وقد يكون ذنبه في تقصيره في حقوق الإسلام ، أو في حقوق الغير قال تعالى :

﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ فالأمة بمجموعها قد تصاب بسبب قصور بعضها ؛ لأن هناك مسئولية مشتركة بشكل ما بين بني الإنسان ، أو بين المسلمين بعضهم مع بعض ، فالأصل في المصيبة أن تكون بسبب ذنب ، وهي في حق المسلم رحمة من الله - عز وجل - به ، وهي في حق الكافر سخط من الله وعقوبة عاجلة ، وههنا قد يلتبس الأمر على كثير من الناس ، وأهل البصيرة يعرفون ويميزون ، ويدركون الحكمة ويسلمون لله فعله ، وإذا أراد عبد السلامة فليقم بحق الله قياماً كاملاً في أمر نفسه وغيره ، وعندئذ يكون الابتلاء في حقه رفع درجات .

﴿ **ويستفتونك في النّساء** ﴾ الإفتاء : تبيين المبهم ، والاستفتاء : السؤال عن حكم الله فيما هو مبهم والمعنى : ويسألونك الإفتاء في النّساء ﴿ **قل الله يفتيكم فيهنّ وما يتلىٰ عليكم في الكتاب في يتامىٰ النساء** ﴾ أي : الله وكتابه القرآن يفتيكم فيهنّ ، وقوله تعالى : ﴿ **وما يتلىٰ عليكم في الكتاب في يتامىٰ النساء** ﴾ . معناه : والمتلو عليكم في القرآن في حقّ اليتامى يفتيكم فيهنّ ، وهو إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ...** ﴾ نفهم من هذا أن تلك الآية في أوّل سورة النّساء تفتيكم فيما تسألون عنه ، والله يفتيكم فيما يأتي فيما يحتاج إلى تبيان . ويتامى النساء اللاتي ذكرهن الله من قبل وصفهنّ هنا ﴿ **اللاتي لاتؤتونهنّ ماكتب لهن ، وترغبون أن تنكحوهن** ﴾ . قالت عائشة : هو الرجل تكون عنده اليتيمة ، هو وليُّها ووارثها ، فأشركته في ماله حتى في العذق ، فيرغب أن ينكحها (أي عن أن ينكحها) ، ويكره أن يزوّجها رجلاً فيشركه في ماله بما شركته فيعضلها ، فنزلت هذه الآية رواه البخاري

ومسلم . فمعنى اللاتي لاتؤتونهن ما كتب لهن في الآية : أي لا تعطونهنّ ما فرض لهنّ من الميراث ، ﴿ **وترغبون أن تنكحوهن** ﴾ أي : في أن تنكحوهن لجمالهن ، أو عن أن تنكحوهن لدمامتهن ﴿ **والمستضعفين من الولدان** ﴾ أي : اليتامى . كانوا في الجاهلية إنما يُورّثون الرجال القوّامين بالأمور دون الأطفال والنّساء . ﴿ **وأن تقوموا لليتامىٰ بالقسط** ﴾ القسطَ : العدل في الميراث والمال . والخطاب للأئمة في أن ينظروا لهم ، ويستوفوالهم حقوقهم ﴿ **وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليمًا** ﴾ فيجازيكم به .

فائدة :

هذه الآية من غوامض الآيات ، وتحتاج إلى دقة فهم ، ومزيد علم ، فلينتبه القارىء للكلام عنها . في أول السورة : مرّ قوله تعالى : ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء ...** ﴾ ثم قال : ﴿ **وآتوا النساء صدقاتهن نِحْلَةً ..** ﴾ ثم ذكر بعد ذلك أحكام اليتامىٰ ، فهذا كله مما تُلي علينا وله صلة بأحكام يتامىٰ النساء عامة ، وخلاصته أن اليتيمة إن شاء وليُّها أن يتزوجها تزوجها بمهر مثلها ، وإن رغب عنها فعليه أن يزوِّجها إذا جاء طلابها . وحكمها في ماسوى ذلك حكم اليتامىٰ عامة ، وقد أمر الله بالقيام بالقسط لليتامىٰ ، مفصّلاً أحكام ذلك في أول سورة النساء ، فمن ثَمّ علمنا أنّ ما ورد في أول سورة النساء يوضّحه ما في هذه الآية ، إذ فيها تفصيل لصفات من كان الحديث عنهن في أول السورة . ففي أول سورة النساء ، حكم يتيمات النساء واليتامىٰ عامة .

وفي هذه الآية استفتاء عن أمور النساء عامة ﴿ **ويستفتونك في النساء** ﴾ فبين الله - عز وجل - أنه سيبيّن ماله علاقة بذلك ، وأن ما تلاه في أول سورة النّساء من أحكام اليتيمات واليتامىٰ عامة مبيِّن لبعض أمورهن . فما تلي من قبل ، وما سينزله من بعد ، كل ذلك جواب للاستفتاء في شأن النساء . نفهم من ذلك أنه ما من قضية من قضايا النساء إلا وقد أفتى الله بها فيما مرّ ويمرُّ . ومن ثَم تأتي الآيات الثلاث التالية توضّح بعض أحكام النِّساء ؛ تنفيذاً لوعد الله في الإفتاء في شأن النّساء .

إذن : فالآية تعرض أن الناس يستفتون في شأن النساء ، والآية تبيِّن أن ما أنزله الله ، وما ينزله فيه بيان لكل ماله علاقة بهذا الشأن . وقد لخّص الله ما أنزل في شأنهن ومن

هنَّ اللواتي بيَّن أحكامهن في أول السورة ، فهل اتضحت هذه الآية وصلة مابعدها بها ، وما محل ذلك كله في سياقها ؟ الآيات الثلاث التالية : ﴿ **وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً** ﴾ النشوز : أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقته ، وأن يؤذيها بسبٍّ أو ضرب . والإعراض أن يقلّل محادثتها ومؤانستها بسبب كبر سن أو دمامة ، أو سوء في خُلق أو خَلق ، أو ملال ، أو طموح عين إلى أخرى ، أو غير ذلك . والمعنى أنه إذا توقّعت امرأة ما من زوجها نشوزاً أو إعراضاً لما لاح لها من مخايله وأماراته ، ﴿ **فلا جناح عليهما أن يُصلحا بينهما صلحاً** ﴾ . أي : فلا إثم عليهما أن يتصالحا ، وذلك بأن تطيب له نفساً عن القسمة ، أو عن بعضها ، أو تهب له بعض المهر أو كله أو النفقة .

﴿ **والصلح خير** ﴾ . أي : من الفرقة والنشوز ، أو من الخصومة في كل شيء . أو المعنى كما أن الخصومة شر من الشرور ، فإن الصلح خير من الخيور . ﴿ **وأحضرت الأنفس الشُّحَّ** ﴾ . أي : جعل الشح حاضراً لها لا يغيب عنها أبداً ، ولا تنفك عنه . يعني أنها مطبوعة عليه . والمراد هنا أن المرأة لاتكاد تسمح بقسمها أو بشيء لها . والرجل لايكاد يسمح بأن يقسم لها أو بشيء إذا رغب عنها ، فكل واحد منهما يطلب مافيه راحته ومصلحته ومنفعته . ثم رفع الله الهمة إلى الإحسان والتقوى ، وفي ذلك حثٌّ على مخالفة الطبع ، ومتابعة الشرع فقال : ﴿ **وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ . أي : وإن تحسنوا بالإقامة على نسائكم وإن كرهتموهنّ، وأحببتم غيرهنَّ ، وتصبروا على ذلك مراعاة لحق الصحبة ، وتتقوا النشوز والإعراض وما يؤدي إلى الأذى والخصومة ، فإن الله عليم بإحسانكم وتقواكم وسيثيبكم عليه .

فوائد :

١ - في سنن سعيد بن منصور عن عروة قال : « أنزل الله في سودة أم المؤمنين رضي الله عنها وأشباهها ﴿ **وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً** ﴾ وذلك أن سودة رضي الله عنها كانت امرأة قد أسنت ، ففرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ ، وضنَّت بمكانها منه ، وعرفت من حبِّ رسول الله ﷺ عائشة ومنزلها منه ، فوهبت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة فقبل رسول الله ﷺ » وروى الشافعي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ توفّي عن تسع نسوة ، وكان يقسم لثمان .

٢ - روى ابن أبي حاتم . جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فسأله عن قول الله - عز

وجل - ﴿ **وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً** ﴾ قال علي : يكون الرجل عنده المرأة فتنبو عيناه عنها من دمامتها ، أو كبرها ، أو سوء خلقها ، أو قذذها ، فتكره فراقه ، فإن وضعت له من مهرها شيئاً حلَّ له ، وإن جعلت له من أيّامها فلا حرج .

٣ - عند قوله تعالى : ﴿ **والصلح خير** ﴾ يروي ابن كثير الحديث الذي رواه أبوداود : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم** ﴾ تمام العدل أن يسوّي بينهن بالقسمة والنّفقة والتّعهّد والنّظر والإقبال ، والمكالمة والمفاكهة والجماع وغيرها ، وهذا كله غير مستطاع للإنسان مهما كان حريصاً في تحرّي ذلك ، ولذلك فرض الله العدل في النّفقة والكسوة والمبيت ، ولم يفرض فيما سوى ذلك . وفي الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود عن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » (يعني القلب) فمثل هذا عفا الله عن العدل فيه . وأما ما فرض الله فيه العدل فواجب فقد روى الإمام أحمد وأهل السنن عنه ﷺ « ومن كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما ، جاء يوم القيامة وأحد شقّيه ساقط » .

﴿ **فلا تميلوا كلّ الميل فتذروها كالمعلّقة** ﴾ المعلقة : هي التي ليست بذات بعل ولا مطلّقة . والمعنى : فلا تجوروا كلّ الجور على المرغوب عنها فتتركوها كالمعلّقة . أي إذا لم يكن العدل المطلق ممكناً ، فراعوا ألا تفرّطوا في حقِّ المرغوب عنها ، لدرجة أن تجعلوها كالمعلقة ، بحرمانها قسمها وذلك حرام إلا برضاها ، أو بعدم الإقبال عليها في قسمتها وذلك ضارٌّ بها . ﴿ **وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما** ﴾ . أي : وإن أصلحتم في أموركم وقسمتم بالعدل فيما تملكون ، واتّقيتم الله في جميع الأحوال غفر الله لكم ماكان من ميْل إلى بعض النّساء دون بعض . أو المعنى : وإن تصلحوا بينهن وتتقوا الجور فيهن يغفر لكم ميل قلوبكم ، ويرحمكم فلا يعاقبكم . ﴿ **وإن يتفرقا** ﴾ . أي : إن لم يصطلح الزوجان على شيء ، وتفرّقا بالخلع ، أو بتطليقه إياها ، وإيفائه مهرها ونفقة عدتها . ﴿ **يغن الله كلاً من سَعَته** ﴾ . أي : يغن الله كلّ واحد منهما من غناه ، أي يرزقه إن شاء زوجاً خيراً من زوجته ، وعيشاً أهنأ من عيشه . ﴿ **وكان الله واسعاً حكيماً** ﴾ واسعا في عطائه ، إذ الواسع هو الغني المقتدر ، حكيمًا إذ أذن في الطلاق والتسريح .

كلمة في السياق :

هذه هي المجموعة الخامسة في هذا المقطع وتبدأ من قوله تعالى ﴿ **ويستفتونك في النساء ...** ﴾ ومحل هذه المجموعة في السياق من حيث إن هذا المقطع بيَّن الله - عز وجل - فيه أنه أنزل كتابه ليحكم رسوله ﷺ بين الناس بالحق .ومن جوانب العدل والحق ماله علاقة بقضايا النساء . ومن ثم جاء الاستفتاء ، وكانت الفتوى ، ففي المجموعة بيان للحق والعدل في هذا الشأن ضمن محور التقوى الذي هو محور سورة النساء . ومن ثَم تكرّر ذكر التقوى في هذه الآيات .

ثم تأتي المجموعة السادسة في هذا المقطع لتذكِّر بالتقوى ، التي هي محور هذه السورة وتذكِّر بالله - عز وجل - وباليوم الآخر . وهذه هي المجموعة السادسة ، وبعدها تأتي آية الختام في هذا المقطع .

﴿ **ولله مافي السمٰوات وما في الأرض** ﴾ بعد أن ختم الله - عز وجل - الآية السابقة بالتذكير باسمين من أسمائه ، بيّن غناه وقدرته بذكر أن له مافي السمٰوات ومافي الأرض خلقاً ورزقاً ﴿ **ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله** ﴾ فهذه هي الوصية الدائمة لنا ، وللأمم قبلنا أن نتقي الله ، كيف لا ونحن عبيده ، فالمعنى : أن هذه وصية قديمة مازال يوصي الله بها ، ولستم مخصوصين بها ، لأنه بالتقوى وحدها يسعد الإنسان عند الله . وكما أمر من قبلنا بالتقوى ، وأمرنا بها ، فقد قال لنا ولهم : ﴿ **وإن تكفروا فإن لله ما في السمٰوات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً** ﴾ . أي : غنياً عن خلقه ، وعن عبادتهم مستحقاً لأن يحمد ؛ لكثرة نعمه وإن لم يحمده أحد . كيف وهو مالك السمٰوات والأرض ﴿ **ولله مافي السمٰوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا** ﴾ وإذا كان ذلك فلا تتكلوا على غيره واتخذوه وحده وكيلاً لكم في شئونكم كلها ، وتكرير قوله : ﴿ **لله ما في السمٰوات وما في الأرض** ﴾ تقرير لما هو موجب تقواه والتوكل عليه ، لأن الخلق لمّا كانوا كلُّهم له ، وهو خالقهم ومالكهم ، فحقه أن يكون مطاعاً في خلقه غير معصي ؛ متوكّلاً عليه لا على غيره . وقوله تعالى : ﴿ **وإن تكفروا ... وكفى بالله وكيلا** ﴾ في هذا السياق دليل على أن رأس الأمر التوحيد والتوكل . ثم خوّف الله - عز وجل - عباده فقال : ﴿ **إن يشأ يذهبكم أيُّها النّاس ويأت بآخرين** ﴾ . أي : إن يشأ يعذبكم عذاب استئصال أيُّها النّاس ويوجد إنساً آخرين مكانكم، أو خلقاً آخرين غير الإنس . ﴿ **وكان الله على ذلك قديرا** ﴾ . أي : بليغ القدرة ﴿ **من كان يريد ثواب الدنيا** ﴾ في عمله ،

وحاله ، وقلبه ، واعتقاده وسلوكه وجهاده ﴿ **فعند الله ثواب الدنيا والآخرة** ﴾ وإذا كان الأمر كذلك فما للإنسان يطلب إحداهما دون الأخرى ، والتي يطلبها أخسها . ﴿ **وكان الله سميعاً بصيراً** ﴾ سميعاً للأقوال ، بصيراً بالأفعال ، وهو وعد ووعيد . وإذ استقرت معاني مالكيّته وقدرته وثوابه في الدنيا والآخرة ، يصدر الله أمره بالعدل : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط** ﴾ . أي : كونوا مجتهدين في إقامة العدل حتى لاتجوروا . ﴿ **شهداء لله** ﴾ . أي : مقيمين شهادتكم لوجه الله ﴿ **ولو على أنفسكم** ﴾ . أي : ولو كانت الشهادة على أنفسكم ﴿ **أو الوالدين والأقربين** ﴾ . أي : ولو كانت الشهادة على آبائكم وأمهاتكم وأقاربكم . ﴿ **إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما** ﴾ . أي : إن يكن المشهود عليه غنيّاً فلا يمنعنّكم غناه عن الشهادة عليه طلبا لرضاه ، أو كان المشهود عليه فقيراً فلا يمنعكم فقره من الشهادة عليه ترحُّماً عليه ، لأن الله أولى بالأغنياء والفقراء بالرعاية للجميع والرحمة للجميع . أما أنتم فواجبكم إقامة شهادة الحق .

﴿ **فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا** ﴾ . أي : فلا يحملنَّكم الهوى والعصبيّة والبغض أو الحب عن العدول عن الحق إلى الباطل ، أو من أن تتركوا العدل إلى الجور . ﴿ **وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ اللّي : الحرف ، والإعراض : الترك والمنع . والمعنى : وإن تلووا عن شهادة الحق ، أو حكومة العدل ، بتحريف الشهادة والحكم ، أو تعرضوا عن الشهادة بما عندكم بمنعكم الشهادة وتركها ، وعدم أدائها ، فإن الله خبير بعملكم فيجازيكم عليه . قال عليه الصلاة والسلام : « خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها » .

فائدة :

شهادة الإنسان على نفسه هي الإقرار على نفسه ، لأنه في معنى الشهادة عليها بإلزام الحق،والدعوى والشهادة والإقرار تشترك جميعها في الإخبار عن حق لأحد على أحد . غير أن الدعوى : إخبار عن حق لنفسه على الغير ، والإقرار : إخبار عن حق للغير على نفسه ، والشهادة : إخبار عن حق للغير على الغير ، والشهادة فرض ..

كلمة في سياق المقطع :

بدأ المقطع بذكر الحق ، وانتهى بذكر العدل وإقامة الشهادة . وبين الحكم بالحق الذي هو

القرآن ، وذكر العدل تلازم ، إذ لا عدل ولا حق إلا ما وافق حكم الله . وفيما بين الحق والعدل وإقامة الشهادة تلازم ، إذ يضيع الحق والعدل بلا شهود عدول ، وبلا أمة تحمل الحق والعدل . وفيما بين البداية والنهاية ذكرت قضايا من الحق والعدل في شئون الحياة ، وفي شئون النساء ، وفي شئون العقيدة ، وكل ذلك بما يتناسب مع ما تدور حوله السورة من محور العبادة والتقوى ، والإيمان والعمل الصالح .

كلمة في سياق المقاطع الأربعة الأخيرة :

جاءت المقاطع الأربعة بعد آية : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . إنّ الله نِعِمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرًا** ﴾ .

ولو أنك تأمّلت المقاطع الأربعة الأولى من السورة ؛ لرأيت أنها ركّزت على قضايا هي أقرب إلى قضية الأمانة : الإرث ، وأداء أموال اليتامى إليهم ، وعدم أكل أموال الناس بالباطل ، إلى الصلاة وهي أمانة في عنق الإنسان .

ولو أنك تأملت المقاطع الأربعة التالية لما سبق لرأيت أنها ركّزت على قضايا هي أقرب إلى قضية الحكم ، فكأن الآية ﴿ **إن الله يأمركم** ... ﴾ كانت جسراً بين ما قبلها وما بعدها ، هذا مع ملاحظة أن المقاطع الأربعة الأولى فيها ما له علاقة بالحكم ، وأن المقاطع الأربعة التالية فيها ما له علاقة بالأمانة . لقد جاءت المقاطع الأربعة الأخيرة بعد آية : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ وجاء المقطع الأخير ليبدأ بقوله تعالى : ﴿ **إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله** ﴾ ولينتهي بقوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط** ﴾ . أي : بالعدل ، فالمقطع الرابع - إذن - واضح الصلة بآية ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ وعلى هذا فإننا نفهم أن المقاطع الأربعة لها صلة بالحكم بالعدل . إن الطاعة لله والرسول ﷺ ولأولي الأمر ، وإن الجهاد الدائم هما الطريقان الوحيدان لإقامة الحكم بالعدل .

إنه مالم يكن المسلمون صفاً واحداً ، ذا قيادة واحدة ، مطاعة بالحق ، وما لم يكن هذا الصف على استعداد دائم للجهاد ، وعلى تعبئة جزئية أو كلّية ، فإن العدل لن يقوم ، وإن الحكم الإسلامي العادل لن يقوم .

كلمة في ارتباط سياق المقاطع بمحور السورة :

بعد مقدمة سورة البقرة التي تحدثت عن المتقين والكافرين والمنافقين ، جاءت آيات خمس تأمر بعبادة الله كطريق إلى التقوى ، وتنهى عن الشرك ، وتحرِّر من الريب ، وتنذر الكافرين ، وتبشر المؤمنين الصالحين ، فرسمت بذلك الطريق للوصول إلى التحقيق بالتقوى ، ومن التقوى الاهتداء بالقرآن ، والإيمان بالغيب ، وإقام الصلاة ، والإنفاق في سبيل الله ، وقد جاءت المقاطع الأربعة الأخيرة تعمّق في موضوع التقوى ، فبينت أن من التقوى طاعة الله وطاعة رسوله  ، وطاعة أولي الأمر من المسلمين ، ومن التقوى القتال في سبيل الله ، ومن التقوى الحكم بكتاب الله وعدم الجدال عن الخائنين ، ومن الملاحظ أنه قد ورد في أواخر المقاطع الأربعة قوله تعالى : ﴿ **ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله** ﴾ وكان في المقطع حديث عن الإيمان والعمل الصالح وبشارة لأهلهما وكان فيه إنذار للكافرين وفضح للمنافقين .

☆ ☆ ☆

قلنا من قبل : إن سورة النساء تفصّل في محورها من سورة البقرة وهي الآيات الخمس وفي امتدادات هذا المحور في السورة :

ومن امتدادات هذا المحور في السّورة قضايا القتال ، وقضايا المرأة ، وقضايا الصلاة ، وقضايا الشهادة ، وقد رأينا تفصيلات كثيرة لذلك في سورة النساء . ومن أبرز مظاهر هذه الصلة : أن صلاة الخوف في سورة البقرة جاءت في ثنايا الكلام عن قضايا النكاح والطلاق ، والملاحظ أن صلاة الخوف في سورة النساء قد جاء بعد مقطعها المقطع الذي فيه الاستفتاء عن النساء ، وفيه ذكر لمواضيع الوفاق والفراق . وهذا يؤكد ما ذكرناه من قبل : بأن لكل سورة من القرآن محورها في سورة البقرة ، وأن السورة تفصل في هذا المحور وفي امتدادات معانيه الأشد لصوقاً به ؛ فهي تجذب المعاني الأشد لصوقاً في المحور إلى المحور ، ثم تفصّل وتوضح وتكمّل وتؤصل وتفرِّع وتذكّر ، وكل ذلك على ترتيب خاص ، ومن خلال سياق خاص للسورة الواحدة .

فأنت ترى كيف أن سورة النساء تتألف من مقاطع ، وكل مقطع له وحدته ، وللسورة كلها سياقها الخاص الجامع ، وكل ذلك مرتبط بالمحور .

فالسورة تبدأ بالأمر بتقوى الله الذي خلق النساء والرجال ، وتبدأ بالأمر باتقاء الأرحام ، ثم تسير في تبيان أحكام لها صلة بالأسرة ، ولها صلة بالنساء والرجال ،

وتأمر بالعبادة التي هي طريق للتقوى ، فإذا تحدثت عن دائرة الأسرة تنتقل إلى دائرة أوسع ، ثم تعود إلى دائرة الأسرة ، وكل ذلك مرتبط بالآية الأولى من السورة .

﴿ **ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾ .

كلمة قصيرة بين يدي المقطعين التاسع والعاشر :

أثناء الكلام عن سورة البقرة قلنا عن آية البر ﴿ **ليس البر أن تولوا ...** ﴾ إنها لخصت ما مر وفصلت فيه فقد فصلت من مقدمة سورة البقرة ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ لقد فصلت ذلك بقوله تعالى : ﴿ **ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين** ﴾ وختمت آية البر بقوله تعالى : ﴿ **وأولئك هم المتقون** ﴾ . والملاحظ أن المقطعين التاسع والعاشر في سورة النساء يبدآن بقوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً** ﴾ فههنا في هذين المقطعين من سورة النساء يأتي تفصيل لما يدخل في ماهية التقوى وماهية النفاق والكفر .

فهما تفصيل للمحور من سورة البقرة وارتباطاته وامتداداته إنهما تفصيل لجزء مما يدخل تحت قوله تعالى من المحور : ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ فلكي تتقي عليك أن تؤمن وعليك أن تتحرر من النفاق ومن الكفر نجد فيهما : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا آمِنوا ...** ﴾ . ﴿ **وبشّر المنافقين بأن لهم عذاباً أليمًا** ﴾ ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرِّقوا بين الله ورسله** ﴾

وسنرى بعد العرض للمقطعين سياقهما الخاص وارتباطهما بالمحور بشكل أكثر تفصيلاً .

المقطعان التاسع والعاشر

يمتد هذان المقطعان من الآية (١٣٦) حتى نهاية الآية (١٦٢) . وكل من المقطعين مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا** ﴾ : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله**

والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ . ﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً** ﴾ .

والمقطعان يكملان بعضهما البعض. فهما في موضوع واحد؛ولذلك فإن خاتمة المقطع الثاني لها صلة ببداية المقطع الأول : ﴿ **لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ .

ولذلك ، فسنعرض المقطعين عرضاً واحداً :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ

ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

☆ ☆ ☆

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

☆ ☆ ☆

لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

☆ ☆ ☆

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۙ ﴿١٥٠﴾

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

☆ ☆ ☆

يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ

وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

☆ ☆ ☆

كلمة في المقطعين :

بعد مقدمة سورة البقرة ، دعا الله الناس جميعاً ليسيروا في الطريق المؤدي إلى أن يكونوا من المتقين . وذلك بالسير في طريق العبادة والتوحيد . وتحداهم بهذا القرآن . وأمر رسوله ﷺ أن يبشر الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات ، بالجنة . وإذ كان الإيمان بالغيب ، والإيمان بالقرآن ، والكتب السابقة ، ركناً من أركان التقوى . فههنا في سورة النساء التي تفصل في الطريق إلى التقوى وفي ماهيتها ، يأتي الأمر بتجديد الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر . ويأتي الأمر لرسول الله ﷺ بتبشير المنافقين بالعذاب . هناك في سورة البقرة ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ .

وفي السورة التي تفصل في ذلك المحور ، تأتي التتمة : ﴿ **وبشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليمًا** ﴾ .

وفي هذا السياق يحذِّرنا الله – عز وجل – من سلوك طريق النفاق .

وإذا كان أهل الكتاب مكلفين بالإيمان بالقرآن ، ليكونوا من المتقين ، فإنه في هذا السياق يقصُّ الله علينا من أنبائهم ، ومواقفهم ليستقر السياق على نفر منهم . ﴿ **لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك ...** ﴾ . لاحظ التشابه بين هذه الصفات ، وبين صفات المتقين في سورة البقرة :

﴿ **الذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هُدىً من ربهم** ﴾ إن السورة التي تفصل في الطريق إلى التقوى ، تصف التقوى ،

وما يدخل فيها وما يخرج منها . كما تفصِّل في طريقها الذي هو العبادة ، والتوحيد ، والإيمان ، والعمل الصالح .

المعنى العام للمقطعين :

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدُّخول في شرائع الإيمان ، وشُعَبِه ، وأركانه ، ودعائمه ، من باب تكميل الكامل ، وتقريره ، وتثبيته ، والاستمرار عليه . ثم بيَّن تعالى أن الذي يكفر بركن من أركان الإيمان ، فقد خرج عن طريق الهدى ، وبَعُدَ عن القصد كل البعد . ثم أخبر تعالى عمّن دخل في الإيمان ، ثم رجع عنه ثم عاد فيه ، ثم رجع ، واستمر على ضلاله وازداد حتى مات . فإنه لاتوبة له بعد موت ، ولا يغفر الله له ، ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ، ولا مخرجاً ، ولا طريقاً إلى الهدى . وبعد أن ذكّر أهل الإيمان ، وذكر أهل الكفر بنوعيهم ، من كان ابتداءً كافراً ، ومن كفر بعد إيمان ، عقّب بوصف المنافقين . ويذكّرنا هذا بمقدمة سورة البقرة إذ تتكلم عن المتقين ، ثم الكافرين ، ثمّ المنافقين ، فسورة النساء وهي التي تفصِّل في ماهية التقوى ، ترسم الطريق ليكون الإنسان من أهل التقوى متطهِّراً من الكفر والنفاق . بدأ الكلام هنا عن المنافقين ، بالأمر بأن يبشرهم رسوله والمؤمنون بالعذاب الأليم . ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . بمعنى أنهم معهم في الحقيقة . يوالونهم ، ويسِرون إليهم بالمودة . ثم بيَّن تعالى سبب موالاتهم للكافرين : طلبهم بهذه الموالاة العزة ، والجاه في الدنيا . ثم أخبر تعالى بأن العزة كلها له وحده ، لاشريك له ، ولمن جعلها له من أجل أن يهيِّج القلوب فتطلب العزة من جنابه وحده ؛ فتقبل على العبودية له . فينتظم أصحابها في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النُّصرة في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد . ثم حرَّم الله الجلوس في المكان الذي يُكفر فيه بآيات الله ، ويستهزأ بها فيه . وبيّن أننا إذا ارتكبنا النهي بعد أن وصل إلينا ، ورضينا بالجلوس مع الكافرين والمنافقين في المكان الذي يُكفر فيه بآيات الله ، ويُستهزأ بها ويُنتقص منها ، وأقررناهم على ذلك ، فقد شاركناهم في الذي هم فيه ، ومن شارك الكافرين في كفرهم ، فقد استحق أن يشركه الله معهم في نار جهنَّم أبداً . ويجمع بينهم في دار العقوبة ، والنّكال ، والقيود ، والأغلال ، وشراب الحميم ، والغسلين . نفهم من ذلك أن مجالسة الكافرين مع إعلانهم الكفر ، واستهزائهم بدين الله مع الإقرار ، نفاق . ثم زاد الله المؤمنين بصيرة بالمنافقين ، فوصفهم بعد أن وصفهم بمجالسة الكافرين على الحال التي مرت بنا ، بأنهم يتربّصون

بالمؤمنين دوائر السوء ، بمعنى : أنهم ينتظرون زوال دولتهم ، وظهور الكفرة عليهم ، وذهاب ملتهم . ولكنهم لنفاقهم ، إن رأوا نصراً ، وتأييداً للمسلمين ، يتوددون إليهم بالتظاهر بأنهم معهم . وإن كان للكافرين إدالة على المؤمنين ، كما قد يقع في بعض الأحيان ، يقولون للكافرين : لقد ساعدناكم في الباطن . وما ألونا المؤمنين خبالاً ، وتخذيلاً حتى انتصرتم عليهم . يصانعون المؤمنين إن كانت لهم غلبة . ويصانعون الكافرين إن كانت لهم غلبة ، ليحظوا عند الجميع ، ويأمنوا الجميع . وما ذاك إلا لضعف إيمانهم وقلة يقينهم . ثم هدّدهم الله - عز وجل - بأن لايغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليهم ظاهراً في الحياة الدنيا ؛ لما لله في ذلك من الحكمة . فيوم القيامة لاتنفع الظواهر . ويوم القيامة تظهر العزة كلها للمؤمنين . ولايكون للكافرين على المؤمنين أدنى طريق . فلا يغتر من يغتر بما قد يكون للكافرين من غلبة على المؤمنين في الحياة الدنيا . ثم زادنا الله بصيرة في شأن المنافقين ، وأنهم من جهلهم بالله ، وقلة علمهم وعقلهم ، يعتقدون أن أمرهم كما راج على النّاس - حتى جرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً ، فكذلك يكون حكمهم يوم القيامة . وأن أمرهم يروج عند الله . ولكن أنّى يروج خداعهم على الله ، وكيف يمرُّ . فالله الحكم العدل ، البصير ، الخبير ، يستدرجهم حتى في الدنيا - في طغيانهم ، وضلالهم . ويخذلهم عن الحق ، والوصول إليه فكذلك يوم القيامة هم مجزيون على كفرهم .

ثم بيّن الله - عز وجل - صفة أخرى من صفات المنافقين . وكيف أنهم إذا عملوا أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها ، وهي الصلاة ، كان عملهم محاطاً بالكسل . فإذا قاموا إلى الصلاة ، قاموا كسالى ؛ لأنهم لانيّة لهم فيها ، ولا إيمان لهم بها ، ولا خشية في شأنها ولا يعقلون معناها . ومن ثم يقومون إليها كسالى . وهذه صفة ظاهرهم في أدائها ، وأما صفة بواطنهم الفاسدة ، فهي أنهم لا إخلاص لهم فيها . وإنَّما يؤدونها مراءاة للناس ، ومصانعة لهم . ثم هم في صلاتهم لايخشعون ولا يدرون مايقولون ، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون ، وعمّا يُراد بهم من الخير معرضون . ثم زادنا الله بصيرة في شأن المنافقين ، فوصفهم بالحيرة ، والتردّد بين الإيمان ، والكفر ، والمؤمنين ، والكافرين . فلا هم مع المؤمنين ظاهراً ، وباطناً . ولا هم مع الكافرين ظاهراً ، وباطناً . بل ظواهرهم مع المؤمنين ، وخاصة عندما تكون الغلبة للمؤمنين . وبواطنهم مع الكافرين . ومنهم من يعتريه الشك . فتارة يميل إلى هؤلاء ، وتارة يميل إلى أولئك . وذلك علامة من أراد الله إضلاله : أن لا تجد له طريقاً واضحاً . وبعد أن اتضحت

حال المنافقين ، وأن أساس نفاقهم هو موالاة الكافرين ، نهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أي : نهى عن مصاحبتهم ، ومصادقتهم ، ومناصحتهم ، وإسرار المودّة إليهم ، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم . ثم حذّر أنه إن فعلنا ذلك ، فإننا نكون قد جعلنا الحجة قائمة علينا في استحقاقنا عقوبة الله .

ثم بيّن الله – عز وجل – ما أعده من عقوبة للمنافقين ، جزاء على كفرهم الغليظ . وهو استحقاقهم العذاب في أسفل النار ، في توابيت من نار ، مغلقة عليهم ، مقفلة . وأنهم لا ناصر لهم من الله ينقذهم مما هم فيه . ويخرجهم من أليم العذاب . ثم أخبر تعالى أنه من تاب منهم في الدنيا ، تاب الله عليه، وقبل ندمه إذا أخلص في توبته ، وأصلح عمله ، واعتصم بربِّه في جميع أمره ، وبدّل الرياء بالإخلاص . فعندئذ يكونون في زمرة المؤمنين . ينالهم ماينالهم من الأجر العظيم . ثمّ أخبر تعالى عن غناه عمّا سواه وأنّه إنّما يعذِّب العباد بذنوبهم ، وأنّه منزّه – تعالى – أن يعذّب من أصلح العمل وآمن . إذ إنه تعالى يشكر من شكر له . ومن آمن علم ذلك منه وجازاه على ذلك أوفر الجزاء .

في هذا السياق الذي علمنا فيه الله – عز وجل – أنه منزه عن مقابلة الشكر والإيمان بالعذاب ، وأنه يعذب من يستحق العذاب ، أدّبنا على ألا ندعوا على أحد إلا إذا ظلمنا ، وألا نتكلم على أحد إلا إذا ظلمنا . وندبنا إلى العفو حتى في مثل هذا ؛ لأن من صفاته هو ، العفو مع كمال القدرة . ثم بين لنا أنّه إن عاقب ، لا يعاقب إلا بعد استحقاق العذاب . فليحذر أحدٌ عقوبته العادلة ، إن كفر أو نافق .

ثم يعود السياق إلى الكلام عن الكفر – الذي ينقض الإيمان – وعن أهله . إذ المقطع كله في قضيّة الإيمان ، وما ينقضها من كفر ، أو نفاق . فتوعّد الله الكافرين به – تعالى – وبرسله . وخاصة الذين يفرِّقون بين الله ورسله في الإيمان . فيؤمنون ببعض ، ويكفرون ببعض بمحض التشهي والعادة وما ألفوا عليه آباءهم ، لا عن دليل قادهم إلى ذلك ، فإنه لاسبيل لهم إلى ذلك ، بل بمجرد الهوى والعصبية ، كحال اليهود . إذ كفروا بعيسىٰ ، وكحالهم وحال النصارى إذ كفروا بمحمد ﷺ ، فمن كفر بنبيٍّ من الأنبياء ، فقد كفر بسائر الأنبياء . فإنّ الإيمان واجب بكل نبيٍّ بعثه الله إلى الأرض . فمن ردَّ نبوَّة واحد منهم ، فقد ردّ نبوَّة الكلِّ . لذلك وصف الله – عز وجل – أمثال هؤلاء بأن كفرهم محقق لاشك فيه ، وأنهم كما استهانوا بمن كفروا به ، إما لعدم نظرهم

فيما جاءهم به من الله ، وإعراضهم عنه ، وإقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لاضرورة بهم إليه . وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته . فإنهم في مقابل هذه الاستهانة ، يعاقبهم الله بالعذاب المهين في الآخرة . أما المؤمنون الذين آمنوا بالله ، وبكل الرسل ، فقد أعد الله لهم الجزاء الجزيل ، والثواب الجليل ، والعطاء الجميل على ما آمنوا بالله ورسله ، ووعدهم المغفرة ، والرحمة .

ولنلاحظ في هذا المقطع كيف أنه بدأ بالدَّعوة إلى تحقيق الإيمان وبيَّن الكفر وجزاءه . وهدّد المنافقين ، وبيّن صفاتهم ثم بدأ يناقش نوعاً من الكافرين . وهم الذين يكفرون ببعض الرسل دون بعض . وأوَّل من ينطبق عليهم هذا الوصف هم اليهود والنّصارى . ومن ثَمّ يبدأ المقطع يناقش هؤلاء ، ويسفّه ماهم عليه كما سنرى إن شاء الله - والمهم هنا أن نلاحظ كيف أن هذين المقطعين اللذين هما في حكم المقطع الواحد ، منصبان على قضية الإيمان التي محلها في التقوى ما عرفناه في أول سورة البقرة . فلنتذكر أن محور النساء هو تبيان ماهية التقوى . لكي يكون إدراكنا للسياق الجزئي ، والعام ، صحيحاً .

ولنرجع إلى استعراض المعاني العامة :

سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً مكتوباً من السماء مباشرة . وإنما سألوه هذا على سبيل التعنّت والكفر ، لارغبة بالآية من أجل الإيمان ، لأن نبوّة محمد ﷺ وآياته ظاهرة واضحة . فبيّن الله لرسوله أن سؤالهم هذا من باب التعنّت ، لا من باب طلب الدّليل . وأن هذه طبيعتهم المتوارثة . فهاهم مع كل ما رأوا من الآيات مع موسىٰ عليه السلام ، طالبوه أن يريهم الله جهرة ، فعوقبوا . وعبدوا العجل بعد كل البيِّنات ، فعوقبوا ، وعُفي عنهم . وأخذت عليهم مواثيق غليظة في أوضاع معجزة . فنقضوا المواثيق ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء ، ووصفوا أنفسهم بقسوة القلب وتغليفه ، فراراً من الموعظة والطاعة . وادّعوا أنهم قتلوا المسيح ابن مريم . ورموا أمه الطاهرة بالزنا . هذه هي طبيعتهم الظالمة . فهل يستغرب موقفهم من رسالة محمد ﷺ بعد هذه الطبيعة ، وبسبب من ظلمهم هذا ، وبسبب صدّهم عن سبيل الله ، وبسبب أكلهم الربا ، وبسبب أكلهم أموال الناس بالباطل ، شدّد الله عليهم في الحياة الدنيا ، وسيعاقب الكافرين منهم في الآخرة عقاباً أليمًا . وحتى لايظن ظان أنهم ليس فيهم إلا مَن هذا شأنه ، استثنى الله من هذه الأوصاف ، الراسخين في العلم منهم ،

والمؤمنين بكل وحي أنزله الله ، والمقيمين الصلاة ، والمؤتين الزكاة ، والمؤمنين بالله ، واليوم الآخر . فهؤلاء سيؤتيهم الله أجراً عظيمًا .

إن السياق في هذه المجموعة الأخيرة انصبَّ باتجاهه الرئيسي ، على هذه المعاني . ولكنه خلال ذلك ، تحدّث عن أشياء كثيرة . عن رفع المسيح إلى السماء . وعن نزوله قُبَيل يوم القيامة . وعن أشياء أخرى . وكما بدأ السياق بالأمر بالإيمان للمؤمنين . فقد ختم بوصف طائفة من أهل الكتاب متحققة بأركان التقوى . ولنتذكر مقدمة سورة البقرة ، التي حددت صفات المتقين ، والكافرين ، والمنافقين . لنرى كيف أن هذا المقطع بيان وتفصيل لمحل الإيمان في التقوى ، وما ينافيه .

ففي أول سورة البقرة : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

فلنقارن هذا بآخر آية في هذا المقطع : ﴿ **لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيمًا** ﴾ ولنتذكر الآية الأولى في هذا المقطع : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ...** ﴾ لنرى بوضوح كيف أن سورة النساء شرح لقضية التقوى وتفصيل لها . وإذا كان الإيمان هو الركن الرئيسي في التقوى . فقد انصب الكلام في المقطعين عليه . وستتضح الأمور لنا أكثر أثناء الشرح الحرفي لهذين المقطعين .

المعنى الحرفي :

﴿ **ياأيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله** ﴾ . أي : محمد ﴿ **والكتاب الذي نزَّل على رسوله** ﴾ أي : القرآن ﴿ **والكتاب الذي أنزل من قبل** ﴾ . أي : جنس ما أنزل على الأنبياء قبله من الكتب ، أي كل الكتب ، والخطاب للمسلمين . والمعنى اثبتوا على الإيمان وداوموا عليه ، وجدِّدوه . قال ابن كثير : وقال في القرآن : نزّل لأنّه نزل مفرقاً منجَّماً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم . وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة . ﴿ **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر** ﴾ . أي : ومن يكفر بشيء من ذلك . ﴿ **فقد ضل ضلالاً بعيداً** ﴾ أي : فقد

خرج عن طريق الهدى وبَعُد عن القصد كل البعد ، لأن الكفر بأي ركن أو بأيّ مما يدخل في كل ركن من أركان الإيمان كفر بالكل . والملاحظ أنه قد ذكرت خمسة أركان من أركان الإيمان هنا ، لأن الركن السادس- وهو الإيمان بالقدر- جزء من مضمون الإيمان بالله ، لأن الإيمان بالقدَر إيمان بعلم الله الأزلي ، وإرادته الأزلية ، وإبراز ما أراده بقدرته ، وكون ذلك مسجَّلا في اللوح المحفوظ وكل ذلك يدخل في الإيمان بالله .

﴿ **إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً** ﴾ هم المنافقون آمنوا في الظاهر ، وكفروا بالسرِّ مرّة أخرى ، وازدياد الكفر منهم ، ثباتهم عليه إلى الموت ، أو أنهم آمنوا ثم كفروا ، ثم آمنوا ، ثم كفروا ، على حسب الأحوال من ظهور للإسلام وأهله ، أو ظهور على الإسلام والمسلمين . ﴿ **لم يكن الله ليغفر لهم** ﴾ بسبب كفرهم الذي لايغفره الله . ﴿ **ولا لِيهدِيَهم سبيلاً** ﴾ . أي : طريقاً إلى النّجاة ، أو إلى الجنة بسبب كفرهم مرّة بعد مرة . وقد استدلّ الإمام علي بهذه الآية وكون الكفر بعد الإيمان ذكر مرة بعد مرة ثلاث مرات : أن المرتدَّ يستتاب ثلاثاً . وذكر المنافقين بعد هذه الآيات يشعر بأن هذه حال من أحوال المنافقين . ﴿ **بشّر المنافقين** ﴾ . أي : أخبرهم ، ووضعت (**بَشّر**) مكان أخبر تهكمًا بهم على طرائق العرب في الخطاب ﴿ **بأن لهم عذاباً أليمًا** ﴾ . أي : مؤلمًا . ثم وصف الله المنافقين مبيِّناً حالهم بتوسّع ، كما فعل في مقدمة سورة البقرة ؛ لخفاء حال المنافقين ، ولكثرة خطرهم وعظمه . ﴿ **الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين** ﴾ قلوبهم معهم ، وعواطفهم معهم ، ويعطونهم نصرتهم ، ويستنصرون بهم ، ويعطونهم طاعتهم ومودّتهم . ﴿ **أيبتغون عندهم العزة** ﴾ . أي : إن المنافقين يوالون الكفرة طلباً منهم للمنعة والنُّصرة والجاه ، وظهور هذه المعاني في عصرنا بارز جداً ويعطيها تفسيرها العملي ، ففي عصرنا نجد من مظاهر الولاء ، انتساب أبناء المسلمين للأحزاب الكافرة ، وإعطاء قيادتها الكافرة الولاء والطاعة والنصرة بغية تحصيل شيء من جاه الدنيا ومتاعها . ولذلك بيّن الله - عز وجل - أن العزَّة له وحده ليقطع دابر مثل هذه الأفكار . ﴿ **فإن العزَّة لله جميعاً** ﴾ يعطي منها من يشاء ، ويمنعها من يشاء . فلا يطلبنّ المؤمن العزّة إلا من الله . وأي قيمة لعزة في الدنيا تعقبها ذلة أبدية في الآخرة ، ولأن المجالسة مظهر من مظاهر الولاء ، وطلب العزة ، ولكون هذا مرتبطاً بقضية النفاق ، جاءت الآية ﴿ **وقد نزّل عليكم في الكتاب** ﴾ . أي : في القرآن ، وهو إشارة إلى ما ورد في سورة الأنعام ، مما سيأتي معنا ﴿ **أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى**

يخوضوا في حديثٍ غيره ﴾ . أي : حتى يشرعوا في كلام غير الكفر والاستهزاء بالقرآن ، والخوض : هو الشروع . ﴿ **إنكم إذاً مثلهم** ﴾ . أي : في الوزر إذا مكثتم معهم . ولم يرد به التمثيل من كل وجه ، فإن خوض المنافقين فيه كفر ، ومكث هؤلاء إن رافقه رضى ومشاركة فهو كفر ، وإن رافقه كراهة وعدم مشاركة فهو معصية .

﴿ **إنّ الله جامع المنافقين والكافرين في جهنّم جميعاً** ﴾ لاجتماعهم في الكفر والاستهزاء ، فكما شارك المنافقون الكافرين في الكفر ، كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنّم . وقد أفهمت الآية أنّ من أخلاق المنافقين مجالسة الكافرين ومشاركتهم ومؤانستهم ، والسماع منهم كلام الكفر ، ومشاركتهم إياهم بالاستهزاء بالإسلام . ثم زادنا الله بصيرة بالمنافقين بمزيد من أوصافهم . ﴿ **الذين يتربَّصون بكم** ﴾ أي : ينتظرون بكم ما يتجدّد لكم من ظفر أو إخفاق ، أو ينتظرون زوال دولتكم وظهور الكفرة عليكم ، وذهاب ملّتكم . ﴿ **فإن كان لكم فتح من الله** ﴾ أي : نصر وتأييد وظفر ، ﴿ **قالوا ألم نكن معكم** ﴾ . أي : ألم نكن مظاهرين لكم ، ونعطيكم نصرتنا، ونؤيِّدكم. يقولون ذلك تَوَدُّدًا ومصانعة للمؤمنين. ﴿**وإن كان للكافرين نصيب** ﴾ . أي : حظ من الإدالة على المؤمنين لحكمة يريدها الله . ﴿ **قالوا . ألم نستحْوذ عليكم ونمنعْكم من المؤمنين** ﴾ . أي : قالوا للكافرين كان بإمكاننا أن نغلبكم ، ونتمكن من قتلكم ، ولكنّا أبقينا عليكم ، وكان بإمكاننا أن نشجِّع المؤمنين عليكم ، ولكنا ثبَّطناهم عنكم ، وخيّلنا لهم ما ضعفت قلوبهم به ومرضوا عن قتالكم ، وتوانينا في مظاهرتهم عليكم ، فهم يمنّون على الكافرين في خذلانهم المؤمنين ساعة الشِّدَّة ، ولو أنهم ساعدوهم لانتصر المؤمنون . ومعنى الاستحواذ : الاستيلاء والغلبة . هذا هو حال المنافقين ، مصانعة للمؤمنين وكلام لهم بما يناسب ، ومصانعة للكافرين ، وتكليم لهم بما يرضيهم . ﴿ **فالله يحكم بينكم يوم القيامة** ﴾ . أي : ياأيها المؤمنون والمنافقون إن الله سيحكم بينكم يوم القيامة ، فيدخل المنافقين النار ، والمؤمنين الجنة ، فلا تغترّوْا أيها المنافقون بكونكم تتظاهرون بأنكم مع أهل الإيمان ، فلن ينفعكم هذا التظاهر يوم القيامة . ولا تحزنوا أيُّها المؤمنون من مودَّة المنافقين للكافرين ، فحسابهم على الله . وإذا كان الحكم لله خالصاً ظاهراً وباطناً يوم القيامة ﴿ **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً** ﴾ . أي : يوم القيامة ، فلا غلبة يومئذ ، ولا نصرة ، ولا حجة لكافر على مؤمن . ويحتمل أن يكون المعنى : أنه وعد من الله للمسلمين أن الحجة لهم دائمًا من الله على الكافرين يلهمهم الله إياها في أيِّ مناقشة أو جدال . ويحتمل أن

يكون المعنى : ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ، أي في الدنيا بأن يسلطوا عليهم تسليط استئصال بالكلية وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس ، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة . وعلى هذا يكون النَّص رداً على المنافقين فيما أمَّلوه ورجوه ، وانتظروه ، من زوال دولة المؤمنين ، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين ، فاستأصلوهم . وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على أصح قولي العلماء ، وهو المنع من بيع العبد المسلم للكافر . ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة ملكه عنه . كما استدل بعضهم بالآية على عدم جواز شهادة الكافر على المسلم . وقد سمّى الله في الآية ظفر المسلمين فتحاً تعظيمًا لشأنهم ، لأنه أمر عظيم تفتح له أبواب السماء . وسمَّى ظفر الكافرين نصيباً تخسيساً لحظهم ، لأنه لمظة من الدنيا يصيبونها . ﴿ **إنّ المنافقين يخادعون الله** ﴾ . أي : يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان ، وإبطان الكفر ، والمنافق من أظهر الإيمان وأبطن الكفر ، أو المعنى : يخادعون أولياء الله وهم المؤمنون ، فجعل خداع أوليائه خداعاً له ، تشريفاً للمؤمنين من باب « من آذى ولياً فقد آذاني » ﴿ **وهو خادعهم** ﴾ . أي : وهو فاعل بهم ما يفعل المغالب في الخداع حيث تركهم معصومي الدماء ، والأموال في الدنيا ، وأعدّ لهم الدّرك الأسفل من النار في العقبى . ﴿ **وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى** ﴾ . أي : قاموا متثاقلين كراهية الصلاة . أمّا مجردّ الغفلة فقد يبتلي بها المؤمن ﴿ **يراؤون الناس** ﴾ . أي : يقصدون بصلاتهم الرِّياء والسمعة ، والمراءاة مفاعلة من الرؤية ، لأن المرائي يريهم عمله ، وهم يُرُونه استحسانا . ﴿ **ولايذكرون الله إلا قليلا** ﴾ . أي : ولايصلّون أصلاً إلا قليلاً ، لأنهم لايصلّون قط غائبين عن عيون الناس ، أولا يذكرون الله بالتسبيح والتّهليل إلا ذكراً قليلاً نادراً . ولو كان هذا الذكر القليل خالصاً لله لكان كثيراً ، ولكنه ليس خالصاً ﴿ **مذبذبين بين ذلك** ﴾ . أي : مردَّدين ، يعني ذبذبهم الهوى والشيطان بين الإيمان والكفر ، فهم متردّدون بينهما متحيِّرون . وحقيقة المذبذب الذي يذبُّ عن كلا الجانبين ، أي : يدفع فلا يقر . والمنافقون مترددون بين الكفر والإيمان . ﴿ **لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء** ﴾ . أي : لا منسوبين إلى هؤلاء فيكونون مؤمنين ، ولا منسوبين إلى هؤلاء فيسمون كافرين ، ﴿ **ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً** ﴾ . أي : فلن تجد له طريقاً إلى الهدى ، أو فلن تجد له طريقاً ما أصلاً ، بل هو متقلّب ، كل يوم هو في طريق .

فوائد :

١ - رأينا أن السِّمة الأولى للمنافقين هي أن ولاءهم منحرف . وقد ذكرت الآيات السابقة مجموعة من مظاهر هذا الولاء : مجالسة الكافرين ، ومشاركتهم فيما هم فيه من الهجوم على الإسلام ، والاستهزاء به ، ومن ذلك مودّتهُم الخفيّة للكافرين . ومن ثم نجد النداء الثاني في المقطع الثاني يتوجّه لأهل الإيمان بالحذر من موالاة الكافرين كما سنرى .

٢ - روى ابن مردويه أن ابن عباس كان يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان ، ولكن يقوم إليها طلق الوجه ، عظيم الرّغبة ، شديد الفرح ، فإنه يناجي الله ، وإن الله تجاهه ، يغفر له ، ويجيبه إذا دعاه ، ثم يتلو هذه الآية : ﴿ **وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى** ﴾ . وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال : « أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء ، وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْوًا ... » وروى الإمام مالك عن رسول الله ﷺ قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق : يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان ، قام فنقر أربعاً لايذكر الله فيها إلا قليلاً » رواه مسلم وغيره .

٣ - وروى الإمام مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة (أي المترددة بين الفحلين لاتدري أيهما ينزو عليها) بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة ، وإلى هذه مرة ، ولا تدري أيهما تتبع » .

٤ - روى أبويعلى عن رسول الله ﷺ قوله : « من أحسن الصلاة حيث يراه الناس ، وأساءها حيث يخلو ، فتلك استهانة استهان بها ربَّه عز وجل » .

٥ - قال قتادة : وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يضرب مثلا للمؤمن وللمنافق والكافر ، كمثل رهط ثلاثة دفعوا إلى نهر ، فوقع المؤمن فقطع ، ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر أن هلمّ إليَّ ، فإني أخشى عليك ، وناداه المؤمن أن هلمّ إليّ فإنّ عندي وعندي يحظّي له ما عنده ، فمازال يتردَّد بينهما ، حتى أتى عليه الماء فغرّقه ، وإن المنافق لم يزل في شك وشبهة حتى أَتىٰ عليه الموت وهو كذلك .

نقول :

١ - رأينا أن المنافقين يوالون الكافرين رغبة في العزة ولقد قال الله تعالى : ﴿ **أيبتغون**

عندهم العزّة **فإن العزّة لله جميعاً** ﴾ وتعليقاً على ذلك يقول صاحب الظلال :

« والله – عز وجل – يسأل في استنكار : لمَ يتخذون الكافرين أولياء وهم يزعمون الإيمان ؟ لمَ يضعون أنفسهم هذا الموضع ، ويتخذون لأنفسهم هذا الموقف ؟ أهم يطلبون العزة والقوة عند الكافرين ؟ لقد استأثر الله – عز وجل – بالعزة ، فلا يجدها إلا من يتولاه ويطلبها عنده ويرتكن إلى حماه . هكذا تكشف اللمسة الأخيرة عن طبيعة المنافقين ، وصفتهم الأولى ، وهي ولاية الكافرين دون المؤمنين ، كما تكشف عن سوء تصورهم لحقيقة القوى ،وعن تجرد الكافرين من العزة والقوة التي يطلبها عندهم أولئك المنافقون . وتقرر أن العزة لله وحده ، فهي تُطلب عنده ، وإلا فلا عزة ولا قوة عند الآخرين :

ألا إنه لسند واحد للنفس البشرية تجد عنده العزة ، فإن ارتكنت إليه استعلت على مَن دونه . وألا إنها لعبودية واحدة ترفع النفس البشرية وتحررها ... العبودية لله ... فإن لا تطمئن إليها النفس استعبدت لقيم شتى ، وأشخاص شتى ، واعتبارات شتى ، ومخاوف شتى . ولم يعصمها شيء من العبودية لكل أحد ، ولكل شيء ولكل اعتبار .

وإنه إما عبودية لله كلها استعلاء وعزة وانطلاق . وإما عبودية لعباد الله كلها استخذاء وذلة وأغلال .. ولمن شاء أن يختار ..

وما يستعز المؤمن بغير الله وهو مؤمن . وما يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو مؤمن بالله . وما أحوج ناساً ممن يدّعون الإسلام ، ويتسمون بأسماء المسلمين ، وهم يستعينون بأعداء الله في الأرض ، أن يتدبروا هذا القرآن ... إن كانت بهم رغبة في أن يكونوا مسلمين .. وإلا فإن الله غني عن العالمين ! .

ومما يلحق بطلب العزة عند الكافر وولايتهم من دون المؤمنين : الاعتزاز بالآباء والأجداد الذين ماتوا على الكفر ، واعتبار أن بينهم وبين الجيل المسلم نسباً وقرابة ! كما يعتز ناس بالفراعنة ، والآشوريين ، والفينيقيين ، والبابليين ، وعرب الجاهلية اعتزازاً جاهلياً ، وحمية جاهلية . وروى الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا أبوبكر ابن العباس، عن حميد الكندي عن عبادة بن نسي ، عن أبي ريحانة : أن النبي ﷺ قال : « من انتسب إلى تسعة آباء كفار ، يريد بهم عزاً وفخراً ، فهو عاشرهم في النار » . ذلك أن آصرة التجمع في الإسلام هي العقيدة ، وأن الأمة في الإسلام هي

المؤمنون بالله منذ فجر التاريخ . في كل أرض ، وفي كل جيل . وليست الأمة مجموعة الأجيال من القدم ، ولا المجتمعين في حيز من الأرض في جيل من الأجيال ! .

* * * *

٢ – قال تعالى : ﴿ **وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذًا مثلهم** ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ **إنكم إذًا مثلهم** ﴾ يقول الألوسي :

« والمراد من المماثلة في الجزاء المماثلة في الإثم لأنهم قادرون على الإعراض والإنكار ، لا عاجزون كما في مكة ، أو في الكفر على معنى إن رضيتم بذلك ، وهو مبني على أن الرضا بكفر الغير كفر من غير تفصيل ، وهي رواية عن أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه عثر عليها صاحب الذخيرة .

وقال شيخ الإسلام خواهر زاده : الرضا بكفر الغير إنما يكون كفراً إذا كان يستجيز الكفر ، أو يستحسنه ، أما إذا لم يكن كذلك ، ولكن أحب الموت أو القتل على الكفر لمن كان مؤذياً حتى ينتقم الله تعالى منه فهذا لايكون كفراً ، ومن تأمل قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ **ربنا اطمس** ﴾ الآية يظهر له صحة هذه الدعوى . وهو المنقول عن الماتريدي ، وقول بعضهم : إن من جاءه كافر ليسلم فقال : اصبر حتى أتوضأ ، أو أخره يكفر لرضاه بكفره في زمان ، موافق لما روي عن الإمام لكن يدل على خلافه ما روي من الحديث الصحيح في فتح مكة أن ابن أبي سرح أتى به عثمان رضي الله تعالى عنه إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله بايعه فكف ﷺ يده ونظر إليه ثلاث مرات وهو معروف في السير ، وهو يدل بظاهره على أن التوقف مطلقاً ليس – كما قالوه – كفراً .

واستدل بعضهم بالآية على تحريم مجالسة الفسّاق والمبتدعين من أي جنس كانوا ، وإليه ذهب ابن مسعود ، وإبراهيم ، وأبووائل ، وبه قال عمر بن عبدالعزيز ، وروى عنه هشام بن عروة أنه ضرب رجلاً صائمًا كان قاعداً مع قوم يشربون الخمر ، فقيل له في ذلك : فتلا الآية ، وهي أصل لما يفعله المصنفون من الإحالة على ماذكر في مكان آخر ، والتنبيه عليه والاعتماد على المعنى ، ومن هنا قيل : إن مدار الإعراض عن الخائضين فيما يرضي الله تعالى ، هو العلم بخوضهم ، ولذلك عبر عن ذلك تارة بالرؤية وأخرى بالسماع ، وأن المراد بالإعراض إظهار المخالفة بالقيام عن مجالستهم ، لا الإعراض بالقلب أو الوجه فقط ، وعن الجبائي أن المحذور مجالستهم من غير إظهار كراهة لما يسمعه أو يراه .

ولنرجع إلى السياق :

أمر الله بالإيمان وثبت عليه ، وحذّر من الكفر ، ونفّر من المنافقين الذين يكفرون بعد إيمان ، ثم أخبر بما أعده للمنافقين ، ثم وصفهم ليعرفوا وليحذروا ، وكانت الصفة الرئيسية للمنافقين ، انحراف ولائهم ، ومن ثَم يأتي المقطع الثاني ليبدأ بالنهي عن اتخاذ الكافرين أولياء : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين** ﴾ بالمصاحبة أو بالمصادقة ، أو بالمناصحة وإسرار المودة إليهم ، أو بإفشاء أحوال المؤمنين إليهم ، أو بطاعتهم ، أو بنصرتهم ، أو غير ذلك من مظاهرالولاء . ﴿ **أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً** ﴾ . أي : حجّة بيّنة في تعذيبكم . دلّت الآية على أن مجرّد الولاء ، ولو رافقه إيمان يستحق به صاحبه التعذيب ، والسلطان في الآية الحجة . قال ابن عباس : « كل سلطان في القرآن حجّة » والسند إليه صحيح . ﴿ **إنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النار** ﴾ . أي : في أسفل النار . وقال بعضهم : النار دركات كما أن الجنة درجات ، والمنافقون في القعر . وقد نُقل عن الصحابة وصف حالهم في هذا القعر ، فقال أبو هريرة : الدّرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم ومن فوقهم . وقال ابن مسعود : في توابيت من نار تطبق عليهم . قال النسفي : والنار سبع دركات ، سميت بذلك لأنها متداركة متتابعة بعضها فوق بعض ، وإنما كان المنافق أشد عذاباً من الكافر ، لأنه أمن السيف في الدنيا ، فاستحق الدّرك الأسفل في العقبى تعديلاً ، ولأنّه مِثْله في الكفر ، وضمّ إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله . ﴿ **ولن تجد لهم نصيراً** ﴾ . أي : يمنعهم من العذاب ، أو ينقذهم مما هم فيه ، ويخرجهم من أليم العذاب . ﴿ **إلا الذين تابوا** ﴾ . أي : من النّفاق ﴿ **وأصلحوا** ﴾ . ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم في النّفاق . أي وأصلحوا العمل . ﴿ **واعتصموا بالله** ﴾ . أي : وثقوا به كما يثق المؤمنون الخلّص . ﴿ **وأخلصوا دينهم لله** ﴾ فبدّلوا الرّياء بالإخلاص ، وأصبحوا لايبتغون بطاعتهم إلا وجه الله . ﴿ **فأولئك مع المؤمنين** ﴾ في الدّاريْن ، هم أصحابهم ، وهم رفاقهم ، وهم زمرتهم يوم القيامة .

﴿ **وسوف يُؤتِ الله المؤمنين أجراً عظيمًا** ﴾ فليسارع المنافقون إذن إلى التوبة والإصلاح والاعتصام بالله ، والإخلاص له ليشاركوا المؤمنين فيه. وليستخرج توبة المنافقين ، وليرفع همة المؤمنين . قال : ﴿ **ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم** ﴾ هذا استفهام تقريري معناه : إنّ الله لايعذّب المؤمن الشّاكر ، والإيمان معرفة المنعم والشُّكر

الاعتراف بالنِّعمة ، والكفر بالمنعم والنِّعمة عناد ، فلذا استحقَّ الكافر العذاب . وقُدِّم في الآية الشُّكر على الإيمان لأنّ العاقل ينظر إلى ما عليه من النَّعمة العظيمة في خلقه ، وتعريضه للمنافع ، فيشكر شكراً مبهمًا ، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به ، ثم شكر شكراً متصلاً ، فكان الشُّكر متقدماً على الإيمان . ومعنى النَّص : أيُّ شيء يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴿ **وكان الله شاكراً عليمًا** ﴾ يعلم من آمن وشكر ، ومن نافق أو كفر ، ويشكر لمن شكر ، بمعنى أنه يجزي على الشكر ، أو أنَّ شكره لعبيده هو أنّه يقبل اليسير من العمل ، ويعطي الجزيل من الثواب . وبعد أن أمرنا الله في هذين المقطعين بالإيمان ، وتحرير الولاء . ورَفَع هِمتنا إلى أن نجمع مع الإيمان الشّكر ، لأن الشّكر أعلى درجات العبودية يحذّرنا فيما يلي من خُلُق يتنافى مع الإيمان ، وهو الجَهْر بالسُّوء فقال : ﴿ **لايحبُّ الله الجهر بالسُّوء من القول إلا من ظُلِم** ﴾ . أي : إلا جَهْرَ من ظُلِم ، استثنى من الجهر الذي لايحبه الله جهر المظلوم ، والسوء كله لايحبه الله سواء كان جهراً أو غير جهر ، ولكنَّ الجهر أفحش . وجهر المظلوم بالسوء إما بدعائه على الظالم ، وذكره بما فيه من السوء ، أو ردّه عليه بمثل ما ظلمه به ، أو الكلام عليه ضمن حدود مظلمته للناس ، ولا شكّ أنّ رفع الدعوى على الظالم ، وذكر حيثيات الظلم جائز بإجماع . ﴿ **وكان الله سميعاً عليمًا** ﴾ . أي : سميعاً لشكوى المظلوم ، عليمًا بظلم الظالم ، ثم حثّ تعالى على العفو ، وألا يجهر أحد لأحد بسوء وإن كان على وجه الانتصار ، بعدما أطلق له الجهر به ، حثاً على الأفضل فقال : ﴿**إن تبدوا خيراً أو تخفوه** ﴾ . أي : إن تظهروا خيراً أو تعملوا الخير سراً ﴿ **أو تعفوا عن سوء** ﴾ . أي : تمحوه عن قلوبكم ، وتعرضوا عن الرّدّ على من ظلمكم . ﴿ **فإن الله كان عفواً قديراً** ﴾ . أي : أنه لم يزل عفواً عن الآثام مع قدرته على الانتقام ، فعليكم أن تقتدوا بسنته ، وذكر عفوه مع قدرته دليل لمن ذهب على أن إبداء الخير وإخفاءه ، والعفو عن السوء ، كل ذلك في موضوع العفو . فمن عفىٰ فقد أظهر خيراً . ومن لم يعف فقد أخفى خيراً ، ومن عفا عن السوء كله ، فإنه في هذا كله يكون متخلقاً بأخلاق الله الكاملة . وفي الحديث الصحيح « ما نقص مال من صدقة ، ولا زاد الله بعفو إلا عزا ، ومن تواضع لله رفعه » .

دلّت هاتان الآيتان على أنّ من أخلاق المؤمنين العفو عمّن ظلمهم ، وترك السوء ، فالآيتان في سياقهما تدلان على أن حفظ اللسان والعفو ، من القضايا الرئيسية في موضوع الإيمان ، لأن السياق كله في هذا الموضوع .

فائدة وتعليق :

– فسر ابن عباس قوله تعالى : ﴿ **لايحبّ الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظُلم** ﴾ . فقال : لايحب الله أن يدعو أحد على أحد ، إلا أن يكون مظلوماً ، فإنّه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه وذلك قوله ﴿ **إلا من ظُلِم** ﴾ وإن صبر فهو خير له . وقال الحسن البصري : قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه . « وقال عبدالكريم بن مالك الجزري في هذه الآية : هو الرجل يشتمك فتشتمه ، ولكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه » . وقال عليه الصلاة والسلام : « المستبّان ما قالا فعلى البادىء منهما ما لم يعتد المظلوم » وقال مجاهد في الآية : « هو الرجل ينزل بالرجل ، فلا يحسن ضيافته فيخرج فيقول : أساء ضيافتي ولم يحسن » وروى البزار أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : « إن لي جاراً يؤذيني ، فقال له : أخرج متاعك فضعه على الطريق ، فأخذ الرجل متاعه ، فطرحه على الطريق ، فكلُّ من مرَّ به قال مالك ؟ قال : جاري يؤذيني ، فيقول : اللهم العنه ، اللهم اخزه ، قال : فقال الرجل : ارجع إلى منزلك والله لا أوذيك أبدا » فهذه مجموعة نقول تفسِّر قوله تعالى : ﴿ **لايحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم** ﴾ . وعلى كل حال فالظلم تدركه الفطرة وتحدّده النصوص ومن ظلم يحل له أن يتكلم بما ظلم به .

ولقد علّق صاحب الظلال على هذه الآية ﴿ **لايحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم** ﴾ بقوله : « إن المجتمع شديد الحساسية ، وفي حاجة إلى آداب اجتماعية تتفق مع هذه الحساسية . ورُبّ كلمة عابرة لايحسب قائلها حساباً لما وراءها ؛ ورُبّ شائعة عابرة لم يرد قائلها بها إلا فرداً من الناس .. ولكن هذه وتلك تترك في نفسية المجتمع وفي أخلاقه وفي تقاليده وفي جوّه آثاراً مدمِّرة ؛ وتتجاوز الفرد المقصود إلى الجماعة الكبيرة .

والجهر بالسوء من القول – في أية صورة من صوره – سهل على اللسان مالم يكن هناك تحرج في الضمير وتقوى لله . وشيوع هذا السوء كثيراً ما يترك آثاراً عميقة في ضمير المجتمع .. كثيراً ما يدمر الثقة المتبادلة في هذا المجتمع ، فيخيل إلى الناس أن الشر قد صار غالباً . وكثيراً ما يزين لمن في نفوسهم استعداد كامن للسوء ، ولكنهم يتحرجون منه ، أن يفعلوه لأن السوء قد أصبح ديدن المجتمع الشائع فيه ، فلا تحرج إذن ولا تقية ، وهم ليسوا بأول من يفعل ! وكثيراً ما يذهب استقباح السوء بطول الألفة . فالإنسان

يستقبح السوء أول مرة بشدة ، حتى إذا تكرر وقوعه أو تكرر ذكره ، خفّت حدة استقباحه والاشمئزاز منه ، وسهل على النفوس أن تسمع – بل أن ترى – ولا تثور للتغيير على المنكر . ذلك كله فوق ما يقع من الظلم على من يتهمون بالسوء ويشاع عنهم – وقد يكونون منه أبرياء – ولكن قالة السوء تنتشر ؛ وحين يصبح الجهر بها هيناً مألوفاً ، فإن البرىء قد يتقول عليه مع المسيء ويختلط البر بالفاجر بلا تحرج من فرية أو اتهام ، ويسقط الحياء النفسي والاجتماعي الذي يمنع الألسنة من النطق بالقبيح ، والذي يعصم الكثيرين من الإقدام على السوء . إن الجهر بالسوء يبدأ في أول الأمر اتهامات فردية – سبّاً وقذفاً – وينتهي انحلالاً اجتماعياً ، وفوضى أخلاقية ، تضل فيها تقديرات الناس بعضهم لبعض أفراداً وجماعات ، وتنعدم فيها الثقة بين بعض الناس وبعض ، وقد شاعت الاتهامات ، ولاكتها الألسنة بلا تحرج . لذلك كله كره الله للجماعة المسلمة أن تشيع فيها قالة السوء . وأن يقتصر حق الجهر بها على من وقع عليه ظلم ، يدفعه بكلمة السوء يصف بها الظالم ، في حدود ما وقع عليه منه من الظلم ! » .

ثم يعود السِّياق إلى قضية الإيمان ليقرّر كفر من كفر بالله ، وكُفْرَ من يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض ، ويناقش طبقة من هؤلاء ، ويعرِّيهم فلنرَ تتمة المقطع : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرِّقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض** ﴾ دلّت هذه الآية على أن الكفر برسول الله ﷺ كفر بالله ورسله جميعاً . وقد كفر اليهود بعيسىٰ ومحمد عليهما السلام ، وكفر النصارى بمحمد ﷺ . وهناك من يكفر بكل رسول لله أصلاً . ومنهم مَن لايؤمن حتى بوجود الله ، ولكن السياق هنا منصبٌّ على من يكفر ببعض رسل الله . ﴿ **ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً** ﴾ . أي : طريقاً ومسلكاً وسطاً بين الإيمان والكفر ، ولا واسطة بينهما . وفي هذا ردٌّ على كل من يعز عليه أن يُسمىٰ كافراً وفي الوقت نفسه لا يعطي قضية الإيمان كلّ لوازمها . ﴿ **أولئك هم الكافرون حقاً** ﴾ . أي : أولئك هم الكاملون في الكفر ، وكفرهم حقٌّ ثابت لاشكَّ فيه . ﴿ **وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً** ﴾ . أي : وهيأنا للكافرين عذاباً مُذِلاً في الآخرة . ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرِّقوا بين أحد منهم** ﴾ وليس هذا ــ بعد البعثة المحمدية ــ لأحَد إلا لمن تابع محمداً ﷺ ، فأمته تؤمن بكل نبي ،وتؤمن بكل كتاب . ﴿ **أولئك سوف يؤتيهم أجورهم** ﴾ . أي : الثواب الموعود لهم . ﴿ **وكان الله غفوراً رحيمًا** ﴾ أي: غفوراً لذنوبهم إن كان لهم ذنوب ، رحيمًا بهم في

الدنيا والآخرة . هذه هي إحدى قواعد الفهم لموضوع الكفر والإيمان ، وإذ تتقرّر القاعدة يبدأ السياق يبين ظلم اليهود الذين لم يؤمنوا برسول الله محمد ﷺ .

﴿ **يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء** ﴾ السائلون هم اليهود . قال محمد بن كعب القرظي والسدي وقتادة : سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزّل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوارة على موسىٰ مكتوبة . قال ابن جريج : «سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان ، بتصديقه بما جاءهم به» وإنما اقترحوا ذلك على سبيل التعنّت والظلم للحقيقة . فلم يطلبوا آية من أجل أن يتأكدوا من صحة رسالة محمد ﷺ ، والآيات كثيرة ولكنها طبيعتهم التي سيعرض السّياق حقائق عنها ليؤكد أنّ كفرهم وتعنّتهم لاسبب له إلا ظلمهم . ﴿ **فقد سألوا موسىٰ أكْبَر من ذلك** ﴾ هذا جواب شرط مقدّر ، معناه : إن استكبرتِ ما سألوه فقد سألوا موسىٰ أكبر من ذلك ، والسؤال من آبائهم في أيام موسىٰ عليه السلام ، وأسند إليهم لأنهم كانوا على مذهبهم ، وراضين بسؤالهم . وما هو هذا السؤال الأفظع ؟ ﴿ **فقالوا أرنا الله جهرة** ﴾ . أي : عياناً ، ﴿ **فأخذتهم الصاعقة بظلمهم** ﴾ . أي : فأخذهم العذاب الهائل ، أو النار المحرقة بسبب ظلمهم بالتّحكّم على نبيِّهم في الآيات ، وتعنّتهم في سؤال الرؤية لا بمجرد سؤال الرؤية ، فقد سألها موسىٰ ولكنه سألها إيماناً وشوقاً وهم علّقوا الإيمان عليها ، ومع هذا فقد أحياهم الله بعد موتهم وعفا عنهم . ﴿ **ثمّ اتّخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات** ﴾ . أي : ثم اتخذوا العجل إلهاً من بعد ما رأوا المعجزات التسع ، وهي معجزات في غاية الوضوح ومع ذلك عبدوا العجل . ﴿ **فعفونا عن ذلك** ﴾ تفضُّلاً ولم نستأصلهم بل أمرهم الله أن يقتلوا أنفسهم ، أو أنّ العفو أخروي لأن العقوبة الدنيوية قد حصلت . ﴿ **وآتينا موسىٰ سلطاناً مبيناً** ﴾ . أي : حجّة ظاهرة على من خالفه ، فانحرافهم مع هذا وفتنتهم أثر عن طبيعتهم القاسية فلا يُستغرب انحرافهم وظلمهم ، وتعنتهم الحالي هو امتداد لذاك . ﴿ **ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم** ﴾ . أي : بسبب ميثاقهم ليخافوا فلا ينقضوه . قال ابن كثير : « وذلك حين امتنعوا عن الالتزام بأحكام التوراة ، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسىٰ عليه السلام ، رفع الله علىٰ رؤوسهم جبلاً ثم ألزموا فالتزموا ... » . وهذا مظهر آخر من مظاهر ظلمهم إذ احتاج أخذ الميثاق عليهم إلى رفع الجبل فوقهم وتهديدهم . ثم أن يكون مع مثل هذا نقض للميثاق فما أفظع هذه الطبيعة ؟ . ﴿ **وقلنا لهم ادخلوا الباب سُجَّداً** ﴾ أمروا أن يدخلوا باب القدس سُجّداً ، أي مطأطئين الرؤوس عند دخولهم ، فخالفوا ما

أمروا به ، وعصوا فهي طبيعتهم ، العصيان والمخالفة . ﴿ **وقلنا لهم لا تعدوا في السبت** ﴾ . أي : أوصيناهم بحفظ السبت ، والتزام ما حرّم الله عليهم فلا يتجاوزون الحدّ فيه ، فخالفوا وعصوا واحتالوا على ارتكاب ما حرم الله عليهم ، تلك طبيعتهم. ﴿ **وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً** ﴾ . أي : عهداً شديداً ، فنقضوا مواثيقهم كلَّها بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم** ﴾ . أي : فبنقضهم العهود التي أخذها الله عليهم ، والجواب والعقوبة سيأتيان بعد خمس آيات كما سنرى . ﴿ **وكفرهم بآيات الله** .﴾ . أي : وكفرهم بحججه وبراهينه والمعجزات التي شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام . ﴿ **وقتلهم الأنبياء بغير حق** ﴾ . أي : بغير سبب يستحقون به القتل ، والرسل لا يرتكبون ما يستحقون به القتل ، ولكن حتى لا يتوهم متوهم ذكرت ، وما قتلوهم إلا لشدة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله ، فإنهم قتلوا جمعاً غفيرا من الأنبياء عليهم السلام كما سنرى في قسم الفوائد . ﴿ **وقولهم قلوبنا غُلف** ﴾ . أي : قلوبنا مغطاة محجوبة لا يتوصل إليها شيء من الذكر والوعظ وهو كالاعتذار ، وما أقبحه من اعتذار . لذلك ردّ الله عليهم بقوله : ﴿ **بل طبع الله عليها بكفرهم** ﴾ . أي : بسبب كفرهم ﴿ **فلا يؤمنون إلا قليلا** ﴾ . أي : إلا قليلاً منهم يؤمنون ، كعبد الله بن سلام وأمثاله . ﴿ **وبكفرهم** ﴾ كرّر ذكر الكفر ، لتكرار الكفر منهم ، كلما بعث رسول . وهنا يذكر الكفر بمناسبة كفرهم بعيسىٰ عليه السلام . ﴿ **وقولهم على مريم بهتاناً عظيمًا** ﴾ . أي : كذباً كبيراً ، إذ رمَوها بالعظائم ، فاتهموها بالزنى . ﴿ **وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسىٰ ابن مريم رسول الله** ﴾ . فهم لم يكتفوا بالكفر بل تبجحوا بادعاء قتله . ووصف المسيح بأنه رسول الله إن كان من كلامهم ، فإنه يكون من باب الاستهزاء ، ويحتمل أن الله وصفه بالرسول ، ويكون هذا ليس من كلامهم . وقد نفى الله – عز وجل – قتله أو صلبه بقوله : ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم** ﴾ وقتلوا وصلبوا شبيهه . ﴿ **وإنّ الذين اختلفوا فيه** ﴾ . أي : في عيسىٰ عليه السلام ، والاختلاف فيه إن كان أثناء القتل ، أو قبله ، يكون المختلفون اليهود ، وإن كان فيما بعد فالمختلفون النصارى . ﴿ **لفي شك منه** ﴾ . أي : لفي شك من شأنه وقتله . ﴿ **ما لهم به من علم إلا اتّباعَ الظنّ** ﴾ . أي : مالهم بالمسيح من علم قاطع ، ولكنهم يتّبعون الظنّ ، وأنىّ يجوز الظن في باب العقائد . ﴿ **وما قتلوه يقيناً** ﴾ . أي : وما قتلوه حقاً ، أو ما قتلوه متيقنين . ﴿ **بل رفعه الله إليه** ﴾ . أي : بل رفع الله المسيح إلى السماء . ﴿ **وكان الله عزيزاً** ﴾ . أي : مانع الجناب ، لايرام جنابه ولا

يضام من لاذ ببابه . ﴿ **حكيمًا** ﴾ . أي : في جميع ما يقدّره ويقضيه من الأمور التي يخلقها أو يفعلها ، ومن ذلك رفع المسيح وبمناسبة ذكر المسيح عليه السلام يقول الله : ﴿ **وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمِنَنَّ به قبل موته** ﴾ يحتمل معنيين ، الأول : أي وما من اليهود والنّصارى أحد إلا ليؤمننّ قبل موته بعيسىٰ عليه السلام وبأنه عبدالله ورسوله ، وذلك إذا عاين قبل أن تزهق روحه ، حين لاينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف ، والمعنى الثاني وهو الراجح : وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمننّ بعيسىٰ قبل موت عيسىٰ ، وهم أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله ، في آخر الزمان . ﴿ **ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً** ﴾ يشهد على اليهود بأنهم كذّبوه ، وعلى النصارى بأنهم غلوا فيه .

ويعود الآن السياق المبدوء بقوله تعالى : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم** ﴾ ، ليُكمِّل الآن ﴿ **فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيباتٍ أُحِلَّت لهم** ﴾ . قال ابن كثير : وهذا التحريم قد يكون قدرياً ، بمعنى أنه تعالى قيَّضهم لأن تأوّلوا في كتابهم وحرّفوا وبدّلوا أشياء كانت حلالاً لهم ، فحرّموها على أنفسهم ، تشديداً منهم على أنفسهم وتضييقاً وتنطُّعاً ، ويحتمل أن يكون شرعياً . والمهم هنا أن نعرف أن قوله تعالى ﴿ **حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم** ﴾ هي التي يتعلق بها كل ما قبلها وما بعدها من قوله تعالى ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم** .. ﴾ ﴿ **وبصدهم عن سبيل الله كثيراً** ﴾ وبمنعهم عن طريق الله خلقاً كثيراً ، أو صداً كثيراً ﴿ **وأخذهم الربا وقد نهُوا عنه** ﴾ كان الرِّبا محرّماً عليهم ، كما حرِّم علينا ، وكانوا يتعاطونه ﴿ **وأكلهم أموال الناس بالباطل** ﴾ بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة ، وسائر أنواع التعامل التي حرَّمها الله . ﴿ **وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليمًا** ﴾ . أي : في الآخرة . ﴿ **لكن الراسخون في العلم منهم** ﴾ . أي : الثابتون في الدين الذين لهم قدم راسخة في العلم النافع من أهل الكتاب . قال ابن كثير : أنزلت في عبدالله بن سلام ، وثعلبة بن سعية ، وأسد وزيد بن سعية ، وأسد بن عبيد ، الذين دخلوا في الإسلام ، وصدّقوا بما أرسل الله به محمداً ﷺ . ﴿ **والمؤمنون** ﴾ . أي : من المهاجرين والأنصار ، ومن على قدمهم ، فأولئك من أهل الكتاب وهؤلاء . ﴿ **يؤمنون بما أنزل إليك** ﴾ . أي : القرآن . ﴿ **وما أنزل من قبلك** ﴾ . أي : بسائر الوحي والكتب . دلّ هذا على أن الراسخين في العلم من أهل الكتاب إن كان عندهم إنصاف ، فإن علمهم سيهديهم إلى الإيمان بما أنزل على رسول الله ﷺ . ﴿ **والمقيمين الصلاة** ﴾ . أي : وأخص المقيمين الصلاة ، دلّ على أن إقامة الصلاة عامل عظيم من

عوامل حصول الإيمان . ﴿**والمؤتون الزكاة**﴾ زكاة الأموال ، وزكاة الأنفس . ﴿ **والمؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ مع إيمانهم بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل من قبله ، هؤلاء ممن هذه صفاتهم ، الإيمان بالكتب ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والإيمان بالله واليوم الآخر يعدهم الله . ﴿ **أولئك سنؤتيهم أجراً عظيمًا** ﴾ . وبهذا ينتهي هذان المقطعان بتبيان ما أعده الله لأهل الإيمان من الأجر العظيم ، بدأ المقطع الأوّل بالأمر بالإيمان ، وختم المقطع الثاني بجزائه ومقتضياته ، وخلال ذلك كان نقاش وتربية ، وذكر مناف ، وتطهير مما يناقض . وتعريض بأهل الكفر والعناد ، ورفع للمسلم إلى ذروة التقوى بالتطهير عمّا ينافيها وذلك محور سورة النساء كلها كما رأينا أكثر من مرَّة ، ولأن المقطعين في حكم المقطع الواحد دمجنا الكلام عنهما .

فصل في رفع المسيح عليه الصلاة والسلام :

سنعقد فصلا في أواخر تفسير المقطع الثاني عشر نتحدث فيه عن الأناجيل ، والتثليث ، وهناك سنرى القيمة التاريخية للأناجيل الأربعة المعتمدة عند نصارى اليوم ، وسنرى أنها من وجهة النظر التاريخية والنقدية ، مما لا يمكن أن تقوم به حجة ، ومع إجماعها على أن المسيح عليه الصلاة والسلام قد صلب ، إلا أنها متناقضة مع بعضها في كثير من الحيثيات فإنجيل متى يقول على لسان يهوذا الأسخريوطي .

« الذي أقبّله هو هو أمسكوه فللوقت تقدم إلى يسوع وقال السلام ياسيدي وقبله .... حينئذ تقدموا وألقوا الأيادي على يسوع وأمسكوه » .

وفي إنجيل يوحنا :

« فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال لهم من تطلبون أجابوه يسوع الناصري قال لهم يسوع أنا هو وكان يهوذا مُسَلِّمه أيضاً واقفاً معهم فلمّا قال لهم إني أنا هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض » .

فرواية إنجيل متى تقول : إن يهوذا دلّهم عليه من خلال القبلة ورواية إنجيل يوحنا تقول : إن المسيح عليه السلام هو الذي عرّفهم على نفسه .

وإذا كانت هذه الأناجيل كما سنرى ليس واحداً منها ثابت النسبة لواحد من تلاميذ المسيح عليه الصلاة والسلام فلذلك لانحتاج إلى جهد عقلي كي نستدلّ على أنهّا غير قابلة للاعتماد . وبإجماع من كتب ودَرَس فإن المرحلة الأولى من النصرانية قد طمست

طمساً كاملاً ، وكل ذلك سنراه في الفصل الذي وعدنا به يقول شارل جنيبير أستاذ المسيحية ورئيس قسم تاريخ الأديان في جامعة باريس في كتابه (المسيحية : نشأتها وتطورها) :

(وهكذا لم نعد نستطيع أن نميز في وضوح الجوانب التاريخية لشخصية عيسىٰ ولم نعد نملك المراجع اللازمة لتحديد أحداث حياته بدقة) .

ويقول عن موضوع دعوى الصلب :

(ومن المرجح كذلك أن الأحداث الخاصة بالصلب كانت قد فقدت الكثير من وضوحها في ذاكرة المؤمنين قبل تحرير الأناجيل وأنها تأثرت في مخيلتهم بالأساطير المختلفة الشائعة ثم إنها فُسرت تفسيرات غيّرت وجدّدت في جوانب كثيرة أساسية منها) .

أمام هذا كله ، فإن أيّ باحث يجد نفسه مساقاً من الناحية التاريخية أن ينقل رواية إنجيل برنابا ، لأنها الرواية الوحيدة المنسوبة لتلميذ مباشر من تلاميذ المسيح عليه السلام من الثابت أنه قد اختلف مع بولس الذي إليه مرجع المعتقدات النصرانية الحالية ، وإن رواية برنابا عليه السلام لواضحة في أن المسيح عليه الصلاة والسلام قد رفع وأن الذي صُلب هو يهوذا الخائن الذي ألقي عليه شبه المسيح .

ونحن سننقل رواية برنابا كاملة في هذا الشأن ، لا للاستناد عليها في إثبات رفع المسيح عليه الصلاة والسلام ، فهذه قضية بتّ فيها القرآن وانتهى الأمر ، لكننا ننقلها كي لايماحك مماحك في أن النصارى واليهود مجمعون على الصلب ، وأنهم لايشكون في ذلك ، بينما القرآن أثبت شكهم .

يقول إنجيل برنابا :

« الفصل الرابع عشر بعد المئتين »

وخرج يسوع من البيت ومال إلى البستان ليصلي فجثا على ركبتيه مئة مرة معفراً وجهه كعادته في الصلاة ولما كان يهوذا يعرف الموضع الذي كان فيه يسوع مع تلاميذه ذهب لرئيس الكهنة وقال : إذا أعطيتني ما وعدت به أسلم هذه الليلة ليدك يسوع الذي تطلبونه لأنه منفرد مع أحد عشر رفيقاً . أجاب رئيس الكهنة : كم تطلب ؟ قال يهوذا : ثلاثين قطعة من الذهب فحينئذ عدّ له رئيس الكهنة النقود فوراً وأرسل فريسياً إلى الوالي

وهيرودس ليحضر جنوداً فأعطياه كتيبة منها لأنهما خافا الشعب . فأخذوا من ثم أسلحتهم وخرجوا من أورشليم بالمشاعل والمصابيح على العصي .

« الفصل الخامس عشر بعد المئتين »

ولما دنت الجنود من يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع سمع يسوع دنو جم غفير ، فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً ، وكان الأحد عشر نياماً ، فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم ، فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله إلى الأبد .

« الفصل السادس عشر بعد المئتين »

ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع وكان التلاميذ كلهم نياماً ، فأتى الله العجيب بأمر عجيب ، فتغير يهوذا في النطق ، وفي الوجه شبهاً بيسوع حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع ، أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم ، لذلك تعجبنا وأجبنا : أنت ياسيد هو معلمنا ، أنسيتنا الآن ؟ أما هو فقال مبتسمًا : هل أنتم أغبياء حتى لا تعرفوا يهوذا الأسخريوطي وبينما كان يقول هذا دخلت الجنود وألقوا أيديهم على يهوذا لأنه كان شبيهاً بيسوع من كل وجه ، أما نحن فلما سمعنا قول يهوذا ورأينا جمهور الجنود هربنا كالمجانين ، ويوحنا الذي كان ملتفاً بملحفة من الكتان استيقظ وهرب ، ولما أمسكه جندي بملحفة الكتان ترك ملحفة الكتان وهرب عريانا لأن الله سمع دعاء يسوع وخلص الأحد عشر من الشر .

« الفصل السابع عشر بعد المئتين »

فأخذ الجنود يهوذا وأوثقوه ساخرين منه لأنه أنكر – وهو صادق – أنه هو يسوع ، فقال الجنود مستهزئين به ، ياسيدي لاتخف لأننا أتينا لنجعلك ملكاً على إسرائيل ، وإنما أوثقناك لأننا نعلم أنك ترفض المملكة : أجاب يهوذا : لعلكم جننتم أنكم أتيتم بسلاح ومصابيح لتأخذوا يسوع الناصري كأنه لص ، أفتوثقونني ، أنا الذي أرشدكم لتجعلوني ملكاً . حينئذ خان الجنود صبرهم وشرعوا يمتهنون يهوذا بضربات ورفسات ، وقادوه

بحنق إلى أورشليم ، وتبع يوحنا وبطرس الجنود عن بُعْد وأكد للذي يكتب أنهما شاهدا كل التحري الذي تحراه بشأن يهوذا ورئيس الكهنة ومجلس الفريسيين الذين اجتمعوا ليقتلوا يسوع . فتكلم من ثمَّ يهوذا كلمات جنون كثيرة ، حتى إن كل واحد أغرق في الضحك معتقداً أنه بالحقيقة يسوع وأنه يتظاهر بالجنون خوفاً من الموت . لذلك عصب الكتبة عينيه بعصابة وقالوا له مستهزئين : يايسوع نبي الناصريين (فإنهم هكذا كانوا يدعون المؤمنين بيسوع) قل لنا مَنْ ضربك ، ولطموه وبصقوا في وجهه ولما أصبح الصباح التأم المجلس الكبير للكتبة وشيوخ الشعب وطلب رئيس الكهنة مع الفريسيين شاهد زور على يهوذا معتقدين أنه يسوع فلم يجدوا مطلبهم ، ولماذا أقول إن رؤساء الكهنة اعتقدوا أن يهوذا يسوع ؟ بل إن التلاميذ كلهم مع الذي يكتب اعتقدوا ذلك أن أم يسوع العذراء المسكينة مع أقاربه وأصدقائه اعتقدوا ذلك،إن حزن كل واحد يفوق التصديق ، لعمر الله إن الذي يكتب نسي كل ما قاله يسوع : من أنه يرفع من العالم وأن شخصاً آخر سيعذب باسمه وأنه لايموت إلا وشك نهاية العالم لذلك ذهب (الذي يكتب) مع أم يسوع ومع يوحنا إلى الصليب ، فأمر رئيس الكهنة أن يؤتى بيسوع أمامه ، وسأله عن تلاميذه وعن تعليمه فلم يجب بشيء في الموضوع كأنه جن حينئذ

استحلفه رئيس الكهنة بإله إسرائيل الحي أن يقول له الحق . أجاب يهوذا : لقد قلت لكم إني يهوذا الأسخريوطي الذي وعد أن يسلم إلى أيديكم يسوع الناصري ، أما أنتم فلا أدري بأي حيلة قد جننتم لأنكم تريدون بكل وسيلة أن أكون أنا يسوع ، أجاب رئيس الكهنة ، أيها الضال لقد أضللت كل إسرائيل بتعليمك ، وآياتك الكاذبة مبتدئاً من الجليل حتى أورشليم هنا . أفيخيل لك الآن أن تنجو من العقاب الذي تستحقه والذي أنت أهل له بالتظاهر بالجنون ؟ لعمر الله إنك لاتنجو منه ، وبعد أن قال هذا ، أمر خدمه أن يوسعوه لطمًا ورفساً لكي يعود عقله إلى رأسه ، ولقد أصابه من الاستهزاء على يد خدم رئيس الكهنة ما يفوق التصديق ، لأنهم اخترعوا أساليب جديدة بغيرة ليفكهوا المجلس ، فألبسوه لباس مشعوذ وأوسعوه ضرباً بأيديهم وأرجلهم حتى إن الكنعانيين أنفسهم لو رأوا ذلك المنظر لتحننوا عليه ، ولكن قست قلوب رؤساء الكهنة والفريسيين وشيوخ الشعب على يسوع إلى حد سروا معه أن يروه معامَلاً هذه المعاملة معتقدين أن يهوذا هو بالحقيقة يسوع ، ثم قادوه بعد ذلك موثقاً إلى الوالي الذي كان يحب يسوع سراً ، ولما كان يظن أن يهوذا هو يسوع أدخله غرفته سائلاً إياه لأي سبب قد سلمه رؤساء الكهنة والشعب إلى يديه . أجاب يهوذا : لو قلت لك الحق لما

صدقتني ، لأنك قد تكون مخدوعاً كما خدع الكهنة والفريسيون . أجاب الوالي (ظاناً أنه أراد أن يتكلم عن الشريعة) : ألا تعلم أني لست يهودياً ؟ ولكن الكهنة وشيوخ الشعب قد سلموك ليدي ، فقل لنا الحق لكي أفعل ما هو عدل ، لأن لي سلطاناً أن أطلقك ، وأن آمر بقتلك . أجاب يهوذا : صدقني ياسيد أنك إذا أمرت بقتلي ترتكب ظلمًا كبيراً لأنك تقتل بريئاً ، لأني أنا يهوذا الأسخريوطي لايسوع الذي هو ساحر فحولني هكذا بسحره فلما سمع الوالي هذا تعجب كثيراً حتى إنه طلب أن يطلق سراحه ، لذلك خرج الوالي وقال مبتسمًا : من جهة واحدة على الأقل لايستحق هذا الإنسان الموت بل الشفقة ، ثم قال الوالي : إن هذا الإنسان يقول إنه ليس يسوع بل يهوذا الذي قاد الجنود ليأخذوا يسوع ، ويقول إن يسوع الجليلي قد حوله هكذا بسحره ، فإذا كان هذا صدقاً يكون قتله ظلمًا كبيراً لأنه يكون بريئاً ، ولكن إذا كان هو يسوع وينكر أنه هو فمن المؤكد أنه قد فقد عقله ويكون من الظلم قتل مجنون ، حينئذ صرخ رؤساء الكهنة ، وشيوخ الشعب ، مع الكتبة والفريسيين بصخب قائلين : إنه يسوع الناصري فإننا نعرفه لأنه لو لم يكن هو المجرم لما سلمناه ليديك ، وليس هو بمجنون بل بالحري خبيث لأنه بحيلته هذه يطلب أن ينجو من أيدينا ، وإذا نجا تكون الفتنة التي يثيرها شراً من الأولى ، أما بيلاطس (وهو اسم الوالي) فلكي يتخلص من هذه الدعوى قال : إنه جليلي وهيرودس هو ملك الجليل ، فليس من حقي الحكم في هذه الدعوى ، فخذوه إلى هيرودس ، فقادوا يهوذا إلى الذي طالما تمنى أن يذهب يسوع إلى بيته ، ولكن يسوع لم يرد قط أن يذهب إلى بيته لأن هيرودس كان من الأمم وعبد الآلهة الباطلة الكاذبة عائشاً بحسب عوائد الأمم النجسة ، فلما قيد يهوذا إلى هناك سأله هيرودس عن أشياء كثيرة لم يحسن يهوذا الإجابة عنها منكراً أنه هو يسوع ، حينئذ سخر به هيرودس مع بلاطه كله وأمر أن يلبس ثوباً أبيض كما يلبس الحمقى ، ورده إلى بيلاطس قائلاً له : لاتقصر في إعطاء العدل بيت إسرائيل . وكتب هيرودس هذا لأن رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين أعطوه مبلغاً كبيراً من النقود ، فلما علم الوالي من أحد خدم هيرودس أن الأمر هكذا تظاهر بأنه يريد أن يطلق سراح يهوذا طمعاً في نيل شيء من النقود ، فأمر عبيده الذين دفع لهم الكتبة (نقوداً) ليقتلوه أن يجلدوه ولكن الله الذي قدر العواقب ، أبقى يهوذا للصليب ليكابد ذلك الموت الهائل الذي كان أسلم إليه آخر ، فلم يسمح بموت يهوذا تحت الجلد مع أن الجنود جلدوه بشدة سال معها جسمه دما ، ولذلك ألبسوه ثوباً قديماً من الأرجوان تهكمًا قائلين : يليق بملكنا الجديد

أن يلبس حلة ويتوّج ، فجمعوا شوكاً وصنعوا إكليلاً شبيهاً بأكاليل الذهب والحجارة الكريمة التي يضعها الملوك على رؤوسهم ، ووضعوا إكليل الشوك على رأس يهوذا ووضعوا في يده قصبة كصولجان وأجلسوه في مكان عال ، ومر من أمامه الجنود حانين رؤوسهم تهكمًا مؤدين له السلام كأنه ملك اليهود ، وبسطوا أيديهم لينالوا الهبات التي اعتاد إعطاءها الملوك الجدد ، فلما لم ينالوا شيئاً ضربوا يهوذا قائلين : كيف تكون إذا متوجاً أيها الملك إذا كنت لا تهب الجنود والخدم ؟ فلما رأى رؤساء الكهنة مع الكتبة والفريسيين أن يهوذا لم يمت من الجلد ، ولما كانوا يخافون أن يطلق بيلاطس سراحه أعطوه هبة من النقود للوالي ، فتناولها وأسلم يهوذا للكتبة والفريسيين كأنه مجرم يستحق الموت ، وحكموا بالصلب على لصين معه ، فقادوه إلى جبل الجمجمة حيث اعتادوا شنق المجرمين ، وهناك صلبوه عرياناً مبالغة في تحقيره ، ولم يفعل يهوذا شيئاً سوى الصراخ : ياالله لماذا تركتني فإن المجرم قد نجا أما أنا فأموت ظلمًا . الحق أقول إن صوت يهوذا ووجهه وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه هو يسوع ، لذلك خرج بعضهم من تعليم يسوع معتقدين أن يسوع كان نبياً كاذباً وأنه إنما يفعل الآيات التي فعلها بصناعة السحر لأن يسوع قال إنه لا يموت إلى وشك انقضاء العالم ، لأنه سيؤخذ في ذلك الوقت من العالم فالذين ثبتوا راسخين في تعليم يسوع حاق بهم الحزن إذ رأوا من يموت شبيهاً بيسوع كل الشبه حتى إنهم لم يذكروا ما قاله يسوع ، وهكذا ذهبوا في صحبة أم يسوع إلى جبل الجمجمة ولم يقتصروا على حضور موت يهوذا باكين على الدوام بل حصلوا بواسطة نيقوديموس ويوسف الاباريماثيائي من الوالي على جسد يهوذا ليدفنوه ، فأنزلوه من ثم عن الصليب ببكاء لايصدقه أحد ودفنوه في القبر الجديد ليوسف بعد أن ضمخوه بمئة رطل من الطيوب .

« الفصل الثامن عشر بعد المئتين »

.. ورجع كل إلى بيته ومضى الذي يكتب ويوحنا ويعقوب أخوه مع أم يسوع إلى الناصرة ، أما التلاميذ الذين لم يخافوا الله فذهبوا ليلا وسرقوا جسد يهوذا وخبأوه وأشاعوا أن يسوع قام فحدث بسبب هذا اضطراب ، فأمر رئيس الكهنة أن لايتكلم أحد عن يسوع الناصري وإلا كان تحت عقوبة الجرم فحصل اضطهاد عظيم فرجم وضرب ونفي من البلاد كثيرون لأنهم لم يلازموا الصمت في هذا الأمر وبلغ الخبر الناصرة كيف أن يسوع أحد أهالي مدينتهم قام بعد أن مات على الصليب فضرع الذي

يكتب إلى أم يسوع أن ترضى فتكف عن البكاء لأن ابنها قام فلما سمعت العذراء مريم هذا قالت باكية : لنذهب إلى أورشليم لننشد ابني فإن رأيته مت قريرة العين .

« الفصل التاسع عشر بعد المئتين »

فعادت العذراء إلى أورشليم مع الذي يكتب ويعقوب ويوحنا في اليوم الذي صدر فيه أمر رئيس الكهنة ، ثم إن العذراء التي كانت تخاف الله أوصت الساكنين معها أن ينسوا ابنها مع أنها عرفت أن أمر رئيس الكهنة ظلم وما كان أشد انفعال كل أحد ، واللهالذي يبلو قلوب البشر يعلم أننا فنينا من الأسى على موت يهوذا الذي كنا نحسبه يسوع معلمنا وبين الشوق إلى رؤيته قائمًا ، وصعد الملائكة الذين كانوا حرساً على مريم إلى السماء الثالثة ، حيث كان يسوع في صحبة الملائكة وقصوا عليه كل شيء لذلك ضرع يسوع إلى الله أن يأذن له بأن يرى أمه وتلاميذه فأمر حينئذ الرحمن ملائكته الأربعة المقربين الذين هم جبريل وميخائيل ورافائيل وأوريل أن يحملوا يسوع إلى بيت أمه وأن يحرسوه هناك لمدة ثلاثة أيام متوالية ، وأن لايسمحوا لأحد أن يراه خلا الذين آمنوا بتعليمه ، فجاء يسوع محفوفاً ... إلى الغرفة التي أقامت فيها مريم العذراء مع أختيها ومرثا ومريم المجدلية ولعازر والذي يكتب ويوحنا ويعقوب وبطرس فخروا من الهلع كأنهم أموات فأنهض يسوع أمه والآخرين عن الأرض قائلاً : لاتخافوا لأني أنا يسوع ، ولا تبكوا فإني حي لاميت ، فلبث كل منهم زمناً طويلاً كالمخبول لحضور يسوع ، لأنهم اعتقدوا اعتقاداً تاماً بأن يسوع مات ، فقالت حينئذ العذراء باكية : قل لي يابني لماذا سمح الله بموتك ملحقاً العار بأقربائك وأخلائك وملحقاً العار بتعليمك ؟ وقد أعطاك قوة على إحياء الموتى ، فإن كل من يحبك كان كميت .

« الفصل العشرون بعد المئتين »

أجاب يسوع معانقاً أمه : صدقيني ياأماه لأني أقول لك بالحق أني لم أمت قط ، لأن الله قد حفظني إلى قرب انقضاء العالم ، ولما قال هذا رغب إلى الملائكة الأربعة أن يظهروا ويشهدوا كيف كان الأمر ، فظهر من ثم الملائكة كأربع شموس متألقة حتى إن كل أحد خرّ من الهلع ثانية كأنه ميت ، فأعطى حينئذ يسوع الملائكة أربع ملاء من كتان ليستروا بها أنفسهم لتتمكن أمه ورفاقها من رؤيتهم وسماعهم يتكلمون ، وبعد أن

أنهض كل واحد منهم عزاهم قائلاً : إن هؤلاء هم سفراء الله ، جبريل الذي يعلن أسرار الله ، وميخائيل الذي يحارب أعداء الله ، ورافائيل الذي يقبض أرواح الميتين ، وأوريل الذي ينادي إلى دينونة الله في اليوم الآخر ، ثم قص الملائكة الأربعة على العذراء كيف أن الله أرسل إلى يسوع وغيّر (صورة) يهوذا ليكابد العذاب الذي باع له آخر ، حينئذ قال الذي يكتب : يامعلم أيجوز لي أن أسألك الآن كما كان يجوز عندما كنت مقيمًا معنا ؟ أجاب يسوع : سل ما شئت يابرنابا أجبك ، فقال حينئذ الذي يكتب : يامعلم إذا كان الله رحيمًا ، فلماذا عذبنا بهذا المقدار بما جعلنا نعتقد أنك كنت ميتاً ؟ ولقد بكتك أمك حتى أشرفت على الموت وسمح الله أن يقع عليك عار القتل بين اللصوص على جبل الجمجمة وأنت قدوس الله أجاب يسوع : صدقني يابرنابا أن الله يعاقب على كل خطيئة مهما كانت طفيفة عقاباً عظيمًا لأن الله يغضب من الخطيئة ، فلذلك لما كانت أمي وتلاميذي الأمناء الذين كانوا معي أحبوني قليلاً حباً عالمياً أراد الله البر أن يعاقب على هذا الحب بالحزن الحاضر حتى لايعاقب عليه بلهب الجحيم ، فلما كان الناس قد دعوني الله ، وابن الله على أني كنت بريئاً في العالم أراد الله أن يهزأ الناس بي في هذا العالم بموت يهوذا معتقدين أنني أنا الذي مت على الصليب لكيلا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة ، وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله ، وبعد أن تكلم يسوع بهذا قال : إنك لعادل أيها الرب إلَهنا لأن لك وحدك الإكرام والمجد بدون نهاية .

« الفصل الحادي والعشرون بعد المئتين »

والتفت يسوع إلى الذي يكتب وقال : يابرنابا عليك أن تكتب إنجيلي حتمًا ، وما حدث في شأن مدة وجودي في العالم واكتب أيضاً ما حلّ بيهوذا ليزول انخداع المؤمنين ويصدق كل أحد الحق حينئذ أجاب الذي يكتب : إني لفاعل ذلك إن شاء الله يامعلم ولكن لا أعلم ماحدث ليهوذا لأني لم أر كل شيء . أجاب يسوع : ههنا يوحنا وبطرس اللذان قد عاينا كل شيء ، فهما يخبرانك بكل ما حدث ، ثم أوصانا يسوع أن ندعو تلاميذه المخلصين ليروه فجمع حينئذ يعقوب ويوحنا التلاميذ السبعة نيقوديموس ويوسف وكثيرين آخرين من الاثنين والسبعين وأكلوا مع يسوع ، وفي اليوم الثالث قال يسوع : اذهبوا مع أمي إلى جبل الزيتون لأنني أصعد من هناك أيضاً إلى السماء ، وسترون من يحملني ، فذهب الجميع خلا خمسة وعشرين من التلاميذ الاثنين والسبعين الذين كانوا

قد هربوا إلى دمشق من الخوف ، وبينما كان الجميع وقوفاً للصلاة جاء يسوع وقت الظهيرة مع جم غفير من الملائكة الذين كانوا يسبحون الله فطاروا فرقاً من سناء وجهه فخروا على وجوههم إلى الأرض ولكن يسوع أنهضهم وعزاهم قائلاً : لاتخافوا أنا معلمكم ، ووبخ كثيرين من الذين اعتقدوا أنه مات وقام قائلاً : أتحسبونني أنا والله كاذبين ؟ لأن الله وهبني أن أعيش حتى قبيل انقضاء العالم كما قد قلت لكم ، الحق أقول لكم أني لم أمت بل يهوذا الخائن . احذروا لأن الشيطان سيحاول جهده أن يخدعكم ، ولكن كونوا شهودي في كل إسرائيل ، وفي العالم كله كل الأشياء التي رأيتموها وسمعتموها ، وبعد أن قال هذا صلى لله لأجل خلاص المؤمنين وتجديد الخطأة ، فلما انتهت الصلاة عانق أمه قائلاً : سلام لك ياأمي ، توكلي على الله الذي خلقك وخلقني ، وبعد أن قال هذا التفت إلى تلاميذه قائلاً : لتكن نعمة الله ورحمته معكم ثم حملته الملائكة الأربعة أمام أعينهم إلى السماء .

« الفصل الثاني والعشرون بعد المئتين »

وبعد أن انطلق يسوع تفرقت التلاميذ في أنحاء إسرائيل والعالم المختلفة ، أما الحق المكروه من الشيطان فقد اضطهده الباطل كما هي الحال دائمًا فإن فريقاً من الأشرار المدعين أنهم تلاميذ بشروا بأن يسوع مات ولم يقم وآخرون بشروا بأنه مات الحقيقة ، ثم قام وآخرون بشروا ولايزالون يبشرون بأن يسوع هو ابن الله وقد خدع في عدادهم بولص ، أما نحن فإنما نبشر بما كتبت الذين يخافون الله ليخلصوا في اليوم الأخير لدينونة الله . آمين . أ هـ .

* * *

أقول : لسنا ملزمين أن نؤمن بكل ما ورد في هذا النص لعدم ثبوته القطعي عندنا ، ولكنا نستأنس به لفهم بعض القضايا في النص القرآني .

فوائد :

١ – قتل اليهود للأنبياء وتعذيبهم لهم شيء مشهور ، ولازالت كتب العهد القديم مع تحريفها وتبديلها ، وكذلك كتب العهد الجديد ، رغم تحريفها وتبديلها مليئة بما يشعر بهذا القتل ، وأما تحريم الربا على اليهود فقد ورد في كتبهم الحاليّة في أكثر من مكان : فمن ذلك ما ورد في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر الخروج « إن أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي لاتضعوا عليه ربا » .

ومن ذلك ما ورد في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التثنية :

« ولا تقرض أخاك بربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء مما يقرض برباً » .

٢ – ينبغي أن نلاحظ أن الكتب المعتمدة عند النّصارى الحاليين ، وهي ما يسمونه بكتب العهد الجديد ، إن هي إلا من آثار مدرسة واحدة من مدارس النصارى وهي مدرسة بولس فالأناجيل من كتابة مدرسته ، وأكثر الرسائل المعتمدة إن لم تكن كلها إما رسائله وإما رسائل لتلاميذه ، وهذه الرسائل تشعر ، أن بولس قد اختلف مع برنابا تلميذ المسيح المباشر وفي هذه الرسائل ما يشعر بإن هناك مخالفين لبولس وقد فصّلنا ذلك في كتابنا (من أجل خطوة إلى الأمام) فإذا تأكد هذا المعنى نستطيع أن نتساءل ، أين هى آثار الحواريين الاثنى عشر ؟ وأين هي آثار تلاميذهم ؟ أين هي أقوالهم ؟ أين هي رسائلهم ؟ أين هي أخبارهم ؟ كل هذا غير موجود وليس موجوداً ما يشعر به تقريباً ، أليس هذا دليلاً على أن دين المسيح الحقيقي ، وإنجيله الحقيقي ، وقصة حياته الحقيقية ، ووضعه الحقيقي ، كل ذلك قد انتهى بتغلب مدرسة بولس اليهودي الذي غلا في السيِّد المسيح ، واستطاع بغلوّه أن يتغلب بممالأة السلطة ونفاقه لها ، ثم بتبني الدولة الرومانية مذهبه رسمياً ، إذا اتضح هذا ، فإننا لا نستغرب التصورات الفاسدة عن السيد المسيح في الكتب المعتمدة عندهم . وإذا عرفنا تتبع الكنيسة لكل ما يخالفها والقضاء عليه سواء كان فكراً أو بشراً نعلم لماذا لم يصلنا شيء عن أخبار الرسل وتلاميذهم ونقولهم مما يخالف مدرسة بولس اليهودية التي اغتالت المسيحية من داخلها ، وسيطرت عليها . غير أننا نجد بعضاً مما فر من الإتلاف ، كإنجيل برنابا التي تنص كتب العهد الجديد على اختلافه مع بولس . هذا الإنجيل يتحدث عن المسيح كما هو : رسول الله ﷺ ، بشّر برسول الله محمد ﷺ ، وأمثال ذلك مما يوافق الحق . وإن مما يشبه السخرية أن يدعي النصارى أن هذا الإنجيل ألَّفَه أحد المسلمين ، وهو الأوروبي الوجود ، الأوروبي الطبع ، ولئن سلمنا بذلك جدلاً فنحن نسألهم : أين إنجيل برنابا التي تتحدث عن تحريمه النشرات البابوية التي صدرت قبل الإسلام بكثير . ولنا عودة على هذه الأمور في الفصل الذي سنكتبه عن التثليث عند النصارى في أواخر الكلام عن المقطع الثاني عشر .

٣ – في نزول المسيح عليه السلام في آخر الزمان إجماع الأمة المسلمة ، والنصارى كذلك يرون ذلك ، وفي كتب اليهود ما يشعر به ، وقد ورد أكثر من سبعين حديثاً عن

رسول الله ﷺ في شأن نزوله ، وحوالي أكثر من أربعين أثراً عن الصحابة في ذلك . وقد ألّف في ذلك عبدالحي اللكنوي كتابه (التواتر الصريح في نزول المسيح) فمن أنكر قضية نزوله يكفر . والكلام عن المسيح عليه السلام مرتبط بالكلام عن المسيح الدجال الذي موضوعه من المواضيع المتواترة كذلك ، وفي كتابنا – الأساس في السنة وفقهها – تفصيل ذلك .

٤ – ننقل في هذه الفائدة كلام ابن عباس ، في موضوع رفع المسيح ، وما حدث لقومه بعده ، كما ننقل حديثاً واحداً عن نزول المسيح عليه السلام ، وموضوع الدجال .

أ – في أثر صحيح عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسىٰ إلى السماء ، خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين ، يعني فخرج عليهم من عين في البيت ، ورأسه يقطر ماء فقال : إن منكم من يكفر فيّ اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي ، قال : ثم قال أيُّكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي ؟ فقام شاب من أحدثهم سناً فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب فقال : اجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب ، فقال : أنا فقال : هو أنت ذاك . فألقي عليه شبه عيسىٰ ، ورفع عيسىٰ من روزنة في البيت إلى السماء ، قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشّبه فقتلوه ، ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به ، وافترقوا ثلاث فرق ، فقالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبدالله ورسوله ما شاء الله ، ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة ، فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ .

ب – روى مسلم وأصحاب السنن عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لاتقوم الساعة حتى تروا عشر آيات ، طلوع الشمس من مغربها ، والدُّخان ، والدابّة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، ونزول عيسىٰ ابن مريم ، والدجّال ، وثلاثة خسوف ، خسف في المشرق ، وخسف في المغرب ، وخسف في جزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق – أو تحشر – النّاس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » .

ونحب هنا أن ننبه إلى أن العطف بالواو لا يقتضي الترتيب بل يفيد مطلق الجمع ،

كلمة في السياق :

لاحظنا أكثر من مرة خلال استعراضنا لمعاني المقطعين ، كيف أن هذين المقطعين كانا في سياق توضيح قضية الإيمان وما ينافيها ، وما يناقضها ، فلسنا بحاجة إلى إعادة ذلك ، والمهم أن يكون واضحاً أن الإيمان هو الركن الأساسي في قضية التقوى التي هي محور سورة النساء . وهذان المقطعان في هذه القضية ، ونؤثر ألا نطيل الكلام ههنا في موضوع السياق لأن لنا عودة أخيرة على سياق سورة النساء في آخر تفسيرها إن شاء الله .

المقطع الحادي عشر

ويمتد من الآية (١٦٣) إلى نهاية الآية (١٧٠) وكما أن المقطع الثامن قد بدأ بـ (إنا) وانتهى بـ (ياأيها) فإن هذا المقطع يبدأ بـ (إنا) وينتهي بـ (ياأيها) وبدايته ﴿ **إنا أوحينا إليك** ﴾ ونهايته ﴿ **ياأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم** ﴾ .

وهذا هو المقطع :

إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ

ضَلُّواْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

كلمة في المقطع :

قلنا إن محور سورة النساء هو الآيات الخمس بعد المقدمة من سورة البقرة والتي من جملتها : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدّت للكافرين** ﴾ .

وفي هذه الآيات تقرير أن الله أوحى لمحمد ﷺ كما أوحى لغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأن الله يشهد بما أنزل على محمد ، لاحظ الصلة بين قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **وادعوا شهداءكم** ﴾ وبين ﴿ **لكن الله يشهد بما أنزل إليك** ﴾ وأن الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله قد ضلوا ، وأن الله لن يهديهم إلا إلى النار . ثم ختم المقطع بالتبيان للناس جميعاً أن الرسول قد جاءهم بالحق من ربهم وأن عليهم أن يؤمنوا .

إن الصلة بين المقطع ، وبين محور السورة من سورة البقرة لايكاد يخفى .

المعنى العام :

يخبر الله - عز وجل - في هذا المقطع ، أنّ إنزال الوحي على محمد ﷺ ليس بدعاً ، بل أوحىٰ إليه كما أوحىٰ إلى الرسل من قبله ، وعدّد أسماء بعض من أوحي إليه من الرسل . وأنّ إنزاله الكتاب إلى محمد ﷺ ليس بدعاً ، فقد أنزل كتباً من قبل ، منها

الزّبور الذي أنزل على داود ، وأن هؤلاء الرسل صلى الله عليهم وسلم كثر ، منهم من قصّ الله على رسوله قصصهم ، ومنهم من لم يقصص الله قصتهم ، وأن هذا الوحي منه ما كان كلاماً مباشراً من الله كما كان ذلك لموسىٰ . ثم بيَّن الله حكمة إرساله الرسل ، وهي التبشير والإنذار من أجل إقامة الحجة على الخلق بما أعد الله لهم . ولمّا تضمّن هذا الجزء من هذا المقطع إثبات نبوّة محمد والردّ على من أنكرها ، بيّن الله - عز وجل - أنه وإن كفر بمحمّد ﷺ من كفر ممن كذّبه وخالفه ، فالله يشهد له أنه رسوله الذي أنزل عليه الكتاب ، وهو القرآن الذي أنزله الله بعلمه ، والدليل أنّه أنزله بعلمه ما فيه من أمور لايمكن أن تكون إلا أثراً عن علم الله ، من ذكر للبينات والهدى والفرقان ، وما يحبه الله ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه ، ومن ذكر لغيوب من الماضي والمستقبل ، ومن ذكر لصفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبي مرسل ، ولا ملك مقرّب ، إلا أن يعلمه الله بها ، إن في هذا القرآن من العلوم مالا يمكن أن يكون ، لولا أنه من عند الله رب العالمين . وكما شهد الله برسالة رسوله ، وبأنه هو الذي أنزل الكتاب عليه ، فإن الملائكة يشهدون بصدق ماأنزل الله على رسوله ، وشهادة الله وحدها كافية ، وسنرى كيف كانت شهادة الله أثناء الشرح الحرفي وفوائده ، وإذ تأكدت رسالة الرسول ﷺ ، يؤكد الله - عز وجل - الضّلال المبين الذي وقع فيه من كفر في نفسه برسول الله ﷺ فلم يتّبع الحق ، وسعى مع هذا إلى صدِّ الناس عن إتيانه والاقتداء به . ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته ، وكتابه ورسوله ، الظالمين لأنفسهم بذلك ، وبالصدّ عن سبيله ، وبارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه ، بأنه لايغفر لهم ولا يهديهم سبيلا إلى الخير ، بل هم مهتدون فقط إلى طريق جهنم ، وأن مقامهم فيها الخلود الأبدي ، وهذا على الله يسير . وإذا اتضحت هذه الحقائق ، فقد جاء النداء إلى الناس جميعاً أنه قد جاءكم محمد ﷺ بالهدى ودين الحق ، والبيان الشافي من الله - عز وجل - فآمنوا بما جاءكم ، واتبعوا يكن خيراً لكم . وأما إذا كفرتم بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ ، فإنّ الله غني عنكم ، وعن إيمانكم ، ولا يتضرّر بكفرانكم ، لأنه مالك السمٰوات والأرض وما فيهن ، وهو العليم بمن اهتدى أو ضلّ ، وبمن يستحق الهداية فيهديه ، وبمن يستحق الغواية فيغويه ، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

فالمقطع منصبٌّ على تأكيد صحة الوحي ، وصدق القرآن ، وعلى تأكيد اتباع هذا الحق الذي هو القرآن ، واتباع القرآن بعد الإيمان ركن من أركان التقوى ، إذ التقوى كما رأينا في كتابنا - (جند الله ثقافة وأخلاقاً) - إيمان واتباع كتاب ، فهو

مكمل للمقطعين السابقين ، فهما في ركن الإيمان ، وهو في ركن اتباع الكتاب ، فالمقطع إذن آخذ مكانه في السياق العام لسورة النساء ، المرتبط بالسياق العام لسورة البقرة ، على النسق العام لمعاني القرآن حسب تسلسلها الذي لايحيط بحكَمِهِ إلا الله .

المعنى الحرفي :

﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنّبيين من بعده** ﴾ كهود وصالح وشعيب ، ﴿ **وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط** ﴾ . أي : أولاد يعقوب ﴿ **وعيسىٰ وأيوب ويونس وهرٰون وسليمان وآتينا داود زبوراً** ﴾ . الزبور : اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام . ﴿ **ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل** ﴾ . أي : من قبل نزول هذه السورة . ﴿ **ورسلاً لم نقصصهم عليك** ﴾ . أي : رسلاً آخرين لم يذكروا في القرآن . ﴿ **وكلّم الله موسىٰ تكليمًا** ﴾ . أي : بلا واسطة . وهذا تشريف لموسىٰ عليه السلام بهذه الصفة . ﴿ **رسلاً مبشرين ومنذرين** ﴾ . أي : يبشرون من أطاع الله واتّبع رضوانه بالخيرات ، وينذورن من خالف أمره ، وكذّب رسله بالعقاب والعذاب . ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حُجة بعد الرسل** ﴾ . أي : لئلا يبقىٰ لمعتذر عذر . والمعنى إرسالهم إزاحة للعلة ، وتتميم لإلزام الحجة ، لئلا يقولوا : لولا أرسلت إلينا رسولاً فيوقظنا من سِنَةِ الغفلة ، وينبهنا بما وجب الانتباه له ، ويعلّمنا ما سبيلُ معرفته السمع ، كالعبادات والشرائع ، مقاديرها وأوقاتها وكيفياتها وغير ذلك . وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ « لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحبُّ إليه المدح من الله - عز وجل - من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحبُّ إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث النّبيين مبشرين ومنذرين » . وفي لفظ آخر . « من أجل ذلك أرسل الرسل ، وأنزل كتبه » . ﴿ **وكان الله عزيزاً حكيمًا** ﴾ عزيزاً في العقاب على الإنكار ، حكيمًا في بعث الرسل للإنذار . ﴿ **لكن الله يشهد بما أُنزل إليك** ﴾ ومعنى شهادة الله بما أنزله إليه ، إثباته لصحته بإظهار المعجزات كما تثبت الدعاوى بالبينات إذ الحكيم لايؤيّد الكاذب بالمعجزة ﴿ **أنزله بعلمه** ﴾ . أي : أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله إليك ، وأنك مبلّغه ، أو أنزله بما علم من مصالح العباد ، والدَّليل على أن إنزاله القرآن بعلمه ، أن في هذا القرآن ما لا يمكن أن يصل إليه علم الإنسان مطلقاً كالغيوب ، أو ما لايمكن أن يصل إليه علم الإنسان - خاصة في زمن نزول القرآن - ككثير من

أسرار هذا الكون . ﴿ **والملائكة يشهدون** ﴾ . أي : لرسول الله ﷺ بالنبّوة والرسالة . ﴿ **وكفى بالله شهيداً** ﴾ . أي : شاهداً وإن لم يشهد غيره . روى ابن إسحق عن ابن عباس في سبب نزول الآية الأخيرة قال : « دخل على رسول الله ﷺ جماعةٌ من اليهود فقال لهم : إني لأعلم والله ، إنكم لتعلمون أنيّ رسول الله ، فقالوا : ما نعلم ذلك ، فأنزل الله - عز وجل - ﴿ **لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ...** ﴾ ﴿ **إن الذين كفروا** ﴾ بتكذيب رسول الله ﷺ فيما جاء به ﴿ **وصدُّوا عن سبيل الله**﴾ . أي : ودفعوا النّاس عن سبيل الحق بفتنتهم أو بدعايتهم ضدّه . ﴿ **قد ضلوا ضلالاً بعيداً** ﴾ عن الرشد . أي : بعدوا عنه بعداً عظيمًا شاسعاً .

﴿ **إن الذين كفروا** ﴾ . أي : بالله وآياته وكتبه ورسله ﴿ **وظلموا** ﴾ أنفسهم بارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه ، أو ظلموا الظلم العظيم لرسول الله ﷺ بإنْكارهم نبوّته وتحريف ما ورد في نعته في الكتب السابقة . ﴿ **لم يكن الله ليغفر لهم** ﴾ ما داموا على الكفر ﴿ **ولا ليهدِيَهم طريقاً** ﴾ . أي : سبيلاً إلى الخير ، أو سبيلاً رَشَداً ﴿ **إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾ . أي : إلى جهنم طريقهم ، وفي جهنم عذابهم أبداً ، وكان تخليدهم في جهنم سهلاً عليه ، وهذه الآية والتي قبلها في قوم علم الله أنهم لايؤمنون ، وأنّهم يموتون على الكفر . ﴿ **ياأيها الناس قد جاءكم الرسول** ﴾ . أي : محمد ﷺ ﴿ **بالحق** ﴾ . أي : بالإسلام ﴿ **من ربكم** ﴾ فمن أراد الإسلام لله رب العالمين فليس إلا دين محمد ﷺ ، فمحمد ﷺ هو الذي جاء بالهدى ودين الحق والبيان الشافي من الله - عز وجل - ﴿ **فآمنوا خيرا لكم** ﴾ فصدّقوا بمحمد ﷺ وبدينه وبكتابه ، وبكل الحق الذي جاء به ، وذلك خير لكل إنسان مما هو فيه . ﴿ وإن تكفروا **فإن لله ما في السمٰوات والأرض**﴾ فهو غنيٌّ عنكم وعن إيمانكم ، ولا يتضرر بكفرانكم . ﴿ **وكان الله عليمًا حكيمًا** ﴾ عليمًا بمن يؤمن وبمن يكفر ، حكيمًا لايسوِّي بينهما بالجزاء ، وبهذا ينتهي المقطع .

فوائد :

١ - قال ابن كثير : « وهذه تسمية الأنبياء الذين نصَّ الله على أسمائهم في القرآن وهم : آدم ، وإدريس ، ونوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وإسماعيل ، وإسحٰق ، ويعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وشعيب ، وموسىٰ ، وهارون ، ويونس ، وداود ، وسليمان ، وإلياس ، واليسع ، وزكريا ، ويحيىٰ ، وعيسىٰ ، وكذا ذو الكفل ،

عند كثير من المفسرين وسيدهم محمد ﷺ » .

٢ - روى ابن مردويه عن أبي ذر قال : « قلت : يارسول الله ! كم الأنبياء ؟ قال : مائة ألف ، وأربعة وعشرون ألفا . قلت : يارسول الله : كم الرسل منهم ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر ، جم غفير ، قلت : يارسول الله ! من كان أولهم ؟ قال : آدم ، قلت يارسول الله : نبيٌّ مرسل ؟ قال : نعم ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ثم سوّاه قبلاً ، ثم قال : ياأباذر : أربعة سريانيون : آدم وشيث ، ونوح وخنوخ ، وهو إدريس ، وهو أول من خط بالقلم ، وأربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيك ياأباذر . وأول نبي من بني إسرائيل موسىٰ ، وآخرهم عيسىٰ ، وأول النبيين آدم ، وآخرهم نبيّك». وقد وسم ابن حبان البستي هذا الحديث بالصحة ، وجعله ابن الجوزي في الموضوعات ، ولم يعتمد علماء التوحيد بعض ما ورد فيه من معان فيوسف رسول وهو أقدم من موسىٰ وهو من أبناء إسرائيل وعدد الأنبياء والرسل لا يثبت بمثل هذا الحديث حتى يعتمد .

كلمة في السياق :

هذا المقطع كله في تقرير أن ما أنزل على رسول الله ﷺ حق ، وأن الإيمان به واجب وهي قضية رئيسية في التقوى ، كما نعلم ذلك من مقدمة سورة البقرة . ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ وإذا عرفنا أن سورة النساء كلها محورها التقوى ، عرفنا محل هذا في السياق .

فصل في قوله تعالى ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ :

يقول صاحب الظلال عند هذه الآية :« ونقف من هذه اللفتة : ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ أمام حشد من الإيحاءات اللطيفة العميقة ونختار منه ثلاثاً على سبيل الاختصار الذي لايخرج بنا من الظلال .

نقف منها ..: أمام قيمة العقل البشري ووظيفته ودوره في أخطر قضايا « الإنسان » قضية الإيمان بالله ؛ التي تقوم عليها حياته في الأرض من جذورها ؛ بكل مقوماتها واتجاهاتها وواقعها وتصرفاتها ؛ كما يقوم عليها مآله في الآخرة وهي أكبر وأبقى .

لو كان الله سبحانه - وهو أعلم بالإنسان وطاقاته كلها - يعلم أن العقل البشري ،

الذي وهبه للإنسان ، هو حَسْب هذا الإنسان في بلوغ الهدى لنفسه والمصلحة لحياته ، في دنياه وآخرته ، لَوَكله إلى هذا العقل وحده ؛ يبحث عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق ، ويرسم لنفسه كذلك المنهج الذي تقوم عليه حياته ، فتستقيم على الحق والصواب ؛ ولما أرسل إليه الرسل على مدى التاريخ ؛ ولما جعل حجته على عباده هي رسالة الرسل إليهم ؛ وتبليغهم عن ربهم ؛ ولما جعل حجة الناس عنده - سبحانه - هي عدم مجيء الرسل إليهم : ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حُجّة بعد الرسل** ﴾ .. ولكن لما علم الله - سبحانه - أن العقل الذي آتاه للإنسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدى - بغير توجيه من الرسالة وعون وضبط - وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الإنسانية يحقق المصلحة الصحيحة لهذه الحياة ؛ وينجي صاحبه من سوء المآل في الدنيا والآخرة .. لما علم الله - سبحانه - هذا ، شاءت حكمته وشاءت رحمته أن يبعث للناس بالرسل ، وألا يؤاخذ الناس إلا بعد الرسالة والتبليغ : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ وهذه تكاد تكون إحدى البديهات التي تبرز من هذا النص القرآني .. فإن لم تكن بديهية فهي إحدى المقتضيات الحتمية ..

إذن .. ماهي وظيفة هذا العقل البشري ؛ وما هو دوره في قضية الإيمان وفي قضية منهج الحياة ونظامها ؟ .

إن دور هذا العقل أن يتلقى عن الرسالة ؛ ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول . ومهمة الرسول أن يبلغ ، ويبيّن ، ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الركام . وينبه العقل الإنساني إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق ؛ وأن يرسم له منهج التلقي الصحيح ، ومنهج النظر الصحيح ؛ وأن يقيم له القاعدة التي ينهض عليها منهج الحياة العملية ، المؤدي إلى خير الدنيا والآخرة .

وليس دور العقل أن يكون حاكمًا على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان ، والقبول أو الرفض - بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله ؛ وبعد أن يفهم المقصود بها : أي المدلولات اللغوية والاصطلاحية للنص - ولو كان له أن يقبلها أو يرفضها - بعد إدراك مدلولها ، لأنه هو لا يوافق على هذا المدلول ! أو لا يريد أن يستجيب له - ما استحق العقاب من الله على الكفر بعد البيان .. فهو إذن ملزم بقبول مقررات الدين متى بلغت إليه عن طريق صحيح ، ومتى فهم عقله ما المقصود بها وما المراد منها . إن هذه الرسالة تخاطب العقل .. بمعنى أنها توقظه ، وتوجّهه ، وتقيم له منهج

النظر الصحيح .. لابمعنى أنه هو الذي يحكم بصحتها أو بطلانها ، وبقبولها أو رفضها . ومتى ثبت النص كان هو الحكم ؛ وكان على العقل البشري أن يقبله ويطيعه وينفِّذه ؛ سواء كان مدلوله مألوفاً له أو غريباً عليه ..

إن دور العقل – في هذا الصدد – هو أن يفهم ما الذي يعنيه النص . وما مدلوله الذي يعطيه حسب معاني العبارة في اللغة والاصطلاح . وعند هذا الحد ينتهي دوره .. إن المدلول الصحيح للنص لايقبل البطلان أو الرفض بحكم من هذا العقل . فهذا النص من عند الله والعقل ليس له أن يحكم بالصحة أو البطلان ، وبالقبول أو الرفض لما جاء من عند الله .

وعند هذه النقطة الدقيقة يقع خلط كثير .. سواء ممن يريدون تأليه العقل البشري فيجعلونه هو الحكم في صحة أو بطلان المقررات الدينية الصحيحة .. أو من يريدون إلغاء العقل ، ونفي دوره في الإيمان والهدى .. والطريق الوسط الصحيح هو الذي بيناه هنا .. من أن الرسالة تخاطب العقل ليدرك مقرراتها ؛ وترسم له المنهج الصحيح للنظر في هذه المقررات ، وفي شؤون الحياة كلها . فإذا أدرك مقرراتها – أي إذا فهم ماذا يعني النص – لم يعد أمامه إلا التصديق والطاعة والتنفيذ ..

والمنهج الصحيح في التلقي عن الله ، هو ألا يواجه العقل مقررات الدين الصحيحة – بعد أن يدرك المقصود بها – بمقررات له سابقة عليها ، كَوَّنها .. لنفسه من مقولاته « المنطقية » ! أو من ملاحظاته المحدودة ؛ أو من تجاربه الناقصة .. إنما المنهج الصحيح أن يتلقى النصوص الصحيحة ، ويكوِّن منها مقرراته هو ! فهي أصح من مقرراته الذاتية ؛ ومنهجها أقوم من منهجه الذاتي – قبل أن يضبط بموازين النظر الدينية الصحيحة – ومن ثَمَّ لايحاكم العقل مقررات الدين – متى صح عنده أنها من الله – إلى أية مقررات أخرى من صنعه الخاص !

.. إن العقل ليس إلهاً ، ليحاكم بمقرراته الخاصة مقررات الله .. إن له أن يعارض مفهوماً عقلياً بشرياً للنص بمفهوم عقلي بشري آخر له .. هذا مجاله ، ولا حرج عليه في هذا ولا حجر ، ما دام هناك من الأصول الصحيحة مجال للتأويل والأفهام المتعددة . وحرية النظر – على أصوله الصحيحة وبالضوابط التي يقررها الدين نفسه – مكفولة للعقول البشرية في هذا المجال الواسع . وليس هنالك من هيئة ، ولا سلطة ، ولا شخص ، يملك الحجر على العقول ، في إدراك المقصود بالنص الصحيح وأوجه

تطبيقه - متى كان قابلاً لأوجه الرأي المتعددة ، ومتى كان النظر في حدود الضوابط الصحيحة والمنهج الصحيح ، المأخوذ من مقررات الدين - وهذا كذلك معنى أن هذه الرسالة تخاطب العقل .. إن الإسلام دين العقل .. نعم .. بمعنى أنه يخاطب العقل بقضاياه ومقرراته . ويخاطب العقل بمعنى أنه يصحح له منهج النظر ويدعوه إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان والأنفس والآفاق ، ليرفع عن الفطرة ركام الإلف والعادة والبلادة ؛ وركام الشهوات المضلة للعقل والفطرة . ويخاطب العقل بمعنى أنه يَكِل إليه فهم مدلولات النصوص التي تحمل مقرراته ،.. فإذا وصل إلى مرحلة إدراك المدلولات وفهم المقررات لم يعد أمامه إلا التسليم بها فهو مؤمن ، أو عدم التسليم بها فهو كافر .. وليس هو حكمًا في صحتها أو بطلانها .. وليس هو مأذوناً في قبولها أو رفضها ، كما يقول من يبتغون أن يجعلوا من هذا العقل إلهاً ، يقبل من المقررات الدينية الصحيحة ما يقبل ، ويرفض منها ما يرفض ، ويختار منها ما يشاء ، ويترك منها ما يشاء .. فهذا هو الذي يقول الله عنه : ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟** ﴾ ويرتب عليه صفة الكفر ، ويرتب عليه كذلك العقاب .. فإذا قرر الله - سبحانه - حقيقة في أمر الكون ، أو أمر الإنسان ، أو أمر الخلائق الأخرى . أو قرر أمراً في الفرائض ، أو في النواهي .. فهذا الذي قرره الله واجب القبول والطاعة ممن يبلغ إليه . متى أدرك المدلول المراد منه ..

إذا قال الله سبحانه ﴿ **الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن** ﴾ .. ﴿ **أو لم يرَ الذين كفروا أن السمٰوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي** ﴾ .. ﴿ **والله خلق كل دابة من ماء** ﴾ .. ﴿ **خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجانَّ من مارجٍ من نار** ﴾ .. إلى آخر ما قال - سبحانه - عن طبيعة الكون والكائنات والأحياء والأشياء .. فالحق هو ما قال . وليس للعقل أن يقول - بعد أن يفهم مدلول النصوص والمقررات التي تنشئها - إنني لا أجد هذا في مقرراتي ، أو في عملي ، أو في تجاربي .. فكل ما يبلغه العقل في هذا مُعرَّض للخطأ والصواب . وما قرره الله - سبحانه - لايحتمل إلا الحق والصواب .

وإذا قال الله سبحانه : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ .. ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتَظلِمون ولا**

تُظلمون ﴾ .. ﴿ **وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى** ... ﴾ .. ﴿ **وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ ولا يبدين زينتهن** .. ﴾ .. إلى آخر ما قال في شأن منهج الحياة البشرية ، فالحق هو ما قال - سبحانه - وليس للعقل أن يقول : ولكنني أرى المصلحة في كذا وكذا مما يخالف عن أمر الله ، أو فيما لم يأذن به الله ولم يشرعه للناس .. فما يراه العقل مصلحة يحتمل الخطأ والصواب ، وتدفع إليه الشهوات والنزوات .. وما يقرره الله - سبحانه - لايحتمل إلا الصحة والصلاح .

وما قرره الله سبحانه من العقائد والتصورات ، أو من منهج الحياة ونظامها ، سواء في موقف العقل إزاءه .. متى صح النص ، وكان قطعي الدلالة ، ولم يوقت بوقت .. فليس للعقل أن يقول : آخذ في العقائد والشعائر التعبدية ؛ ولكني أرى أن الزمن قد تغير في منهج الحياة ونظامها .. فلو شاء الله أن يوقت مفعول النصوص لوقته . فما دام النص مطلقاً فإنه يستوي زمان نزوله وآخر الزمان .. احترازاً من الجرأة على الله ، ورمي علمه بالنقص والقصور - سبحانه وتعالى - عما يقولون علواً كبيراً .. إنما يكون الاجتهاد في تطبيق النص العام في الحالة الجزئية ؛ لا في قبول المبدأ العام أو رفضه ، تحت أي مقولة من مقولات العقل في جيل من الأجيال .

وليس في شيء من هذا الذي نقرره انتقاص من قيمة العقل ودوره في الحياة البشرية .. فإن المدى أمامه واسع في تطبيق النصوص على الحالات المتجددة - بعد أن ينضبط هو بمنهج النظر وموازينه المستقاة من دين الله وتعليمه الصحيح - والمدى أمامه أوسع في المعرفة بطبيعة هذا الكون وطاقاته وقواه ومُدّخراته ؛ وطبيعة الكائنات فيه والأحياء ، والانتفاع بما سخّر الله له من هذا الكون ومن هذه الكائنات فيه والأحياء ، وتنمية الحياة وتطويرها وترقيتها - في حدود منهج الله - لا كما تبتغي الشهوات والأهواء التي تضل العقل وتغطي الفطرة بالركام .

ونقف من هذه اللفتة : ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حُجّة بعد الرسل** ﴾ وقفة أخرى : نقف منها أمام التبعة العظيمة الملقاة على الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - ومن بعدهم المؤمنين برسالاتهم - تجاه البشرية كلها .. وهي تبعة ثقيلة بمقدار ما هي عظيمة .. إن مصائر البشرية كلها في الدنيا وفي الآخرة سواء ، منوطة بالرسل وبأتباعهم من بعدهم . فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشرية ، تقوم سعادة هؤلاء البشر أو شقوتهم ، ويترتب ثوابهم أو عقابهم .. في الدنيا والآخرة .

إنه أمر هائل عظيم .. ولكنه كذلك .. ومن ثم كان الرسل - صلوات الله عليهم - يحسون بجسامة ما يكلفون . وكان الله - سبحانه - يبصرهم بحقيقة العبء الذي ينوطه بهم .. وهذا هو الذي يقول الله عنه لنبيه : ﴿ **إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً** ﴾ .. ويعلمه كيف يتهيأ له ويستعد : ﴿ **يأيها المزمل قم الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً .. إنا سنلقي عليك قولا ثقيلاً** ﴾ .. ﴿ **إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً** ﴾ .. وهذا هو الذي يُشعر به نبيه ﷺ وهو يأمر أن يقول وأن يستشعر حقيقة ما يقول : ﴿ **قل : إني لن يجيرني من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتحداً .. إلا بلاغاً من الله ورسالاته** ﴾ ... ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً .. ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم . وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً** ﴾ .

إنه الأمر الهائل العظيم .. أمر رقاب الناس .. أمر حياتهم ومماتهم .. أمر سعادتهم وشقائهم .. أمر ثوابهم وعقابهم .. أمر هذه البشرية ، التي إما أن تبلغ إليها الرسالة فتقبلها وتتبعها فتسعد في الدنيا والآخرة . وإما أن تبلغ إليها فترفضها وتنبذها فتشقى في الدنيا والآخرة . وإما ألا تبلغ إليها فتكون لها حجة على ربها ، وتكون تبعة شقائها في الدنيا وضلالها معلقة بعنق من كلف التبليغ فلم يبلغ ! .

فأما رسل الله - عليهم الصلاة والسلام - فقد أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة ، وأفضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل .. وهم لم يبلغوها دعوة باللسان ، ولكن بلغوها - مع هذا - قدوة ممثلة في العمل ، وجهاداً مضنياً بالليل والنهار لإزالة العقبات والعوائق .. سواء كانت هذه العقبات والعوائق شبهات تحاك ، وضلالات تزيّن ، أو كانت قوى طاغية تصد الناس عن الدعوة وتفتنهم في الدين . كما صنع رسول الله ﷺ خاتم النبيين . بما أنه المبلغ الأخير .وبما أن رسالته هي خاتمة الرسالات . فلم يكتف بإزالة العوائق باللسان . إنما أزالها كذلك بالسنان ﴿ **حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله** ﴾ .. وبقي الواجب الثقيل على من بعده .. على المؤمنين برسالته .. فهناك أجيال وراء أجيال جاءت وتجيء بعده ﷺ وتبليغ هذه الأجيال منوط - بعده - بأتباعه . ولا فكاك لهم من التبعة الثقيلة - تبعة إقامة حجة الله على الناس ، وتبعة استنقاذ الناس من

عذاب الآخرة وشقوة الدنيا – إلا بالتبليغ والأداء .. على ذات المنهج الذي بَلّغ به رسول الله ﷺ وأدى .. فالرسالة هي الرسالة ؛ والناس هم الناس .. وهناك ضلالات وأهواء وشبهات وشهوات .. وهناك قوى عاتية طاغية تقوم دون الناس ودون الدعوة ، وتفتنهم كذلك عن دينهم بالتضليل وبالقوة .. الموقف هو الموقف ؛ والعقبات هي العقبات ، والناس هم الناس . ولابد من بلاغ ، ولا بد من أداء . بلاغ بالبيان . وبلاغ بالعمل حتى يكون المبلغون ترجمة حية واقعة مما يبلغون . وبلاغ بإزالة العقبات التي تعترض طريق الدعوة ؛ وتفتن الناس بالباطل وبالقوة .. وإلا فلا بلاغ ولا أداء .. إنه الأمر المفروض الذي لاحيلة في النكوص عن حمله .. وإلا فهي التبعة الثقيلة . تبعة ضلال البشرية كلها ، وشقوتها في هذه الدنيا ، وعدم قيام حجة الله عليها في الآخرة ، وحمل التبعة في هذا كله وعدم النجاة من النار ..

فمن ذا الذي يستهين بهذه التبعة ؟ وهي تبعة تقصم الظهر وترعد الفرائص وتهز المفاصل ؟! . إن الذي يقول : إنه « مسلم » إما أن يبلّغ ويؤدي هكذا بقدر ما يستطيع . وإلا فلا نجاة له في دنيا ولا في أخرى (إلا أن يشاء الله) .. إنه حين يقول : إنه « مسلم » ثم لا يبلغ ولا يؤدي .. كل ألوان البلاغ والأداء هذه ، إنما يؤدي شهادة ضد الإسلام الذي يدّعيه ! بدلاً من أداء شهادة له ، تحقق فيه قوله تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ .

وتبدأ شهادته للإسلام ، من أن يكون هو بذاته ببيته وعائلته، ثم بأسرته وعشيرته ، صورة واقعية من الإسلام الذي يدعو إليه .. وتخطو شهادته الخطوة الثانية بقيامه بدعوة الأمة – بعد دعوة البيت والأسرة والعشيرة – إلى تحقيق الإسلام في حياتها كلها .. الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ... وتنتهي شهادته بالجهاد لإزالة العوائق التي تضل الناس وتفتنهم من أي لون كانت هذه العوائق .. فإذا استشهد في هذا فهو إذن « شهيد » أدى شهادته لدينه ، ومضى إلى ربه .. وهذا وحده هو «الشهيد » .

وفي نهاية المطاف نقف وقفة خاشعة أمام جلال الله وعظمته ؛ ممثلة في علمه ، وعدله ، ورعايته ، وفضله ، ورحمته ، وبرّه ، بهذا الكائن الإنساني الذي يجحد ويطغى ..

نقف أمام عظمة العلم بهذا الكائن ؛ وما أودعه من القوى والطاقات ، وما ركب في كينونته من استعدادات الهدى والضلال . وما رتبه على هذا العلم حين لم يكله إلى عقله

وحده .. على عظمة هذه الأداة التي وهبها له ؛ وعلى كثرة ما في الأنفس والآفاق من دلائل الهدى وموجبات الإيمان .. فلقد علم الله أن هذه الأداة العظيمة تنوشها الشهوات والنزوات ؛ وأن الدلائل المبثوثة في تضاعيف الكون وأطواء النفس قد يحجبها الغرض والهوى ، ويحجبها الجهل والقصور .. ومن ثم لم يكل إلى العقل البشري تبعة الهدى والضلال - إلا بعد الرسالة والبيان - ولم يكل إليه بعد البيان والاهتداء وضع منهج الحياة ، إنما وكل إليه تطبيق منهج الحياة الذي يقرره له الله .. ثم ترك له ما وراء ذلك - وهو ملك عريض - يبدع فيه ما شاء ، ويغير فيه ما يشاء ، ويركب فيه ما يشاء ، منتفعاً بتسخير الله لهذا الملك كله لهذا الإنسان وهو الذي يخطىء عقله ويصيب وتعثر قدمه وتستقيم على الطريق ! .

ونقف أمام عظمة العدل الذي يرتب للناس حجة على الله - سبحانه - لو لم يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين . هذا مع احتشاد كتاب الكون المفتوح ، وكتاب النفس المكنون بالآيات الشواهد على الخالق ، ووحدانيته ، وتدبيره وتقديره ، وقدرته وعلمه .. ومع امتلاء الفطرة بالأشواق إلى الاتصال ببارئها والإذعان له ، والتناسق والتجاوب والتجاذب بينها وبين دلائل وجود الخالق في الكون والنفس .. ومع هبة العقل الذي يملك أن يحصي الشواهد ويستنبط النتائج .. ولكن الله - سبحانه - بما يعلم من عوامل الضعف التي تطرأ على هذه القوى كلها ، فتعطلها ، أو تفسدها ، أو تطمسها ، أو تدخل في حكمها الخطأ والشطط ، قد أعفى الناس من حجية الكون ، وحجية الفطرة ، وحجية العقل ، مالم يرسل إليهم الرسل ليستنقذوا هذه الأجهزة كلها مما قد يرين عليها ، وليضبطوا بموازين الحق الإلهي الممثل في الرسالة ، هذه الأجهزة ، فتصح أحكامها حين تستقيم على ضوابط المنهج الإلهي .. وعندئذ فقط يلزمها الإقرار والطاعة والاتباع ، أو تسقط حجتها وتستحق العقاب .

ونقف أمام عظمة الرعاية والفضل والرحمة والبر بهذا المخلوق الذي يكرمه الله ويختاره على ما يعلم به من ضعف ونقص ، فيكل إليه هذا الملك العريض .. خلافة الأرض .. وهو بالقياس إليه ملك عريض ! وإن كان في ملك الله ذرة تمسكها يد الله فلا تضيع في ملكه الكبير . ثم تشاء رعايته وفضله ورحمته وبره ، ألا تدعه لما أودع في كينونته من فطرة هادية ولكنها تطمس ، ومن عقل هاد ولكنه يضل ، بل يتفضل عليه ربه فيرسل إليه الرسل تترى .. وهو يكذب ويعاند ، ويشرد وينأى ، فلا يأخذه ربه بأخطائه وخطاياه ، ولا يحبس عنه بره وعطاياه ، ولا يحرمه هداه على أيدي رسله الهداة .. ثم لا

يأخذه بالعقاب في الدنيا أو في الآخرة حتى تبلغه الرسل ، فيعرض ويكفر ، ويموت وهو كافر لايتوب ولا ينيب ..

ومن عجب أن يأتي على هذا الإنسان زمان يزعم لنفسه أنه استغنى عن ربه .. استغنى عن رعايته وفضله ورحمته وبره .. استغنى عن هدايته ودينه ورسله .. استغنى بالأداة التي علم ربه أنها لاتغنيه – مالم تقوّم بمنهج الله – فلم يكتب عليه عقاباً إلا بعد الرسالة والبيان .. فيتمثل لنا الطفل الذي يحس ببعض القوة في ساقيه فيروح يبعد عنه اليد التي تسنده ، ليتكفأ ويتعثر ! غير أن الطفل في هذا المثال أرشد وأطوع للفطرة . إذ إنه بمحاولة الاستقلال عن اليد التي تسنده يجيب داعي الفطرة في استحثاث طاقات كامنة في كيانه ؛ وإنماء قدرات ممكنة النماء ؛ وتدريب عضلات وأعصاب تنمو وتقوى بالتدريب .. أما إنسان اليوم الذي يبعد عنه يد الله ويتنكب هداه ، فإن كينونته – بكل مايكمن فيها من قوى – يعلم الله أنها لا تشتمل على قوة مكنونة تملك الاستغناء عن يد الله وهداه . وقصارى ما في قواه أنها ترشد وتضبط وتستقيم برسالة الله . وتضل وتختل وتضطرب إذا هي استقلت بنفسها ، وتنكبت هداه ! وخطأ وضلال – إن لم يكن هو الخداع والتضليل – كل زعم يقول : إن العقول الكبيرة كانت حَرِية أن تبلغ بدون الرسالة ما بلغته بالرسالة .. فالعقل ينضبط – مع الرسالة – بمنهج النظر الصحيح ؛ فإذا أخطأ بعد ذلك في التطبيق كان خطؤه كخطأ الساعة التي تضبط ، ثم تغلبها عوامل الجو والمؤثرات ، وطبيعة معدنها الذي يتأثر بهذه المؤثرات ، لا كخطأ الساعة التي لم تضبط أصلاً ، وتركت للفوضى والمصادفة : وشتان شتان ! .

وآية ما يتم بالرسالة – عن طريق العقل نفسه – لايمكن أن يتم بغيرها ؛ فلا يغني العقل البشري عنها .. إن تاريخ البشرية لم يسجل أن عقلاً واحداً من العقول الكبيرة النادرة اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول العادية المتوسطة بالرسالة .. لافي تصور اعتقادي ، ولا في خلق نفسي ، ولا في نظام حياة ؛ ولا في تشريع واحد لهذا النظام .

إن عقلي أفلاطون وأرسطو من العقول الكبيرة قطعاً .. بل إنهم ليقولون : إن عقل أرسطو هو أكبر عقل عرفته البشرية – بعيداً عن رسالة الله وهداه – فإذا نحن راجعنا تصوره لإلهه – كما وصفه – رأينا المسافة الهائلة التي تفصله عن تصور المسلم العادي لإلهه مهتدياً بهدى الرسالة .

وقد وصل أخناتون – في مصر القديمة – إلى عقيدة التوحيد – وحتى مع استبعاد

تأثره في هذا بإشعاع عقيدة التوحيد في رسالة إبراهيم ورسالة يوسف - فإن الفجوات والأساطير التي في عقيدة أخناتون - كما نقلت لنا - تجعل المسافة بينها وبين التوحيد المسلم العادي لإلهه بعيدة بعيدة .

وفي الخُلق نجد في الفترة التي هيمن فيها الإسلام في صدر الإسلام نماذج للأوساط ممن رباهم الرسول ﷺ لاتتطاول إليها أعناق الأفذاذ على مدار التاريخ ممن لم تخرجهم رسالة سماوية .

وفي المبادىء والنظم والتشريعات لانجد أبداً ذلك التناسق والتوزان ، مع السمو والرفعة التي نجدها في نظام الإسلام ومبادئه وتشريعاته . ولا نجد أبداً ذلك المجتمع الذي أنشأه الإسلام يتكرر لا في زمانه ولا قبل زمانه ولا بعد زمانه في أرض أخرى ، بتوازنه وتناسقه ويسر حياته وتناغمها ..

إنه ليس المستوى الحضاري المادي هو الذي يكون عليه الحكم . فالحضارة المادية تنمو بنمو وسائلها التي ينشئها « العلم » الصاعد .. ولكن ميزة الحياة في فترة من الفترات هو التناسق والتوازن بين جميع أجزائها وأجهزتها وأوضاعها .. هو التوازن الذي ينشىء السعادة والطمأنينة ، والذي يطلق الطاقات الإنسانية كلها لتعمل دون كبت ودون مغالاة في جانب من جوانبها الكثيرة .. والفترة التي عاشت بالإسلام كاملاً لم تبلغها البشرية - بعيداً عن الرسالة - في أي عصر .. والخلخلة وعدم الاتزان هو الطابع الدائم للحياة في غير ظل الإسلام ؛ مهما التمعت بعض الجوانب ؛ ومهما تضخمت بعض الجوانب . فإنما تلتمع لتنطفىء جوانب أخرى ، وإنما تتضخم على حساب الجوانب الأخرى .. والبشرية معها تتأرجح وتختار وتشقى .

المقطع الثاني عشر

ويمتد من الآية (١٧١) إلى نهاية الآية (١٧٣) وهذا هو :

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ

فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾

كلمة في هذا المقطع :

في السورة التي ترسم طريق التقوى للناس جميعاً ، وتبيّن لهم ماهيتها . يأتي فيها هذا المقطع خاصاً بأهل الكتاب ، يدعوهم فيه إلى الإيمان ، والعمل الصالح ، وترك ما يتنافى مع عبادة الله والعبودية له وصلة ذلك بمحور السورة الذي يدعو للعبادة والتوحيد والإيمان ، والعمل الصالح لاتخفى .

فقد رأينا في هذه السورة مقاطع مُوجّهة للناس كلهم ، ورأينا فيها مقاطع موجهة للمؤمنين . وهذا المقطع موجه لأهل الكتاب خاصة ، كي يحرروا العبادة لله عقيدة وسلوكاً ليكونوا من المتقين . وهذا الخطاب خاص بالنصارى ، وقد رأينا من قبل كيف خوطب اليهود في المقطع العاشر .

المعنى العام :

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء ، وهذا كثير في النصارى ، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسىٰ حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها ، فنقلوه من حيِّز النّبوة إلى أن

اتخذوه إلهاً من دون الله ، يعبدونه كما يعبدون الله . بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه فادّعوا فيهم العصمة كما يعتقدون ذلك في البابا . فاتّبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً أو ضلالاً أو رشاداً ، فنهاهم عن الغلو في دينهم ، ثم نهاهم أن يفتروا على الله ، وأن يجعلوا له صاحبة أو ولداً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وتنزّه وتقدس ، وتوحّد في سؤدده وكبريائه ، وعظمته ، فلا إله إلا هو ، ولا رب سواه . وإذ كان من أعظم ما وقع من غلو ما ادعاه النصارى أن المسيح هو الله أو ابن الله - تعالى الله عن ذلك - فقد قرّر الله في شأن المسيح أنه عبد من عباده ، وخلق من خلقه ، قال له : كن فكان ، ورسول من رسله ، وكلمة ألقاها إلى مريم ، أي: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن الله فكان عيسى بإذنه - عز وجل - وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها ، ونزلت حتى ركبت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم ، والجميع مخلوق لله تعالى ، ولهذا قيل لعيسىٰ إنه كلمة الله وروح منه ، لأنه لم يكن له أب تولّد منه ، وإنما هو ناشىء عن الكلمة التي قال له بها كن فكان ، والرّوح التي أرسل بها جبريل . وبعد أن قرّر حقيقة عيسىٰ نهاهم أن يجعلوا عيسىٰ وأمه - أو ما يسمونه الروح القدس - مع الله شريكين ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وهذا نهي عن التثليث ، وهو نهي لكل فرق النصارى عن ضلالهم في هذا الشأن ، لأنَّ فرق النصّارى بعدما فني أهل التوحيد الخالص منهم كلها تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح ، ويختلفون في كيفية ذلك ، وفي اللاهوت والناسوت في زعمهم هل اتحدا أو ما اتحدا ، أو امتزجا ، أو حلّ فيه ، على ثلاث مقالات كلها كفر ، ولهذا أمرهم الله - عز وجل - أن ينتهوا عما هم فيه ، لأن انتهاءهم عما هم فيه ، فيه الخير لهم ، ثم قرّر الله وحدانيته ، ونزّه ذاته أن يكون له ولد وقرّر أن كل ما في السمٰوات والأرض ملكه وخلقه ، وجميع ما فيهما عبيده ، وهم تحت تدبيره وتصريفه ، وهو وكيل على كل شيء ، فكيف يكون له منهم صاحبة وولد ، وهو الحافظ والمدبِّر للجميع . ومن كان هذا شأنه ، لم يحتج إلى ولد يعينه . ثم بيّن أنه لا المسيح ، ولا الملائكة المقربون يستكبرون عن العبودية لله ، بل هي فخرهم وشرفهم ، وفيها أنسهم وشرفهم ، وكيف لايكونون كذلك وهم من أعرف خلق الله بجلال الله ، وما ينبغي لهذا الجلال . ثم بيَّن الله - عز وجل - أن من يستكبر عن عبادة الله ، وتوحيده ، فإن الله سيجمعهم إليه يوم القيامة ويفصل بينهم بحكمه العدل الذي لا يجور ، ولا يحيف ، وإنما يكون حكمه ضمن قاعدة هي : أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ، ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه ، وسعة رحمته وامتنانه . وأما الممتنعون

عن عبادة الله ، المستكبرون عنها ، فإن الله يعذبهم عذاباً أليمًا ، ولا يجدون من ينصرهم أو ينقذهم .

المعنى الحرفي :

﴿ **ياأهل الكتاب لاتغلوا في دينكم** ﴾ . أي : لاتجاوزوا الحدّ فيه ، وكمثال على الغلوّ غلوُّ يهود في حطِّ المسيح عن منزلته ، حتى قالوا : إنه ابن زناً ، وغلوُّ النصّارى في رفعه عن مقداره حيث جعلوه ابن الله . والغلوُّ باب واسع يدخل فيه أشياء كثيرة من قضايا العقائد إلى العبادات إلى غير ذلك . ﴿ **ولا تقولوا على الله إلا الحق** ﴾ . أي : لاتصفوه إلا بصفاته العليا ، وأسمائه الحسنى ، وإلا بما يليق به من الحق ، فلا تجعلوا له صاحبة ولا ولداً ، أو غير ذلك مما لايليق به . وفي هذا السياق يقرّر حقيقة المسيح التي غلا فيها من غلا . ﴿ **إنمّا المسيح عيسىٰ ابن مريم رسول الله** ﴾ فليس ابناً لله ولا هو ربٌّ ، وإنما رسول الله كبقيّة رسله ﴿ **وكلمته** ﴾ سماه الله - عز وجل - كلمته لأنه يهُتدىٰ به كما يهُتدىٰ بالكلام ، أو لأنه خُلق بالكلمة التي أُرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم ، فكأنه خُلق بكلمة الله المباشرة كن فكان ، ولم يخلق على حسب عالم الأسباب . قال شاذ بن يحيا : ليست الكلمة صارت عيسىٰ ، ولكن بالكلمة صار عيسىٰ ﴿ **ألقاها إلى مريم** ﴾ . أي : أوصلها إليها ، وحصّلها فيها ، جاء بها جبريل إلى مريم ، فنفخ فيها بإذن الله فكان عيسىٰ ﴿ **وروح منه** ﴾ . أي : روح مصدرها منه ، ومخلوقة من قِبَله بتخليقه وتكوينه ، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله كقوله تعالى في سورة الجاثية : ﴿ **وسخر لكم ما في السمٰوات وما في الأرض جميعاً منه** ﴾ . أي : من خلقه ومن عنده ، وليست من للتبعيض ، بل هي لابتداء الغاية . وسمِّي المسيح روحاً لأنه كان يحيي الموتى ، ويحيي موات القلوب بإذن الله، وبما آتاه الله ، وألقاه عليه من المحبة والجمال والجلال. ﴿**فآمنوا بالله ورسله**﴾ . أي : فصدّقوا بأن الله واحد أحد ، لا ولد له ولا صاحبة ، وآمنوا بكل رسل الله ، ومنهم عيسىٰ ومحمد والجميع عبيده ﴿ **ولا تقولوا ثلاثة** ﴾ . أي : ولا تقولوا الإله ثلاثة : أب وابن وروح القدس ﴿ **انتهوا خيراً لكم** ﴾ . أي : انتهوا عن التثليث يكن الانتهاء خيراً لكم ﴿ **إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد** ﴾ . أي : تعالى وتقدّس عن ذلك علوّاً كبيراً ، يُسبَّح تسبيحاً من أن يكون له ولد ، وأنى يكون له ولد ؟ .

﴿ **له ما في السمٰوات وما في الأرض** ﴾ هذا بيان لتنزهه ممّا نسب إليه بمعنى أنّ كل ما فيهما خلقه ، وملكه ، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه ، إذ البنّوة والملك لايجتمعان . على أن الجزء إنما يصح في الأجسام ، وتعالى الله - عز وجل - عن أن يكون جسماً . ﴿ **وكفى بالله وكيلًا** ﴾ . أي حافظاً ومدبراً لهما ولما فيهما . ومن عجز عن كفاية أمر احتاج إلى ولد يعينه ، أما الله فهو الذي يحتاج إليه كل شيء ، فأنّى يكون له ولد ؟ ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله** ﴾ . أي : لن يأنف من العبودية لله ﴿ **ولا الملائكة المقربون** ﴾ . أي : الكروبيون أي العرشيون الذين هم حول العرش ، وجبريل وميكائيل وإسرافيل ، ومن في طبقتهم . والمعنى ولا الملائكة المقربون يأنفون أن يكونوا عباداً لله ، وفي ذلك ردٌّ على النصّارى ومَن عَبَدَ الملائكة من العرب . ﴿ **ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر** ﴾ . أي : ومن يترفّع عن عبادة الله ، ويطلب الكبرياء ﴿ **فسيحشرهم إليه جميعاً** ﴾ فيجازيهم على استنكافهم واستكبارهم . ثم فصَّل المجازاة فقال : ﴿ **فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم** ﴾ . أي : فيعطيهم ثواب أعمالهم ﴿ **ويزيدهم من فضله** ﴾ . أي : ويعطيهم زيادة على ذلك من إحسانه وسعة رحمته ، وامتنانه ﴿ **وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذّبهم عذاباً أليمًا ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولانصيراً** ﴾ وقد فصّل الله - عز وجل - في ذلك حال المتكبرين عن عبادته ، وحال العابدين مع أن المذكور أحد الفريقين . وسبب ذلك أنّ ذكر أحد الفريقين يدل على ذكر الثاني ، وأن ذكر الإحسان إلى النوع الثاني مما يفهم ، فكان داخلاً في جملة التنكيل بهم ، فكأنه قيل : ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيعذب عذابين : بالحسرة إذا رأى أجور العاملين ، وبما يصيبه من عذاب الله .

فصل في الأناجيل والتثليث :

الأناجيل التي تعترف بها الكنائس منذ زمن بعيد هي : إنجيل متّى ، وإنجيل مرقس ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا ، ولكنّ التاريخ يروي لنا أنه كانت في العصور الغابرة أناجيل أخرى قد أخذت بها فرق قديمة ، فعند كل من أصحاب مرقيون ، وأصحاب ديصان إنجيل يخالف بعضه الأناجيل ، ولأصحاب ماني إنجيل يخالف هذه الأربعة ، وهناك إنجيل اشتهر باسم التذكرة ، وإنجيل سرن تهس . ويذكر التاريخ أمراً أصدره البابا جلاسيوس الأول الذي ابتدأت بابويته سنة (٤٩٢) يعدِّد فيه أسماء الكتب المنهي عن مطالعتها وفي عدادها كتاب يسمّى إنجيل برنابا ،وكل هذه الأناجيل شيء،والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام شيء آخر ، فهذه قصة حياة فيها بعض الوحي قد اختلط بأشياء كثيرة؛ولذلك

فإن بعض المحققين من النصارى يقول : « قال اكهارن في كتابه : إنه كان في ابتداء الملة المسيحية في بيان أحوال المسيح رسالة مختصرة يجوز أن يقال : إنها الإنجيل الأصلي .. هذه ترجمة لما قاله نارتن كما نقله عنه الشيخ أبوزهرة، ونحن نجزم بإخبار الله لنا أن المسيح عليه الصلاة والسلام قد أنزل عليه كتاب هو الإنجيل،ولكن أين هو والكنيسة اعتمدت مالا يصلح للاعتماد،وقضت على كل مايخالفه، مع ملاحظة ما يقوله شارل جُنَيبير أستاذ الديانة المسيحية في جامعة باريس من كون العقلية التي سيطرت على النصارى في المراحل الأولى عقلية غير تحقيقية يقول : « فكل ما يمليه اتصال الواحد منهم اتصالاً خيالياً مباشرة بالروح القدس، يؤخذ قضية مسلمة وفرضاً ضرورياً على الجميع يؤمنون به إيماناً لا يعلو عليه ، بل لا يدانية إيمانهم بالواقع المباشر الذي يمليه التاريخ .

فتلك التعاليم مثلاً التي قال القديس بولس أن عيسىٰ أوحى بها إليه روحياً،كانت تبدو له أكثر ثقة ويقيناً من كل ما كان يحكيه له صاحبا المسيح : بطرس ويعقوب» هذا كلام بحاثة نصراني فليتصور القارىء أن المسيحية الحالية التي هي أثر من آثار بولس كلها أثر عن دعوى إنسان أن المسيح يتصل به بشكل روحي ، ويقول له كل شيء أما المسيحية كما ورثها تلاميذ المسيح وتلقوها منه مباشرة فقد انتهت .

ولننظر نظرة في الأناجيل الأربعة التي يعتمدها النصارى حالياً الإنجيل الأول إنجيل متى : وينسب إلى متى أحد تلاميذ المسيح المباشرين،وهناك خلاف كثير في سَنة تدوينه وأهمُّ من هذا أن الأصل ضائع،يقول صاحب ذخيرة الألباب من كتاب النصارى « إن القديس متى كتب إنجيله في السنة (٤١) للمسيح باللغة المتعارفة يومئذ في فلسطين وهي العبرانية أو السير وكلدانية،ثمَّ ما عتم هذا الإنجيل أن ترجم إلى اليونانية ، ثم تغلب استعمال الترجمة على الأصل الذي لعبت به أيدي النّساخ الأيونيين ومسخته، بحيث أضحى ذلك الأصل خاملاً بل فقيداً وذلك منذ القرن الحادي عشر » ومن هذه العبارة نفهم أن هناك اختلافاً كبيراً بين الأصل والترجمة حتى أتلف الأصل ، ولكن من هو المترجم وما هو العصر ؟ ويذكر سيف الدين فاضل في مقدمته لإنجيل برنابا أن هناك إنجيل متى الكاذب يبشر بما يبشر به إنجيل برنابا فهل هو الإنجيل الأصيل لمتى ؟ .

إنجيل مرقس : ومرقس لم يكن من الحواريين وإن كان من تلاميذ المسيح المباشرين، وقد جاء في كتاب مروج الأخبار في تراجم الأبرار وهو كتاب نصراني : أن مرقس كان ينكر ألوهية المسيح هو وأستاذه بطرس الحواري ، وقد جاء في ذلك الكتاب عن مرقس

« صنف إنجيله بطلب من أهالي رومية وكان ينكر ألوهية المسيح » وهناك خلاف كثير في زمن تأليفه . ويقول ابن البطريق :– من مؤرخي النصارى – « وفي عصر نارون قيصر كتب بطرس رئيس الحواريين إنجيل مرقس عن مرقس في مدينة رومية ونسبه إلى مرقس » . وهذا وحده كاف لزعزعة الثقة بالرواية فهل بطرس تتلمذ على مرقس ؟ وهناك روايات تقول : إن مرقس كتبه بعد وفاة بطرس وبولس وسنرى أن نسبة إنجيلي متى ومرقس لهما لاقيمة لها من الناحية التاريخية ؛ لأنه لايوجد سند صحيح ، ولا حسن ، ولا ضعيف ، ولا باطل إليهما ، فهي دعوى محض وإلا فما أسهل أن يقال : أملى مرقس إنجيله على فلان ، وفلان أملاه على غيره ، وعلى كل الأحوال فإن الشيخ رشيد رضا ينقل في مقدمته لإنجيل برنابا عن دائرة المعارف الفرنسية أن بولس هو الذي وضع إنجيلي مرقس ويوحنا ونسبهما إليهما ، وأما لوقا فمن تلاميذ بولس فهو ليس من تلاميذ المسيح ولا من تلاميذ تلاميذه أصلاً ، ولذلك فإن هذا الإنجيل يمثل مدرسة بولس التحريفية .

وأما إنجيل يوحنا ففيه دعاوى كثيرة ، ولقد جاء في دائرة المعارف البريطانية التي اشترك في تأليفها خمسمائة من علماء النصارى ما نصه : « أما إنجيل يوحنا فإنه لامرية ولا شك كتاب مُزوّر أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض وهما القديسان يوحنا ومتى ، وقد ادعى هذا الكاتب المزور في متن الكتاب أنه هو الحواري الذي يحبه المسيح فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علّاتها،وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري ووضعت اسمه على الكتاب نصاً مع أن صاحبه غير يوحنا يقيناً ، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه،وإنا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا–ولو بأوهى رابطة–ذلك الرجل الفلسفي الذي ألف هذا الكتاب في الجيل الثاني بالحواري يوحنا الصياد الجليل فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخبطهم على غير هدى » .

وقد قال جرجس زوين اللبناني فيما ترجمه :

« إن شيربنطوس وأبيسون وجماعتهما لما كانوا يعلّمون المسيحية بأن المسيح ليس إلا إنساناً ، وأنه لم يكن قبل أمه مريم فلذلك في سنة (٩٦) اجتمع عموم أساقفة آسيا وغيرهم عند يوحنا ، والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح وينادي بإنجيل مما لم يكتبه الإنجيليون الآخرون ، وأن يكتب بنوع خصوصي لاهوت المسيح » .

وقال يوسف الدبس الخوري في مقدمة تفسيره (من تحفة الجيل) :

« إن يوحنا صنّف إنجيله في آخر حياته بطلب من أساقفة كنائس آسيا وغيرها؛ والسبب أنه كانت هناك طوائف تنكر لاهوت المسيح فطلبوا منه إثباته وذكر ما أهمله متى ومرقس ولوقا في أناجيلهم » .

فالكتاب إذن كتب ليخدم غرض تأليه المسيح عليه السلام – وقد برأه الله مما قالوا –

ومع كل ما يقال عن هذه الأناجيل فإن أحداً لايستطيع أن يثبت بأي سند نسبتها إلى من نُسبت إليه ، ولذلك قلنا : إنها كلها لاتمثل إلا مدرسة واحدة هي مدرسة بولس التحريفية : فإنجيل لوقا لواحد من تلاميذه ، وإنجيلا يوحنا ومرقس منسوبان إليه ، وإنجيل متى ضائع والترجمة فيما يبدو ترجمة لمدرسة بولس فالمعروف أن متى بَشّر في الحبشة ، ومن المعروف أن النجاشيّ كان مُوحِّداً ، ويؤمن بأن عيسىٰ عبدالله فهذا يؤكد أن الإنجيل الأصلي لمتى ليس هو الموجود حالياً، فأي قيمة تاريخية لهذه الأناجيل خاصة وأن أول إشارة تاريخية لها كانت سنة (٢٠٩) ميلادية، فإذا عرفنا أنه قبل ذلك الوقت كانت هناك مئات من الفرق المسيحية، وكل فرقة لها رواياتها ، وإذا عرفنا أن هناك تناقضات تبلغ المائة بين هذه الأناجيل ، أثبتها جميعها رحمة الله بن خليل الهندي في كتابه العظيم « إظهار الحق » أدركتَ أنه لاقيمة تاريخية لهذه الأناجيل ولا قيمة إلهامية ، ومن ثَم فلا قيمة لِما تثبته أو تنفيه إلا إذا جاء شيء يرجح .

ومن أهم السقطات التي نجدها في بعض الأناجيل ادعاء بنوة المسيح لله ، وتأليهه ، وادعاء التثليث الذي انحدر إلى النصارى عن الوثنيين ، وهذه القضايا كلها ترفضها الواضحات من أدلة العقل، والواضحات مما يؤمنون به ، وجاء القرآن – المعجزة الخالدة – ليصحح « إنما الله إله واحد » .

يقول سيف الدين أحمد فاضل : « وقد وردت « لا إله إلا الله » في أسفار العهد القديم والجديد (الكتب التي يؤمن بها اليهود والمسيحيون حالياً) وأبين بعضها فيمايلي :

« لاتصنعوا لكم أوثاناً ولا تقيموا لكم تمثالاً منحوتاً أو نصباً ولا تجعلوا في أرضكم حجراً مصوراً لتسجدوا له . لأني أنا الرب إلهكم » (سفر اللاويين ٢٦ : ١) أي كل حجر مصور لايمكن أن يكون إلهاً بل هو وثن .

« الرب هو الإله ليس آخر سواه » (سفر التثنية ٥٤ : ٣٥) « إسمع ياإسرائيل

الرب إلهنا رب واحد . فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك » (سفر التثنية ٦ : ٤ ، ٥) أي : لاتحب إلا الرب بكل ما أعطيت . « فاعلم أن الرب إلهك هو الله الإله الأمين الحافظ العهد والإحسان للذين يحبونه » (سفر التثنية ٧ : ٩) . فالآن ياإسرائيل ماذا يطلب منك الرب إلهك إلا تتقي الرب إلهك لتسلك في كل طرقه وتحبه وتعبد الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك . (سفر التثنية ١٠ : ١٢) ، « الرب إلهك تتقي إياه تعبد » – أي: تعبده لاتعبد غيره – « وباسمه تحلف » (سفر التثنية ١٠ : ١٢) –أي: إذا حلفت فاحلف باسم الله – وفي سفر التثنية ١٣–٤ « وراء الرب إلهكم تسيرون وإياه تتقون ووصاياه تحفظون وإياه تعبدون » انظروا الرب إلهكم وراءه تسيرون وإياه تتقون ووصاياه تحفظون » .. « وإياه تعبدون » . « انظر الآن . أنا أنا هو وليس إله معي . أنا أميت وأحيي . سَحقتُ وإني أُشفي وليس من يدي مخلص» (سفر التثنية ٣٩٠٣٢) – وتعني ليس من يدي مخلص أي : لاشفيع ولا وكيل من دونه « ليس قدوس مثل الرب لأنه ليس غيرك » (سفر صموائيل الأول ٢ : ٣) « لاتحيدوا عن الرب بل اعبدوا الرب بكل قلوبكم . ولا تحيدوا . لأن ذلك وراء الأباطيل التي لاتفيد ولا تنقذ لأنها باطلة »(سفر صموائيل ١٢ : ٢٠ ، ٢١) .

« لذلك قد عظمت أيها الرب الإله لأنه ليس مثلك وليس إله غيرك » (سفر صموائيل الثاني ٧ : ٢٢) « أيها الرب إله إسرائيل ليس إله مثلك » (سفر الملوك الأول ٨ : ٣٣) ، « ليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله وليس آخر » (سفر الملوك الأول ٨ : ٦٠) « الرب هو الله الرب هو الله » (سفر الملوك الأول : ١٨ : ٣٩) ، « أصنام الأمم فضة وذهب عمل أيدي الناس . لها أفواه لا تتكلم . لها أعين لا تبصر . لها آذان ولا تسمع . كذلك ليس لها في أفواهها نفس . مثلها يكون صانعوها وكل من يتكل عليها . يا بيت إسرائيل باركوا الرب ... » (مزمور ١٣٥ : ١٥ – ٢٠) . « اتق الله واحفظ وصاياه لأن هذا هو الإنسان كله » (سفر الجامعة ١٢ : ١٣) – ويقصد بـ« الإنسان كله » ما وضحه سليمان عليه السلام من أن الإنسان باطل وكل ما تحت الشمس باطل في إصحاحات سفر الجامعة كلها – « أنا الرب هذا اسمي لا أعطيه لآخر » (سفر أشعياء ٤٢ : ٨) . « إني أنا هو . قبلي لم يصوّر إله وبعدي لا يكون . أنا أنا الرب وليس غيري مخلص » (سفر أشعياء ٤٣ : ١٠ ، ١١) ، « أنا الأول والآخرولا إله غيري » .. « ما أعلمتك منذ القديم وأخبرتك فأنتم شهودي . هل يوجد إله غيري » . (سفر أشعياء ٤٤ : ٨) « أنا الرب وليس آخر . لا إله سواي . نطَّقتك

وأنت لم تعرفني . لكي يعلموا من مشرق الشمس ومن مغربها أن ليس غيري . أنا الرب وليس آخر » . (سفر أشعياء ٤٥ : ٥ ، ٦) ، « أنا الرب وليس آخر » (سفر أشعياء ٤٥ : ١٨) ، « أليس أنا الرب ولا إله غيري ، إله بارّ ومخلص ليس سواي التفتوا إليَّ وأخلصوا يا جميع أقاصي الأرض لأني أنا الله وليس آخر » (سفر أشعياء ٤٥ : ٢١ ، ٢٢) ، « اذكروا الأوليات منذ القديم لأني أنا الله وليس آخر الإله وليس مثلي » (سفر أشعياء ٤٦ : ٩) ، « وإني أنا الرب إلهكم وليس غيري » ، (سفر يوئيل ٢ : ٧٢) .

وفي إنجيل مرقس يقول المسيح عليه السلام : « إن أول كل الوصايا هي اسمع يا إسرائيل . الرب إلّهنا رب واحد . وتحب الرب إلّهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك هذه هي الوصية الأولى » ، (إنجيل مرقس ١٢ : ٢٩ ، ٣٠) – فقال له الكاتب (وهو نيقود يموس على ما بينه إنجيل برنابا) – « بالحق قلت لأن الله واحد وليس آخر سواه » (إنجيل مرقس ١٢ : ٣٢) – فأعجب المسيح عليه السلام بردّه ، وقال له : « لست بعيداً عن ملكوت الله » ، (إنجيل مرقس ١٢ : ٣٤) .

فإذا كانت قضية التوحيد بمثل هذه الوضوح حتى فيما غيِّر وبدِّل من إرث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكيف يستسيغ عقل أن يقبل الشرك على أنه وحي ؟ ! .

فإذا قال العقل بعد ذلك كلمته في الرفض المطلق لأن يجمع بين التثليث والتوحيد ، وجاء مع ذلك كله النص القرآني المعجز ليقيم الحجّة ويهدي ويرشد ، فهل بقي أمام عاقل أن يختار إلا التوحيد والإسلام والإيمان بالقرآن ؟ !

فوائد :

١ – روى الإمام أحمد عن عمر رضي الله عنه « أنَ رسول الله ﷺ قال : لاتطروني كما أطرت النصارى عيسىٰ ابن مريم فإنما أنا عبد ، فقولوا عبدالله ورسوله » وفي رواية : « إنما أنا عبدالله فقولوا : عبدالله ورسوله » . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أنّ رجلاً قال : يامحمد ، ياسيدنا وابن سيدنا ، وخيرنا وابن خيرنا ، فقال رسول الله : ﷺ . « أيها الناس عليكم بقولكم ، ولا يستهوينّكم الشيطان ، أنا محمد بن عبدالله ، عبدالله ورسوله ، والله ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل » .

٢ - روى البخاري عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسىٰ عبدالله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأنّ الجنة حقٌّ والنّار حقٌّ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » وزادت رواية في مسلم « من أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » .

٣ - استدل المعتزلة ومن تشبّث بتفضيل الملائكة على البشر بقوله تعالى : ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون** ﴾ إذ قالوا : إن الارتقاء يكون من الأدنىٰ إلى الأعلى فلما قال ﴿ **ولا الملائكة المقربون** ﴾ . أي : كأنه قال : ولا من أعلى منه قدراً ، وأعظم منه خطراً . قال النّسفي : والجواب أنّا نُسلِّم تفضيل الثاني على الأول ، ولكن هذا لايمس ما تنازعنا فيه ، لأن الآية تدل على أن الملائكة المقربين بأجمعهم أفضل من عيسىٰ ، ونحن نسلم بأن جميع الملائكة المقربين أفضل من رسول واحد من البشر . إلى هذا ذهب بعض أهل السنَّة ، ولأن المراد أن الملائكة مع ماهم من القدرة الفائقة قدرة البشر والعلوم اللوحية وتجردهم عن التولد الازدواجي رأساً لا يستنكفون عن عبادته ، فكيف بمن يتولد من آخر ، ولايقدر على ما يقدرون ، ولا يعلم مايعلمون ، وهذا لأن شِدّة البطش ، وسعة العلوم، وغرابة التكوّن، هي التي تورث الحمقى وَهْمَ الترفع عن العبودية . فالنصارى رأوا المسيح وُلد من غير أب ، وهو يبرىء الأكْمه والأبرص ، ويحيي الموتى ، وينبىء بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم ؛

فبرءوه من العبودية ، فقيل لهم : هذه الأوصاف في الملائكة أتمُّ منها في المسيح ، ومع هذا لم يستنكفوا عن العبودية ، فكيف المسيح !! والحاصل أن خواصّ البشر-وهم الأنبياء عليهم السلام أفضل من خواص الملائكة،وهم الرسل منهم كجبريل وميكائيل وملك الموت ونحوهم ، وخواص الملائكة أفضل من عوامِّ المؤمنين من البشر ، وعوام المؤمنين من البشر أفضل من عوام الملائكة . ودليلنا على تفضيل البشر على الملك ابتداء ، أنهم قهروا نوازع الهوى في ذات الله تعالى مع أنهم جبلوا عليها فضاهت الأنبياءُ عليهم السلام الملائكة عليهم السلام في العصمة ، وتفضّلوا عليهم في قهر البواعث النفسانية والدواعي الجسدية ، فكانت طاعتهم أشق لكونها مع الصوارف ، بخلاف طاعة الملائكة لأنهم جبلوا عليها ، فكانت أزيد ثواباً بالحديث » أقول : والمراد بعوام المسلمين أي: ما سوى الرسل من الصديقين والشهداء والصالحين وإلا فالملائكة بإجماع أفضل من فسقة المسلمين وجهلتهم .

كلمة في السياق :

لقد طالب هذا السياق أهل الكتاب بتوحيد الله ومعرفته ، وعبادته ، والعمل الصالح ، فدل ذلك على أن العبادة مجموعة أمور معرفة الله ، والإيمان به ، والعمل الصالح له ، وهذا أوان الانتقال إلى المقطع الثالث عشر في هذه السورة ، وهو المقطع الأخير ، وكما بدأ المقطع الأول بـ ﴿ **ياأيها الناس** ... ﴾ فإن المقطع الأخير مبدوء بـ ﴿ **ياأيها الناس** ﴾ . ولعلّه من المناسب قبل أن ننتقل إلى المقطع الأخير أن نشير إلى بعض المعاني :

إن الآيات الخمس التي جاءت بعد مقدمة سورة البقرة قد وردت فيها :

﴿ **اعبدوا ربكم** ﴾ ، ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً** ﴾ ، ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ ، ﴿ **وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات** ﴾ . ولو أنك تأملت المقطع الذي مرّ معنا لوجدته دعوة إلى التوحيد :

﴿ **ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد** ﴾ ودعوة إلى العبادة والعمل الصالح ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون** ﴾ ، ﴿ **فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله** ﴾ .

وهكذا نجد مواطأة كاملة للمعاني الموجودة في المحور مع توجه الخطاب لبعض الناس وهم أهل الكتاب . وأما صلة المقطع بما قبله مباشرة فواضحة ، فبعد أن دعا المقطع السابق في آيته الأخيرة الناس جميعاً للإيمان بالحق الذي بعث به محمد ﷺ ، توجه إلى أهل الكتاب بذلك ، والآن يعود الخطاب إلى الناس جميعاً بالإيمان بالله والاعتصام بالقرآن .

المقطع الثالث عشر وهو المقطع الأخير

يمتدّ هذا المقطع من الآية (١٧٤) إلى نهاية الآية (١٧٦) أي إلى نهاية السورة وهذا هو :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ

وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

كلمة في هذا المقطع :

بدأت السورة بمقطع مبدوء بـ (ياأيها الناس) وانتهت بمقطع مبدوء بـ (ياأيها الناس) ، ولقد رأينا أن محور سورة النساء هو الآيات الخمس الآتية بعد مقدمة سورة البقرة من تلك السورة والتي منها : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا** ﴾ وههنا يأتي المقطع ليقرر أن هذا القرآن برهان من الله ، وأنه نور مبين . وفي هذا السياق يبيّن لنا الله - عز وجل - الحكم في موضوع الكلالة ، وهو موضوع مرتبط بقضايا الميراث التي تعرض لها المقطع الأول من سورة النساء فكما بدأ المقطع الأول بـ (ياأيها الناس) وتحدث عن قضايا الميراث فكذلك هذا المقطع يبدأ بـ (ياأيها الناس) وفيه جواب على استفتاء في شأن صورة من صور الإرث .

المعنى العام للمقطع :

يقول الله تعالى مخاطباً جميع الناس ، ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم ، وهو الدليل القاطع للعذر ، والحجة المزيلة للشبهة ، وهو القرآن الذي هو الضياء الواضح على الحق كله في كل شئون الحياة ، فهو حق ، وفيه برهانه ودليله ، ثم بيّن تعالى أن الذين يجمعون بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم على ضوء كتاب الله هم الذين سيرحمهم الله ، ويدخلهم الجنة ، ويزيدهم ثوابا ومضاعفة ، ورَفعًا في درجاتهم من فضله عليهم ، وإحسانه إليهم ، ويهديهم إليه طريقاً واضحاً قواماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف . هذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة ،

وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات ، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات ، وفي الحديث : « القرآن صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين » . وبمناسبة كون هذا القرآن نوراً وضياءً فقد ختمت السورة بجواب استفتاء في قضية من قضايا الإرث ، ليعلم أن التقوى هي في طاعة الله في كل شأن ، والاستسلام لحكمه في كل قضية ، أما الاستفتاء فهو سؤال عن إرث من لا والد له ولا ولد ، وهو الكلالة ، فبيَّن الله - عز وجل - أنه إن مات امرؤ وليس له والد ولا ولد ، وله أخت فلها نصف التّركة ، فإن كان لمن يموت أختان ، فلهما الثلثان فريضة ، وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما . أما إذا كان الورثة للكلالة إخوة ذكوراً ونساءً ، فيعطىٰ الذكر مثل حظ الأنثيين . ثم بيَّن الله حكمة هذا البيان فقال : ﴿ **يبّين الله لكم أن تضلوا** ﴾ . أي : يوضّح لكم فرائضه ، ويحدُّ لكم حدوده ، ويبيِّن لكم شرائعه لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان . ثم يختم الله الآية والسورة بقوله ﴿ **والله بكل شىء عليم** ﴾ . أي : هو عالم بعواقب الأمور ، ومصالحها ، وما فيها من الخير لعباده .

المعنى الحرفي :

﴿ **يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم** ﴾ البرهان : هو الدليل القاطع للعذر والحجّة المزيلة للشبهة . وهل هو هنا الرسول محمد ﷺ الذي هو بصورته ومعناه ، وصفاته ، وخصائصه ، ومعجزاته برهان قاطع على أنه رسول الله ؟ أو المراد بالبرهان هنا القرآن الذي هو في خصائصه وصفاته وإعجازه وما فيه من المعجزات برهان على أنه من عند الله ، وبرهان على وجود الله ، وبرهان على رسالة محمد ﷺ ، قولان للمفسرين . ﴿ **وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً** ﴾ . أي : ضياء واضحاً يضيء لكم ، ويبيِّن لكم كل قضية ، فلا تبقىٰ أمام عقولكم ، ولا أمام قلوبكم ظلمة إلا أزالها ، وهو القرآن الذي يستضاء به في ظلمات الحيرة . ﴿ **فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به** ﴾ . أي : بالله أو بالقرآن ﴿ **فسيدخلهم في رحمة منه** ﴾ . أي : في جنته ﴿ **وفضل** ﴾ . أي : زيادة النعمة . ﴿ **ويهديهم إليه** ﴾ . أي : يرشدهم إلى الله أو إلى الفضل ﴿ **صراطاً مستقيمًا** ﴾ . أي : طريقاً لا عوج فيه ، والهداية إلى الصراط المستقيم جزاء الإيمان بالله ، والاعتصام بكتابه . ﴿ **يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة** ﴾ الكلالة : من لا والد له ولا ولد ﴿ **إن امرؤ هلك ليس له ولد** ﴾ الولد لفظ مشترك يقع على الذكر

والأنثى . ﴿ **وله أخت** ﴾ سواء كانت لأب وأم ، أو لأب فقط . ﴿ **فلها نصف ما ترك** ﴾ . أي : الميت ﴿ **وهو يرثها إن لم يكن لها ولد** ﴾ . أي : والأخ يرث الأخت جميع ما لها إن قُدِّر الأمر على العكس من موتها ، وبقائه بعدها . ﴿ **فإن كانتا اثنتين** ﴾ . أي : فإن كانت الأختان اثنتين ﴿ **فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء** ﴾ . أي وإن كان من يرث بالأُخُوَّة ذكوراً وإناثاً ، والمراد بالإخوة في النص الإخوة والأخوات ، والتذكير للتغليب ﴿ **فللذكر** ﴾ منهم ﴿ **مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا** ﴾ . أي : لئلا تضلوا . ﴿ **والله بكل شىء عليم** ﴾ يعلم الأشياء بكنهها قبل كونها وبعده ، فهو القادر على التبيان ، وقد فعل ، فما أعظم جرم من يترك بيانه إلى بيان غيره .

فوائد :

١ – روى البخاري عن البراء قال : آخر سورة نزلت براءة ، وآخر آية نزلت يستفتونك .. والمراد والله أعلم آخر آية نزلت في الميراث . وفي سبب نزولها قال جابر ابن عبد الله رضي الله عنه دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل ، قال : « فتوضّأ عليّ ، أو قال : صبّوا عليه فعقلت فقلت : إنه لا يرثني إلا كلالة ، فكيف الميراث ؟ فأنزل الله آية الفرائض » أخرجاه في الصحيحين ، وفي بعض الألفاظ فنزلت آية الميراث : ﴿ **يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة** ﴾ .

٢ – في موضوع الكلالة خلاف كثير ، وكان عمر يقول كما ثبت في الصحيحين : « ثلاث وددت أنّ رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه ، الجدّ ، والكلالة ، وباب من أبواب الربا » والذي قضى فيه أبوبكر أن الكلالة ما لا والد له ولا ولد ، وهو الذي عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة في قديم الزمان وحديثه ، وهو مذهب الأئمة الأربعة ، والفقهاء السبعة ، وقول علماء الأمصار قاطبة ، وهو الذي يدل عليه القرآن .

٣ – روى الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الكلالة فقال : يكفيك آية الصيف » وإسناده جيد . وآية الصيف آخر سورة النساء ، ويبدو أنها نزلت في فصل الصيف .

٤ – في صحيح البخاري : « سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة وابنة ابن وأخت

فقال للابنة النصف ، وللأخت النصف ، وائت ابن مسعود فسيتابعني . فسأل ابن مسعود فأخبره بقول أبي موسى الأشعري فقال : لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ النصف للبنت ، ولبنت الابن السدس تكملة الثلثين ، وما بقي فللأخت . فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال : لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم » .

وتفصيلات هذه القضايا في الكتب الموسعة في علم الميراث .

وبهذا ينتهي الكلام عن هذا المقطع ، وهو المقطع الأخير في سورة النّساء المؤلفة من ثلاثة عشر مقطعاً .

كلمة في المقاطع الثلاثة الأخيرة

يلاحظ أن المقطع الحادي عشر بدأ بقوله تعالى : ﴿ **إنا أوحينا إليك** ﴾ وانتهى بقوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم** ﴾ فالبداية والنهاية كانت في شأن الوحي والإيمان بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل من قبل .

ثم جاء المقطع الثاني عشر وخص أهل الكتاب بالدعوة إلى الحق ، ثم جاء المقطع الثالث عشر وفيه نداء للناس جميعاً ﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم ، برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به** ﴾ فهي عودة على موضوع الإيمان بالله والوحي فالمقاطع الثلاثة مترابطة مع بعضها وهي آتية بعد مقطعين دعوا إلى تثبيت الإيمان والتحرر من الكفر والنفاق ، فما بين المقطعين التاسع والعاشر . وما بين المقاطع الأخيرة صلات متشابكة ، ومن قبل ذلك جاء مقطع يدعو إلى إقامة العدل والحكم بالقرآن وذلك كله مترابط متشابك ، وهكذا نجد كيف أن كل مقطع شديد الصلة مع ما قبله وما بعده .

كلمة في سورة النساء وصلتها بمحورها من سورة البقرة :

قلنا من قبل : إن الآيات الخمس الآتية بعد مقدمة سورة البقرة هي محور سورة النساء ولو أننا أخذنا كل جزء من أجزاء الآيات الخمس ونظرنا إلى ما ورد تفصيلا له في سورة النساء لرأينا الكثير : ولنضرب أمثلة : بدأت الآيات الخمس بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ وقد ورد النداء ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ في سورة النساء ثلاث مرات : ﴿ **يا أيها**

الناس اتقوا ربكم ﴾ ، ﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم** ﴾ ، ﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم** ﴾ .

وجاء في الآيات الخمس قوله تعالى : ﴿ **اعبدوا ربكم** ﴾ ، ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً** ﴾ .

وجاء في سورة النساء : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً** ﴾ .
﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً** ﴾ . ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالًا بعيداً** ﴾ . ﴿ **إنما الله إله واحد** ﴾ . ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله** ﴾ .

وفي الآيات الخمس جاء قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ...** ﴾ .

وجاء في سورة النساء : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ . ﴿ **لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه** ﴾ .

﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً** ﴾ .

وفي الآيات الخمس جاء قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ .

وجاء في سورة النساء : ﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها** ﴾ . ﴿ **إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم** ﴾ .

وفي الآيات الخمس جاء قوله تعالى : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات ...** ﴾ .

وجاء في سورة النساء : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلًا ظليلًا** ﴾ .
﴿ **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً** ﴾
﴿ **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فسيدخلهم في رحمة منه وفضل** ﴾ .

وقد ذكرت الآيات الخمس الحكمة من الأمر بالعبادة وهي التقوى : ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ . والتقوى تنافي الكفر وتنافي النفاق .

وقد وصفت التقوى في أول سورة البقرة : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ .

وقد جاء مقطع كامل في سورة النساء حول طاعة الله والرسول ﷺ ، ثم جاء مقطع كامل آخر حول وجوب الحكم بما أنزل الله . كما وصف المتقون في سورة البقرة بقوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ .

وقد جاء أكثر من مقطع في سورة النساء يفصّل في قضايا الإيمان وفي القضايا التي تنافي الإيمان فجاء أكثر من مقطع يفصّل في الكفر والنفاق .

هذه إشارات سريعة في موضوع صلة سورة النساء بمحورها من سورة البقرة ولو أننا أردنا أن نتوسع لطال المقام .

كلمة في صلة سورة النساء بارتباطات محورها :

جاء بعد مقدمة سورة البقرة المقطع الذي أسميناه مقطع الطريقين وهو تسع آيات : خمس منها هي محور سورة النساء ، وثنتان منها هي محور سورة المائدة كما سنرى ، وثنتان منها هي محور سورة الأنعام كما سنرى ، وقد ختم مقطع الطريقين بقوله تعالى :

﴿ **وهو بكل شيء عليم** ﴾ . وقد ختمت سورة النساء بقوله تعالى : ﴿ **والله بكل شيء عليم** ﴾ . مما يوحي بأن لسورة النساء ارتباطات بتتمة مقطع الطريقين .

وفي الآيتين التاليتين للآيات الخمس الأولى من مقطع الطريقين جاء قوله تعالى :

﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ . وقد تحدثت سورة النساء عمن ينقض الميثاق وعن بعض المواثيق : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم** ﴾ ﴿ **وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** ﴾ .

وفي تلك الآيتين جاء قوله تعالى : ﴿ **ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ . وجاء في سورة النساء : ﴿ **واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام** ﴾ .

فسورة النساء تفصّل في محورها وفي ارتباطاته كذلك .

كلمة في سورة النساء وتفصيلها في امتدادات محورها :

قلنا : إن لكل سورة في القرآن محوراً من سورة البقرة ، وأي سورة في القرآن تفصل في هذا المحور وامتداداته من سورة البقرة فكأنها تجذب إلى هذا المحور ما هو الألصق به من المعاني ، ثم تفصل في الجميع وكل ذلك على نسق فريد عجيب . وقد رأينا كيف أن سورة آل عمران فصلت في معان في سورة البقرة هي امتدادات لمحورها :

فمن مقطع آدم في سورة البقرة أخذت ، ومن مقطع بني إسرائيل أخذت ، ومن مقطع إبراهيم أخذت ، ومن القسم الثاني من سورة البقرة أخذت ، ومن القسم الثالث أخذت . أخذت ما هو الألصق بمحورها وفصلته ، ولكن ضمن سياقها الخاص ، وهكذا فصّلت سورة النساء في محورها ، وفي ارتباطات هذا المحور ، وفي امتداداته بما أكملت به التفصيل الذي بدأته سورة آل عمران ، ووضعت الأساس الذي ستكمله سورتا المائدة والأنعام .

كلمة في نوعية تفصيل كل من سورة آل عمران والنساء :

في مقدمة سورة البقرة جاء وصف للمتقين والكافرين والمنافقين ، ومن تحقق بصفات المتقين تخلص بشكل تلقائي من صفات الكافرين والمنافقين ، ولذلك فقد جاءت سورة آل عمران وكأنها تفصيل لصفات المتقين فبدأت بـ : (الٓمٓ) وختمت بقوله تعالى ﴿ **تفلحون** ﴾ كما بدأت الآيات التي وصفت المتقين في سورة البقرة بـ : (الٓمٓ) وختمت بقوله تعالى ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

إنها جاءت تفصيلاً لمقدمة سورة البقرة بشكل ما فأدخلت فيها ما أدخلت .

ومن ثَمَّ فقد أصبح لمقدمة سورة البقرة تفصيلها الواسع في سورة آل عمران .

ضع هذه النقطة نصب عينيك وتابع :

جاءت معان معينة في مقدمة سورة البقرة بشكل مجمل وجاء مقطع الطريقين بعد ذلك ليفصل بشكل مجمل الطريق إلى التقوى ، والطريق إلى التحرر من الكفر والنفاق .

ولكن بسورة آل عمران فصلت المقدمة فاقتضى أن يفصل في الطريقين فجاءت سورة النساء لتفصل في الطريق للتحقق بالتقوى والإيمان والعمل الصالح بالمفهوم الأوسع على ضوء تفصيل آل عمران .

وستأتي سورتا المائدة وآل عمران لتفصلا بالمفهوم الأوسع للتحرر من الكفر والنفاق على ضوء ما سبق ذلك من تفصيل ، ولذلك نلاحظ أن معاني قد طرقتها سورة آل عمران قد جاءت بعد ذلك في سورة النّساء ، والتفصيل الذي سيكون في سورتي الأنعام والمائدة سيكون تفصيلاً على ضوء ما مرّ .

كلمة في غسيل الدماغ وغسيل القلب :

أصبح موضوع غسيل الدماغ علماً برعت فيه كل دوائر المخابرات في العالم ، حتى مخابرات الدول الديموقراطية أصبحت تستعمله بشكل خفي ، وقد حاولت دوائر تبشيرية أن تستعمله ، وإن اختلفت الوسائل . ومن الوسائل التي تستعملها بعض أجهزة المخابرات في موضوع غسيل المخ أن تضع الإنسان في ظروف نفسية وجسدية صعبة ، ثم تحاول أن تَسْخر من مبادئه وعقائده ، ثم تحاول أن تشككه فيها ، ثم تحاول أن تغرس فكرة ما في دماغه من خلال التّكرار مرّات ومرّات ؛ حتى تصبح الفكرة وكأنها جزء منه ، بحيث لو أراد أن يتحدث عما يخالفها لم يستطع ولدوائر المخابرات في هذا الموضوع أساليب وفنون وفي أكثر الأحيان - إن لم يكن في كلها - يجتمع في عملية غسيل الدماغ الوحشية مع الباطل مع الظلم ، حتى تصبح المسألة ظلمات فوق بعض .

هذا غسيل الدِّماغ أما غسيل القلب فذلك شيء آخر :

عندما تتراكم على فطرة الإنسان أنواع من الصدإ فكيف يتم الجلاء ؟

الجواب : أن الجلاء في القرآن .

لقد جاءت سورة البقرة فربّت على التقوى من خلال سياق .

وجاءت سورة آل عمران لتفصل في أساس التقوى ضمن سياق .

وجاءت سورة النساء لتفصل في ماهية التقوى ضمن سياق .

ثم تأتي سور القرآن وفي كل سورة يأتي جديد قديم فما إن يبدأ الإنسان يقرأ القرآن

حتى يغسل القرآن قلبه مرة بعد مرة ، وكل ذلك بالحق وللحق ، إذا أدركت هذه النقطة تكون قد أدركت حكمة من حكم التكرار ، والتفصيل في القرآن وتكون قد عرفت سبباً من أسباب كون القرآن على مثل هذا الترتيب .

فما أعظم كتاب الله ، إذ يذكِّرنا في سورة على طريقة وبأسلوب وتسلسل ، ثم يذكِّرنا في سورة أخرى على طريقة وبأسلوب وتسلسل ، ثم وثم ، فإذا وُجد القلب الذي يحسن التلقي عن الله ، فإنه لاينتهي من تلاوة كتاب الله مرة إلا وقد تحقق وتعلق ، ثم إذا كرّر زاد التحقق والتعلق حتى يخلص الإنسان لله وكتابه وشرعه ، فإذا رافق هذا عبادة وإقامة فرائض ونوافل ، كان غسيل القلب كاملاً ، وشتان بين غسيل القلب هذا ، وغسيل المخ عند الكافرين والظالمين ، ففي عملية غسيل المخ يوضع المعذَّب والضحية كرهاً في شروط دقيقة معينة من الخوف والجوع ، وتسلط عليه أنواع الهزء والسخرية فيما هو عليه ، ثم تكرر عليه بعض المعاني بأساليب متعددة ، وطرق متعددة ، ليقلع عما هو فيه ، ويُسَيَّر فيما يريده جلادوه . أما غسيل القلب ، فمنطلقه الاختيار ، وهدفه الارتقاء ، وظروفه الخوف والخشية ، وأدواته العبادة والصوم والذكر ، وزاده كتاب الله يصفي وينقي ، وشتان بين العدل والظلم ، والحرية والإكراه ، والخوف من الله ، والخوف من الجلادين ، والعبادة والسوط ، والمعاني السافلة الخسيسة ، وكتاب الله . وشتان بين ما يوصل إلى الجنة ، وما يوصل إلى النار ، وشتان بين الجنّة والنار .

تذكير أخير بين يدي سورتي المائدة والأنعام :

نستطيع أن نقول : إنه بعد مقدمة سورة البقرة جاء مقطع يتألف من ثلاثة أجزاء : الجزء الأول منه فصّلت فيه سورة النساء ، والجزء الثاني منه فصلت فيه سورة المائدة ، والجزء الثالث منه فصلت فيه سورة الأنعام ، وهذا هو المقطع بأجزائه الثلاثة :

١

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن
كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى
وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ
قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا
فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ
مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ
بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ
بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى
خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

إنّ الجزءالأول من هذا المقطع وهو الآيات الخمس الأولى فصلت فيه سورة النساء ولكن قوله تعالى من هذه الآيات الخمس ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ هو الذي أخذ الحيّز الأكبر من السورة . فالسورة وضّحت التقوى وما يدخل فيها ، في مقاطعها كلها . ولئن جاءت مقدمة سورة البقرة لتعرض صفات المتقين فههنا عرفنا التقوى من خلال الأمر والنهي ، وتأتي سورتا المائدة والأنعام لتفصّلا مالم يفصل في سورة النساء ، أو تقول : إن المقطع المشار إليه في سورة البقرة فيه ثلاثة موضوعات متداخلة مترابطة ، فجاءت سورة النساء لتفصل موضوعاً ، ثم سورة المائدة لتبين ما بعده ، ثم سورة الأنعام لتبين الموضوع الأخير . وللإشعار بالتداخل وبوحدة المقطع ، اجتمع في سورة النساء ما له صلة ببدايته وخاتمته .

وكما أنّ المقطع في سورة البقرة مرتبط بالمعاني الموجودة في مقدمتها لأنه يمثل الطريق إلى التحقق بصفات الفئة الأولى المذكورة فيها ، والتحرر من صفات الفئتين الأخيرتين . فسورة النساء هكذا . فالمعاني القرآنية يكمل بعضها بعضاً ، ويبني بعضها على بعض ، فالسورة تفصل في محور وفي روابط المحور وفي امتدادات المحور .

ومن كان يتابع ما كتبنا حتى الآن أصبح باستطاعته أن يدرك الشيء الرئيسي الذي نلحّ عليه في هذا التفسير ويدرك أنّنا على بصيرة في سيرنا بفضل الله عز وجل .

ونحن لانشك أن ما اتجهنا إليه في هذا التفسير في موضوع الوحدة القرآنية لازال غامضاً ، ولازالت أدلته غير واضحة ، ولكنا كذلك لانشك أن قارىء هذا التفسير من بدايته إلى نهايته سيتكامل معه صرح الأدلة حتى لايشك أبداً في صحة ما اتجهنا إليه إن شاء الله .

ونحب أن نستبق الأدلة فنقول : هل للصدفة محل في هذا الكون الذي هو صنع الله ؟ حتمًا الجواب لا :

هذا ما يقوله كل مؤمن ، وعندئذ يأتي السؤال الثاني : هل هناك شيء في هذا الكون ينفك عن الحكمة ؟ والجواب حتماً : لا فإذا كان الأمر هكذا بالنسبة للكون المخلوق ، فما بالك بالقرآن الذي هو كلام الله ، لا شك أن كل حرف في محله ، وأن كل كلمة في محلها وأن كل آية في محلها ، وأن كل سورة في محلها ، وأن كل شيء فيه في محله لفي غاية الحكمة ، والله وصف كتابه بالحكمة فهذا الكتاب الحكيم بكلّ ما فيه لا تنتهي

عجائبه .

إن إدراكنا لهذه البدهية ينبغي أن يكون قاطعاً للعجب في أن نحاول محاولتنا هذه التي يراها القارىء ؛ لأنها محاولة للإجابة على كثير من الأسئلة المرتبطة بحكمة الله في أن يجعل كتابه على ما هو عليه .

وسيرى القارىء كلما أوغلنا في هذا التفسير أن الأدلة ستتضافر لتأكد صحة ما اتجهنا إليه في موضوع الوحدة القرآنية وما عليه إلا أن يتابع وينصف .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

فهرس المجلد الثاني

☆ ☆ ☆